مختصر الميزان

في تفسير القرآن

إلياس كلانتري

المجلد الثالث

دار الأسوة للطباعة والنشر
ايران

مختصر الميزان

في تفسير القرآن

مختصر الميزان

في تفسير القرآن

المجلد الثالث

الياس كلانتري

دار الأسوة للطباعة والنشر
ايران

شبكة كتب الشيعة
shiabooks.net
mktba.net < رابط بديل

طباطبایی، محمد حسین، ۱۲۸۱-۱۳۶۰.
[المیزان فی تفسیر القرآن. برگزیده]
مختصر المیزان فی تفسیر القرآن / [محمدحسین الطباطبایی]؛ تألیف الیاس کلانتری. ـ تهران: سازمان اوقاف و امور خیریه، انتشارات أسوه، ۱۳۷۹.
۶ ج.
ISBN 964-6066-02-x (دوره)
(ج. ۲) 964-6066-04-6 ISBN — (ج. ۱) 964-6066-03-8 ISBN
(ج. ۴) 964-6066-06-2 ISBN — (ج. ۳) 964-6066-05-4 ISBN
(ج. ۶) 964-6066-08-9 ISBN — (ج. ۵) 964-6066-07-0 ISBN
فهرستنویسی بر اساس اطلاعات فیپا.
عربی.
تفاسیر شیعه ـ قرن ۱۴. الف. کلانتری، الیاس، ۱۳۳۰ ـ، خلاصه کننده. ب. سازمان اوقاف و امور خیریه. انتشارات أسوه. ج. عنوان. د. عنوان: المیزان فی تفسیر القرآن. برگزیده.
BP۹۸/ط۲۵م ۹۰۱۶ — ۲۹۷/۱۷۲۶
کتابخانه ملی ایران — ۵۸۷۹-۷۹م

۲۱۵۸۷

دار الأسوة للطباعة والنشر
ايران

مختصر الميزان في تفسير القرآن

إعداد: الياس كلانتري

الناشر: دار الأُسوة للطباعة والنشر (التابعة لمنظّمة الأوقاف والشؤون الخيرية)

الطبعة: الأولى

سنة النشر: ۱۴۲۱ هـ.ق.

عدد المطبوع: ۵۰۰۰ دورة

ثمن الدورة: ۱۵۰,۰۰۰ ريال

شابك ج۳: 964-6066-05-4 ISBN | شابك دوره: 964-6066-02-x ISBN

جميع الحقوق محفوظة للناشر

طهران: ص.ب. ۱۳۱۴۵/۶۸٤، هاتف ٦٤١٨٢٩٩ و٦٤١٨٠٩٩، فكس ٦٤١٨٠٢٢
قم: ص.ب. ۳۷۱۸۵/۳۹۹۹، هاتف ۵۵۰۸۰ و۵۲۲۱۲، فكس ٦١٧٧٥٧

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة يونس وهي مائة وتسع آيات

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

١ • آلر تِلْكَ آيَاتُ ٱلْكِتَابِ ٱلْحَكِيمِ.

٢ • أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ
وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ
ٱلْكَافِرُونَ إِنَّ هٰذا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ.

٣ • إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ
ثُمَّ ٱسْتَوىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ
إِذْنِهِ ذٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ.

٤ • إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً وَعْدَ ٱللَّهِ حَقّاً إِنَّهُ يَبْدَأُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ
لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ
كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ.

٥ • هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَٱلْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ

لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ ٱلآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ.

٦ ❁ إِنَّ فِي ٱخْتِلافِ ٱللَّيلِ وَالنَّهارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي السَّمٰوَاتِ وَٱلأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ.

٧ ❁ إِنَّ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيوٰةِ الدُّنْيا وَٱطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ.

٨ ❁ أُولٰئِكَ مَأْوِيهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ.

٩ ❁ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ ٱلأَنْهارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ.

١٠ ❁ دَعْواهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ وَآخِرُ دَعْواهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿آلر تِلْكَ آياتُ ٱلْكِتَابِ ٱلْحَكِيمِ﴾ الإشارة باللفظ الدال على البعد للدلالة على ارتفاع مكانة القرآن وعلو مقامه فإنه كلام الله النازل من عنده وهو العلي الأعلى رفيع الدرجات ذو العرش.

والآية ـ ومعناها العلامة ـ وإن كان من الجائز أن يسمى بها ما هو من قبيل المعاني او الأعيان الخارجية كما في قوله: ﴿أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني اسرائيل﴾ (الشعراء / ١٩٧) وفي قوله: ﴿وجعلناها وابنها آية للعالمين﴾ (الأنبياء / ٩١) وكذا ما هو من قبيل القول كما في قوله ظاهراً: ﴿وإذا بدّ لنا آية مكان آية﴾ (النحل / ١٠١) ونحو ذلك

لكن المراد بالآيات ههنا هي أجزاء الكلام الإلهي قطعاً فإن الكلام في الوحي النازل على النبي ﷺ وهو كلام متلو مقرو بأي معنى من المعاني صورنا نزول الوحي.

فالمراد بالآيات أجزاء الكتاب الإلهي، وتتعين في الجملة من جهة المقاطع التي تفصل الآيات بعضها من بعض مع إعانة ما من ذوق التفاهم، ولذلك ربما وقع الخلاف في عدد آيات بعض السور بين علماء الإحصاء كالكوفيين والبصريين وغيرهم.

والمراد بالكتاب الحكيم هو الكتاب الذي استقرت فيه الحكمة، وربما قيل: إن الحكيم من الفعيل بمعنى المفعول والمراد به المحكم غير القابل للانثلام والفساد، والكتاب الذي هذا شأنه ـ وقد وصفه تعالى في الآية التالية بأنه من الوحي ـ هو القرآن المنزل على النبي ﷺ.

قوله تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ﴾ الى آخر الآية؛ الاستفهام للإنكار فهو إنكار لتعجبهم من إيحاء الله الى رجل منهم ما اشتملت عليه الدعوة القرآنية.

وقوله: ﴿أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ﴾ الخ؛ تفسير لما أوحاه اليه، ويتبين به أن الذي ألقاه اليه من الوحي هو بالنسبة الى عامة الناس إنذار وبالنسبة الى الذين آمنوا منهم خاصة تبشير فهو لا محالة يضر الناس على بعض التقادير وهو تقدير الكفر والعصيان وينفعهم على تقدير الايمان والطاعة.

وقد فسّر البشرى الذي أمره أن يبشّر به المؤمنين بقوله: «أن لهم قدم صدق عند ربهم» والمراد بقدم الصدق هو المنزلة الصادقة كما يشير اليه قوله: ﴿في مقعد صدق عند مليك مقتدر﴾ (القمر / ٥٥) فإن الايمان لما استتبع الزلفى والمنزلة عند الله كان الصدق في الايمان يستتبع الصدق في المنزلة التي يستتبعها فلهم منزلة الصدق كما أن لهم إيمان الصدق.

فإطلاق القدم على المنزلة والمكانة من الكناية ولما كان إشغال المكان عادة إنما هو بالقدم استعملت القدم في المكان إن كان في الماديات، وفي المكانة والمنزلة إن كان في

المعنويات ثم أُضيفت القدم الى الصدق، وهو صدق صاحب القدم في شأنه أي قدم منسوبة الى صدق صاحبها او قدم هي صادقة لصدق صاحبها في شأنه.

وهناك معنى آخر وهو أن يراد بالصدق طبيعته كأن للصدق قدماً وللكذب قدماً وقدم الصدق هي التي تثبت ولا تزول.

وقوله: ﴿قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ﴾ أي النبي ﷺ، وقرىء «إن هذا لسحر مبين» أي القرآن ومآل القراءتين واحد فإنهم إنما كانوا يرمونه ﷺ بالسحر من جهة القرآن الكريم.

والجملة كالتعليل لقوله: «كان للناس عجباً» يمثل به معنى تعجّبهم وهو أنهم لما سمعوا ما تلاه عليهم من القرآن وجدوه كلاماً من غير نوع كلامهم خارقاً للعادة المألوفة في سنخ الكلام يأخذ بمجامع القلوب وتتولّه اليه النفوس فقالوا: إنه لسحر مبين، وإن الجائي به لساحر مبين.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾

لما ذكر في الآية السابقة عجبهم من نزول الوحي وهو القرآن على النبي ﷺ وتكذيبهم له برميه بالسحر شرع تعالى في بيان ما كذّبوا به من الجهتين أعني من جهة أن ما كذّبوا به من المعارف المشتمل عليها القرآن حق لا ريب فيه، ومن جهة أن القرآن الذي رموه بالسحر كتاب إلهي حق وليس من السحر الباطل في شيء.

فقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ﴾ الخ: شروع في بيان الجهة الاولى وهي أن ما يدعوكم اليه النبي ﷺ مما يعلمكم القرآن حق لا ريب فيه ويجب عليكم أن تتبعوه.

والمعنى: إن ربكم معاشر الناس هو الله الذي خلق هذا العالم المشهود كله سماواته وأرضه في ستة أيام ثم استوى على عرش قدرته وقام مقام التدبير الذي اليه ينتهي كل تدبير وإدارة فشرع يدبر أمر العالم، وإذا انتهى اليه كل تدبير من دون الاستعانة بمعين او الاعتضاد بأعضاد

لم يكن لشيء من الأشياء أن يتوسط في تدبير أمر من الامور ـ وهو الشفاعة ـ إلّا من بعد إذنه تعالى فهو سبحانه هو السبب الأصلي الذي لا سبب بالأصالة دونه، ومن دونه من الأسباب أسباب بتسبيبه وشفعاء من بعد إذنه.

وإذا كان كذلك كان الله تعالى هو ربكم الذي يدبر امركم لا غيره مما اتخذتموها أرباباً من دون الله وشفعاء عنده، وهو المراد بقوله: «ذلكم الله ربكم فاعبدوه أفلا تذكرون» أي هلا انتقلتم انتقالاً فكرياً الى ما يستنير به أن الله هو ربكم لا رب غيره بالتأمل في معنى الألوهية والخلقة والتدبير.

وقد تقدم الكلام في معنى العرش والشفاعة والإذن وغير ذلك في ذيل قوله: ﴿إن ربكم الله﴾ (الأعراف / ٥٤) في الجزء الثامن من الكتاب.

قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً وَعْدَ ٱللَّهِ حَقّاً﴾ تذكير بالمعاد بعد التذكير بالبدء، وقوله: «وعد الله حقاً» من قيام المفعول المطلق مقام فعله، والمعنى: وعده الله وعداً حقاً.

والحق هو الخبر الذي له أصل في الواقع يطابق الخبر فكون وعده تعالى بالمعاد حقاً معناه كون الخلقة الإلهية بنحو لا تتم خلقة إلّا برجوع الأشياء ـ ومن جملتها الإنسان ـ اليه تعالى وذلك كالحجر الهابط من السماء فإنه يعد بحركته السقوط على الأرض فإن حركته سنخ أمر لا يتم إلّا بالاقتراب التدريجي من الأرض والسقوط والاستقرار عليها، والأشياء على حال كدح الى ربها حتى تلاقيه، قال تعالى: ﴿يا أيها الإنسان إنك كادح الى ربك كدحاً فملاقيه﴾ (الإنشقاق / ٦) فافهم ذلك.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ يَبْدَأُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ بِٱلْقِسْطِ﴾ الخ: تأكيد لقوله: «إليه مرجعكم جميعاً» وتفصيل لإجمال ما يتضمنه من معنى الرجوع والمعاد.

ويمكن أن يكون في مقام التعليل لما تقدمه من قوله: «إليه مرجعكم» الخ؛ أُشير به الى حجتين من الحجج المستعملة في القرآن لإثبات المعاد: أما قوله: «إنه يبدؤ الخلق ثم يعيده» فلأن الجاري من سنّة الله سبحانه أنه يفيض الوجود على ما يخلقه من شيء ويمده من رحمته بما تتم له به الخلقة فيوجد ويعيش ويتنعم برحمة منه تعالى ما دام موجوداً حتى ينتهي الى اجل معدود.

وليس انتهاؤه الى أجله المعدود المضروب له فناء منه وبطلاناً للرحمة الإلهية التي كان بها وجوده وبقاؤه وسائر ما يلحق بذلك من حياة وقدرة وعلم ونحو ذلك بل بقبضه تعالى ما بسطه عليه من الرحمة فإن ما أفاضه الله عليه من عنده هو وجهه تعالى ولن يهلك وجهه.

فنفاد وجود الأشياء وانتهائها الى أجلها ليس فناء منها وبطلاناً لها على ما نتوهمه بل رجوعاً وعوداً منها الى عنده وقد كانت نزلت من عنده، وما عند الله باق فلم يكن إلّا بسطاً ثم قبضاً فالله سبحانه يبدؤ الأشياء ببسط الرحمة، ويعيدها اليه بقبضها وهو المعاد الموعود.

وأما قوله: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ﴾ الخ؛ فإن الحجة فيه أن العدل والقسط الإلهي ـ وهو من صفات فعله ـ يأبى أن يستوي عنده من خضع له بالإيمان به وعمل صالحاً ومن استكبر عليه وكفر به وبآياته، والطائفتان لا يحس بينهما بفرق في الدنيا فإنما السيطرة فيها للأسباب الكونية بحسب ما تنفع وتضر بإذن الله.

فلا يبقى إلّا أن يفرّق الله بينهما بعدله بعد إرجاعهما اليه فيجزي المؤمنين المحسنين جزاء حسناً والكفار المسيئين جزاء سيئاً من جهة ما يتلذذون به او يتألمون.

فالحجة معتمدة على تمايز الفريقين بالإيمان والعمل الصالح وبالكفر وعلى قوله: «بالقسط» هذا، وقوله: «ليجزي» متعلق بقوله: «إليه مرجعكم جميعاً» على ظاهر التقدير.

ويمكن أن يكون قوله: «ليجزي» الخ؛ متعلقاً بقوله: «ثم يعيده» ويكون الكلام مسوقاً للتعليل وإشارة الى حجة واحدة وهي الحجة الثانية المذكورة، والأقرب من جهة اللفظ هو

الأخير.

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَٱلْقَمَرَ نُوراً﴾ الى آخر الآية؛ الضياء - على ما قيل - مصدر ضاء يضوء ضوء وضياء كعاذ يعوذ عوذاً وعواذاً، وربما كان جمع ضوء كسياط جمع سوط، واللفظ - على ما قيل - على تقدير مضاف والأصل جعل الشمس ذات ضياء القمر ذا نور.

وكذلك قوله: ﴿وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ﴾ اي وقدّر القمر ذا منازل في مسيره ينزل كل ليلة منزلاً من تلك المنازل غير ما نزله في الليلة السابقة فلا يزال يتباعد من الشمس حتى يوافيها من الجانب الآخر، وذلك في شهر قمريّ كامل فترتسم بذلك الشهور وترتسم بالشهور السنون، ولذلك قال «لتعلموا عدد السنين والحساب».

وقوله: ﴿يُفَصِّلُ ٱلْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ من المحتمل أن يراد به التفصيل بحسب التكوين الخارجي او بحسب البيان اللفظي، ولعل الأول اقرب الى سياق الآية.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ٱخْتِلَافِ ٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ قال في المجمع: الاختلاف ذهاب كل واحد من الشيئين في جهة غير جهة الآخر فاختلاف الليل والنهار ذهاب احدهما في جهة الضياء والآخر في جهة الظلام، انتهى. والظاهر أنه مأخوذ من الخلف، والأصل في معناه أخذ أحد الشيئين الآخر في جهة خلفه ثم اتسع فاستعمل في كل تغاير كائن بين شيئين.

يقال: اختلفه اي جعله خلفه، واختلف الناس في كذا ضد اتفقوا فيه، واختلف الناس اليه اي ترددوا بالدخول عليه والخروج من عنده فجعل بعضهم بعضاً خلفه.

والمراد باختلاف الليل والنهار إما ورود كل منهما على الأرض خلف الآخر وهو توالي الليل والنهار الراسم للأسابيع والشهور والسنين، وإما اختلاف كل من الليل والنهار في أغلب بقاع الارض المسكونة فالليل والنهار يتساويان في الاعتدال الربيعي ثم يأخذ النهار في

الزيادة في المناطق الشمالية فيزيد النهار كل يوم على النهار السابق عليه حتى يبلغ اول الصيف فيأخذ في النقيصة حتى يبلغ الاعتدال الخريفي وهو اول الخريف فيتساويان.

ثم يأخذ الليل في الزيادة على النهار الى اول الشتاء وهو منتهى طول الليالي ثم يعود راجعاً الى التساوي حتى ينتهي الى الاعتدال الربيعي وهو اول الربيع هذا في المناطق الشمالية والأمر في المناطق الجنوبية بالخلاف منه فكلما زاد النهار طولاً في احد الجانبين زاد الليل طولاً في الجانب الآخر بنفس النسبة.

والاختلاف الأول بالليل والنهار هو الذي يدبّر أمر اهل الارض بتسليط حرارة الأشعة ثم بسط برد الظلمة ونشر الرياح وبعث الناس للحركة المعاشية ثم جمعهم للسكن والراحة، قال تعالى: ﴿ **وجعلنا نومكم سباتاً وجعلنا الليل لباساً وجعلنا النهار معاشاً** ﴾ (النبأ / ١١).

والاختلاف الثاني هو الذي يرسم الفصول الاربعة السنوية التي يدبّر بها أمر الأقوات والأرزاق كما قال تعالى: ﴿ **وقدّر فيها أقواتها في أربعة ايام سواء للسائلين** ﴾ (حم السجدة / ١٠).

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا ﴾ الى آخر الآيتين. شروع في بيان ما يتفرع على الدعوة السابقة المذكورة بقوله: «ذلكم الله ربكم فاعبدوه» من حيث عاقبة الأمر في استجابته وردّه وطاعته ومعصيته.

فبدء سبحانه بالكافرين بهذا الأمر فقال «إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون» فوصفهم أولاً بعدم رجائهم لقاءه، وهو الرجوع الى الله بالبعث يوم القيامة، وقد تقدم الكلام في وجه تسميته بلقاء الله في مواضع من هذا الكتاب ومنها ما في تفسير آية الرؤية من سورة الأعراف فهؤلاء هم المنكرون ليوم الجزاء، وبإنكاره يسقط الحساب والجزاء فالوعد والوعيد والأمر والنهي، وبسقوطها يبطل الوحي والنبوة وما يتفرع عليه من الدين السماوي.

وبإنكار البعث والمعاد ينعطف همّ الانسان على الحياة الدنيا فان الانسان وكذا كل موجود ذي حياة له همّ فطري ضروري في بقائه وطلب لسعادة تلك الحياة فان كان مؤمناً بحياة دائمة تسع الحياة الدنيوية والاخروية معاً فهو، وإن لم يذعن إلّا بهذه الحياة المحدودة الدنيوية علقت همّته الفطرية بها، ورضي بها وسكن بسببها عن طلب الآخرة، وهو المراد بقوله: «ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها».

ومن هنا يظهر أن الوصف الثاني أعني قوله: «ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها» من لوازم القول الأول أعني قوله: «لا يرجون لقاءنا» وهو بمنزلة المفسر بالنسبة اليه، وأن الباء في قوله: «اطمأنوا بها» للسببية اي سكنوا بسببها عن طلب اللقاء وهو الآخر.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾ في محل التفسير لما تقدمه من الوصف لمكان ما بينهما من التلازم فان نسيان الآخرة وذكر الدنيا لا ينفك عن الغفلة عن آيات الله.

وقوله: ﴿أُولٰئِكَ مَأْوٰيهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ لبيان لجزائهم بالنار الخالدة قبال أعمالهم التي كسبوها.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾ الى آخر الآية، هذا بيان لعاقبة أمر المؤمنين وما يثيبهم الله على استجابتهم لدعوته وطاعتهم لأمره.

ذكر سبحانه أنه يهديهم بإيمانهم، وإنما يهديهم الى ربهم لأن الكلام في عاقبة أمر من يرجو لقاء الله، وقد قال تعالى: ﴿ويهدي إليه من أناب﴾ (الرعد / ٢٧). فإنما يهدي الايمان بإذن الله الى الله سبحانه وكلما اهتدى المؤمنون الى الحق او الى الصراط المستقيم او غير ذلك مما يشتمل عليه كلامه فإنما هي وسائل ومدارج تنتهي بالآخرة اليه تعالى، قال تعالى: ﴿وأن الى ربك المنتهى﴾ (النجم / ٤٢).

وقد وصف المؤمنين بالايمان والأعمال الصالحة ثم نسب هدايتهم اليه الى الايمان وحده فإن

الإيمان هو الذي يصعد بالعبد الى مقام القرب، وليس للعمل الصالح إلّا اعانة الايمان وإسعاده في عمله كما قال تعالى: ﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أُوتوا العلم درجات﴾ (المجادلة / ١١) حيث ذكر للرفع الايمان والعلم وسكت عن العمل الصالح، وأوضحه منه في الدلالة قوله تعالى: «إليه يصعد الكلم الطيّب والعمل الصالح يرفعه» (فاطر / ١٠).

هذا في الهداية التي هي شأن الايمان، وأما نعم الجنة فإن للعمل الصالح دخلاً فيها كما أن للعمل الطالح دخلاً في أنواع العذاب وقد ذكر تعالى في المؤمنين قوله: «تجري من تحتهم الأنهار في جنات النعيم» كما ذكر في الكافرين قوله: «أُولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون».

وليتنبه الباحث المتدبّر أنه تعالى ذكر هؤلاء المهتدين بإيمانهم من مسكن القرب جنات النعيم، ومن نعيمها الأنهار التي تجري من تحتهم فيها، وقد تقدّم في تفسير قوله تعالى: ﴿صراط الذين أنعمت عليهم﴾ (الحمد / ٧) وقوله: ﴿فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم﴾ الآية (النساء / ٦٩) أن النعيم بحقيقة معناه في القرآن الكريم هو الولاية الإلهية، وقد خص الله أولياءه المقرّبين بنوع من شراب الجنة اعتنى به في حقهم كما قال: ﴿إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافوراً عيناً يشرب بها عباد الله يفجّرونها تفجيراً﴾ (الإنسان / ٦)، وقال أيضاً ﴿إن الأبرار لفي نعيم ـ الى أن قال ـ يسقون من رحيق مختوم ـ الى أن قال ـ عيناً يشرب بها المقرّبون﴾ (المطفّفين / ٢٨)، وعليك بالتدبّر في الآيات وتطبيق بعضها على بعض حتى ينجلي لك بعض ما أودعه الله سبحانه في كلامه من الأسرار اللطيفة.

قوله تعالى: ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أول ما يكرم به الله سبحانه أولياءه ـ وهم الذين ليس في قلوبهم إلّا الله ولا مدبّر لأمرهم غيره ـ أنه يطهّر قلوبهم عن محبة غيره فلا يحبون إلّا الله فلا يتعلقون بشيء إلّا الله وفي الله سبحانه فهم ينزهونه عن كل شريك يجذب قلوبهم الى نفسه عن ذكر الله سبحانه، وعن أي شاغل يشغلهم عن ربهم.

وهذا تنزيه منهم لربهم عن كل ما لا يليق بساحة قدسه من شريك في الاسم او في المعنى او نقص او عدم، وتسبيح منهم له لا في القول واللفظ فقط بل قولاً وفعلاً ولساناً وجناناً، وما دون ذلك فإن له شوباً من الشرك، وقد قال تعالى: ﴿ **وما يؤمن أكثرهم بالله إلّا وهم مشركون** ﴾ (يوسف / ١٠٦).

وهؤلاء الذين طهّر الله قلوبهم عن قذارة حب غيره الشاغلة عن ذكره وملأها بحبه فلا يريدون إلّا إياه وهو سبحانه الخير الذي لا شر معه قال: ﴿ **والله خير** ﴾ (طه / ٧٣).

فلا يواجهون بقلوبهم التي هي ملآى بالخير والسلام أحداً إلّا بخير وسلام اللهم إلّا أن يكون الذي واجهوه بقلوبهم هو الذي يبدّل الخير والسلام شراً وضراً كما أن القرآن شفاء لمن استشفى به لكنه لا يزيد الظالمين إلّا خساراً.

١١ ❁ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لاٰ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ.

١٢ ❁ وَإِذٰا مَسَّ ٱلْإِنْسانَ الضُّرُّ دَعَانا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَائِماً فَلَمَّا كَشَفْنا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنا إِلىٰ ضُرٍّ مَسَّهُ كَذٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ.

١٣ ❁ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمّا ظَلَمُوا وَجٰاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ وَمٰا كانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذٰلِكَ نَجْزِي ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ.

١٤ ❁ ثُمَّ جَعَلْناكُمْ خَلائِفَ فِي ٱلْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ﴾الخ: تعجيل الشيء الإتيان به بسرعة وعجلة، والاستعجال بالشيء طلب حصوله بسرعة وعجلة، والعمه شدة الحيرة.

ومعنى الآية: ولو يعجّل الله للناس الشر وهو العذاب كما يستعجلون بالخير كالنعمة لأنزل عليهم العذاب بقضاء أجلهم لكنه تعالى لا يعجل لهم الشر فيذر هؤلاء المنكرين للمعاد المارقين عن ربقة الدين يتحيرون في طغيانهم أشد التحيّر.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَائِماً﴾الى آخر الآية. الضر بالضم ما يمس الانسان من الضرر في نفسه، وقوله: «دعانا لجنبه او قاعداً او قائماً» أي دعانا منبطحاً لجنبه، الخ: والظاهر أن الترديد للتعميم أي دعانا على أي حال من أحواله فرض من انبطاح او قعود او قيام مصرّاً على دعائه لا ينسانا في حال، ويمكن أن يكون «لجنبه» الخ: أحوالاً ثلاثة من الانسان لا من فاعل دعانا والعامل فيه «مسّ» والمعنى اذا مسّ الانسان الضر وهو منبطح او قاعد او قائم دعانا في تلك الحال وهذا معنى ما ورد في بعض المرسلات «دعانا لجنبه» العليل الذي لا يقدر أن يجلس «او قاعداً» الذي لا يقدر أن يقوم «او قائماً» الصحيح.

وقوله: ﴿مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَسَّهُ﴾كناية عن النسيان والغفلة عما كان لا يكاد ينساه.

والمعنى: وإذا مسّ الانسان الضر لم يزل يدعونا لكشف ضره وأصرّ على الدعاء فإذا كشفنا عنه ضره الذي مسّه نسينا وترك ذكرنا وانجذبت نفسه الى ما كان يتمتع به من أعماله كذلك زيّن للمسرفين المفرطين في التمتع بالزخارف الدنيوية أعمالهم فأورثهم نسيان جانب

الربوبية والاعراض عن ذكر الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ الى آخر الآية: قد ظهر معناه مما تقدم. وفي الآية التفات في قوله: «من قبلكم» من الغيبة الى الخطاب، وكأن النكتة فيه التشديد في الإنذار لأن الإنذار والتخويف بالمشافهة أوقع أثراً وأبلغ من غيره.

ثم في قوله: ﴿كَذٰلِكَ نَجْزِي ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ التفات آخر بتوجيه الخطاب الى النبي ﷺ، والنكتة فيه أنه إخبار عن السنّة الإلهية في أخذ المجرمين، والنبي ﷺ هو الأهل لفهمه والإذعان بصدقه دونهم ولو أذعنوا بصدقه لآمنوا به ولم يكفروا، وهذا بخلاف قوله: «ولقد أهلكنا القرون من قبلكم ... وجاءتهم رسلهم» فإنه خبر تاريخي لا ضير في تصديقهم به.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلاَئِفَ فِي ٱلْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ معناه ظاهر، وفيه بيان أن سنّة الامتحان والابتلاء عامة جارية.

١٥ ۞ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا
ٱئْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ
تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ
رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ.
١٦ ۞ قُلْ لَوْ شَاءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ
فِيكُمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ.
١٧ ۞ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لاَ
يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ.

١٨ ● وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ
هٰؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ ٱللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ ٱللَّهَ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي
السَّمٰوَاتِ وَلاَ فِي ٱلْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ.
١٩ ● وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ
مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيما فِيهِ يَخْتَلِفُونَ.
٢٠ ● وَيَقُولُونَ لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ
فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ ٱلْمُنْتَظِرِينَ.
٢١ ● وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ
فِي آيَاتِنَا قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْراً إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا
تَمْكُرُونَ.
٢٢ ● هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي ٱلْفُلْكِ
وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ
وَجَاءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا
ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ
الشَّاكِرِينَ.
٢٣ ● فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ يَا أَيُّهَا
النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ ٱلْحَيٰوةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا
مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ.
٢٤ ● إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيٰوةِ الدُّنْيَا كَماءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّماءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ

نَبَاتُ ٱلْأَرضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَٱلْأَنعامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَـذَتِ
ٱلْأَرضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَـلَيْهَا
أَتيهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَـصِيداً كَـأَنْ لَـمْ تَـغْنَ
بِالْأَمسِ كَذٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ.
٢٥ ❁ وَٱللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دارِ السَّلامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشٰاءُ إِلىٰ صِـرَاطٍ
مُسْتَقِيمٍ.

بيان:

قوله تـعالى: ﴿وَإِذٰا تُتْلىٰ عَلَيْهِمْ آيٰاتُنٰا بَيِّنٰاتٍ قالَ ٱلَّذِينَ لاٰ يَرْجُونَ لِقٰاءَنا آئْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هٰذٰا أَوْ بَدِّلْهُ﴾ هؤلاء المذكورون في الآية كانوا قوماً وثنيين يقدّسون الأصنام ويعبدونها، ومن سننهم التوغل في المظالم والآثام واقتراف المعاصي، والقرآن ينهى عن ذلك كله، ويدعو الى توحيد الله تعالى ورفض الشركاء، وعبادة الله مع التنزه عن الظلم والفسق واتباع الشهوات.

ومن المعلوم أن كتاباً هذا شأنه اذا تليت آياته على قوم ذلك شأنهم لم يكن ليوافق ما تهواه أنفسهم بما يشتمل عليه من الدعوة المخالفة فلو قالوا: ائت بقرآن غـير هـذا دلَّ عـلى انهـم يقترحون قرآناً لا يشتمل على ما يشتمل عليه هذا القرآن من الدعوة الى رفـض الشركـاء واتقاء الفحشاء والمنكر. وإن قالوا: بدِّل القرآن كان مرادهم تبديل ما يخـالف آراءهـم مـن آياته الى ما يوافقها حتى يقع منهم موقع القبول، وذلك كالشاعر ينشد من شعره او القـاصّ يقصّ القصة فلا تستحسنه طباع السامعين فيقولون: ائت بغيره او بدّله، وفي ذلك تنزل القرآن أنزل مراتب الكلام وهو هو الحديث الذي إنما يلقى لتلهو به نفس سامعه وتنشط به عواطفه ثم

لا يستطيبه السامع فيقول: ائت بغير هذا او بدّله.

فبذلك يظهر أن قولهم اذا تليت عليهم آيات القرآن: «ائت بقرآن غير هذا» يريدون به قرآناً لا يشتمل من المعارف على ما يتضمنه هذا القرآن بأن يترك هذا ويؤتى بذاك، وقولهم: «او بدّله» أن يغيّر ما فيه من المعارف المخالفة لأهوائهم الى معان يوافقها مع حفظ أصله فهذا هو الفرق بين الإتيان بغيره وبين تبديله.

وفي قوله: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا﴾ التفات من الخطاب الى الغيبة، والظاهر أن النكتة فيه أن يكون توطئة الى إلقاء الأمر الى النبي ﷺ بقوله: «قل ما يكون لي أن أُبدّله» الخ؛ فان ذلك لا يتم إلّا بصرف الخطاب عنهم وتوجيه اليه ﷺ.

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ الى آخر الآية التلقاء، بكسر التاء مصدر كاللقاء نظير التبيان والبيان ويستعمل ظرفاً.

والله سبحانه على ما أجاب عن مقترحهم بقولهم: «ائت بقرآن غير هذا أو بدّله» في أثناء كلامه بقوله: «بيّنات» فإن الآيات إذا كانت بيّنات ظاهرة الاستناد الى الله سبحانه كشفت كشفاً قطعيّاً عما يريده الله سبحانه منهم من رفض الأصنام والاجتناب من كل ما لا يرتضيه بما أوحى الى رسوله ﷺ من تفصيل دينه؛ ردّ سؤالهم اليهم تفصيلاً بتلقين نبيّه ﷺ الحجة في ذلك بقوله: «قل ما يكون لي» الى آخر الآيات الثلاث.

فقوله: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ﴾ الخ؛ جواب عن قولهم: ﴿أو بدّله﴾ ومعناه: قل لا أملك ـ وليس لي بحق ـ أن أُبدّله من عند نفسي لأنه ليس بكلامي وإنما هو وحي إلهيّ أمرني ربي أن أتّبعه ولا أتّبع غيره، وإنما لا أُخالف أمر ربي لأني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم وهو يوم لقائه.

فقوله: ﴿مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ﴾ نفي الحق وسلب الخيرة، وقوله: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا

ما يُوحىٰ إِلَيَّ ﴾ في مقام التعليل بالنسبة الى قوله: ﴿ما يكون لي ﴾ وقوله: ﴿إِنِّي أَخافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي ﴾ الخ، في مقام التعليل بالنسبة الى قوله: ﴿إن أتّبع ﴾ الخ؛ بما يلوح منه أنه مما تعلق به الأمر الإلهي.

وفي قوله: ﴿إِنِّي أَخافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ نوع محاذاة لما في صدر الكلام من قوله: ﴿قالَ ٱلَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنا ٱئْتِ بِقُرْآنٍ ﴾ الخ؛ فإن الإتيان بالوصف للإشعار بأن الباعث لهم أن يقولوا ما قالوا إنما هو إنكارهم للمعاد وعدم رجائهم لقاء الله فقابلهم النبي ﷺ بأمر من ربه بقوله: «إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم» فيؤول المعنى الى أنكم تسألون ما تسألون لأنكم لا ترجون لقاء الله لكنني لا أشك فيه فلا يمكنني إجابتكم اليه لأني أخاف عذاب يوم اللقاء، وهو يوم عظيم.

وفي تبديل يوم اللقاء بيوم عظيم فائدة الإنذار مضافاً الى أن العذاب لا يناسب اللقاء تلك المناسب.

قوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ شاءَ ٱللَّهُ ما تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلا أَدْرٰيكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ أدراكم به أي أعلمكم الله به، والعمر بضمتين أو بالفتح فالسكون هو البقاء، وإذا استعمل في القسم كقولهم: لعمري ولعمرك تعين الفتح.

وهذه الآية تتضمن رد الشق الأول من سؤالهم وهو قولهم: «ائت بقرآن غير هذا» ومعناها على ما يساعد عليه السياق: أن الأمر فيه الى مشيّة الله لا الى مشيّتي فإنما أنا رسول ولو شاء الله أن ينزّل قرآناً غير هذا ولم يشأ هذا القرآن ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فإني مكثت فيكم عمراً من قبل نزول القرآن وعشت بينكم وعاشرتكم وعاشرتموني وخالطتكم وخالطتموني فوجدتموني لا خبر عندي من وحي القرآن، ولو كان ذلك إليّ وبيدي لبادرت اليه قبل ذلك، وبدت من ذلك آثار ولاحت لوائحه، فليس إليّ من الأمر شيء، وإنما الأمر في ذلك الى مشيّة الله وقد تعلّقت مشيّته بهذا القرآن لا غيره أفلا تعقلون؟

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ استفهام إنكاري أي لا أحد أظلم وأشهد إجراماً من هذين الفريقين: المفتري على الله كذباً، والمكذب بآياته فان الظلم يعظم بعظمة من يتعلق به واذا اختص بجنب الله كان أشد الظلم.

وظاهر سياق الاحتجاج في الآيتين أن هذه الآية من تمامها والمعنى: لا أُجيبكم الى ما اقترحتم عليّ من الإتيان بقرآن غير هذا او تبديله فإن ذلك ليس إليّ ولا لي حقّ فيه، ولو أجبتكم اليه لكنت أظلم الناس وأشدهم إجراماً ولا يفلح المجرمون فإني لو بدّلت القرآن وغيّرت بعض مواضعه مما لا ترتضونه لكنت مفترياً على الله كذباً ولا أظلم منه، ولو تركت هذا القرآن وجئتكم بغيره مما ترتضونه لكنت مكذباً لآيات الله، ولا أظلم منه.

وربما احتمل كون الاستفهام الإنكاري بشقيّه تعريضاً للمشركين أي أنتم أظلم الناس بإثباتكم لله شركاء وهو افتراء الكذب على الله وبتكذيبكم بنبوّتي والآيات النازلة عليّ وهو تكذيب بآيات الله ولا يفلح المجرمون.

قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هٰؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ ٱللَّهِ﴾ الى آخر الآية، الكلام: موجّه نحو عبدة الأصنام من المشركين وإن كان ربما شمل غيرهم كأهل الكتاب بحسب سعة معناه، وذلك لمكان «ما» وكون السورة مكيّة من أوائل ما نزل على النبي ﷺ من القرآن.

وقد كانت عبدة الأصنام ويعبدون الأصنام ليتقربوا بعبادتها الى أربابها وبأربابها الى رب الأرباب وهو الله سبحانه، ويقولون: إننا على ما بنا من ألواث البشرية المادية وقذارات الذنوب والآثام لا سبيل لنا الى رب الأرباب لطهارة ساحته وقدسها ولا نسبة بيننا وبينه.

فمن الواجب أن نتقرب اليه بأحب خلائقه اليه وهم أرباب الأصنام الذين فوّض الله اليهم أمر تدبير خلقه، ونتقرب اليهم بأصنامهم وتماثيلهم وإنما نعبد الأصنام لتكون شفعاء لنا عند

الله لتجلب الينا الخير وتدفع عنا الشر فتقع العبادة للأصنام حقيقة، والشفاعة لأربابها وربما نسبت اليها.

وقد وضع في الكلام قوله: ﴿مٰا لاٰ يَضُرُّهُمْ وَلاٰ يَنْفَعُهُمْ﴾ موضع الأصنام للتلويح الى موضع خطإهم في مزعمتهم، وهو أن هذا السعي إنما كان ينجح منهم لو كانت هذه الأصنام ضارّة نافعة في الامور وكانت ذوات شعور بالعبادة والتقرب حتى ترضى عن عبّادها بعبادتهم لها فتشفع او يشفع اربابها لهم عند الله إن كان الله يرتضي شفاعتهم وهؤلاء اجسام ميتة لا تشعر بشيء ولا تضرّ ولا تنفع شيئاً.

وقد أمر الله سبحانه نبيّه ﷺ أن يحتج على بطلان دعواهم الشفاعة ـ مضافاً الى ما يلوّح اليه قوله: ﴿لاٰ يَضُرُّهُمْ وَلاٰ يَنْفَعُهُمْ﴾ ـ بقوله: ﴿قل أتنبّؤون الله بما لا يعلم في السماوات والأرض﴾ ومحصّله أن الله سبحانه لا علم له بهذه الشفعاء في شيء من السماوات والأرض فدعواكم هذه إخبار منكم إياه بما لا يعلم، وهو من أقبح الافتراء وأشنع المكابرة، وكيف يكون في الوجود شيء لا يعلم به الله وهو يعلم ما في السماوات والأرض؟

فالاستفهام إنكاري، ونفي العلم بوجود الشفعاء كناية عن نفي وجودها، ولعل اختيار هذا التعبير لكون الشفاعة مما يتقوّم بالعلم ذاته فإن الشفاعة إنما تتحقق اذا كان المشفوع عنده عالماً بوجود الشافع وشفاعته فإذا فرض أنه لا يعلم بالشفعاء فكيف تتحقق الشفاعة عنده وهو لا يعلم.

وقوله: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالىٰ عَمّا يُشْرِكُونَ﴾ كلمة تنزيه، وهي من كلام الله وليست مقولة قول النبي ﷺ فان ظرف المشركين بالنسبة اليه هو الخطاب دون الغيبة فلو كان من كلام النبي ﷺ لقيل: عما تشركون بالخطاب.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا﴾ قد تقدم في تفسير قوله تعالى: ﴿كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب

بالحقّ ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلّا الذين أُوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغياً بينهم﴾ (البقرة / ٢١٣) أن الآية تكشف عن نوعين من الاختلاف بين الناس.

أحدهما: الاختلاف من حيث المعاش وهو الذي يرجع الى الدعاوي وينقسم به الناس الى مدّع ومدّعى عليه وظالم ومظلوم ومتعدّ ومتعدّى عليه وآخذ بحقه وضائع حقه، وهذا هو الذي رفعه الله سبحانه بوضع الدين وبعث النبيين وإنزال الكتاب معهم ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، ويعلّمهم معارف الدين ويواجههم بالإنذار والتبشير.

وثانيهما: الاختلاف في نفس الدين وما تضمنه الكتاب الإلهي من المعارف الحقة من الاصول والفروع، وقد صرّح القرآن في مواضع من آياته أن هذا النوع من الاختلاف ينتهي الى علماء الكتاب بغياً بينهم، وليس مما يقتضيه طباع الإنسان كالقسم الأول، وبذلك ينقسم الطريق الى طريقي الهداية والضلال فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق، وقد ذكر سبحانه في مواضع من كلامه بعد ذكر هذا القسم من الاختلاف أنه لولا قضاء من الله سبق لحكم بينهم فيما اختلفوا فيه ولكن يؤخرهم الى أجل، قال تعالى **﴿وما تفرّقوا إلّا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ولولا كلمة سبقت من ربك الى أجل مسمّى لقضي بينهم﴾** (الشورى / ١٤) الى غير ذلك من الآيات.

وسياق الآية السابقة أعني قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾ الخ؛ لا يناسب من الاختلافين المذكورين إلّا الاختلاف الثاني وهو الاختلاف في نفس الدين لأنها تذكر ركوب الناس طريق الضلال بعبادتهم ما لا يضرّهم ولا ينفعهم واتخاذهم شفعاء عند الله، ومقتضى ذلك أن يكون المراد من كون الناس سابقاً أُمة واحدة كونهم على دين واحد وهو دين التوحيد ثم اختلفوا فتفرقوا فريقين موحّد ومشرك.

فذكر الله فيها أن اختلافهم كان يقضي أن يحكم الله بينهم باظهار الحق على الباطل وفيه هلاك المبطلين وإنجاء المحقين لكن السابق من الكلمة الإلهية منعت من القضاء بينهم، والكلمة

هي قوله تعالى لما أهبط الإنسان الى الدنيا: ﴿ولكم في الأرض مستقرٌ ومتاع الى حين﴾ (البقرة / ٣٦).

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّما ٱلْغَيْبُ لِلّٰهِ فَٱنْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ ٱلْمُنْتَظِرِينَ﴾ الآية: كقوله قبلها: «ويعبدون من دون الله» وقوله قبله: «وإذا تتلى عليهم آياتنا» تعد أُموراً من مظالم المشركين في أقوالهم وأعمالهم ثم ترد عليها بحجج تلقنها النبي ﷺ ليقيمها عليهم كما مرّ في أول الآيات فقوله: «ويقولون لولا أُنزل» الخ: عطف على قول في أول الآيات «وإذا تتلى عليهم آياتنا».

وفيها مع ذلك عود بعد عود الى إنكارهم أمر القرآن فإن مرادهم بقولهم: «لولا أُنزل عليه آية من ربه» وإن كان طلب آية أُخرى غير القرآن لكنهم إنما قالوه إزراء وتحقيراً لأمر القرآن واستخفافاً به لعدم عدّة آية إلهية والدليل عليه قوله تعالى: «فقل إنما الغيب لله» ولم يقل «قل» كما قال في سائر الآيات كأنه يقول: ويطلبون منك آية أُخرى غير مكتفين بالقرآن ولا راضين به فإذا لم يكتفوا به آية فقل: إنما الآيات من الغيب المختص بالله وليست بيدي فانتظروا إني معكم من المنتظرين.

فهذا هو المستفاد من الآية وفيها دلالة على أن النبي ﷺ كان ينتظر آية فاصلة بين الحق والباطل غير القرآن قاضية بينه وبين أُمته، وسيجيء الوعد الصريح منه بهذه الآية ـ التي يأمر بانتظارها ههنا ـ في قوله: ﴿وإما نرينك بعض الذي نعدهم او نتوفينك فإلينا مرجعهم﴾ (يونس / ٤٦) الى تمام عدة آيات.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا﴾ الى آخر الآية: مضمون الآية وإن كان من المعاني العامة الجارية في أغلب الناس في اكثر الأوقات فإن الفرد من الانسان لا يخلو عن أن يمسه سراء بعد ضراء بل قلما يتفق أن لا يتكرر في حقه ذلك لكن الآية من جهة السياق المتقدم كأنها مسوقة للتعريض

للمشركين ومكرهم في آيات الله، والدليل عليه قوله: «قل الله أسرع مكراً» فقد كان النظر معطوفاً على مكر طائفة خاصة وهم المخاطبون بهذه الآيات حيث كانوا يمكرون بآيات السراء والضراء بعد ظهورها، ومن مكرهم مكرهم في القرآن الذي هو آية إلهية ورحمة أذاقهم الله إياها بعد ضراء الجهالة العالقة بهم وشمول ضنك العيش والذّلة والتفرقة وتباعد القلوب وبغضائها لهم وهم يمكرون به فتارة يقولون «ائت بقرآن غير هذا او بدله» وتارة يقولون «لولا أُنزل عليه آية من ربه».

فالآية تبين لهم أن هذا كله مكر يمكرونه في آيات الله، وتبين لهم أن المكر بآيات الله لا يعقب إلّا السوء من غير أن ينفعهم شيئاً فإن الله أسرع مكراً يأخذهم مكره قبل أن يأخذ مكرهم آياته فإن مكرهم بآيات الله عين مكر الله بهم.

فمعنى الآية «وإذا أذقنا الناس» عبر عن الإصابة بالإذاقة للايماء الى التذاذهم بالرحمة وعناية بالقلة فإن الذوق يستعمل في القليل من التغذي «رحمة من بعد ضراء مسّتهم» والتعبير بالرحمة في موضع السراء للإشارة الى أنها من الرحمة الإلهية من غير أن يستوجبوا ذلك فكان من الواجب عليهم أن يقوموا بحقه، ويخضعوا لما تدعو اليه الآية وهو توحيد ربهم وشكر نعمته لكنهم يفاجئون بغير ذلك «اذا لهم مكر في آياتنا» كتوجيه الحوادث بما تبطل به دلالة الآيات كقولهم: «قد مسّ آباءنا السراء والضراء» والاعتذار بما لا يرتضيه الله كقولهم: «لولا أُنزل عليه آية» وقولهم: «إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا».

فأمر الله نبيّه ﷺ ان يجيبهم بقوله: «قل الله اسرع مكرا» ثم علله بقوله: «ان رسلنا يكتبون ما تمكرون» فلنا عليكم شهداء رقباء ارسناهم اليكم يكتبون اعمالكم ويحفظونها، وبمجرد ما عملتم عملاً حفظ عليكم وتعيّن جزاؤه لكم قبل ان يؤثر مكركم اثره او لا يؤثر كما فسروه.

وهنا شيء وهو أن الظاهر من قوله تعالى: ﴿هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا

نستنسخ ما كنتم تعملون﴾ (الجاثية / ٢٩) على ما سيجيء من البيان في تفسير الآية ان شاء الله تعالى أن معنى كتابة الملائكة اعمال العباد هو اخراجهم الاعمال من كمون الاستعدادات الى مرحلة الفعلية الخارجية ورسم نفس الاعمال في صحيفة الكون وبذلك تنجلي علّية كتابة الرسل لأعمالهم لكونه تعالى اسرع مكر اتمام الانجلاء فان حقيقة المعنى على هذا: أنّا نحن نخرج اعمالكم التي تمكرون بها من داخل ذواتكم ونضعها في الخارج فكيف يخفى علينا كونهم تريدون بنا المكر بذلك؟ وهل المكر إلّا صرف الغير عمّا يتصده بحيلة وستر عليه بل ذاك الذي تزعمونه مكراً بنا مكر منا بكم حيث نجعلكم تزعمونه مكراً وتقدمون على المكر بنا، وهذه المزعمة والاقدام ضلال منكم وإضلال منا لكم جزاء بما كسبته ايديكم، وسيأتي نظير هذا المعنى في قوله: ﴿يا ايها الناس انما بغيكم على انفسكم﴾ الآية ٢٣ من السورة.

وفي الآية التفات من الغيبة الى الخطاب في قوله: ﴿ان رسلنا يكتبون ما تمكرون﴾ على قراءة تمكرون بتاء الخطاب وهي القراءة المشهورة، وهو من عجيب الالتفات الواقع في القرآن ولعل النكتة فيه تمثيل معنى قوله: ﴿قل الله أسرع مكرا﴾ في العين كأنه تعالى لمّا قال لنبيّه ﷺ «قل الله اسرع مكراً» اراد ان يوضحه لهم عياناً ففاجأهم بتجليه لهم دفعة فكلّمهم وأوضح لهم السبب في كونه اسرع مكرا ثم حجبهم عن نفسه فعادوا الى غيبتهم وعاد الكلام الى حاله، وخوطب النبي ﷺ ببقية الخطاب «هو الذي يسيّركم» الخ: وهذا من لطيف الالتفات.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِي ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم﴾ الى آخر الآية: الفلك السفينة وتستعمل مفرداً وجمعاً، والمراد بها ههنا الجمع بدليل قوله: ﴿وجرين بهم﴾ والريح العاصف: الشديدة الهبوب، وقوله: ﴿أُحيط بهم﴾ كناية عن الاشراف على الهلاك، وتقديره احاط بهم البلاء او الامواج، والاشارة بقوله: «من هذه» الى الشدة. ومعنى الآية ظاهر.

وفيها من عجيب الالتفات الالتفات من الخطاب الى الغيبة في قوله: ﴿وجرين بهم بريح طيبة ـ الى قوله ـ بغير الحق﴾ ولعل النكتة فيه ارجاعهم الى الغيبة وتوجيه الخطاب الى النبي ﷺ ووصف اعجب جزء من هذه القصة الموصوفة له ليسمعه ويتعجب منه، ويكون فيه مع ذلك اعراض عن الامر بمخاطبتهم لأنهم لا يفقهون القول.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَنْجاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الأَرضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ اصل البغي هو الطلب ويكثر استعماله في مورد الظلم لكونه طلباً لحق الغير بالتعدي عليه ويقيَّد حينئذ بغير الحق، ولو كان بمعنى الظلم محضاً لكان القيد زائداً.

والجملة من تتمة الآية السابقة، والمجموع اعني قوله: ﴿هو الذي يسيّركم في البر والبحر ـ الى قوله ـ بغير الحق﴾ بمنزلة الشاهد والمثال بالنسبة الى عموم قوله قبله: «واذا اذقنا الناس رحمة من بعد ضرّاء مسّتهم» الى آخر الآية، او لخصوص قوله: ﴿قل الله اسرع مكراً﴾ وعلى اي حال فقوله: ﴿يا ايها الناس انما بغيكم على انفسكم﴾ الخ؛ مما يتوقف عليه تمام الغرض من الكلام في الآية السابقة وان لم يكن من كلام النبي ﷺ فافهم ذلك.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ﴾ الى آخر الآية؛ في الكلام التفات من الغيبة الى الخطاب فقوله: «يا ايها الناس» الخ؛ خطاب منه تعالى للناس بلا واسطة، وليس من كلام النبي ﷺ مما امره الله سبحانه ان يخاطب به الناس.

والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿ثم الينا مرجعكم﴾ الى آخر الآية؛ فانه لا يصلح ان يكون من خطاب النبي ﷺ.

والنكتة في هذا الالتفات هي نظير النكتة التي قدّمنا ذكرها في قوله تعالى في اول الكلام: «ان رسلنا يكتبون ما تمكرون» فكأنه سبحانه يفاجئهم بالاطلاع عليهم اثناء ما يخاطبهم النبي ﷺ وهم يحسبون ان ربهم غائب عنهم غافل عن نيّاتهم ومقاصدهم في اعمالهم

فيشرف عليهم ويمثل بذلك كونه معهم في جميع احوالهم واحاطته بهم ويقول لهم: انا اقرب اليكم والى اعمالكم منكم فما تعملونه من عمل تريدون به ان تبتغوا علينا وتمكروا بنا انما توجد بتقديرنا وتجري بأيدينا فكيف يمكنكم ان تبغوا بها علينا؟ بل هي بغي منكم على انفسكم فانها تبعدكم منا وتكتب آثامها في صحائف اعمالكم فبغيكم على انفسكم وهو متاع الحياة الدنيا تتمتعون به اياماً قلائل ثم الينا مرجعكم فنخبركم ونوضح لكم هناك حقائق اعمالكم.

وقوله: ﴿متاع الحياة الدنيا﴾ بالنصب في قراءة حفص عن عاصم والتقدير: تتمتعون متاع الحياة الدنيا، وبالرفع في قراءة غيره وهو خبر لمبتدء محذوف، والتقدير هو اي بغيكم وعملكم متاع الحياة الدنيا.

وعلى كلتا القراءتين فقوله: «متاع الحياة الدنيا» الى آخر الآية، تفصيل لإجمال قوله: «انما بغيكم على انفسكم» فقوله: «متاع» الخ؛ في مقام التعليل بالنسبة الىٰ كون بغيهم على انفسهم من قبيل تعليل الاجمال بالتفصيل وبيانه به.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ﴾ الى آخر الآية؛ لمّا ذكر سبحانه في الآية السابقة متاع الحياة الدنيا مثّل له بهذا المثل يصف فيه من حقيقة امره ما يعتبر به المعتبرون، وهو من الاستعادة التمثيلية وليس من تشبيه المفرد بالمفرد من شيء وان اوهم ذلك قوله: «كماء انزلناه» ابتداء، ونظائره شائعة في امثال القرآن، والزخرف الزينة والبهجة، وقوله: «لم تغن» من غني في المكان اذا اقام فيه فأطال المقام، والباقي ظاهر.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دارِ السَّلامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ الدعاء والدعوة عطف نظر المدعو الى ما يدعى اليه وجلب توجهه وهو اعم من النداء فان النداء يختص بباب اللفظ والصوت، والدعاء يكون باللفظ والاشارة وغيرهما،

والنداء انما يكون بالجهر ولا يقيّد به الدعاء.

والدعاء في الله سبحانه تكويني وهو ايجاد ما يريده لشيء كأنه يدعوه الى ما يريده، قال تعالى: ﴿يوم يدعوكم فستجيبون بحمده﴾ (الإسراء / ٥٢) اي يدعوكم الى الحياة الاخروية فتستجيبون الى قبولها، وتشريعي وهو تكليف الناس بما يريده من دين بلسان آياته، والدعاء من العبد لربه عطف رحمته وعنايته الى نفسه بنصب نفسه في مقام العبودية والمملوكية، ولذا كانت العبادة في الحقيقة دعاء لأن العبد ينصب فيها نفسه في مقام المملوكية والاتصال بمولاه بالتبعية والذلة ليعطفه بمولويته وربوبيته الى نفسه وهو الدعاء.

والى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿وقال ربكم ادعوني استجب لكم ان الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين﴾ (المؤمن / ٦٠) حيث عبّر اولاً بالدعاء ثم بدّله ثانياً العبادة.

٢٦ ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ.

٢٧ ﴿ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ.

٢٨ ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ.

٢٩ ﴿ فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ

لَغَافِلِينَ.

٣٠ هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾ الخ: الحسنى مؤنّث أحسن والمراد المثوبة الحسنى، والمراد بالزيادة الزيادة على الاستحقاق بناء على أن الله جعل من فضله للعمل مثلاً من الجزاء والثواب ثم جعله حقاً للعامل في مثل قوله: ﴿لهم أجرهم عند ربهم﴾ (آل عمران / ١٩٩) ثم ضاعفه وجعل المضاعف منه أيضاً حقاً للعامل كما في قوله: ﴿من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها﴾ (الأنعام / ١٦٠) وعند ذلك كان مفاد قوله: «للذين أحسنوا الحسنى» استحقاقهم للجزاء والمثوبة الحسنى، وتكون الزيادة هي الزيادة على مقدار الاستحقاق من المثل أو العشرة الأمثال نظير ما يفيده قوله: ﴿فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله﴾ (النساء / ١٧٣).

ولو كان المراد بالحسنى في قوله: «للذين أحسنوا الحسنى» العاقبة الحسنى، وليس فيما يعقل فوق الحسني شيء كان معنى قوله: «وزيادة» الزيادة على ما يعقله الانسان من الفضل الالهي كما يشير اليه قوله: ﴿فلا تعلم نفس ما أُخفي لهم من قرّة أعين﴾ (الم السجدة / ١٧) وما في قوله: ﴿لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد﴾ (ق / ٣٥) فإن من المعلوم أن كل أمر حسن يشاؤه الانسان فالمزيد على ما يشاؤه أمر فوق ما يدركه فافهم ذلك.

والرهق بفتحتين اللحوق والغشيان يقال: رهقه الدَّين أي لحق به وغشيه، والقتر الدخان الأسود أو الغبار الأسود، وفي توصيفهم بقوله: ﴿ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلّة﴾

محاذاة لما في الآية التالية من وصف أهل النار بسواد وجوههم بالقتر وهو سواد صوري والذلة وهي سواد معنوي.

والمعنى: للذين أحسنوا في الدنيا المثوبة الحسنى وزيادة من فضل الله ـ أو العاقبة الحسنى وزيادة لا تخطر ببالهم ـ ولا يغشى وجوههم سواد من قتر ولا ذلة. وأُولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ الى آخر الآية؛ جملة «جزاء سيّئة بمثلها» مبتدء لخبر محذوف والتقدير: لهم جزاء سيّئة بمثلها من العذاب. والجملة خبر للمبتدء الذي هو قوله: «الذين كسبوا السيئات» والمراد أن الذين كسبوا السيئات لا يجزون إلّا مثل ما عملوه من العقوبات السيئة فجزاء فعلة سيئة عقوبة سيئة.

وقوله: ﴿مَا لَهُمْ مِنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ أي مالهم عاصم يعصمهم من الله أي من عذابه وفيه نفي لشركائهم الذين يظنونهم شفعاء على وجه ينفي كل عاصم مانع سواء كان شريكاً شفيعاً أو ضداً قوياً ممانعاً أو أي عاصم غيرهما.

وقوله: ﴿كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعاً مِنَ ٱللَّيْلِ مُظْلِماً﴾ القطع جمع قطعة ومظلماً حال من الليل. والمراد كأن الليل المظلم قسّم الى قطع فاغشيت وجوههم تلك القطع فاسودّت بالتمام. والمتبادر منه أن يغشى وجه كل من المشركين بقطعة من تلك القطع لا كما فسّره بعضهم أن المراد أن الوجوه أُغشيت تلك القطع قطعة بعد قطعة فصارت ظلمات بعضها فوق بعض. فليس في الكلام ما يدل على ذلك.

وقوله: ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ يدل على دوام قائهم في النار للدلالة الصحابة والخلود عليه كما أن نظيره في أصحاب الجنة يدل على نظيره.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ

﴿وَشُرَكَاؤُكُمْ﴾ الى آخر الآية: المراد حشر جميع من سبق ذكره من المؤمنين والمشركين وشركائهم فإنه تعالى يذكر المشركين وشركاءهم في هذه الآية وما يتلوها ثم يشير الى الجميع بقوله في الآية التالية: «هنالك تبلو كل نفس ما أسلفت».

وقوله: ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ﴾ أي الزموا مكانكم أنتم وليلزم شركاؤكم مكانهم وتفرع على هذا الخطاب أن زيّلنا بينهم، وقطعنا الرابطة التي كانت تربطهم بشركائهم وهي رابطة الوهم والحسبان التي يتصلون بسببها بشركائهم فانقطعوا عن شركائهم وانقطع شركاؤهم عنهم فبان أن عبادتهم لم تقع عليهم ولم تتعلق بهم لأنهم إنما عبدوا الشركاء وهم ليسوا بشركاء.

قوله تعالى: ﴿فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ الى آخر الآية: ظهر معناه بما مرَّ من التقرير، والفاء في قوله: «فكفى بالله» يفيد التعليل كقولنا: اعبد الله فهو ربك، وهو شائع في الكلام.

قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ﴾ الى آخر الآية: البلاء الاختبار، والاشارة بقوله: ﴿هنالك﴾ الى الموقف الذي ذكره بقوله: ﴿ثم نقول للذين أشركوا مكانكم أنتم وشركاؤكم فزيّلنا بينهم﴾.

فذلك الموقف موقف تختبر وتمتحن كل نفس ما أسلفت وقدّمت من الأعمال فتنكشف لها حقيقة أعمالها وتشاهدها مشاهدة عيان لا مجرد الذكر او البيان، وبمشاهدة الحق من كل شيء عياناً ينكشف أن المولى الحقّ هو الله سبحانه، وتسقط وتنهدم جميع الأوهام، وتضل جميع الدعاوي التي يفتريها الانسان بأوهامه وأهوائه على الحقّ.

فهذه الافتراءات والدعاوي جميعاً إنما نشأت من حيث الروابط التي نضعها في هذه الدنيا بين الأسباب والمسببات والاستقلال والمولوية التي نعطيها الأسباب ولا إله إلّا الله ولا مولى حقاً إلّا هو سبحانه فإذا انجلت حقيقة الأمر، وانكشف غيم الوهم وانهتك حجاب الدعاوي

ظهر أن لا مولى حقاً إلّا هو سبحانه، وبطل جميع الآلهة التي إنما أُثبتها الافتراء من الانسان، وسقطت وحبطت جميع الاعمال إلّا ما عبد به الله سبحانه عبادة حقّ.

٣١ ● قُلْ مَنْ يَرزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ وَٱلْأَرضِ أَمَّنْ يَـمْلِكُ السَّـمْعَ
وَٱلْأَبصارَ وَمَنْ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ
ٱلْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللّهُ فَقُلْ أَفَلاٰ تَتَّقُونَ.

٣٢ ● فَذٰلِكُمُ ٱللّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَماذٰا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا الضَّلاٰلُ فَأَنّـىٰ
تُصْرَفُونَ.

٣٣ ● كَذٰلِكَ حَـقَّتْ كَـلِمَتُ رَبِّكَ عَـلَى ٱلَّـذِينَ فَسَـقُوا أَنَّـهُمْ لا
يُؤْمِنُونَ.

٣٤ ● قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكائِكُمْ مَنْ يَبْدَؤُا ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ ٱللّـهُ
يَبْدَؤُا ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنّىٰ تُؤْفَكُونَ.

٣٥ ● قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى ٱلْحَقِّ قُلِ ٱللّهُ يَهْدِي
لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لا يَهِدِّي إِلَّا
أَنْ يُهْدىٰ فَما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ.

٣٦ ● وَما يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنّاً إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْئاً إِنَّ
ٱللّهَ عَلِيمٌ بِما يَفْعَلُونَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ وَٱلْأَرضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَٱلْأَبْصارَ﴾ الى آخر الآية: الرزق هو العطاء الجاري، ورزقه تعالى للعالم الانساني من السماء هو نزول الامطار والثلوج ونحوه، ومن الارض هو بانباتها نباتها وتربيتها الحيوان ومنهما يرتزق الانسان، وببركة هذه النعم الالهية يبقى النوع الانساني والمراد بملك السمع والابصار كونه تعالى متصرفاً في الحواس الانسانية التي بها ينتظم له انواع التمتع من الارزاق المختلفة التي اذن الله تعالى ان يتمتع بها فانما هو يشخص ويميّز ما يريده مما لا يريده باعمال السمع والبصر واللمس والذوق والشم فيتحرك نحو ما يريده، ويتوقف او يفر مما يكرهه بها.

فالحواس هي التي تتم بها فائدة الرزق الالهي. وانما خص السمع والبصر من بينها بالذكر لظهور آثارهما في الأعمال الحيوية اكثر من غيرهما، والله سبحانه هو الذي يملكها ويتصرف فيها بالاعطاء والمنع والزيادة والنقيصة.

وقوله: ﴿وَمَنْ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ﴾ الحياة بحسب النظر البادىء في الانسان هي المبدء الذي يظهر به العلم والقدرة في الشيء فيصدر اعماله عن العلم والقدرة ما دامت الحياة، واذا بطلت بطل الصدور كذلك.

قوله تعالى: ﴿فَذٰلِكُمُ ٱللّٰهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَماذا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا الضَّلالُ فَأَنّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ الجملة الاولى نتيجة الحجة السابقة، وقد وصف الرب بالحق ليكون توضيحاً لمفاد الحجة، وتوطئة وتمهيداً لقوله بعده: «فماذا بعد الحق إلّا الضلال».

وقوله: ﴿ٱلْحَقُّ فَماذا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا الضَّلالُ﴾ أخذ بلازم الحجة السابقة لاستنتاج أنهم ضالون في عبادة الاصنام فانه اذا كانت ربوبيته تعالى حقه فان الهدى في اتباعه وعبادته فان الهدى مع الحق لا غير فلا يبقى عند غيره الذي هو الباطل إلا

الضلال.

فتقدير الكلام: فماذا بعد الحق الذي معه الهدى إلّا الباطل الذي معه الضلال فحذف من كل من الطرفين شيء وأُقيم الباقي مقامه ايجازاً. وقيل: فماذا بعد الحق إلّا الضلال، ولذا قال بعضهم: ان في الآية احتباكاً ـ وهو من المحسنات البديعية ـ وهو أن يكون هناك متقابلان فيحذف من كل منهما شيء يدل عليه الآخر فان تقدير الكلام: فماذا بعد الحق إلّا الباطل؟ وماذا بعد الهدى إلّا الضلال؟ فحذف الباطل من الأول والهدى من الثاني وبقي قوله: فماذا بعد الحق إلّا الضلال؟ والوجه هو الذي قدّمناه.

ثم تمم الآية بقوله: ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ اي الى متى تصرفون عن الحق الذي معه الهدى الى الضلال الذي مع الباطل.

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ظاهر السياق ان الكلمة التي تكلم الله سبحانه بها على الفاسقين هي انهم لا يؤمنون اي أنه سبحانه قضى عليهم قضاء حتماً وهو ان الفاسقين ـ وهم على فسقهم ـ لا يؤمنون ولا تنالهم الهداية الالهية الى الايمان، وقد قال تعالى: ﴿**والله لا يهدي القوم الفاسقين**﴾ (المائدة / ١٠٨).

وعلى هذا فالاشارة بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ الى ما تحصل من الآية السابقة: ان المشركين صرفوا عن الحق وفسقوا عنه فوقعوا في الضلال اذ ليس بعد الحق إلّا الضلال.

فمعنى قوله: ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ الخ: ان الكلمة الالهية والقضاء الحتمي الذي قضى به في الفاسقين ـ وهو أنهم لا يؤمنون ـ هكذا حقت وثبتت في الخارج واخذت مصداقها وهو انهم خرجوا عن الحق فوقعوا في الضلال اي إنا لم نقض عدم هدى الفاسقين وعدم إيمانهم ظلماً ولا جزافاً وانما قضينا ذلك لأنهم صرفوا عن الحق وفسقوا فوقعوا في الضلال ولا واسطة بينهما فافهم ذلك.

وفي الآية دلالة على ان الامور الضرورية والاحكام والقوانين البيّنة التي تجري في النظام المشهود كقولنا: لا واسطة بين الحق والباطل ولا بين الهدى والضلال لها نوع استناد الى القضاء الالهي، وليست ثابتة في ملكه تعالى من تلقاء نفسها.

قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكائِكُمْ مَنْ يَبْدَؤُا ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ الى آخر الآية: تلقين للاحتجاج من جهة المبدء والمعاد فان الذي يبدء كل شيء ثم يعيده يستحق ان يعبده الانسان اتقاء من يوم لقائه ليأمن من أليم عذابه وينال عظيم ثوابه يوم المعاد.

ولما كان المشركون ـ وهم المخاطبون بالحجة ـ غير قائلين بالمعاد أمر تعالى نبيه ﷺ ان يتصدى جواب سؤاله بنفسه وقال «قل الله يبدء الخلق ثم يعيده فأنّى تؤفكون» والى متى تصرفون عن الحق.

قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى ٱلْحَقِّ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ﴾ الى آخر الآية: يهدي للحق والى الحق بمعنى واحد فالهداية تتعدى بكلتا الحرفين، وقد رود تعديتها باللام في مواضع كثيرة من كلامه تعالى كقوله: ﴿اولم يهد لهم﴾ (الم السجدة / ٢٦)، وقوله: ﴿يهدي للتي هي اقوم﴾ (الإسراء / ٩) الى غير ذلك فما ذكره بعضهم من كون اللام في قوله: «يهدي للحق» للتعليل ليس بشيء.

لقّن سبحانه نبيّه ﷺ هذه الحجة وهي ثالثة الحجج، وهي حجة عقلية يعتمد عليها الخاصة من المؤمنين، وتوضيحها ان من المرتكز في الفطرة الانسانية وبه يحكم عقله ان من الواجب على الانسان ان يتّبع الحق حتى انه ان انحرف في شيء من اعماله عن الحق واتّبع غيره لغلط او شبهة او هوى فانما اتبعه لحسبانه اياه حقاً والتباس الأمر عليه، ولذا يعتذر عنه بما يحسبه حقاً فالحق واجب الاتباع على الاطلاق ومن غير قيد او شرط.

والهادي الى الحق واجب اتباعه لما عنده من الحق، ومن الواجب ترجيحه على من لا

يهدي اليه او يهدي الى غيره لأن اتباع الهادي الى الحق اتباع لنفس الحق الذي معه وجوب اتباعه ضروري[١].

وقوله في ذيل الآية: ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ استفهام للتعجيب استغراباً لحكمهم باتباع شركائهم مع حكم العقل الصريح بعدم جواز اتّباع من لا يهتدي ولا يهدي الى الحق.

قوله تعالى: ﴿وَما يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنّاً إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً﴾ أغنى يغني يتعدّى بمن وعن كلتيهما وقد جاء في الكلام الإلهي بكل من الوجهين فعديّ بمن كما في الآية، وبعن كما في قوله: ﴿ما أغنى عني ماليه﴾ (الحاقة / ٢٩).

وإنما نسب اتّباع الظن الى أكثرهم لأن الأقل منهم وهم أئمة الضلال على يقين من الحق، ولم يؤثروا عليه الباطل ويدعو اليه إلّا بغياً كما قال تعالى: ﴿وما اختلف فيه إلّا الذين اوتوه من بعد ما جاءتهم البيّنات بغياً بينهم﴾ (البقرة / ٢١٣). وأما الأكثرون فإنما اتّبعوا آباءهم تقليداً لهم لحسن ظنهم بهم.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِما يَفْعَلُونَ﴾ تعليل لقوله: «وما يتّبع أكثرهم إلّا ظناً» والمعنى أن الله عليم بما يأتونه من الأعمال يعلم أنها اتّباع للظن.

٣٧ ● وَمَا كانَ هٰذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلٰكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

---

١. يونس ٣١ـ٣٦: بحث في احتجاج القرآن على المشركين وآلهتهم: معنى الهداية: ان ليس من شركاء المشركين من يهدي الى الحق وان الله سبحانه يهدي الى الحق.

٣٨ ● أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرٰيهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَٱدْعُوا مَنِ ٱسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ ٱللّٰهِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ.

٣٩ ● بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ.

٤٠ ● وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لاٰ يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ.

٤١ ● وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ.

٤٢ ● وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كانُوا لاٰ يَعْقِلُونَ.

٤٣ ● وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كانُوا لاٰ يُبْصِرُونَ.

٤٤ ● إِنَّ ٱللّٰهَ لاٰ يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً وَلٰكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ.

٤٥ ● وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا ساعَةً مِنَ ٱلنَّهارِ يَتَعارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقاءِ ٱللّٰهِ وَمَا كانُوا مُهْتَدِينَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَمَا كانَ هٰذَا ٱلْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرىٰ مِنْ دُونِ ٱللّٰهِ﴾ الى آخر الآية:
قد تقدمت الاشارة الى ان نفي صفة او معنى بنفي الكون يفيد نفي الشأن والاستعداد، وهو أبلغ

من نفيه نفسه ففرق بين قولنا : ما كان زيد ليقوم ، وقولنا : لم قم او ما قام زيد إذ الاول يدل على أن القيام لم يكن من شأن زيد ولا استعد له استعداداً ، والثاني ينفي القيام عنه فحسب ، وفي القرآن منه شيء كثير كقوله : ﴿ فما كانوا ليؤمنوا بما كذّبوا به من قبل ﴾ (يونس / ٧٤)، وقوله : ﴿ ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان ﴾ (الشورى / ٥٣)، وقوله : ﴿ وما كان الله ليظلمهم ﴾ (العنكبوت / ٤٠).

فقوله : « وما كان هذا القرآن ان يفترى من دون الله » نفي لشأنية الافتراء عن القرآن كما قيل وهو أبلغ من نفي فعليته ، والمعنى ليس من شأن هذا القرآن ولا في صلاحيته أن يكون افتراء من دون الله يفتريه على الله سبحانه .

وقوله : ﴿ وَلَٰكِنْ تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ اي تصديقاً لما هو حاضر منزل من الكتاب وهو التوراة والانجيل كما حكى عن المسيح قوله : ﴿ يا بني اسرائيل اني رسول الله اليكم مصدقاً لما بين يديّ من التوراة ﴾ (الصف / ٦)، وإنما وصفهما بما بين يديه مع تقدمهما لأن هناك كتاباً غير الكتابين ككتاب نوح وكتاب ابراهيم عليهما السلام فاذا لوحظ تقدم جميعها عليه كان الاقرب منها زماناً اليه وهو التوراة والانجيل موصوفاً بأنه بين يديه .

وربما قيل : إن المراد بما بين يديه هو ما يستقبل نزوله من الامور كالبعث والنشور والحساب والجزاء ، وليس بشيء .

وقوله : ﴿ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَابِ ﴾ عطف على « تصديق » والمراد بالكتاب بدلالة من السياق جنس الكتاب السماوي النازل من عند الله سبحانه على انبيائه ، والتفصيل إيجاد الفصل بين أجزائها المندمجة بعضها في بعض المنطوية جانب منها في آخر بالايضاح والشرح .

وفيه دلالة على أن الدين الالهي المنزل على أنبيائه عليهم السلام واحد لا اختلاف فيه إلّا بالاجمال والتفصيل ، والقرآن يفصّل ما أجمله غيره كما قال تعالى : ﴿ إن الدين عند الله الاسلام ﴾

(آل عمران / ١٩).

وأن القرآن الكريم مفصّل لما أجمله الكتب السماوية السابقة مهيمن عليها جميعاً كما قال تعالى: ﴿وأنزلنا اليك الكتاب بالحقّ مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه﴾ (المائدة / ٤٨). وقوله: ﴿لاَ رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾ اي لا ريب فيه هو من رب العالمين، والجملة الثانية كالتعليل للولى.

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَيهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾ الى آخر الآية، أم منقطعة والمعنى بل يقولون افتراه، والضمير للقرآن، واتصاف السورة بكونها مثل القرآن شاهد على أن القرآن يصدق على الكثير منه والقليل.

والمعنى قل للذين يقولون افتراه: إن كنتم صادقين في دعواكم فأتوا بسورة مثل هذا القرآن المفترى وادعوا كل من استطعتم من دون الله مستمدين مستظهرين فانه لو كان كلاماً مفترى كان كلاماً بشرياً وجاز او يؤتى بمثله وفي ذلك تحدّ ظاهر بسورة واحدة من سور القرآن طويلة كانت او قصيرة[1].

قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ الى آخر الآية: الآية تبين وجه الحقيقة في عدم إيمانهم به وقولهم إنه افتراء وهو أنهم كذّبوا من القرآن بما لم يحيطوا بعلمه أو كذّبوا من القرآن بما لم يحيطوا بعلمه أو كذّبوا بالقرآن الذي لم يحيطوا بعلمه ففيه معارف حقيقة من قبيل العلوم الواقعية لا يسعها علمهم، ولم يأتهم تأويله بعد أي تأويل ذاك الذي كذّبوا به حتى يضطرهم الى تصديقه.

هذا ما يقتضيه السياق من المعنى فقوله: ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ يشير الى يوم القيامة كما يؤيده قوله تعالى: ﴿هل ينظرون إلّا تأويله يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل

---

١. يونس ٣٧ـ٤٥: بحث في تحدي القرآن.

قد جاءت رسل ربّنا بالحق فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نردّ فنعمل غير الذي نعمل ﴾ (الأعراف / ٥٣).

قوله تعالى: ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لاَ يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴾ قسّمهم قسمين من يؤمن بالقرآن ومن لا يؤمن به ثم كنّى عمن لا يؤمن به أنهم مفسدون فتحصل من ذلك ان الذين يكذّبون بما في القرآن انما كذّبوا به لأنهم مفسدون.

فالآية لبيان حالهم الذي هم عليه من ايمان البعض وكفر البعض وأن الكفر ناش من رذيلة الإفساد.

قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ﴾ الى آخر الآية: تلقين للتبرّي على تقدير تكذيبهم له، وهو من مراتب الانتصار لحق ممن انتهض لاحيائه فالطريق هو حمل الناس عليه ان حملوا وإلاّ فالتبرّي منهم لئلا يحملوه على باطلهم.

وقوله: ﴿ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ تفسير لقوله: «لي عملي ولكم عملكم».

قوله تعالى: ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لاَ يَعْقِلُونَ ﴾ الاستفهام للإنكار، وقوله: «ولو كانوا لا يعقلون» قرينة على ان المراد بنفي السمع نفي ما يقارنه من تعقّل ما يدل عليه الكلام المسموع وهو المسمّى بسمع القلب.

والمعنى: ومنهم الذين يستمعون اليك وهم صمٌ لا سمع لقلوبهم، ولست انت قادراً على إسماعهم ولا سمع لهم.

قوله تعالى: ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ ﴾ الى آخر الآية. الكلام فيها نظير الكلام في سابقتها.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لاَ يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً وَلٰكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ مسوق للاشارة الى ان ما ابتلي به هؤلاء المحرومون من السمع والبصر من جهة الصمم والعمى

من آثار ظلمهم انفسهم ن غير ان يكون الله تعالى ظلمهم بسلب السمع والبصر عنهم فانهم انما أُوتوا من قبل أنفسهم.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ الخ؛ ظاهر الآية ان يكون «يوم» ظرفاً متعلقاً بقوله: «قد خسر» الخ؛ وقوله: «كأن لم يلبثوا إلّا ساعة» الخ؛ حالاً من ضمير الجمع في «يحشرهم» وقوله: «يتعارفون بينهم» حالاً ثانياً مبيناً للحال الاول.

والمعنى قد خسر الذين كذّبوا بلقاء الله في يوم يحشرهم اليه حالكونهم يستقلون هذه الحياة الدنيا فيعدّونها كمكث ساعة من النهار وهم يتعارفون بينهم من غير ان ينكر بعضهم بعضاً او ينساه.

٤٦ ● وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ.

٤٧ ● وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ.

٤٨ ● وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ.

٤٩ ● قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرّاً وَلَا نَفْعاً إِلَّا مَا شَاءَ ٱللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ.

٥٠ ● قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَيكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتاً أَوْ نَهَاراً مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ.

٥١ ● أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ ءَآلْآنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ.

٥٢ ❁ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِما كُنتُمْ تَكْسِبُونَ.

٥٣ ❁ وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ اي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ.

٥٤ ❁ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي ٱلْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا ٱلْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ.

٥٥ ❁ أَلا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ أَلا إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ.

٥٦ ❁ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾ إما نرينّك أصله: إن نرك، زيد عليه ما والنون الثقيلة للتأكيد، والترديد بين الإرادة والتوفّي للتسوية واستيعاب التقادير، والمعنى الينا مرجعهم على اي تقدير، ولفظة ثم للتراخي بحسب ترتيب الكلام دون الزمان والآية مسوقة لتطييب نفس النبي ﷺ ولتكون كالتوطئة لحديث قضاء العذاب الذي ستفصله الآيات التالية لهذه الآية.

والمعنى طب نفساً فإنا موقعون بهم ما نعدهم سواء أريناك بعض ذاك او توفّيناك قبل أن نريك ذاك فإن أمرهم الينا ونحن شاهدون لأفعالهم المستوجبة للعذاب لا تغيب عنّا ولا ننساها.

والالتفات من قوله: «نرينّك» الى قوله: «ثم الله شهيد» للدلالة على علّة الحكم فإن الله سبحانه شهيد على كل فعل بمقتضى أُلوهيته.

قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ قضاء إلهيّ منحلّ الى قضاءين أحدهما: أن لكل أُمة من الامم رسولاً يحمل رسالة الله اليهم ويبلّغها إياهم، وثانيهما: أنه اذا جاءهم وبلّغهم رسالته فاختلفوا من مصدّقٍ له ومكذّبٍ فإن الله يقضي ويحكم بينهم بالقسط والعدل من غير أن يظلمهم. هذا ما يعطيه سياق الكلام من المعنى.

ومنه يظهر أن قوله: «فإذا جاء رسولهم» فيه إيجاز بالحذف والإضمار والتقدير: فإذا جاء رسولهم اليهم وبلّغ الرسالة فاختلف قومه بالتكذيب والتصديق، ويدل على ذلك قوله: «قضي بينهم بالقسط وهم لا يظلمون» فإن القضاء إنما يكون فيما اختلف فيه، ولذا كان السؤال عن القسط وعدم الظلم في القضاء في مورد العذاب والضرار أسبق الى الذهن.

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ سؤال منهم عن وقت هذا القضاء الموعود، وهو القضاء بينهم في الدنيا، والسائلون هم بعض المشركين من معاصري النبي ﷺ، والدليل عليه أمره أن يجيبهم بقوله: «قل لا أملك لنفسي ضراً ولا نفعاً إلّا ما شاء الله لكل أُمة أجل» الخ؛ فقول بعضهم: إن السؤال عن عذاب يوم القيامة او إن السائلين بعض المشركين من الامم السابقة لا يلتفت اليه.

قوله تعالى: ﴿قُلْ لاَ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرّاً وَلاَ نَفْعاً إِلّاَ مَا شَاءَ ٱللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ الى آخر الآية؛ لما كان قولهم: «متى هذا الوعد إن كنتم صادقين» في معنى قولنا: أيّ وقت يفي ربك بما وعدك او يأتي بما أوعدنا به أنه يقضي بيننا وبينك فيهلكنا وينجيك والمؤمنين بك فيصفو لكم الجو ويكون لكم الأرض وتخلصون من شرّنا؟ فهلا عجّل لكم

ذلك ـ وذلك أن كلامهم مسوق سوق الاستعجال تعجيزاً واستهزاء كما تدل على استعجالهم الآيات التالية وهذا نظير قولهم: ﴿لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين﴾ (الحجر / ٧).

لقّن سبحانه النبي ﷺ أن يبدأهم في الجواب ببيان أنه لا يملك لنفسه ضرّاً حتى يدفعه عنها ولا نفعاً حتى يجلبه اليها ويستعجل ذلك إلّا ما شاء الله أن يملكه من ضرّ ونفع فالأمر الى الله سبحانه جميعاً، واقتراحهم عليه بأن يعجّل لهم القضاء والعذاب من الجهل.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتاً أَوْ نَهَاراً مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ الى آخر الآيتين، البيات والتبييت الإتيان ليلاً ويغلب في الشر كقصد العدو عدوه ليلاً.

ولما كان قولهم: «متى هذا الوعد إن كنتم صادقين» في معنى استعجال آية العذاب التي يلجئهم الى الايمان رجع بعد بيان تحقق الوقوع الى توبيخهم وذمهم من الجهتين فوبّخهم أوّلاً على استعجالهم بالعذاب، وهو عذاب فجاءيّ من الحزم أن يكون الانسان منه على حذر لا أن يستعجل فيه فقال تعالى ملقّناً لنبيّه ﷺ «قل أرأيتم» وأخبروني «إن أتاكم عذابه بياتاً» ليلاً «أو نهاراً» فإنه عذاب لا يأتيكم إلّا بغتة إذ لستم تعلمون وقت نزوله «ماذا يستعجل منه» من العذاب «المجرمون» أي ماذا يستعجلون منه وأنتم مجرمون لا يتخطاكم اذا أتاكم.

ففي قوله: «ماذا يستعجل منه المجرمون» التفات من الخطاب الى الغيبة وكأنَّ النكتة فيه رعاية حالهم أن لا يشافهوا بصريح الشر وليكون تعرضاً لملاك نزول العذاب عليهم وهو إجرامهم.

ووبّخهم ثانياً على تأخير إيمانهم الى حين لا ينفعهم الايمان فيه وهو حين نزول العذاب فإنه آية العذاب يلجئهم الى الايمان على ما هو المجرب من إيمان الانسان عند إشراف الهلكة،

ومن جهة أُخرى الإيمان توبة والتوبة غير مقبولة عند ظهور آية العـذاب والإشراف عـلى الموت.

فقال تعالى ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ﴾ العذاب «آمنتم بـه» أي بـالقرآن او بـالدين أو بـالله «الآن» أي أتؤمنون به في هذا الآن والوقت «وقد كنتم به تستعجلون» وكان معنى استعجالهم عدم الاعتناء بشأن هذا العذاب وتحقيره بالاستهزاء به.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ الأشبه أن تكون الآية متصلة بقوله تعالى: «لكل أُمة أجل» الخ؛ فتكون الآية الاولى تبين تحقق وقوع العذاب عليهم وإهلاكه إياهم، والآية الثانية تبين أنه يقال لهم بعد الوقوع والهلاك: ذوقوا عذاب الخلد وهو عذاب الآخرة ولا تجزون إلّا أعمالكم التي كنتم تكسبونها وذنوبكم التي تحملونها، والخطاب تكويني كنّي به عن شمول العـذاب لهـم ونـيله إياهم، وعلى هذا المعنى فالآيتان «قل أرأيـتم ـ الى قـوله ـ تسـتعجلون» واردتـان مـورد الاعتراض.

قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ اي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ الى آخر الآية؛ يستنبؤنك أي يستخبرونك، وقوله: «أحـقّ هـو» بـيان له، والضمير على ما يفيده السياق راجع الى القضاء أو العذاب، والمآل واحد، وقد أمر سبحانه نبيّه ﷺ أن يؤكد القول في إثباته من جميع جهاته، وبعبارة أُخرى أن يجيبهم بوجود المقتضي وعدم المانع.

فقوله: «قل إي وربي إنه لحق» إثبات لتحققه وقد أكد الكلام القسم والجملة الاسمية وإن واللام، وقوله: «وما أنتم بمعجزين» بيان أنه لا مانع هناك يمنع من حلول العذاب بكم.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي ٱلْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ﴾ الى آخر الآية، إشارة الى شدة العذاب وأهمية التخلص منه عندهم، وإسرار الندامة إخـفاؤها

وكتمانها خشية الشماتة ونحوها، والظاهر أنّ المراد بالقضاء والعذاب في الآية هو القضاء والعذاب الدنيويان لا غير.

قوله تعالى: ﴿أَلا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ الآية وما بعدها بيان برهاني على حقّيّة ما ذكره من كونه حقاً واقعاً لا يمنع عنه مانع فإنّ كل شيء مما في السماوات والأرض اذا كان مملوكاً لله وحده لا شريك له كان كل تصرف مفروض فيها اليه تعالى، ولم يكن لغيره شيء من التصرف إلّا بإذنه فإذا تصرف في شيء كان مستنداً الى إرادته فقط من غير أن يستند الى مقتض آخر خارج يتصرف في ذاته المقدسة فيحمله على الفعل، أو يتقيد بعدم مانع خارجي اذا وجد تصرف فيه سبحانه بمنعه عن الفعل، فهو تعالى يفعل ما يفعل عن نفسه من غير أن يرتبط الى مقتض من خارج أو مانع من خارج فإذا أراد سبحانه شيئاً فعله من غير مدّ او عائق، واذا وعد وعداً كان حقاً لا مردّ له من غير ان يتغير عن وعده بصارف[١].

قوله تعالى: ﴿هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ احتجاج على ما تقدم في الآية السابقة من ملكه تعالى بالنسبة الى نوع الإنسان كأنه تعالى يقول: إن أمركم جميعاً من حياة وموت ورجوع اليه تعالى فكيف لا تكونون ملكاً له.

٥٧ ● يا أَيُّها النَّاسُ قَدْ جاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفاءٌ لِما فِي الصُّدُورِ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ.

٥٨ ● قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ.

---

١. كلام في ملكه تعالى لما في السموات والارض، حقيقة معنى ملكه وسلطانه.

٥٩ ● قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَـرَامـاً
وَحَلاٰلاً قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَىَ ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ.

٦٠ ● وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللّٰهِ ٱلْكَذِبَ يَـوْمَ ٱلْـقِيَامَةِ إِنَّ
ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاٰ يَشْكُرُونَ.

٦١ ● وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمٰا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلاٰ تَعْمَلُونَ مِنْ
عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ
رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلاٰ فِي ٱلسَّمٰاءِ وَلاٰ أَصْغَرَ
مِنْ ذٰلِكَ وَلاٰ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتٰابٍ مُبِينٍ.

٦٢ ● أَلاٰ إِنَّ أَوْلِيٰاءَ ٱللّٰهِ لاٰ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاٰ هُمْ يَحْزَنُونَ.

٦٣ ● ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَكانُوا يَتَّقُونَ.

٦٤ ● لَهُمُ ٱلْبُشْرىٰ فِي ٱلْحَيٰوةِ ٱلدُّنْـيا وَفِـي ٱلْآخِـرَةِ لاٰ تَـبْدِيلَ
لِكَلِمٰاتِ ٱللّٰهِ ذٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ.

٦٥ ● وَلاٰ يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلّٰهِ جَمِيعاً هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ.

٦٦ ● أَلاٰ إِنَّ لِلّٰهِ مَنْ فِي ٱلسَّمٰواتِ وَمَنْ فِـي ٱلْأَرْضِ وَمَـا يَـتَّبِعُ
ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ ٱللّٰهِ شُرَكاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ
هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ.

٦٧ ● هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَٱلنَّهٰارَ مُبْصِراً إِنَّ فِي
ذٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ.

٦٨ ● قَالُوا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَداً سُبْحٰانَهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي ٱلسَّمٰاواتِ

وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَٰذَا أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ.

٦٩ ◉ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ.

٧٠ ◉ مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ الى آخر الآية؛ قال الراغب في المفردات: الوعظ زجر مقترن بتخويف، وقال الخليل: هو التذكير بالخير فيما يرق له القلب، والعظة والموعظة الاسم، انتهى. والصدر معروف والناس لمّا وجدوا القلب في الصدر وهم يرون أن الإنسان إنما يدرك ما يدرك بقلبه وبه يعقل الامور ويحب ويبغض ويريد ويكره ويشتاق ويرجو ويتمنى، عدّوا الصدر خزانة لما في القلب من أسراره والصفات الروحية التي في باطن الإنسان من فضائل ورذائل، وفي الفضائل صحة القلب واستقامته، وفي الرذائل سقمه ومرضه، والرذيلة داء يقال: شفيت صدري بكذا اذا ذهب به ما في صدره من ضيق وحرج، ويقال: شفيت قلبي، فشفاء الصدور وشفاء ما في الصدور كناية عن ذهاب ما فيها من الصفات الروحية الخبيثة التي تجلب الى الإنسان الشقاء وتنغّص عيشته السعيدة وتحرمه خير الدنيا والآخرة.

والهدى هي الدلالة على المطلوب بلطف على ما ذكره الراغب، وقد تقدم في ذيل قوله تعالى: ﴿فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام﴾ (الأنعام / ١٢٥) في الجزء السابع من الكتاب بحث فيها.

والرحمة تأثر خاص في القلب عن مشاهدة ضر أو نقص في الغير يبعث الراحم الى جبر كسره وإتمام نقصه، وإذا نسبت اليه تعالى كان بمعنى النتيجة دون أصل التأثّر لتنزّهه تعالى عن ذلك فينطبق على مطلق عطيّته تعالى وإفاضته الوجود على خلقه.

وعطيته اذا نسبت الى مطلق خلقه كانت هي ما ينسب اليه تعالى من وجودهم وبقائهم ورزقهم الذي يمدّ به بقاؤهم وسائر ما ينعم به عليهم من نعمه التي لا تحصى كثرة وإن تعدّوا نعمة الله لا تحصوها، واذا نسبت الى المؤمنين خاصة كانت هي ما يختص بهم من سعادة الحياة الانسانية بمظاهرها المختلفة التي ينعم الله بها عليهم من المعارف الحقة الإلهية، والأخلاق الكريمة والأعمال الصالحة، والحياة الطيبة في الدنيا والآخرة والجنة والرضوان.

ومن ثم اذا وصف القرآن بأنه رحمة للمؤمنين كان معناه أنه يغشي المؤمنين أنواع الخيرات والبركات التي كنزها الله فيه لمن تحقق بحقائقها وتلبّس بمعانيها، قال تعالى: ﴿ **ونـنزّل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلّا خساراً** ﴾ (الإسراء / ٨٢).

قوله تعالى: ﴿ **قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ** ﴾ الفضل هو الزيادة، وتسمى العطية فضلاً لأن المعطي إنما يعطي غالباً ما لا يحتاج اليه من المال ففي تسمية ما يفيضه الله على عباده فضلاً إشارة الى غناه تعالى وعدم حاجته في إفاضته الى ما يفيضه ولا الى من يفيض عليه.

وليس من البعيد أن يكون المراد بالفضل ما يبسطه الله من عطائه على عامة خلقه، وبالرحمة خصوص ما يفيضه على المؤمنين فإن رحمة السعادة الدينية اذا انضمن الى النعمة العامة من حياة ورزق وسائر البركات العامة كان المجمع منهما أحق بالفرح والسرور وأحرى بالانبساط والابتهاج.

ومن الممكن أن يتأيد ذلك بقوله: «بفضل الله وبرحمته» حيث أُدخلت باء السببية على كل من الفضل والرحمة، وهو مشعر بكون كل واحد منهما سبباً مستقلاً وإن جمع بينهما ثانياً

بقوله: «فبذلك فليفرحوا» للدلالة على استحقاق مجموعها لأن ينحصر فيه الفرح.

ويمكن ان يكون المراد بالفضل غير الرحمة ومن الامور المذكورة في الآية السابقة اعطي الموعظة وشفاء ما في الصدر والهدى، والمراد بالرحمة: الرحمة بمعناها المذكور في الآية السابقة وهي العطيّة الخاصة الإلهية التي هي سعادة الحياة في الدنيا والآخرة.

والمعنى على هذا: ان ما تفضل الله به عليهم من الموعظة وشفاء ما في الصدور والهدى، وما رحم المؤمنين به من الحياة الطيّبة ذلك احق ان يفرحوا به دون ما يجمعونه من المال.

وربما تأيد هذا الوجه بقوله سبحانه: ﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من احد ابداً ولكن الله يزكّي من يشاء﴾ (النور / ٢١) حيث نسب زكاتهم الى الفضل والرحمة معاً واستناد الزكاة الى الفضل بمعنى العطية العامة بعيد عن الفهم، ومما يؤيد هذا الوجه ملائمته لما ورد في الرواية من تفسير الآية بالنبي ﷺ وعلي عليه السلام او بالقرآن والاختصاص به وسيجيء ان شاء الله.

وقوله: ﴿فَبِذٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ ذكروا ان الفاء في قوله: «فيفرحوا» زائدة كقول الشاعر: «فاذا قتلت فعند ذلك فاجزعي» والظرف اعني قوله: «فبذلك» بدل من قوله: «بفضل الله وبرحمته»، ومتعلق بقوله: «فليفرحوا» قدّم عليه لإفادة الحصر، وقوله: «هو خير مما يجمعون» بيان ثان لمعنى الحصر.

فظهر بذلك كله ان الآية تفريع على مضمون الآية السابقة فانه تعالى لمّا خاطب الناس امتناناً عليهم أن هذا القرآن موعظة لهم وشفاء لما في صدورهم وهدى ورحمة للمؤمنين منهم فرّع عليه انه ينبغي لهم حينئذ ان يفرحوا بهذا الذي امتنّ به عليهم من الفضل والرحمة لا بالمال الذي يجمعونه فان ذلك ـ وفيه سعادتهم وما تتوقف عليه سعادتهم ـ خير من المال الذي ليس إلّا فتنة ربما اهلكتهم واشقتهم.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَاماً

وَحَلَٰلاً ﴾ الى آخر الآية : نسبة الرزق وهو ما يمد الانسان في بقائه من الامور الأرضية من مأكول ومشروب وملبوس وغيرها الى الإنزال مبني على حقيقة يفيدها القرآن وهي ان الاشياء لها خزائن عند الله تتنزل من هناك على حسب ما قدّرها الله سبحانه ، قال تعالى : ﴿ وان من شيء إلّا عندنا خزائنه وما ننزله إلّا بقدر معلوم ﴾ (الحجر / ٢١) وقال تعالى : ﴿ وفي السماء رزقكم وما توعدون ﴾ (الذاريات / ٢٢) وقال : ﴿ وأنزل لكم من الانعام ثمانية ازواج ﴾ (الزمر / ٦) وقال : ﴿ وأنزلنا الحديد ﴾ (الحديد / ٢٥).

واما ما قيل : ان التعبير بالانزال انما هو لكون ارزاق العباد من المطر الذي ينزله الله من السماء ، فوجه بسيط لا يطرد على تقدير صحته في جميع الموارد التي عبر فيها عن كينونتها بالإنزال كما في الانعام وفي الحديد ، والرزق الذي تذكر الآية ان الله انزله لهم فجعلوا منه حراماً وحلالاً هو الأنعام من الإبل والغنم كالوصيلة والسائبة والحام وغيرها .

واللام في قوله : ﴿ لَكُمْ ﴾ للغاية وتفيد معنى النفع اي انزل الله لأجلكم ولتنتفعوا به ، وليست للتعدية فان الانزال انما يتعدى بعلى او الى ، ومن هنا افاد الكلام معنى الاباحة والحل اي انزلها الله فأحلها ، وهذا هو النكتة في تقديم التحريم على الاحلال في قوله : « فجعلتم منه حراماً وحلالاً » اي كان الله احله لكم بانزاله رزقاً لكم تنتفعون به في حياتكم وبقائكم ولكنكم قسمتموه قسمين من عند انفسكم فحرّمته قسماً وأحللتم آخر فالمعنى : قل لهم يا محمّد : اخبروني عما انزل الله لكم ولأجلكم من الرزق الحلال فقسمتموه قسمين وجعلتم بعضه حراماً وبعضه حلالاً ما هو السبب في ذلك ؟ ومن البيّن انه افتراء على الله لا عن إذن منه تعالى .

وقوله : ﴿ قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴾ سؤال عن سبب تقسيمهم الرزق الى حرام وحلال ، واذ كان من البيّن انه ليس ذلك عن اذن منه تعالى لعدم اتصالهم بربهم بوحي او رسول كان من المتعيّن انه افتراء فالاستفهام في سياق الترديد كناية عن اثبات

الافتراء لهم وتوبيخ وذم.

والذي يقضي به النظر الابتدائي ان الترديد في الآية غير حاصر اذ كما يجوز ان يكون تقسيمهم رزق الله الى حرام وحلال عن اذن من الله او افتراء عليه تعالى كذلك يجوز ان يكون عن مصلحة احرزوها او زعموها في ذلك او عن هوى لهم فيه من غير أن ينسبوه الى الله تعالى فيكون افتراء عليه.

ومن وجه آخر الترديد في الآية بين إذن الله والافتراء على الله يشعر بأن الحكم إنما هو لله فالحكم بكون بعض الرزق حراماً وبعضه حلالاً وهو دائر بينهم إما أن يكون من الله او افتراء عليه، ومن الممكن أن يمنع ذلك في بادىء النظر فكثير من السنن الدائرة بين الناس كوّنتها طبيعة مجتمعهم او عادتهم القومية وغير ذلك.

لكن التدبر في كلامه تعالى والبحث العميق يدفع ذلك فإن القرآن يرى أن الحكم يختص بالله تعالى، وليس لأحد من خلقه أن يبادر الى تشريع حكم ووضعه في المجتمع الانساني، قال تعالى: ﴿ إن الحكم إلّا لله ﴾ (يوسف / ٤٠).

وقد أشار تعالى الى لمّ ذلك في قوله: ﴿ **فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم** ﴾ (الروم / ٣٠) فتبين به أن معنى كون الحكم لله كونه معتمداً على الخلقة والفطرة منطبقاً عليها غير مخالف لما ينطق به الكون والوجود.

وذلك أن الله سبحانه لم يخلق الخلق عبثاً كما قال: ﴿ **أفحسبتم إنما خلقناكم عبثا** ﴾ (المؤمنون / ١١٥) بل خلقهم لأغراض إلهية وغايات كمالية يتوجهون اليها بحسب جبلتهم ويسيرون نحوها بفطرتهم بما جهزهم به من الأسباب والأدوات وهداهم اليه من السبيل الميسّر لهم كما قال: ﴿ **أعطى كل شيء خلقه ثم هدى** ﴾ (طه / ٥٠)، وقال: ﴿ **ثم السبيل يسره** ﴾ (عبس / ٢٠).

قوله تعالى: ﴿ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ ﴾ الى

آخر الآية: لما كان جواب الاستفهام المتقدم «آلله أذن لكم أم على الله تفترون» معلوماً من المورد، وهو أنه افتراء، استعظم وخامة عاقبته فإنه افتراء على الله سبحانه والافتراء من الآثام والذنوب بحكم البداهة فلا محالة له أثر سيء، ولذلك قال تعالى إيعاداً وتهديداً «وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة».

وأما قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَشْكُرُونَ﴾ فهو شكوى وعتبى يشار به الى ما اعتاد عليه الناس من كفران اكثرهم لنعمة الله، وعدم شكرهم قبال عطيته ونعمته، والمراد بالفضل ههنا هو العطية الإلهية فإن الكلام في الرزق الذي أنزله الله لهم وهو الفضل، وتحريمهم بعضه وهو الكفران وعدم الشكر.

وبرجوع ذيل الآية الى صدرها يكون الافتراء على الله من مصاديق كفران نعمته، والمعنى أن الله ذو فضل وعطاء على الناس ولكن أكثرهم كافرون لنعمته وفضله فما ظن الذين يكفرون بنعمة الله ورزقه بتحريمه افتراء على الله الكذب يوم القيامة.

قوله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً﴾ الى آخر الآية: قال الراغب: الشأن الحال والأمر الذي يتفق ويصلح، ولا يقال إلّا فيما يعظم من الأحوال والامور قال «كل يوم هو في شأن». انتهى.

وقوله: ﴿وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ﴾ الظاهر أن الضمير الى الله سبحانه ومن الاولى للابتداء والنشوء والثانية للبيان، والمعنى: ولا تتلو شيئاً هو القرآن ناشئاً ونازلاً من قبله تعالى، والإفاضة في الفعل الخوض فيه جمعاً.

وقد وقع في قوله: ﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً﴾ التفات من الغيبة الى التكلم مع الغير، والنكتة فيه الإشارة الى كثرة الشهود فإن لله شهوداً على أعمال الناس من الملائكة والناس والله من ورائهم محيط، والعظماء يتكلمون عنهم وعن غيرهم للدلالة على أن لهم أعواناً وخدمة.

وليس ينبغي أن يغفل عن أن اصل الالتفات يبدأ من اول الآية فإن الآيات السابقة كانت تخاطب النبي ﷺ وتأخذ المشركين على الغيبة وتكلمهم بوساطته من غير أن تواجهه بشيء من الخطاب يخص نفسه، وقد حوّلت هذه الآية وجه الكلام الى النبي ﷺ بما يخص به نفسه فقالت «وما تكون من شأن ولا تتلو منه من قرآن» ثم جمعته والمشركين وغيرهم جميعاً في خطاب واحد فقالت «ولا تعملون من عمل إلّا كنا عليكم شهوداً» وذلك بضمهم الى النبي ﷺ وهم على غيبتهم وبسط الخطاب على الجميع بنوع من التغليب كما تقول لمخاطبك: أنت وقومك تفعلون كذا وكذا.

والدليل على أن هذا الخطاب بنحو الضم والتغليب قوله بعده: «ولا يعزى عن ربك» الخ؛ فإن يكشف عن كون الخطاب معه ﷺ جارياً على ما كان.

وعلى أي حال فالتحول المذكور في خطاب الآية للإشارة الى أن السلطنة والإحاطة التامة الإلهية واقعة على الأعمال شهادة وعلماً على أتمّ ما يكون من كل جهة من غير أن يستثنى منه نبي ولا مؤمن ولا مشرك او يغفل عن عمل من الاعمال فلا يتوهمن احد أن الله يخفى عليه شيء من أمره فلا يحاسبه عليه يوم القيامة، وليكن هذا هو ظنه بربه يوم القيامة وليأخذ حذره.

وذكر تلاوة القرآن مستقلاً مع دخوله في قوله قبلاً: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾ فإنه احد شؤنه ﷺ للايماء الى أهمية أمرها ومزيد العناية بها.

وفي الآية اولاً تشديد في العظة على النبي ﷺ وعلى أُمته، وثانياً: أن الذي يتلوه النبي ﷺ من القرآن للناس من وحي الله وكلامه لا يطرقه تغيير ولا يدب فيه باطل لا في تلقيه منا لله ولا في تلاوته للناس فالآية قريبة المضمون من قوله: ﴿عالم الغيب فلا يظهر على غيبه احداً إلّا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً ليعلم ان قد أبلغوا رسالات ربهم﴾ (الجن / ٢٨).

وقوله: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾ الى آخر الآية؛ العزوب الغيبة والتباعد والخفاء، وفيه إشارة الى حضور الأشياء عنده تعالى من غير غيبة وحفظه لها في كتاب من غير زوال، وقد تقدم بعض ما يتعلق به من الكلام في ذيل قوله: ﴿وعنده مفاتح الغيب﴾ (الأنعام / ٥٩) في الجزء السابع من الكتاب.

قوله تعالى: ﴿أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ ٱللَّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ استئناف في الكلام غير أنه متعلق بغرض السورة وهو الدعوة الى الايمان بكتاب الله والندب الى توحيد الله تعالى بمعناه الوسيع.

وللدلالة على أهمية المطلب افتتح بلفظة «ألا» التنبيهية. والله سبحانه يذكر في هذه الآية والآيتين بعدها أولياءه ويعرّفهم ويصف آثار ولايتهم وما يختصون به من الخصيصة.

فأولياء الله ـ على أي حال ـ هو المؤمنون فإن الله يعدّ نفسه ولياً لهم في حياتهم المعنوية حيث يقول: ﴿والله ولي المؤمنين﴾ (آل عمران / ٦٨).

غير أن الآية التالية لهذه الآية المفسرة للكلمة تأبى أن تكون الولاية شاملة لجميع المؤمنين وفيهم امثال الذين يقول الله سبحانه فيهم: ﴿وما يؤمن أكثرهم بالله إلّا وهم مشركون﴾ (يوسف / ١٠٦) فإن قوله في الآية التالية: «الذين آمنوا وكانوا يتقون» يعرّفهم بالايمان والتقوى مع الدلالة على كونهم على تقوى مستمر سابق على إيمانهم من حيث الزمان حيث قيل «آمنوا» ثم قيل عطفاً عليه «وكانوا يتقون» فدلَّ على أنهم كانوا يستمرون على التقوى قبل تحقق هذا الايمان منهم ومن المعلوم أن الايمان الابتدائي غير مسبوق بالتقوى بل هما متقاربان او هو قبل التقوى وخاصة التقوى المستمر.

فالمراد بهذه الايمان مرتبة أُخرى من مراتب الايمان غير المرتبة الاولى منه. فقد تقدم في الجزء الأول من الكتاب آية ١٣٠ من البقرة أن لكل من الايمان والاسلام وكذا الشرك والكفر مراتب مختلفة بعضها فوق بعض فالمرتبة الاولى من الاسلام إجراء الشهادتين لساناً

والتسليم ظاهراً. وتليه المرتبة الاولى من الايمان وهو الإذعان بمؤدّى الشهادتين قلباً إجمالاً وإن لم يسر الى جميع ما يعتقد في الدين من الاعتقاد الحق، ولذا كان من الجائز أن يجتمع مع الشرك من بعض الجهات. قال تعالى: ﴿ وما يؤمن أكثرهم بالله إلّا وهم مشركون ﴾ (يوسف / ١٠٦).

قوله تعالى: ﴿ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ يبشّرهم الله تعالى بشارة إجمالية بما تقر به أعينهم فإن كان قوله: «لهم البشرى» إنشاء للبشارة كان معناه وقوع ما بشّر به في الدنيا وفي الآخرة كلتيهما، وإن كان اخباراً بأن الله سيبشّرهم بشرى كانت البشارة واقعة في الدنيا وفي الآخرة. وأما المبشّر به فهل يقع في الآخرة فقط او في الدنيا والآخرة معاً؟ الآية ساكتة عن ذلك.

وقد وقع في كلامه تعالى بشارات للمؤمنين بما ينطبق على أوليائه تعالى كقوله تعالى: ﴿ وكان حقاً علينا نصر المؤمنين ﴾ (الروم / ٤٧) وقوله: ﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم قوم الأشهاد ﴾ (المؤمن / ٥١) وقوله: ﴿ بشراكم اليوم جنات جري من تحتها الأنهار ﴾ (الحديد / ١٢) الى غير ذلك.

وقوله: ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ ٱللَّهِ ﴾ إشارة الى ان ذلك من القضاء المحتوم الذي لا سبيل للتبديل اليه، وفيه تطييب لنفوسهم.

قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ تأديب للنبي ﷺ بتعزيته وتسليته فيما كانوا يؤذونه به بالوقوع في ربه والطعن في دينه والاعتزاز بشركائهم وآلهتهم كما يشعر به القول في الآية التالية فكاد يحزن لله فسلاه الله وطيّب نفسه بتذكيره ما يسكن وجده وهو أن العزة لله وأنه سميع لمقالهم عليهم بحاله وحالهم وإذ كان له تعالى كل العزة فلا يعبأ بما اعتزوا به من العزة الوهمية فهذوا ما هذوا، وإذ كان سميعاً عليماً فلو

شاء لأخذهم بالنكال وإذ كان لا يأخذهم فإنما في ذلك مصلحة الدعوة وخير العاقبة .

ومن هنا يظهر ان كلاً من قوله : «إن العزة لله» وقوله : «هو السميع العليم» علة مستقلة للنهي ولذا جيء بالفصل من غير عطف .

قوله تعالى : ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَمَنْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ الى آخر الآية فيه بيان مالكيته تعالى لكل من في السماوات والأرض التي بها يتم للإله معنى الربوبية فإن الرب هو المالك المدبر لأمر مملوكه ، وهذا الملك لله وحده لا شرك له فما يدعون له من الشركاء ليس لهم من معنى الشركة إلّا ما في ظن الداعين وفي خرصهم من المفهوم الذي لا مصداق له .

فالآية تقيس شركاءهم اليه تعالى وتحكم ان نسبتهم اليه تعالى نسبة الظن والخرص الى الحقيقة والحق ، والباقي ظاهر .

وقد قيل «من في السماوات ومن في الأرض» ولم قل : ما في السماوات وما في الأرض لأن الكلام في ربوبية العباد من ذوي الشعور والعقل وهم الملائكة والثقلان .

قوله تعالى : ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً﴾ الآية : الآية تتمم البيان الذي أُورد في الآية السابقة لاثبات ربوبيته تعالى والربوبية ـ كما تعلم ـ هي الملك والتدبير ، وقد ذكر ملكه تعالى في الآية السابقة ، فبذكر تدبير من تدابيره العامة في هذه الآية تصلح به عامة معيشة الناس وتستبقي به حياتهم يتم له معنى الربوبية .

وللاشارة الى هذا التدبير ذكر مع الليل سكنهم فيه ، ومع النهار إبصارهم فيه الباعث لهم الى انواع الحركات والتنقلات لكسب مواد الحياة واصلاح شؤن المعاش فليس يتم أمر الحياة الانسانية بالحركة فقط او بالسكون فقط فدبّر الله سبحانه الأمر في ذلك بظلمة الليل الداعية الى تجديد تجهيز القوى بعد ما لحقها من العي والتعب والنصب والى الارتياح والانس بالأهل

والتمتع مما جمع واكتسب بالنهار والفراغ للعبودية ، وبضوء النهار الباعث الى الرؤية فالاشتياق فالطلب .

قوله تعالى : ﴿قَالُوا اتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ الى آخر الآية : الاستيلاد بمعناه المعروف عند الناس هو ان يفصل الموجود الحي بعض اجزاء مادّته فيربيه بالحمل او البيض تربية تدريجية حتى يتكون فرداً مثله ، والانسان من بينها خاصة ربما يطلب الولد ليكون عوناً له على نوائب الدهر وذخراً ليوم الفاقة ، وهذا المعنى بجميع جهاته محال عليه تعالى فهو عزّ اسمه منزّه عن الاجزاء متعال عن التدريج في فعله بريء عن المثل والشبه مستغن عن غيره بذاته .

وقد نفى القرآن الولد عنه بالاحتجاج عليه من كل من الجهات المذكورة كما تعرّض لنفيه من جميعها في قوله : ﴿وقالوا اتخذ الله ولداً سبحانه بل له ما في السماوات والأرض كل له قانتون بديع السماوات والارض واذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون﴾ (البقرة / ١١٧) وقد مرّت الاشارة الى ذلك في تفسير الآيات في الجزء الأول من الكتاب .

واما الآية التي نحن فيها فهي مسوقة للاحتجاج على نفي الولد من الجهة الاخيرة فحسب وهو ان الغرض من وجوده الاستعانة به عند الحاجة وذلك انما يتصور فيمن كان بحسب طبعه محتاجاً فقيراً ، والله سبحانه هو الغني الذي لا يخالفه فقر فانه المالك لما فرض في السماوات والارض من شيء .

وقوله : ﴿إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾ اي برهان « بهذا » اثبات لكونهم انما قالوه جهلاً من غير دليل فيكون محصل المعنى انه لا دليل لكم على ما قلتموه بل الدليل على خلافه وهو انه تعالى غني على الاطلاق ، والولد انما يطلبه من به فاقة وحاجة ، والكلام على ما اصطلح عليه في فن المناظرة من قبيل المنع مع السند .

وقوله : ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ توبيخ لهم في قولهم ما ليس لهم به

علم، وهو مما يستقبحه العقل الانساني ولا سيما في ما يرجع الى رب العالمين عزّ اسمه.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ﴾ تخويف وانذار بشؤم العاقبة. وفي الآيتين من لطيف الالتفات ما هو ظاهر فقد حكى الله اولاً عنهم من طريق الغيبة قولهم: «اتخذ الله ولداً» ثم خاطبهم خطاب الساخط الغضبان مما نسبوا اليه وافتروا عليه فقال «ان عندكم من سلطان بهذا أتقولون على الله ما لا تعلمون» وانما خاطبهم متنكراً من غير ان يعرّفهم نفسه حيث قال «على الله» ولم يقل: عليَّ او علينا صوناً لعظمة مقامه ان يخالطهم معروفاً ثم اعرض عنهم تنزهاً عن ساحة جهلهم ورجع الى خطاب رسوله قائلاً «قل ان الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون» لأنه إنذار والإنذار شأنه.

قوله تعالى: ﴿مَتَاعٌ فِي الدُّنْيا ثُمَّ إِلَيْنا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِما كانُوا يَكْفُرُونَ﴾ خطاب للنبي ﷺ فيه بيان وجه عدم فلاحهم بأنه كفر بالله ليس بحذائه إلّا متاع قليل في الدنيا ثم الرجوع الى الله والعذاب الشديد الذي يذوقونه[١].

٧١ ● وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ يا قَوْمِ إِنْ كانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقامِي وَتَذْكِيرِي بِآياتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكاءَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوا إِلَيَّ وَلاَ تُنْظِرُونَ.

٧٢ ● فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَما سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ.

---

١. بحث روائي في فضل الله ورحمته: اولياء الله؛ البشرى للمتقين في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

٧٣ ● فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلْمُنْذَرِينَ.

٧٤ ● ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلاً إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ﴾ الى آخر الآية؛ المقام مصدر ميمي واسم زمان ومكان من القيام، والمراد به الأول او الثالث أي قيامي بأمر الدعوة الى توحيد الله او مكانتي ومنزلتي وهي منزلة الرسالة. والإجماع العزم وربما يتعدى بعلى قال الراغب: وأجمعت كذا اكثر ما يقال فيما يكون جمعاً يتوسل اليه بالفكرة نحو فأجمعوا كيدكم وشركاءكم.

والغمة هي الكربة والشدة وفيه معنى التغطية كأن الهم يغطي القلب، ومنه الغمام للغيم سمي به لتغطيته وجه السماء. والقضاء الى الشيء إتمام أمره بقتل وإفناء ونحو ذلك.

ومعنى الآية ﴿وَاتْلُ﴾ يا محمّد «عليهم نبأ نوح» وخبره العظيم حيث واجه قومه وهو واحد يتكلم عن نفسه، وهو مرسل الى أهل الدنيا فتحدى عليهم بأن يفعلوا به ما بدا لهم إن قدروا على ذلك. وأتم الحجة على مكذبيه في ذلك «إذ قال لقومه يا قوم إن كان كبر عليكم مقامي» ونهضتي لأمر الدعوة الى التوحيد او منزلتي من الرسالة «وتذكيري بآيات الله» وهو داعيكم لا محالة الى قتلي وإيقاع ما تقدرون عليه من الشر بي لإراحة أنفسكم مني «فعلى الله توكلت» قبال ما يهددني من تحرج صدوركم وضيق نفوسكم عليّ بإرجاع أمري اليه وجعله

وكيلاً يتصرف في شؤوني ومن غير أن أشتغل بالتدبير «فأجمعوا أمركم وشركاءكم» الذين تزعمون أنهم ينصرونكم في الشدائد، واعزموا عليّ بما بدا لكم، وهذا أمر تعجيزي «ثم لا يكن أمركم عليكم غمة» إن لم تكونوا اجتهدتم في التوسل الى كل سبب في دفعي «ثم اقضوا إليّ» بدفعتي وقتلي «ولا تنظرون» ولا تمهلوني.

وفي الآية تحديه ﷺ على قومه بأن يفعلوا به ما بدا لهم، وإظهار أن ربه قدير على دفعهم عنه وإن أجمعوا عليه وانتصروا بشركائهم وآلهتهم.

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَما سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ﴾ الى آخر الآية: تفريع على توكله بربه، وقوله: «فما سألتكم» الخ: بمنزلة وضع السبب موضع المسبب والتقدير فإن توليتم وأعرضتم عن استجابة دعوتي فلا ضير لي في ذلك فإني لا أتضرر في إعراضكم شيئاً لأني إنما كنت أتضرر بإعراضكم عني لو كنت سألتكم أجراً على ذلك يفوت بالإعراض وما سألتكم عليه من أجر إن أجري إلّا على الله.

وقوله: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ أي الذين يسلّمون الأمر اليه فيما أراده لهم وعليهم، ولا يستكبرون عن امره بالتسليم لسائر الأسباب الظاهرة حتى يخضعوا لها ويتوقعوا به ايصال نفع او دفع شر.

قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ﴾ الى آخر الآية: الخلائف جمع خليفة أي جعلنا هؤلاء الناجين خلائف في الارض والباقين من بعدهم يخلفون سلفهم ويقومون مقامهم. والباقي ظاهر.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلاً إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ الى آخر الآية: يريد بالرسل من جاء منهم بعد نوح الى زمن موسى ﷺ. وظاهر السياق أن المراد بالبينات الآيات المعجزة التي اقترحتها الامم على انبيائهم بعد مجيئهم ودعوتهم وتكذيبهم لهم فأتوا بها وكان فيها القضاء بينهم وبين اممهم، ويؤيده قوله بعده: «فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل» الخ:

فإن السابق الى الذهن أنهم جاءوهم بالآيات البينات لكن الله قد كان طبع على قلوبهم لاعتدائهم فلم يكن في وسعهم أن يؤمنوا ثانياً بما كذبوا به أولاً.

ولازم ذلك أن يكون تكذيبهم بذلك قبل مجيء الرسل بتلك الآيات البينات فقد كانت الرسل بثّوا دعوتهم فيهم ودعوهم الى توحيد الله فكذبوا به وبهم ثم اقترحوا عليهم آية معجزة فجاءوهم بها فلم يؤمنوا.

وقد أسلفنا بعض البحث عن هذه الآية في تفسير قوله: ﴿فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل﴾ (الأعراف / ١٠١) في الجزء الثامن من الكتاب، وبيّنا هناك أن في الآية إشارة الى عالم الذرّ غير أنه لا ينافي إفادتها لما قدمناه من المعنى آنفاً فليراجع.

٧٥ ● ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسىٰ وَهٰارُونَ إِلىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ.

٧٦ ● فَلَمّا جَاءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِنْدِنا قَالُوا إِنَّ هٰذا لَسِحْرٌ مُبِينٌ.

٧٧ ● قَالَ مُوسىٰ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هٰذا وَلاٰ يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ.

٧٨ ● قَالُوا أَجِئْتَنا لِتَلْفِتَنا عَمّا وَجَدْنا عَلَيْهِ آباءَنا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِياءُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُما بِمُؤْمِنِينَ.

٧٩ ● وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ.

٨٠ ● فَلَمّا جَآءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسىٰ أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ.

٨١ ● فَلَمّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسىٰ مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ ٱللَّهَ لاٰ يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ.

٨٢ ● وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ.

٨٣ ● فَمَا آمَنَ لِمُوسىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلىٰ خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ
وَمَلَإِيْهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي ٱلْأَرضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ
ٱلْمُسْرِفِينَ.

٨٤ ● وَقَالَ مُوسىٰ يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ
كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ.

٨٥ ● فَقَالُوا عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لاٰ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ.

٨٦ ● وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَاٰفِرِينَ.

٨٧ ● وَأَوْحَيْنَا إِلىٰ مُوسىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتاً
وَٱجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلوٰةَ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ.

٨٨ ● وَقَالَ مُوسىٰ رَبَّنا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْواٰلاً فِي
ٱلْحَيوٰةِ الدُّنْيا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلىٰ
أَمْواٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلىٰ قُلُوبِهِمْ فَلاٰ يُؤْمِنُوا حَتّىٰ يَرَوُا ٱلْعَذٰابَ
ٱلْأَلِيمَ.

٨٩ ● قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلاٰ تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ
لاٰ يَعْلَمُونَ.

٩٠ ● وَجَاٰوَزْنٰا بِبَنِي إِسْراٰئِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْياً
وَعَدْواً حَتّىٰ إِذٰا أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَاٰلَ آمَنْتُ أَنَّهُ لاٰ إِلٰهَ إِلَّا الَّذِي
آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْراٰئِيلَ وَأَنَا مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ.

٩١ ● ءَآلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ.

٩٢ ● فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ ٱلنَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ.

٩٣ ● وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ ٱلْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسىٰ وَهٰارُونَ﴾الخ؛ أي ثم بعثنا من بعد نوح والرسل الذين من بعده موسى وأخاه هارون بآياتنا الى فرعون والجماعة الذين يختصّون به من قومه وهم القبط فاستكبروا عن آياتنا وكانوا مستمرين على الاجرام.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِنْدِنا﴾الخ؛ الظاهر أن المراد بالحق هو الآية الحقة كالثعبان واليد البيضاء، وقد جعلها الله آية لرسالته بالحق فلما جاءهم الحق قالوا وأكدوا القول: إن هذا ـ يشيرون الى الحق من الآية ـ لسحر مبين واضح كونه سحراً. وانما سمّى الآية حقاً قبال تسميتهم إياها سحراً.

قوله تعالى: ﴿قَالَ مُوسىٰ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هٰذا﴾الخ؛ أي فلمّا سمع مقالتهم تلك ورميهم الحق بأنه سحر مبين قال لهم منكراً لقولهم في صورة الاستفهام: «أتقولون للحق لمّا جاءكم» إنّه لسحر؟ ثم كرّر الانكار مستفهماً بقوله: «أسحر هذا»؟ فقول القول في الجملة الاستفهامية محذوف إيجازاً لدلالة الاستفهام الثاني عليه، وقوله: «ولا يفلح الساحرون» يمكن أن يكون جملة حاليّة معلّلة للإنكار الذي يدل عليه قوله: «أسحر هذا»،

ويمكن أن يكون إخباراً مستقلاً بياناً للواقع يبرّىء به نفسه من أن يقترف السحر لأنه يرى لنفسه الفلاح وللساحرين أنهم لا يفلحون.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ الخ: اللفت هو الصرف عن الشيء، والمعنى: قال فرعون وملأه لموسى معاتبين له «أجئتنا لتلفتنا» وتصرفنا «عمّا وجدنا عليه آباءنا» يريدون سنّة قدمائهم وطريقتهم «ويكون لكما الكبرياء في الأرض» يعنون الرئاسة والحكومة وانبساط القدرة ونفوذ الإرادة يؤمّون بذلك انّكما اتخذتما الدعوة الدينية وسيلة الى إبطال طريقتنا المستقرة في الأرض، ووضع طريقة جديدة أنتما واضعان مبتكران لها موضعها تحوزان بإجرائها في الناس وإيماننا بكما وطاعتنا لكما الكبرياء والعظمة في المملكة.

وبعبارة أُخرى إنما جئتما لتبدّلا الدولة الفرعونية المتعرقة في القبط الى دولة إسرائيلية تدار بإمامتكما وقيادتكما، وما نحن لكما بمؤمنين حتى تنالا بذلك أُمنيتكما وتبلغا غايتكما من هذه الدعوة المزوّرة.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾ كان يأمر به ملأه فيعارض بسحر السحرة معجزة موسى كما فصّل في سائر الآيات القاصّة للقصّة وتدل عليه الآيات التالية.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسىٰ أَلْقُوا﴾ الخ: اي لمّا جاءوا وواجهوا موسى وتهيؤوا لمعارضته قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقوه من الحبال والعصي، وقد كانوا هيؤوها ليلقوها فيظهروها في صور الحيّات والثعابين بسحرهم.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسىٰ مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ﴾ ما قاله ﷺ بيان لحقيقة من الحقائق لينطبق عليها ما سيظهره الله من الحق على يديه من صيرورة العصا ثعباناً يلقف ما ألقوه من الحبال والعصي وأظهروه في صور الحيّات والثعابين بسحرهم.

والحقيقة التي بيّنها لهم أن الذي جاءوا به سحر والسحر شأنه إظهار ما ليس بحق واقع في صورة الحق الواقع لحواس الناس وأنظارهم، واذ كان باطلاً في نفسه فان الله سيبطله لأن السنّة الإلهية جارية على إقرار الحق واحقاقه في التكوين وإزهاق الباطل وإبطاله فالدولة للحق وان كانت للباطل جولة أحياناً.

ولذا علّل قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُ﴾ بقوله: «إن الله لا يصلح عمل المفسدين» فان الصلاح والفساد شأنان متقابلان، وقد جرت السنّة الإلهية أن يصلح ما هو صالح ويفسد ما هو فاسد أي ان يرتب على كل منهما أثره المناسب له المختص به وأثر العمل الصالح ان يناسب ويلائم سائر الحقائق الكونية في نظامها الذي تجري هي عليه، ويمتزج بها ويخالطها فيصلحه الله سبحانه ويجريه على ما كان من طباعه، وأثر العمل الفاسد ان لا يناسب ولا يلائم سائر الحقائق الكونية فيما تقتضيه بطباعها وتجري عليه بجبلتها فهو امر استثنائي في نفسه، ولو اصلحه الله في فساده كان ذلك إفساداً للنظام الكوني.

فيعارضه سائر الأسباب الكونية بما لها من القوى والوسائل المؤثرة، وتعيده الى السيرة الصالحة إن أمكن وإلّا أبطلته وأفنته ومحته عن صحيفة الوجود البتة.

قوله تعالى: ﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ لما كشف الله عن الحقيقة المتقدمة في جانب النفي بقوله: «إن الله لا يصلح عمل المفسدين» أبان عنه في جانب الإثبات أيضاً في هذه الآية بقوله: «ويحق الله الحق بكلماته» وقد جمع تعالى بين معنيي النفي والإثبات في قوله: **﴿ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون﴾** (الأنفال / ٨).

ومن هنا يقوى احتمال أن يكون المراد بالكلمات في الآية أقسام الأقضية الإلهية في شؤون الأشياء الكونية الجارية على الحق فإن قضاء الله ماض وسنّته جارية أن يضرب الحق والباطل في نظام الكون ثم لا يلبث الباطل دون أن يفنى ويعفى أثره ويبقى الحق على جلائه، وذلك قوله تعالى: **﴿أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابياً**

ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية او متاع زبد مثله كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض﴾ (الرعد / ١٧)، وسيجيء استيفاء البحث فيه في ذيل الآية إن شاء الله تعالى.

والحاصل أن موسى عليه السلام إنما ذكر هذه الحقيقة لهم ليوقفهم على سنّة إلهية حقة غفلوا عنها، وليهيىء نفوسهم لما سيظهره عملاً من غلبة الآية المعجزة على السحر وظهور الحق على الباطل، ولذا بادروا الى الإيمان حين شاهدوا المعجزة، وألقوا أنفسهم على الأرض ساجدين على ما فصله الله سبحانه في مواضع أُخرى من كلامه.

وقوله: ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ وذكر الإجرام من بين أوصافهم لأن فيه معنى القطع فكأنهم قطعوا سبيل الحق على أنفسهم وبنوا على ذلك بنيانهم فهم على كراهية من ظهور الحق، ولذلك نسب الله كراهة ظهور الحق اليهم بما هم مجرمون في قوله: «ولو كره المجرمون» وفي معناه قوله في اول الآيات: «فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين».

قوله تعالى: ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ﴾ الى آخر الآيتين ذكر بعض المفسرين أن الضمير في «قومه» راجع الى فرعون، والذرية الذين آمنوا من قومه كانت أُمهاتهم من بني إسرائيل وآباؤهم من القبط فتبعوا أُمهاتهم في الإيمان بموسى؛ وقيل: الذرية بعض أولاد القبط؛ وقيل: أُريد بها امرأة فرعون ومؤمن آل فرعون، وقد ذكرا في القرآن وجارية وامرأة هي مشاطة امرأة فرعون.

وذكر آخرون أن الضمير لموسى عليه السلام والمراد بالذرية جماعة من بني إسرائيل تعلموا السحر وكانوا من أصحاب فرعون؛ وقيل: هم جميع بني إسرائيل وكانوا ستمائة الف نسمة سمّاهم ذرية لضعفهم؛ وقيل: ذرية آل إسرائيل ممن بعث اليهم موسى وقد هلكوا بطول العهد، وهذه الوجوه ـ كما ترى ـ لا دليل على شيء منها في الآيات من جهة اللفظ.

والذي يفيده السياق وهو الظاهر من الآية أن يكون الضمير راجعاً الى موسى والمراد

بالذرية من قوم موسى بعض الضعفاء من بني إسرائيل دون ملإهم الأقوياء والشرفاء، والاعتبار يساعد على ذلك فإنهم جميعاً كانوا أُسراء للقبط محكومين بحكمهم بأجمعهم، والعادة الجارية في أمثال هذه الموارد أن يتوسل الشرفاء والأقوياء بأي وسيلة أمكنت الى حفظ مكانتهم الاجتماعية وجاههم القومي، ويتقربوا الى الجبار المسيطر عليهم بإرضائه بالمال والتظاهر بالخدمة ومراءاة النصح والتجنب عما لا يرتضيه فلم يكن في وسع الملأ من بني اسرائيل أن يعلنوا موافقة موسى على بغيته، ويتظاهروا بالايمان به.

على أن قصص بني اسرائيل في القرآن أعدل شاهد على أن كثيراً من عتاة بني اسرائيل ومستكبريهم لم يؤمنوا بموسى الى أواخر عهده وإن كانوا يتسلّمون له ويطيعونه في عامة اوامره التي كان يصدرها لبذل المساعي في سبيل نجاة بني اسرائيل لما كان فيها صلاح قوميتهم وحرية شعبهم ومنافع اشخاصهم، فالإطاعة في هذه الامور أمر والايمان بالله وما جاء به الرسول أمر آخر.

ويستقيم على هذا معنى قوله: «وملإهم» بأن يكون الضمير الى الذرية ويفيد الكلام أن الذرية الضعفاء كانوا في ايمانهم يخافون الملأ والأشراف من بني اسرائيل فانهم ربما كانوا يمنعونهم لعدم إيمانهم انفسهم او تظاهروا بذلك ليرضوا به فرعون وقومه ويطيّبوا أنفسهم فلا يضيّقوا عليهم وينقصوا من إيذائهم والتشديد عليهم.

وأما ما قيل: إن الضمير راجع الى فرعون لأنه ذو أصحاب او للذرية لأنهم كانوا من القبط فمما لا يصار اليه البتة وخاصة أول الوجهين.

وقوله: ﴿أَنْ يَفْتِنَهُمْ﴾ اي يعذبهم ليعودوا الى ملته، وقوله: «وإن فرعون لعال في الأرض» اي والظرف هذا الظرف وهو أن فرعون عال في الارض مسرف في الأمر.

فالمعنى ـ والله أعلم ـ فتفرع على قصة بعثها واستكبار فرعون وملإه أنه لم يؤمن بموسى إلّا ضعفاء من بني اسرائيل وهم يخافون ملأهم ويخافون فرعون أن يعذبهم لإيمانهم وكان

ينبغي لهم ومن شأنهم أن يخافوا فإن فرعون كان يومئذ عالياً في الارض مسلطاً عليهم وأنه كان من المسرفين لا يعدل فيما يحكم ويجاوز الحدّ في الظلم والتعذيب.

ولو صحّ أن يراد بقومه كل من بعث اليهم موسى وبلّغهم الرسالة وهم القبط وبنو اسرائيل استقام الكلام من طريق آخر من غير حاجة الى ما تقدم من تكلّفاتهم.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ لما كان الايمان بالله بما يفيده للمؤمن من العلم بمقام ربه ولو إجمالاً وأنه سبب فوق الأسباب اليه ينتهي كل سبب، وهو المدبّر لكل أمر، يدعوه الى تسليم الأمر اليه والتجنب عن الاعتماد بظاهر ما يمكنه التسبب به من الأسباب فإنه من الجهل. ولازم ذلك إرجاع الأمر اليه والتوكل عليه، وقد أمرهم في الآية بالتوكل على الله، علّقه أولاً على الشرط الذي هو الايمان ثم تمم الكلام بالشرط الذي هو الإسلام.

فالكلام في تقدير: إن كنتم آمنتم بالله ومسلّمين له فتوكلوا عليه. وقد فرّق بين الشرطين ولعله لم يجمع بينهما فيقول «إن كنتم آمنتم وأسلمتم فتوكلوا» لاختلاف الشرطين بحسب الحال فقد كان الإيمان واقعاً محرزاً منهم، وأما الاسلام فهو من كمال الإيمان، وليس من الواجب الضروري ان يكون كل مؤمن مسلماً بل من الأولى الأحرى أن يكمل إيمانه بالإسلام.

فالتفريق بين الشرطين للإشعار بكون احدهما واجباً واقعاً منهم، والآخر مما ينبغي لهم أن يتحققوا به فالمعنى: يا قوم إن كنتم آمنتم بالله ـ وقد آمنتم ـ وكنتم مسلمين له ـ وينبغي أن تكونوا كذلك ـ فتوكلوا على الله؛ ففي الكلام من لطيف الصنعة ما لا يخفى.

قوله تعالى: ﴿فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ الى آخر الآيتين، إنما توكلوا على الله لينجيهم من فرعون وملإه فدعاؤهم بما دعوا به من قولهم: «ربنا لا تجعلنا فتنة» الخ: سؤال منهم نتيجة توكلهم وهو ان ينزع الله منهم لباس الضعف والذلّة، وينجيهم من القوم الكافرين.

أما الأول فقد اشاروا اليه بقولهم: «ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين» وذلك أن الذي يغري الأقوياء الظالمين على الضعفاء المظلومين هو ما يشاهدون فيهم من الضعف فيفتتنون به فيظلمونهم فالضعيف بما له من الضعف فتنة للقوي الظالم كما أن الأموال والأولاد بما عندها من جاذبة الحب فتنة للانسان، قال تعالى: ﴿إنما أموالكم وأولادكم فتنة﴾ (التغابن / ١٥). والدنيا فتنة لطالبها فسؤالهم ربّهم أن لا يجعلهم فتنة للقوم الظالمين سؤال منهم أن يسلبهم الضعف والذّلة بسلب الغرض منه وهو سلب الشيء بسلب سببه.

وأما الثاني أعني التنجية فهو الذي ذكره حكاية عنهم في الآية الثانية «ونجّنا برحمتك من القوم الكافرين».

قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتاً﴾ الخ: التبوّي أخذ المسكن والمنزل، ومصر بلد فرعون، والقبلة في الأصل بناء نوع من المصدر كجلسة أي الحالة التي يحصل بها التقابل بين الشيء وغيره فهو مصدر بمعنى الفاعل أي اجعلوا بيوتكم متقابلة يقابل بعضها بعضاً وفي وجهة واحدة وكان الغرض أن يتمكنا منهم بالتبليغ ويتمكنوا من إقامة الصلاة جماعة كما يدل عليه او يشعر به قوله بعده: «واقيموا الصلاة» لوقوعه بعده.

وأما قوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فالسياق يدل على أن المراد به البشارة بإجابة ما سألوه في دعائهم المذكور آنفاً «ربنا لا تجعلنا فتنة» الى آخر الآيتين.

والمعنى: وأوحينا الى موسى وأخيه أن اتّخذا لقومكما مساكن من البيوت في مصر ـ وكأنهم لم يكونوا الى ذاك الحين إلّا كهيئة البدويين يعيشون في الفساطيط أو عيشة تشبهها ـ واجعلا أنتما وقومكما بيوتكم متقابلة وفي جهة واحدة يتصل بذلك بعضكم ببعض ويتمشى أمر التبليغ والمشاورة والاجتماع في الصلوات، وأقيموا الصلاة وبشّر يا موسى أنت المؤمنين بأن الله سينجّيهم من فرعون وقومه.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً﴾ الخ: الزينة بناء نوع من الزين وهي الهيئة التي تجذب النفس الى الشيء. والنسبة بين الزينة والمال العموم من وجه فبعض الزينة ليس بمال يبذله بإزائه الثمن كحسن الوجه واعتدال القامة، وبعض المال لبس بزينة كالأنعام والأراضي، وبعض المال زينة كالحلي والتقابل الواقع بين الزينة والمال يعطي أن يكون المراد بالزينة جهة الزينة من غير نظر الى المالية كالحلي والرياش والأثاث والأبنية الفاخرة وغيرها.

وقوله: ﴿رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ﴾ قيل اللام للعاقبة. والمعنى وعاقبة أمرهم أنهم يضلون عن سبيلك، ولا يجوز أن يكون لام الغرض لأنّا قد علمنا بالأدلة الواضحة أن الله سبحانه لا يبعث الرسول ليأمر الخلق بالضلال ولا يريد أيضاً منهم الضلال ء، وكذلك لا يؤتيهم المال ليضلوا. انتهى.

وهو حقّ لكن في الإضلال الإبتدائي المستحيل عليه تعالى، وأما الإضلال بعنوان المجازاة ومقابلة السوء بالسوء فلا دليل على امتناعه على الله سبحانه بل يثبته كلامه في موارد كثيرة، وقد كان فرعون وملؤه مصرّين على الاستكبار والإفساد ملحّين على الإجرام فلا مانع من أن يؤتيهم الله بذلك زينة وأموالاً ليضلوا عن سبيله جزاء بما كسبوا.

وربما قيل: إن اللام في ﴿لِيُضِلُّوا﴾ للدعاء، وربما قيل: إن الكلام بتقدير لا أي لئلا يضلوا عن سبيلك، والسياق لا يساعد على شيء من الوجهين.

والطمس ـ كما قيل ـ تغيّر الى الدثور والدروس فمعنى «اطمس على أموالهم» غيّرها الى الفناء والزوال، وقوله: «واشدد على قلوبهم» من الشد المقابل للحل أي أقس قلوبهم واربط عليها ربطاً لا ينشرح للحق فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم فهو الطبع على القلوب، وقول بعضهم: إن المراد بالشد تثبيتهم على المقام بمصر بعد الطمس على أموالهم ليكون ذلك أشد عليهم وآلم، وكذا قول آخرين: إنه كناية عن إماتتهم وإهلاكهم من الوجوه

البعيدة.

فمعنى الآية: وقال موسى ـ وكان ذلك بعد يأسه من إيمان فرعون وملئه ويقينه بأنهم لا يدومون إلّا على الضلال والإضلال كما يدل عليه سياق كلامه في دعائه ـ ربّنا إنك جازيت فرعون وملأه على كفرهم وعتوّهم جزاء السوء فآتيتهم زينة وأموالاً في الحياة الدنيا ربّنا إرادة منك لأن يضلوا من اتّبعهم عن سبيلك، وإرادتك لا تبطل وغرضك لا يلغو ربّنا أدم على سخطك عليهم واطمس على أموالهم وغيّرها عن مجرى النعمة الى مجرى النقمة. واجعل قلوبهم مشدودة مربوطة فلا يؤمنوا حتى يقفوا موقفاً لا ينفعهم الإيمان وهو زمان يرون فيه العذاب الإلهي.

وهذا الدعاء من موسى عليه السلام على فرعون وملئه إنما هو بعد يأسه التام من إيمانهم، وعلمه أنه لا يترقّب منهم في الحياة إلّا أن يضلوا ويضلوا كدعاء نوح على قومه فيما حكاه الله: ﴿ربّ لا تذر على الأرض من الكافرين ديّاراً إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلّا فاجراً كفّاراً﴾ (نوح / ٢٧)، وحاشا ساحة الأنبياء عليهم السلام أن يتكلموا على الخرص والمظنّة في موقف يشافهون فيه رب العالمين جلت كبرياؤه وعز شأنه.

قوله تعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلاَ تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ الخطاب ـ على ما يدل عليه السياق ـ لموسى وهارون ولم يحك الدعاء في الآية السابقة إلّا عن موسى، وهذا يؤيد ما ذكره المفسّرون: أنَّ موسى عليه السلام كان يدعو، وكان هارون يؤمّن له وآمين دعاء فقد كانا معاً يدعوان وإن كان متن الدعاء لموسى عليه السلام وحده.

والاستقامة هو الثبات على الأمر، وهو منهما عليهما السلام الثبات على الدعوة الى الله وعلى إحياء كلمة الحق، والمراد بالذين لا يعلمون الجهلة من شعب إسرائيل وقد وصفهم موسى عليه السلام بالجهل كما في قوله: ﴿قال إنكم قوم تجهلون﴾ (الأعراف / ١٣٨).

والمعنى ﴿ قَالَ ﴾ الله مخاطباً لموسى وهارون «قد أُجيبت دعوتكما» من سؤال العذاب الأليم لفرعون وملئه، والطمس على أموالهم والشد على قلوبهم «فاستقيما» واثبتا على ما أُمرتما به من الدعوة الى الله وإحياء كلمة الحق «ولا تتّبعانِّ» البتّة «سبيل الذين لا يعلمون» بإجابة ما يقترحون عليكما عن أهواء أنفسهم ودواعي شهواتهم. وفيه نوع تلويح الى أنهم سيسألون أُموراً فيها إحياء سنّتهم القومية وسيرتهم الجاهلية.

وبالجملة فالآية تذكر إجابة دعوتهما المتضمنة لعذاب فرعون وملئه وعدم توفيقهم للايمان ووعدهما بذلك، ولذلك ذكر في الآية التالية وفاؤه تعالى بهذا الوعد بخصوصيته التي فيه.

ولم يكن في الدعاء ما يدل على مسألة الفور أو التراخي في القضاء عليهم بالعذاب وعلى ذلك جرى أيضاً سياق الآية الدالة على القبول والإجابة وكذا الآية المخبرة عن كيفية إنجازه، وقد نقل في المجمع عن ابن جريج أن فرعون مكث بعد هذا الدعاء أربعين سنة قال: وروي ذلك عن أبي عبدالله عليه السلام، ورواه عنه عليه السلام في الاحتجاج وكذا في الكافي وتفسير العياشي عن هشام بن سالم عنه عليه السلام وفي تفسير القمي عن أبيه عن النوفي عن السكوني عنه عليه السلام.

قوله تعالى: ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْياً وَعَدْواً ﴾ الى آخر الآية. البغي والعدو كالعدوان الظلم وإدراك الشيء اللحوق به والتسلط عليه كما أن اتّباع الشيء طلب اللحوق به.

وقوله: ﴿ آمَنْتُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلَّا ٱلَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ ﴾ أي آمنت بأنه. وقد وصف الله بالذي آمنت به بنو إسرائيل ليظفر بما ظفروا به بإيمانهم وهو مجاوزة البحر والأمان من الغرق، ولذلك أيضاً جمع بين الإيمان والإسلام ليزيل بذلك أثر ما كان يصرّ عليه من المعصية وهو الشرك بالله والإستكبار على الله. والباقي ظاهر.

قوله تعالى: ﴿ ءَآلْئَنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ آلآن بالمد أصله

ءألآن أي أتؤمن بالله الآن وهو حين أدركك العذاب ولا إيمان وتوبة حين غشيان العذاب ومجيء الموت من كل مكان، وقد عصيت قبل هذا وكنت من المفسدين، وأفنيت أيامك في معصيته، ولم تقدم التوبة لوقتها فماذا ينفعك الايمان بعد فوت وقته وهذا هو الذي كان موسى وهارون سألاه ربهما ان يأخذه بعذاب أليم ويسد سبيله الى الإيمان إلاّ حين يغشاه العذاب فلا ينفعه الإيمان ولا تغني عنه التوبة شيئاً.

قوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ ٱلنَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ التنجية والإنجاء تفعيل وإفعال من النجاة كالتخليص والإخلاص من الخلاص وزناً ومعنى.

وتنجيته ببدنه تدل على أن له اماً آخر وراء البدن فقده بدنه بغشيان العذاب وهو النفس التي تسمى ايضاً روحاً، وهذه النفس المأخوذة هي التي يتوفاها الله ويأخذها حين موتها كما قال تعالى: **﴿الله يتوفى الانفس حين موتها﴾** (الزمر / ٤٢)، وقال: **﴿قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكّل بكم﴾** (الم السجدة / ١١)، وهي التي يخبر عنها الانسان بقوله: «أنا» وهي التي بها تتحقق للإنسان إنسانيته، وهي التي تدرك وتريد وتفعل الأفعال الانسانية بواسطة البدن بما له من القوى والأعضاء المادية، وليس للبدن إلاّ أنه آلة وأداة تعمل بها النفس أعمالها المادية.

ولمكان الاتحاد الذي بينها وبين البدن يسمى باسمها البدن وإلاّ فأسماء الأشخاص في الحقيقة لنفوسهم لا لأبدانهم، وناهيك في ذلك التغيّر المستمر الذي يعرض البدن مدة الحياة، والتبدل الطبيعي الذي يطرء عليه حيناً بعد حين حتى ربما تبدل البدن بجميع أجزائه الى أجزاء أُخر تتركب بدناً آخر فلو كان زيد هو البدن الذي ولدته امه يوم ولدته والاسم له لكان غيره وهو ذو سبعين وثمانين قطعاً والاسم لغيره حتماً، ولم يثب ولم يعاقب الانسان وهو شائب على ما عمله وهو شابّ لأن الطاعة والمعصية لغيره.

فهذه وأمثالها شواهد قطعية على أن إنسانية الانسان بنفسه دون بدنه، والأسماء للنفوس لا للأبدان يدركها الانسان ويعرفها إجمالاً وإن كان ربما أنكرها في مقام التفصيل.

وبالجملة فالآية: ﴿الْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ كالصريح أو هو صريح في أن النفوس وراء الأبدان، وأن الأسماء للنفوس دون الأبدان إلّا ما يطلق على الأبدان بعناية الاتحاد.

فمعنى: ﴿نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ نخرج بدنك من اليم وننجيه، وهو نوع من تنجيتك ـ لما بين النفس والبدن من الاتحاد القاضي بكون العمل الواقع على أحدهما واقعاً بنحو على الآخر ـ لتكون لمن خلفك آية، وهذا بوجه نظير قوله تعالى: ﴿منها خلقناكم وفيها نعيدكم﴾ (طه / ٥٥) فإن الذي يعاد الى الأرض هو جسد الانسان دون الانسان التام فليست نسبة الإعادة الى الانسان إلّا لما بين نفسه وبدنه من الاتحاد.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ أي أسكناهم مسكن صدق، وإنما يضاف الشيء الى الصدق نحو وعد صدق وقدم صدق ولسان صدق ومدخل صدق ومخرج صدق للدلالة على أن لوازم معناه وآثاره المطلوبة منه موجودة فيه صدقاً من غير أن يكذب في شيء من آثاره التي يعده بلسان دلالته الالتزامية لطالبه فوعد صدق مثلاً هو الوعد الذي سيفي به واعده، ويسر بالوفاء به موعوده، ويحق أن يطمع فيه ويرجى وقوعه. فإن لم يكن كذلك فليس بوعد صدق بل وعد كذب كأنه يكذب في معناه ولوازم معناه.

وعلى هذا فقوله: ﴿مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾ يدل على أن الله سبحانه بوّأهم مبوءاً يوجد فيه جميع ما يطلبه الإنسان من المسكن من مقاصد السكنى كطيب الماء والهواء وبركات الأرض ووفور نعمها والاستقرار فيها وغير ذلك، وهذه هي نواحي بيت المقدس والشام التي أسكن الله بني إسرائيل فيها وسماها الأرض المقدسة المباركة وقد قص القرآن دخولهم فيها.

والآية أعني قوله: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ـ الى قوله ـ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾

مسوقة سوق الشكوى والعتبى، ويشهد به تذييلها بقوله: «فما اختلفوا حتى جاءهم العلم» وقوله: «إن ربك يقضي بينهم» الى آخر الآية بيان لعاقبة اختلافهم عن علم وبمنزلة أخذ النتيجة من القصة.

والمعنى: أنا أتممنا على بني إسرائيل النعمة وبوأناهم مبوّء صدق ورزقناهم من الطيبات بعد حرمانهم من ذلك مدة طويلة كانوا فيها في أسارة القبط فوحدنا شعبهم وجمعنا شملهم فكفروا النعمة وفرّقوا الكلمة واختلفوا في الحق، ولم يكن اختلافهم عن عذر الجهل وإنما اختلفوا عن علم إن ربك يقضي بينهم فيما كانوا فيه يختلفون.

٩٤ ● فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ.

٩٥ ● وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ.

٩٦ ● إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ.

٩٧ ● وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ.

٩٨ ● فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ.

٩٩ ● وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ.

١٠٠ ● وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاٰ يَعْقِلُونَ.

١٠١ ● قُلِ ٱنْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لاٰ يُؤْمِنُونَ.

١٠٢ ● فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ ٱلْمُنْتَظِرِينَ.

١٠٣ ● ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذٰلِكَ حَقّاً عَلَيْنَا نُنْجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ الى آخر الآية الشك الريب، والمراد بقوله: «مما أنزلنا اليك» المعارف الراجعة الى المبدء والمعاد والسنّة الإلهية في القضاء على الامم مما تقدّم في السورة، وقوله: «يقرءون الكتاب من قبلك» «يقرءون» فعل مضارع استعمل في الاستمرار «ومن قبلك» حال من الكتاب عامله متعلّقة المقدّرة والتقدير منزلاً من قبلك. كل ذلك على ما يعطيه السياق.

والمعنى «فان كنت» أيها النبي «في ريب» وشك «مما انزلنا اليك» من المعارف الراجعة الى المبدء والمعاد وما قصصنا عليك اجمالاً من قصص الأنبياء الحاكية لِسنة الله الجارية في خلقه من الدعوة أولاً ثم القضاء بالحق «فاسأل» اهل الكتاب «الذين» لا يزالون «يقرءون» جنس «الكتاب» منزلاً من السماء «من قبلك» أقسم «لقد جاءك الحق من ربّك فلا تكوننّ من الممترين» المتردّدين.

وهذا لا يستلزم وجود ريب في قلب النبي ﷺ ولا تحقّق شك منه فانّ هذا النوع من الخطاب كما يصحّ أن يخاطب من يجوز عليه الريب والشك كذلك يصحّ أن يخاطب به من هو على يقين من القول وبيّنة من الأمر على نحو التكنية عن كون المعنى الذي أخبر به المخبر ممّا تعاضدت عليه الحجج وتجمعت عليه الآيات فان فرض من المخاطب او السامع شكّ في واحدة منها كان له ان يأخذ بالاخرى.

وهذه طريقة شائعة في عرف التخاطب والتفاهم يأخذ بها العقلاء فيما بينهم جرياً على ما تدعوهم اليه قرائحهم ترى الواحد منهم يقيم الحجة على أمر من الامور ثم يقول: فان شككت في ذلك أو سلّمنا أنها لا توجب المطلوب فهناك حجّة اخرى على ذلك وهي أنّ كذا كذا، وذلك كناية عن أنّ الحجج متوفرة متعاضدة كالدعائم المضروبة على ما لا يحتاج الى أزيد من واحد منها لكنّ الغرض من تكثيرها هو أن تكون العريشة قائمة عليها على تقدير قيام الكل والبعض.

فيؤل معنى الكلام الى أن هذه معارف بيّنها الله لك بحجج تضطر العقول الى قبولها وقصص تحكي سنّة الله في خلقه والآثار تدل عليها، بيّنها في كتاب لا ريب فيه، فعلى ما بيّنه حجّة وهناك حجة أُخرى وهي أنّ أهل الكتب السماوية الموفين لها حق قراءتها يجدون ذلك فيما يقرءونه من الكتاب فهناك مبدء ومعاد، وهناك دين الهي بعث به رسله يدعون اليه، ولم يدعوا أُمّة من الامم إلّا انقسموا قبيلين مؤمن ومكذّب فأنزل الله آية فاصلة بين الحق والباطل وقضى بينهم.

وهذا أمر لا يسع أهل الكتاب أن ينكروه، وإنما كانوا ينكرون بشارات النبي ﷺ وبعض ما يختص به الإسلام من المعارف وما غيّروه في الكتب من الجزئيات، ومن لطيف الإشارة أن الله سبحانه لم يذكر في القصص المذكورة في هذه السورة قصّة هود وصالح لعدم تعرّض التوراة الموجودة عندهم لقصّتهما وكذا قصة شعيب وقصة المسيح لعدم توافق أهل الكتاب عليها

وليس إلّا لمكان أن يستشهد في هذه الآية بما لا يمتنعون من تصديقه.

فهذه الآية في القاء الحجّة على النبي ﷺ وزانها وزان قوله تعالى: ﴿أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل﴾ (الشعراء / ١٩٧) في القاء الحجّ الى الناس.

على أنّ السورة من اوائل السور النازلة بمكّة، ولم تشتد الخصومة يومئذ بين المسلمين وأهل الكتاب وخاصة اليهود اشتدادها بالمدينة، ولم يركبوا بعد من العناد واللحجاج ذاك المركب الصعب الذي ركبوه بعد هجرة النبي ﷺ، ونشوب الحروب بينهم وبين المسلمين حتى بلغوا المبلغ الذي قالوا: ﴿ما أنزل الله على بشر من شيء﴾ (الأنعام / ٩١).

فهذا ما يعطيه سياق الآية من المعنى، وأظنك إن أمعنت في تدبر الآية وسائر الآيات التي تناسبها مما يخاطب النبي ﷺ بحقية ما نزل اليه من ربه، ويتحدى على البشر بعجزهم عن إتيان مثله، وما يصف النبي ﷺ أنه على بصيرة من أمره، وأنه على بينة من ربه أقنعك ذلك فيما قدمناه من المعنى، وأغناك عن التمحلات التي ارتكبوها في تفسير الآية بما لا جدوى في نقلها والبحث عنها.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَاسِرِينَ﴾ نهي عن الارتياب والامتراء أولاً ثم ترقى الى النهي عن التكذيب بآيات الله وهو العناد مع الحق استكباراً على الله فإن الآية لا تكون آية إلّا مع وضوح دلالتها وظهور بيانها وتكذيب ما هذا شأنه لا يكون مبنياً إلّا على العناد واللجاج.

وقوله: ﴿فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَاسِرِينَ﴾ تفريع على التكذيب بآيات الله فهو نتيجته وعاقبته فهو المنهي عنه بالحقيقة. والمعنى: ولا تكن من الخاسرين. والخسران زوال رأس المال بانتقاصه او ذهاب جميعه، وهو الايمان بالله وآياته الذي هو رأس مال الإنسان في سعادة حياته في الدنيا والآخرة على ما يستفاد من الآية التالية حيث يعلل خسرانهم أنهم لا يؤمنون.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ﴾ الخ: تعليل للنهي السابق ببيان ما للمنهي عنه من الشأن فإن اصل النظم بحسب المعنى المستفاد من السياق أن يقال: لا تكونن من المكذّبين لأن المكذّبين لا يؤمنون فيكونون خاسرين لأن رأس مال السعادة هو الإيمان فوضع قوله: «الذين حقت عليهم كلمة ربك» موضع «المكذّبين» للدلالة على سبب الحكم وأن المكذّبين إنما يخسرون لأن كلمة الله سبحانه تحق عليهم فالأمر على كل حال الى الله سبحانه.

والكلمة الإلهية التي حقت على المكذّبين بآيات الله هي قوله يوم شرع الشريعة العامة لآدم وزوجته فمن بعدهما من ذريتهما: ﴿قلنا اهبطوا منها جميعاً ـ الى قوله ـ والذين كفروا وكذبوا بآياتنا اولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ (البقرة / ٣٩).

وهذا هوا الذي يريده بقوله في مقام بيان سبب خسران المكذّبين: «إن الذين حقت عليهم كلمة ربك» وهم المكذّبون حقت عليهم كلمة العذاب فهم «لا يؤمنون» ولذلك كانوا خاسرين لأنهم ضيعوا رأس مال سعادتهم وهو الإيمان فحرموه وحرموا بركاته في الدنيا والآخرة، وإذ حق عليهم أنهم لا يؤمنون فلا سبيل لهم الى الإيمان ولو جاءتهم كل آية «حتى يروا العذاب الأليم» ولا فائدة في الإيمان الاضطراري.

قوله تعالى: ﴿فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ﴾ الخ: ظاهر السياق أن لولا للتحضيض، وأن المراد بقوله: «آمنت» الإيمان الاختياري الصحيح كما يشعر به قوله بعده: «فنفعها إيمانها» ولوقوع التحضيض على أمر ماض لم يتحقق أفادت الجملة معنى اليأس المساوق للنفي فاستقام الاستثناء الذي في قوله: «إلاّ قوم يونس».

والمعنى: هلّا كانت قرية ـ من هذه القرى التي جاءتهم رسلنا فكذبوهم ـ آمنت قبل نزول العذاب إيماناً اختيارياً فنفعها إيمانها. لا ولم يؤمن إلاّ قوم يونس لما آمنت كشفنا عنهم عذاب

الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم بالحياة الى حين آجالهم العادية الطبيعية. ومنه يعلم أن الاستثناء متصل.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً﴾ اي لكنه لم يشأ ذلك فلم يؤمن جميعهم ولا يؤمن فالمشيئة في ذلك الى الله سبحانه ولم يشأ ذلك فلا ينبغي لك أن تطمع فيه ولا أن تجتهد لذلك لأنك لا تقدر على إكراههم وإجبارهم على الايمان، والإيمان الذي نريده منهم هو ما كان عن حسن الاختيار لا ما كان عن إكراه وإجبار.

ولذلك قال بعد ذلك في صورة الإستفهام الانكاري «أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين» اي بعدما بيّنا أن أمر المشية الى الله وهو لم يشأ إيمان جميع الناس فلا يؤمنون باختيارهم البتة لم يبق لك إلّا أن تكره الناس وتجبرهم على الايمان، وأنا أُنكر ذلك عليك فلا أنت تقدر على ذلك ولا أنا أقبل الايمان الذي هذا نعته.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ﴾ لما ذكر في الآية السابقة أن الأمر الى الله سبحانه لو شاء أن يؤمن أهل الأرض جميعاً لآمنوا لكنه لم يشأ فلا مطمع في إيمان الجميع زاد في هذه الآية في بيان ذلك ما محصله أن الملك ـ بالكسر ـ لله فله أصالة التصرف في كل أمر لا يشاركه في ذلك مشارك إلّا أن يأذن لبعض ما خلقه في بعض التصرفات.

والايمان بالله عن اختيار والاهتداء اليه أمر من الامور يحتاج في تحققه الى سبب يخصه، ولا يؤثر هذا السبب ولا يتصرف في الكون بإيجاد مسببه إلّا عن إذن من الله سبحانه في ذلك لكنَّ الله سبحانه بجعل الرجس والضلال على أهل العناد والجحود لم يأذن في إيمانهم، ولا رجاء في سعادتهم.

ولو أنه تعالى أذن في ذلك لأحد لأذن في إيمان غير أُولئك المكذبين فقوله: «وما كان لنفس أن تؤمن إلّا بإذن الله» حكم عام حقيقي ينيط تملك النفوس للايمان الى إذن الله، وقوله:

« ويجعل الرجس » الخ: يسلب عن الذين لا يعقلون استعداد حصول الإذن فيبق غيرهم.

وقد أُريد في الآية بالرجس ما يقابل الإيمان من الشك والريب بمعنى أنه هو المصداق المنطبق عليه الرجس في المقام لما قوبل بالإيمان، وقد عرَّف في قوله تعالى: ﴿ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعّد في السماء كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون﴾ (الأنعام / ١٢٥).

وقد أُريد ايضاً بقوله: ﴿الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ﴾ أهل التكذيب بآيات الله من جهة أنهم ممن حقّت عليه كلمة العذاب فإنهم الذين طبع الله على قلوبهم فهم لا يعقلون قال: ﴿وطبع الله على قلوبهم فهم لا يعلمون﴾ (التوبة / ٩٣).

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا مَاذَا فِي السَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ اي من المخلوقات المختلفة المتشتّتة التي كل واحد منها آية من آيات الله تعالى تدعو الى الإيمان، وقوله: « وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون » ظاهره أن « ما » استفهامية والجملة مسوقة بداعي الإنكار وإظهار الأسف كقول الطبيب: بماذا أُعالج الموت؟ أي إنا أمرناك أن تنذرهم بقولنا « قل انظروا في السماوات » الخ: لكن أي تأثير للنذر فيهم او للآيات فيهم وهم لا يؤمنون اي عازمون مجمعون على أن لا يؤمنوا بالطبع الذي على قلوبهم وربما قيل: إن ما نافية.

قوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ تفريع على ما في الآية السابقة من قوله: « وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون » اي اذا لم تغن الآيات والنذر عنهم شيئاً وهم لا يؤمنون البتة فهم لا ينتظرون إلّا مثل ايام الذين خلوا من قبلهم، وإنما يحبسون نفوسهم لآية العذاب الإلهي التي تفصل بينك وبينهم فتقضي عليهم لأنهم حقّت عليهم كلمة العذاب.

ولذا أمر النبي ﷺ ان يبلّغهم ذلك بقوله: « قل فانتظروا » اي مثل ايام الذين خلوا من قبلكم يعني يوم العذاب الذي يفصل بيني وبينكم فتؤمنون ولا ينفعكم إيمانكم « إني معكم من

المنتظرين».

وقد تبيّن بما مرَّ أن الاستفهام في الآية إنكاري.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ الجملة تتمة صدر الآية السابقة وقوله: «قل فانتظروا» الخ؛ جملة معترضة والنظم الأصلي بحسب المعنى «فهل ينتظرون» أي قومك هؤلاء «إلّا مثل أيام الذي خلوا من قبلهم» من الامم الذين كانت تحق عليهم كلمة العذاب فنرسل اليهم آية العذاب «ثم ننجّي رسلنا والذين آمنوا».

وإنما اعترض بقوله: ﴿قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ بين الكلام لأنه يتعلق بالجزء الذي يتقدمه من مجموع الكلام المستفهم عنه فإنه المناسب لأن يجعل جواباً لهم، وهو يتضمن انتظار النبي ﷺ للقضاء بينه وبينهم. وأما تنجيته وتنجية المؤمنين به فإن المنتظر لها هو النبي ﷺ والمؤمنون لا هو وحده، ولا يتعلق هذا الانتظار بفصل القضاء بل بالنجاة من العذاب. وهو مع ذلك لا يتعلق به غرض في المقام الذي سيق فيه الكلام لإنذار المشركين لا لتبشير النبي ﷺ والمؤمنين فافهم ذلك.

وأما قوله: ﴿كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فمعناه كما كنا ننجي الرسل والذين آمنوا في الامم السابقة عند نزول العذاب كذلك ننجي المؤمنين بك من هذه الامة حقّ علينا ذلك حقاً. فقوله: «حقاً علينا» مفعول مطلق قام مقام فعله المحذوف، واللام في «المؤمنين» للعهد والمراد به مؤمنوا هذه الامة. وهذا هو الوعد الجميل للنبي ﷺ والمؤمنين من هذه الامة بالإنجاء.

وليس من البعيد أن يستفاد من قوله: «ننج المؤمنين» أن فيه تلويحاً الى أن النبي ﷺ لا يدرك هذا القضاء، وإنما يقع بعد ارتحاله حيث ذكر المؤمنون ولم يذكر معهم النبي ﷺ مع أنه تعالى ذكر في السابقين رسله مع المؤمنين بهم كما ربما يخطر بالبال من تكرر قوله تعالى في كلامه: «فإما نرينّك بعض الذي نعدهم او نتوفّينّك فإلينا يرجعون» او ما في معناه.

١٠٤ ● قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلاٰ أَعْبُدُ الَّذِينَ
تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ وَلٰكِـنْ أَعْـبُدُ ٱللّٰـهَ الَّـذِي يَـتَوَفّٰيكُمْ
وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ.
١٠٥ ● وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً وَلاٰ تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ.
١٠٦ ● وَلاٰ تَدْعُ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ مَا لاٰ يَنْفَعُكَ وَلاٰ يَضُرُّكَ فَإِنْ فَـعَلْتَ
فَإِنَّكَ إِذَنْ مِنَ الظّٰالِمِينَ.
١٠٧ ● وَإِنْ يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلاٰ كاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ
فَلاٰ رٰادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشٰاءُ مِنْ عِبادِهِ وَهُوَ ٱلْـغَفُورُ
الرَّحِيمُ.
١٠٨ ● قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدىٰ
فَإِنَّما يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّما يَضِلُّ عَـلَيْها وَمَـا أَنَـا
عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ.
١٠٩ ● وَٱتَّبِعْ مَا يُوحىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتّٰى يَحْكُمَ ٱللَّهُ وَهُوَ خَـيْرُ
ٱلْحَاكِمِينَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي﴾الخ: قد تقدم غير مرة أن الدين هو السنّة المعمول بها في الحياة لنيل سعادتها وفيه معنى الطاعة كما في قوله تعالى:

﴿ وأخلصوا دينهم لله ﴾ (النساء / ١٤٦) وربما استعمل بمعنى الجزاء.

وقوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي ﴾ أي في طريقتي التي أسلكها وأثبت عليها وشك الانسان في دين غيره وطريقته المعمولة له إنما يكون في ثباته عليه هل يستقر عليه ويستقيم؟ وقد كان المشركون يطمعون في دينه ﷺ وربما رجوا أن يحولوه عنه فينجوا من دعوته الى التوحيد ورفض الشرك بالآلهة.

فالمعنى: إن كنتم تشكون فيما أدين به وأدعو اليه هل أستقيم عليه؟ أو شككتم في ديني ما هو؟ ولم تحصّلوا الأصل الذي يبتني عليه فإني أُصرح لكم القول فيه وأُبينه لكم وهو أني لا أعبد آلهتكم وأعبد الله وحده.

وقد أُخذ في قوله: ﴿ وَلٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّيٰكُمْ ﴾ له تعالى وصف توفّيهم دون غيره من أوصافه تعالى لأنهم إنما كانوا يعبدون الإله لزعمهم الحاجة اليه في دفع الضرر وجلب النفع، والتوفي أمر لا يشكون أنه سيصيبهم وأنه لله وحده فمساس الحاجة الى الأمن من ضرره يوجب عبادة الله سبحانه.

على أن اختيار التوفي للذكر ليكون في الكلام تلويح الى تهديدهم فإن الآيات السابقة وعدتهم العذاب وعداً قطعياً، ووفاة المشركين ميعاد عذابهم، ويؤيد ذلك إتباع قوله: ﴿ وَلٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّيٰكُمْ ﴾ بقوله: ﴿ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ فإن نجاتهم من العذاب جزء الوعد الذي ذكره الله في الآيتين السابقتين على هذه الآية «فهل ينتظرون إلّا مثل أيام الذين خلوا من قبل ـ الى قوله ـ ننج المؤمنين».

والمعنى: فاعلموا واستيقنوا أني لا أعبد آلهتكم ولكن أعبد الله الذي وعد عذاب المكذبين منكم وإنجاء المؤمنين وأمرني أن أكون منهم كما أمرني أن أجتنب عبادة الآلهة.

قوله: ﴿ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً ﴾ عطف على موضع قوله: «وأُمرت أن» الخ؛ فإنه في معنى وكن من المؤمنين، وقد مر الكلام في معنى إقامة الوجه للدين الحنيف غير

مرة.

قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَدْعُ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ مَا لاَ يَنْفَعُكَ وَلاَ يَضُرُّكَ﴾ نهي بعد نهي عن الشرك، وبيان أن الشرك يدخل الإنسان في زمرة الظالمين فيحق عليه ما أوعد الله به الظالمين في كلامه.

ومن لطيف التعبير قوله حين ذكر الدعاء «ما لا ينفعك ولا يضرك» وحين ذكر العبادة «الذين تعبدون من دون الله» فإن العبادة بالطبع يعطي للمعبود شعوراً وعقلاً فناسب أن يعبر عنه بنحو «الذين» المستعمل في ذوي العلم والعقل. والدعاء وإن كان كذلك لمساوقته العبادة غير أنه لما وصف المدعو بما لا ينفع ولا يضر، وربما توهم أن ذوي العلم والعقل يصح أن تنفع وتضر، عبّر بلفظة «ما» ليلوّح الى أنها جماد لا يتخيل في حقهم إرادة نفع أو ضرر.

وفي التعبير نفسه أعني قوله: ﴿مَا لاَ يَنْفَعُكَ وَلاَ يَضُرُّكَ﴾ إعطاء الحجة على النهي عن الدعاء.

قوله تعالى: ﴿إِنْ يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾ الخ: الجملة حالية وهي تتمة البيان في الآية السابقة، والمعنى: ولا تدع من دون الله ما لا نفع لك عنده ولا ضرر، والحال أن ما مسّك الله به من ضر لا يكشفه غيره وما أرادك به من خير لا يرده غيره فلهو القاهر دون غيره يصيب بالخير عباده بمشيئته وإرادته، وهو مع ذلك غفور رحيم يغفر ذنوب عباده ويرحمهم، واتصافه بهذه الصفات الكريمة وكون غيره صفر الكف منها يقتضي تخصيص العبادة والدعوة به.

قوله تعالى: ﴿قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جاءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ وهو القرآن أو ما يشتمل عليه من الدعوة الحقة، وقوله: ﴿فَمَنِ اهْتَدىٰ﴾ الى آخر الآية: إعلام لهم بكونهم مختارين فيما ينتخبونه لأنفسهم من غير أن يسلبوا الخيرة ببيان حقيقة هي ان الحق ـ وقد جاءهم ـ من حكمه ان من اهتدى اليه فإنما يهتدي ونفعه عائد اليه، ومن ضل عنه فإنما يضل

وضرره على نفسه فلهم ان يختاروا لأنفسهم ما يحبونه من نـفع او ضرر، وليس هـو ﷺ وكيلاً لهم يتصدى من الفعل ما هو لهم فالآية كناية عن وجوب اهتدائهم الى الحق لان فـيه نفعهم.

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ وَهُـوَ خَـيْرُ ٱلْحَاكِمِينَ﴾ أمر باتباع ما يوحى اليه والصبر على ما يصيبه في جنب هـذا الاتـباع مـن المصائب والمحن، ووعد بأن الله سبحانه سيحكم بينه وبين القوم، ولا يحكم إلّا بما فيه قرة عينه فالآية تشتمل على أمره بالاستقامة في الدعوة وتسليته فيما يصيبه، ووعده بأن العاقبة الحسنى له.

وقد اختتمت الآية بحكمه تعالى، وهو الذي عليه يعتمد معظم آيات السورة في بـيانها. والله اعلم.

سورة هود مكية وهي مائة وثلاث وعشرون آية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

١ ❁ الٓر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ.

٢ ❁ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا ٱللَّهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ.

٣ ❁ وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعاً حَسَناً إِلَىٰ
أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي
أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ.

٤ ❁ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿الٓر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ المقابلة بين الاحكام والتفصيل الذي هو ايجاد الفصل بين أجزاء الشيء المتصل بعضها ببعض، والتفرقة بين الامور المندمجة كل منها في آخر تدل على أن المراد بالاحكام ربط بعض الشيء

ببعضه الآخر وإرجاع طرف منه الى طرف آخر بحيث يعود الجميع شيئاً واحداً بسيطاً غير ذي أجزاء وأبعاض.

ومن المعلوم أن الكتاب اذا اتصف بالاحكام والتفصيل بهذا المعنى الذي مرّ فإنما يتصف بهما من جهة ما يشتمل عليه من المعنى والمضمون لا من جهة ألفاظه او غير ذلك، وأن حال المعاني في الاحكام والتفصيل والاتحاد والاختلاف غير حال الاعيان فالمعاني المتكثرة اذا رجعت الى معنى واحد كان هذا الواحد هو الأصل المحفوظ في الجميع وهو بعينه على إجماله هذه التفاصيل، وهي بعينها على تفاصيلها ذاك الإجمال وهذا كله ظاهر لا ريب فيه.

وعلى هذا فكون آيات الكتاب محكمة اولاً ثم مفصلة ثانياً معناه أن الآيات الكريمة القرآنية على اختلاف مضامينها وتشتت مقاصدها وأغراضها ترجع الى معنى واحد بسيط، وغرض فارد أصلي لا تكثّر فيه ولا تشتت بحيث لا تروم آية من الآيات الكريمة مقصداً من المقاصد ولا ترمي الى هدف إلّا والغرض الأصلي هو الروح الساري في جثمانه والحقيقة المطلوبة منه.

فلا غرض لهذا الكتاب الكريم على تشتت آياته وتفرّق أبعاضه إلّا غرض واحد متوحّد إذا فصّل كان في مورد أصلاً دينياً وفي آخر أمراً خلقياً وفي ثالث حكماً شرعياً وهكذا كلما تنزّل من الاصول الى فروعها ومن الفروع الى فروع الفروع لم يخرج من معناه الواحد المحفوظ، ولا يخطي غرضه فهذا الأصل الواحد بتركبه يصير كل واحد واحد من أجزاء تفاصيل العقائد والأخلاق والأعمال، وهي بتحليلها وإرجاعها الى الروح الساري فيها الحاكم على أجسادها تعود الى ذاك الأصل الواحد.

فتوحيده تعالى بما يليق بساحة عزّه وكبريائه مثلاً في مقام الاعتقاد هو إثبات أسمائه الحسنى وصفاته العليا، وفي مقام الأخلاق هو التخلق بالأخلاق الكريمة من الرضا والتسليم والشجاعة والعفّة والسخاء ونحو ذلك والاجتناب عن الصفات الرذيلة، وفي مقام الأعمال

والأفعال الإتيان بالأعمال الصالحة والورع عن محارم الله .

وإن شئت فقل : إن التوحيد الخالص يوجب في كل من مراتب العقائد والأخلاق والأعمال ما يبيّنه الكتاب الإلهي من ذلك كما أن كلاً من هذه المراتب وكذلك أجزاؤها لا تتم من دون توحيد خالص .

فقد تبيّن أن الآية في مقام بيان رجوع تفاصيل المعارف والشرائع القرآنية الى أصل واحد هو بحيث اذا ركّب في كل مورد من موارد العقائد والأوصاف والأعمال مع خصوصية ذلك المورد أنتج حكماً يخصه من الأحكام القرآنية .

وقوله تعالى : ﴿مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ الحكيم من اسمائه الحسنى الفعلية يدلّ على اتقان الصنع ، وكذا الخبير من اسمائه الحسنى يدلّ على علمه بجزئيات احوال الامور الكائنة ومصالحها ، وإسناد إحكام الآيات وتفصيلها الى كونه تعالى حكيماً خبيراً لما بينهما من النسبة .

قوله تعالى : ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا ٱللَّهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا﴾ الآية ؛ وما بعدها تفسير لمضمون الآية «كتاب أُحكمت آياته ثم فصّلت من لدن حكيم خبير» وإذ كانت الآية تتضمن أنه كتاب من الله الى ... له آيات محكمة ثم مفصلة كانت العناية في تفسيرها متوجهة الى إيضاح هذه الجهات .

ومن المعلوم ان هذا الكتاب الذي انزله الله تعالى من عنده الى رسوله ليتلوه على الناس ويبلّغهم له وجه خطاب الى الرسول ﷺ ووجه خطاب الى الناس بوساطته اما وجه خطابه الى الرسول ﷺ وهو الذي يتلقاه الرسول من وحي الله فهو ان انذر وبشّر وادع الناس الى كذا وكذا ، وهذا الوجه هو الذي عني به في اول سورة يونس حيث قال تعالى : ﴿ اوحينا الى رجل منهم ان انذر الناس وبشّر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم ﴾ (يونس / ٢) .

واما وجه خطابه الى الناس وهو الذي يتلقاه الناس من الرسول ﷺ فهو ما يلقيه الى

الناس من المعنى في ضمن تلاوته كلام الله عليهم بعنوان الرسالة أني ادعوكم الى الله دعوة نذير وبشير، وهذا الوجه من الخطاب هو الذي عني به في قوله: «ان لا تعبدوا إلّا الله انني لكم منه نذير وبشير» الخ.

فالآية من كلام الله تفسّر معنى إحكام آيات الكتاب ثم تفصيلها بحكاية ما يتلقاه الناس من دعوة الرسول اياهم بتلاوة كتاب الله عليهم، وليس كلاماً للرسول بطريق الحكاية ولا بتقدير القول ولا من الالتفات في شيء، ولا ان التقدير: امركم بأن لا تعبدوا او «فصّلت آياته لأن لا تعبدوا إلّا الله» بأن يكون قوله: «لا تعبدوا» نفياً لا نهياً فإن قوله بعد «وان استغفروا ربكم ثم توبوا اليه» معطوف على قوله: «ان لا تعبدوا الّا الله» وهو يشهد بأن «لا تعبدوا» نهي لا نفي. على ان التقدير لا يصار اليه من غير دليل فافهم ذلك فإنه من لطيف صنعة البلاغة في الآية.

وعلى هذا فقوله: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ دعوة الى توحيد العبادة بالنهي عن عبادة غير الله من الآلهة المتخذة شركاء لله، وقصر العبادة فيه تعالى، وقوله: «وان استغفروا ربكم ثم توبوا اليه» امر بطلب المغفرة من الله وقد اتخذوه رباً لهم برفض عبادة غيره ثم امر بالتوبة والرجوع اليه بالأعمال الصالحة. ويتحصّل من الجميع سلوك الطريق الطبيعي الموصل الى القرب والزلفى منه تعالى، وهو رفض الآلهة دون الله ثم طلب المغفرة والطهارة النفسانية للحضور في حظيرة القرب ثم الرجوع اليه تعالى بالأعمال الصالحة.

وقد جيء بأن التفسيرية ثانياً في قوله: «وأن استغفروا» الخ؛ لاختلاف ما بين المرحلتين اللتين يشير اليهما قوله: «أن لا تعبدوا إلّا الله» وهي مرحلة التوحيد بالعبادة مخلصاً، وقوله: «وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه» وهي مرحلة العمل الصالح وإن كانت الثانية من نتائج الاولى وفروعها.

ولكون التوحيد هو الأصل الأساسي والاستغفار والتوبة نتيجة وفرعاً متفرعاً عليه أورد

النذر والبشارة بعد ذكر التوحيد، والوعد الجميل الذي يتضمنه قوله: «يمتعكم» الخ؛ بعد ذكر الاستغفار والتوبة فقال «أن لا تعبدوا إلّا الله إنني لكم منه نذير وبشير» فبيّن به أن النذر والبشرى كائنين ما كانا يرجعان الى التوحيد ويتعلقان به ثم قال «وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعاً حسناً» الخ؛ فإن الآثار القيمة والنتائج الحسنة المطلوبة إنما تترتب على الشيء بعد ما تم في نفسه وكمل بصفاته وفروعه ونتائجه، والتوحيد وإن كان هو الأصل الوحيد للدين على سعته لكن شجرته لا تثمر ما لم تقم على ساقها ويتفرع عليها فروعها وأغصانها، «كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أُكلها كل حين بإذن ربها».

والظاهر أن المراد بالتوبة في الآية الايمان كما في قوله تعالى: ﴿فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك﴾ (المؤمنون / ٧) فيستقيم الجمع بين الاستغفار والتوبة مع عطف التوبة عليه بثمّ، والمعنى اتركوا عبادة الأصنام بعد هذا واطلبوا من ربكم غفران ما قدمتم من المعصية ثم آمنوا بربكم.

وقيل: إن المعنى اطلبوا المغفرة واجعلواها غرضكم ثم توصلوا اليه بالتوبة وهو غير جيد ومن التكلف ما ذكره بعضهم أن المعنى: استغفروا من ذنوبكم الماضية ثم توبوا اليه كلما أذنبتم في المستقبل وكذا قول آخر: إن «ثم» في الآية بمعنى الواو لأن التوبة والاستغفار واحد.

وقوله: ﴿يُمَتِّعْكُمْ مَتاعاً حَسَناً إِلىٰ أَجَلٍ مُسَمّىً﴾ الأجل المسمى هو الوقت الذي ينتهي اليه الحياة لا تتخطاه البتة، فالمراد هو التمتيع في الحياة الدنيا بل بالحياة الدنيا لأن الله سبحانه سماها في مواضع من كلامه متاعاً، فالمتاع الحسن الى أجل مسمى ليس إلّا الحياة الدنيا الحسنة.

فيؤول معنى قوله: ﴿يُمَتِّعْكُمْ مَتاعاً حَسَناً﴾ على تقدير كون «متاعاً» مفعولاً

مطلقاً الى نحو من قولنا: يمتعكم تمتيعاً حسناً بالحياة الحسنة الدنيوية، ومتاع الحياة إنما يكون حسناً إذا ساق الإنسان الى سعادته الممكنة له، وهداه الى أماني الإنسانية من التنعم بنعم الدنيا في سعة وأمن ورفاهية وعزة وشرافة فهذه الحياة الحسنة تقابل المعيشة الضنك التي يشير اليها في قوله: ﴿ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً﴾ (طه / ١٢٤).

وقوله: ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ الفضل هو الزيادة وإذ نسب الفضل في قوله: «كل ذي فضله» الى من عنده الفضل من الأفراد كان ذلك قرينة على كون الضمير في «فضله» راجعاً الى ذي الفضل دون اسم الجلالة كما احتمله بعضهم والفضل والزيادة من المعاني النسبية التي إنما تتحقق بقياس شيء الى شيء وإضافته اليه.

فالمعنى: ويعطي كل من زاد على غيره بشيء من صفاته وأعماله وما يقتضيه من الاختصاص بمزيد الأجر وخصوص موهبة السعادة تلك الزيادة من غير أن يبطل حقه او يغصب فضله او يملكه غيره كما يشاهد في المجتمعات غير الدينية وإن كانت مدنية راقية فلم تزل البشرية منذ سكنت الأرض وكونت أنواع المجتمعات الهمجية او الراقية او ما هي أرقى تنقسم الى طائفتين مستعلية مستكبرة قاهرة، ومستذلة مستعبدة مقهورة، وليس يعدّل هذا الافراط والتفريط ولا يسوي هذا الاختلاف إلّا دين التوحيد.

وقوله: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ أي فإن تتولوا، الخ؛ بالخطاب، والدليل عليه قوله: «عليكم» وما تقدم في الآيتين من الخطابات المتعددة فلا يصغي الى قول من يأخذ قوله: «تولوا» جمعاً مذكراً غائباً من الفعل الماضي فإنه ظاهر الفساد.

٥ ﴿ أَلاَ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلاَ حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ.

٦ • وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ.

٧ • وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ.

٨ • وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفاً عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ.

٩ • وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَؤُوسٌ كَفُورٌ.

١٠ • وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ.

١١ • إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ.

١٢ • فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ.

١٣ • أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ

وَٱدْعُوا مَنِ ٱسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ.
١٤ ❁ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّما أُنْزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَنْ لا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ.
١٥ ❁ مَنْ كانَ يُرِيدُ ٱلْحَيٰوةَ الدُّنْيا وَزِينَتَها نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيها وَهُمْ فِيها لا يُبْخَسُونَ.
١٦ ❁ أُولٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كانُوا يَعْمَلُونَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿أَلا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ﴾ الى آخر الآية: ثنى الشيء يثناه ثنياً كفتح يفتح فتحاً اي عطفه وطواه وردَّ بعضه على بعض قال في المجمع: اصل الثني العطف تقول: ثنيته عن كذا اي عطفته، ومنه الاثنان لعطف أحدهما على الآخر في المعنى، ومنه الثناء لعطف المناقب في المدح. ومنه الاستثناء لأنه عطف عليه بالإخراج منه، انتهى. وقال ايضاً: الاستخفاء طلب خفاء الشيء يقال: استخفى وتخفّى بمعنى، وكذلك استغشى وتغشّى، انتهى.

فالمراد بقوله: ﴿يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ﴾ أنهم يميلون بصدورهم الى خلف ويطأطئون رءوسهم ليتخفوا من الكتاب اي من استماعه حين تلاوته وهو كناية عن استخفائهم من النبي ﷺ ومن حضر عنده حين تلاوة القرآن عليهم للتبليغ لئلا يروا هناك فتلزمهم الحجة.

وقوله: ﴿أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيابَهُمْ يَعْلَمُ﴾ الخ؛ كأنهم كانوا يسترون رءوسهم

ايضاً بثيابهم عند استخفائهم بثني الصدور فذكر الله سبحانه ذلك وأخبر أنه تعالى يعلم عند ذلك ما يسرّون وما يعلنون فما يغنيهم التخفي عن استماع القرآن والله يعلم سرّهم وعلانيتهم.

وقيل: إن المراد باستغشائهم ثيابهم هو الاستغشاء في بيوتهم ليلاً عند أخذ المضاجع للنوم، وهو أخفى ما يكون فيه الانسان وأخلى أحواله، والمعنى: أنهم يثنون صدورهم ليستخفوا من هذا الكتاب عند تلاوته عليهم، والله يعلم سرّهم وعلانيتهم في أخفى ما يكونون عليه من الحال وهو حال تغشيهم بثيابهم للنوم، ولا يخلو الوجه من ظهور.

قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ الى آخر الآية، الدابّة على ما في كتب اللغة كل ما يدبّ ويتحرَّك، ويكثر استعماله في النوع الخاص منه، وقرينة المقام تقتضي كون المراد منه العموم لظهور أن الكلام مسوق لبيان سعة علمه تعالى، ولذلك عقَّب به قوله: «ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرّون وما يعلنون إنه عليم بذات الصدور».

وهذا المعنى أعني كون ذكر وجوب رزق كل دابة على الله لبيان سعة علمه لكل دابة في جميع احوالها يستوجب أن يكون قوله: ﴿ويعلم مستقرّها ومستودعها﴾ بمنزلة عطف التفسير لقوله: ﴿على الله رزقها﴾ فيعود المعنى الى أن كل دابة من دواب الأرض على الله أن يرزقها -ولن تبقى بغير رزق- فهو تعالى عليم بها خبير بحالها أينما كانت فإن كانت في مستقر لا تخرج منه كالحوت في الماء وكالصدف فيما وقعت واستقرت فيه من الأرض رزقها هناك وإن كانت خارجة من مستقرها وهي في مستودع ستتركه الى مستقرّها كالطير في الهواء او كالمسافر الغارب عن وطنه او كالجنين في الرحم رزقها هناك وبالجملة هو تعالى عالم بحال كل دابة في الأرض وكيف لا وعليه تعالى رزقها ولا يصيب الرزق المرزوق إلّا بعلم من الرازق بالمرزوق وخبرة منه بما حلَّ فيه من محل دائم او معجّل ومستقر او مستودع.

وأما قوله: ﴿عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ فهو دال على وجوب الرزق عليه تعالى وقد تكرر في

القرآن أن الرزق من أفعاله تعالى المختصة به وأنه حق للخلق عليه تعالى قال تعالى: ﴿**أمن هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه**﴾ (الملك / ٢١)، وقال تعالى: ﴿**إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين**﴾ (الذاريات / ٥٨) وقال تعالى: ﴿**وفي السماء رزقكم وما توعدون فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون**﴾ (الذاريات / ٢٣).

ولا ضير في أن يثبت عليه تعالى حق لغيره اذا كان تعالى هو الجاعل الموجب لذلك على نفسه من غير أن يداخل فيه غيره، ولذلك نظائر في كلامه تعالى كما قال: ﴿**كتب على نفسه الرحمة**﴾ (الأنعام / ١٢)، وقال: ﴿**وكان حقاً علينا نصر المؤمنين**﴾ (الروم / ٤٧) الى غير ذلك من الآيات.

والاعتبار العقلي يؤيد ذلك فإن الرزق هو ما يديم به المخلوق الحي وجوده وإذ كان وجوده من فيض جوده تعالى فما يتوقف عليه من الرزق من قبله، وإذ لا شريك له تعالى في إيجاده لا شريك له في ما يتوقف عليه وجوده كالرزق.

وقد تقدم بعض الكلام في معنى الكتاب المبين في سورة الأنعام آية: ٥٩ وفي سورة يونس آية: ٦١ فليراجع.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ الكلام المستوفى في توصيف خلق السماوات والأرض على ما يظهر من كلامه تعالى ويفسره ما ورد في ذلك عن اهل العصمة عليهم السلام موكول الى ما سيأتي من تفسير سورة حم السجدة إن شاء الله تعالى.

وإجمال القول الذي يظهر به معنى قوله: ﴿سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ وقوله: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ هو أن الظاهر أن ما يذكره تعالى من السماوات ـ بلفظ الجمع ـ ويقارنها بالأرض ويصف خلقها في ستة أيام طبقات من الخلق الجسماني المشهود تعلو أرضنا فكل ما علاك وأظلك فهو سماء على ما قيل والعلو والسفل من المعاني الإضافية.

فهي طبقات من الخلق الجسماني المشهود تعلو أرضنا وتحيط بها فإن الأرض كروية الشكل على ما يفيده قوله تعالى: ﴿يغشي الليل النهار يطلبه حثيثاً﴾ (الأعراف / ٥٤).

والسماء الاولى هي التي تزيّنه مصابيح النجوم والكواكب فهي الطبقة التي تتضمنها او هي فوقها وتتزين بها كالسقف يتزين بالقناديل والمشاكي وأما ما فوق السماء الدنيا فلم يرد في كلامه شيء من صفتها غير ما في قوله تعالى: ﴿سبع سماوات طباقاً﴾ (الملك / ٣)، وقوله: ﴿ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقاً وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً﴾ (نوح / ١٦) حيث يدل على مطابقة بعضها بعضاً.

وأما قوله: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى ٱلْمَاءِ﴾ فهو حال والمعنى وكان عرشه يوم خلقهن على الماء وكون العرش على الماء يومئذ كناية عن أن ملكه تعالى كان مستقراً يومئذ على هذا الماء الذي هو مادة الحياة فعرش الملك مظهر ملكه، واستقراره على محل هو استقرار ملكه عليه كما ان استواءه على العرش احتواءه على الملك وأخذه في تدبيره.

قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ اللام للغاية والبلاء الامتحان والاختبار، وقوله: «أيّكم أحسن عملاً» بيان للاختبار والامتحان في صورة الاستفهام والمراد أنه تعالى خلق السماوات والأرض على ما خلق لغاية امتحانكم وتمييز المحسنين منكم من المسيئين[1].

وأما ما في الآية من تعليل خلق السماوات والارض بقوله: «ليبلوكم أيكم أحسن عملاً» ونظائره الكثيرة في القرآن فإنما هو وأمثاله من قبيل التعليل بالفوائد المترتبة والمصالح المتفرعة وقد أخبر تعالى أن فعله لا يخلو من الحسن إذ قال: ﴿الذي أحسن كل شيء خلقه﴾ (الم السجدة / ٧)، فهو سبحانه هو الخير لا شرّ فيه وهو الحسن لا قبح عنده وما كان كذلك لم

---

١. هود ٥ ـ ١٦: كلام في غاية الخلقة.

يصدر عنه شرٌّ ولا قبيح البتة.

وليس مقتضى ما تقدم أن يكون معنى الحسن هو ما صدر عنه تعالى او الذي أمر به وإن استقبحه العقل، ومعنى القبيح هو ما لا يصدر عنه او الذي نهى عنه وإن استحسنه العقل واستصوبه فإن ذلك يأباه أمثال قوله تعالى: ﴿قل إن الله لا يأمر بالفحشاء﴾ (الأعراف / ٢٨).

قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هٰذا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ لما كان قوله: «ليبلوكم» الخ؛ يشير الى المعاد أشار الى ما كان يواجه به الكفار ذكره ﷺ للمعاد برميه بأنه سحر من القول.

فظاهر الآية أنهم كما كانوا يسمّون لفظ القرآن الكريم بما فيه من الفصاحة وبلاغة النظم سحراً، كذلك كانوا يسمّون ما يخبر به القرآن او النبي ﷺ من حقائق المعارف التي لا يصدّقه أحلامهم كالبعث بعد الموت سحراً، وعلى هذا فهو من مبالغتهم في الافتراء على كتاب الله والتعنت والعناد مع الحق الصريح حيث تعدّوا عن رمي اللفظ لفصاحته وبلاغته بالسحر الى رمي المعنى لصحته واستقامته بالسحر.

ومن الممكن أن يكون المراد بالسحر المغالطة والتمويه بإظهار الباطل في صورة الحق على نحو إطلاق الملزوم وإرادة اللازم لكن لا يلائمه ظاهر قوله تعالى في نظير المورد: ﴿قل مَن بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه ان كنتم تعلمون سيقولون لله قل فأنّى تسحرون﴾ (المؤمنون / ٨٩).

قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنا عَنْهُمُ ٱلْعَذابَ إِلىٰ أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ ما يَحْبِسُهُ﴾ الى آخر الآية؛ اللام في صدر الآية للقسم ولذلك أكد الجواب أعني قوله: «ليقولن» باللام والنون والمعنى: وأُقسم لئن أخرنا عن هؤلاء الكفار ما يستحقونه من العذاب قالوا مستهزئين: ما الذي يحبس هذا العذاب الموعود عنا ولماذا لا ينزل علينا ولا يحلّ

بنا.

وفي هذا إشارة أو دلالة على أنهم سمعوا من كلامه تعالى أو من كلام النبي ﷺ ما يوعدهم بعذاب لا محيص منه وأن الله أخر ذلك تأخيراً رحمة لهم فاستهزئوا به وسخروا منه بقولهم: «ما يحبسه» ويؤيده قوله تعالى عقيب ذلك: «ألا يوم يأتيهم ليس مصروفاً عنهم» الخ.

وبهذا يتأيد أن السورة ـ سورة هود ـ نزلت بعد سورة يونس لمكان قوله تعالى فيها: «ولكل أُمة رسول فإذا جاء رسولهم قضي بينهم بالقسط» الى آخر الآيات.

وقوله: ﴿إِلَىٰ أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ﴾ الامة الحين والوقت كما في قوله تعالى: ﴿**وقال الذي نجا منهما وادكر بعد أُمة**﴾ (يوسف / ٤٥) أي بعد حين ووقت.

وربما أمكن أن يراد بالامة الجماعة فقد وعد الله سبحانه أن يؤيد هذا الدين بقوم صالحين لا يؤثرون على دينه شيئاً ويمكّن عند ذلك للمؤمنين دينهم الذي ارتضى لهم.

وقوله: ﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفاً عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ بمنزلة الجواب عن قولهم: «ما يحبسه» الواقع موقع الاستهزاء فإنه في معنى الرد على ما أُوعدوا به من العذاب، ومحصله أن هذا العذاب الذي يهددنا لو كان حقاً لم يكن لحبسه سبب فإنا كافرون غير عادلين عن الكفر ولا تاركين له فتأخر نزول العذاب من غير موجب لتأخره بل مع الموجب لتعجيله كاشف عن كونه من قبيل الوعد الكاذب.

فأجاب الله عن ذلك بأنه سيأتيهم ولا يصرفه يومئذ عنهم صارف ويحيق بهم هذا العذاب الذي كانوا به يستهزئون.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ﴾ قال في المجمع: الذوق تناول الشيء بالفم لإدراك الطعم، وسمى الله سبحانه إحلال اللذّات بالإنسان إذاقة لسرعة زوالها تشبيهاً بما يذاق ثم يزول كما قيل: أحلام نوم أو كظل

زائل والنزع قلع الشيء عن مكانه، واليؤس فعول من يئس ـ صيغة مبالغة ـ واليأس القطع بأن الشيء المتوقع لا يكون ونقيضه الرجاء. انتهى.

وقد وضعت الرحمة في الآية مكان النعمة لإشعار بأن النعم التي يؤتيها الله الإنسان عنوانها الرحمة وهي رفع حاجة الإنسان فيما يحتاج اليه من غير استحقاق وإيجاب والمعنى: إنا إن آتينا الإنسان شيئاً من النعم التي يتنعم بها ثم نزعناها يئس منها واشتد يأسه حتى كأنه لا يرى عودها اليه ثانياً ممكناً وكفر بنعمتنا كأنه يرى تلك النعمة من حقه الثابت علينا ويرانا غير مالكين لها فالإنسان مطبوع على اليأس عما أُخذ منه والكفران، وقد أُخذ في الآية لفظ الإنسان ـ وهو لفظ دال على نوعه ـ للدلالة على أن الذي يذكر من صفته من طبع نوعه.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ قال في المجمع: النعماء إنعام يظهر أثره على صاحبه والضرّاء مضرّة يظهر الحال بها لأنهما أُخرجتا مخرج الأحوال الظاهرة مثل حمراء وعيناء مع ما فيهما من المبالغة، والفرح والسرور من النظائر وهو انفتاح القلب بما يلتذ به وضده الغمّ ـ الى أن قال: ـ والفخور الذي يكثر فخره وهو التطاول بتعديد المناقب وهي صفة ذم اذا أُطلقت لما فيها من التكبر على من لا يجوز أن يتكبر عليه. انتهى.

والمراد بالسيئات بقرينة المقام المصائب والبلايا التي يسوء الإنسان نزولها عليه، والمعنى: ولئن أصبناه بالنعمة بعد الضرّاء ليقولنّ ذهب الشدائد عني، وهو كناية عن الاعتقاد بأن هاتيك الشدائد والنوازل لا تعود بعد زوالها ولا تنزل بعد ارتفاعها ثانياً.

وقوله: ﴿إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ بمنزلة التعليل لقوله: ﴿ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي﴾ فإنه يفرح ولا يزال على ذلك لما ذاقه من النعماء بعد الضرّاء، ولو كان يرى أن ما عنده من النعماء جائز الزوال لا وثوق على بقائه ولا اعتماد على دوامه. وأن الأمر ليس اليه بل الى غيره ومن الجائز أن يعود اليه ما تركه من السيئات لم يكن فرحاً بذلك فإنه لا فرح في أمر مستعار غير

ذي قرار.

وانه ليفخر بما أُوتي من النعماء على غيره، ولا فخر إلّا بكرامة أو منقبة يملكها الإنسان فهو يرى ما عنده من النعمة أمراً بيده زمامه ليس لغيره أن يسلبه وينزعه منه ويعيد اليه ما ذهب عنه من السيئات ولذلك يفخر ويكثر من الفخر.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ ذكر سبحانه ما الإنسان مطبوع عليه عند الشدة والبلاء من اليأس والكفر وعند الرخاء والنعماء من الفرح والفخر. ومغزى الكلام أنه مخلوق كليل البصر قصير النظر إنما يرى ما يجده في حاله الحاضرة، ويذهل عما دون ذلك فإن زالت عنه نعمه لم ير لها عودة وأنها كانت من عند الله سبحانه، وله تعالى ان يعيدها اليه إن شاء حتى يصبر على بلائه ويتعلق قلبه به بالرجاء والمسألة. وإن عادت اليه نعمة بعد زوالها رأى أنه يملكها ففرح وفخر ولم ير لله تعالى صنعاً في ذلك حتى يشكره عليها ويكف عن الفرح وعن التطاول على غيره بالفخر.

استثنى سبحانه طائفة من الإنسان ووصفهم بقوله: «الذين صبروا وعملوا الصالحات» ثم وعدهم وعداً حسناً بقوله: «أُولئك لهم مغفرة وأجر كبير» وذلك أن التخلص من هذا الطبع المذموم إنما يتمشى من الصابرين الذين يصبرون عند الضرّاء فلا يحملهم الجزع على اليأس والكفر. ويعملون الصالحات من الشكر بثنائه تعالى على ما كشف الضرّاء وأعقب بالنعماء وصرف نعمه في ما يرضيه ويريح خلقه فلا يحملهم الاستغناء على الفرح والفخر.

وهؤلاء هم المتخلصون الناجون يغفر لهم ربهم بإمحاء آثار ذلك الطبع المذموم ووضع الخصال المحمودة موضعه ولهم عند ربهم مغفرة وأجر كبير.

وفي الآية دلالة على أن الصبر مع العمل الصالح لا ينفك عن الإيمان فإنها تعد هؤلاء الصابرين مغفرة وأجراً كبيراً. والمغفرة لا تنال المشركين، قال تعالى: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به﴾ (النساء / ١١٦).

وقد ورد الوعد بعين ما ذكر في هذه الآية أعني المغفرة والأجر الكبير للمؤمنين في قوله تعالى: ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر كبير﴾ (فاطر / ٧)، وقوله تعالى: ﴿إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير﴾ (الملك / ١٢).

قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ﴾ الى آخر الآية: لما كانت رسالة النبي ﷺ بما أُيدت به من القرآن الكريم والآيات البينات والحجج والبراهين مما لا يسع لذي عقل إنكارها ولا لانسان صحيح المشاعر ردها والكفر بها كان ما حكى من كفر الكافرين وإنكار المشركين أمراً مستبعداً بحسب الطبع. وإذا كان وقوع أمر على صفة من الصفات مستبعداً أخذ الانسان في تقرير ذلك الأمر من غير مجرى الاستبعاد طلباً للمخرج من نسبة الوقوع الى ما يستبعده الطبع.

ولما كان المقام في الآية الكريمة هذا المقام وكان ما حكاه الله سبحانه من كفر المنكرين وإنكار المشركين لما جاء به النبي ﷺ اليهم من الحق الصريح وما أُنزل اليه من كلام الله تعالى مع ما يتلوه من البينات والحجج ما لا ينبغي أن يذعن به لبعده طبعاً بيّن تعالى لذلك وجهاً بعد وجه على سبيل الترجي فقال «ولعلك تارك بعض ما يوحى اليك» الخ؛ «أم يقولون افتراه» الخ.

فكأنه قيل: من المستبعد أن تهديهم الى الحق الواضح ويسمعوا منك كلامي ثم لا يستجيبوا دعوتك ويكفروا بالحق بعد وضوحه فلعلك تارك بعض ما يوحى اليك وغير داعيهم اليه ولذلك جبّهوك بالإنكار أم يقولون إن القرآن ليس من كلام الله بل هو افتراء افتريته على الله ولذلك لم يؤمنوا به. فإن كنت تركت بعض الوحي خوفاً من اقتراحهم عليك الآيات فإنما أنت نذير وليس لك إلّا ما شاء الله. وان يقولوا افتراه فقل لهم يأتوا بعشر سور مثله مفتريات، الخ.

وقوله: ﴿تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحىٰ إِلَيْكَ﴾ إنما ذكر البعض لأن الآيات السابقة

متضمنة لتبليغ الوحي في الجملة أي لعلك تركت بعض ما أوحينا اليك من القرآن فما تلوته عليهم فلم ينكشف لهم الحق كل الانكشاف حتى لا يجبّهوك بما جبّهوك به من الرد والجحود، وذلك أن القرآن بعضه يوضح بعضاً وشطر منه يقرّب شطراً منه من القبول كآيات الاحتجاج توضح الآيات المشتملة على الدعاوي، وآيات الثواب والعقاب تقرّب الحق من القبول بالتطميع والتخويف، وآيات القصص والعبر تستميل النفوس وتليّن القلوب.

وقوله: ﴿وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا﴾ الخ؛ قال في المجمع: ضائق وضيق بمعنى واحد إلّا أن ضائق ههنا أحسن لوجهين: أحدهما أنه عارض، والآخر أنه أشكل بقوله: «تارك» انتهى.

والظاهر أن ضمير «به» راجع الى قوله: «بعض ما يوحى» وإن ذكر بعضهم أن الضمير راجع الى قولهم: «لولا أُنزل عليه كنز» الخ؛ أو الى اقتراحهم وهذا أوفق بكون قوله: «أن يقولوا» الخ؛ بدلاً من الضمير في «به» وما ذكرناه أوفق بكونه مفعولاً له لقوله: «تارك» والتقدير: لعلك تارك ذلك مخافة أن يقولوا: لولا أُنزل عليه كنز أو جاء معه ملك.

وقوله: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ﴾ جواب عن اقتراحهم بقوله: لولا أُنزل عليه كنز أو جاء معه ملك، وقد تكرر في مواضع من كلامه تعالى ذكر ما اقترحوه اقتصر في بعضها على ذكر مجيء الملك وزيد في بعضها عليه غيره كاقتراح الإتيان بالله سبحانه ليشهد على الرسالة وأن يكون له جنّة يأكل منها وأن ينزل من السماء كتاباً يقرءونه. وقد أجاب الله سبحانه عنها جميعاً بمثل ما أجاب به ههنا وهو أن رسوله ليس له إلّا الرسالة فلبس بيده وهو بشر رسول أن يجيبهم الى ما اقترحوا به عليه إلّا أن يشاء الله في ذلك شيئاً ويأذن في إتيان آية كما قال: ﴿وما كان لرسول أن يأتي بآية إلّا بإذن الله﴾ (المؤمن / ٧٨).

ثم عقب قوله: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ﴾ بقوله: ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾

لتتميم الجواب عن اقتراحهم على النبي ﷺ بالمعجزات ومحصّله: أن النبي ﷺ بشر مثلهم ولم يؤمر إلّا بالإنذار وهو الرسالة بإعلام الخطر، والقيام بالامور كلها وتدبيرها سواء كانت جارية على العادة أو خارقة لها إنما هو الى الله سبحانه فلا وجه لتعلقهم بالنبي ﷺ فيما ليس اليه.

وذلك أن الله سبحانه هو الموجد للأشياء كلها وفاطرها وهو القائم على كل شيء فيما يجري عليه من النظام فما من شيء إلّا وهو تعالى المبدء في أمره وشأنه والمنتهى سواء الامور الجارية على العادة والخارقة لها فهو تعالى الذي يسلم اليه أمره ويدبر شأنه فهو تعالى الوكيل عليه فإن الوكيل هو الذي يسلم اليه الأمر وينفذ فيه منه الحكم فهو تعالى على كل شيء وكيل.

وبذلك يظهر أن قوله: «والله على كل شيء وكيل» بمعونة من قوله: «إنما أنت نذير» يفيد قصر القلب فإنهم سألوا النبي ﷺ أمراً ليس اليه وإنما هو الى الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَيهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ﴾ قد تقدم من الكلام ما يصح به أخذ «أم» متصلة لكون قوله: «فلعلك تارك» الخ؛ في معنى الاستفهام، والتقدير: أفأنت تارك بعض ما يوحى اليك خوفاً من اقتراحهم المعجزة أم يقولون إنك افتريته علينا فإن من المستبعد أن يقرء عليهم كلامي ثم لا يؤمنوا به وقيل: إن أم منقطعة والمعنى: بل يقولون افتراه.

وقوله: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾ في الكلام تحدّ ظاهر والضمير راجع الى القرآن او الى السورة بما أنها قرآن والفاء في «فأتوا» تفيد تفريع الامر على قوله: «افتراه» وفي الكلام حذف وإيصال رعاية للإيجاز، والتقدير: قل لهم: إن كان هذا القرآن مما افتريته على الله كان من عندي وكان من الجائز أن يأتي بمثله غيري فإن كنتم صادقين في دعواكم ومجدّين غير هازلين فأتوا بعشر سوَر مثله مفتريات واستعينوا في ذلك بدعوة كل من

تستطيعون من دون الله من اوثانكم الذين تزعمون انهم آلهة تتسرعون اليهم في الحاجات وغيرهم من سائر الخلق حتى يتم لكم جميع الاسباب والوسائل ولا يبقى أحد ممن يطمع في تأثير إعانته ويرجى نفعه في ذلك فلو كان من عندي لا من عند الله جاز أن تأتوا حينئذ بمثله.

وقد بان بهذا البيان ان التحدي بالقرآن في الآية الكريمة ليس من حيث نظمه وبلاغته فحسب فإنه تعالى يأمرهم بالاستمداد من كل من استطاعوا دعوته من دون الله سواء في ذلك آلهتهم وغير آلهتهم وفيهم من لا يعرف الكلام العربي او جزالة نظمه وصفة بلاغته فالتحدي عام لكل ما يتضمنه القرآن الكريم من معارف حقيقية والحجج والبراهين الساطعة والمواعظ الحسنة والأخلاق الكريمة والشرائع الإلهية والأخبار الغيبية والفصاحة والبلاغة نظير ما في قوله تعالى: **﴿قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً﴾** (الإسراء / ٨٨). وقد تقدمت الإشارة الى ذلك في الكلام على إعجاز القرآن في الجزء الاول من الكتاب.

قوله تعالى: **﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾** إجابة الدعوة واستجابتها بمعنى.

والظاهر من السياق ان الخطاب في الآية للمشركين، وأنه من تمام كلام النبي ﷺ الذي أمر بقوله تعالى: «قل» أن يلقيه اليهم، وعلى هذا فضمير الجمع في قوله: «لم يستجيبوا» راجع الى الآلهة وكل من استعانوا به المدلول عليهم بقوله: «وادعوا من استطعتم من دون الله».

والمعنى: فإن لم يستجب لكم معاشر المشركين هؤلاء الذين دعوتموهم من آلهتكم ومن بلغاء أهل لسانكم العارفين بأساليب الكلام وعلماء اهل الكتاب الذين عندهم الكتب السماوية وأخبار الأنبياء والامم والكهنة المستمدين من إلقاء شياطين الجن،

وجهابذة العلم والفهم من سائر الناس المتعمقين في المعارف الانسانية بأطرافها فاعلموا أنما أُنزل هذا القرآن بعلم الله ولم يختلق عن علمي أنا ولا غيري ممن تزعمون أنه يعلمني ويملي علي، واعلموا أيضاً ان ما ادعوكم اليه من التوحيد حق فإنه لو كان هناك إله من دون الله لنصركم على ما دعوتموه اليه فهل انتم ايها المشركون مسلمون لله تعالى منقادون لأمره ؟

فقوله تعالى: ﴿ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ ﴾ في معنى قولنا: فإن لم تقدروا على المعارضة بعد الاستعانة والاستمداد بمن استطعتم أن تدعوهم من دون الله. وذلك أن الأسباب التي توجب قدرتهم على المعارضة هي ما عندهم من قدرة البيان وقريحة البلاغة وهم يرون أن ذلك من مواهب آلهتهم من دون الله وكذا ما عند آلهتهم مما لم يهبوهم بعد، ولهم أن يؤيدوهم به إن شاءوا على زعمهم، وأيضاً ما عند غير آلهتهم من المدد، واذا لم يستجبهم الذين يدعونهم في معارضة القرآن فقد ارتفع جميع الأسباب الموجبة لقدرتهم وارتفعت بذلك قدرتهم فعدم إجابته الشركاء على معارضة القرآن ملازم لعدم قدرتهم عليها حتى بما عند أنفسهم من القدرة ففي الكلام كناية.

وقوله: ﴿ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ ﴾ الظاهر أن المراد بعلم الله هو العلم المختص به وهو الغيب الذي لا سبيل لغيره تعالى اليه إلّا بإذنه كما قال تعالى: ﴿ **لكن الله يشهد بما أنزل اليك أنزله بعلمه** ﴾ (النساء / ١٦٦)، وقال: ﴿ **ذلك من أنباء الغيب نوحيه اليك** ﴾ (يوسف / ١٠٢)، وقال: ﴿ **عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحد إلّا من ارتضى من رسول** ﴾ (الجن / ٢٧)، وقال: ﴿ **إنه لقرآن كريم في كتاب مكنون لا يمسه إلّا المطهرون تنزيل من رب العالمين** ﴾ (الواقعة / ٨٠).

فالمعنى: فإن لم تقدروا على معارضته بأي سبب ممد تعلقتم به من دون الله فتيقنوا أنه لم ينزل إلّا عن سبب غيبي وأنه من أنباء الغيب الذي يختص به تعالى فهو الذي أنزله على

وكلمني به وأراد تفهيمي وتفهيمكم بما فيه من المعارف الحقة وذخائر الهداية.

وذكر بعضهم أن المراد به أنه إنما أُنزل على علم من الله بنزوله وشهادة منه له، وذكر آخرون أن المراد أنه إنما أُنزل بعلم من الله أنه لا يقبل المعارضة أو بعلم من الله بنظمه وترتيبه ولا يعلم غيره ذلك، وهذه معان واهية بعيدة عن الفهم.

والجملة أعني قوله: ﴿إِنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ﴾ احدى النتيجتين المأخوذتين من عدم استجابة شركائهم لهم. والنتيجة الأخرى قوله: «وأن لا إله إلّا هو» ولزوم هذه النتيجة من وجهين: أحدهما: أنهم اذا دعوا آلهتهم لما يهمهم من الأمور فلم فلم يجيبوهم كشف ذلك عن أنهم ليسوا بآلهة فليس الإله إلّا من يجيب المضطر اذا دعاه وخاصة اذا دعاه لما فيه نفع الإله المدعو فإن القرآن الذي أتى به النبي ﷺ كان يطقع دابرهم ويميت ذكرهم ويصرف الناس عن التوجه اليهم فإذا لم يجيبوا أولياءهم اذا دعوهم لمعارضة كتاب هذا شأنه كان ذلك من اوضح الدليل على نفي أُلوهيتهم.

وثانيهما: أنه اذا صح ان القرآن حق نازل من عند الله صادق فيما يخبر به، ومما يخبر به أنه ليس مع الله إله آخر علم بذلك أنه لا إله إلّا الله سبحانه.

وقوله: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أي لما علمتم واتضح لكم من جهة عدم استجابة شركائهم من دون الله وعجزكم عن المعارضة فهل أنتم مسلّمون لما وقع عليه علمكم هذا من توحيد الله سبحانه وكون هذا القرآن كتاباً نازلاً بعلمه؟ وهو أمر بالإسلام في صورة الاستفهام. هذا كله ما يقتضيه ظاهر الآية.

وقيل: إن الخطاب في قوله: ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ﴾ الخ: للنبي ﷺ خوطب بلفظ الجمع تعظيماً له وتفخيماً لشأنه وضمير الجمع الغائب راجع الى المشركين أي فإن لم يستجب المشركون لما دعوتهم أيها النبي اليه من المعارضة فاعلم أنه منزل بعلم الله وأن الله واحد فهل أنت مسلم لأمره.

وفيه أنه قد صح أن التعظيم بلفظ الجمع والكثرة يختص في الكلام العربي بالمتكلم واما الخطاب والغيبة فلا تعظيم فيها بلفظ الجمع.

مضافاً الى ان استناد الوحي الإلهي والتكليم الرباني اليه تعالى استناد ضروري لا يقبل الشك حتى يستعان عليه بالدليل فما يتلقاه النبي ﷺ دلالته على كونه كلاماً من الله دلالة ضرورية غير محتاجة الى حجة حتى يحتج عليه بعدم إجابة المشركين الى معارضة القرآن وعجزهم عنها بخلاف كلام المخلوقين من الانسان والجن والملك وأي هاتف آخر فإنه يحتاج في حصول العلم باستناده الى متكلمه الى دليل خارجي من حسن أو عقل، وقد تقدمت إشارة الى ذلك في قصة زكريا من سورة آل عمران. وسيجيء البحث المستوفى عن ذلك فيما يناسبه من المورد إنشاء الله تعالى.

على أن خطاب النبي ﷺ بمثل قوله: «وأنه لا إله إلّا هو»، وقوله: «فهل أنتم مسلمون» لا يخلو عن بشاعة. على أن نفس الاستدلال ايضاً غير تامّ كما سنبين.

وقيل: إن الخطاب في الآية للنبي ﷺ والمؤمنين جميعاً او للمؤمنين خاصة لأن المؤمنين يشاركونه ﷺ في الدعوة الدينية والتحدّي بالقرآن الذي هو كتاب ربهم المنزل عليهم والمعنى: فإن لم يستجب المشركون لكم في المعارضة فاعلموا أن القرآن منزل بعلم الله وأن لا إله إلّا هو فهل تسلمون أنتم لله؟

ولما تفطّن بعضهم أن لا معنى لدعوة المؤمنين وهم مؤمنون بالله وحده وبكتابه الى العلم بأنه كتاب نازل من عند الله وبأنه تعالى واحد لا شريك له أصلحه بأن المراد فاثبتوا على علمكم أنه إنما أُنزل بعلم الله وازدادوا به ايماناً ويقيناً وأنه لا إله إلّا هو ولا يستحق العبادة سواه فهل أنتم ثابتون على إسلامكم والإخلاص فيه؟

وفيه أنه تقييد للآية من غير مقيّد والحجة غير تامة وذلك أن المشركين لو كانوا وقفوا موقف المعارضة بما عندهم من البضاعة واستعانوا عليها بدعوة آلهتهم وسائر من يطمعون فيه

من الجن والإنس ثم عجزوا كان ذلك دليلاً واضحاً يدلهم على أن القرآن فوق كلام البشر وتمّت بذلك الحجة عليهم، وأما عدم استجابة الكفار للمعارضة فليس يدل على كونه من عند الله لأنهم لم يأتمروا بما أُمروا به بقوله: «فأتوا بعشر سوَر مثله مفتريات» إما لعلمهم بأنه كلام الله الحق وإنما كان قولهم: «افتراه» قولاً ناشئاً عن العناد واللجاج لا عن إذعان به او شك فيه، او لأنهم كانوا آئسين من استجابة شركائهم للدعوة على المعارضة. او لأنهم كانوا هازلين في قولهم ذلك يهذرون هذراً.

وبالجملة عدم استجابة المشركين للنبي ﷺ او للمؤمنين او لهم جميعاً لا يدلّ بنفسه على كون القرآن نازلاً من عند الله إلّا اذا كان عدم الاستجابة المذكورة بعد تحقق دعوتهم شركاءهم الى المعارضة وعدم استجابتهم لهم، ولم يتحقق من المشركين دعوة على هذه الصفة، ومجرد عدم استجابة المشركين انفسهم لا ينفع شيئاً، ولا يبقى إلّا أن يقال: إن معنى الآية: فإن دعا المشركون من استطاعوا من دون الله فلم يستجيبوا لهم ولم يستجب المشركون لكم أيها النبي ومعاشر المؤمنين فاعلموا أنما أُنزل بعلم الله، الخ؛ وهذا هو الذي أومأنا اليه آنفاً أنه تقييد للآية من غير مقيّد.

على أن فيه امراً للمؤمنين أن يهتدوا في ايمانهم ويقينهم بأمر فرضيّ غير واقع وكلامه تعالى يجلّ عن ذلك، ولو أُريدت الدلالة على أنهم غير قادرين على ذلك وإن دعوا شركاءهم الى المعارضة كان من حق الكلام أن يقال: فإن لم يستجيبوا لكم ولن يستجيبوا فاعلموا، الخ؛ كما قيل كذلك في نظيره قال تعالى: ﴿وإن كنتم في ريب مما نزّلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أُعدت للكافرين﴾ (البقرة / ٢٤).

قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ الدُّنْيا وَزِينَتَها نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ﴾ التوفية إيصال الحق الى صاحبه وإعطاؤه له بكماله، والبخس

نقص الأجر.

وفي الآية تهديد لهؤلاء الذين لا يخضعون للحق لما جاءهم ولا يسلمون له إيثاراً للحياة الدنيا ونسياناً للآخرة، وبيان لشيء من سنَّة الاسباب القاضية عليهم باليأس من نعيم الحياة الآخرة.

وذلك أن العمل كيفما كان فإنما يسمح للإنسان بالغاية التي ارادها به وعمله لأجلها، فإن كانت غاية دنيوية تصلح شؤن الحياة الدنيا من مال وجمال وحسن حال ساقه العمل ـ إن أعانته سائر الاسباب العاملة ـ الى ما يرجوه بالعمل وأما الغايات الاخروية فلا خبر عنها لأنها لم تقصد حتى تقع، ومجرد صلاحية العمل لأن يقع في طريق الآخرة وينفع في الفوز بنعيمها كالبر والإحسان وحسن الخلق لا يوجب الثواب وارتفاع الدرجات ما لم يقصد به وجه الله ودار ثوابه.

ولذلك عقبه بقوله تعالى: «أُولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلّا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون» فأخبر أنهم اذا وردوا الحياة الآخرة وقعوا في دار حقيقتها أنها نار تأكل جميع أعمالهم في الحياة كما تأكل النار الحطب وتبير وتهلك كل ما تطيب به نفوسهم من محاسن الوجود، وتحبط جميع ما صنعوا فيها وتبطل ما أسلفوا من الأعمال في الدنيا، ولذلك سماها سبحانه في موضع آخر بدار البوار أي الهلاك فقال تعالى: ﴿**ألم ترَ الى الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار جهنم يصلونها**﴾ (إبراهيم / ٢٩)، وبذلك يظهر أن كلاً من قوله: «وحبط ما صنعوا فيها» وقوله: «وباطل ما كانوا يعملون» يفسر قوله: «أُولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلّا النار» نوعاً ما من التفسير[١].

---

١. هود ٥ ـ ١٦: بحث روائي في سيرة المشركين اذا مرّوا برسول الله ﷺ: ان رزق العباد على الله؛ السؤال من فضل الله؛ القضاء بالرزق والامر بطلبه؛ نظر الائمة المعصومين عليهم السلام في طلب الرزق؛ بدء الخلقة؛ الاعمال الصالحة.

١٧ ● أَفَمَنْ كانَ عَلىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شاهِدٌ مِنْهُ وَمِـنْ قَـبْلِهِ
كِتابُ مُوسىٰ إِماماً وَرَحْمَةً أُولٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ
مِنَ ٱلْأَحْزابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلاٰ تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ
مِنْ رَبِّكَ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاٰ يُؤْمِنُونَ.
١٨ ● وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرىٰ عَلَى ٱللّٰهِ كَذِباً أُولٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلىٰ
رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَادُ هٰؤُلاٰءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا عَلىٰ رَبِّهِمْ أَلاٰ لَعْنَةُ
ٱللّٰهِ عَلَى الظَّالِمِينَ.
١٩ ● ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ ٱللّٰهِ وَيَبْغُونَها عِوَجاً وَهُمْ بِالْآخِرَةِ
هُمْ كافِرُونَ.
٢٠ ● أُولٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كانَ لَـهُمْ مِـنْ
دُونِ ٱللّٰـهِ مِـنْ أَوْلِـياٰءَ يُـضاعَفُ لَـهُمُ ٱلْـعَذابُ مَـا كـانُوا
يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كانُوا يُبْصِرُونَ.
٢١ ● أُولٰئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كانُوا يَفْتَرُونَ.
٢٢ ● لاٰ جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ.
٢٣ ● إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَاخْبَتُوا إِلىٰ رَبِّهِمْ أُولٰئِكَ
أَصْحابُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيها خالِدُونَ.
٢٤ ● مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْـبَصِيرِ وَالسَّـمِيعِ هَـلْ
يَسْتَوِيانِ مَثَلاً أَفَلاٰ تَذَكَّرُونَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ كانَ عَلىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتابُ مُوسىٰ إِماماً وَرَحْمَةً﴾ الجملة تفريع على ما مضى من الكلام الذي هو في محل الاحتجاج على كون القرآن كتاباً منزلاً من عند الله سبحانه، و «من» مبتدء خبره محذوف والتقدير: كغيره، أو ما يؤدي معناه، والدليل عليه قوله تلواً «اولئك يؤمنون به ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده».

والاستفهام إنكاري والمعنى: ليس من كان كذا وكذا كغيره ممن ليس كذلك وأنت على هذه الصفات فلا تك في مرية من القرآن.

وقوله: ﴿عَلىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ البينة صفة مشبهة معناها الظاهرة الواضحة غير أن الامور الظاهرة الواضحة ربما أوضحت ما ينضم اليها ويتعلق بها كالنور الذي هو بيّن ظاهر ويظهر به غيره، ولذلك كثر استعمال البينة فيما يتبين به غيره كالحجة والآية، ويقال للشاهد على دعوى المدّعي بينة.

والظاهر أن المراد بالبينة في المقام هو هذا المعنى الأخير العام بقرينة قوله بعد «اولئك يؤمنون به» وإن كان المراد به بحسب المورد هو النبي ﷺ فإن الكلام مسوق ليتفرّع عليه قوله: «فلا تك في مرية منه».

فالمراد بها البصيرة الإلهية التي اوتيها النبي ﷺ لا نفس القرآن النازل عليه فإنه لا يحسن ظاهراً أن يتفرع عليه قوله: «فلا تك في مرية منه» وهو ظاهر ولا ينافيه كون القرآن في نفسه بيّنة من الله من جهة كونه آية منه تعالى كما في قوله: ﴿قل اني على بيّنة من ربي وكذّبتم به﴾ (الأنعام / ٥٧)، فإن المقام غير المقام.

وقوله تعالى: ﴿وَيَتْلُوهُ شاهِدٌ مِنْهُ﴾ المراد بالشهادة تأدية الشهادة التي تفيد صحة

الأمر المشهود له دون تحمّلها فإن المقام مقام تثبيت حقّيّة القرآن وهو إنما يناسب الشهادة بمعنى التأدية لا بمعنى التحمُّل.

والظاهر أن المراد بهذا الشاهد بعض من أيقن بحقّيّة القرآن وكان على بصيرة إلهية من امره فآمن به عن بصيرته وشهد بأنه حقّ منزل من عند الله تعالى كما يشهد بالتوحيد والرسالة فإن شهادة الموقن البصير على امر تدفع عن الإنسان مرية الاستيحاش وريب التفرُّد فإن الانسان اذا أذعن بأمر وتفرَّد فيه ربما اوحشه التفرُّد فيه اذا لم يؤيده احد في القول به اما اذا قال به غيره من الناس وأيد نظره في ذلك زالت عنه الوحشة وقوي قلبه وارتبط جأشه وقد احتج تعالى بما يماثل هذا المعنى في قوله: ﴿**قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بني اسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم**﴾ (الأحقاف / ١٠).

وعلى هذا فقوله: «يتلوه» من التلو لا من التلاوة، والضمير فيه راجع الى «من» او الى «بيّنة» باعتبار انه نور او دليل، ومآل الوجهين واحد فإن الشاهد الذي يلي صاحب البينة يلي بيّنته كما يلي نفسه والضمير في قوله: «منه» راجع الى «من» دون قوله: «ربه» وعدم رجوعه الى البينة ظاهر ومحصّل المعنى: من كان على بصيرة إلهية من امر ولحق به من هو من نفسه فشهد على صحة امره واستقامته.

وعلى هذا الوجه ينطبق ما ورد في روايات الفريقين ان المراد بالشاهد عليٌّ عليه السلام إن اريد به انه المراد بحسب انطباق المورد لا بمعنى الارادة الاستعمالية.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَاماً وَرَحْمَةً﴾ الضمير راجع الى الموصول او الى البينة على حد ما ذكرناه في ضمير «يتلوه» والجملة حال بعد حال اي أفمن كان على بصيرة إلهية ينكشف له بها ان القرآن حقّ منزل من عند الله والحال ان معه شاهداً منه يشهد بذلك عن بصيرة والحال أن هذا الذي هو على بينة سبقه كتاب موسى إماماً ورحمة او قبل بينته التي منها القرآن او هي القرآن المشتمل على المعارف والشرائع الهادية الى الحق

كتاب موسى إماماً فليس هو او ما عنده من البينة ببدع من الأمر غير مسوق بمثل ونظير بل هناك طريق مسلوك من قبل يهدي اليه كتاب موسى.

قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ المشار اليهم بقوله: «أُولئك» بناء على ما تقدم من معنى صدر الآية هم الذين كانوا على بينة من ربهم المدلول عليهم بقوله: «أفمن كان» الخ، وأما إرجاع الإشارة الى المؤمنين لدلالة السياق عليهم فبعيد عن الفهم.

وكذا الضمير في قوله: «به» راجع الى القرآن من جهة أنه بينة منه تعالى او امر قامت عليه البينة، وأما إرجاعه الى النبي ﷺ فلا يلائم ما قررناه من معنى الآية فإن في صدر الآية بيان حال النبي ﷺ بنحو العموم حتى يتفرع عليه قوله: «فلاتك في مرية منه» كأنه قيل: إنك على بينة كذا ومعك شاهد وقبلك كتاب موسى، ومن كان على هذه الصفة يؤمن بما اوتي من كتاب الله، ولا يصح أن يقال: ومن كان على هذه الصفة يؤمن بك، والكلام في الضمير في «ومن يكفر به» كالكلام في ضمير «يؤمنون به».

وأمر الآية فيما يحتمله مفردات ألفاظها وضمائرها عجيب فضرب بعضها في بعض يرقى الى الوف من المحتملات بعضها صحيح وبعضها خلافه.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ المرية كجلسة النوع من الشك، والجملة تفريع على صدر الآية، والمعنى أن من كان على بينة من ربه في امر وقد شهد عليه شاهد منه وقبله إمام ورحمة ككتاب موسى ليس كغيره من الناس الغافلين المغفلين فهو يؤمن بما عنده من امر الله ولا يوحشه إعراض اكثر الناس عما عنده، وأنت كذلك فإنك على بينة من ربك ويتلوك شاهد ومن قبلك كتاب موسى إماماً ورحمة وإذا كان كذلك فلاتك في مرية من امر ما أُنزل اليك من القرآن إنه محض الحق من جانب الله ولكن اكثر الناس لا يؤمنون.

وقوله: ﴿إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ تعليل للنهي وقد اكد بأن ولام الجنس للدلالة على توافر الأسباب النافية للمرية وهي قيام البينة وشهادة الشاهد وتقدم كتاب موسى إماماً ورحمة.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِباً﴾ الى آخر الآية: من الممكن أن يكون ذيلاً للسياق السابق من حيث كان تطييباً لنفس النبي ﷺ فيؤول المعنى الى أنك إذ كنت على بينة من ربك لست بظالم فحاشاك أن تكون مفترياً على الله الكذب لأن المفتري على الله كذباً من أظلم الظالمين، ولهم من وبال كذبهم كذا وكذا.

وكيف كان فالمراد بافتراء الكذب على الله سبحانه توصيفه تعالى بما ليس فيه او نسبة شيء اليه بغير الحق او بغير علم، والافتراء من أظهر أفراد الظلم والإثم، ويعظم الظلم بعظم متعلقه حتى اذا انتهى الى ساحة العظمة والكبرياء كان من أعظم الظلم.

وقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ العرض إظهار الشيء ليرى ويوقف عليه، ولما كان ارتفاع الحجب بينهم وبين ربهم يوم القيامة بظهور آياته ووضوح الحق الصريح من غير شاغل يشغل عنه حضوراً اضطرارياً منهم لفصل القضاء سماه عرضاً لهم على ربهم كما سمي بوجه آخر بروزاً منهم لله فقال: **﴿يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء﴾** (المؤمن / ١٦)، وقال: **﴿وبرزوا لله الواحد القهّار﴾** (إبراهيم / ٤٨) فقال «اولئك يعرضون على ربهم» أي يأتي بهم الملائكة الموكّلون بهم فيوقفونهم موقفاً ليس بينهم وبين ربهم حاجب حائل لفصل القضاء.

وقوله: ﴿وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ الأشهاد جمع شهيد كأشراف جمع شريف وقيل: جمع شاهد كأصحاب جمع صاحب، ويؤيد الأول قوله تعالى: **﴿فكيف اذا جئنا من كل امة بشهيد﴾** (النساء / ٤١) وقوله: **﴿وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد﴾** (ق / ٢١).

وقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم شهادة منهم عليهم بالافتراء على الله اي سجل عليهم بأنهم المفترون من جهة شهادة الأشهاد عليهم بذلك في موقف لا يذكر فيه إلّا الحق ولا مناص فيه عن الاعتراف والقبول كما قال تعالى: ﴿لا يتكلمون إلّا من أذن له الرحمن وقال صواباً﴾ (النبأ / ٣٨) وقال تعالى: ﴿يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تودّ لو ان بينها وبينه أمداً بعيداً﴾ (آل عمران / ٣٠).

قوله تعالى: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّالِمِينَ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الخ: تتمة قول الأشهاد. والدليل عليه قوله تعالى: ﴿فأذّن مؤذّن بينهم أن لعنة الله على الظالمين الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً وهم بالآخرة كافرون﴾ (الأعراف / ٤٥).

وهذا القول منهم المحكي في كلامه تعالى تثبيت منهم للبعد واللعن على الظالمين وتسجيل للعذاب. وليس اللعن والرحمة يوم القيامة كاللعن والرحمة في الدنيا كما في قوله تعالى: ﴿اولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون﴾ (البقرة / ١٥٩) وذلك أن الدنيا دار عمل ويوم القيامة يوم جزاء فما فيه من لعنة او رحمة هو إيصال ما ادّخر لهم اليهم فلعن اللاعن احداً يوم القيامة طرده من رحمة الله الخاصة بالمؤمنين وتسجيل عذاب البعد عليه.

قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ الى آخر الآية: الاشارة الى المفترين على الله الموصوفين بما مر في الآيتين السابقتين.

والمقام يدل على ان المراد من كونهم غير معجزين في الأرض انهم لم يكونوا معجزين لله سبحانه في حياتهم الارضية حيث خرجوا عن زي العبودية فأخذوا يفترون على الله الكذب ويصدون عن سبيله ويبغونها عوجاً فكل ذلك لا لأن قدرتهم المستعارة فاقت قدرة الله سبحانه ومشيتهم سبقت مشيته. ولا لأنهم خرجوا من ولاية الله فدخلوا في ولاية غيره وهم

الذين اتخذوهم اولياء من اصنامهم وكذا سائر الأسباب التي ركنوا اليها. وذلك قوله: «وما كان لهم من دون الله من اولياء».

وبالجملة لا قدرتهم غلبت قدرة الله سبحانه ولا شركاؤهم الذين يسمونهم اولياء لأنفسهم اولياء لهم بالحقيقة يدبرون امرهم ويحملونهم على ما يأتون به من البغي والظلم بل الله سبحانه هو وليهم وهو المدبر لأمرهم يجازيهم على سوء نياتهم واعمالهم بما يجرهم الى سوء العذاب ويستدرجهم من حيث لا يشعرون كما قال تعالى: ﴿ فلما زاغوا ازاغ الله قلوبهم ﴾ (الصف / ٥)، وقال: ﴿ يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً وما يضل به إلّا الفاسقين ﴾ (البقرة / ٢٦).

وقوله: ﴿ يُضَاعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ ﴾ ذلك لأنهم فسقوا ثم لجوا عليه او لأنهم عصوا الله بأنفسهم وحملوا غيرهم على معصية الله فيضاعف لهم العذاب كما ضاعفوا المعصية قال تعالى: ﴿ ليحملوا اوزارهم كاملة يوم القيامة ومن اوزار الذين يضلونهم بغير علم ﴾ (النحل / ٢٥) وقال: ﴿ ونكتب ما قدموا وآثارهم ﴾ (يس / ١٢).

وقوله: ﴿ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴾ في مقام التعليل ولذا جيء بالفصل يقول تعالى إنهم لم يكفروا ولم يعصوا لظهور إرادتهم على إرادة الله ولا لأن لهم اولياء من دون الله يستظهرون بهم على الله بل لأنهم ما كانوا يستطيعون ان يسمعوا ما يأتيهم من الإنذار والتبشير من ناحيته او يذكر لهم من البعث والزجر من قبله وما كانوا يبصرون آياته حتى يؤمنوا بها كما وصفهم في قوله: ﴿ لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم اعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أُولئك كالأنعام بل هم اضل ﴾ (الأعراف / ١٧٩)، وفي قوله: ﴿ ونقلّب افئدتهم وابصارهم كما لم يؤمنوا به اول مرة ﴾ (الأنعام / ١١٠)، وقوله: ﴿ ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى ابصارهم غشاوة ﴾ (البقرة / ٧)، وآيات اخرى كثيرة تدل على انه تعالى سلبهم عقولهم واعينهم وآذانهم غير انه تعالى يحكي عنهم مثل قولهم:

﴿وقالوا لو كنا نسمع او نعقل ما كنا في اصحاب السعير فاعترفوا بذنبهم﴾ (الملك/ ١١)، واعترافهم بأن عدم سمعهم وعقلهم كان ذنباً منهم مع ان ذلك مستند الى سلبه تعالى منهم ذلك يدل على انهم انفسهم توسلوا الى سلب هذه النعم بالذنوب كما يدل عليه ما تقدم من قوله تعالى: ﴿وما يضل به إلّا الفاسقين﴾ (البقرة/ ٢٦) وغيره.

قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ اما خسرانهم فإن الإنسان لا يملك بالحقيقة ـ وذلك بتمليك من الله تعالى ـ إلّا نفسه واذا اشترى لنفسه ما فيه هلاكها وضيَّعتها بالكفر والمعصية فقد خسر في هذه المعاملة التي اقدم عليها نفسه فخسران النفس كناية عن الهلاك. وأما ضلال ما كانوا يفترون فإنه كان كذباً وافتراء ليس له وجود في الخارج من اوهامهم ومزاعمهم التي زيَّنتها لهم الأهواء والهوسات الدنيوية وبانطواء بساط الحياة الدنيا يزول وينمحي تلك الاوهام ويضلّ ما لاح واستقر فيها من الكذب والافتراء ويومئذ يعلمون ان الله هو الحق المبين، ويبدو لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون.

قوله تعالى: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ﴾ عن الفراء: أن «لا جرم» في الاصل بمعنى لابد ولا محالة ثم كثرت فحولت الى معنى القسم وصارت بمعنى «حقاً» ولهذا تجاب باللام نحو لا جرم لأفعلن كذا. انتهى، وقد ذكروا أن «جرم» بفتحتين بمعنى القطع فلعلها كانت في الأصل تستعمل في نتائج الكلام كلفظة «لا محالة» وتفيد أنه لا يقطع هذا القول قاطع إن كذا كذا كما يتصور نظير المعنى في «لا محالة» فمعنى الآية على هذا: حقاً إنهم في الآخرة هم الأخسرون.

ووجه كونهم في الآخرة هم الأخسرين إن فرض أنهم أخسر بالنسبة الى غيرهم من أهل المعاصي هو أنهم خسروا أنفسهم بإهلاكها وإضاعتها بالكفر والعناد فلا مطمع في نجاتهم من النار في الآخرة كما لا مطمع في أن يفوزوا في الدنيا ويسعدوا بالإيمان ما داموا على العناد، قال

تعالى: ﴿الذين خسروا أنفسهم فهم لا يـؤمنون﴾ (الأنعام / ١٢). وقال تـعالى في هـؤلاء المختوم على سمعهم وأبصارهم وقلوبهم: ﴿وجعلنا من بين أيديهم سداً ومـن خـلفهم سـداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يـؤمنون﴾ (يس / ١٠). وقال أيضاً في سبب عدم إمكان إيمانهم: ﴿أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يديه من بعد الله﴾ (الجاثية / ٢٣).

وان فرض أنهم أخسر بالنسبة الى الدنيا فذلك لكونهم بكفرهم وصدهم عن سبيل الله حرموا سعادة الحياة التي يمهدها لهم الدين الحق فخسروا في الدنيا كـما خـسروا في الآخـرة لكنهم في الآخرة أخسر لكونها دائمة مخلدة وأما الدنيا فليست إلّا قليلاً، قال تعالى: ﴿كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلّا ساعة من نهار﴾ (الأحقاف / ٣٥).

على أن الأعمال تشتدُّ وتتضاعف في الآخرة بنتائجها كما قال تعالى: ﴿ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً﴾ (الإسراء / ٧٢)، وأحسن الوجهين أولهما لأن ظاهر الآية حصر الأخسرين فيهم دون إثبات أخسريتهم في الآخرة قبال الدنيا.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّـهِمْ﴾ الى آخر الآية؛ قال الراغب في المفردات: الخبت المطمئن من الأرض وأخبت الرجل قصد الخبت أو نزله نحو أسهل وأنجد ثم استعمل الإخبات في استعمال اللين والتواضـع قـال الله تـعالى: وأخبتوا الى ربهم، وقال: وبشر المخبتين أي المتواضعين نحـو لا يسـتكبرون عـن عـبادته، وقوله: فتخبت له قلوبهم أي تلين وتخشع. انتهى.

فالمراد بإخباتهم الى الله اطمئنانهم اليه بحيث لا يتزلزل ما في قلوبهم من الإيمان بـه فـلا يزيغون ولا يرتابون كالأرض المطمئنة التي تحفظ ما استقر فيها فلا وجه لما قيل ان الأصل، أخبتوا لربهم فإن ما في معنى الاطمئنان يتعدى بإلى دون اللام.

وتقييده تعالى الإيمان والعمل الصالح بالإخبات اليه يدل على أن المراد بهم طائفة خاصة من المؤمنين وهم المطمئنون منهم الى الله ممن هم على بصيرة من ربهم، وهو الذي أشرنا اليه في صدر الآيات عند قوله: «أفمن كان على بينة من ربه» الخ؛ أن الآيات تقيس ما بين فريقين خاصين من الناس وهم أهل البصيرة الإلهية ومن عميت عين بصيرته.

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيانِ مَثَلاً أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ﴾ المثل هو الوصف. وغلب في المثل السائر وهو بيان معنى من المعاني الخفية على المستمع بأمر محسوس أو كالمحسوس يأنس به ذهنه ويتلقاه فهمه لينتقل به الى المعنى المعقول المقصود بيانه، والمراد بالفريقين من بين حالهما في الآيات السابقة، والباقي واضح.

٢٥ ● وَلَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إِلىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ.

٢٦ ● أَنْ لاٰ تَعْبُدُوا إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ.

٢٧ ● فَقالَ ٱلْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرٰيكَ إِلَّا بَشَراً مِثْلَنا وَمَا نَرٰيك ٱتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كاذِبِينَ.

٢٨ ● قالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كارِهُونَ.

٢٩ ● وَيَا قَوْمِ لاٰ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَلٰكِنِّي أَرٰيكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ.

٣٠ ● وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنْ طَرَدتُهُمْ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ.

٣١ ● وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ ٱللَّهِ وَلاَ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلاَ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلاَ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْراً ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِما فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ.

٣٢ ● قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنا فَأْتِنا بِما تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ.

٣٣ ● قَالَ إِنَّما يَأْتِيكُمْ بِهِ ٱللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ.

٣٤ ● وَلاَ يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ.

٣٥ ● أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَيهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إِلىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ القراءة المعروفة «إني» بكسر الهمزة على تقدير القول وقرىء أني بفتح الهمزة بنزع الخافض والتقدير بأني لكم نذير مبين، والجملة أعني قوله: «إني لكم نذير مبين» على أي حال بيان إجمالي لما أُرسل به فإن جميع ما بلغه قومه عن ربه وأُرسل به اليهم إنذار مبين فهو نذير مبين.

فكما أنه لو قال: ما سالقيه اليكم من القول إنذار مبين كان بياناً لجميع ما أُرسل به اليهم بأوجز كلمة كذا قوله: إني لكم نذير مبين بيان لذلك بالاجمال غير أنه يزيد على سابقه ببيان

سمة نفسه وهي أنه رسول من الله اليهم لينذرهم بعذاب الله، وليس له من الأمر شيء أزيد من أنه واسطة يحمل الرسالة.

قوله تعالى: ﴿أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾.
بيان ثان لما ارسل به او بيان لقوله: «إني لكم نذير مبين» ومآل الوجهين واحد، وأن على أي حال مفسرة، والمعنى أن محصل رسالته النهي عن عبادة غير الله تعالى من طريق الإنذار والتخويف.

والظاهر أن المراد بعذاب يوم أليم عذاب الاستئصال دون عذاب يوم القيامة او الأعمّ من العذابين يدل على ذلك قولهم له فيما سيحكيه الله تعالى عنهم «يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين قل إنما يأتيكم به الله إن شاء» الآية؛ فإنه ظاهر في عذاب الاستئصال.

فهو عليه السلام كان يدعوهم الى رفض عبادة الأوثان ويخوّفهم من يوم ينزل عليهم من الله عذاب أليم اي مؤلم ونسبة الإيلام الى اليوم دون العذاب في قوله: «عذاب يوم أليم» من قبيل وصف الظرف بصفة المظروف.

وبما تقدم يندفع ما ربما قيل: إن تعذيب المشركين مقطوع لا محتمل فما الوجه في خوفه عليه السلام من تعذيبهم المقطوع؟ والخوف إنما يستقيم في محتمل الوقوع لا مقطوعه.

وبالجملة كان عليه السلام يدعوهم الى توحيد الله سبحانه بتخويفهم من العذاب، وإنما كان يخوّفهم لأنهم كانوا يعبدون الأوثان خوفاً من سخطهم فقابلهم نوح عليه السلام بأن الله سبحانه هو الذي خلقهم ودبَّر شؤن حياتهم وأُمور معاشهم بخلق السماوات والأرض وإشراق الشمس والقمر وإنزال الأمطار وإنبات الأرض وإنشاء الجنات وشق الأنهار على ما يحكيه تعالى عنه عليه السلام في سورة نوح.

وإذ كان كذلك كان الله سبحانه هو ربهم لا رب سواه فليخافوا عذابه وليعبدوه وحده.

قوله تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَراً مِثْلَنَا﴾ الى آخر الآية؛ الفاء في صدر الآية لتفريع جوابهم عن قول نوح عليه السلام، وفيه إشارة الى انهم بادروه بالرد والإنكار من دون ان يفكروا في انفسهم فيختاروا ما هو أصلح لهم.

والمجيبون هم الملأ من قومه والأشراف والكبراء الذين كفروا به ولم يتعرضوا في جوابهم لما ألقى اليهم من حجة التوحيد بل إنما اشتغلوا بنفي رسالته والاستكبار عن طاعته فإن قوله: «إني لكم نذير مبين» الى آخر الآيتين؛ كان مشتملاً على دعوى الرسالة وملوّحاً الى وجوب الاتباع وقد صرح به فيما حكي عنه في موضع آخر، قال تعالى: ﴿قال يا قوم إني لكم نذير مبين أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون﴾ (نوح / ٣).

ومحصل ما نقله الله تعالى من جوابهم هو أنه لا دليل على لزوم اتباعك بل الدليل على خلافه فهو في الحقيقة حجتان منظومتان على طريق الاضراب والترقي ولذلك أخر قولهم: «بل نظنكم كاذبين».

والحجة الاولى التي مدلولها عدم الدليل على وجوب اتباعه مبينة بطرق ثلاث هي قوله: «ما نراك إلّا بشراً» الخ؛ وقوله: «وما نراك اتبعك» الخ؛ وقوله: «وما نرى لكم علينا» الخ.

والحجة بجميع أجزائها مبنية على إنكار ما وراء الحس كما سنبين ولذلك كرروا فيه قولهم: ما نراك وما نرى.

فقوله: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَراً مِثْلَنَا﴾ أول جوابهم عما يدعيه نوح عليه السلام من الرسالة، وقد تمسكوا فيه بالمماثلة كما هو دأب سائر الامم مع أنبيائهم على ما حكاه الله تعالى في كتابه وتقريره: أنك مثلنا في البشرية ولو كنت رسولاً الينا من عند الله لم تكن كذلك ولا نشاهد منك إلّا أنك بشر مثلنا، وإذ كنت بشراً مثلنا لم يكن هناك موجب لاتباعك.

وقوله: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأْيِ﴾ قال في

المفردات: الرذل ـ بفتح الراء ـ والرذال ـ بكسرها ـ المرغوب عنه لرداءته قال تعالى «ومنكم من يرد الى أرذل العمر» وقال «إلّا الذين هم أراذلنا بادي الرأي» وقال «قالوا انؤمن لك واتبعك الأرذلون» جمع الأرذل.

وقال في المجمع: الرذل الخسيس الحقير من كل شيء والجمع ارذل ثم يجمع على اراذل كقولك: كلب واكلب وكالب، ويجوز ان يكون جمع الأرذل فيكون مثل اكابر جمع اكبر.

وقال: والرأي الرؤية من قوله: «يرونهم مثليهم رأي العين» أي رؤية العين والرأي ايضاً ما يراه الإنسان في الأمر وجمعه آراء. انتهى.

وقال في المفردات: وقوله: «بادىء الرأي» أي ما يبدء من الرأي وهو الرأي الفطير، وقرىء: بادي بغير همزة أي الذي يظهر من الرأي ولم يتروّ فيه. انتهى.

وقوله: «بادي الرأي» يحتمل أن يكون قيداً لقوله: «هم أراذلنا» أي كونهم أراذل وسفلة فينا معلوم في ظاهر الرأي والنظر او في اول نظرة.

ويحتمل كونه قيداً لقوله: ﴿اتَّبَعَكَ﴾ أي اتبعوك في ظاهر الرأي او في اوله من غير تعمّق وتفكر ولو تفكروا قليلاً وقلبوا أمرك ظهراً لبطن ما اتبعوك، وهذا الاحتمال لا يستغني عن تكرار الفعل ثانياً والتقدير: اتبعوك بادي الأمر وإلّا اختلّ المعنى لو لم يتكرر وقيل: ما نراك اتبعك بادي الرأي إلّا الذين هم أراذلنا. وبالجملة معنى الآية: أنا نشاهد أن متبعيك هم الأراذل والأخساء من القوم ولو اتبعناك ساويناهم ودخلنا في زمرتهم وهذا ينافي شرافتنا ويحط قدرنا في المجتمع، وفي الكلام إيماء الى بطلان رسالته ﷺ بدلالة الالتزام فإن من معتقدات العامة أن القول لو كان حقاً نافعاً لتبعه الشرفاء والعظماء وأُولوا القوة والطول فلو استنكفوا عنه او اتبعه الأخساء والضعفاء كالعبيد والمساكين والفقراء ممن لاحظ له من مال او جاه ولا مكانة له عند العامة فلا خير فيه.

وقوله: ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنا مِنْ فَضْلٍ﴾ المراد نفي مطلق الفضل من متاع دنيوي يختصون بالتنعم به او شيء من الامور الغيبية كعلم الغيب او التأيد بقوة ملكوتية وذلك لكون النكرة ـ فضل ـ واقعة في سياق النفي فتفيد العموم.

وقد أشركوا أتباع نوح عليه السلام والمؤمنين به منهم في دعوته إذ قالوا «ولا نرى لكم علينا» ولم يقولوا «ولا نرى لك» لأنهم كانوا يحثونهم ويرغبونهم في اتباع ما اتبعوه من الطريقة.

والمعنى أن دعوتكم إيانا ـ وعندنا ما نتمتع به من مزايا الحياة الدنيا كالمال والبنين والعلم والقوة ـ إنما يستقيم ويؤثر أثره لو كان لكم شيء من الفضل تفضلون به علينا من زينة الحياة الدنيا او علم من الغيب او قوة من الملكوت حتى يوجب ذلك خضوعاً منا لكم ولا نرى شيئاً من ذلك عندكم فأي موجب يوجب علينا اتباعكم؟

وإنما عممنا الفضل في كلامه للفضل من حيث الجهات المادية وغيره كعلم الغيب والقوة الملكوتية خلافاً لأكثر المفسرين حيث فسروا الفضل بالفضل المادي كالمال والكثرة وغيرهما، لما يستفاد من كلامهم من العموم لوقوع النكرة في سياق النفي.

مضافاً الى أن ما يحاذي قولهم هذا من جواب نوح عليه السلام يدل على ذلك وهو قوله: «ولا اقول لكم عندي خزائن الله ولا اعلم الغيب ولا اقول إني ملك» الخ؛ على ما سيأتي.

وقوله تعالى: ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كاذِبِينَ﴾ إضراب في الاحتجاج كما تقدمت الإشارة اليه فمحصله انا لا نرى معكم امراً يوجب اتباعنا لكم بل هناك امر يوجب عدم الاتباع وهو انا نظنكم كاذبين.

ومعناه على ما يعطيه السياق ـ والله اعلم ـ انه لما لم يكن عندكم ما يشاهد معه صحة دعوتكم وإنكم تلحون علينا بالسمع والطاعة وانتم صفر الأيدي من مزايا الحياة من مال وجاه وهذه الحال تستدعي الظن بأنكم كاذبون في دعواكم تريدون بها نيل ما بأيدينا من اماني الحياة بهذه الوسيلة وبالجملة هذه امارة توجب عادة الظن بأنها اكذوبة يتوسل بها الى

اقتناء الأموال والقبض على ثروة الناس والاستعلاء عليهم بالحكم والرئاسة ، وهـذا كـما حكى الله سبحانه عنهم في مثل القصة إذ قال : ﴿ فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما هذا إلّا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ﴾ (المؤمنون / ٢٤) . وبهذا يظهر وجه تعليقهم الكذب بالظن دون الجزم ، وأن المراد بالكذب الكذب المخبري دون الخبري .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي ﴾ الى آخر الآية ؛ بيان لما أجاب به نوح عليه السلام عن حجتهم الى تمام اربع آيات ، والتعمية الإخفاء فمعنى عميت عليكم بالبناء للمفعول أُخفيت عليكم من ناحية جهلكم وكراهتكم للحق . وقرىء : عميت بالتخفيف والبناء للفاعل أي خفيت عليكم تلك الرحمة .

لما كانت حجتهم مبنية على الحس ونفي ما وراءه وقد استنتجوا منها اولاً عدم الدليل على وجوب طاعته واتّباعه ثم اضربوا عنه بالترقي الى استنتاج الدليل على عدم الوجوب بل على وجوب العدم اجابهم عليه السلام بإثبات ما حاولوا نفيه من رسالته وما يتبعه ، ونـفي مـا حاولوا اثباته باتهامه واتهام اتباعه بالكذب غير انه استعطفهم بخطاب يا قوم ـ بـالإضافة الى ضمير التكلم ـ مرة بعد مرة ليجلبهم اليه فيقع نصحه موقع القبول منهم .

وقد ابدع الآيات الكريمة في تقرير حجته عليه السلام في جوابهم فقطّعت حجتهم فصلاً فصلاً وأجابت عن كل فصل بوجهيه أعني من جهة انتاجه أن لا دليل على اتّباعه عليه السلام وأن الدليل على خلافه وذلك قوله : « يا قوم أرأيتم ان كنت على بينة » الخ ؛ وقوله : « وما انا بطارد الذين آمنوا » الخ ؛ وقوله : « ولا اقول لكم عندي خزائن الله » الخ ؛ ثم اخذت من كل حجة سابقة شيئاً يجري مجرى التلخيص فإضافته الى الحجة اللاحقة بادئة به فامتزجت الحجة بالحجة على ما لكل منها من الاستقلال والتمام .

فتمت الحجج ثلاثاً كل واحدة منها مبدوّة بالخطاب وهي قوله : « يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة » الخ ؛ وقوله : « ويا قوم لا أسألكم عليه أجراً » الخ ؛ وقوله : « ويا قوم من ينصرني

من الله إن طردتهم » الخ ؛ فتدبّر فيها .

فقوله : ﴿ قالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي ﴾ جواب عن قولهم : « ما نراك إلّا بشراً مثلنا » يريدون به أنه ليس معه إلّا البشرية التي يماثلهم فيها ويماثلونه فبأي شيء يدّعي وجوب اتّباعهم له ؟ بل هو كاذب يريد بما يدّعيه من الرسالة أن يصطادهم فيقتنص بذلك اموالهم ويترأس عليهم .

وإذ كان هذا القول منهم متضمناً لنَفي رسالته وسندهم في ذلك أنه بشر لا أثر ظاهر معه يدل على الرسالة والاتصال بالغيب كان من الواجب تنبيههم على ما يظهر به صدقه في دعوى الرسالة وهو الآية المعجزة الدالّة على صدق الرسول في دعوى الرسالة فإن الرسالة نوع من الاتصال بالغيب خارق للعادة الجارية لا طريق الى العلم بتحققه إلّا بوقوع امر غيبي آخر خارق للعادة يوقن به كون الرسول صادقاً في دعواه الرسالة . ولذلك اشار ﷺ بقوله : « يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي » الى أن معه بينة من الله وآية معجزة تدل على صدقه في دعواه .

وقوله : ﴿ وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ ﴾ الظاهر انه ﷺ يشير به الى ما آتاه الله تعالى من الكتاب والعلم ، وقد تكرر في القرآن الكريم تسمية الكتاب وكذا تسمية العلم بالله وآياته رحمة قال تعالى : ﴿ ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة ﴾ (هود / ١٧) ، وقال : ﴿ ونزّلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة ﴾ (النحل / ٨٩) ، وقال : ﴿ فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا ﴾ (الكهف / ٦٥) وقال : ﴿ ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة ﴾ (آل عمران / ٨) .

وأما قوله : ﴿ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ ﴾ فالظاهر ان ضميره راجع الى الرحمة ، والمراد أن ما عندي من العلم والمعرفة اخفاها عليكم جهلكم وكراهتكم للحق بعد ما ذكّرتكم به وبثثته فيكم .

وقوله : ﴿ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كارِهُونَ ﴾ الإلزام جعل الشيء مع الشيء بحيث لا يفارقه ولا ينفكّ منه ، والمراد بإلزامهم الرحمة وهم لها كارهون إجبارهم على الايمان بالله وآياته والتلبّس بما يستدعيه المعارف الالهية من النور والبصيرة .

ومعنى الآية ـ والله اعلم ـ اخبروني إن كانت عندي آية معجزة تصدّق رسالتي مع كوني بشراً مثلكم وكانت عندي ما تحتاج اليه الرسالة من كتاب وعلم يهديكم الى الحق لكن لم يلبث دون ان اخفاه عليكم عنادكم واستكباركم أيجب علينا عندئذ ان نجبركم عليها ؟ اي عندي جميع ما يحتاج اليه رسول من الله في رسالته وقد أوقفتكم عليه لكنكم لا تؤمنون به طغياناً واستكباراً وليس عليّ ان أُجبركم عليها ، إذ لا إجبار في دين الله سبحانه .

قوله تعالى : ﴿ وَيَا قَوْمِ لاٰ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللّٰهِ ﴾ يريد به الجواب عما اتهموه به من الكذب ولازمه ان تكون دعوته طريقاً الى جلب اموالهم واخذ ما في ايديهم طمعاً فيه فإنه إذا لم يسألهم شيئاً من اموالهم لم يكن لهم ان يتهموه بذلك .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلاَقُوا رَبِّهِمْ وَلٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ ﴾ جواب عن قولهم : « وما نراك اتبعك إلّا الذين هم أراذلنا بادي الرأي » وقد بدل لفظة الأراذل ـ وهي لفظة إرزاء وتحقير ـ من قوله : الذين آمنوا تعظيماً لأمر إيمانهم وإشارة الى ارتباطهم بربهم .

نفى في جوابه ان يكون يطردهم وعلل ذلك بقوله : « إنهم ملاقوا ربهم » إيذاناً بأن لهم يوماً يرجعون فيه الى الله فيحاسبهم على اعمالهم فيجازيهم على ما عملوه من خير او شر فحاسبهم على ربهم وليس لغيره من الأمر شيء ، فليس على نوح ﷺ ان يحاسبهم فيجازيهم بشيء لكن القوم لجهالتهم يتوقعون على الفقراء والمساكين والضعفاء ان يطردوا من مجتمع الخير ويسلبوا النعمة والشرافة والكرامة .

فظهر ان المراد بقوله : ﴿ إِنَّهُمْ مُلاَقُوا رَبِّهِمْ ﴾ الايمان الى محاسبة الله سبحانه إياهم

يوم يرجعون فيه اليه فيلاقونه كما وقع في نظير هذا المعنى في قـوله تـعالى: ﴿ولا تـطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين﴾ (الأنعام / ٥٧).

قوله تعالى: ﴿وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنْ طَرَدتُّهُمْ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ﴾ النصر مضمَّن معنى المنع او الانجاء ونحوهما والمعنى من يمنعني أو من ينجيني من عذاب الله إن طردتهم أفلا تتذكرون أنه ظلم، والله سبحانه ينتصر للمظلوم من الظالم وينتقم منه، والعقل جازم بأن الله سبحانه لا يساوي بين الظالم والمظلوم، ولا يدع الظالم يظلم دون أن يجازيه على ظلمه بما يسوءه ويشفي به غليل صدر المظلوم والله عزيز ذو انتقام.

قوله تعالى: ﴿وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ ٱللَّهِ وَلاَ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلاَ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾ جواب عن قولهم: «ولا نرى لكم علينا من فضل» يرد عليهم قولهم بأني لست أدّعي شيئاً من الفضل الذي تتوقعون مني أن أدّعيه بما أني أدّعي الرسالة فإنكم تزعمون أن على الرسول أن يملك خزائن الرحمة الإلهية فيستقل بإغناء الفقير وشفاء العليل وإحياء الموتى والتصرف في السماء والأرض وسائر أجزاء الكون بما شاء وكيف شاء.

وأن يملك علم الغيب فيحصل على كل خير محجوب عن العيون مستور عن الأبصار فيجلبه الى نفسه، ويدفع كل شر مستقبل كامن عن نفسه وبالجملة يستكثر من الخيرات ويصان من المكاره.

وأن يرتفع عن درجة البشرية الى مقام الملكية أي يكون ملكاً منزّهاً من ألواث الطبيعة ومبرى من حوائج البشرية ونقائصها فلا يأكل ولا يشرب ولا ينكح ولا يقع في تعب اكتساب الرزق واقتناء لوازم الحياة وأمتعتها.

فهذه هي جهات الفضل التي تزعمون أن الرسول يجب أن يؤتاها ويمتلكها فيستقل بها، وقد أخطأتم فليس للرسول إلّا الرسالة وإني لست أدّعي شيئاً من ذلك فلا أقول لكم عندي

خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إني ملك، وبالجملة لست أدعي شيئاً من الفضل الذي تتوقعونه حتى تكذبوني بفقده، وإنما أقول إني على بينة من ربي تصدق رسالتي وآتاني رحمة من عنده.

والمراد بقوله: ﴿خَزَائِنُ ٱللَّهِ﴾ جميع الذخائر والكنوز الغيبية التي ترزق المخلوقات منها ما يحتاجون اليه في وجودهم وبقائهم ويستعينون به على تتميم نقائصهم وتكميلها.

فهاتيك هي التي تزعم العامة أن الأنبياء والأولياء يؤتون مفاتيحها ويمتلكون بها من القدرة ما يفعلون بها ما يشاءون ويحكمون ما يريدون كما اقترح على النبي ﷺ وقد حكاه الله تعالى إذ يقول: ﴿**وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه قل سبحان ربي هل كنت إلّا بشراً رسولاً**﴾ (الإسراء / ٩٣).

وإنما قال: ﴿وَلَا أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ ولم يقل: ولا أقول إني أعلم الغيب لأن هذا النوع من العلم لما كان مما يضن به ولا يسمح بإظهاره لم يكن قول القائل: لا أقول إني أعلم الغيب نافياً لوجوده عند القائل بل يحتاج الى أن يقال: لا أعلم الغيب ليفيد النفي بخلاف قوله: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ ٱللَّهِ﴾ وقوله: ﴿وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾، ولم يكرر قوله: ﴿لَكُمْ﴾ لحصول الكفاية بالواحدة.

وقد أمر الله سبحانه نبيه محمّد ﷺ أن يخاطب قومه بما خاطب به نوح ﷺ قومه ثم ذيّله بما يظهر به المراد إذ قال: ﴿**قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إني ملك إن أتّبع إلّا ما يوحي إليّ قل هل يستوي الأعمى والبصير أفلا تتفكرون**﴾ (الأنعام / ٥٠).

أُنظر الى قوله: ﴿لاَ أَقُولُ لَكُمْ﴾ الخ؛ ثم الى قوله: «إن أتّبع إلاّ ما يوحى إليّ» ثم الى قوله: «قل هل يستوي الأعمى والبصير» الخ؛ فهو ينفي أولاً الفضل الذي يتوقعه عامة الناس من نبيهم ثم يثبت للرسول الرسالة فحسب ثم يبادل الى إثبات الفضل من جهة أُخرى غير الجهة التي يتوقعها الناس وهو أنه بصير بإبصار الله تعالى وأن غيره بالنسبة اليه كالأعمى بالنسبة الى البصير وهذا هو الموجب لاتباعهم له كما يتّبع الأعمى البصير، وهو المجوّز له أن يدعوهم الى اتباعه[1].

قوله تعالى: ﴿وَلاَ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْراً ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ قال في المفردات: زريت عليه عبته وأزريت به قصدت به وكذلك ازدريت به وأصله افتعلت قال: تزدري أعينكم أي تستقلّهم تقديره تزدريهم أعينكم أي تستقلّهم وتستهين بهم. انتهى.

وهذا الفصل من كلامه ﷺ إشارة الى ما كان يعتقده الملأ الذين كفروا من قومه وبنوا عليه سنّة الاشرافية وطريقة السيادة، وهو أنّ أفراد الإنسان تنقسم الى قسمين الأقوياء والضعفاء، أمّا الأقوياء فهم أولوا الطول وأرباب القدرة المعتضدون بالمال والعدّة. وأمّا الضعفاء فهم الباقون. والأقوياء هم السادة في المجتمع الانساني لهم النعمة والكرامة، ولأجلهم انعقاد المجتمع، وغيرهم من الضعفاء مخلوقون لأجلهم مقصودون لهم أضاحي منافعهم كالرعيّة بالنسبة الى كرسيّ الحكومة المستبدّة، والعبيد بالنسبة الى الموالي، والخدم والعملة بالنسبة الى المخدومين والنساء بالنسبة الى الرجال، وبالأخرة كل ضعيف بالنسبة الى القوي المستعلي عليه.

وبالجملة كان معتقدهم أن الضعيف في المجتمع إنسان منحطّ أو حيوان في صورة إنسان

---

١. هود ٢٥ ـ ٣٥: كلام في قدرة الانبياء والاولياء فلسفي وقرآني.

إنما يرد داخل المجتمع ويشاركهم في الحياة ليستفيد الشريف من عمله وينتفع من كدّ يمينه لحياته من غير عكس بل هو محروم من الكرامة مطرود عن حظيرة الشرافة آئس من الرحمة والعناية.

فهذا هو الذي كانوا يرونه وكان هو المعتمد عليه في مجتمعهم، وقد ردّ نوح عليه السلام ذلك إليهم بقوله: «ولا أقول للذين تزدري أعينكم لن يؤتيهم الله خيراً».

ثمّ بيّن خطأهم في معتقدهم بقوله: «الله أعلم بما في نفوسهم» أي إن أعينكم إنما تزدريهم وتستحقرهم وتستهين أمرهم لما تحسّ ظاهر ضعفهم وهوانهم، وليس هو الملاك في إحراز الخير ونيل الكرامة بل الملاك في ذلك وخاصّة الكرامات والمثوبات الإلهية أمر النفس وتحلّيها بحليّ الفضيلة والمنقبة المعنوية، ولا طريق لي ولا لكم الى العلم ببواطن النفوس وخبايا القلوب إلّا لله سبحانه فليس لي ولا لكم أن نحكم بحرمانهم من الخير والسعادة.

ثم بيّن بقوله: «إنّي إذاً لمن الظالمين» السبب في تحاشيه عن هذا القول ومعناه أنه قول بغير علم، وتحريم الخير على من يمكن أن يستحقه جزافاً من غير دليل ظلم لا ينبغي أن يرومه الانسان فيدخل بذلك في زمرة الظالمين.

وهذا المعنى هو الذي يشير تعالى إليه فيما يحكيه من كلام أهل الأعراف يوم القيامة خطاباً لهؤلاء الطاغين إذ يقول: ﴿**ونادى أصحاب الأعراف رجالاً يعرفونهم بسيماهم قالوا ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة**﴾ (الأعراف / ٤٩).

وفي الكلام أعني قول نوح عليه السلام «ولا أقول للذين تزدري أعينكم» الخ: تعريض لهم أنهم كما كانوا يحرّمون على ضعفاء المجتمع المزايا الحيوية الاجتماعية كذلك كانوا يحرمون عليهم الكرامة الدينية ويقولون: إنهم لا يسعدون بدين وإنما يسعد به أشراف

المجتمع وأقوياؤهم، وفيه أيضاً تعريض بأنهم ظالمون.

وإنما عقّب نوح عليه السلام قوله: «ولا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إنّي ملك» وهو ينفي فيه جهات الامتياز التي كانوا يتوقعونها في الرسول عن نفسه، بقوله: «ولا أقول للذين تزدري أعينكم لن يؤتيهم الله خيراً» الخ؛ مع أنه راجع الى الضعفاء الذين آمنوا به من قومه لأن الملأ ألحقوهم به في قولهم: «ولا نرى لكم علينا من فضل».

وتوضيحه أن معنى قولهم هذا أن اتّباعنا لك ولمن آمن بك من هؤلاء الأراذل إنما يستقيم لفضل يتم لكم علينا ولا نرى لكم علينا من فضل أمّا أنت فليس معك ما يختصّ به الرسول من قدرة ملكوتية أو علم بالغيب أو أن تكون ملكاً منزّهاً من ألواث المادّة والطبيعة، وأما المؤمنون بك فإنما هم أراذلنا الآئسون من كرامة الانسانية المحرومون من الرحمة والعناية.

فأجاب عنهم نوح بما معناه: أمّا أنا فلا أدّعي شيئاً مما تتوقّعون من رسالتي فليست للرسول إلّا الرسالة وأما هؤلاء الضعفاء الذين لهم هوان عندكم فمن الجائز أن يعلم الله من نفوسهم خيراً فيؤتيهم خيراً وفضلاً فهو أعلم بأنفسهم، وملاك الكرامة الدينيّة والرحمة الإلهيّة زكاء النفس وسلامة القلب دون الظاهر الذي تزدريه أعينكم فلست أقول: لن يؤتيهم الله خيراً، فإنه ظلم يدخلني في زمرة الظالمين.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ كلام القوه الى نوح عليه السلام بعدما عجزوا عن دحض حجته وإبطال ما دعا إليه من الحق، وهو مسوق سوق التعجيز والمراد بقولهم: «ما تعدنا» ما أنذرهم به في أوّل دعوته من عذاب يوم أليم.

والمعنى ـ والله أعلم ـ يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا حتى سئمنا ومللنا وما نحن لك بمؤمنين فأتنا بما تعدنا من العذاب، وهم لا يعترفون بالعجز عن خصامه وجداله بل

يؤيسونه من أنفسهم في الحجاج ويطلبون منه أن يشتغل بما يشتغل الداعـي الآئس مـن السمع والطاعة وهو الشر الذي يهدّدهم به ويذكره وراء نصحه.

قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّما يَأْتِيكُمْ بِهِ ٱللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ لمّا كان قولهم: «فأتنا بما تعدنا» الخ؛ طلباً منه أن يأتيهم بالعذاب وليس ذلك اليه فإنما هو رسول، أجاب عن اقتراحهم هذا أيضاً ـ في سياق قصر القلب ـ أن الإتيان بالعذاب ليس إليّ بل إنما هو الى الله فهو الذي يملك أمركم فيأتيكم بالعذاب الذي وعدتكموه بأمره فهو ربكم واليه مرجع أمركم كلّه، ولا يرجع إليّ من أمر التدبير شيء حـتى أنّ وعـدي إيـاكـم بـالعذاب واقتراحكم عليّ بطلبه لا يؤثّر في ساحة كبريائه شيئاً فإن يشأ يأتكم به وإن لم يشأ فلا.

ومن هنا يظهر أن قوله ﷺ: «إن شاء» من ألطف القيود في هذا المقام أُفيد به حق التنزيه وهو أن الله سبحانه لا يحكم فيه شيء ولا يقهره قاهر يفعل ما يشاء ولا يفعل ما يشاء غيره نظير ما سيأتي في آخر السورة من الاستثناء في قوله: ﴿**خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض إلّا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ**﴾ (هود / ١٠٨).

وقوله: «وما انتم بمعجزين» تنزيه آخر لله سبحانه وهو مـع ذلك جـواب عـن الأمـر التعجيزي الذي ألقوه اليه ﷺ فإن ظاهره أنهم لا يعبأون بما هددهم به من العذاب كأنـهم معجزون لا يقدر عليهم.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَـانَ ٱللَّـهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾ الخ؛ قال في المفردات: النصح تحري فعل او قول فيه صلاح صاحبه ـ قال ـ وهو من قولهم: نصحت له الود أي أخلصته وناصح العسل خالصه او من قـولهم: نصحت الجلد خطته والناصح الخياط والنصاح الخيط.

وقال أيضاً: الغي جهل من اعتقاد فاسد، وذلك أن الجهل قد يكون من الانسـان غـير معتقد اعتقاداً لا صالحاً ولا فاسداً، وقد يكون من اعتقاد شيء فاسد، وهذا النـحو الثـاني

يقال له غيّ قال تعالى: ما ضلّ صاحبكم وما غوى، وقال: وإخوانهم يمدونهم في الغيّ. انتهى.

وعلى هذا فالفرق بين الإغواء والإضلال أن الإضلال إخراج من الطريق مع بقاء المقصد في ذكر الضال، والإغواء إخراجه منه مع زواله عن ذكره لاشتغاله بغيره جهلاً.

والإرادة والمشية كالمترادفتين، وهي من الله سبحانه تسبيب الأسباب المؤدية لوجود شيء بالضرورة فكون الشيء مراداً له تعالى أنه تمم أسباب وجوده وأكملها فهو كائن لا محالة. وأما اصل السببية الجارية فهي مرادة بنفسها ولذا قيل: خلق الله الأشياء بالمشية والمشية بنفسها.

وبالجملة قوله: ﴿وَلاَ يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي﴾ الخ؛ كأحد شقي الترديد والشق الآخر قوله: «وما أنتم بمعجزين» كأنه ﷺ يقول: أمركم الى الله إن شاء أن يعذبكم أتاكم بالعذاب ولا يدفع عذابه ولا يقهر مشيته شيء فلا أنتم معجزوه، ولا نصحي ينفعكم إن أردت أن أنصح لكم بعد ما أراد الله أن يغويكم لتكفروا به فيحق عليكم كلمة العذاب، وقيد نصحه بالشرط لأنهم لم يكونوا يسلمون له أنه ينصحهم.

والإغواء كالإضلال وإن لم يجز نسبته اليه تعالى اذا كان إغواء ابتدائياً لكنه جائز اذا كان بعنوان المجازاة كأن يعصي الإنسان ويستوجب به الغواية فيمنعه الله أسباب التوفيق ويخليه ونفسه فيغوي ويضل عن سبيل الحق، قال تعالى: ﴿يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً وما يضل به إلاّ الفاسقين﴾ (البقرة / ٢٦).

وفي الكلام إشارة الى أن نزول عذاب الاستئصال عليهم مسبوق بالإغواء الإلهي كما يلوح اليه قوله تعالى: ﴿وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً﴾ (الإسراء / ١٦)، وقال: ﴿وقيضنا لهم قرناء فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم وحق عليهم القول﴾ (حم السجدة / ٢٥).

وقوله: ﴿هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ تعليل لقوله: «ولا ينفعكم نصحي» الخ؛ أو لقوله: «إنما يأتيكم به الله إن شاء ـ الى قوله ـ يريد أن يغويكم» جميعاً ومحصله أن أمر تدبير العباد الى الرب الذي اليه يرجع الامور، والله سبحانه هو ربكم وإليه ترجعون فليس لي أن آتيكم بعذاب موعود، وليس لكم أن تعجزوه إن شاء أن يأتيكم بالعذاب فأتاكم به لاستئصالكم وليس لنصحي أن ينفعكم إن أراد هو أن يغويكم ليعذبكم.

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَيٰهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ﴾ أصل الجرم ـ على ما ذكره الراغب في مفرداته ـ قطع الثمرة من الشجرة وأجرم أي صار ذا جرم، واستعير لكل اكتساب مكروه فالجرم بضم الجيم وفتحها بمعنى الاكتساب المكروه وهو المعصية. والآية. واقعة موقع الاعتراض، والنكتة فيه أن دعوة نوح واحتجاجاته على وثنية قومه وخاصة ما أورده الله تعالى في هذه السورة من احتجاجه أشبه شيء بدعوة النبي ﷺ، واحتجاجه على وثنية أُمّته.

وإن شئت زيادة تصديق في ذلك فارجع الى سورة الأنعام ـ وهي في الحقيقة سورة الاحتجاج ـ وقابل ما حكاه الله تعالى عن نوح في هذه السورة ما أمر الله به النبي ﷺ في تلك السورة بقوله: «قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إني ملك ـ الى أن قال ـ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشيّ ـ الى أن قال ـ قل لا أتّبع أهواءكم قد ضللت اذا وما أنا من المهتدين قل إني على بيّنة من ربي وكذّبتم به».

ولك أن تطبّق سائر ما ذكر من حججه ﵇ في سورة نوح والأعراف على ما ذكر من الحجج في سورة الأنعام وفي هذه السورة فتشاهد صدق ما ادّعيناه.

وفي قوله: ﴿وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ﴾ إثبات إجرام مستمر لهم وقد أُرسل إرسال المسلّمات كما في قوله: «فعليّ إجرامي» من إثبات الجرم وذلك أن الذي ذكر من حجج نوح إن كان من الافتراء كان كذباً من حيث إن نوحاً ﵇ لم يحتج بهذه الحجج وهي حقّة،

لكنها من حيث إنها حجج عقلية قاطعة لا تقبل الكذب وهي تثبت لهؤلاء الكفار إجـرامـاً مستمراً في رفض ما يهديهم اليه من الإيمان والعمل الصالح فهم في خروجهم عن مقتضي هذه الحجج مجرمون قطعاً، والنبي ﷺ مجرم لا قطعاً بل على تـقدير أن يكـون مـفترياً وليس بمفتر.

٣٦ • وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِما كانُوا يَفْعَلُونَ.

٣٧ • وَاصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنا وَوَحْـيِنَا وَلاَ تُـخَاطِبْنِي فِـي الَّـذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ.

٣٨ • وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّما مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِـنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ.

٣٩ • فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ.

٤٠ • حَتَّىٰ إِذَا جاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِـيها مِـنْ كُـلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ آمَـنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ.

٤١ • وَقَالَ ارْكَبُوا فِيها بِسْمِ ٱللهِ مَجْرٰيها وَمُرْسٰيها إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ.

٤٢ • وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ

فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنا وَلاَ تَكُنْ مَعَ ٱلْكَافِرِينَ.

٤٣ • قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ ٱلْمَاءِ قَالَ لاَ عَاصِمَ
ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ
مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ.

٤٤ • وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ ٱلْمَاءُ
وَقُضِيَ ٱلأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ
الظَّالِمِينَ.

٤٥ • وَنَادَىٰ نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ
ٱلْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ ٱلْحَاكِمِينَ.

٤٦ • قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلاَ
تَسْئَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ
ٱلْجَاهِلِينَ.

٤٧ • قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وإِلَّا
تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ ٱلْخَاسِرِينَ.

٤٨ • قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلاَمٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِمَّنْ
مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ.

٤٩ • تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلاَ
قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَٰذَا فَاصْبِرْ إِنَّ ٱلْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ الابتئاس من البؤس وهو حزن مع استكانة.

وقوله: ﴿لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ﴾ إيئاس وإقناط له ﷺ من إيمان الكفار من قومه بعد ذلك، ولذلك فرّع عليه قوله: «فلا تبتئس بما كانوا يفعلون» لأن الداعي الى أمر إنما يبتئس ويغتمّ من مخالفة المدعوين وتمردهم ما دام يرجو منهم الإيمان والاستجابة لدعوته، وأما إذا يئس من إجابتهم فلا يهتم بهم ولا يتعب نفسه في دعوتهم الى السمع والطاعة والإلحاح عليهم بالإقبال اليه ولو دعاهم بعدئذ فإنما يدعوهم لغرض آخر كإتمام الحجة وإبراز المعذرة.

وعلى هذا ففي قوله: ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ تسلية من الله لنحو ﷺ وتطييب لنفسه الشريفة من جهة ما في الكلام من الإشارة الى حلول حين فصل القضاء بينه وبين قومه، وصيانة لنفسه من الوجد والغم لما كان يشاهد من فعلهم به وبالمؤمنين به من قومهم من إيذائهم إياهم في دهر طويل (مما يقرب من ألف سنة) لبث فيه بينهم.

قوله تعالى: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ الفلك هي السفينة مفردها وجمعها واحد والأعين جمع قلة للعين وإنما جمع للدلالة على كثرة المراقبة وشدتها فإن الجملة كناية عن المراقبة في الصنع.

وذكر الأين قرينة على أن المراد بالوحي ليس هو هذا الوحي أعني قوله: «واصنع الفلك» الخ؛ حتى يكون وحياً للحكم بل وحي في مقام العمل وهو تسديد وهداية عملية بتأييده بروح القدس الذي يشير اليه أن افعل كذا وافعل كذا كما ذكره تعالى في الأئمة من آل ابراهيم عليهم السلام بقوله: ﴿وأوحينا اليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا

عابدين﴾ (الأنبياء / ٧٣) وقد تقدمت الاشارة اليه في المباحث السابقة وسيجيء ان شاء الله في تفسير الآية.

وقوله: ﴿وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ اي لا تسألني في امرهم شيئاً تدفع به الشر والعذاب وتشفع لهم لتصرف عنهم السوء لأن القضاء فصل والحكم حتم وبذلك يظهر أن قوله: «إنهم مغرقون» في محل التعليل لقوله: «ولا تخاطبني» الخ؛ او لمجموع قوله: «واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبني في الذين ظلموا» ويظهر ايضاً أن قوله: «ولا تخاطبني» الخ؛ كناية عن الشفاعة.

والمعنى: واصنع السفينة تحت مراقبتنا الكاملة وتعليمنا إياك ولا تسألني صرف العذاب عن هؤلاء الذين ظلموا فإنهم مقضيٌّ عليهم الغرق قضاء حتم لا مردَّ له.

قوله تعالى: ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّما مَرَّ عَلَيْهِ مَلاٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ قال في المجمع: السخرية إظهار خلاف الإبطان على وجه يفهم منه استضعاف العقل، ومنه التسخير لتذليل يكون استضعافاً بالقهر، والفرق بين السخرية واللعب أن في السخرية خديعة واستنقاصاً ولا تكون إلّا في الحيوان وقد يكون اللعب بجماد، انتهى.

وقال الراغب في المفردات: سخرت منه واستسخرته للهزء منه قال تعالى «إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون فسوف تعلمون» «بل عجبت ويسخرون» وقيل: رجل سخرة ـ بالضم فالفتح ـ لمن سخر وسخرة ـ بالضم فالسكون ـ لمن يسخر منه، والسخرية ـ بالضم ـ والسخرية ـ بالكسر ـ لفعل الساخر، انتهى.

وقوله: ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ﴾ حكاية الحال الماضية يمثّل بها ما يجري على نوح عليه السلام من إيذاء قومه وقيام طائفة منهم بعد طائفة على إهانته والاستهزاء به في عمل السفينة وصبره عليه في جنب الدعوة الإلهية وإقامة الحجة عليهم من غير ان يفشل وينثني.

وقوله: ﴿كُلَّما مَرَّ عَلَيْهِ مَلاءٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ﴾ حال من فاعل يصنع والملأ ههنا الجماعة الذين يعبأ بهم، وفي الكلام دلالة على أنهم كانوا يأتونه وهو يصنع الفلك جماعة بعد جماعة بالمرور عليه ساخرين، وأنه عليه السلام كان يصنعها في مرأى منهم وممرّ عام.

وقوله: ﴿قالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنّا فَإِنّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَما تَسْخَرُونَ﴾ في موضع الجواب لسؤال مقدّر كأن قائلاً قال: فماذا قال نوح عليه السلام؟ فقيل «قال إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم» ولذا فصل الكلام من غير عطف.

ولم يقل عليه السلام: إن تسخروا مني فإني أسخر منكم ليدفع به عن نفسه وعن عصابة المؤمنين به وكأنه كان يستمد من أهله وأتباعه في ذلك وكانوا يشاركونه في عمل السفينة وكانت السخرية تتناولهم جميعاً فظاهر الكلام أن الملأ كانوا يواجهون نوحاً ومن معه في عمل السفينة بسخرية نوح ورميه عليه السلام بالخبل والجنون فيشمل هزؤهم نوحاً ومن معه وإن كانوا لم يذكروا في هزئهم إلّا نوحاً فقط.

على أن الطبع والعادة يقضيان أن يكونوا يسخرون من أتباعه ايضاً كما كانوا يسخرون منه فهم أهل مجتمع واحد تربط المعاشرة بعضهم ببعض وإن كانت سخريتهم من أتباعه سخرية منه في الحقيقة لأنه هو الأصل الذي تقوم به الدعوة، ولذا قيل «سخروا منه» ولم يقل: سخروا منه ومن المؤمنين.

والسخرية وإن كانت قبيحة ومن الجهل اذا كانت ابتدائية لكنها جائزة اذا كانت مجازاة وبعنوان المقابلة وخاصة اذا كانت تترتب عليها فائدة عقلائية كإنفاذ العزيمة وإتمام الحجة، قال تعالى: ﴿فيسخرون منهم سخر الله منهم ولهم عذاب أليم﴾ (التوبة / ٧٩)، ويدل على اعتبار المجازاة والمقابلة بالمثل في الآية قوله: «كما تسخرون».

قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذابٌ

﴿مُقِيمٌ﴾ السياق يقضي أن يكون قوله: «فسوف تعلمون» تفريعاً على الجملة الشرطية السابقة «ان تسخروا منا فإنا نسخر منكم» وتكون الجملة المتفرعة هو متن السخرية التي أتى بها نوح ﷺ، ويكون قوله: «من يأتيه عذاب يخزيه» الخ: متعلقاً بتعلمون على أنه معلوم العلم.

والمعنى: ان تسخروا منا فإنا نسخر منكم فنقول لكم: سوف تعلمون من يأتيه العذاب؟ نحن او انتم؟ وهذه سخرية بقول حق.

وقوله: ﴿مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ المراد به عذاب الاستئصال في الدنيا وهو الغرق الذي أخزاهم وأذلهم، والمراد بقوله: «ويحل عليه عذاب مقيم» اي ينزل عليه عذاب ثابت لازم لا يفارق، هو عذاب النار في الآخرة، والدليل على ما ذكرنا من كون العذاب الأول هو الذي في الدنيا والثاني هو عذاب الآخرة هو المقابلة وتكرر العذاب ـ منكّراً ـ في اللفظ وتوصيف الأول بالإخزاء والثاني بالإقامة.

وربما أخذ بعضهم قوله: «فسوف تعلمون» تاماً من غير ذكر متعلق العلم وقوله: «مَن يأتيه عذاب يخزيه» الخ: ابتداء كلام من نوح ﷺ وهو بعيد عن السياق.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ﴾ الى آخر الآية: يقال: فار القدر يفور فوراً وفوراناً اذا غلا واشتدّ غليانه، وفارت النار اذا اشتعلت وارتفع لهيبها، والتنوّر تنّور الخبز، وهو مما اتفقت فيه اللغتان: العربية والفارسية او الكلمة فارسية في الاصل.

وفوران التنّور نبع الماء وارتفاعه منه، وقد ورد في الروايات: أن أول ما ابتدأ الطوفان يومئذ كان ذلك بتفجّر الماء من تنّور، وعلى هذا فاللام في التنّور للعهد يشار بها الى تنور معهود في الخطاب، ويحتمل اللفظ أن يكون كناية عن اشتداد غضب الله تعالى فيكون من قبيل قولهم: «حمي الوطيس» اذا اشتدّ الحرب.

فقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ﴾ أي كان الأمر على ذلك حتى اذا جاء

أمرنا أي تحقّق الأمر الربوبيّ وتعلّق بهم وفار الماء من التنّور أو اشتدّ غضب الربّ تعالى قلنا له كذا وكذا.

وفي التنّور أقوال أُخر بعيدة من الفهم كقول من قال: إن المراد به طلوع الفجر وكان عند ذلك أوّل ظهور الطوفان، وقول بعضهم: إن المراد به أعلى الأرض وأشرفها أي انفجر الماء من الأمكنة المرتفعة ونجود الارض، وقول آخرين: ان التنور وجه الأرض هذا.

وقوله: ﴿قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ أي أمرنا نوحاً عليه السلام أن يحمل في السفينة من كل جنس من أجناس الحيوان زوجين اثنين وهي الذكر والانثى.

وقوله: ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ أي واحمل فيها أهلك وهم المختصون به من زوج وولد وأزواج الأولاد وأولادهم الّا من سبق عليه قولنا وتقدّم عليه عهدنا أنّه هالك، وكان هذا المستثنى زوجته الخائنة التي يذكرها الله تعالى في قوله: ﴿ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما﴾ (التحريم / ١٠). وابن نوح الذي يذكره الله تعالى في الآيات التالية وكان نوح عليه السلام يرى أن المستثنى هو امرأته فحسب حتى بيّن الله سبحانه أن ابنه ليس من أهله وأنه عمل غير صالح فعند ذلك علم أنه من الذين ظلموا.

وقوله: ﴿وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ أي واحمل فيها من آمن بك من قومك غير اهلك لأن من آمن به من اهله أُمر بحمله بقوله: «وأهلك» ولم يؤمن به من القوم إلّا قليل.

في قوله: ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ﴾ دون ان يقال: وما آمن به تلويح الى أن المعنى: وما آمن بالله من نوح إلّا قليل، وذلك انسب بالمقام وهو مقام ذكر من أنجاه الله من عذاب الغرق، والملاك فيه هو الإيمان بالله والخضوع لربوبيّته، وكذا في قوله: «إلّا قليل» دون أن يقال: إلّا قليل منهم بلوغاً في استقلالهم أن من آمن كان قليلاً في نفسه لا بالقياس الى القوم فقد كانوا

في نهاية القلّة.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٰيهَا وَمُرْسٰيهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ قرىء مجراها بفتح الميم وهو مجرى السفينة وسيرها، ومجراها بضم الميم وهو إجراء السفينة وسياقها، ومرساها بضم الميم مصدر ميميّ مرادف الإرساء، والإرساء الإثبات والإيقاف، قال تعالى: ﴿والجبال أرساها﴾ (النازعات / ٣٢).

وقوله: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا﴾ معطوف على قوله في الآية السابقة: «جاء أمرنا» أي حتى إذا قال نوح، الخ؛ وخطابه لأهله وسائر المؤمنين أو لجميع من في السفينة.

وقوله: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٰيهَا وَمُرْسٰيهَا﴾ تسمية منه ﷺ يجلب به الخير والبركة لجري السفينة وإرسائها فإن في تعليق فعل من الأفعال أو أمر من الامور على اسم الله تعالى وربطه به صيانة له من الهلاك والفساد واتقاء من الضلال والخسران لما أنه تعالى رفيع الدرجات منيع الجانب لا سبيل للدثور والفناء والعيّ والعناء اليه فما تعلق به مصون لا محالة من تطرق عارض السوء.

فهو ﷺ يعلق جري السفينة وإرساءها باسم الله وهذان هما السببان الظاهران في نجاة السفينة ومن فيها من الغرق، وإنما ينجح هذان السببان لو شملت العناية الإلهية من ركبها وإنما تشمل للعناية بشمول المغفرة الإلهية لخطايا ركابها والرحمة الإلهية لهم لينجوا من الغرق ويعيشوا على رسلهم في الأرض، ولذلك علل ﷺ تسميته بقوله: «إن ربي لغفور رحيم» أي إنما أذكر اسم الله على مجرى سفينتي ومرساها لأنه ربي الغفور الرحيم، له أن يحفظ مجراها ومرساها من الاختلال والتخبط حتى ننجو بذلك من الغرق بمغفرته ورحمته.

ونوح ﷺ اول إنسان حكى الله سبحانه عنه التسمية باسمه الكريم فيما أوحاه من كتابه فهو ﷺ اول فاتح فتح هذا الباب كما أنه اول من أقام الحجة على التوحيد، وأول من جاء

بكتاب وشريعة وأول من انتهض لتعديل الطبقات ورفع التناقض عن المجتمع الإنساني.

وما قدمناه من معنى قوله: «بسم الله مجراها ومرساها» مبني على ما هو الظاهر من كون الجملة تسمية من نوح ﷺ والمجرى والمرسى مصدرين ميميين وربما احتمل كونه تسمية ممن مع نوح بأمره او كون مجراها ومرساها اسمين للزمان او المكان فيختلف المعنى.

قال في الكشاف في الآية: يجوز أن يكون كلاماً واحداً وكلامين: فالكلام الواحد أن يتصل باسم الله باركبوا حالاً من الواو بمعنى اركبوا فيها مسمين الله او قائلين بسم الله وقت إجرائها ووقت إرسائها إما لأن المجرى والمرسى للوقت واما لأنهما مصدران كالإجراء والإرساء حذف منهما الوقت المضاف كقولهم: خفوق النجم ومقدم الحاج، ويجوز أن يراد مكانا الإجراء والإرساء، وانتصابهما بما في بسم الله من معنى الفعل او بما فيه من ارادة القول.

والكلامان أن يكون بسم الله مجراها ومرساها جملة من مبتدء وخبر مقتضية[١] أي بسم الله اجراؤها وارساؤها، يروى أنه كان اذا أراد أن تجري قال: بسم الله فجرت، واذا أراد أن ترسوا قال: بسم الله فرست، ويجوز أن يقحم[٢] الاسم كقوله: ثم اسم السلام عليكما ويراد بالله اجراؤها وارساؤها.

قال: وقرىء مجراها ومرساها[٣] بفتح الميم من جرى ورسى اما مصدرين او وقتين او مكانين، وقرأ مجاهد: مجريها ومرسيها بلفظ اسم الفاعل مجروري المحل صفتين لله.

---

١. اقتضاب الكلام ارتجاله والمراد من كون الجملة مقتضبة كونها ابتدائية اي كونها كلاماً ابتدائية من نوح مقطوعاً عما قبله.

٢. التقحيم إدخال الكلمة بين الكلمتين المتلازمتين المتصلتين كالمضاف والمضاف اليه والمراد كون الاسم معترضاً بين «ثم» و«السلام» وكذا بين الباء ولفظ الجلالة في قوله: بسم الله.

٣. قراءة مرساها بفتح الميم من الشواذ منسوب الى ابن محيصن.

قوله تعالى : ﴿ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ ﴾ الضمير للسفينة ، والموج اسم جنس كتمر او جمع موجة ـ على ما قيل ـ وهي قطعة عظيمة ترتفع عن جملة الماء وفي الآية اشعار بأن السفينة كانت تسير على الماء ولم تكن تسبح جوف الماء كالحيتان كما قيل .

قوله تعالى : ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَافِرِينَ ﴾ المعزل اسم مكان من العزل وقد عزل ابنه نفسه عن ابيه والمؤمنين في مكان لا يقرب منهم ، ولذلك قال « ونادى نوح ابنه » ولم يقل : وقال نوح لابنه .

والمعنى : ونادى نوح ابنه وكان ابنه في مكان منعزل بعيد منهم وقال في ندائه : يا بنيّ ـ بالتصغير والإضافة دلالة على الإشفاق والرحمة ـ اركب معنا السفينة ولا تكن مع الكافرين فتشاركهم في البلاء كما شاركتهم في الصحبة وعدم ركوب السفينة . ولم يقل ﷺ : ولا تكن من الكافرين لأنه لم يكن يعلم نفاقه وأنه غير مؤمن الّا باللفظ . ولذلك دعاه الى الركوب .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ ٱلْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾ الخ ؛ قال الراغب : المأوى مصدر أوى يأوي أُوِيّاً ومأوى تقول : أوى الى كذا : انضم اليه يأوي أُوياً ومأوى وآواه غيره يؤويه ايواء ، انتهى .

والمعنى : اقل ابن نوح مجيباً لأبيه راداً لأمره : سأنضم الى جبل يعصمني ويقيني من الماء فلا أغرق ، قال نوح : لا عاصم اليوم ـ وهو يوم اشتد غضب الله وقضى بالغرق لأهل الأرض الّا من التجأ منهم الى الله ـ من الله لا جبل ولا غيره ، وحال بين نوح وابنه الموج فكان ابنه من المغرقين ولو لم يحل الموج بينهما ولم ينقطع الكلام بذلك لعرف كفره وتبرأ منه .

وفي الكلام اشارة الى ان ارضهم كانت ارضاً جبلية لا مؤنة زائدة في صعود الانسان الى

بعض جبال كانت هناك.

قوله: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ البلع اجراء الشيء في الحلق الى الجوف، والإقلاع الإمساك وترك الشيء من أصله. والغيض جذب الأرض المائع الرطب من ظاهرها الى باطنها وهو كالنشف يقال: غاضت الارض الماء اي نقّصته.

والجوديّ مطلق الجبل والأرض الصلبة، وقيل: هو جبل بأرض موصل في سلسلة جبال تنتهي الى ارمينية وهي المسماة «آرارات».

وقوله: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي﴾ نداء صادر من ساحة العظمة والكبرياء لم يصرّح باسم قائله وهو الله عز اسمه للتعظيم، والأمر تكويني تحمله كلمة «كن» الصادرة من ذي العرش تعالى يترتب عليه من غير فصل أن تبتلع الأرض ما على وجهها من الماء المتفجّر من عيونها، وأن تكفّ السماء عن امطارها.

وفيه دلالة على أن الارض والسماء كانتا مشتركتين في اطفاء الماء بأمر الله كما يبيّنه قوله تعالى: **﴿ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر وفجّرنا الارض عيوناً فالتقى الماء على أمر قد قدر﴾** (القمر / ١٢).

وقوله: ﴿وَغِيضَ الْمَاءُ﴾ اي نقص الماء ونشف عن ظاهر الارض وانكشف البسيط، وذلك انما يكون بالطبع باجتماع ما يمكن اجتماعه منه في الغدران وتشكيل البحار والبحيرات، وانتشاف ما على سائر البسيطة.

وقوله: ﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ اي أُنجز ما وعد لنوح ﷺ من عذاب القوم وأُنفذ الأمر الإلهي يغرقهم وتطهّر الارض منهم اي كان ما قيل له كن كما قيل فقضاء الامر كما يقال على جعل الحكم واصداره كذلك يقال على امضائه وانفاذه وتحقيقه في الخارج، غير أن القضاء الإلهي والحكم الربوبي الذي هو عين الوجود الخارجي جعله وانفاذه واحد، وانما

الاختلاف بحسب التعبير.

وقوله: ﴿وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ﴾ اي استقرت السفينة على الجبل او على جبل الجودي المعهود، وهو اخبار عن اختتام ما كان يلقاه نوح ومن معه من امر الطوفان.

وقوله: ﴿وَقِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ اي قال الله عزّ اسمه: بعداً للقوم الظالمين اي ليبعدوا بعداً فأبعدهم بذلك من رحمته وطردهم عن دار كرامته، والكلام في ترك ذكر فاعل «قيل» ههنا كالكلام فيه في «قيل» السابق.

والأمر أيضاً في قوله: ﴿بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ كالأمرين السابقين ﴿يَـا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي﴾ تكويني فهو عين ما أنفذه الله فيهم من الغرق المؤدي الى خزيهم في الدنيا وخسرانهم في الآخرة، وان كان من وجه آخر من جنس الأمر التشريعي لتفرعه على مخالفتهم الأمر الإلهي بالإيمان والعمل، وكونه جزاء لهم على استكبارهم واستعلائهم على الله عزّ وجل.

وللصفح عن ذكر الفواعل في قوله: «وقيل يا أرض» الخ؛ وقوله: «وقضي الأمر» وقوله: «وقيل بعداً» الخ؛ في الآية وجه آخر مشترك وهو أن هذه الامور العظيمة الهائلة المدهشة لن يقدر عليها إلّا الواحد القاهر الذي لا شريك له في أمره فلا يذهب الوهم الى غيره لو لم يذكر على فعله فما هو إلّا فعله ذكر أم لم يذكر.

ولمثل هذه النكتة حذف فاعل «غيض الماء» وهو الأرض، وفاعل «استوت على الجودي» وهو السفينة، ولم يعين القوم الظالمون بأنهم قوم نوح، ولا الناجون بأنهم نوح عليه السلام ومن معه في السفينة فإن الآية بلغت في بلاغتها العجيبة من حيث سياق القصة مبلغاً ليس فيه الاسماء تنزل امطارها، وارض انفجرت بعيونها وانغمرت بالماء وسفينة تجري في امواجه، وامر مقضي، وقوم ظالمون هم قوم نوح وامر الهي يوعد القوم بالهلاك فلو غيض الماء فإنما تغيضه الأرض، ولو استقر شيء واستوى فإنما هي السفينة تستقر على الأرض

كما انه لو قيل: يا ارض ابلعي ماءك ويا سماء اقلعي وقيل: بعداً للقوم الظالمين فإنما القائل هو الله عز اسمه والقوم الظالمون هم المقضي عليهم بالعذاب، ولو قيل: قضي الأمر فإنما القاضي هو الله سبحانه، والأمر هو ما وعده نوحاً ونهاه ان يراجعه في ذلك وهو انهم مغرقون، ولو قيل للسماء: اقلعي بعدما قيل للأرض: ابلعي ماءك فإنما يراد اقلاعها وامساكها ماءها.

ففي الآية الكريمة اجتماع عجيب من اسباب الإيجاز وتوافق لطيف فيما بينها كما أن الآية واقفة على موقف عجيب من بلاغة القرآن المعجزة يبهر العقول ويدهش الألباب وان كانت الآيات القرآنية كلها معجزة في بلاغتها.

وقد اهتم بأمرها رجال البلاغة وعلماء البيان فغاصوا لجيّ بحرها واخرجوا ما استطاعوا نيله من لئاليها، وما هو ـ وقد اعترفوا بذلك ـ الّا كغفرة من بحر أو حصاة من بر.

قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ دعاء نوح عليه السلام لابنه الذي تخلف عن ركوب السفينة وقد كان آخر عهده به يوم ركب السفينة فوجده في معزل فناداه وامره بركوب السفينة فلم يأتمر ثم حال بينهما الموج فوجد نوح عليه السلام وهو يرى انه مؤمن بالله من اهله وقد وعده الله بإنجاء اهله.

ولما به من الوجد والحزن رفع صوته بالدعاء كما يدل عليه قوله تعالى: «ونادى نوح ربه» ولم يقل: سأل او قال او دعا، ورفع الصوت بالإستغاثة من المضطر الذي اشتد به الضر وهاج به الوجد امر طبعي. والدعاء اعني نداء نوح عليه السلام ربه في ابنه وان ذكر في القصة بعد ذكر انجاز غرق القوم وظاهره كون النداء بعد تمام الأمر واستواء الفلك لكن مقتضى ظاهر الحال ان يكون النداء بعد حيلولة الموج بينهما وعلى هذا فذكره بعد ذكر انقضاء الطوفان انما هو لمكان العناية ببيان جميع ما في القصة من الهيئة الهائلة في محل واحد لتكميل

تمثيل الواقعة ثم الأخذ ببيان بعض جهاته الباقية.

وقد كان ﷺ رسولاً احد الأنبياء أُولي العزم عالماً بالله عارفاً بمقام ربه بصيراً بموقف نفسه في العبودية، والظرف ظهرت فيه آية الربوبية والقهر الإلهي اكمل ظهورها فأغرقت الدنيا واهلها، ونودي من ساحةِ العظمة والكبرياء على الظالمين بالبعد، فأخذ نوح ﷺ يدعو لابنه والظرف هذا الظرف لم يجترء ﷺ ـ على ما يقتضيه ادب النبوة ـ على ان يسأل ما يريده من نجاة ابنه بالتصريح، بل اورد القول كالمستفسر عن حقيقة الأمر، وابتدر بذكر ما وعده الله من نجاة اهله حين أمره أن يجمع الناجين معه في السفينة فقال له «احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك».

وكان أهله ـ غير امرأته ـ حتى ابنه هذا مؤمنين به ظاهراً ولو لم يكن ابنه هذا على ما كان يراه نوح ﷺ مؤمناً لم يدعه البتَّة الى ركوب السفينة فهو ﷺ الداعي على الكافرين السائل هلاكهم بقوله: ﴿ربِّ لا تذر على الأرض من الكافرين ديّاراً﴾ فقد كان يرى ابنه هذا مؤمناً ولم يكن مخالفته لأمر أبيه اذ أمره بركوب السفينة كفراً أو مؤدِّياً الى الكفر وانما هي معصية دون الكفر.

ولذلك كله قال ﷺ «ربِّ إنَّ ابني من أهلي وإن وعدك الحق» فذكر وعد ربّه وضمَّ اليه أنَّ ابنه من أهله ـ على ما في الكلام من دلالة «ربِّي» على الاسترحام، ودلالة الإضافة في «ابني» على الحجَّة في قوله: «من أهلي» ودلالة التأكيد بأن ولام الجنس في قوله: «وإنَّ وعدك الحقُّ» على أداء حق الايمان.

وكانت الجملتان «إن ابني من أهلي» «وإنَّ وعدك الحقُّ» ينتجان بانضمام بعضهما الى بعض الحكم بلزوم نجاة ابنه لكنه ﷺ لم يأخذ بما ينتجه كلامه من الحكم أدباً في مقام العبوديّة فلا حكم إلّا لله بل سلّم الحكم الحقّ والقضاء الفصل الى الله سبحانه فقال «وأنت أحكم الحاكمين».

فالمعنى: ربّ إنّ ابني من أهلي، وانّ وعدك حقّ كل الحقّ، وانّ ذلك يدلّ على أن لا تأخذه بعذاب القوم بالغرق ومع ذلك فالحكم الحقّ اليك فأنت أحكم الحاكمين كأنه عليه السلام يستوضح ما هو حقيقة الأمر ولم يذكر نجاة ابنه ولا زاد على هذا الذي حكاه الله عنه شيئاً وسيوافيك بيان ذلك.

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلاَ تَسْئَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ الخ: بيّن سبحانه لنوح عليه السلام وجه الصواب فيما ذكره بقوله: «إنّ ابني من أهلي وانّ وعدك» الخ؛ وهو يستوجب به نجاة ابنه فقال تعالى «إنّه ليس من أهلك» فارتفع بذلك اثر حجّته.

والمراد بكونه ليس من اهله ـ والله اعلم ـ أنّه ليس من اهله الذين وعده الله بنجاتهم لأنّ المراد بالأهل في قوله: «وأهلك إلاّ من سبق عليه القول» الأهل الصالحون. وهو ليس بصالح وان كان ابنه ومن أهله بمعنى الإختصاص، ولذلك علّل قوله: «انه ليس من اهلك» بقوله: «إنه عمل غير صالح».

فإن قلت: لازم ذلك ان يكون امرأته الكافرة من اهله لأنها انما خرجت من الحكم بالاستثناء وهي داخلة موضوعاً في قوله: «وأهلك» ويكون ابنه ليس من اهله وخارجاً موضوعاً لا بالاستثناء وهو بعيد.

قلت: المراد بالأهل في قوله: «وأهلك الاّ من سبق عليه القول» هم الأهل بمعنى الاختصاص وبالمستثنى ـ من سبق عليه القول ـ غير الصالحين ومصداقه امرأته وابنه هذا، واما الأهل الواقع في قوله هذا: «إنه ليس من اهلك» فهم الصالحون من المختصّين به عليه السلام طبقاً لما وقع في قوله: «رب ان ابني من اهلي» فإنه عليه السلام لا يريد بالأهل في قوله هذا غير الصالحين من اولي الاختصاص وإلاّ شمل امرأته وبطلت حجته فافهم ذلك.

فهذا هو الظاهر من معنى الآية، ويؤيده بعض ما ورد عن أئمة أهل البيت عليهم السلام مما سيأتي

في البحث الروائي التالي ان شاء الله.

وذكروا في تفسير الآية معان أُخر.

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ لما تبين لنوح ﷺ أنه لو ساقه طبع الخطاب الذي خاطب به ربه الى السؤال كان سائلاً ما ليس له به علم وكان من الجاهلين وان عناية الله حالت بينه وبين الهلكة، شكر ربه فاستعاذ بمغفرته ورحمته عن ذلك السؤال المخسر فقال «رب إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم».

والكلام في الاستعاذة مما لم يقع بعد من الامور المهلكة والمعاصي الموبقة كالنهي عما لم يقع من الذنوب والآثام وقد تقدم الكلام فيه وقد امر الله نبيه ﷺ بالاستعاذة من الشيطان وهو معصوم لا سبيل للشيطان اليه، قال تعالى: ﴿قل أعوذ برب الناس ـ الى ان قال ـ من شر الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس﴾ (الناس / ٥) وقال: ﴿وأعوذ بك رب أن يحضرون﴾ (المؤمنون / ٩٨) والوحي مصون عن مس الشياطين كما قال تعالى: ﴿عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلّا من ارتضى من رسول فإنّه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم﴾ (الجن / ٢٨).

وقوله: ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ كلام صورته صورة التوبة وحقيقته الشكر على ما أنعم الله عليه من التعليم والتأديب.

أما صورة توبته فإن في ذلك رجوعاً الى ربه تعالى بالاستعاذة ولازمها طلب مغفرة الله ورحمته اي ستره على الإنسان ما فيه زلّته وهلاكته وشمول عنايته لحاله وقد تقدَّم في أواخر الجزء السادس من الكتاب بيان أن الذنب أعمّ من مخالفة الأمر التشريعي بل كل وبال وأثر سيىء يسوء الإنسان بوجه، وأن المغفرة أعمّ من الستر على المعصية المعروفة عند المتشرعة بل كل ستر إلهي يسعد الإنسان ويجمع شمله.

وأما حقيقة الشكر فإن العناية الإلهية التي حالت بينه وبين السؤال الذي كان يوجب دخوله في زمرة الجاهلين وعصمته ببيان وجه الصواب كانت ستراً إلهياً على زلّة في طريقه ورحمة ونعمة أنعم الله سبحانه بها عليه فقوله عليه السلام: «وإلّا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين» أي إن لم تعذني من الزّلات لخسرت، ثناء وشكر لصنعه الجميل.

قوله تعالى: ﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ﴾ الخ؛ السلام هو السلامة أو التحية غير ان ذكر مسّ العذاب في آخر الآية يؤيد كون المراد به في صدرها السلامة من العذاب وكذا تبديل البركة في آخر الآية الى التمتع يدل على ان المراد بالبركات ليس مطلق النعم وأمتعة الحياة بل النعم من حيث تسوق الانسان الى الخير والسعادة والعاقبة المحمودة.

فقوله: ﴿قِيلَ - ولم ذكر القائل وهو الله سبحانه للتعظيم - يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ﴾ معناه - والله أعلم - يا نوح انزل مع سلامة من العذاب - الطوفان - ونعم ذوات بركات وخيرات نازلة منا عليك، أو انزل بتحية وبركات نازلة منا عليك.

وقوله: ﴿وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ﴾ معطوف على قوله: «عليك» وتنكير أُمم يدل على تبعيضهم لأن من الامم من يذكره تعالى بعد في قوله: «وأُمم سنمتعهم».

والخطاب أعني قوله تعالى: ﴿يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ﴾ الى آخر الآية بالنظر الى ظرف صدوره وليس وقتئذ متنفّس على وجه الأرض من انسان او حيوان وقد أُغرقوا جميعاً ولم يبق منهم إلّا جماعة قليلة في السفينة وقد رست واستوت على الجوديّ، وقد قضي أن ينزلوا الى الأرض فيعمروها ويعيشوا فيها الى حين.

خطاب عام شامل للبشر من لدن خروجهم منها الى يوم القيامة نظير ما صدر من الخطاب الإلهي يوم أُهبط آدم عليه السلام من الجنة الى الارض وقد حكاه الله تعالى في موضع بقوله: ﴿ وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدوّ ولكم في الأرض مستقرّ ومتاع الى حين - الى أن

قال ـ قلنا اهبطوا منها جميعاً فإما يأتينّكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون والذين كفروا وكذّبوا بآياتنا أُولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ (البقرة / ٣٩) وفي موضع آخر بقوله: **﴿قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون﴾** (الأعراف / ٢٥).

وهذا الخطاب خطاب ثان مشابه لذاك الخطاب الأول موجّه الى نوح عليه السلام ومن معه من المؤمنين ـ وإليهم ينتهي نسل البشر اليوم ـ متعلق بهم وبمن يلحق بهم من ذراريهم الى يوم القيامة، وهو يتضمن تقدير حياتهم الأرضية والإذن في نزولهم إليها واستقرارهم فيها وإيوائهم إياها.

وقد قسّم الله هؤلاء المأذون لهم قسمين فعبّر عن إذنه لطائفة منهم بالسلام والبركات وهم نوح عليه السلام وأُمم ممن معه، ولطائفة أُخرى بالتمتيع، وعقّب التمتيع بمس العذاب لهم كما أن كلمتي السلام والبركات لا تخلوان من بشرى الخير والسعادة بالنسبة الى ما تعلقتا به.

وقوله: ﴿وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ كأنه مبتدء لخبر محذوف والتقدير: وممن معك أُمم او وهناك أُمم سنمتعهم، الخ: وقد أرجهم الله سبحانه من زمرة المخاطبين بخطاب الإذن فلم يقل: ومتاع لامم آخرين سيعذبون طرداً لهم من موقف الكرامة، فأخبر أن هناك أُمماً آخرين سنمتعهم ثم نعذبهم وهم غير مأذون لهم في التصرف في أمتعة الحياة إذن كرامة وزلفى.

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ﴾ أي هذه القصص أو هذه القصة من أنباء الغيب نوحيها اليك.

وقوله: ﴿مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾ أي كانت وهي على محوضة الصدق والصحة مجهولة لك ولقومك من قبل هذا، والذي عند أهل الكتاب منها محرّف مقلوب عن وجه الصواب كما سيوافيك ما في التوراة الحاضرة من قصته عليه السلام.

وقوله: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ ٱلْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أمر منتزع عن تفصيل القصّة أي اذا علمت ما آل اليه أمر نوح عليه السلام وقومه من هلاك قومه ونجاته ونجاة من معه من المؤمنين وقد ورّثهم الله الأرض على ما صبروا، ونصر نوحاً على أعدائه على ما صبر فاصبر على الحق فإن العاقبة للمتّقين، وهم الصابرون في جنب الله سبحانه(١) (٢) (٣) (٤).

٥٠ ● وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ.

٥١ ● يَا قَوْمِ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ.

---

١. هود ٣٦ ـ ٤٩: بحث روائي حول قصة نوح عليه السلام.

٢. هود ٣٦ ـ ٤٩: ابحاث حول قصة نوح في فصول وهي ابحاث قرآنية وروائية وتاريخية وفلسفية، الاشارة الى قصته، قصته عليه السلام في القرآن، بعثه وارساله، دينه وشريعته عليه السلام، اجتهاده عليه السلام في دعوته، لبثه في قومه، صنعه عليه السلام الفلك، نزول العذاب ومجيء الطوفان، قضاء الامر ونزوله ومن معه الى الارض، قصه ابن نوح الغريق، خصائص نوح عليه السلام، قصته عليه السلام في التوراة الحاضرة، ما جاء في امر الطوفان في اخبار الامم واساطيرهم، هل كانت نبوته عليه السلام عامة للبشر؟، هل الطوفان كانت عامة لجميع الارض؟، انبساط البحار واتساعها بانحدار المياه اليها، العوامل المؤثرة في ازدياد المياه وغزارة عملها في عهد الطوفان، عمره عليه السلام الطويل، اين هو جبل الجودي؟.

٣. هود ٣٦ ـ ٤٩: كلام في عبادة الاصنام في فصول (الانسان واطمئنانه الى الحس، الاقبال الى الله بالعبادة، كيف نشأت الوثنية؟، وبماذا بدأت، اتخاذ الاصنام لأرباب الانواع وغيرهم، الوثنية الصابئة، الوثنية البرهمية، الوثنية البوذية، وثنية العرب، دفاع الاسلام عن التوحيد ومنازلته الوثنية، بناء سيرة النبي على التوحيد ونفي الشركاء).

٤. هود ٣٦ ـ ٤٩: كلام في: التناسخ عند الوثنيين: سريان هذه المحاذير الى سائر الاديان: اصلاح الاسلام لهذه المفاسد.

٥٢ ● وَيَا قَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّماءَ عَلَيْكُمْ
مِدْراراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلىٰ قُوَّتِكُمْ وَلاٰ تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ.

٥٣ ● قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنا عَنْ
قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ.

٥٤ ● إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ ٱللَّهَ
وَٱشْهَدُوا إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ.

٥٥ ● مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لاٰ تُنْظِرُونِ.

٥٦ ● إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ
بِناصِيَتِها إِنَّ رَبِّي عَلىٰ صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ.

٥٧ ● فَإِنَ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي
قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلاٰ تَضُرُّونَهُ شَيْئاً إِنَّ رَبِّي عَلىٰ كُلِّ شَيءٍ
حَفِيظٌ.

٥٨ ● وَلَمّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنا هُوداً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا
وَنَجَّيْناهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ.

٥٩ ● وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَٱتَّبَعُوا أَمْرَ
كُلِّ جَبّارٍ عَنِيدٍ.

٦٠ ● وَأُتْبِعُوا فِي هٰذِهِ الدُّنْيا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيامَةِ أَلاٰ إِنَّ عَاداً كَفَرُوا
رَبَّهُمْ أَلاٰ بُعْداً لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَإِلىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً﴾ كان أخاهم في النسب لكونه منهم وأفراد القبيلة يسمون إخوة لانتسابهم جميعاً الى أب القبيلة، والجملة معطوفة على قوله تعالى سابقاً: «نوحاً الى قومه» والتقدير «ولقد أرسلنا الى عاد أخاهم هوداً» ولعلّ حذف الفعل هو الموجب لتقديم الظرف على المفعول في المعطوف على خلاف المعطوف عليه حيث قيل «والى عاد أخاهم» الخ؛ ولم يقل: وهوداً الى عاد مثلاً كما قال «نوحاً الى قومه» لأن دلالة الظرف أعني «الى عاد» على تقدير الإرسال أظهر وأوضح.

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ الكلام وارد مورد الجواب كأن السامع لما سمع قوله: «والى عاد أخاهم هوداً» قال: فماذا قال لهم؟ فقيل «قال يا قوم اعبدوا الله» الخ؛ ولذا جيء بالفصل من غير عطف.

وقوله: ﴿اعْبُدُوا ٱللَّهَ﴾ في مقام الحصر أي اعبدوه ولا تعبدوا غيره من آلهة اتخذتموها أرباباً من دون الله تعبدونها لتكون لكم ضفعاء عند الله من غير أن تعبدوه تعالى. والدليل على الحصر المذكور قوله بعد: «ما لكم من إله غيره إن أنتم إلّا مفترون» حيث يدل على أنهم كانوا قد اتخذوا آلهة يعبدونها افتراء على الله بالشركة والشفاعة.

قوله تعالى: ﴿يَا قَوْمِ لاٰ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً﴾ الى آخر الآية؛ قال في المجمع الفطر الشق عن أمر الله كما ينفطر الورق عن الشجر، ومنه فطر الله الخلق لانه بمنزلة ما شق منه فظهر. انتهى، وقال الراغب: أصل الفطر الشق طولاً يقال: فطر فلان كذا فطراً وأفطر هو فطوراً وانفطر انفطاراً ـ الى أن قال ـ وفطر الله الخلق وهو ايجاد الشيء وإبداعه على هيئة مترشحة لفعل من الأفعال فقوله: فطرة الله التي فطر الناس عليها إشارة منه تعالى الى ما فطر أي أبدع وركز في الناس من معرفته، وفطرة الله هي ما ركز فيه من قوّته على معفرة الايمان

وهو المشار اليه بقوله: ولئن سألتهم من خلقهم ليقولنّ الله. انتهى.

والظاهر أن الفطر هو الايجاد عن عدم بحت، والخصوصية المفهومة من مثل قوله: «فطرة الله التي فطر الناس عليها» إنما نشأت من بناء النوع الذي تشتمل عليه فطرة وهي فعلة، وعلى هذا فتفسير بعضهم الفطرة بالخلقة بعيد من الصواب، وإنما الخلق هو إيجاد الصورة عن مادة على طريق جمع الأجزاء، قال تعالى: ﴿وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير﴾ (المائدة / ١١٠).

والكلام مسوق لرفع التهمة والعبث والمعنى يا قوم لا أسألكم على ما أدعوكم أجراً وجزاء حتى تهتموني أني أستدر به نفعاً يعود إليّ وإن أضرّ بكم، ولست أدعوكم من غير جزاء مطلوب حتى يكون عبثاً من الفعل بل إنما أطلب به جزاء من الله الذي أوجدني وأبدعني أفلا تعقلون عني ما أقوله لكم حتى يتضح لكم أني ناصح لكم في دعوتي، وما أُريد إلّا أن أحملكم على الحق.

قوله تعالى: ﴿وَيَا قَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْراراً﴾ الى آخر الآية: تقدم الكلام في معنى قوله: «استغفروا ربكم ثم توبوا اليه» في صدر السورة.

وقوله: «يرسل السماء عليكم مدراراً» في موقع الجزاء لقوله: «استغفروا ربّكم» الخ؛ أي أن تستغفروه وتتوبوا اليه يرسل السماء عليكم مدراراً، والمراد بالسماء السحاب فإن كل ما علا وأظلّ فهو سماء، وقيل المطر وهو شائع في الاستعمال، والمدرار مبالغة من الدرّ، وأصل الدرّ اللبن ثم استعير للمطر ولكل فائدة ونفع فإرسال السماء مدراراً إرسال سحب تمطر أمطاراً متتابعة نافعة تحيي بها الارض وينبت الزرع والعشب، وتنضر بها الجنات والبساتين.

وقوله: ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ قيل المراد بها زيادة قوة الايمان على قوة

الأبدان وقد كان القوم أُولي قوة وشدة في أبدانهم ولو أنهم آمنوا انضافت قوة الايمان على قوة أبدانهم . وقيل المراد بها قوة الأبدان كما قال نوح لقومه : ﴿ استغفروا ربكم إنه كان غفّاراً يرسل السماء عليكم مدراراً ويمددكم بأموال وبنين ﴾ (نوح / ١٢) ولعل التعميم اولى .

وقوله : « ولا تتولوا مجرمين » بمنزلة التفسير لقوله : « استغفروا ربكم ثم توبوا اليه » أي إن عبادتكم لما اتخذتموه من الآلهة دون الله إجرام منكم ومعصية توجب نزول السخط الإلهي عليكم فاستغفروا الله من إجرامكم وارجعوا اليه بالإيمان حتى يرحمكم بإرسال سحب هاطلة ممطرة وزيادة قوة الى قوتكم .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ سألهم هود في قوله : « يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره » الى آخر الآيات الثلاث ؛ أمرين هما أن يتركوا آلهتهم ويعودوا الى عبادة الله وحده وأن يؤمنوا به ويطيعوه فيما ينصح لهم فردّوا عليه القول بما في هذه الآية إجمالاً وتفصيلاً :

أما إجمالاً فبقولهم : « ما جئتنا ببينة » يعنون أن دعوتك خالية عن الحجة والآية المعجزة ولا موجب للإصغاء الى ما هذا شأنه .

وأما تفصيلاً فقد أجابوا عن دعوته إياهم الى رفض الشركاء بقولهم : « وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك » وعن دعوته إياهم الى الايمان والطاعة بقولهم : « وما نحن لك بمؤمنين » فأيسوه في كلتا المسألتين .

ثم ذكروا له ما ارتأوا فيه من الرأي ليبأس من إجابتهم بالمرة فقالوا « إن نقول إلّا اعتراك بعض آلهتنا بسوء » والاعتراء الاعتراض والإصابة يقولون : إنما نعتقد في أمرك أن بعض آلهتنا أصابك بسوء كالخبل والجنون لشتمك إياها وذكرك لها بسوء فذهب بذلك عقلك فلا يعبأ بما تفوهت به في صورة الدعوة .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ مِنْ

دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لاَ تُنْظِرُونِ ﴾ أجاب هود ﷺ عن قولهم باظهار البراءة من شركائهم من دون الله ثم التحدي عليهم بأن يكيدوا به جميعاً ولا ينظروه.

فقوله: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ إنشاء وليس بإخبار كما هو المناسب لمقام التبري، ولا ينافي ذلك كونه بريئاً من أول أمره فإن التبرز بالبراءة لا ينافي تحققها من قبل، وقوله: «فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون» أمر ونهي تعجيزيان.

وإنما أجاب ﷺ بما أجاب ليشاهد القوم من آلهتهم أنها لا تمسه ﷺ بسوء مع تبرّزه بالبراءة، ولو كانت آلهة ذات علم وقدرة لقهرته وانتقمت منه لنفسها كما ادعوا أن بعض آلهتهم اعتراه بسوء وهذه حجة بينة على أنها ليست بآلهة وعلى أنها لم تعتره بسوء كما ادعوه، ثم يشاهدوا من أنفسهم أنهم لا يقدرون عليه بقتل او تنكيل مع كونهم ذوي شدة وقوة لا يعادلهم غيرهم في الشدة والبطش، ولولا أنه نبي من عند الله صادق في ما يقوله مصون من عند ربه لقدروا عليه بكل ما أرادوه من عذاب او دفع.

فالحق أن قوله: ﴿إِنِّي أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوا﴾ الى آخر الآيتين؛ مشتمل على حجة عقلية على بطلان أُلوهية الشركاء، وعلى آية معجزة لصحة رسالة هود ﷺ.

وفي قوله: ﴿جَمِيعاً﴾ إشارة الى أن مراده تعجيزهم وتعجيز آلهتهم جميعاً فيكون أتم دلالة على كونه على الحق وكونهم على الباطل.

قوله تعالى: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ الى آخر الآية؛ لما كان الأمر الذي في صورة التعجيز صالحاً لأن يكون بداعي إظهار عجز الخصم وعدم قدرته. وصالحاً لأن يصدر بداعي أن الآمر لا يخاف الخصم وإن كان الخصم قادراً على الإتيان بما يؤمر به لكنه غير قادر على تخويفه وإكراهه على الطاعة وحمله على ما يريد منه كقول السحرة لفرعون: ﴿فاقض ما أنت قاض إنما تقضي هذه الحياة الدنيا﴾ (طه / ٧٢).

وكان قوله: «فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون» محتملاً لأن يكون المراد به إظهار أنه لا

يخافهم وإن فعلوا به ما فعلوا ، عقبه لدفع هذا الاحتمال بقوله : « إني توكلت على الله ربي وربكم » فذكر أنه متوكل في أمره على الله الذي هو يدبّر أمره وأمرهم ثم عقبه بقوله : « ما من دابّة إلّا هو آخر بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم » فذكر أنه ناجح في توكله هذا فإن الله محيط بهم جميعاً قاهر لهم يحكم على سنّة واحدة وهي نصرة الحق وإظهاره على الباطل اذا تقابلا وتغالبا .

فتبرّيه من أصنامهم وتعجيزهم على ما هم عليه من الحال بقوله : « فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون » ثم لبثه بينهم في عاقبة وسلامة لا يمسونه بسوء ولا يستطيعون أن ينالوه بشر آية معجزة وحجة سماوية على أنه رسول الله اليهم .

وقوله : ﴿ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِناصِيَتِها إِنَّ رَبِّي عَلىٰ صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ الدابة كل ما يدب في الأرض من أصناف الحيوان ، والأخذ بالناصية كناية عن كمال السلطة ونهاية القدرة ، وكونه تعالى على صراط مستقيم هو كون سنته في الخليقة واحدة ثابتة غير متغيرة وهو تدبير الامور على منهاج العدل والحكمة فهو يحق الحق ويبطل الباطل إذا تعارضا .

فالمعنى إني توكلت على الله ربي وربكم في نجاح حجتي التي ألقيتها اليكم وهو التبرز بالبراءة من آلهتكم وأنكم وآلهتكم لا تضرّونني شيئاً فإنه المالك ذو السلطنة علي وعليكم وعلى كل دابة ، وسنته العادلة ثابتة غير متغيرة فسوف ينصر دينه ويحفظني من شركم .

ولم يقل « إن ربي وربكم على صراط مستقيم » على وزان قوله : « على الله ربي وربكم » فإنه في مقام الدعاء لنفسه على قومه يتوقع أن يحفظه الله من شرهم ، وهو يأخذه تعالى رباً بخلاف القوم فكان الأنسب أن يعده رباً لنفسه ويستمسك برابطة العبودية التي بينه وبين ربه حتى ينجح طلبته ، وهذا بخلاف مقام قوله : « توكلت على الله ربي وربكم » فانه يريد هناك بيان عموم السلطة والاحاطة .

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ﴾ وهذه الجملة من كلامه ﷺ ناظر الى قولهم في آخر جدالهم: «إن نقول إلاّ اعتراك بعض آلهتنا بسوء» الدال على أنهم قاطعون على أن لا يؤمنوا به ودائمون على الجحد. والمعنى إن تتولوا وتعرضوا عن الإيمان بي والإطاعة لأمري فقد أبلغتكم رسالة ربي تمت عليكم الحجة ولزمتكم البلية.

قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّونَهُ شَيْئاً إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ هذا وعيد وإخبار بالتبعة التي يستتبعها إجرامهم، فإنه كان وعدهم ان يستغفروا الله ويتوبوا اليه أن يرسل السماء عليهم مدراراً ويزيد قوة الى قوتهم، ونهاهم أن يتولوا مجرمين ففيه العذاب الشديد.

وقوله: ﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْماً غَيْرَكُمْ﴾ اي يجعل قوماً غيركم خلفاء في الأرض مكانكم فإن الإنسان خليفة منه في الأرض كما قال تعالى: ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾ (البقرة / ٣٠)، وقد كان ﷺ بيّن لهم أنهم خلفاء في الارض من بعد قوم نوح كما قال تعالى حكاية عن قوله لقومه: ﴿واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بسطة﴾ الآية: (الأعراف / ٦٩).

وظاهر السياق أن الجملة الخبرية معطوفة على أُخرى مقدّرة، والتقدير: وسيذهب بكم ربي ويستخلف قوماً غيركم على حد قوله: ﴿إن يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء﴾ (الأنعام / ١٣٣).

وقوله: «ولا تضرّونه شيئاً» ظاهر السياق أنه تتمة لما قبله اي لا تقدرون على إضراره بشيء من الفوت وغيره إن اراد أن يهلككم ولا أن تعذيبكم وإهلاككم يفوت منه شيئاً مما يريده فإن ربي على كل شيء حفيظ لا يعزم عن علمه عازب ولا يفوت من قدرته فائت؛ وللمفسرين في الآية وجوه أُخر بعيدة عن الصواب أعرضنا عنها؟

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُوداً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ المراد بمجيء الأمر نزول العذاب وبوجه أدقّ صدور الأمر الإلهي الذي يستتبع القضاء الفاصل بين الرسول وبين قومه كما قال تعالى: ﴿وما كان لرسول أن يأتي بآية إلّا بإذن الله فإذا جاء أمر الله قضي بالحق وخسر هنالك المبطلون﴾ (المؤمن / ٧٨).

وقوله: ﴿بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ الظاهر أن المراد بها الرحمة الخاصة بالمؤمنين المستوجبة نصرهم في دينهم وإنجاءهم من شمول الغضب الإلهي وعذاب الاستئصال، قال تعالى: ﴿إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد﴾ (المؤمن / ٥١).

وقوله: ﴿وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ ظاهر السياق أنه العذاب الذي شمل الكفار من القوم فيكون من قبيل عطف التفسير بالنسبة الى ما قبله، وقيل: المراد به عذاب الآخرة وليس بشيء.

قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ الآية؛ وما بعدها تلخيص بعد تلخيص لقصة عاد فأول التلخيصين قوله: «وتلك عاد ـ الى قوله ـ ويوم القيامة» يذكر فيه أنهم جحدوا بآيات ربهم من الحكمة والموعظة والآية المعجزة التي أبانت لهم طريق الرشد وميّزت لهم الحق من الباطل فجحدوا بها بعد ما جاءهم من العلم.

وعصوا رسل ربهم وهم هود ومن قبله من الرسل فإن عصيان الواحد منهم عصيان للجميع فكلهم يدعون الى دين واحد فهم إنما عصوا شخص هود وعصوا بعصيانه سائر رسل الله وهو ظاهر قوله في موضع آخر: ﴿كذّبت عاد المرسلين إذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون﴾ (الشعراء / ١٢٤). ويشعر به ايضاً قوله: ﴿واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه﴾ (الأحقاف / ٢١)، ومن الممكن أن يكون لهم

رسل آخرون بعثوا اليهم فيما بين هود ونوح عليهما السلام لم يذكروا في الكتاب العزيز لكن سياق الآيات لا يساعد على ذلك.

واتّبعوا أمر كل جبار عنيد من جبابرتهم فألهاهم ذلك عن اتباع هود وما كان يدعو اليه، والجبّار العظيم الذي يقهر الناس بإرادته ويكرههم على ما أراد والعنيد الكثير العناد الذي لا يقبل الحق، فهذا ملخص حالهم وهو الجحد بالآيات وعصيان الرسل وطاعة الجبابرة.

ثم ذكر الله وبال أمرهم بقوله: ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ اي وأتبعهم الله في هذه الدنيا لعنة وإبعاداً من الرحمة، ومصداق هذا اللعن العذاب الذي عقّبهم فلحق بهم، أو الآثام والسيئات التي تكتب عليهم ما دامت الدنيا فإنهم سنّوا سنّة الإشراك والكفر لمن بعدهم، قال تعالى: ﴿ونكتب ما قدموا وآثارهم﴾ (يس / ١٢).

وقيل: المعنى لحقت بهم لعنة في هذه الدنيا فكان كل من علم بحالهم من بعدهم، ومن أدرك آثارهم، وكل من بلّغهم الرسل من بعدهم خبرهم يلعنونهم.

وأما اللعنة يوم القيامة فمصداقه العذاب الخالد الذي يلحق بهم يومئذ فإن يوم القيامة يوم جزاء لا غير.

وفي تعقيب قوله في الآية: ﴿وَاتَّبَعُوا﴾ بقوله: ﴿وَأُتْبِعُوا﴾ لطف ظاهر.

قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ أي كفروا بربهم فهو منصوب بنزع الخافض وهذا هو التلخيص الثاني الذي أشرنا اليه لخص به التلخيص الاول فقوله: ﴿أَلَا إِنَّ عَادًا﴾ الخ؛ يحاذى به وصف حالهم المذكور في قوله: «وتلك عاد جحدوا» الخ؛ وقوله: «ألا بعداً لعاد» الخ؛ يحاذي به قوله: «وأُتبعوا في هذه الدنيا لعنة» الخ.

ويتأيد من هذه الجملة أن المراد باللعنة السابقة اللعنة الإلهية دون لعن الناس، والأنسب به أحد الوجهين الأولين من الوجوه الثلاثة السابقة وخاصة الوجه الثاني دون

الوجه الثالث[١].

٦١ ❁ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا ٱللّٰهَ مَا لَكُمْ مِنْ
إِلٰهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ ٱلْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيها
فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ.
٦٢ ❁ قالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينا مَرْجُوّاً قَبْلَ هٰذا أَتَنْهٰينا أَنْ نَعْبُدَ
مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنا وَإِنَّنا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونا إِلَيْهِ مُرِيبٌ.
٦٣ ❁ قَالَ يَا قَوْمِ أَرأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتيٰنِي مِنْهُ
رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ ٱللّٰهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَما تَزِيدُونَنِي غَيْرَ
تَخْسِيرٍ.
٦٤ ❁ وَيَا قَوْمِ هٰذِهِ نَاقَةُ ٱللّٰهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوها تَأْكُلْ فِي أَرْضِ ٱللّٰهِ
وَلاٰ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ.
٦٥ ❁ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ذٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ
مَكْذُوبٍ.
٦٦ ❁ فَلَمّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنا صَالِحاً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنّا
وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ.
٦٧ ❁ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ.
٦٨ ❁ كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيها أَلاٰ إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلاٰ بُعْداً لِثَمُودَ.

---

١. هود ٥٠ ـ ٦٠: كلام في قصة هود (عاد قوم هود. شخصية هود المعنوية).

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ﴾ تقدم الكلام في نظيرة الآية في قصه هود.

قوله تعالى: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ ٱلْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيها﴾ الى آخر الآية؛ قال الراغب الإنشاء إيجاد الشيء وتربيته وأكثر ما يقال ذلك في الحيوان قال «هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار». انتهى. وقال: العمارة ضد الخراب يقال: عمر أرضه يعمرها عمارة قال «وعمارة المسجد الحرام» يقال: عمرته فعمر فهو معمور قال «وعمروها أكثر مما عمروها» «والبيت المعمور» وأعمرته الأرض واستعمرته إذا فوّضت اليه العمارة قال «واستعمركم فيها» انتهى. فالعمارة تحويل الارض الى حال تصلح بها أن ينتفع من فوائدها المترقّبة منها كعمارة الدار للسكنى والمسجد للعبادة والزرع للحرث والحديقة لاجتناء فاكهتها والتنزه فيها والاستعمار هو طلب العمارة بأن يطلب من الانسان أن يجعل الأرض عامرة تصلح لأن ينتفع بما يطلب من فوائدها.

وعلى ما مرّ يكون معنى قوله: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ ٱلْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيها﴾ ـ والكلام يفيد الحصر ـ أنه تعالى هو الذي اوجد على المواد الارضية هذه الحقيقة المسماة بالإنسان ثم كمّلها بالتربية شيئاً فشيئاً وأفطره على ان يتصرف في الأرض بتحويلها الى حال ينتفع بها في حياته، ويرفع بها ما يتنبّه له من الحاجة والنقيصة اي إنكم لا تفتقرون في وجودكم وبقائكم إلا اليه تعالى وتقدّس.

فقول صالح: ﴿هُوَ ٱلذي أَنْشَأَكُمْ مِنَ ٱلْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيها﴾ في مقام التعليل وحجة يستدل بها على ما ألقاه اليهم من الدعوة بقوله: «يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره» ولذلك جيء بالفصل كأنه قيل له: لم نعبده وحده؟ فقال: لأنه هو الذي أنشأكم من

الارض واستعمركم فيها.

وقد علّل قوله: ﴿فَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ الخ: بقوله: «إن ربي قريب مجيب» لأنه استنتج من حجته المذكورة أنه تعالى يقوم بإيجاد الانسان وتربيته وتدبير أمر حياته، وأنه لا استقلال لشيء من الأسباب العمّالة في الكون بل الله تعالى هو الذي يسوق هذا الى هنا، ويصرف ذاك عن هناك فهو تعالى الحائل بين الانسان وبين حوائجه وجميع الأسباب العمّالة فيها، القريب منه لا كما يزعمون أنه لا يدركه فهم ولا يناله عبادة وقربان، وإذا كان قريباً فهو مجيب، وإذا كان قريباً مجيباً وهو الله لا إله غيره فمن الواجب أن يستغفروه ثم يتوبوا اليه.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوّاً قَبْلَ هَذَا تَنْهَينَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ الخ؛ الرجاء إنما يتعلق بالإنسان لا من جهة ذاته بل من جهة أفعاله وآثاره، ولا يرجى منها الخير ويرقب منه النفع، وقوله «قد كنت فينا» دليل على كونه مرجواً لعامتهم وجمهورهم.

فقولهم: ﴿قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوّاً قَبْلَ هَذَا﴾ معناه أن ثمود كانت ترجو منك أن تكون من أفرادها الصالحة تنفع بخدماتك مجتمعهم وتحمل الامة على صراط الترقي والتعالي لما كانت تشاهد فيك من امارات الرشد والكمال لكنهم يئسوا منك ومن رزانة رأيك اليوم بما أبدعت من القول وأقمت من الدعوة.

وقولهم: ﴿أَتَنْهَينَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ استفهام إنكاري بداعي المذمة والملامة، والاستفهام في مقام التعليل لما قبله محصله أن سبب يأسهم منك اليوم أنك تنهاهم من إقامة سنة من سنن مليتهم وتمحو أظهر مظاهر قوميتهم فإن اتخاذ الأوثان من سنن هذا المجتمع المقدسة، واستمرار إقامة السنن المقدسة من المجتمع دليل على أنهم ذوو أصل عريق ثابت، ووحدة قومية لها استقامة في الرأي والإرادة.

وقوله: ﴿وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ حجة ثانية لهم في رد دعوة

صالح ﷺ، وحجتهم الاولى ما يتضمنه صدر الآية ومحصلها أن ما تدعو اليه من رفض عبادة الأصنام بدعة منكرة تذهب بسنة ثمود المقدسة وتهدم بنيان مليتهم، وتميت ذكرهم فعلينا أن نرده، والثانية أنك لم تأت بحجة بينة على ما تدعو اليه تورث اليقين وتميط الشك عنا فنحن في شك مريب مما تدعونا اليه وليس لنا أن نقبل ما تندب اليه على شك منا فيه.

والإرابة الاتهام وإساءة الظن يقال: رابني منه كذا إذا أوجب فيه الشك وأرابني كذا إرابة إذا حملك على اتهامه وسوء الظن به.

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً﴾ الى آخر الآية: المراد بالبينة الآية المعجزة وبالرحمة النبوة، وقد تقدم الكلام في نظير الآية من قصة نوح ﷺ في السورة.

وقوله: ﴿فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ﴾ جواب الشرط، وحاصل المعنى: أخبروني إن كنت مؤيداً بآية معجزة تنبيء عن صحة دعوتي وأعطاني الله الرسالة فأمرني بتبليغ رسالته فمن ينجني من الله ويدفع عني إن أطعتكم فيما تسألون ووافقتكم فيما تريدونه مني وهو ترك الدعوة.

ففي الكلام جواب عن كلتا حجتيهم واعتذار عما لاموه عليه من الدعوة المبتدعة.

وقوله: ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ تفريع على قوله السابق الذي ذكره في مقام دحض الحجتين والاعتذار عن مخالفتهم والقيام بدعوتهم الى خلاف سنتهم القومية فالمعنى فما تزيدونني في حرصكم على ترك الدعوة والرجوع اليكم واللحوق بكم غير أن تخسروني فما مخالفة الحق إلّا خسارة.

وقيل: المراد أنكم ما تزيدونني في قولكم: أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا؟ غير نسبتي إياكم الى الخسارة. وقيل: المعنى ما تزيدونني إلّا بصيرة في خسارتكم والوجه الأول أوجه.

قوله تعالى: ﴿وَيَا قَوْمِ هَٰذِهِ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ ٱللَّهِ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ إضافة الناقة الى الله إضافة تشريف كبيت الله وكتاب الله. وكانت الناقة آية معجزة له ﷺ تؤيد نبوته، وقد أخرجها عن مسألتهم من صخر الجبل بإذن الله، وقال لهم: إنها تأكل في أرض الله محررة، وحذرهم أن يمسوها بسوء أي يصيبوها بضرب أو جرح أو قتل. وأخبرهم أنهم ان فعلوا ذلك أخذهم عذاب قريب معجل، وهذا معنى الآية.

قوله تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ عقر الناقة نحرها، والدار هي المكان الذي يبنيه الانسان فيسكن فيه ويأوى اليه هو وأهله، والمراد بها في الآية المدينة سميت داراً لأنها تجمع أهلها كما تجمع الدار أهلها، وقيل المراد بالدار الدنيا، وهو بعيد.

والمراد بتمتعهم في مدينتهم العيش والتنعم بالحياة لأن الحياة الدنيا متاع يتمتع به، او الالتذاذ بأنواع النعم التي هيؤوها فيها من مناظر ذات بهجة والأثاث والمأكول والمشروب والاسترسال في أهواء أنفسهم.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ الإشارة الى قوله: ﴿تَمَتَّعُوا﴾ الخ؛ و«وعد غير مكذوب» بيان له.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحاً﴾ الى آخر الآية؛ أما قوله: «ولما جاء أمرنا نجينا صالحاً والذين آمنوا معه برحمة منا» فقدم تقدم الكلام في مثله في قصة هود.

وأما قوله: ﴿وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ﴾ فمعطوف على محذوف والتقدير نجيناهم من العذاب ومن خزي يومئذ، والخزي العيب الذي تظهر فضيحته ويستحيى من إظهاره او أن التقدير: نجيناهم من القوم ومن خزي يومئذ على حد قوله: ﴿ونجّني من القوم الظالمين﴾.

وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ﴾ في موضع التعليل لمضمون صدر الآية وفيه التفات من التكلم بالغير الى الغيبة. وقد تقدم نظيره في آخر قصة هود في قوله: «ألا إن عادا كفروا ربهم» والوجه فيه ذكر صفة الربوبية ليدل به على خروجهم من زي العبودية وكفرهم بالربوبية وكفرانهم نعم ربهم.

قوله تعالى: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ يقال: جثم جثوماً اذا وقع على وجهه، والباقي ظاهر.

قوله تعالى: ﴿كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ غني بالمكان أي أقام فيه، والضمير راجع الى الديار.

قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْداً لِثَمُودَ﴾ الجملتان تلخيص ما تقدم تفصيله من القصة فالجملة الاولى تلخى ما انتهى اليه أمر ثمود ودعوة صالح عليه السلام، والثانية تلخيص ما جازاهم الله به، وقد تقدم نظيرة الآية في آخر قصة هود[١][٢].

٦٩ ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَاماً قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ.

٧٠ ﴿فَلَمَّا رَءَا أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ.

٧١ ﴿وَٱمْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ.

---

١. هود ٦١ ـ ٦٨: بحث روائي حول قصة صالح وقومه.

٢. هود ٦١ ـ ٦٨: كلام في قصة صالح في فصول (ثمود قوم صالح عليه السلام، بعثة صالح عليه السلام، شخصية صالح عليه السلام).

٧٢ ❁ قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ ءَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخاً إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ.

٧٣ ❁ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ رَحْمَةُ ٱللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ.

٧٤ ❁ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ.

٧٥ ❁ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ.

٧٦ ❁ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هٰذَا إِنَّهُ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرىٰ﴾ الى آخر الآية: البشرى هي البشارة، والعجل ولد البقرة، والحنيذ فعيل بمعنى المفعول أي المحنوذ وهو اللحم المشوي على حجارة محماة بالنار كما أن القديد هو المشوي على حجارة محماة بالشمس على ما ذكره بعض اللغويين، وذكر بعضهم أنه المشوي الذي يقطر ماء وسمناً، وقيل: هو مطلق المشوي، وقوله تعالى في سورة الذاريات في القصة: «فراغ الى أهله فجاء بعجل سمين» لا يخلو من تأييد مّا للمعنى الثاني.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرىٰ﴾ معطوف على قوله سابقاً: «ولقد أرسلنا نوحاً الى قومه» قال في المجمع: وإنما دخلت اللام لتأكيد الخبر ومعنى قد ههنا أن السامع لقصص الأنبياء يتوقع قصة بعد قصة، وقد للتوقّع فجاءت لتؤذن أن السامع

في حال توقع . انتهى .

والرسل هم الملائكة المرسلون الى إبراهيم للبشارة والى لوط لإهلاك قومه وقد اختلفت كلمات المفسرين في عددهم مع القطع بكونهم فوق الاثنين لدلالة لفظ الجمع ـ الرسل ـ على ذلك ، وفي بعض الروايات عن أئمة أهل البيت عليهم السلام أنهم كانوا أربعة من الملائكة الكرام ، وسيأتي نقلها إن شاء الله في البحث الروائي .

والبشرى التي جاءت بها الرسل إبراهيم عليه السلام لم يذكر بلفظها في القصة ، والتي ذكرت فيها منها هي البشارة لامرأته ، وإنما ذكرت بشارة إبراهيم نفسه في غير هذا المورد كسورتي الحجر والذاريات ، ولم يصرّح فيهما باسم من بشر به إبراهيم أهو إسحاق أم إسماعيل عليهما السلام أو أنهم بشروه بكليهما ؟ وظاهر سياق القصة في هذه السورة أنها البشارة بإسحاق ، وسيأتي البحث المستوفى عن ذلك في آخر القصة .

وقوله : ﴿ قَالُوا سَلَاماً قَالَ سَلَامٌ ﴾ أي تسالموا هم وإبراهيم فقالوا : سلاماً أي سلّمنا عليك سلاماً ، وقال إبراهيم : سلام أي عليكم سلام .

والسلام الواقع في تحية ابراهيم عليه السلام نكرة ووقوعه نكرة في مقام التحية دليل على ان المراد به الجنس أو أن له وصفاً محذوفاً للتفخيم ومزيد التكريم والتقدير : عليكم سلام زاك طيب أو ما في معناه ، ولذا ذكر بعض المفسرين : ان رفع السلام أبلغ من نصبه فقد حيّاهم بأحسن من تحيتهم فبالغ في إكرامهم ظناً منه أنهم ضيف .

وقوله : ﴿ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴾ أي ما أبطأ في أن قدّم اليهم عجلاً مشوياً يقطر ماء وسمناً وأسرع في ذلك .

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لاٰ تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴾ عدم وصول ايديهم اليه كناية عن أنهم ما كانوا يمدون أيديهم الى الطعام ، وذلك أمارة العداوة وإضمار الشر ، ونكرهم وأنكرهم بمعنى واحد وإنما كان أنكرهم لإنكاره ما شاهد

منهم من فعل غير معهود.

والإيجاس الخطور القلبي، قال الراغب: الوجس الصوت الخفي، والتوجس التسمع، والإيجاس وجود ذلك النفس قال: وأوجس منهم خيفة، والواجس قالوا: هو حالة تحصل من النفس بعد الهاجس لأن الهاجس مبتدأ التفكير ثم يكون الواجس الخاطر. انتهى. فالجملة من الكناية كأن لطروق الخيفة ـ وهو النوع من الخوف ـ وخطوره في النفس صوتاً تسمع بالسمع القلبي، والمراد أنه استشعر في نفسه خوفاً ولذلك أمّنوه وطيبوا نفسه بقولهم: «لا تخف إنا أُرسلنا الى قوم لوط».

ومعنى الآية أن إبراهيم ﷺ لما قدم اليهم العجل المشوي رآهم لا يأكلون منه كالممتنع من الأكل ـ وذلك أمارة الشر ـ استشعر في نفسه منهم خوفاً قالوا تأميناً له وتطييباً لنفسه: لا تخف إنا أُرسلنا الى قوم لوط فعلم أنهم من الملائكة الكرام المنزهين من الأكل والشرب وما يناظر ذلك من لوازم البدن المادية، وأنهم مرسلون لخطب جليل.

قوله تعالى: ﴿وَٱمْرَأَتُهُ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ ضحكت من الضحك بفتح الضاد اي حاضت، ويؤيده تفريع البشارة عليه في قوله عقيبه: «فبشرناهم» الخ؛ ويكون ضحكها أمارة تقرّب البشرى الى القبول، وآية تهيىء نفسها للإذعان بصدقهم فيما يبشرون به، ويكون ذكر قيامها لتمثيل المقام وأنها ما كانت تخطر ببالها أنها ستحيض وهي عجوز، وإنما كانت قائمة تنظر ما يجري عليه الأمر بين بعله وبين الضيفان النازلين به وتحادثهم.

والمعنى أن ابراهيم ﷺ كان يكلمهم ويكلمونه في امر الطعام والحال أن امرأته قائمة هناك تنظر الى ما يجري بين الضيفان وبين ابراهيم وما كان يخطر ببالها شيء دون ذلك ففاجأها انها حاضت فبشرته الملائكة بالولد.

وقوله: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ إسحاق هو ابنها من

ابراهيم. ويعقوب هو ابن إسحاق عليه السلام فالمراد أن الملائكة بشروها بأنها ستلد إسحاق وإسحاق سيولد له يعقوب ولد بعد ولد. هذا على قراءة يعقوب بالفتح وهو منزوع الخافض وقرىء برفع يعقوب وهو بيان لتتمة البشارة، والاولى ارجح.

وكأن في هذا التعبير: ﴿وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ إشارة الى وجه تسمية يعقوب عليه السلام بهذا الاسم، وهو أنه كان يعقب بحسب هذه البشارة أباه إسحاق وقد ذكر فيها أنه وراءه، ويكون فيها تخطئة لما في التوراة من السبب في تسمية يعقوب به.

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ ءَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخاً إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ الويل القبح وكل مساءة توجب التحسّر من هلكة او مصيبة او فجيعة او فضيحة، ونداؤه كناية عن حضوره وحلوله يقال: يا ويلي أي حضرني وحل بي ما فيه تحسّري. ويا ويلتا بزيادة التاء عند النداء مثل يا أبتا.

والعجوز الشيخة من النساء. والبعل زوج المرأة والأصل في معناه القائم بالأمر المستغني عن الغير يقال للنخل الذي يستغني بماء السماء عن سقي الأنهار والعيون بعل، ويقال للصاحب وللرب: بعل. ومنه بعلبك لأنه كان فيه هيكل بعض أصنامهم.

والعجيب صفة مشبهة من العجب وهو الحال العارض للإنسان من مشاهدة ما لا يعلم سببه، ولذا يكثر من الامور الشاذة النادرة للجهل بسببها عادة وقولها: «يا وليتي ءألد» الخ: وارد مورد التعجب والتحسر فإنها لما سمعت بشارة الملائكة تمثّل لها الحال بتولد ولد من عجوز عقيم وشيخ هرم بالغين في الكبر لا يعهد من مثلهما الاستيلاد فهو أمر عجيب على ما فيه من العار والشين عند الناس فيضحكون منهما ويهزؤن بهما وذلك فضيحة.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾ المجد هو الكرم والمجيد الكريم كثير النوال وقد تقدم معنى بقية مفردات الآية.

وقولهم: ﴿أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ استفهام إنكاري انكرت الملائكة تعجبها عليها لأن التعجب إنما يكون للجهل بالسبب واستغراب الأمر، والأمر المنسوب الى الله سبحانه وهو الذي يفعل ما يشاء وهو على كل شيء قدير لا وجه للتعجب منه.

على أنه تعالى خص بيت إبراهيم بعنايات عظيمة ومواهب عالية يتفردون بها من بين الناس فلا ضير إن ضم الى ما مضى من نعمه النازلة عليهم نعمة اخرى مختصة بهم من بين الناس وهو ولد من زوجين شائخين لا يولد من مثلهما ولد عادة.

ولهذا الذي ذكرنا قالت الملائكة لها في إنكار ما رأوا من تعجبها أولاً «أتعجبين من امر الله» فأضافوا الأمر الى الله لينقطع بذلك كل استعجاب واستغراب لأن ساحة الالوهية لا يشق شيء عليها وهو الخالق لكل شيء.

وثانياً ﴿رَحْمَةُ ٱللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ فنبهوها بذلك أن الله انزل رحمته وبركاته عليهم أهل البيت، وألزمهم ذلك فليس من البعيد ان يكون من ذلك تولد مولود من والدين في غير سنهما العادي المألوف لذلك.

وقوله: ﴿إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾ في مقام التعليل لقوله: «رحمة الله وبركاته عليكم اهل البيت» اي إنه تعالى مصدر كل فعل محمود ومنشأ كل كرم وجود يفيض من رحمته وبركاته على كل من يشاء من عباده.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾ الروع الخوف والرعب والمجادلة في الأصل الإلحاح في البحث والمساءلة للغلبة في الرأي، والمعنى انه لما ذهب عن إبراهيم ما اعتراه من الخيفة بتبين ان النازلين به لا يريدون به سوءاً ولا يضمرون له شرّاً. وجاءته البشرى بأن الله سيرزقه وزوجه إسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب اخذ يجادل الملائكة في قوم لوط يريد بذلك ان يصرف عنهم العذاب.

فقوله : ﴿ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴾ لحكاية الحال الماضية او بتقدير فعل ماض قبله وتقديره : اخذ يجادلنا ، الخ ، لأن الأصل في جواب لما ان يكون فعلاً ماضياً .

ويظهر من الآية ان الملائكة اخبروه اولاً : بأنهم مرسلون الى قوم لوط ثم ألقوا اليه البشارة ثم جرى بينهم الكلام في خصوص عذاب قوم لوط فأخذ إبراهيم عليه السلام يجادلهم ليصرف عنهم العذاب فأخبروه بأن القضاء حتم ، والعذاب نازل لا مرد له .

والذي ذكره الله من مجادلته عليه السلام الملائكة هو قوله في موضع آخر : ﴿ **ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا إنا مهلكوا اهل هذه القرية إن اهلها كانوا ظالمين قال إن فيها لوطاً قالوا نحن اعلم بمن فيها لننجّينه واهله إلّا امرأته كانت من الغابرين** ﴾ (العنكبوت / ٣٢) .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ﴾ الحليم هو الذي لا يعاجل العقوبة والانتقام ، والأوّاه كثير التأوه مما يصيبه او يشاهده من السوء ، والمنيب من الإنابة وهو الرجوع والمراد الرجوع في كل أمر الى الله .

والآية مسوقة لتعليل قوله في الآية السابقة : « يجادلنا في قوم لوط » وفيه مدح بالغ لإبراهيم عليه السلام وبيان أنه إنما كان يجادل فيهم لأنه كان حليماً لا يعاجل نزول العذاب على الظالمين رجاء أن يأخذهم التوفيق فيصلحوا ويستقيموا ، وكان كثير التأثر من ضلال الناس وحلول الهلاك بهم مراجعاً الى الله في نجاتهم . لا أنه عليه السلام كان يكره عذاب الظالمين وينتصر لهم بما هم ظالمون وحاشاه عن ذلك .

قوله تعالى : ﴿ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هٰذَا إِنَّهُ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴾ هذا حكاية قول الملائكة لإبراهيم عليه السلام وبذلك قطعوا عليه جداله فانقطع حيث علم أن الإلحاح في صرف العذاب عنهم لن يثمر ثمراً فإن القضاء حتم والعذاب واقع لا محالة . فقولهم : « يا إبراهيم أعرض عن هذا » أي انصرف عن هذا الجدال ولا تطمع في نجاتهم فإنه طمع فيما لا مطمع فيه .

وقولهم: ﴿إِنَّهُ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ أي بلغ أمره مبلغاً لا يدفع بدافع ولا يتبدّل بمبدل ويؤيده قوله في الجملة التالية: «وإنهم آتيهم عذاب غير مردود» فإن ظاهره المستقبل ولو كان الأمر صادراً لم يتخلف القضاء عن المقضي البتة ويؤيده ايضاً قوله في ما سيأتي من آيات قصة قوم لوط: ﴿فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها﴾ الخ؛ آية ٨٢ من السورة.

وقولهم: ﴿وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ اي غير مدفوع عنهم بدافع فلله الحكم لا معقب لحكمه. والجملة بيان لما أُمر به جيء بها تأكيداً للجملة السابقة والمقام مقام التأكيد. ولذلك جيء في الجملة الاولى بضمير الشأن وقد المفيد للتحقيق. وصدرت الجملتان معاً بإن. وأضافوا الأمر الى رب إبراهيم عليه السلام دون امر الله ليعينهم ذلك على انقطاعه عن الجدال[١][٢].

٧٧ ● وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ.

٧٨ ● وَجَآءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ.

٧٩ ● قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ.

٨٠ ● قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ.

---

١. هود ٦٩ ـ ٧٦: بحث روائي في اهلاك قوم لوط.

٢. هود ٦٩ ـ ٧٦: كلام في قصة البشرى (حديث ضيف ابراهيم عليه السلام).

٨١ ● قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ.

٨٢ ● فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَّنْضُودٍ.

٨٣ ● مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ يقال: ساءه الأمر مساءة اي أوقع عليه السوء، وسيىء بالأمر بالبناء للمجهول اي أُوقع عليه من ناحيته وبسببه.

والذرع مقايسة الأطوال مأخوذ من الذراع العضو المعروف لأنهم كانوا يقيسون بها، ويطلق على نفس المقياس ايضاً، ويقال: ضاق بالأمر ذرعاً وهو كناية عن انسداد طريق الحيلة والعجز عن الاهتداء الى مخلص ينجو به الانسان من النائبة كالذي يذرع ما لا ينطبق عليه ذرعه.

والعصيب فعيل بمعنى المفعول من العصب بمعنى الشدّ واليوم العصيب هو اليوم الذي شدّ بالبلاء شداً لا يقبل الانحلال ولا بعض أجزائه ينفكّ عن بعض.

والمعنى جاءت رسلنا لوطاً وهم الملائكة النازلون بإبراهيم عليه السلام ساء مجيئهم لوطاً، وعجز عن الاحتيال لنجاتهم من شر القوم فإنهم دخلوا عليه في صوَر غلمان مرد صبيحي المنظر وكان قومه ذوي حرص شديد على إتيان الفحشاء ما كان من المترقب أن يعرضوا

عنهم ويتركوهم على حالهم. ولذلك لم يملك لوط نفسه دون أن قال «هذا يوم عصيب» اي شديد ملتفّ بعض شره ببعض.

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ قال الراغب: يقال: هرع وأهرع ساقه سوقاً بعنف وتخويف، انتهى. وعن كتاب العين الإهراع السوق الحثيث، انتهى.

وقوله: ﴿وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ اي ومن قبل ذلك كانوا يقترفون المعاصي ويأتون بالمنكرات فكانوا مجترئين على إيقاع الفحشاء معتادين بذلك لا ينصرفون عنه بصارف، ولا يحجبهم عن ذلك استحياء او استشناع، ولا ينزجرون بموعظة او ملامة او مذمة لأن العادة تسهّل كل صعب وتزيّن كل قبيح ووقيح.

والجملة كالمعترضة بين قوله: ﴿وَجَآءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ وقوله: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي﴾ الخ؛ وهي نافعة في مضمون طرفيها أما فيما قبلها فإنها توضح أن الذي كان يهرعهم ويسوقهم الى لوط ﷺ هو أنهم كانوا يعملون السيئات وصوروا بذلك معتادين على إتيان الفحشاء ولعين به فساقهم ذلك الى المجيء اليه وقصد السوء بأضيافه.

وأما فيما بعدها فإنها تفيد أنهم لرسوخ الملكة واستقرار العادة سلبوا سمع القبول وأن يزجرهم زاجر من عظة او نصيحة، ولذلك بدأ لوط في تكليمهم بعرض بناته عليهم ثم قال لهم «اتقوا الله ولا تخزون في ضيفي» الخ.

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ الى آخر الآية؛ لما رآهم تجمّعوا على الشر لا يصرفهم عن ذلك مجرد القول بعظة او إغلاظ في الكلام أراد أن يصرفهم عنه بتبديل ما يريدون من الفحشاء مما لا معصية فيه من الحلال فعرض بناته عليهم ورجّحه لهم بأنهنّ أطهر لهم.

وإنما المراد بصيغة التفضيل ـ أطهر ـ مجرد الاشتمال على الطهارة من غير شوب

بقذارة، والمراد هي طهارة محضاً، وهو استعمال شائع، قال تعالى: ﴿ما عند الله خير من اللهو﴾ (الجمعة / ١١)، وقال: ﴿والصلح خير﴾ (النساء / ١٢٨). وتفيد معنى الأخذ بالمتيقن.

وتقييد قوله: ﴿هَؤُلَاءِ بَنَاتِي﴾ بقوله: ﴿هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ شاهد صدق على أنه إنما عرض لهم مسّهن عن نكاح لا عن سفاح وحاشا مقام نبيّ الله عن ذلك، وذلك لأن السفاح لا طهارة فيه أصلاً وقد قال تعالى: ﴿ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلاً﴾ (الإسراء / ٣٢)، وقال: ﴿ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن﴾ (الأنعام / ١٥١)، وقد تقدم في تفسير هذه الآية أن ما تتضمنه هو من الأحكام العامة المشرّعة في جميع الشرائع الإلهية النازلة على أنبيائه.

وقوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي﴾ بيان للمطلوب، وقوله: «ولا تخزون في ضيفي» عطف تفسيرى لقوله: «فاتقوا الله» فإنه ﷺ إنما كان يطلب منهم أن لا يتعرضوا لضيفه لتقوى الله لا لهوى نفسه وعصبية جاهلية منه، ولم يكن عنده فرق بين ضيفه وغيرهم فيما كان يردعهم، وقد وعظهم بالردع عن هذا الذنب الشنيع وألحّ على ذلك سنين متمادية.

وإنما علق الردع على معنى الضيافة وأضاف الضيف الى نفسه وذكر الخزي الوارد عليه من التعرض لهم كل ذلك رجاء أن يهيج صفة الفتوّة والكرامة فيهم ولذلك عقب ذلك بالاستغاثة والاستنصار بقوله: «أليس منكم رجل رشيد» لعله يجد فيهم ذا رشد إنساني فينتصر له وينجيه وضيوفه من أيدي اولئك الظالمين لكن القوم كانوا كما قال الله تعالى: ﴿لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون﴾ (الحجر / ٧٢) ولم يؤثر ذلك فيهم أثراً ولم ينتهوا عن قوله بل أجابوا بما أيأسوه به من أي إلحاح في ذلك.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا

نُرِيدُ ﴾ هذا جواب القوم عما دعاهم اليه لوط من النكاح المباح أجابوا بنفي أن يكون لهم في بناته من حق وأنه يعلم ذلك ويعلم ما هو بغيتهم في هذا الهجوم وماذا يريدون.

وقد قيل في معنى نفيهم الحق: إن معناه ما لنا في بناته من حاجة وما ليس للانسان فيه حاجة فكأنه لا حق له فيه ففي الكلام نوع استعارة.

وقيل: إن المراد ليس لنا في بناتك من حق لأنا لا نتزوجهن ومن لم يتزوج بامرأة فلا حق له فيها فالمراد بنفي الحق نفي سببه وهو الازدواج.

وقيل: المراد بالحق هو الحظ والنصيب دون الحق الشرعي او العرفي أي لا رغبة لنا فيهن لأنهن نساء ولا ميل لنا اليهن.

والذي يجب الالتفات اليه أنهم لم يقولوا: ما لنا في بناتك من حق بل قالوا «لقد علمت ما لنا في بناتك من حق» فلم يجيبوا عنه بذلك بل بعلمه بذلك وبين القولين فرق فالظاهر أنهم ذكّروه بما كان يعلم من السنّة القومية الجارية بينهم، وهو المنع من التعرض لنساء الناس وخاصة بالقهر والغلبة او ترك إتيان النساء بالمرّة واستباحة التعرض للغلمان وقضاء الوطر منهم، وقد كان لوط يردعهم عن سنّتهم ذلك إذ يقول لهم: ﴿ إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء ﴾ (الأعراف / ٨١) ﴿ أتأتون الذكران من العالمين وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم ﴾ (الشعراء / ١٦٦) ﴿ ءإنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون في ناديكم المنكر ﴾ (العنكبوت / ٢٩)، ولا شك أن السنّة القومية الجارية على فعل شيء يثبت حقاً فيه، والجارية على تركه ينفي الحق.

وبالجملة هم يلفتون نظره ﷺ الى ما يعلم من انتفاء حقهم عن بناته بما هن نساء بحسب السنّة القومية وما يعلم من إرادتهم في الهجوم على داره هذا ولعلّ هذا أحسن الوجوه، وبعده الوجه الثالث.

قوله تعالى: ﴿ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ يقال: أوى

الى كذا يأوي أُوياً ومأوى أي انضم اليه ، وآواه اليه يؤويه إيواء أي ضمه اليه . والركن هو ما يعتمد عليه البناء بعد الأساس .

الظاهر انه لما وعظهم لوط عليه السلام بالأمر بتقوى الله وتهييج فتوّتهم في حفظ موقعه ورعاية حرمته في عدم التعرض لضيفه بما يجلب اليه العار والخزي ، وقد قطع عذرهم بعرض بناته عليهم بالنكاح ثم استغاث بالاستنصار من أُولي الرشد منهم رجاء أن يوجد فيهم رجل رشيد ينصره عليهم ويدفعهم عنه فلم يجبه أحد فيما سأل ولا انماز من بينهم ذو رشد ينصره عليهم ويدفعهم عنه فلم يجبه أحد فيما سأل ولا انماز من بينهم ذو رشد ينصره ويدفع عنه بل أيأسوه بقولهم : « لقد علمت ما لنا في بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد » لم يبق له إلّا أن يظهر ما به من البث والحزن في صورة التمني فتمنى أن يكون له منهم قوة يقوى به على دفع عتاتهم الظالمين ـ وهو الرجل الرشيد الذي كان يسأل عنه في استغاثته ـ او يكون له ركن شديد وعشيرة منيعة ينضم اليهم فيدفعهم بهم .

فقوله : ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً﴾ أي ليت لي قدرة بسببكم بانضمام رجل منكم رشيد إليّ يقوم بنصرتي فأدفعكم به ، وقوله : « او آوي الى ركن شديد » أي او كنت أنضم الى ركن شديد أي عشيرة منيعة يمنعكم مني هذا ما يعطيه ظاهر السياق .

قوله تعالى : ﴿قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾ الى آخر الآية : عدم وصولهم اليه كناية عن عدم قدرتهم على ما يريدون ، والمعنى لما بلغ الأمر هذا المبلغ قالت الملائكة مخاطبين للوط : إنا رسل ربك فأظهروا له أنهم ملائكة وعرفوه أنهم مرسلون من عند الله ، وطيبوا نفسه أن القوم لن يصلوا اليه ولن يقدروا أن يصيبوا منه ما يريدون فكان ما ذكره الله تعالى في موضع آخر من كلامه : ﴿ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم﴾ (القمر / ٣٧) ، فأذهب الله بأبصار الذين تابعوا على الشر وازدحموا على بابه فصاروا عمياناً يتخبطون .

وقوله: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾ الإسراء والسرى بالضم السير بالليل فيكون قوله: «بقطع من الليل» نوع توضيح له. والباء للمصاحبة او بمعنى في. والقطع من الشيء طائفة منه وبعضه. والالتفات افتعال من اللفت. قال الراغب: يقال: لفته عن كذا صرفه عنه. قال تعالى «قالوا أجئتنا لتلفتنا» أي تصرفنا. ومنه التفت فلان اذا عدل عن قبله بوجهه. وامرأة لفوت تلفت من زوجها الى ولدها من غيره. انتهى.

والقول دستور من الملائكة للوط ﷺ إرشاداً له الى النجاة من العذاب النازل بالقوم صبيحة ليلتهم هاتيك. وفيه معنى الاستعجال كما يشعر به قوله بعد: «إن موعدهم الصبح».

والمعنى أنا مرسلون لعذاب القوم وهلاكهم فانج أنت بنفسك وأهلك وسيروا أنت وأهلك بقطع من هذا الليل واخرجوا من ديارهم فإنهم هالكون بعذاب الله صبيحة ليلتهم هذه. ولا كثير وقت بينك وبين الصبح. ولا ينظر احدكم الى وراء.

وقوله: ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ﴾ ظاهر السياق أنه استثناء من قوله: «أهلك» لا من قوله: «احد» وفي قوله: «إنه مصيبها ما أصابهم» بيان السبب لاستثنائها. وقال تعالى في غير هذا الموضع: ﴿إلّا امرأته قدرنا إنها لمن الغابرين﴾ (الحجر / ٦٠).

وقوله: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ اي موعد هلاكهم الصبح وهو صدر النهار بعد طلوع الفجر حين الشروق. كما قال تعالى في موضع آخر ﴿فأخذتهم الصيحة مشرقين﴾ (الحجر / ٧٣).

والجملة الاولى تعليل لقوله: «فأسر بأهلك بقطع من الليل» وفيه نوع استعجال كما تقدّم. ويؤكده قوله: «أليس الصبح بقريب» ومن الجائز أن يكون لوط ﷺ يستعجلهم في عذاب القوم فيجيبوه بقولهم: «إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب» أي إن من المقدّر أن يهلكوا بالصبح وليس موعداً بعيداً او يكون الجملة الاولى استعجالاً من الملائكة.

والثانية تسلية منهم للوط في استعجاله .

ولم يذكر في الآيات ما هي الغاية لسراهم والمحل الذي يتوجهون اليه ، وقد قال تعالى في موضع آخر من كلامه : ﴿ فأسر بأهلك بقطع من الليل واتّبع أدبارهم ولا يلتفت منكم أحد وامضوا حيث تؤمرون ﴾ (الحجر / ٦٥) ، وظاهره أن الملائكة لم يذكروا له المقصد وأحالوا ذلك الى ما سيأتيه من الدلالة بالوحي الإلهي .

قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ ﴾ ضمائر التأنيث الثلاث راجعة الى أرض القوم او القرية او بلادهم المعلومة من السياق ، والسجّيل على ما في المجمع بمعنى السجّين وهو النار ، وقال الراغب : السجّين حجر وطين مختلط ، وأصله فيما قيل فارسي معرَّب . انتهى . يشير الى ما قيل إن أصله سنكك كِل ، وقيل : إنه مأخوذ من السجلّ بمعنى الكتاب كأنها كتب فيها ما فيها من عمل الإهلاك ، وقيل : مأخوذ من أسجلت بمعنى أرسلت .

والظاهر أن الأصل في جميع هذه المعاني هو التركيب الفارسي المعرّب المفيد معنى الحجر والطين ، والسجل بمعنى الكتاب ايضاً منه فإنهم على ما قيل كانوا يكتبون على الحجر المعمول ثم توسّع فسمّي كل كتاب سجلاً وإن كان من قرطاس ، والإسجال بمعنى الإرسال مأخوذ من ذلك .

والنضد هو النظم والترتيب ، والتسويم جعل الشيء ذا علامة من السيماء بمعنى العلامة .

والمعنى : ولما جاء أمرنا بالعذاب وهو أمره تعالى الملائكة بعذابهم وهو كلمة «كن» التي أشار اليها في قوله : ﴿ إنما أمره اذا أراد شيئاً أن يقول له ـ كن ﴾ (يس / ٨٣) ، جعلنا عالي أرضهم وبلادهم سافلها بتقليبها عليهم وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود معلّمة عند ربك وفي علمه ليس لها أن تخطىء هدفها الذي رميت لأجل إصابته .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ قيل المراد بالظالمين ظالموا أهل

مكة او المشركون من قوم النبي ﷺ والكلام مسوق للتهديد، والمعنى وليست هذة الحجارة من ظالمي مكة ببعيد او المعنى: ليست هذه القرى المخسوفة من ظالمي قومك ببعيد فإنه في طريقهم بين مكة والشام، كما قال تعالى في موضع آخر: ﴿وإنها لبسبيل مقيم﴾ (الحجر / ٧٦)، وقال: ﴿وإنكم لتمرّون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون﴾ (الصافات / ١٣٨).

ويؤيد العدول من سياق التكلم الى الغيبة في قوله: «مسوّمة عند ربك» فكأنه تعالى عدل عن مثل قولنا: مسوّمة عندنا، الى هذا التعبير ليتعرض لقومه ﷺ بالتهديد أو بإنهاء الحديث الى حسّهم ليكون أقوى تأثيراً في الحجاج عليهم.

وربما احتمل أن المراد تهديد مطلق الظالمين والمراد انه ليست الحجارة اي إمطارها من عند الله تعالى من معشر الظالمين ومنهم قوم لوط الظالمون ببعيد، ويكون وجه الالتفات في قوله: «عند ربك» ايضاً التعريض لقوم النبي الظالمين المشركين[١][٢].

٨٤ ۞ وَإِلىٰ مَدْيَنَ أَخاهُمْ شُعَيْباً قالَ يا قَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ وَلاٰ تَنْقُصُوا ٱلْمِكْيالَ وَٱلْمِيزانَ إِنِّي أَرٰيكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ.

٨٥ ۞ وَيا قَوْمِ أَوْفُوا ٱلْمِكْيالَ وَٱلْمِيزانَ بِالْقِسْطِ وَلاٰ تَبْخَسُوا النّاسَ أَشْياءَهُمْ وَلاٰ تَعْثَوْا فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ.

---

١. بحث روائي حول قصة لوط ﷺ وقومه.

٢. هود ٧٧ ـ ٨٣: كلام في قصة لوط وقومه في فصول (قصته وقصة قومه في القرآن، عاقبة امرهم. شخصية لوط المعنوية. لوط وقومه في التوراة).

٨٦ ● بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ.
٨٧ ● قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ
نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ ٱلْحَلِيمُ الرَّشِيدُ.
٨٨ ● قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ
رِزْقاً حَسَناً وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَيكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ
إِلَّا ٱلْإِصْلَاحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ
وَإِلَيْهِ أُنِيبُ.
٨٩ ● وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ
نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ.
٩٠ ● وَٱسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ.
٩١ ● قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيراً مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَيْكَ فِينَا
ضَعِيفاً وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ.
٩٢ ● قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ
ظِهْرِيّاً إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ.
٩٣ ● وَيَا قَوْمِ ٱعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ
يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَٱرْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ
رَقِيبٌ.
٩٤ ● وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْباً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا
وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ

جاثِمِينَ.

٩٥ ● كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهٰا أَلاٰ بُعْداً لِمَدْيَنَ كَمٰا بَعِدَتْ ثَمُودُ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَإِلىٰ مَدْيَنَ أَخٰاهُمْ شُعَيْباً﴾ الى آخر الآية؛ عطف على ما تقدمه من قصص الأنبياء وأُممهم، ومدين اسم مدينة كان يسكنها قوم شعيب ففي نسبة إرسال شعيب الى مدين وكان مرسلاً الى أهله نوع من المجاز في الإسناد كقولنا: جرى الميزاب. وفي عدّ شعيب عليه السلام أخاً لهم دلالة على أنه كان ينتسب اليهم.

وقوله: ﴿قالَ يا قَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللّٰهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ﴾ تقدم تفسيره في نظائره.

وقوله: «ولا تنقصوا المكيال والميزان» المكيال والميزان اسما آلة بمعنى ما يكال به وما يوزن به، ولا يوصفان بالنقص وإنما يوصف بالنقص كالزيادة والمساواة المكيل والموزون فنسبة النقص الى المكيال والميزان من المجاز العقلي.

وفي تخصيص نقص المكيال والميزان من بين معاصيهم بالذكر دلالة على شيوعه بينهم وإقبالهم عليه وإفراطهم فيه بحيث ظهر فساده وبان سيء أثره فأوجب ذلك شدة اهتمام به من داعي الحق فدعاهم الى تركه بتخصيصه بالذكر من بين المعاصي.

وقوله: ﴿إِنِّي أَرٰيكُمْ بِخَيْرٍ﴾ أي أُشاهدكم في خير، وهو ما أنعم الله تعالى عليكم من المال وسعة الرزق والرخص والخصب فلا حاجة لكم الى نقص المكيال والميزان، واختلاس اليسير من اشياء الناس طمعاً في ذلك من غير سبيله المشروع وظلماً وعتوّاً. وعلى هذا فقوله: ﴿إِنِّي أَرٰيكُمْ بِخَيْرٍ﴾ تعليل لقوله: ﴿وَلاٰ تَنْقُصُوا ٱلْمِكْيٰالَ وَٱلْمِيزٰانَ﴾.

ويمكن تعميم الخير بأن يراد به أنكم مشمولون لعناية الله معنيون بنعمه آتاكم عقلاً ورشداً ورزقكم رزقاً فلا مسوّغ لأن تعبدوا الآلهة من دونه وتشركوا به غيره، وأن تفسدوا في الأرض بنقص المكيال والميزان، وعلى هذا يكون تعليلاً لما تقدمه من الجملتين أعني قوله: «اعبدوا الله» الخ؛ وقوله: «ولا تنقصوا» الخ؛ كما أن قوله: «وإني اخاف عليكم عذاب يوم محيط» كذلك.

فمحصل قوله: ﴿إِنِّي أَرَيكُمْ﴾ الى آخر الآية أن هناك رادعين يجب أن يردعاكم عن معصية الله: أحدهما: أنكم في خير ولا حاجة لكم الى بخس أموال الناس من غير سبيل حلها. وثانيهما: ان وراء مخالفة امر الله يوماً محيطاً يخاف عذابه.

وليس من البعيد أن يراد بقوله: «إني أراكم بخير» أني أراكم برؤية خير أي أنظر اليكم نظر الناصح المشفق الذي لا يصاحب نظره إلّا الخير ولا يريد بكم غير السعادة، وعلى هذا يكون قوله: «وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط» كعطف التفسير بالنسبة اليه.

وقوله: ﴿وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ﴾ يشير به الى يوم القيامة او يوم نزول عذاب الاستئصال ومعنى كون اليوم ـ هو يوم القضاء بالعذاب ـ محيطاً أنه لا مخرج منه ولا مفر ولا ملاذ من دون الله فلا يدفع فيه ناصر ولا معين، ولا ينفع فيه توبة ولا شفاعة. ويؤل معنى الإحاطة الى كون العذاب قطعياً لا مناص منه، ومعنى الآية أن للكفر والفسوق عذاباً غير مردود أخاف أن يصيبكم ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ الخ؛ الإيفاء إعطاء الحق بتمامه والبخس النقص كرر القول في المكيال والميزان بالأخذ بالتفصيل بعد الإجمال مبالغة في الاهتمام أمر لا غنى لمجتمعهم عنه، وذلك أنه دعاهم اولاً الى الصلاح بالنهي عن نقص المكيال والميزان، وعاد ثانياً فأمر بايفاء المكيال والميزان ونهى عن بخس الناس اشياءهم إشارة الى أن مجرد التحرز عن نقص

المكيال والميزان لا يكفي في إعطاء هذا الأمر حقه ـ وإنما نهى عـنه اولاً لتكـون مـعرفة إجمالية هي كالمقدمة لمعرفة التكليف تفصيلاً ـ بل يجب أن يوفي الكائل والوازن مكياله وميزانه ويعطياهما حقهما ولا يبخسا ولا ينقصا الأشياء المنسـوبة الى الناس بالمعاملة حتى يعلما انهما اديا الى الناس اشياءهم وردا اليهم ما لهم على ما هو عليه .

وقوله : ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ قال الراغب : العيث والعثي يتقاربان نحو جذب وجبذ إلّا ان العيث اكثر ما يقال في الفسـاد الذي يدرك حساً والعثي فيما يدرك حكماً يقال : عثي يعثى عثياً ، وعلى هذا « ولا تعثوا في الارض مفسدين » وعثا يعثو عثواً . انتهى .

وعلى هذا فقوله : ﴿مُفْسِدِينَ﴾ حال من ضمير « لا تعثوا » لإفادة التأكيد نظير ما يفيده قولنا : لا تفسـدوا إفساداً .

والجملة اعني قـوله : ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ نـهي مسـتأنف عـن الفساد في الارض من قتل او جرح او أي ظلم مالي او جاهي او عرضي لكـن لا يـبعد ان يستفاد من السياق كون الجملة عطفاً تفسيرياً للنهي السابق فيكون نهياً تأكيدياً عن التطفيف ونقص المكيال والميزان لأنه من الفساد في الأرض .

قوله تعالى : ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُـمْ إِنْ كُـنْتُمْ مُـؤْمِنِينَ وَمَـا أَنَـا عَـلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ البقية بمعنى الباقي والمراد به الربح الحاصل للبائع وهو الذي يبقى له بعد تمام المعاملة فيضعه في سبيل حوائجه . وذلك ان المبادلة وإن لم يـوضع بـالقصد الأول عـلى أساس الاسترباح ، وإنما كان الواحد منهم يقتني شيئاً من متاع الحياة . فإذا كان يزيد على ما يحتاج اليه بدّل الزائد المستغنى عنه من متاع آخر يحتاج اليه ولا يملكه ثم اخذت نـفس التجارة وتبديل الأمتعة من الأثمان حرفة يكتسب بها المال ويقتنى بها الثروة فأخذ الواحد منهم متاعاً من نوع واحد او انواع شتى وعرضه على أرباب الحاجة للمبادلة ، وأضاف الى

رأس ماله فيه شيئاً من الربح بإزاء عمله في الجمع والعرض ورضي بذلك الناس المشترون لما فيه من تسهيل امر المبادلة عليهم فللتاجر في تجارته ربح مشروع يرتضيه المجتمع بحسب فطرتهم يقوّم معيشته ويحوّل اليه ثروة يقتنيها ويقيم بها صلب حياته.

فالمراد أن الربح الذي هو بقية إلهية هداكم الله اليه من طريق فطرتكم هو خير لكم من المال الذي تقتنونه من طريق التطفيف ونقص المكيال والميزان وإن كنتم مؤمنين فإن المؤمن إنما ينتفع من المال بالمشروع الذي ساقه الله اليه من طريق حله. وأما غير ذلك مما لا يرتضيه الله ولا يرتضيه الناس بحسب فطرتهم فلا خير له فيه ولا حاجة له اليه.

وقوله: ﴿وَمٰا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ اي وما يرجع الى قدرتي شيء مما عندكم من نفس او عمل او طاعة او رزق ونعمة فإنما انا رسول ليس عليه إلّا البلاغ. لكم ان تختاروا ما فيه رشدكم وخيركم او تسقطوا في مهبط الهلكة من غير ان اقدر على جلب خير اليكم او دفع شر منكم فهو كقوله تعالى: ﴿فمن أبصر فلنفسه ومن عمي فعليها وما انا عليكم بحفيظ﴾ (الأنعام / ١٠٤).

قوله تعالى: ﴿قٰالُوا يٰا شُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مٰا يَعْبُدُ آبٰاؤُنٰا﴾ الى آخر الآية: ردّ منهم لحجة شعيب عليه. وهو من ألطف التركيب. ومغزى مرادهم أنّا في حرية فيما نختاره لأنفسنا من دين او نتصرف به في اموالنا من وجوه التصرف ولست تملكنا حتى تأمرنا بكل ما أحببت او تنهانا عن كل ما كرهت فإن ساءك شيء مما تشاهد منا بما تصلّي وتتقرب الى ربك وأردت ان تأمر وتنهى فلا تتعدّ نفسك لأنك لا تملك إلّا إياها.

وقد أدّوا مرادهم هذا في صورة بديعة مشوبة بالتهكم واللوم معاً ومسبوكة في قالب الاستفهام الإنكاري وهو ان الذي تريده منا من ترك عبادة الأصنام. وترك ما شئنا من التصرف في اموالنا هو الذي بعثتك اليه صلاتك وشوهته في عينك فأمرتك به لما انها ملكتك لكنك اردت منا ما ارادته منك صلاتك ولست تملكنا انت ولا صلاتك لأننا احرار في

شعورنا وإرادتنا لنا ان نختار اي دين شئنا ونتصرف في اموالنا اي تصرف اردنا من غير حجر ولا منع ولم ننتحل إلّا ديننا الذي هو دين آبائنا ولم نتصرف إلّا في اموالنا ولا حجر على ذي مال في ماله.

فما معنى ان تأمرك إياك صلاتك بشيء ونكون نحن الممتثلون لما امرتك به؟ وبعبارة أُخرى ما معنى ان تأمرك صلاتك بفعلنا القائم بنا دونك؟ فهل هذا إلّا سفها من الرأي؟ وإنك لأنت الحليم الرشيد والحليم لا يعجل في زجر من يراه مسيئاً وانتقام من يراه مجرماً حتى ينجلي له وجه الصواب، والرشيد لا يقدم على امر فيه غيّ وضلال فكيف اقدمت على مثل هذا الأمر السفهي الذي لا صورة له إلّا الجهالة والغي؟

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقاً حَسَناً﴾ الى آخر الآية: المراد بكونه على بيّنة من ربه كونه على آية بيّنة وهي آية النبوّة والمعجزة الدالة على صدق النبيّ في دعوى النبوّة، والمراد بكونه رزق من الله رزقاً حسناً أن الله آتاه من لدنه وحي النبوة المشتمل على أُصول المعارف والشرائع، وقد مرَّ توضيح نظير هاتين الكلمتين فيما تقدَّم.

والمعنى: أخبروني إن كنت رسولاً من الله اليكم وخصّني بوحي المعارف والشرائع وأيَّدني بآية بيّنة يدلّ على صدق دعواي فهل أنا سفيه في رأيي؟ وهل ما أدعوكم اليه دعوة سفهية؟ وهل في ذلك تحكُّم مني عليكم او سلب مني لحريتكم؟ فإنما هو الله المالك لكل شيء ولستم أحرار بالنسبة اليه بل انتم عباده يأمركم بما شاء، وله الحكم واليه ترجعون.

وقوله: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾ تعدية المخالفة بالى لتضمينه معنى ما يتعدى بها كالميل ونحوه؟ والتقدير: أُخالفكم مائلاً الى ما أنهاكم عنه او أميل الى ما أنهاكم عنه مخالفاً لكم.

والجملة جواب عن ما اتّهموه به أنه يريد أن يسلب عنهم الحرية في أعمالهم

ويستعبدهم ويتحكم عليهم ، ومحصّله أنه لو كان مريداً ذلك لخالفهم فيما ينهاهم عنه ، وهو لا يريد مخالفتهم فلا يريد ما اتّهموه به وإنما يريد الإصلاح ما استطاع[١].

وقوله : ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ في مقام الاستثناء من الاستطاعة فإنه ﷺ لما ذكر لهم انه يريد إصلاح مجتمعهم بالعلم النافع والعمل الصالح على مقدار ماله من الاستطاعة وفي ضوئها أثبت لنفسه استطاعة وقدرة وليست للعبد باستقلاله وحيال نفسه استطاعة دون الله سبحانه أتم ما في كلامه من النقص والقصور بقوله : « وما توفيقي إلّا بالله » أي إن الذي يترشح من إرادتي باستطاعة مني من تدبير أُمور مجتمعكم وتوفيق الأسباب بعضها ببعض الناتجة لسعادته إنما هو بالله سبحانه لا غنى عنه ولا مخرج من إحاطته ولا استقلال في امر دونه فهو الذي اعطاني ما هو عندي من الاستطاعة ، وهو الذي يوفق الأسباب من طريق استطاعتي فاستطاعتي منه وتوفيقي به[٢][٣].

قوله تعالى : ﴿وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ﴾ الجرم بالفتح فالسكون ـ على ما ذكره الراغب ـ قطع الثمرة عن الشجر وقد استعير لكل اكتساب مكروه ، والشقاق المخالفة والمعاداة . والمعنى : احذروا أن يكتسب لكم مخالفتي ومعاداتي بسبب ما أدعوكم اليه إصابة مصيبة مثل مصيبة قوم نوح وهي الغرق او قوم هود وهي الريح العقيم او قوم صالح وهي الصيحة والرجفة .

وقوله : ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾ اي لا فصل كثيراً بين زمانهم وزمانكم وقد كانت الفاصلة الزمانية بين القومين أقل من ثلاثة قرون ، وقد كان لوط معاصراً لإبراهيم عليه السلام

---

١. هود ٧٤ ـ ٩٥ : كلام في حكمة احكام الله .

٢. هود ٨٤ ـ ٩٥ : كلام في انه تعالى وكيل كل شيء .

٣. هود ٨٤ ـ ٩٥ : كلام في معنى حرية الانسان في عمله .

وشعيب معاصراً لموسى عليه السلام.

وقيل: المراد به نفي البعد المكانيّ، والإشارة الى أن بلادهم الخربة قريبة منكم لقرب مدين من سدوم وهو بالأرض المقدسة، فالمعنى: وما كان قوم لوط منكم ببعيد تشاهدون مدائنهم المخسوفة وآثارهم الباقية الظاهرة. والسياق لا يساعد عليه والتقدير خلاف الأصل لا يصار اليه إلّا بدليل.

قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ قد تقدم الكلام في معنى قوله: «واستغفر ربكم ثم توبوا اليه» اي استغفروا الله من ذنوبكم وارجعوا اليه الايمان به وبرسوله إن الله ذو رحمة ومودّة يرحم المستغفرين التائبين ويحبّهم.

وقد قال أولاً «استغفروا ربكم» فأضاب الرب اليهم ثم قال في مقام تعليله «إن ربي رحيم ودود» ولعل الوجه فيه أنه ذكر في مرحلة الأمر بالاستغفار والتوبة من الله سبحانه صفة ربوبيته لأنها الصفة التي ترتبط بها العبادة ومنها الاستغفار والتوبة، وأضاف ربوبيته اليهم بقوله: «ربكم» لتأكيد الارتباط وللإشعار بأنه هو ربهم لا ما يتخذونها من الارباب من دون الله.

وكان من حق الكلام ان يقول في تعليله: إن ربكم رحيم ودود لكنه لما كان مع كونه تعليلاً ثناء على الله سبحانه، وقد أثبت سابقاً انه رب القوم أضافه ثانياً الى نفسه ليفيد الكلام بمجموعه معنى إن ربكم وربي رحيم ودود.

على ان في هذه الإضافة معنى المعرفة والخبرة فتفيد تأييداً لصحة القول فإنه في معنى انه تعالى رحيم ودود وكيف لا؟ وهو ربي أعرفه بهذين الوصفين.

والودود من أسماء الله تعالى، وهو فعول من الودّ بمعنى الحب إلّا ان المستفاد من موارد استعماله انه نوع خاص من المحبة وهو الحب الذي له آثار وتبعات ظاهرة كالإلفة والمراودة والإحسان، قال تعالى: ﴿ومن آياته ان خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا

إليها وجعل بينكم مودة ورحمة﴾ (الروم / ٢١).

والله سبحانه يحب عباده ويظهر آثار حبه بإفاضة نعمه عليهم: ﴿وإن تعدّوا نعمة الله لا تحصوها﴾ (إبراهيم / ٣٤) فهو تعالى ودود لهم.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيراً مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَيكَ فِينَا ضَعِيفاً﴾ الى آخر الآية: الفقه أبلغ من الفهم وأقوى، ورهط الرجل عشيرته وقومه، وقيل: إنه من الثلاثة الى السبعة او العشرة وعلى هذا ففي قولهم: رهطك، إشارة الى قلتهم وهو ان امرهم، والرجم هو الرمي بالحجارة.

لما حاجّهم شعيب ﷺ وأعياهم بحجته لم يجدوا سبيلاً دون ان يقطعوا عليه كلامه من غير طريق الحجة فذكروا له:

أولاً: ان كثيراً مما يقوله غير مفهوم لهم فيذهب كلامه لغى لا أثر له، وهذا كناية عن أنه يتكلم بما لا فائدة فيه.

ثم عقوبه بقولهم: «وإنا لنراك فينا ضعيفاً» أي لا نفهم ما تقول ولست قوياً فينا حتى تضطرنا قوتك على الاجتهاد في فهم كلامك والاهتمام بأخذه، والسمع والقبول له فإنا لا نراك فينا إلّا ضعيفاً لا يعبأ بأمره ولا يلتفت الى قوله.

ثم هدّدوه بقولهم: «ولولا رهطك لرجمناك» اي ولولا هذا النفر القليل الذين هم عشيرتك لرجمناك لكنا نراعي جانبهم فيك، وفي تقليل العشيرة إيماء الى أنهم لو أرادوا قتله يوماً قتلوه من غير ان يبالوا بعشيرته، وإنما كفّهم عن قتله نوع احترام وتكريم منهم لعشيرته.

ثم عقبوه بقولهم: «وما أنت علينا بعزيز» تأكيداً لقولهم: «لولا رهطك لرجمناك» أي لست بقوي منيع جانباً علينا حتى يمنعنا ذلك من قتلك بشرّ القتل، وإنما يمنعنا رعاية جانب رهطك. فمحصل قولهم إهانة شعيب وأنهم لا يعبؤن به ولا بما قال، وإنما يراعون في ترك

التعرض له جانب رهطه .

قوله تعالى : ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيّاً ﴾ الظهري نسبة الى الظهر بفتح الظاء المعجمة وإنما غيّر بالنسب وهو الشيء الذي وراء الظهر فيترك نسياً منسيّاً يقال : اتخذه وراء ظهريّاً اي نسيه ولم ذكره ولم يعتن به .

وهذا نقض من شعيب لقولهم : ﴿ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ ﴾ اي كيف تعزّزون رهطي وتحترمون جانبهم ، ولا تعززون الله سبحانه ولا تحترمون جانبه وإني انا الذي أدعوكم اليه من جانبه ؟ فهل رهطي أعزّ عليكم من الله ؟ وقد جعلتموه نسياً منسياً وليس لكم ذلك وما كان لكم ان تفعلوه إن ربي بما تعملون محيط بما له من الإحاطة بكل شيء وجوداً وعلماً وقدرة . وفي الآية طعن في رأيهم بالسفه كما طعنوا في الآية السابقة في رأيه بالهوان .

قوله تعالى : ﴿ وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ ﴾ الى آخر الآية ؛ قال في المجمع : المكانة الحال التي يتمكن بها صاحبها من عمل . انتهى وهو في الأصل . كما قيل ـ من مكن مكانة كضخم ضخامة إذا قوي على العمل كل القوة ويقال ـ تمكن من كذا أي أحاط به قوة .

وهذا تهديد من شعيب لهم أشد التهديد فإنه يشعر بانه على وثوق مما يقول لا يأخذه قلق ولا اضطراب من كفرهم به وتمردهم عن دعوته فليعملوا على مالهم من القوة والتمكن فلهم عملهم وله عمله فسوق يفاجئهم عذاب مخز يعلمون عند ذلك من هو الذي يأخذه العذاب . وهو أو هو ؟ ويعلمون من هو كاذب ؟ فليرتقبوا وهو معهم رقيب لا يفارقهم .

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْباً ـ الى قوله ـ جَاثِمِينَ ﴾ تقدم ما يتضح به معنى الآية .

قوله تعالى : ﴿ كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْداً لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴾ غني في المكان إذا أقام فيه . وقوله : « ألا بعداً لمدين » الخ ؛ فيه لعنهم كما لعنت ثمود ، وقد تقدم بعض

الكلام فيه في القصص السابقة[1].

٩٦ ❁ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ.
٩٧ ❁ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ.
٩٨ ❁ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ.
٩٩ ❁ وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ الباء في قوله: «بآياتنا» للمصاحبة اي ولقد ارسلنا موسى مصحوباً لآياتنا وذلك أن الذين بعثهم الله من الأنبياء والرسل وأيدهم بالآيات المعجزة طائفتان منهم من أُوتي الآية المعجزة على حسب ما اقترحه قومه كصالح عليه السلام المؤيد بآية الناقة، وطائفة أُيدوا بآية من الآيات في بدء بعثتهم كموسى وعيسى ومحمّد عليهم السلام، كما قال تعالى خطاباً لموسى عليه السلام: ﴿اذهب أنت وأخوك بآياتي﴾ (طه / ٤٢)، وقال في عيسى عليه السلام: ﴿ورسولاً الى بني اسرائيل أني قد جئتكم بآية من ربكم﴾ الخ؛ (آل عمران / ٤٩)، وقال في محمّد صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى﴾ (الصف / ٩)، والهدى القرآن بدليل قوله: ﴿ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى

---

١. هود ٨٤ ـ ٩٥: كلام في قصة شعيب وقومه في القرآن في فصول (هو عليه السلام ثالث المرسل، شخصيته المعنوية، ذكره في التوراة).

للمتقين﴾ (البقرة / ٢)، وقال تعالى: ﴿واتّبعوا النور الذي أُنزل معه﴾ (الأعراف / ١٥٧).

فموسى ﷺ مرسل مع آيات وسلطان مبين، وظاهر أن المراد بهذه الآيات الامور الخارقة التي كانت تجري على يده، ويدل على ذلك سياق قصصه ﷺ في القرآن الكريم.

وأما السلطان وهو البرهان والحجة القاطعة التي يتسلط على العقول والافهام فيعمّ الآية المعجزة والحجة العقلية، وعلى تقدير كونه بهذا المعنى يكون عطفه على الآيات من قبيل عطف العامّ على الخاصّ.

وليس من البعيد أن يكون المراد بإرساله بسلطان مبين أن الله سبحانه سلطه على الأوضاع الجارية بينه وبين آل فرعون ذاك الجبار الطاغي الذي ما ابتلي بمثله أحد من الرسل غير موسى ﷺ لكنّ الله تعالى أظهر موسى عليه حتى أغرقه وجنوده ونجى بني اسرائيل بيده، ويشعر بهذا المعنى قوله: ﴿قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا او أن يطغى قال لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى﴾ (طه / ٤٦)، وقوله لموسى ﷺ: ﴿لا تخف إنك أنت الأعلى﴾ (طه / ٦٨).

وفي هذه الآية ونظائرها دلالة واضحة على أن رسالة موسى ﷺ ما كانت تختصّ بقومه من بني اسرائيل بل كانت تعمّهم وغيرهم.

قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ نسبة رسالته الى فرعون وملاه ـ والملأ هم أشراف القوم وعظماؤهم الذين يملؤن القلوب هيبة ـ دون جميع قومه لعلها للإشارة الى أن عامتهم لم يكونوا إلّا أتباعاً لا رأي لهم إلّا ما رآه لهم عظماؤهم.

وقوله: ﴿فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ﴾ الخ: الظاهر أن المراد بالأمر ما هو الأعمّ من القول والفعل كما حكى الله عن فرعون في قوله: ﴿قال فرعون ما أُريكم إلّا ما أرى وما أهديكم إلّا سبيل الرشاد﴾ (المؤمن / ٢٩)، فينطبق على السنّة والطريقة التي كان يتخذها ويأمر

بها. وكأن الآية محاذاة لقول فرعون هذا فكذّبه الله تعالى بقوله: «وما أمر فرعون برشيد».

والرشيد فعيل من الرشد خلاف الغيّ اي وما أمر فرعون بذي رشد حتى يهدي الى الحق بل كان ذا غيّ وجهالة. وقيل: الرشيد بمعنى المرشد.

وفي الجملة أعني قوله: «وما أمر فرعون برشيد» وضع الظاهر موضع المضمر والأصل «أمره» ولعل الفائدة فيه ما يفيده اسم فرعون من الدليل على عدم رشد الأمر ولا يستفاد ذلك من الضمير البتة.

قوله تعالى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾ أي يقدم فرعون قومه فإنهم اتبعوا أمره فكان إماماً لهم من أئمة الضلال، قال تعالى: ﴿وجعلناهم أئمة يدعون الى النار﴾ (القصص / ٤١).

قوله: ﴿فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾ تفريع على سابقه أي يقدمهم فيودرهم النار، والتعبير بلفظ الماضي لتحقق الوقوع، وربما قيل: تفريع على قوله: «فاتبعوا أمر فرعون» أي اتبعوه فأوردهم الاتباع النار، وقد استدل لتأييد هذا المعنى بقوله: ﴿وحاق بآل فرعون سوء العذاب النار يعرضون عليها غدوّاً وعشيّاً ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب﴾ (المؤمن / ٤٦) حيث تدل الآيات على تعذيبهم من حين الموت قبل يوم القيامة هذا، ولا يخفى ان الآيات ظاهرة في خلاف ما استدل بها عليه لتعبيرها في العذاب قبل يوم القيامة بالعرض غدوّاً وعشيّاً، وفي يوم القيامة بالدخول في أشد العذاب الذي سجل فيها أنه النار.

وقوله: ﴿وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾ الورد هو الماء الذي يرده العطاش من الحيوان والإنسان للشرب، قال الراغب في المفردات: الورود أصله قصد الماء ثم يستعمل في غيره يقال: وردت الماء أرد وروداً فأنا وارد والماء مورود. وقد أوردت الإبل الماء قال «ولما ورد ماء مدين» والورد الماء المرشح للورود. انتهى.

وعلى هذا ففي الكلام استعارة لطيفة بتشبيه الغاية التي يقصدها الإنسان في الحياة لمساعيه المبذولة بالماء الذي يقصده العطشان فعذب السعادة التي يقصدها الإنسان بأعماله ورد يرده، وسعادة الإنسان الأخيرة هي رضوان الله والجنة ولكنهم لما غووا باتباع أمر فرعون وأخطأوا سبيل السعادة الحقيقة تبدلت غايتهم الى النار فكانت النار هو الورد الذي يردونه، وبئس الورد المورود، لأن الورد هو الذي يخمد لهيب الصدر ويروي الحشا العطشان وهو عذب الماء ونعم المنهل السائغ وأما إذا تبدل الى عذاب النار فبئس الورد المورود.

قوله تعالى: ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ﴾ أي هم اتبعوا أمر فرعون فاتبعتهم لعنة من الله في هذه الدنيا وإبعاد من رحمته وطرد من ساحة قربه، ومصداق اللعن الذي أُتبعوه هو الغرق، أو أنه الحكم منه تعالى بإبعادهم من الرحمة المكتوب في صحائف أعمالهم الذي من آثاره الغرق وعذاب الآخرة.

وقوله: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ﴾ الرفد هو العطية والأصل في معناه العون، وسميت العطية رفداً ومرفوداً لأنه عون للآخذ على حوائجه، والمعنى وبئس الرفد رفدهم يوم القيامة وهو النار التي يسجرون فيها، والآية نظيرة قوله في موضع آخر: ﴿وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين﴾ (القصص / ٤٢).

وربما أُخذ «يوم القيامة» ظرفاً فالآية متعلقاً بقوله: «أُتبعوا» أو بقوله: «لعنة» نظير قوله: «في هذه»، والمعنى: وأتبعهم الله في الدنيا والآخرة لعنه أو فأتبعهم الله لعنة الدنيا والآخرة ثم استؤنف فقيل: بئس الرفد المرفود اللعن الذي أُتبعوه أو الإتباع باللعن.

١٠٠ ● ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ.

١٠١ ● وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ

الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا
زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ.

١٠٢ ● وَكَذٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ
شَدِيدٌ.

١٠٣ ● إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَٰلِكَ يَوْمٌ
مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذٰلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ.

١٠٤ ● وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ.

١٠٥ ● يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ.

١٠٦ ● فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ.

١٠٧ ● خَالِدِينَ فِيهَا ما دامَتِ السَّمٰواتُ وَالأَرْضُ إِلَّا ما شاءَ رَبُّكَ
إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ.

١٠٨ ● وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ
السَّمٰواتُ وَالأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿ذٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ الإشارة الى ما تقدم من القصص، ومن تبعيضيّة أي الذي قصصناه عليك هو بعض أخبار المدائن والبلاد أو أهلهم نقصه عليك.

وقوله: ﴿مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ الحصد قطع الزرع، شبّهها بالزرع يكون قائماً ويكون حصيداً. والمعنى إن كان المراد بالقرى نفسها أنّ من القرى التي قصصنا أنباءها عليك ما هو

قائم لم تذهب بقايا آثارها التي تدلّ عليها بالمرّة كقرى قوم لوط حين نزول قصّتهم في القرآن كما قال: ﴿ولقد تركنا منها آية بيّنة لقوم يعقلون﴾ (العنكبوت / ٣٥) وقال: ﴿وإنّكم لتمرّون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون﴾ (الصافات / ١٣٨)، ومنها ما انمحت آثاره وانطمست أعلامه كقرى قوم نوح وعاد.

وإن كان المراد بالقرى أهلها فالمعنى أنَّ من تلك الامم والأجيال من هو قائم لم يقطع دابرهم البتّة كأمّة نوح وصالح. ومنها من قطع الله دابرهم كقوم لوط لم ينج منهم إلاّ أهل بيت لوط ولم يكن لوط منهم.

قوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ الى آخر الآية: أي ما ظلمناهم في إنزال العذاب عليهم وإهلاكهم إثر شركهم وفسوقهم ولكن ظلموا أنفسهم حين أشركوا وخرجوا عن زيّ العبوديّة، وكلما كان عمل وعقوبة عليه كان أحدهما ظلماً إمّا العمل وإما العقوبة عليه فإذا لم تكن العقوبة ظلماً كان الظلم هو العمل استتبع العقوبة.

فمحصّل القول أنّا عاقبناهم ظلمهم ولذا عقبه بقوله: «فما أغنت عنهم آلهتهم» الخ: لأن محصّل النظم أخذناهم فما أغنت عنهم آلهتهم. فالمفرّع عليه هو الذي يدل عليه قوله: «وما ظلمناهم» الخ؛ والمعنى أخذناهم فلم يكفهم في ذلك آلهتهم التي كانوا يدعونها من دون الله لتجلب اليهم الخير وتدفع عنهم الشرّ. ولم تغنهم شيئاً لما جاء أمر ربّك وحكمه بأخذهم أو لمّا جاء عذاب ربّك.

وقوله: ﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ التتبيب التدمير والإهلاك من التبّ وأصله القطع لأن عبادتهم الأصنام كان ذنباً مقتضياً لعذابهم ولمّا أحسّوا بالعذاب والبؤس فالتجأوا الى الأصنام ودعوها لكشفه ودعاؤها ذنب آخر زاد ذلك في تشديد العذاب عليهم وتغليظ العقاب لهم فما زادوهم غير هلاك.

ونسبة التتبيب الى آلهتهم مجاز وهو منسوب في الحقيقة الى دعائهم إيّاها. وهو عمل

قائم الحقيقة بالداعي لا بالمدعوّ.

قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ الإشارة الى ما تقدم من أنباء القرى، وذلك بعض مصاديق أخذه تعالى بـالعقوبة قاس به مطلق أخذه القرى في أنّه أليم شديد، وهذا من قبيل التشبيه الكلي ببعض مصاديقه في الحكم للدلالة على أن الحكم عام شامل لجميع الأفراد وهو نوع من فنّ التشبيه شـائع وقوله: «إنّ أخذه أليم شديد» بيان لوجه الشبه وهو الألم والشدّة.

والمعنى كما أخذ الله سبحانه هؤلاء الامم الظالمة: قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وقوم فرعون أخذاً أليماً شديداً، كذلك يأخذ سائر القرى الظالمة إذا أخذها فليعتبر بـذلك المعتبرون.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ﴾ الى آخر الآية؛ الإشارة الى ما أنبأه الله من قصص تلك القرى الظالمة التي أخذها بظلمها أخذاً أليماً شديداً. وأنبأ أن أخذه كذلك يكون، وفي ذلك آية لمن خاف عذاب الحياة الآخرة، وعلامة تـدل على أن الله سبحانه وتعالى سيأخذ في الآخرة المجرمين بإجرامهم، وإن أخذه سيكون أليماً شديداً فيوجب اعتباره بذلك وتحرزه ممّا يستتبع سخط الله تعالى.

وقوله: ﴿ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ ﴾ أي ذلك اليوم الذي يقع فيه عذاب الآخرة يوم مجموع له الناس فالإشارة الى اليوم الذي يدل عليه ذكر عذاب الآخرة، «ولذلك أتى بلفظ المذكر» كما قيل، ويمكن أن يكون تذكير الإشارة ليطابق المبتدء الخبر.

ووصف اليوم الآخر بأنه مجموع له الناس دون ان يقال: سيجمع أو يجمع له الناس إنما هو للدلالة على أن جمع الناس له من أوصافه المقضية له التي تلزمه ولا تفارقه من غير أن يحتاج الى الإخبار عنه بخبر.

فمشخّص هذا اليوم أن الناس مجموعون لأجله ـ واللام للغاية ـ فلليوم شأن من الشأن

لا يتم إلّا بجمع الناس بحيث لا يغادر منهم أحد ولا يتخلف عنه متخلف: وللناس شأن من الشأن يرتبط به كل واحد منهم بالجميع، ويمتزج فيه الأول مع الآخر والآخر مع الأول ويختلط فيه الكل بالبعض والبعض بالكلّ. وهو حساب أعمالهم من جهة الإيمان والكفر والطاعة والمعصية، وبالجملة من حيث السعادة والشقاوة.

وقوله: ﴿وَذٰلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ﴾ كالمتفرع بظاهره على الجملة السابقة «ذلك يوم مجموع له الناس» إذ الجمع يوجب المشاهدة غير أن اللفظ غير مقيد بالناس وإطلاقه يشعر بأنه مشهود لكل من له أن يشهد كالناس والملائكة والجن. والآيات الكثيرة الدالة على حشر الجن والشياطين وحضور الملائكة هناك يؤيد إطلاق الشهادة كما ذكر.

قوله تعالى: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ﴾ أي أن لذلك اليوم أجلاً قضى الله أن لا يقع قبل حلول أجله والله يحكم لا معقب لحكمه ولا رادّ لقضائه. ولا يؤخر اليوم إلّا لأجل يعده فإذا تم العدد وحل الأجل حق القول ووقع اليوم.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ فاعل «يأت» ضمير راجع الى الأجل السابق الذكر أي يوم يأتي الأجل الذي تؤخر القيامة اليه لا تتكلم نفس إلّا بإذنه. قال تعالى: ﴿من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت﴾ (العنكبوت / ٥).

وذكر بعضهم كما في المجمع أن المعنى يوم يأتي القيامة والجزاء. ولازمه إرجاع الضمير الى القيامة والجزاء لدلالة سابق الكلام اليه بوجه، وهو تكلف لا حاجة اليه.

وذكر آخرون ـ كما في تفسير صاحب المنار ـ أن المعنى في الوقت الذي يجيء فيه ذلك اليوم المعين لا تتكلم نفس من الأنفس الناطقة إلّا بإذن الله تعالى فالمراد باليوم في الآية مطلق الوقت أي غير المحدود لأنه ظرف لليوم المحدود الموصوف بما ذكر الذي هو فاعل يأتي.

وهو خطأ لاستلزامه ظرفية اليوم لليوم لعود المعنى حقيقة الى قولنا: في الوقت الذي يجيء فيه ذلك الوقت المعيّن أو اليوم الذي يجيء فيه ذلك اليوم المعين. والتفرقة بين

اليومين يجعل أحدهما خاصاً ومعيناً والآخر عاماً ومرسلاً لا ينفع في دفع محذور ظرفية الشيء لنفسه ومظروفية الزمان ـ وهو ظرف بذاته ـ لزمان آخر، وهو محال لا ينقلب ممكناً بتغيير اللفظ.

وما ذكره من التفرقة بين اليومين بالاطلاق والتحديد مجرد تصوير لا تغني شيئاً فان اليوم الذي يأتي فيه ذلك اليوم الموصوف وذلك اليوم الموصوف متساويان إطلاقاً وتحديداً وسعة وضيقاً، نعم ربما يؤخذ الزمان متحداً بما يقع فيه من الحوادث فيصير حادثاً من الحوادث وتلغى ظرفيته فيجعل مظروفاً لزمان آخر كما يقال يوم الأضحى في شهر ذي الحجة ويوم عاشوراء في المحرم، قال تعالى: ﴿ويوم تقوم الساعة﴾ (الجاثية / ٢٧) فإن صحت هذه العناية في الآية أمكن به أن يعود ضمير يأتي الى اليوم.

وقوله: ﴿لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ أي لا تتكلم نفس ممن حضر إلّا باذن الله سبحانه، وحذف أحد التائين المجتمعين في المستقبل من باب التفعل شائع قياسي.

والباء في قوله: ﴿بِإِذْنِهِ﴾ للمصاحبة فالاستثناء في الحقيقة من الكلام لا من المتكلم كما في قوله: ﴿لا يتكلمون إلّا من أذن له الرحمن﴾ (النبأ / ٣٨) والمعنى لا تتكلم نفس بشيء من الكلام إلّا بالكلام الذي يصاحب إذنه لا كالدنيا يتكلم فيها الواحد منهم بما اختاره وأراده، أذن فيه الله إذن تشريع أم لم يأذن.

وقد ذكرت الصفة أعني عدم تكلم نفس إلّا بإذنه من خواص يوم القيامة المعرفة له، وليست بمختصة به فإنه لا تتكلم أي نفس من النفوس ولا يحدث أي حادث من الحوادث دائماً إلّا بإذنه من غير أن يختص ذلك بيوم القيامة[١].

---

١. هود ١٠٠ ـ ١٠٨: بحث في زوال الستر والحجاب وظهور الحقائق يوم القيامة، معنى عدم تكلم الانسان يوم القيامة.

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ قال في المجمع: الزفير أول نهاق الحمار والشهيق آخر نهاقه انتهى. وقال في الكشاف: الزفير إخراج النفس والشهيق رده انتهى. وقال الراغب في المفردات، الزفير تردد النفس حتى ينتفخ الضلوع منه. وقال: الشهيق طول الزفير وهو رده والزفير مده، قال تعالى «لهم فيها زفير وشهيق» «سمعوا لها تغيظاً وزفيراً» وقال «سمعوا لها شهيقاً» وأصله من جبل شاهق أي متناهي الطول. انتهى.

والمعاني ـ كما ترى ـ متقاربة وكأن في الكلام استعارة، والمراد أنهم يردون أنفاسهم الى صدورهم ثم يخرجونها فيمدونها برفع الصوت بالبكاء والأنين من شدة حر النار وعظم الكربة والمصيبة كما يفعل الحمار ذلك عند نهيقه.

وكان الظاهر من سياق قوله: «فمنهم شقي وسعيد» أن يقال بعده: فأما الذي شقي ففي النار له فيها زفير وشهيق، الخ؛ لكن السياق السابق عليه الذي افتتح به وصف يوم القيامة أعني قوله: «ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود» مبني على الكثرة والجماعة، ومقتضاها المضي على هيئة الجمع: الذين شقوا والذين سعدوا، وإنما عبر بقوله: شقي وسعيد لما قيل قبله «لا تكلم نفس» فاختير المفرد المنكر ليفيد النفي بذلك الاستغراق والعموم فلما حصل الغرض بقوله: «لا تكلم نفس الّا باذنه فمنهم شقي وسعيد» عاد السياق السابق المبني على الكثرة والجماعة فقيل «فأما الذين شقوا» بلفظ الجمع الى آخر الآيات الثلاث.

قوله تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيها ما دامَتِ السَّمٰواتُ وَالأَرضُ إلّا ما شاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾. بيان لمكث أهل النار فيها كما أن الآية التالية «وأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض إلّا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ» بيان لمكث أهل الجنة فيها وتأييد لاستقرارهم في مأواهم.

قال الراغب في المفردات: الخلود هو تبري الشيء من اعتراض الفساد وبقاؤه على الحالة التي هو عليها، وكل ما يتباطأ عنه التغيير والفساد يصفه العرب بالخلود كقولهم للأثافي[١]: خوالد وذلك لطول مكثها لا لدوام بقائها يقال: خلد يخلد خلوداً، قال تعالى «لعلكم تخلدون» والخلد ـ بالفتح فالسكون ـ اسم للجزء الذي يبقى من الانسان على حالته فلا يستحيل ما دام الانسان حياً استحالة سائر اجزائه. وأصل المخلد الذي يبقى مدة طويلة، ومنه قيل: رجل مخلد لمن أبطأ عن الشيب. ودابة مخلدة هي التي تبقي ثناياها حتى تخرج رباعيتها ثم استعير للمبقي دائماً.

والخلود في الجنة بقاء الأشياء على الحالة التي عليها من غير اعتراض الفساد عليها قال تعالى: ﴿اولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون﴾ ﴿اولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ ﴿ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِم وِلْدانٌ مُخَلَّدُونَ﴾ قيل: مبقون بحالتهم لا يعتريهم الفساد، وقيل: مقرطون بخلدة، والخلدة ضرب من القرطة، وإخلاد الشيء جعله مبقى والحكم عليه بكونه مبقى، وعلى هذا قوله سبحانه: «ولكنه أخلد الى الأرض» أي ركن اليها ظاناً أنه يخلد فيها. انتهى.

وقوله: ﴿ما دامَتِ السَّمٰواتُ وَالأَرضُ﴾ نوع من التقييد يفيد تأكيد الخلود والمعنى دائمين فيها دوام السماوات والأرض لكن الآيات القرآنية ناصة على أن السماوات والأرض لا تدوم دوام الأبد وهي مع ذلك ناصة على بقاء الجنة والنار بقاءً لا الى فناء وزوال.

ومن الآيات الناصة على الأول قوله تعالى: ﴿ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلّا بالحق وأجل مسمى﴾ (الأحقاف / ٣)، وقوله: ﴿يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب

---

١. الأثافي. جمع الأثفية بضم الهمزة وهي الحجر الذي توضع عليه القدر وهما أثفيتان.

كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين﴾ (الأنبياء / ١٠٤)، وقوله: ﴿والسماوات مطويات بيمينه﴾ (الزمر / ٦٧)، وقوله: ﴿إذا رجت الأرض رجاً وبست الجبال بساً فكانت هباء منبثاً﴾ (الواقعة / ٦).

ومنها في النص على الثاني قوله: ﴿جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً﴾ (التغابن / ٩)، وقوله: ﴿وأعد لهم سعيراً خالدين فيها أبداً لا يجدون ولياً ولا نصيراً﴾ (الأحزاب / ٦٥)[١][٢].

١٠٩ ● فَلاَ تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هٰؤُلاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ.

١١٠ ● وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ.

١١١ ● وَإِنَّ كُلاًّ لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ.

١١٢ ● فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلاَ تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ.

١١٣ ● وَلاَ تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللّٰهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لاَ تُنْصَرُونَ.

١١٤ ● وَأَقِمِ الصَّلٰوةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ.

---

١. هود ١٠٠ ـ ١٠٨: بحث حول الخلود في الآخرة.

٢. هود ١٠٠ ـ ١٠٨: بحث روائي في: السعادة والشقاوة. الخلود في الجنة والنار.

١١٥ ❁ وَاصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ .

١١٦ ❁ فَلَوْلاَ كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ
الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلَّا قَلِيلاً مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ
ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ .

١١٧ ❁ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ .

١١٨ ❁ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ
مُخْتَلِفِينَ .

١١٩ ❁ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ
جَهَنَّمَ مِنَ الجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ .

بيان:

قوله تعالى: ﴿فَلاَ تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هٰؤُلاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ﴾ الخ: تفريع لما تقدم من تفصيل قصص الامم الماضية التي ظلموا أنفسهم باتخاذ الشركاء والفساد في الأرض فأخذهم الله بالعذاب . والمشار اليهم بقوله: «هؤلاء» هم قوم النبي ﷺ . وقوله: «ما يعبدون إلّا كما يعبد آباؤهم» أي إنهم يعبدونها تقليداً كآبائهم فالآخرون يسلكون الطريق الذي سلكه الأولون من غير حجة . والمراد بنصيبهم ما هو حظهم قبال شركهم وفسقهم .

وقوله: ﴿غَيْرَ مَنْقُوصٍ﴾ حال من النصيب وفيه تأكيد لقوله: «لموفوهم» فإن التوفية تأدية حق الغير بالتمام والكمال . وفيه إيناس الكافرين من العفو الإلهي .

ومعنى الآية: فإذا سمعت قصص الأولين وأنهم كانوا يعبدون آلهة من دون الله ويكذبون

بآياته، وعلمت سنة الله تعالى فيهم وأنها الهلاك في الدنيا والمصير الى النار الخالدة في الآخرة لا تكن في شك ومرية من عبادة هؤلاء الذين هم قومك ما يعبدون إلّا كعبادة آبائهم على التقليد من غير حجة ولا بينة، وإنا سنعطيهم ما هو نصيبهم من جزاء أعمالهم من غير أن ننقص من ذلك شيئاً بشفاعة أو عفو كيفما كان.

ويمكن أن يكون المراد بآبائهم، الامم الماضية الهالكة دون آباء العرب بعد إسماعيل مثلاً وذلك أن الله سماهم آباء لهم أولين كما في قوله: ﴿ أفلم يدبروا القول أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين ﴾ (المؤمنون / ٦٨) وهذا أنسب وأحسن والمعنى ـ على هذا ـ فلا تكن في شك من عبادة قومك ما يعبد هؤلاء إلّا كمثل عبادة أُولئك الامم الهالكة الذين هم آباؤهم، ولا شك أنا سنعطيهم حظهم من الجزاء كما فعلنا ذلك بآبائهم.

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴾ لما كانت هذه الآيات مسوقة للاعتبار بالقصص المذكورة في السورة، وكانت القصص نفسها سردت ليتعظ بها القوم ويقضوا بالحق في اتخاذهم شركاء لله سبحانه، وتكذيبهم بآيات الله ورمي القرآن بأنه افتراء على الله تعالى.

تعرض في هذه الآيات ـ المسوقة للاعتبار ـ لأمر اتخاذهم الآلهة وتكذيب القرآن فذكر تعالى أن عبادة القوم للشركاء كعبادة أسلافهم من الامم الماضية لها وسينالهم العذاب كما نال أسلافهم وأن اختلافهم في كتاب الله كاختلاف أُمة موسى ﷺ فيما آتاه الله من الكتاب وأن سيقضي بينهم فيما اختلفوا فيه، فقوله: « ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه » إشارة الى اختلاف اليهود في التوراة بعد موسى.

وقوله: ﴿ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾ كرر سبحانه في كتابه ذكر أن اختلاف الناس في أمر الدنيا أمر فطروا عليها لكن اختلافهم في أمر الدين لا منشأ له إلّا

البغي بعدما جاءهم العلم. قال تعالى: ﴿وما كان الناس إلّا امة واحدة فاختلفوا﴾ (يونس / ١٩). وقال: ﴿وما اختلف الذين اوتوا الكتاب إلّا من بعدما جاءهم العلم بغياً بينهم﴾ (آل عمران / ١٩). وقال: ﴿كان الناس امة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلّا الذين اوتوه من بعدما جاءتهم البينات بغياً بينهم﴾ (البقرة / ٢١٣).

وقوله: ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾ الإرابة إلقاء الشك في القلب. فتوصيف الشك بالمريب من قبيل قوله: «ظلا ظليلاً» و «حجاباً مستوراً» و «حجراً محجوراً» وغير ذلك. ويفيد تأكداً لمعنى الشك.

والظاهر أن مرجع الضمير في قوله: «وإنهم» امة موسى وهم اليهود. وحق لهم أن يشكوا فيه فإن سند التوراة الحاضرة ينتهي الى ما كتبه لهم رجل من كهنتهم يسمى عزراء عندما أرادوا أن يرجعوا من بابل بعد انقضاء السبي الى الأرض المقدسة، وقد أُحرقت التوراة قبل ذلك بسنين عند إحراق الهيكل فانتهاء سندها الى واحد يوجب الريب فيها طبعاً ونظيرها الإنجيل من جهة سنده.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كُلًّا لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ لفظة إن هي المشبهة بالفعل واسمها قوله: «كلا» منوناً مقطوعاً عن الإضافة والتقدير كلهم أي المختلفين. وخبرها قوله: «ليوفيّنهم» واللام والنون لتأكيد الخبر. وقوله: «لما» مؤلف من لام تدل على القسم وما بمشددة تفصل بين اللامين. وتفيد مع ذلك تأكيداً. وجواب القسم محذوف يدل عليه خبر إن.

والمعنى ـ والله أعلم ـ وإن كل هؤلاء المختلفين أقسم ليوفيّنهم ويعطينهم ربك أعمالهم أي جزاءها إنه بما يعملون من أعمال الخير والشر خبير.

ونقل في روح المعاني عن أبي حيان عن ابن الحاجب أن «لما» في الآية هي ما الجازمة

وحذف مدخولها شائع في الاستعمال يقال: خرجت ولما، وسافرت ولما. ثم قال: والاولى على هذا أن يقدر: لما يوفوها أي وإن كلا منها لما يوفوا أعمالهم ليوفيَّنهم ربك إياها. وهذا وجه وجيه.

قوله تعالى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلاَ تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ يقال: قام كذا وثبت وركز بمعنى واحد كما ذكره الراغب وغيره، والظاهر أن الأصل المأخوذ به في ذلك قيام الإنسان وذلك أن الإنسان في سائر حالاته وأوضاعه غير القيام كالقعود والانبطاح والجثو والاستلقاء والانكباب لا يقوى على جميع ما يرومه من الأعمال كالقبض والبسط والأخذ والرد وسائر ما الإنسان مهيمن عليه بالطبع لكنه إذا قام على ساقه قياماً كان على أعدل حالاته الذي يسلطه على عامة أعماله من ثبات وحركة وأخذ ورد وإعطاء ومنع وجلب ودفع، وثبت مهيمناً على ما عنده من القوى وأفعالها، فقيام الإنسان يمثل شخصيته الإنسانية بماله من الشؤن.

ثم استعير في كل شيء لأعدل حالاته الذي يسلط معه على آثاره وأعماله فقيام العمود أن يثبت على طوله، وقيام الشجر أن يركز على ساقه متعرقاً بأصله في الأرض، وقيام الإناء المحتوي على مائع أن يقف على قاعدته فلا يهراق ما فيه وقيام العدل أن ينبسط على الارض، وقيام السنة والقانون أن تجري في البلاد.

والإقامة جعل الشيء قائماً أي جعله بحال يترتب عليه جميع آثاره بحيث لا يفقد شيئاً منها كإقامة العدل وإقامة السنة وإقامة الصلاة وإقامة الشهادة، وإقامة الحدود، وإقامة الدين ونحو ذلك.

والاستقامة طلب القيام من الشيء واستدعاء ظهور عامة آثاره ومنافعه فاستقامة الطريق اتصافه بما يقصد من الطريق كالاستواء والوضوح وعدم إضلاله من ركبه، واستقامة الإنسان في أمر أن يطلب من نفسه القيام به وإصلاحه بحيث لا يتطرق اليه فساد ولا نقص،

ويأتي تاماً كاملاً. قال تعالى: ﴿قل إنما أنا بشر مثلكم يوحي إلي أنما إلهكم إله واحد فاستقيموا إليه﴾ (حم السجدة / ٦) أي قوموا بحق توحيده في الوهيته، وقال: ﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا﴾ (حم السجدة / ٣٠) أي ثبتوا على ما قالوا في جميع شؤن حياتهم لا يركنون في عقائدهم وأخلاقهم وأعمالهم إلّا الى ما يوافق التوحيد ويلائمه أي يراعونه ويحفظونه في عامة ما يواجههم في باطنهم وظاهرهم. وقال: ﴿فأقم وجهك للدين حنيفاً﴾ (الروم / ٣٠) فإن المراد بإقامة الوجه إقامة النفس من حيث تستقبل العمل وتواجهه. وإقامة الإنسان نفسه في أمر هي استقامته فيه فافهم.

فقوله: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ أي كن ثابتاً على الدين موفياً حقه طبق ما أُمرت بالاستقامة. وقد أُمر به في قوله: ﴿وأن أقم وجهك للدين حنيفاً ولا تكونن من المشركين﴾ (يونس / ١٠٥)، وقوله: ﴿فاقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ (الروم / ٣٠).

وقوله: ﴿وَمَنْ تَابَ مَعَكَ﴾ عطف على الضمير المستكن في «استقم» أي استقم أنت ومن تاب معك أي استقيموا جميعاً وإنما أخرج النبي ﷺ من بينهم وافرده بالذكر معه تشريفاً لمقام النبوة. وعلى ذلك تجرى سنته تعالى في كلامه كقوله تعالى: ﴿آمن الرسول بما أُنزل إليه من ربه والمؤمنون﴾ (البقرة / ٢٨٥) وقوله: ﴿يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه﴾ (التحريم / ٨).

على أن الأمر الذي تقيّد به قوله: «فاستقم» أعني قوله: «كما أُمرت» يختص بالنبي ﷺ ولا يشاركه فيه غيره فإن ما ذكر من مثل قوله: «فأقم وجهك للدين» الخ؛ خاص به فلو قيل: فاستقيموا لم يصح تقييده بالأمر السابق.

والمراد بمن تاب مع النبي المؤمنون الذين رجعوا الى الله بالإيمان وإطلاق التوبة على أصل الإيمان ـ وهو رجوع من الشرك ـ كثير الورود في القرآن كقوله تعالى: ﴿ويستغفرون

للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك﴾ (المؤمن / ٧) الى غير ذلك.

وقوله: ﴿وَلَا تَطْغَوْا﴾ أي لا تتجاوزوا حدكم الذي خطته لكم الفطرة والخلقة وهو العبودية لله وحده كما تجاوزه الذين قبلكم فأفضاهم الى الشرك وساقهم الى الهلكة، والظاهر أن الطغيان بهذا المعنى مأخوذ من طغى الماء إذا جاوز حده، ثم استعير لهذا الأمر المعنوي الذي هو طغيان الإنسان في حياته لتشابه الأثر وهو الفساد.

وقوله: ﴿إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ تعليل لمضمون ما تقدمه. ومعنى الآية اثبت على دين التوحيد والزم طريق العبودية من غير تزلزل وتذبذب، وليثبت الذين آمنوا معك، ولا تتعدوا الحد الذي حد لكم لأن الله بصير بما تعملون فيؤاخذكم لو خالفتم أمره.

وفي الآية الكريمة من لحن التشديد ما لا يخفى فلا يحس فيها بشيء من آثار الرحمة وأمارات الملاطفة وقد تقدمها من الآيات ما يتضمن من حديث مؤاخذة الامم الماضية والقرون الخالية بأعمالهم واستغناء الله سبحانه عنهم ما تصعق له النفوس وتطير القلوب.

غير ما في قوله: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ من إفراد النبي ﷺ بالذكر وإخراجه من بين المؤمنين تشريفاً لمقامه لكن ذلك يفيد بلوغ التشديد في حقه فإن تخصيصه قبلاً بالذكر يوجب توجه هول الخطاب وروع التكليم من مقام العزة والكبرياء اليه وحده عدل ما يتوجه الى جميع الامة الى يوم القيامة كما وقع نظير التشديد في قوله تعالى: ﴿ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً إذاً لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات﴾ (الإسراء / ٧٥).

ولذلك ذكر أكثر المفسرين أن قوله ﷺ: «شيبتني سورة هود» ناظر الى هذه الآية، وسيوافيك الكلام فيه في البحث الروائي الآتي إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ

ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ ﴾ قال في الصحاح: ركن اليه كنصر، ركوناً: مال وسكن، والركن بالضم الجانب الأقوى. والأمر العظيم والعز والمنعة انتهى وعن لسان العرب مثله. وعن المصباح أن الركون هو الاعتماد على الشيء.

وقال الراغب: ركن الشيء جانبه الذي يسكن اليه، ويستعار للقوة. قال تعالى: ﴿لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد﴾ وركنت الى فلان أركن بالفتح والصحيح أن يقال: ركن يركن ـ كنصر ـ وركن يركن ـ كعلم ـ قال تعالى «ولا تركنوا الى الذين ظلموا» وناقة مركنة الضرع له أركان تعظمه والمركن الإجابة، وأركان العبادات جوانبها التي عليها مبناها، وبتركها بطلانها. انتهى وهذا قريب مما ذكره في المصباح.

والحق أنه الاعتماد على الشيء عن ميل اليه لا مجرد الاعتماد فحسب ولذلك عدي بإلى لا بعلى وما ذكره أهل اللغة تفسير له بالأعم من معناه على ما هو دأبهم.

فالركون الى الذين ظلموا هو نوع اعتماد عليهم عن ميل اليهم إما في نفس الدين كأن يذكر بعض حقائقه بحيث ينتفعون به أو يغمض عن بعض حقائقه التي يضرهم إفشاؤها، وإما في حياة دينية كأن يسمح لهم بنوع من المداخلة في إدارة امور المجتمع الديني بولاية الامور العامة أو المودة التي تفضي الى المخالطة والتأثير في شؤن المجتمع أو الفرد الحيوية.

وبالجملة الاقتراب في أمر الدين أو الحياة الدينية من الذين ظلموا بنوع من الاعتماد والاتكاء يخرج الدين أو الحياة الدينية عن الاستقلال في التأثير ويغيرهما عن الوجهة الخالصة، ولازم ذلك السلوك الى الحق من طريق الباطل أو إحياء حق بإحياء باطل وبالأخرة إماتة الحق لإحيائه.

والدليل على هذا الذي ذكرنا أنه تعالى جمع في خطابه في هذه الآية الذي هو من تتمة الخطاب في الآية السابقة بين النبي ﷺ وبين المؤمنين من أمته، والشؤن التي له ولامته

هي المعارف الدينية والأخلاق والسنن الإسلامية في تبليغها وحفظها وإجرائها والحياة الإجتماعية بما يطابقها، وولاية امور المجتمع الإسلامي، وانتحال الفرد بالدين واستنانه بسنة الحياة الدينية فليس للنبي ﷺ ولا لامته أن يركنوا في شيء من ذلك الى الذين ظلموا.

على أن من المعلوم أن هاتين الآيتين كالنتيجة المأخوذة من قصص القرى الظالمة التي أخذهم الله بظلمهم وهما متفرعتان عليها ناظرتان اليها. ولم يكن ظلم هولاء الامم الهالكة وفي شركهم بالله تعالى وعبادة الأصنام فحسب بل كان مما ذمه الله من فعالهم اتباع الظالمين والفساد في الارض بعد إصلاحها وهو الاستنان بالسنن الظالمة التي يقيمها الولاة الجائرون، ويستن بها الناس وهم بذلك ظالمون.

ومن المعلوم أيضاً أن الآيتين مترتبتان في غرضهما فالاولى تنهى عن أن يكونوا من اولئك الذين ظلموا، والثانية تنهى أن يقتربوا منهم ويميلوا اليهم ويعتمدوا[١] في حقهم على باطلهم فقوله: «ولا تركنوا الى الذين ظلموا» نهي عن الميل اليهم والاعتماد عليهم والبناء على باطلهم في أمر أصل الدين والحياة الدينية جميعاً.

ووقوع الآيتين موقع النتيجة المتفرعة على ما تقدم من القصص المذكورة يفيد أن المراد بالذين ظلموا في الآية ليس من تحقق منه الظلم تحققاً ما وإلّا لعم جميع الناس إلّا أهل العصمة ولم يبق للنهي حينئذ معنى، وليس المراد بالذين ظلموا الظالمين أي المتلبسين بهذا الوصف المستمرين في ظلمهم فإن لإفادة الفعل الدال على مجرد التحقق معنى الصفة الدالة على التلبس والاستمرار أسباباً لا يوجد في المقام منها شيء ولا دلالة لشيء على شيء جزافاً.

---

١. اي أن يتوسلوا في اجراء الحق بين أنفسهم بالوسيلة الباطلة التي عند اعداء الدين من الظالمين.

بل المراد بالذين ظلموا اناس حالهم في الظلم حال اولئك الذين قصهم الله في الآيات السابقة من الامم الهالكة، وكان الشأن في قصتهم أنه تعالى أخذ الناس جملة واحدة في قبال الدعوة الإلهية المتوجهة اليهم ثم قسمهم الى من قبلها منهم والى من ردها ثم عبر عمّن قبلها بالذين آمنوا في بضعة مواضع من القصص المذكورة وعمن ردها بالذين ظلموا وما يقرب منه في أكثر من عشر مواضع كقوله: ﴿ولا تخاطبني في الذين ظلموا﴾ وقوله: ﴿وأخذت الذين ظلموا الصيحة﴾ وقوله: ﴿وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد﴾ وقوله: ﴿ألا إن ثمود كفروا ربهم﴾ وقوله: ﴿ألا بعداً لمدين كما بعدت ثمود﴾ الى غير ذلك[1].

قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلوٰةَ طَرَفَيِ النَّهارِ وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنٰاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئٰاتِ﴾ الخ: طرفا النهار هو الصباح والمساء، والزلف جمع زلفى كقرب جمع قربى لفظاً ومعنى على ما قيل، وهو وصف ساد مسد موصوفه كالساعات ونحوها، والتقدير وساعات من الليل أقرب من النهار.

والمعنى أقم الصلاة في الصلاح والمساء وفي ساعات من الليل هي أقرب من النهار، وينطبق من الصلوات الخمس اليومية على صلاة الصبح والعصر وهي صلاة المساء والمغرب والعشاء الآخرة، وقتهما زلف من الليل كما قاله بعضهم، أو على الصبح والمغرب ووقتهما طرفا النهار والعشاء الآخرة ووقتها زلف من الليل كما قاله آخرون، وقيل غير ذلك.

لكن البحث لما كان فقيهاً كان المتبع فيه ما ورد عن النبي ﷺ وأئمة أهل بيته عليهم السلام من البيان، وسيجيء في البحث الروائي الآتي إن شاء الله تعالى.

وقوله: ﴿إِنَّ الْحَسَنٰاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئٰاتِ﴾ تعليل لقوله: «وأقم الصلاة» وبيان أن

---

١. هود ١٠٩ ـ ١١٩: بحث في معنى الركون الى الذين ظلموا.

الصلوات حسنات واردة على نفوس المؤمنين تذهب بآثار المعاصي وهي ما تعتريها من السيئات. وقد تقدم كلام في هذا الباب في مسألة الحبط في الجزء الثاني من هذا الكتاب.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ﴾ أي هذا الذي ذكر وهو أن الحسنات يذهبن السيئات على رفعة قدرة تذكار للمتلبسين بذكر الله تعالى من عباده.

قوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ ثم أمره ﷺ بالصبر بعد ما أمره بالصلاة كما جمع بينهما في قوله: ﴿واستعينوا بالصبر والصلاة﴾ (البقرة / ٤٥) وذلك أن كلا منهما في بابه من أعظم الأركان أعني الصلاة في العبادات، والصبر في الأخلاق وقد قال تعالى في الصلاة: ﴿ولذكر الله أكبر﴾ (العنكبوت / ٤٥) وقال في الصبر: ﴿إن ذلك لمن عزم الامور﴾ (الشورى / ٤٣).

واجتماعهما أحسن وسيلة يستعان بها على النوائب والمكاره فالصبر يحفظ النفس عن التلق والجزع والانهزام، والصلاة توجهها الى ناحية الرب تعالى فتنسى ما تلقاه من المكاره، وقد تقدم بيان في ذلك في تفسير الآية ٤٥ من سورة البقرة في الجزء الأول من الكتاب.

وإطلاق الامر بالصبر يعطي أن المراد به الأعم من الصبر على العبادة والصبر عن المعصية والصبر عند النائبة، وعلى هذا يكون أمراً بالصبر على جميع ما تقدم من الأوامر والنواهي أعني قوله: «فاستقم» «ولا تطغوا» «ولا تركنوا» «وأقم الصلاة».

لكن إفراد الأمر وتخصيصه بالنبي ﷺ يفيد أنه صبر في أمر يختص به وإلّا قيل «واصبروا» جرياً على السياق، وهذا يؤيد قول من قال: إن المراد اصبر على أذى قومك في طريق دعوتك الى الله سبحانه وظلم الظالمين منهم، وأما قوله: «وأقم الصلاة» فإنه ليس أمراً بما يخصه ﷺ من الصلاة بل أمر بإقامته الصلاة بمن تبعه من المؤمنين جماعة فهو أمر لهم جميعاً بالصلوة فافهم ذلك.

وقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ تعليل للأمر بالصبر.

قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ الخ: لولا بمعنى هلا وألا يفيد التعجيب والتوبيخ. والمعنى هلا كان من القرون التي كانت من قبلكم وقد أفنيناها بالعذاب والهلاك اولوا بقية أي قوم باقون ينهون عن الفساد في الأرض ليصلحوا بذلك فيها ويحفظوا امتهم من الاستئصال.

وقوله: ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ استثناء من معنى النفي في الجملة السابقة فإن المعنى: من العجب أنه لم يكن من القرون الماضية مع ما رأوا من آيات الله وشاهدوا من عذابه بقايا ينهون عن الفساد في الأرض إلّا قليلاً ممن أنجينا من العذاب والهلاك منهم فإنهم كانوا ينهون عن الفساد.

وقوله: ﴿وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ بيان حال الباقي منهم بعد الاستثناء وهم أكثرهم وعرّفهم بأنهم الذين ظلموا وبين أنهم اتبعوا لذائذ الدنيا التي اترفوا فيها وكانوا مجرمين.

وقد تحصل بهذا الاستثناء وهذا الباقي الذي ذكر حالهم تقسيم الناس الى صنفين مختلفين: الناجون بإنجاء الله والمجرمون ولذلك عقبه بقوله: «ولولا شاء ربك لجعل الناس امة واحدة ولا يزالون مختلفين إلّا من رحم ربك».

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ أي لم يكن من سنته تعالى إهلاك القرى التي أهلها مصلحون لأن ذلك ظلم ولا يظلم ربك أحداً فقوله: «بظلم» قيد توضيحي لا احترازي، ويفيد أن سنته تعالى عدم إهلاك القرى المصلحة لكونه من الظلم «وما ربك بظلام للعبيد».

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَن رَّحِمَ ـ الى قوله ـ أَجْمَعِينَ﴾ الخلف خلاف القدام وهو الأصل فيما اشتق من

هذه المادة من المشتقات يقال: خلف أباه أي سد مسده لوقوعه بعده، وأخلف وعده أي لم يف به كأنه جعله خلفه، ومات وخلف ابنا أي تركه خلفه، واستخلف فلاناً أي طلب منه أن ينوب عنه بعد غيبته أو موته أو بنوع من العناية كاستخلاف الله تعالى آدم وذريته في الأرض، وخالف فلان فلانا وتخالفا إذا تفرقا في رأي أو عمل كأن كلاً منهما يجعل الآخر خلفه، وتخلف عن أمره إذا أدبر ولم يأتمر به، واختلف القوم في كذا إذا خالف بعضهم بعضاً فيه فجعله خلفه، واختلف القوم الى فلان إذا دخلوا عليه واحداً بعد واحد، واختلف فلان الى فلان إذا دخل عليه مرات كل واحدة بعد اخرى.

ثم الاختلاف ويقابله الاتفاق من الامور التي لا يرتضيها الطبع السليم لما فيه من تشتيت القوى وتضعيفها وآثار اخرى غير محمودة من نزاع ومشاجرة وجدال وقتال وشقاق كل ذلك يذهب بالأمن والسلام غير أن نوعاً منه لا مناص منه في العالم الإنساني وهو الاختلاف من حيث الطبائع المنتهية الى اختلاف البنى فإن التركيبات البدنية مختلفة في الأفراد وهو يؤدي الى اختلاف الاستعدادات البدنية والروحية وبانضمام اختلاف الأجواء والظروف الى ذلك يظهر اختلاف السلائق والسنن والآداب والمقاصد والأعمال النوعية والشخصية في المجتمعات الإنسانية، وقد أوضحت الأبحاث الإجتماعية أن لولا ذلك لم يعش المجتمع الإنساني ولا طرفة عين[1].

وقوله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ أي حقت كلمته تعالى وأخذت مصداقها منهم بما ظلموا واختلفوا في الحق من بعدما جاءهم العلم بغياً بينهم، والكلمة هي قوله: «لأملأن جهنم» الخ.

والآية نظيرة قوله: ﴿ولو شئنا لآتينا كل نفس هُديها ولكن حق القول مني لأملأن جهنم

---

١. هود ١٠٩ـ١١٩: بحث في: اختلاف في الطبايع، اختلاف في الدين.

من الجنة والناس أجمعين﴾ (الم السجدة / ١٣) والأصل في هذه الكلمة ما ألقاه الله تعالى الى إبليس لعنه الله إذ قال: **﴿فبعزتك لاغوينهم أجمعين إلّا عبادك منهم المخلصين قال فالحق والحق أقول لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين﴾** (ص / ٥٨) والآيات متحدة المضمون يفسر بعضها بعضاً[١].

١٢٠ ● وَكُلّاً نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبآءِ الرُّسُلِ ما نُثَبِّتُ بِهِ فُؤادَكَ وَجاءَكَ فِي هٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ

١٢١ ● وَقُلْ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلىٰ مَكانَتِكُمْ إِنّا عامِلُونَ.

١٢٢ ● وَانْتَظِرُوا إِنّا مُنْتَظِرُونَ.

١٢٣ ● وَلِلّٰهِ غَيْبُ السَّمٰواتِ وَالأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَما رَبُّكَ بِغافِلٍ عَمّا تَعْمَلُونَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَكُلّاً نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبآءِ الرُّسُلِ ما نُثَبِّتُ بِهِ فُؤادَكَ﴾الى آخر الآية أي وكل القصص نقص عليك تفصيلاً أو إجمالاً، وقوله: «من أنباء الرسل» بيان لما اضيف اليه كل، وقوله: «ما نثبت به فؤادك» عطف بيان للأنباء اشير به الى فائدة القصص بالنسبة اليه ﷺ وهو تثبيت فؤاده وحسم مادة القلق والاضطراب منه.

والمعنى نقص عليك أنباء الرسل لنثبت به فؤادك ونربط جأشك في ما أنت عليه من

---

١. هود ١٠٩ ـ ١١٩: بحث روائي حول معنى الركون الى الذين ظلموا؛ الصلوات الخمس اليومية: ان الحسنات يذهبن السيئات؛ اهلاك القرى؛ الاختلاف في الدين.

سلوك سبيل الدعوة الى الحق، والنهضة على قطع منابت الفساد، والمحنة من أذى قومك.

ثم ذكر تعالى من فائدة السورة ما يعمه ﷺ وقومه مؤمنين وكافرين فقال فيما يرجع الى النبي ﷺ من فائدة نزول السورة «وجاءك في هذه الحق» والإشارة الى السورة أو الى الآيات النازلة فيها أو الأنباء على وجه، ومجيء الحق فيها هو ما بين الله تعالى في ضمن القصص وقبلها وبعدها من حقائق المعارف في المبدء والمعاد وسنته تعالى الجارية في خلقه بإرسال الرسل ونشر الدعوة ثم إسعاد المؤمنين في الدنيا بالنجاة، وفي الآخرة بالجنة، وإشقاء الظالمين بالأخذ في الدنيا والعذاب الخالد في الآخرة.

وقال فيما يرجع الى المؤمنين «وموعظة وذكرى للمؤمنين» فإن فيما ذكر فيها من حقائق المعارف تذكرة للمؤمنين يذكرون بها ما نسبوه من علوم الفطرة في المبدء والمعاد وما يرتبط بهما، وفيما ذكر فيها من القصص والعبر موعظة يتعظون بها.

قوله تعالى: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ وَٱنْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ﴾ وهذا فيما يرجع الى غير المؤمنين يأمر نبيه ﷺ أن يختم الحجاج معهم ويقطع خصامهم بعد ما تلا القصص عليهم بهذه الجمل فيقول لهم: أما إذا لم تؤمنوا ولم تنقطعوا عن الشرك والفساد بما ألقيت اليكم من التذكرة والعبر ولم تصدقوا بما قصه الله من أنباء الامم وأخبر به من سنته الجارية فيهم فاعملوا على ما أنتم عليه من المكانة والمنزلة، وبما تحسبونه خيراً لكم إنا عاملون، وانتظروا ما سيستقبلكم من عاقبة عملكم إنا منتظرون فسوف تعرفون صدق النباء الإلهي وكذبه.

وهذا قطع للخصام ونوع تهديد أورده الله في القصص الماضية قصة نوح وهود وصالح عليهم السلام، وفي قصة شعيب عليه السلام حاكياً عنه ﴿ويا قوم اعملوا على مكانتكم إني عامل سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب وارتقبوا إني معكم رقيب﴾ (آية ٩٣ من السورة).

قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ ﴾ لما كان أمره تعالى نبيه ﷺ أن يأمرهم بالعمل بما تهوى أنفسهم والانتظار ، وإخبارهم بأنه ومن آمن معه عاملون ومنتظرون ، في معنى أمره ومن تبعه بالعمل والانتظار عقبه بهاتين الجملتين ليكون على طيب من النفس وثبات من القلب من أن الدائرة ستكون له عليهم .

والمعنى فاعمل وانتظر أنت ومن تبعك فغيب السماوات والأرض الذي يتضمن عاقبة أمرك وأمرهم إنما يملكه ربك الذي هو الله سبحانه دون آلهتهم التي يشركون بها ودون الأسباب التي يتوكلون عليها حتى يديروا الدائرة لأنفسهم ويحولوا العاقبة الى ما ينفعهم ، والى ربك الذي هو الله يرجع الأمر كله فيظهر من غيبه عاقبة الأمر على ما شاءه وأخبر به ، فالدائرة لك عليهم ، وهذا من عجيب البيان .

ومن هنا يظهر وجه تبديل قوله : « ربك » المكرر من هذه الآيات بلفظ الجلالة « الله » لأن فيه من الإشعار بالإحاطة بكل ما دق وجل ما ليس في غيره . والمقام يقتضي الاعتماد والإلتجاء الى ملجاء لا يقهره قاهر ولا يغلب عليه غالب ، وهو الله سبحانه ولذلك ترى أنه يعود بعد انقضاء هذه الجمل الى ما كان يكرره من صفة الرب ، وهو قوله : « وما ربك بغافل عما تعملون » .

قوله تعالى : ﴿ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ الظاهر أنه تفريع لقوله : « واليه يرجع الأمر كله » أي إذا كان الأمر كله مرجوعاً اليه تعالى فلا يملك غيره شيئاً ولا يستقل بشيء فاعبده سبحانه واتخذه وكيلاً في جميع الامور ولا تتوكل على شيء من الأسباب دونه لأنها أسباب بتسبيبه غير مستقلة دونه ، فمن الجهل الاعتماد على شيء منها . وما ربك بغافل عما تعملون فلا يجوز التساهل في عبادته والتوكل عليه .

سورة يوسف مكية وهي مائة وإحدى عشرة آية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

١ ● الٓر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ.

٢ ● إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ.

٣ ● نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هٰذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ.

بيان:

غرض السورة بيان ولاية الله لعبده الذي أخلص إيمانه له تعالى إخلاصاً وامتلأ بمحبته تعالى لا يبتغي له بدلاً ولم يلو الى غيره تعالى من شيء، وأن الله تعالى يتولى هو أمره فيربيه أحسن تربية فيورده مورد القرب ويسقيه فيرويه من مشرعة الزلفى فيخلصه لنفسه ويحييه حياة إلهية وإن كانت الأسباب الظاهرة أجمعت على هلاكه. ويرفعه وإن توفرت الحوادث على ضعته، ويعزه وان دعت النوائب ورزايا الدهر الى ذلته وحط قدره.

وقد بين تعالى ذلك بسرد قصة يوسف الصديق ﷺ. ولم يرد في سور القرآن الكريم تفصيل قصة من القصص باستقصائها من أولها الى آخرها غير قصته ﷺ، وقد خصت السورة بها من غير شركة ما من غيرها.

فقد كان ﷺ عبداً مخلصاً في عبوديته فأخلصه الله لنفسه وأعزه بعزته وقد تجمعت الأسباب على إذلاله وضعته فكلما ألقته في إحدى المهالك أحياه الله تعالى من نفس السبيل التي كانت تسوقه الى الهلاكة: حسده إخوته فألقوه في غيابة الجب ثم شروه بثمن بخس دراهم معدودة فذهب به ذلك الى مصر وأدخله في بيت الملك والعزة، راودته التي هو في بيتها عن نفسه واتهمته عند العزيز ولم تلبث دون أن اعترفت عند النسوة ببراءته ثم اتهمته وأدخلته السجن فكان ذلك سبب قربه عند الملك، وكان قميصه الملطخ بالدم الذي جاؤا به الى أبيه يعقوب أول يوم هو السبب الوحيد في ذهاب بصره فصار قميصه بعينه وقد أرسله بيد إخوته من مصر الى أبيه آخر يوم هو السبب في عود بصره اليه، وعلى هذا القياس.

وبالجملة كلما نازعه شيء من الأسباب المخالفة أو اعترضه في طريق كماله جعل الله تعالى ذلك هو السبب في رشد أمره ونجاح طلبته، ولم يزل سبحانه يحوله من حال الى حال حتى آتاه الحكم والملك واجتباه وعلمه من تأويل الأحاديث وأتم نعمته عليه كما وعده أبوه.

وقد بدء الله سبحانه قصته بذكر رؤيا رآها في بادىء الأمر وهو صبي في حجر أبيه والرؤيا من المبشرات ثم حقق بشارته وأتم كلمته فيه بما خصه به من التربية الألهية، وهذا هو شأنه تعالى في أوليائه كما قال تعالى: ﴿ **ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم** ﴾ (يونس / ٦٤).

وفي قوله تعالى بعد ذكر رؤيا يوسف وتعبير أبيه ﷺ لها: ﴿ **لقد كان في يوسف وإخوته**

آيات للسائلين﴾ إشعار بأنه كان هناك قوم سألوا النبي ﷺ عما يرجع الى هذه القصة، وهو يؤيد ما ورد أن قوماً من اليهود بعثوا مشركي مكة أن يسألوا النبي ﷺ عن سبب انتقال بني إسرائيل الى مصر وقد كان يعقوب عليه السلام ساكناً في أرض الشام فنزلت السورة.

وعلى هذا فالغرض بيان قصته عليه السلام وقصة آل يعقوب، وقد استخرج تعالى ببيانه ما هو الغرض العالي منها وهو طور ولاية الله لعباده المخلصين كما هو اللائح من مفتتح السورة ومختتمها، والسورة مكية على ما يدل عليه سياق آياتها، وما ورد في بعض الروايات عن ابن عباس أن أربعاً من آياتها مدنية، وهي الآيات الثلاث التي في أولها، وقوله: ﴿لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين﴾ مدفوع بما تشتمل عليه من السياق الواحد.

قوله تعالى: ﴿الٓر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ الاشارة بلفظ البعيد للتعظيم والتفخيم، والظاهر أن يكون المراد بالكتاب المبين هذا القرآن المتلو وهو مبين واضح في نفسه ومبين موضح لغيره ما ضمنه الله تعالى من المعارف الإلهية وحقائق المبدء والمعاد.

وقد وصف الكتاب في الآية بالمبين لا كما في قوله في أول سورة يونس: ﴿تلك آيات الكتاب الحكيم﴾ لكون هذه السورة نازلة في شأن قصة آل يعقوب وبيانها، ومن المحتمل أن يكون المراد بالكتاب المبين اللوح المحفوظ.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ الضمير للكتاب بما أنه مشتمل على الآيات الإلهية والمعارف الحقيقية، وإنزاله قرآناً عربياً هو إلباسه في مرحلة الإنزال لباس القراءة والعربية، وجعله لفظاً متلواً مطابقاً لما يتداوله العرب من اللغة كما قال تعالى في موضع آخر: ﴿إنا جعلناه قرآنا عربياً لعلكم تعقلون، وإنه في ام الكتاب لدينا لعلي حكيم﴾ (الزخرف / ٤).

وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ من قبيل توسعة الخطاب وتعميمه فان السورة مفتتحة بخطاب النبي ﷺ «تلك آيات الكتاب»، وعلى ذلك يجري بعد كما في قوله: «نحن

نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا اليك» الخ.

فمعنى الآية ـ والله أعلم ـ إنا جعلنا هذا الكتاب المشتمل على الآيات في مرحلة النزول ملبساً بلباس اللفظ العربي محلى بحليته ليقع في معرض التعقل منك ومن قومك أو امتك. ولو لم يقلب في وحيه في قالب اللفظ المقرو أو لم يجعل عربياً مبيناً لم يعقل قومك ما فيه من أسرار الآيات بل اختص فهمه بك لإختصاصك بوحيه وتعليمه.

وفي ذلك دلالة ما على أن لألفاظ الكتاب العزيز من جهة تعينها بالاستناد الى الوحي وكونها عربية دخلا في ضبط أسرار الآيات وحقائق المعارف، ولو أنه اوحى الى النبي ﷺ بمعناه وكان اللفظ الحاكي له لفظه ﷺ كما في الأحاديث القدسية مثلاً أو ترجم الى لغة اخرى خفي بعض أسرار آياته البينات عن عقول الناس ولم تنله أيدي تعقلهم وفهمهم.

وعنايته تعالى فيما أوحى من كتاب باللفظ مما لا يرتاب فيه المتدبر في كلامه كيف؟ وقد قسمه الى المحكمات والمتشابهات وجعل المحكمات ام الكتاب ترجع اليها المتشابهات قال تعالى: ﴿**هو الذي انزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أُم الكتاب وأُخر متشابهات**﴾ (آل عمران / ٧) وقال تعالى أيضاً: ﴿**ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين**﴾ (النحل / ١٠٣).

قوله تعالى: ﴿**نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ**﴾ قال الراغب في المفردات: القص تتبع الأثر يقال: قصصت أثره، والقصص الأثر قال: فارتدا على آثارهما قصصاً، وقالت لاخته قصيه. قال: والقصص الأخبار المتتبعة قال تعالى: لهو القصص الحق. في قصصهم عبرة، وقص عليه القصص، نقص عليك أحسن القصص. انتهى فالقصص هو القصة وأحسن القصص أحسن القصة والحديث، وربما قيل: إنه مصدر بمعنى الاقتصاص.

فإن كان اسم مصدر فقصة يوسف عليه السلام أحسن قصة لأنها تصف إخلاص التوحيد في العبودية، وتمثل ولاية الله سبحانه لعبده وأنه يربيه بسلوكه في صراط الحب ورفعه من حضيض الذلة الى أوج المعزة، وأخذه من غيابة جبّ الأسارة ومربط الرقية وسجن النكال والنقمة الى عرش العزة وسرير الملك.

وإن كان مصدراً فالاقتصاص عن قصته بالطريق الذي اقتص سبحانه به أحسن الاقتصاص لأنه اقتصاص لقصة الحب والغرام بأعف ما يكون وأستر ما يمكن.

والمعنى ـ والله أعلم ـ نحن نقص عليك أحسن القصص بسبب وحينا هذا القرآن اليك وإنك كنت قبل اقتصاصنا عليك هذه القصة من الغافلين عنها.

٤ ۞ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ.

٥ ۞ قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْداً إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ.

٦ ۞ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ لم يذكر يعقوب عليه السلام باسمه بل كنى عنه

بالأب للدلالة على ما بينهما من صفة الرحمة والرأفة والشفقة كما يدل عليه ما في الآية التالية «قال يا بني لا تقصص» الخ.

وقوله: ﴿رَأَيْتُ﴾ و ﴿رَأَيْتُهُمْ﴾ من الرؤيا وهي ما يشاهده النائم في نومته أو الذي خمدت حواسه الظاهرة بإغماء أو ما يشابهه، ويشهد به قوله في الآية التالية: «لا تقصص رؤياك على إخوتك» وقوله في آخر القصّة: «يا أبت هذا تأويل رؤياي».

وتكرار ذكر الرؤية لطول الفصل بين قوله: «رأيت» وقوله: «لي ساجدين» ومن فائدة التكرير الدلالة على أنه إنما رآهم مجتمعين على السجود جميعاً لا فرادى. على أن ما حصل له من المشاهدة نوعان مختلفان فمشاهدة أشخاص الكواكب والشمس والقمر مشاهدة أمر صوريّ ومشاهدة سجدتهم وخضوعهم وتعظيمهم له مشاهدة أمر معنوي.

وقد عبر عن الكواكب والنيرين في قوله: «رأيتهم لي ساجدين» بما يختص بأولي العقل ـ ضمير الجمع المذكر وجمع المذكر السالم ـ للدلالة على أن سجدتهم كانت عن علم وإرادة كما يسجد واحد من العقلاء لآخر.

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْداً إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ ذكر في المفردات: أن الكيد ضرب من الاحتيال، وقد يكون مذموماً وممدوحاً وإن كان يستعمل في المذموم أكثر وكذلك الاستدراج والمكر. انتهى. وقد ذكروا أن الكيد يتعدّى بنفسه وباللام.

والآية تدل على أن يعقوب لما سمع ما قصه عليه يوسف من الرؤيا أيقن بما يدل عليه أن يوسف عليه السلام سيتولى الله أمره ويرفع قدره، يسنده على أريكة الملك وعرش العزة، ويخصه من بين آل يعقوب بمزيد الكرامة فأشفق على يوسف عليه السلام وخاف من اخوته عليه وهم عصبة أقوياء أن لو سمعوا الرؤيا ـ وهي ظاهرة الانطباق على يعقوب عليه السلام وزوجه وأحد عشر من ولده غير يوسف، وظاهره الدلالة على انهم جميعاً سيخضعون ويسجدون

ليوسف ـ حملهم الكبر والأنفة أن يحسدوه فيكيدوا له كيداً ليحولوا بينه وبين ما تبشره به رؤياه.

ولذلك خاطب يوسف عليه السلام خطاب الإشفاق كما يدل عليه قوله: «يا بنيّ» بلفظ التصغير، ونهاه عن اقصاص رؤياه على إخوته قبل أن يعبرها له ويُنبئه بما تدل عليه رؤياه من الكرامة الإلهية المقضية في حقه، ولم يقدم النهي على البشارة إلّا لفرط حبه له وشدة اهتمامه بـه واعتنائه بشأنه، وما كان يتفرس من إخوته أنهم يحسدونه وأنهم امتلئوا منه بغضاً وحنقاً.

والدليل على بلوغ حسدهم وظهور حنقهم وبغضهم قوله: «لا تـقصص رؤيـاك عـلى إخوتك فيكيدوا لك كيداً» فلم يقل: إني أخاف أن يكيدوا، أو لا آمنهم عليك بتفريع الخوف من كيدهم أو عدم الأمن من جهتهم بل فرّع على اقتصاص الرؤيا نفس كيدهم وأكّد تحقق الكيد منهم بالمصدر ـ المفعول المطلق ـ اذ قال «فيكيدوا لك كيداً» ثمّ أكد ذلك بقوله ثانياً في مقام التعليل: «أن الشيطان للإنسان عدو مبين» أي إن لكيدهم سبباً آخر منفصلاً يؤيد ما عندهم من السبب الذي هو الحسد ويثيره ويهيجه ليؤثر أثره السيء وهو الشيطان الذي هو عدو للإنسان مبين لا خلة بينه وبينه أبداً يحمل الإنسان بوسوسته وتسويله عـلى أن يخرج من صراط الاستقامة والسعادة الى سبيل عوج فيه شقاء دنياه وآخرته فيفسد ما بين الوالد وولده وينزع بين الشقيق وشقيقه ويفرق بين الصديق وصديقه ليضلهم عن الصراط.

فكأن المعنى: قال يعقوب ليوسف عليهما السلام: يا بنيّ لا تقصص رؤياك على إخوتك فـانهم يحسدونك ويغتاظون من أمرك فيكيدونك عندئذ بنزع وإغراء من الشيطان وقد تمكن من قلوبهم ولا يدعهم يعرضوا عن كيدك فإن الشيطان للإنسان عدوّ مبين.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ﴾ الى آخر الآية: الاجتباء من الجباية وهي الجـمع يقال: جبيت الماء في الحوض إذا جمعته فيه، ومنه جباية الخراج أي جمعه قـال تـعالى

﴿يجبي إليه ثمرات كلّ شيء﴾ (القصص / ٥٧) ففي معنى الاجتباء جمع أجـزاء الشـيء وحفظها من التفرّق والتشتت، وفيه سلوك وحركة من الجابي نـحو المـجبيّ فـاجتباه الله سبحانه عبداً من عباده هو أن يقصده برحمته ويخصّه بمزيد كرامته فيجمع شمله ويحفظه من التفرق في السبل المتفرّقة الشيطانية المفرقة للإنسان ويركبه صراطه المستقيم وهو أن يتولّى أمره ويخصه بنفسه فلا يكون لغيره فيه نصيب كما أخبر تعالى بذلك في يوسف ﷺ إذ قال ﴿إنه من عبادنا المخصلين﴾ (الآية ٢٤ من السورة).

وقوله: ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ التأويل هو ما ينتهي اليه الرؤيا مـن الأمر الذي تتعقبه، وهو الحقيقة التي تتمثل لصاحب الرؤيا في رؤياه بصورة مـن الصـور المناسبة لمداركه ومشاعره كما تمثل سجدة أبوي يوسف وإخوته الأحد عشر في صـورة أحد عشر كوكباً والشمس والقمر وخرورها أمامه ساجدة له، وقد تقدم استيفاء البحث عن معنى التأويل في تفسير قوله: ﴿فيتبعون ما تشـابه مـنه ابـتغاء الفـتنة تأويـله﴾ الآيـة، (آل عمران / ٧) في الجزء الثالث من الكتاب.

والأحاديث جمع الحديث وربما اريد به الروّي لأنها من حـديث النـفس فـان نـفس الانسان تصور له الامور في المنام كما يصور المحدث لسماعه الامور في اليقظة فـالرؤيا حديث مثله ومنه يظهر ما في قول بعضهم: إن الروْي سمّيت أحـاديث بـاعتبار حكـايتها والتحديث بها وهو كما ترى.

وقوله: ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلىٰ آلِ يَعْقُوبَ﴾ قال الراغب فـي المـفردات: النعمة (بالكسر فالسكون) الحالة الحسنة، وبناء النعمة بـناء الحـالة التـي يكـون عـليها الإنسان كالجلسة والركبة، والنعمة (بالفتح فالسكون) التنعم وبناؤها بناء المرّة من الفـعل كالضربة والشتمة، والنعمة للجنس تقال للقليل والكثير.

قال: والإنعام إيصال الاحسان الى الغير، ولا يقال إلّا إذا كان الموصل اليه من جـنس

الناطقين فإنه لا يقال: أنعم فلان على فرسه، قال تعالى «أنعمت عليهم» «وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه» والنعماء بإزاء الضرّاء.

قال: والنعيم النعمة الكثيرة قال تعالى «في جنات النعيم» وقال تعالى «جنات النعيم»، وتنعم تناول ما فيه النعمة وطيب العيش، يقال: نعمه تنعيماً فتنعم أي لين عيش وخصب قال تعالى «فأكرمه ونعمه» وطعام ناعم وجارية ناعمة. انتهى.

فقوله: ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ﴾ يريد أن الله أنعم عليكم بما تسعدون به في حياتكم لكنه يتم ذلك في حقك وفي حق آل يعقوب وهم يعقوب وزوجه وسائر بنيه كما كان رآه في رؤياه.

وقد جعل يوسف عليه السلام أصلا وآل يعقوب معطوفاً عليه إذ قال «عليك وعلى آل يعقوب» كما يدل عليه الرؤيا إذ رآى يوسف نفسه مسجوداً له ورآى آل يعقوب في هيئة الشمس معها القمر وأحد عشر كوكباً سجداً له.

وقد ذكر الله تعالى مما أتم به النعمة على يوسف عليه السلام أنه آتاه الحكم والنبوة والملك والعزة في مصر مضافاً الى أن جعله من المخلصين وعلمه من تأويل الأحاديث، ومما أتم به النعمة على آل يعقوب أنه أقر عين يعقوب بابنه يوسف عليهما السلام، وجاء به وبأهله جميعاً من البدل ورزقهم الحضارة بنزول مصر.

وقوله: ﴿كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَٰقَ﴾ أي نظير ما أتم النعمة من قبل على إبراهيم وإسحاق وهما أبواك فإنه آتاهما خير الدنيا والآخرة فقوله: «من قبل» متعلق بقوله: «أتمها» وربما احتمل كونه ظرفاً مستقراً وصفاً لقوله: «أبويك» والتقدير كما أتمها على أبويك الكائنين من قبل.

و «إبراهيم وإسحاق» بدل أو عطف بيان لقوله: «أبويك» وفائدة هذا السياق الإشعار بكون النعمة مستمرة موروثة في بيت إبراهيم من طريق إسحاق حيث اتمها الله على إبراهيم

وإسحاق ويعقوب ويوسف ﷺ وسائر آل يعقوب.

ومعنى الآية: وكما رأيت في رؤياك يخلصك ربك لنفسه بإنقائك من الشرك فلا يكون فيك نصيب لغيره، ويعلمك من تأويل الأحاديث وهو ما يؤل اليه الحوادث المصورة في نوم أو يقظة ويتم نعمته هذه وهي الولاية الإلهية بالنزول في مصر واجتماع الأهل والملك والعزة عليك وعلى ابويك وإخوتك وإنما يفعل ربك بك ذلك لأنه عليم بعباده خبير بحالهم حكيم يجري عليهم ما يستحقونه فهو عليم بحالك وما يستحقونه من غضبه[١].

٧ ● لَقَدْ كانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آياتٌ لِلسَّائِلِينَ.

٨ ● إِذْ قالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلىٰ أَبِينا مِنّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبانا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ.

٩ ● اُقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضاً يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْماً صالِحِينَ.

١٠ ● قالَ قائِلٌ مِنْهُمْ لاٰ تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فاعِلِينَ.

١١ ● قالُوا يا أَبانا مالَكَ لاٰ تَأْمَنّا عَلىٰ يُوسُفَ وَإِنّا لَهُ لَناصِحُونَ.

١٢ ● أَرْسِلْهُ مَعَنا غَداً يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنّا لَهُ لَحافِظُونَ.

١٣ ● قالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذهَبُوا بِهِ وَأَخافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غافِلُونَ.

---

١. يوسف ١ـ٦: بحث حول سجدة يعقوب ﷺ ليوسف ﷺ.

١٤ ● قالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذاً لَخاسِرُونَ.

١٥ ● فَلَمّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيابَتِ الجُبِّ
وَأَوْحَيْنا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هٰذا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ.

١٦ ● وَجاؤُا أَباهُمْ عِشاءً يَبْكُونَ.

١٧ ● قالُوا يا أَبانا إِنّا ذَهَبْنا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنا يُوسُفَ عِنْدَ مَتاعِنا
فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَما أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنا وَلَوْ كُنّا صادِقِينَ.

١٨ ● وَجاؤُا عَلىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ
أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللّٰهُ الْمُسْتَعانُ عَلىٰ ما تَصِفُونَ.

١٩ ● وَجاءَتْ سَيّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وارِدَهُمْ فَأَدْلىٰ دَلْوَهُ قالَ يا بُشْرىٰ
هٰذا غُلامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضاعَةً وَٱللّٰهُ عَلِيمٌ بِما يَعْمَلُونَ.

٢٠ ● وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَراهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكانُوا فِيهِ مِنَ
الزّاهِدِينَ.

٢١ ● وَقالَ الَّذِي ٱشْتَرىٰهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوىٰهُ عَسىٰ أَنْ
يَنْفَعَنا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَكَذٰلِكَ مَكَّنّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ
وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الأَحادِيثِ وَٱللّٰهُ غالِبٌ عَلىٰ أَمْرِهِ وَلٰكِنَّ
أَكْثَرَ النّاسِ لا يَعْلَمُونَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آياتٌ لِلسّائِلِينَ﴾ شروع في

القصة وفيه التنبيه على أن القصة مشتملة على آيات إلهية دالة على توحيد الله سبحانه، وأنه هو الولي يلي امور عباده المخلصين حتى يرفعهم الى عرش العزة، ويثبتهم في أريكة الكمال فهو تعالى الغالب على أمره يسوق الأسباب الى حيث يشاء لا الى حيث يشاء غيره ويستنتج منها ما يريد لا ما هو اللائح الظاهر منها.

وفي قوله تعالى: ﴿لِلسَّائِلِينَ﴾ دلالة على أنه كان هناك جماعة سألوا النبي ﷺ عن القصة أو عما يرجع بوجه الى القصة فانزلت في هذه السورة.

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ ذكر في المجمع أن العصبة هي الجماعة التي يتعصب بعضها لبعض، ويقع على جماعة من عشرة الى خمسة عشر، وقيل: ما بين العشرة الى الأربعين، ولا واحد له من لفظه كالقوم والرهط والنفر. انتهى.

وقوله: ﴿إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا﴾ القائلون هم أبناء يعقوب ما خلا يوسف وأخاه الذي ذكروه معه، وكانت عدتهم عشرة وهم رجال اقوياء بيدهم تدبير بيت أبيهم يعقوب وإدارة مواشيه وأمواله كما يدل عليه قولهم: «ونحن عصبة».

وقولهم: «ليوسف وأخوه» بنسبته الى يوسف مع أنهم جميعاً أبناء ليعقوب وإخوة فيما بينهم يشعر بأن يوسف وأخاه هذا كانا أخوين لام واحدة وأخوين لهؤلاء القائلين لأب فقط، والروايات تذكر أن اسم أخي يوسف هذا «بنيامين». والسياق يشهد أنهما كانا صغيرين لا يقومان بشيء من أمر بيت يعقوب وتدبير مواشيه وأمواله.

وقولهم: ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ أي عشرة أقوياء مشدود ضعف بعضنا بقوة بعض، وهو حال عن الجملة السابقة يدل على حسدهم وحنقهم لهما وغيظهم على أبيهم يعقوب في حبه لهما أكثر منهم، وهو بمنزلة تمام التعليل لقولهم بعده: «إن أبانا لفي ضلال مبين».

وقولهم: ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ قضاء منهم على أبيهم بالضلال ويعنون بالضلال الاعوجاج في السليقة وفساد السيرة دون الضلال في الدين[1].

قوله تعالى: ﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضاً يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْماً صَالِحِينَ﴾ تتمة قول إخوة يوسف والآية تتضمن الفصل الثاني من مؤامرتهم في مؤتمرهم الذي عقدوه في أمر يوسف ليرسموا بذلك خطة تريح نفوسهم منه كما ذكره تعالى بقوله: ﴿وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون﴾ (الآية ١٠٢ من السورة).

وقد ذكر الله سبحانه متن مؤامرتهم في هذه الآيات الثلاث «قالوا ليوسف وأخوه أحب الى أبينا منا ونحن عصبة ـ الى قوله ـ إن كنتم فاعلين».

فأوردوا أولاً ذكر مصيبتهم في يوسف وأخيه إذ صرفا وجه يعقوب عنهم الى أنفسهما وجذبا نفسه اليهما عن سائر الأولاد فصار يلتزمهما ولا يعبأ بغيرهما ما فعلوا. وهذه محنة حالة بهم توعدهم بخطر عظيم في مستقبل الامر فيه سقوط شخصيتهم وخيبة مسعاهم وذلتهم بعد العزة وضعفهم بعد القوة، وهو انحراف من يعقوب في سيرته وطريقته.

ثم تذاكروا ثانياً في طريق التخلص من الرزية بطرح كل منهم ما هيأه من الخطة ويراه من الرأي فأشار بعضهم الى لزوم قتل يوسف، وآخرون الى طرحه أرضاً بعيدة لا يستطيع معه العود الى أبيه واللحوق بأهله فينسى بذلك اسمه ويمحو رسمه فيخلو وجه أبيهم لهم وينبسط حبه وحبائه فيهم.

ثم اتفقوا على ما يقرب من الرأي الثاني وهو أن يلقوه في قعر بئر ليلتقطه بعض السيارة

---

١. يوسف ٧ ـ ٢١: بحث في معنى قول ابناء يعقوب «ان ابانا لفي ضلال مبين» علة حسد اخوان يوسف عليه: ان يعقوب كان يحبّ يوسف واخاه في الله.

ويذهبوا به الى بعض البلاد النائية البعيدة فينقطع بذلك خبره ويعفى أثره.

فقوله تعالى: ﴿أَقْتُلُوا يُوسُفَ﴾ حكاية لأحد الرأيين منهم في أمره. وفي ذكرهم يوسف وحده ـ وقد ذكروا في مفتتح كلامهم في المؤامرة يوسف وأخاه معا «ليوسف وأخوه أحب الى أبينا منا» ـ دليل على أنه كان مخصوصاً بمزيد حب يعقوب وبلوغ عنايته واهتمامه وإن كان أخوه أيضاً محبواً بالحب والإكرام من بينهم وكيف لا؟ ويوسف هو الذي رآى الرؤيا وبشر بأخص العنايات الإلهية والكرامات الغيبية. وقد كان أكبرهما والخطر المتوجه من قبله اليهم أقرب مما من قبل أخيه. ولعل في ذكر الأخوين معا إشارة الى حب يعقوب لامهما الموجب لحبه بالطبع لهما وتهييج حسد الإخوة وغيظهم وحقدهم بالنسبة اليهما.

وقوله: ﴿أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضاً﴾ حكاية رأيهم الثاني فيه. والمعنى صيروه أو غربوه في أرض لا يقدر معه على العود الى بيت أبيه فيكون كالمقتول ينقطع أثره ويستراح من خطره كإلقائه في بئر أو تغريبه الى مكان ناء ونظير ذلك.

والدليل عليه تنكير «أرض» ولفظ الطرح الذي يستعمل في القاء الانسان المتاع أو الأثاث الذي يستغني عنه ولا ينتفع به للإعراض عنه.

وفي نسبة الرأيين بالترديد اليهم، دليل على أن مجموع الرأيين كان هو المرضي عند أكثر الإخوة حتى قال قائل منهم: لا تقتلوا يوسف، الخ.

وقوله: ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ أي افعلوا به أحد الأمرين حتى يخلو لكم وجه أبيكم وهو كناية عن خلوص حبه لهم بإرتفاع المانع الذي يجلب الحب والعطف الى نفسه كأنهم ويوسف إذا اجتمعوا وأباهم حال يوسف بينه وبينهم وصرف وجهه الى نفسه فإذا ارتفع خلا وجه أبيهم لهم واختص حبه بهم وانحصر إقباله عليهم.

وقوله: ﴿وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْماً صَالِحِينَ﴾ أي وتكونوا من بعد يوسف أو من

بعد قتله أو نفيه ـ والمآل واحد ـ قوماً صالحين بالتوبة من هذه المعصية.

وفي هذا دليل على أنهم كانوا يرونه ذنباً وإثماً، وكانوا يحترمون أمر الدين ويقدسونه لكن غلبهم الحسد وسولت لهم أنفسهم اقتراف الذنب وارتكاب المظلمة وآمنهم من عقوبة الذنب بتلقين طريق يمكنهم من الاقتراف من غير لزوم العقوبة الإلهية وهو أن يقترفوا الذنب ثم يتوبوا.

وهذا من الجهل فإن التوبة التي شأنها هذا الشأن غير مقبولة البتة فإن من يوطن نفسه من قبل على المعصية ثم التوبة منها لا يقصد بتوبته الرجوع الى الله والخضوع لمقامه حقيقة بل إنما يقصد المكر بربه في دفع ما أوعده من العذاب والعقوبة مع المخالفة لأمره أو نهيه، فتوبته ذيل لما وطن عليه نفسه أولاً: أن يذنب فيتوب فهي في الحقيقة تتمة ما رامه أولاً من نوع المعصية وهو الذنب الذي تعقبه توبة وليست رجوعاً الى ربه بالندم على ما فعل. وقد تقدم البحث عن معنى التوبة في تفسير قوله تعالى: ﴿**إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة**﴾ الآية، (النساء / ١٧) الجزء الرابع من الكتاب.

وقيل المراد بالصلاح في الآية صلاح الأمر من حيث سعادة الحياة الدنيا وانتظام الامور فيها والمعنى وتكونوا من بعده قوماً صالحين بصلاح أمركم مع أبيكم.

قوله تعالى: ﴿**قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لاَ تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ**﴾ الجب هو البئر التي لم يطو أي لم يبن داخلها بالحجارة، وإن بني بها سميت البئر طوياً، والغيابة بفتح الغين المنهبط من الأرض الذي يغيب ما فيه من الأنظار وغيابة الجب قعره الذي لا يرى لما فيه من الظلمة.

وقد اختار هذا القائل الرأي الثاني المذكور في الآية السابقة الذي يشير اليه قوله: «أو اطرحوه أرضاً» إلّا أنه قيده بما يؤمن معه القتل أو أمر آخر يؤدي الى هلاكه كأن يلقى في بئر ويترك فيها حتى يموت جوعاً أو ما يشاكل ذلك، فما أبداه من الرأي يتضمن نفي يوسف

من الأرض من غير أن يتسبب الى هلاكه بقتل أو موت أو نقص يشبهه فيكون اهلاكاً لذي رحم، وهو أن يلقي في بعض الآبار التي على طريق المارة حتى يعثروا به عند الاستقاء فيأخذوه ويسيروا به الى بلاد نائية تعفو أثره وتقطع خبره. والسياق يشهد بأنهم ارتضوا هذا الرأي إذ لم يذكر رد منهم بالنسبة اليه وقد جرى عملهم عليه كما هو مذكور في الآيات التالية.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَالَكَ لاَ تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ﴾ أصل «لا تأمنا» لا تأمننا ثم ادغم بالإدغام الكبير.

والآية تدل على ان الإخوة أجمعوا على قول القائل: لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابة الجب، وأجمعوا على أن يمكروا بأبيهم فيأخذوا يوسف ويفعلوا به ما عزموا عليه وقد كان أبوهم لا يأمنهم على يوسف ولا يخليه وإياهم فكان من الواجب قبلاً أن يزكوا أنفسهم عند أبيهم ويجلوّا قلبه من كدر الشبهة والارتياب حتى يتمكنوا من أخذه والذهاب به. ولذلك جاؤا أباهم وخاطبوه بقولهم: «يا أبانا ـ وفيه اثارة للعطف والرحمة وإيثار للمودة ـ ما لك لا تأمنا على يوسف وإنا له لناصحون» أي والحال أنا لا نريد به إلّا الخير ولا نبتغي إلّا ما يرضيه ويسره.

ثم سألوه ما يريدونه وهو أن يرسله معهم الى مرتعهم الذي كانوا يخرجون اليه ماشيتهم وغنمهم ليرتع ويلعب هناك، وهم حافظون له فقالوا «ارسله معنا» الخ.

قوله: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَداً يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ الرتع هو توسع الحيوان في الرعي والانسان في التنزه وأكل الفواكه ونحو ذلك.

وقولهم: «أرسله معنا غداً يرتع ويلعب» اقتراح لمسؤلهم كما تقدمت الإشارة اليه وقولهم: «وإنا لحافظون» اكدوه بوجوه التأكيد: إن واللام والجملة الاسمية على وزان قولهم: «وإنا له لناصحون» كما يدل ان كل واحدة من الجملتين تتضمن نوعاً من التطييب

لنفس أبيهم كأنهم قالوا: ما لك لا تأمنا على يوسف فإن كنت تخاف عليه ايانا معشر الإخوة كأن نقصده بسوء فإنا له لناصحون وإن كنت تخاف عليه غيرنا مما يصيبه أو يقصده بسوء كأن يدهمه مكروه ونحن مساهلون في حفظه ومستهينون في كلاءته فإنا له لحافظون.

فالكلام مسوق على ترتيبه الطبعي: ذكروا أولاً أنه في أمن من ناحيتهم دائماً ثم سألوا إن يرسله معهم غداة غد ثم ذكروا أنهم حافظون له ما دام عندهم، وبذلك يظهر ان قولهم: «وإنا له لناصحون» تأمين له دائمي من ناحية انفسهم، وقولهم: «وإنّا له لحافظون» تأمين له موقت من غيرهم.

قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾ هذا ما ذكر أبوهم جواباً لما سألوه، ولم ينف عن نفسه أنه لا يأمنهم عليه وإنما ذكر ما يأخذه من الحالة النفسانية لو ذهبوا به فقال وقد أكد كلامه «إني ليحزنني أن تذهبوا به» وقد كشف عن المانع أنه نفسه التي يحزنها ذهابهم به لا ذهابهم به لاذهابهم به الموجب لحزنه تلطفاً في الجواب معهم ولئلا يهيج ذلك عنادهم ولجاجهم وهو من لطائف النكت.

واعتذر اليهم في ذلك بقولهم: «وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون» وهو عذب موجه فإن الصحاري ذوات المراتع التي تأوى اليها المواشي وترتع فيها الأغنام لا تخلو طبعاً من ذئاب او سباع تقصدها وتكمن فيها للافتراس والاصطياد فمن الجائز أن يقبلوا على بعض شأنهم ويغفلوا عنه فيأكله الذئب.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذاً لَخَاسِرُونَ﴾ تجاهلوا لأبيهم كأنهم لم يفقهوا إلاّ أنه يأمنهم عليه لكن يخاف أن يأكله الذئب على حين غفلة منهم فردوه رد منكر مستغرب، وذكروا لتطييب نفسه انهم جماعة اقوياء متعاضدون ذووا بأس وشدة، واقسموا بالله إن أكل الذئب إياه وهم عصبة يقضي بخسرانهم ولن يكونوا

خاسرين البتة، وإنما أقسموا ـ كما يدل عليه لام القسم ـ ليطيبوا نفسه ويذهبوا بحزنه فلا يمنعهم من الذهاب به، وهذا شائع في الكلام «وفي الكلام وعد ضمني منهم له أنهم لن يغفلوا» لكنهم لم يلبثوا يوماً حتى كذبوا أنفسهم فيما أقسموا له واخلفوه ما وعدوه، إذ قالوا «يا أبانا إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب» الآية.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الجُبِّ﴾ قال الراغب: أجمعت على كذا أكثر ما يقال فيما يكون جمعاً يتوصل اليه بالفكرة نحو فأجمعوا أمركم وشركاءكم. قال: ويقال: أجمع المسلمون على كذا اتفقت آراؤهم عليه. انتهى.

وفي المجمع: أجمعوا أي عزموا جميعاً أن يجعلوه في غيابة الجب أي قعر البئر واتفقت دواعيهم عليه فإن من دعاه داع واحد الى الشيء لا يقال فيه إنه أجمع عليه فكأنه مأخوذ من اجتماع الدواعي. انتهى.

والآية تشعر بأنهم أقنعوا أباهم بما قالوا له من القول وأرضوه أن لا يمنعهم أن يخرجوا يوسف معهم الى الصحراء فحملوه معهم لإنفاذ ما ازمعوا عليه من القائه في غيابة الجب.

وجواب لما محذوف للدلالة على فجاعة الأمر وفظاعته، وهي صنعة شائعة في الكلام ترى المتكلم يصف أمراً فظيعاً كقتل فجيع يحترق به القلب ولا يطيقه السمع فيشرع في بيان أسبابه والاحوال التي تؤدي اليه فيجري في وصفه حتى إذا بلغ نفس الحادثة سكت سكوتاً عميقاً ثم وصف ما بعد القتل من الحوادث فيدل بذلك على أن صفة القتل بلغت من الفجاعة مبلغاً لا يسع المتكلم أن يصرح به ولا يطيق السامع أن يسمعه.

فكأن الذي يصف القصة ـ عزّ اسمه ـ لما قال «ولما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب» سكت مليا وأمسك عن ذكر ما فعلوا به أسى وأسفا لأن السمع لا يطيق وعي ما فعلوا بهذا الطفل المعصوم المظلوم النبي ابن الأنبياء ولم يأت بجرم يستحق به شيئاً مما ارتكبوه فيه وهم اخوته وهم يعلمون مبلغ حب أبيه النبي الكريم يعقوب له فيا قاتل الله

الحسد يهلك شقيقاً مثل يوسف الصديق بأيدي إخوته، ويثكل أبا كريماً مثل يعقوب بأيدي أبنائه، ويزين بغيا شنيعاً كهذا في اعين رجال ربوا في حجر النبوة ونشؤا في بيت الأنبياء.

ولما حصر الغرض بالسكوت عن جواب لما جرى سبحانه في ذيل القصة فقال «وأوحينا إليه» الخ.

قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هٰذا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ الضمير ليوسف وظاهر الوحي أنه من وحي النبوة، والمراد بأمرهم هذا إلقاؤهم إياه في غيابة الجب، وكذا الظاهر أن جملة «وهم لا يشعرون» حال من الإيحاء المدلول عليه بقوله: «وأوحينا» الخ؛ ومتعلق «لا يشعرون» هو الأمر أي لا يشعرون بحقيقة أمرهم هذا أو الإيحاء أي وهم لا يشعرون بما أوحينا اليه.

والمعنى ـ والله أعلم ـ وأوحينا الى يوسف أُقسم لتخبرنهم بحقيقة أمرهم هذا وتأويل ما فعلوا بك فإنهم يرونه نفياً لشخصك وإنساء لاسمك وإطفاء لنورك وتذليلاً لك وحطاً لقدرك وهو في الحقيقة تقريب لك الى أريكة العزة وعرش المملكة وإحياء لذكرك وإتمام لنورك ورفع لقدرك وهم لا يشعرون بهذه الحقيقة وستنبؤهم بذلك، وهو قوله لهم وقد اتكى على أريكة العزة وهم قيام أمامه يسترحمونه بقولهم: ﴿يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة فأوف لنا الكيل وتصدق علينا إن الله يجزي المتصدقين﴾ إذ قال ﴿هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون ـ الى أن قال ـ أنا يوسف وهذا أخي قد منّ الله علينا﴾ الخ.

انظر الى موضع قوله: «هل علمتم» فإنه إشارة الى أن هذا الذي تشاهدونه اليوم من الحال هو حقيقة ما فعلتم بيوسف، وقوله: «إذ أنتم جاهلون» فإنه يحاذي من هذه الآية التي نحن فيها قوله: «وهم لا يشعرون».

قوله تعالى: ﴿وَجاؤُوا أَباهُمْ عِشاءً يَبْكُونَ﴾ العشاء آخر النهار، وقيل: من صلاة

المغرب الى العتمة، وإنما كانوا يبكون ليلبسوا الأمر على أبيهم فيصدقهم فيما يقولون ولا يكذبهم.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ﴾ الى آخر الآية: قال الراغب في المفردات: أصل السبق التقدم في السير نحو «والسابقات سبقاً» والاستباق التسابق وقال «إنا ذهبنا نستبق» «واستبقا الباب» انتهى، وقال الزمخشري في الكشاف: نستبق أي نتسابق، والافتعال والتفاعل يشتركان كالانتضال والتناضل والارتماء والترامي وغير ذلك، والمعنى نتسابق في العدو أو في الرمي. انتهى.

وقوله: ﴿بِمُؤْمِنٍ لَنَا﴾ أي بمصدق لقولنا، والإيمان يتعدى باللام كما يتعدى بالباء قال تعالى ﴿فآمن له لوط﴾ (العنكبوت / ٢٦).

والمعنى ـ إنهم حينما جاؤوا أباهم عشاء يبكون ـ قالوا لأبيهم: يا أبانا إنا معشر الإخوة ذهبنا الى البيداء نتسابق في عدو أو رمي ـ ولعله كان في عدو ـ فإن ذلك أبلغ في إبعادهم من رحلهم ومتاعهم وكان عنده يوسف على ما ذكروا ـ وتركنا يوسف عند رحلنا ومتاعنا فأكله الذئب، ومن خيبتنا ومسكنتنا أنك لست بمصدق لنا فيما نقوله ونخبر به ولو كنا صادقين فيه.

وقولهم: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ كلام يأتي بمثله المعتذر إذا انقطع عن الأسباب وانسدت عليه طرق الحيلة، للدلالة على أن كلامه غير موجه عند من يعتذر اليه وعذره غير مسموع وهو يعلم بذلك لكنه مع ذلك مضطر أن يخبر بالحق ويكشف عن الصدق وإن كان غير مصدق فيه، فهو كناية عن الصدق في المقال.

قوله تعالى: ﴿وَجَاؤُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ الكذب بالفتح فالكسر مصدر أُريد به الفاعل للمبالغة أي بدم كاذب بين الكذب.

وفي الآية إشعار بأن القميص وعليه دم ـ وقد نكر الدم للدلالة على هوان دلالته وضعفها على ما وصفوه ـ كان على صفة تكشف عن كذبهم في مقالهم فإن من افترسته السباع وأكلته لم تترك له قميصاً سالماً غير ممزق. هذا شأن الكذب لا يخلو الحديث الكاذب ولا الاحدوثة الكاذبة من تناف بين أجزائه وتناقض بين أطرافه أو شواهد من أوضاع وأحوال خارجية تحف به وتنادي بالصدق وتكشف القناع عن قبيح سريرته وباطنه وإن حسنت صورته[١].

قوله تعالى: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ هذا جواب يعقوب وقد فوجىء بنعي ابنه وحبيبه يوسف دخلوا عليه وليس معهم يوسف وهم يبكون يخبرونه أن يوسف قد أكله الذئب وهذا قميصه الملطخ بالدم. وقد كان يعلم بمبلغ حسدهم له وهم قد انتزعوه من يده بالحاح وإصرار وجاؤا بمقيصه وعليه دم كذب ينادي بكذبهم فيما قالوه وأخبروا به.

فأضرب عن قولهم: «إنا ذهبنا نستبق» الخ؛ بقوله: «بل سولت لكم أنفسكم أمراً» والتسويل الوسوسة أي ليس الأمر على ما تخبرون بل وسوست لكم أنفسكم فيه أمراً. وأبهم الأمر ولم يعنيه ثم أخبر أنه صابر في ذلك من غير أن يؤاخذهم وينتقم منهم لنفسه إنتقاماً وإنما يكظم ما هجم نفسه كظماً.

فقوله: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً﴾ تكذيب لما أخبروا به من أمر يوسف وبيان أنه على علم من أن فقد يوسف لا يستند الى ما ذكروه من افتراس السبع وإنما يستند الى مكر مكروه وتسويل من أنفسهم لهم. والكلام بمنزلة التوطئة لما ذكره بعد من قوله: «فصبر جميل» الى آخر الآية.

---

١. يوسف ٧ ـ ٢١: كلام في ان الكذب لا يفلح.

وقوله: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ مدح للصبر وهو من قبيل وضع السبب موضع المسبب والتقدير: سأصبر على ما أصابني فإن الصبر جميل وتنكير الصبر وحذف صفته وإبهامها للإشارة الى فخامة أمره وعظم شأنه أو مرارة طعمه وصعوبة تحمله.

وقد فرّع قوله: «فصبر جميل» على ما تقدم للإشعار بأن الأسباب التي أحاطت به وأفرغت عليه هذه المصيبة هي بحيث لا يسع له معها إلّا أن يملك سبيل الصبر، وذلك أنه عليه‌السلام فقد أحب الناس اليه يوسف وهو ذا يذكر له أنه صار أُكلة للذئب وهذا قميصه ملطخاً بالدم وهو يرى أنهم كاذبون فيما يخبرونه به، ويرى أن لهم صنعاً في افتقاده ومكراً في أمره ولا طريق له الى التحقيق فيما جرى على يوسف والتجسس مما آل اليه أمره وأين هو؟ وما حاله؟ فإنما أعوانه على أمثال هذه النوائب وأعضاده لدفع ما يقصده من المكاره إنما هم أبناؤه وهم عصبة أُولوا قوة وشدة فإذا كانوا هم الأسباب لنزول النائبة ووقوع المصيبة فبمن يقع فيهم؟ وبماذا يدفعهم عن نفسه؟ فلا يسعه إلّا الصبر.

فقوله: ﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ ـ وهو من أعجب الكلام ـ بيان لتوكله على ربه يقول: إني أعلم أن لكم في الأمر مكراً وأن يوسف لم يأكله ذئب لكنني لا أركن في كشف كذبكم والحصول على يوسف بالأسباب الظاهرة التي لا تغني طائلاً بغير إذن من الله ولا أتشحط بينها بل أضبط استقامة نفسي بالصبر وأُوكل ربي أن يظهر على ما تصفون أن يوسف قد قضى نحبه وصار أُكلة لذئب.

فظهر أن قوله: «والله المستعان على ما تصفون» دعاء في موقف التوكل ومعناه: اللهم إني توكلت عليك في أمري هذا فكن عوناً لي على ما يصفه بني هؤلاء، والكلمة مبنية على توحيد الفعل فإنها مسوقة سوق الحصر ومعناها أن الله سبحانه هو المستعان لا مستعان لي غيره فإنه عليه‌السلام كان يرى أن لا حكم حقاً إلّا حكم الله كما قال فيما سيأتي من كلامه «إن الحكم إلّا لله عليه توكلت»، ولتكميل هذا التوحيد بما هو أعلى منه لم يذكر نفسه فلم يقل:

سأصبر ولم يقل: والله أستعين على ما تصفون بل ترك نفسه وذكر اسم ربه وأن الأمر منوط بحكمه الحق وهو من كمال توحيده وهو مستغرق في وجده وأسفه وحزنه ليوسف غير أنه ما كان يحب يوسف ولا يتوله فيه ولا يجد لفقده إلّا لله وفي الله.

قوله تعالى: ﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ قال الراغب: الورود أصله قصد الماء ثم يستعمل في غيره. انتهى، وقال: دلوت الدلو إذا أرسلتها، وأدليتها إذا أخرجتها. انتهى، وقيل بالعكس، وقال: الإسرار خلاف الإعلان. انتهى.

وقوله: ﴿قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ﴾ إيراده بالفصل مع أنه متفرع وقوعاً على إدلاء الدلو للدلالة على أنه كان أمراً غير مترقب الوقوع فإن الذي يترقب وقوعه غير الإدلاء هو خروج الماء دون الحصول على غلام فكان مفاجئاً لهم ولذا قال «قال يا بشرى» ونداء البشرى كنداء الأسف والويل ونظائرهما للدلالة على حضوره وجلاء ظهوره.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ مفاده ذم عملهم والإنابة عن كونه معصية محفوظة عليهم سيؤاخذون بها، ويمكن أن يكون المراد به أن ذلك إنما كان بعلم من الله أراد بذلك أن يبلغ يوسف مبلغه الذي قدر له فإنه لو لم يخرج من الجب ولم يسر بضاعة لم يدخل بيت العزيز بمصر فلم يؤت ما اوتيه من الملك والعزة.

والمعنى الآية: وجاءت جماعة مارة الى هناك فأرسلوا من يطلب لهم الماء فأرسل دلوه في الجب ثم لما أخرجها فاجأهم بقوله: «يا بشرى هذا غلام» ـ وقد تعلق يوسف بالحبل فخرج ـ فأخفوه بضاعة يقصد بها البيع والتجارة والحال أن الله سبحانه عليم بما يعملون يؤاخذهم عليه أو أن ذلك كان بعلمه تعالى وكان يسير يوسف هذا المسير ليستقر في مستقر العزة والملك والنبوة.

قوله تعالى: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ

الزَّاهِدِينَ ﴾ الثمن البخس هو الناقص عن حق القيمة، ودراهم معدودة أي قليلة والوجه فيه ـ على ما قيل ـ أنهم كانوا إذا كثرت الدراهم أو الدنانير وزنوها ولا يعدون إلّا القليلة منها والمراد بالدراهم النقود الفضية الدائرة بينهم يومئذ. والشراء هو البيع، والزهد هو الرغبة عن الشيء أو هو كناية عن الاتقاء.

والظاهر من السياق أن ضميري الجمع في قوله: «وشروه» «وكانوا» للسيارة والمعنى أن السيارة الذين أخرجوه من الجب وأسروه بضاعة باعوه بثمن بخس ناقص وهي دراهم معدودة قليلة وكانوا يتقون أن يظهر حقيقة الحال فينتزع هو من أيديهم.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَيهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً﴾ السياق يدل على أن السيارة حملوا يوسف معهم الى مصر وعرضوه هناك للبيع فاشتراه بعض أهل مصر وأدخله في بيته.

وقد أعجبت الآيات في ذكر هذا الذي اشتراه وتعريفه فذكر فيها اولاً بمثل قوله تعالى: ﴿**وقال الذي اشتراه من مصر**﴾ فأنبأت أنه كان رجلاً من أهل مصر، وثانياً بمثل قوله: ﴿**وألفيا سيدها لدى الباب**﴾ فعرفته بأنه كان سيداً مصموداً اليه، وثالثاً بمثل قوله: ﴿**وقال نسوة في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه**﴾ فأوضحت أنه كان عزيزاً في مصر يسلم له أهل المدينة العزة والمناعة، ثم أشارت الى أنه كان له سجن وهو من شؤن مصدرية الامور والرئاسة بين الناس، وعلم بذلك أن يوسف كان ابتيع أول يوم لعزيز مصر ودخل بيت العزة.

وبالجملة لم يعرف الرجل كل مرة في كلامه تعالى إلّا بمقدار ما يحتاج اليه موقف الحديث من القصة، ولم يكن لأول مرة في تعريفه حاجة الى أزيد من وصفه بأنه كان رجلاً من أهل مصر وبها بيته فلذا اقتصر في تعريفه بقوله: «وقال الذي اشتراه من مصر».

وكيف كان، الآية تنبيء علي إيجازها بأن السيارة حملوا يوسف معهم وأدخلوه مصر وشروه من بعض أهلها فأدلخه بيته ووصاه امرأته قائلاً: اكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو

نتخذه ولداً.

فقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ﴾ أي العزيز «لامرأته» وهي العزيزة «أكرمي مثواه» أي تصدي بنفسك أمره واجعلي له مقاماً كريماً عندك «عسى أن ينفعنا» في مقاصدنا العالية وامورنا الهامة «أو نتخذه ولداً» بالتبني.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ قال في المفردات المكان عند أهل اللغة الموضع الحاوي للشيء قال ويقال: مكنته ومكنت له فتمكن، قال تعالى: ﴿ولقد مكناهم في الأرض﴾ ﴿ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه﴾ ﴿أو لم نمكن لهم﴾ ﴿ونمكن لهم في الأرض﴾ قال: قال الخليل: المكان مفعل من الكون، ولكثرته في الكلام أُجري مجرى فعال فقيل: تمكن وتمسكن مثل تمنزل. انتهى. فالمكان هو مقر الشيء من الأرض، والإمكان والتمكين الإقرار والتقرير في المحل، وربما يطلق المكان المكانة لمستقر الشيء من الامور المعنوية كالمكانة في العلم وعند الناس يقال: أمكنته من الشيء فتمكن منه أي أقدرته فقدر عليه وهو من قبيل الكناية.

ولعل المراد من تمكين يوسف في الأرض إقراره فيه بما يقدر معه على التمتع من مزايا الحياة والتوسع فيها بعد ما حرّم عليه إخوته القرار على وجه الأرض فألقوه في غيابة الجب ثم شروه بثمن بخس ليسير به الركبان من أرض الى أرض ويتغرّب عن أرضه ومستقر أبيه.

وقد ذكر تعالى تمكينه ليوسف في الأرض في خلال قصته مرتين إحداهما بعد ذكر خروجه من غيابة الجب وتسيير السيارة إياه الى مصر وبيعه من العزيز وهو قوله في هذه الآية: ﴿ولقد مكنا ليوسف في الأرض﴾ وثانيتهما بعد ذكر خروجه من سجن العزيز وانتصابه على خزائن أرض مصر حيث قال تعالى: ﴿وكذلك مكنا ليوسف في الأرض يتبوء منها حيث يشاء﴾ (الآية ٥٦ من السورة) والعناية في الموضعين واحدة.

وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ الإشارة الى ما ذكره من إخراجه من الجب وبيعه واستقراره في بيت العزيز فإن كان المراد من تمكينه في الأرض هذا المقدار من التمكين الذي حصل به من دخوله في بيت العزيز واستقراره فيه على أهناء عيش بتوصية العزيز فالتشبيه من قبيل تشبيه الشيء بنفسه ليدل به على غزارة الاوصاف المذكورة له وليس من القسم المذموم من تشبيه الشيء بنفسه كقوله:

كأننا والماء من حولنا قوم جلوس حولهم ماء

بل المراد أن ما فعلنا به من التمكين في الأرض كان يماثل هذا الذي وصفناه وأخبرنا عنه فهو يتضمن من الاوصاف الغزيرة ما يتضمنه ما حدثناه فهو تلطف في البيان بجعل الشيء مثل نفسه بالتشبيه دعوى ليلفت به ذهن السامع الى غزارة أوصافه وأهميتها وتعلق النفس بها كما هو شأن التشبيه.

ومن هذا الباب قوله تعالى: ﴿**ليس كمثله شيء**﴾ (الشورى / ١١) وقوله تعالى: ﴿**لمثل هذا فلعمل العاملون**﴾ (الصافات / ٦١) والمراد أن كل ما اتصف من الصفات بما اتصف به الله سبحانه لا يشبهه ولا يماثله شيء، وأن كل ما اشتمل من الصفات على ما اشتملت عليه الجنة وماثلها في صفاتها فليعمل العاملون لأجل الفوز به.

وإن كان المراد بالتمكين مطلق تمكينه في الأرض فتشبيه بما ذكر من الوصف من قبيل تشبيه الكلي ببعض أفراده ليدل به على أن سائر الأفراد حالها حال هذا الفرد أو تشبيه الكل ببعض اجزائه للدلالة على أن الأجزاء الباقية حالها حال ذاك الجزء المذكور فيكون المعنى كان تمكيننا ليوسف في الأرض يجري على هذا النمط المذكور في قصة خروجه من الجب ودخوله مصر واستقراره في بيت العزيز على أحسن حال فإن إخوته حسدوه وحرموا عليه القرار على وجه الأرض عند أبيه فألقوه في غيابة الجب وسلبوه نعمة التمتع في وطنه في البادية وباعوه من السيارة ليغربوه من أهله فجعل الله سبحانه كيدهم هذا بعينه سبباً يتوسل

به الى التمكن والاستقرار في بيت العزيز بمصر على أحسن حال ثم تعلقت به امرأة العزيز وراودته هي ونسوة مصر ليوردنه في الصبوة والفحشاء فصرف الله عنه كيدهن وجعل ذلك بعينه وسيلة لظهور إخلاصه وصدقه في ايمانه ثم بدا لهم أن يجعلوه في السجن ويسلبوا عنه حرية معاشرة الناس والمخالطة لهم فتسبب الله سبحانه بذلك بعينه الى تمكينه في الأرض تمكيناً يتبوّء من الأرض حيث يشاء لا يمنعه مانع ولا يدفعه دافع.

وبالجملة الآية على هذا التقدير من قبيل قوله تعالى: ﴿**كذلك يضل الله الكافرين**﴾ (المؤمن / ٧٤) وقوله: ﴿**كذلك يضرب الله الأمثال**﴾ (الرعد / ١٧) أي إن إضلاله تعالى للكافرين يجري دائماً هذا المجرى، وضربه الأمثال أبداً على هذا النحو من المثل المضروب وهو أُنموذج ينبغي أن يقال اليه غيره.

وقوله: ﴿وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ بيان لغاية التمكين المذكور واللام للغاية، وهو معطوف على مقدر والتقدير: مكنا له في الأرض لنفعل به كذا وكذا ولنعلمه من تأويل الأحاديث وإنما حذف المعطوف عليه للدلالة على أن هناك غايات أُخر لا يسعها مقام التخاطب، ومن هذا القبيل قوله تعالى: ﴿**وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين**﴾ (الأنعام / ٧٥) ونظائره.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الظاهر أن المراد بالأمر الشأن وهو ما يفعله في الخلق مما يتركب منه نظام التدبير قال تعالى: ﴿**يدبر الأمر**﴾ (يونس / ٣)، وإنما أُضيف اليه تعالى لأنه مالك كل أمر كما قال تعالى: ﴿**ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين**﴾ (الأعراف / ٥٤).

والمعنى أن كل شأن من شؤن الصنع والإيجاد من أمره تعالى وهو تعالى غالب عليه وهو مغلوب له مقهور دونه يطيعه فيما شاء، ينقاد له فيما أراد، ليس له أن يستكبر او يتمرد فيخرج من سلطانه كما ليس له أن يسبقه تعالى ويفوته، قال تعالى: ﴿**إن الله بالغ أمره**﴾

(الطلاق / ٣).

وبالجملة هو تعالى غالب على هذه الأسباب الفعالة بإذنه يحمل عليها ما يريده فليس لها إلّا السمع والطاعة ولكن أكثر الناس لا يعلمون لحسبانهم أن الأسباب الظاهرة مستقلة في تأثيرها فعالة برؤسها فإذا ساقت الحوادث الى جانب لم يحولها عن وجهتها شيء وقد أخطأوا[١].

٢٢ ● وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ.

٢٣ ● وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللّٰهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ.

٢٤ ● وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَءَا بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ.

٢٥ ● وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءً إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ.

٢٦ ● قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ.

---

١. يوسف ٧ ـ ٢١ : بحث روائي حول اطعام المساكين : يوسف واخوته : انواع الانبياء.

٢٧ • وَإِنْ كانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصّادِقِينَ.

٢٨ • فَلَمّا رَءَا قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ.

٢٩ • يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هٰذا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخاطِئِينَ.

٣٠ • وَقالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُراوِدُ فَتاها عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَها حُبّاً إِنّا لَنَراها فِي ضَلالٍ مُبِينٍ.

٣١ • فَلَمّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَئاً وَآتَتْ كُلَّ واحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّيناً وَقالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حاشَ لِلّٰهِ ما هٰذا بَشَراً إِنْ هٰذا إِلّا مَلَكٌ كَرِيمٌ.

٣٢ • قالَتْ فَذٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ راوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ ما آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُوناً مِنَ الصّاغِرِينَ.

٣٣ • قالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجاهِلِينَ.

٣٤ • فَاسْتَجابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ.

بيان:

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ بلوغ الأشد أن يعمر الإنسان ما تشتد به قوى بدنه وتتقوى به أركانه بذهاب آثار الصباوة ، ويأخذ ذلك من ثمانية عشر من عمره الى سن الكهولة التي عندها يكمل العقل ويتم الرشد .

والظاهر أن المراد به الانتهاء الى أول سن الشباب دون التوسط فيه أو الانتهاء الى آخره كالأربعين ، والدليل عليه قوله تعالى في موسى ﷺ : ﴿ ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكماً وعلماً ﴾ (القصص / ١٤) حيث دل على التوسط فيه بقوله : « استوى » ، وقوله : ﴿ حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال رب أوزعني أن أشكر نعمتك ﴾ الآية ؛ (الأحقاف / ١٥) فلو كان بلوغ الأشد هو بلوغ الأربعين لم تكن حاجة الى تكرار قوله : « بلغ » .

وقوله : ﴿ آتَيْنَاهُ حُكْماً ﴾ الحكم هو القول الفصل وإزالة الشك والريب من الامور القابلة للاختلاف ـ على ما يتحصل من اللغة ـ ولازمه إصابة النظر في عامة المعارف الإنسانية الراجعة الى المبدأ والمعاد والأخلاق النفسانية والشرائع والآداب المرتبطة بالمجتمع البشري .

وبالنظر الى قوله ﷺ لصاحبيه في السجن : ﴿ إن الحكم إلاّ لله ﴾ (الآية ٤٠ من السورة) ، وقوله بعد : ﴿ قضي الأمر الذي فيه تستفتيان ﴾ (الآية ٤١ من السورة) ، يعلم أن هذا الحكم الذي أُوتيه كان هو حكم الله فكان حكمه حكم الله . وهذا هو الذي سأله إبراهيم ﷺ من ربه إذ قال : ﴿ رب هب لي حكماً وألحقني بالصالحين ﴾ (الشعراء / ٨٣) .

وقوله : ﴿ وَعِلْماً ﴾ وهذا العلم المذكور المنسوب الى إيتائه تعالى كيفما كان وأي مقدار كان علم لا يخالطه جهل كما أن الحكم المذكور معه حكم لا يخالطه هوى نفساني ولا

تسويل شيطاني كيف؟ والذي آتاهما هو الله سبحانه وقد قال تعالى: ﴿والله غالب على أمره﴾ (الآية ٢١ من السورة)، وقال: ﴿إن الله بالغ أمره﴾ (الطلاق / ٣) فما آتاه من الحكم لا يخالطه تزلزل الريب والشك، وما يؤتيه من العلم لا يكون جهلاً البتة.

ثم من المعلوم أن هذه المواهب الإلهية ليست بأعمال جزافية ولا لغواً أو عبثاً منه تعالى فالنفوس التي تؤتى هذا الحكم والعلم لا تستوي هي والنفوس الخاطئة في حكمها المنغمرة في جهلها، وقد قال تعالى: ﴿والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذي خبث لا يخرج إلاّ نكداً﴾ (الأعراف / ٥٨) والى ذلك الإشارة بقوله: «وكذلك نجزي المحسنين» حيث يدل على أن هذا الحكم والعلم اللذين آتاهما الله إياهما إياه لم يكونا موهبتين ابتدائيتين لا مستدعي لهما أصلاً بل هما من قبيل الجزاء جزاه الله بهما لكونه من المحسنين.

وليس من البعيد أن يستفاد من قوله: «وكذلك نجزي المحسنين» أن الله تعالى يجزي كل محسن ـ على اختلاف صفات الإحسان ـ شيئاً من الحكم والعلم يناسب موقعه في الإحسان وقد قال تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشون به﴾ (الحديد / ٢٨) وقال تعالى: ﴿أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس﴾ (الأنعام / ١٢٢).

وهذا العلم المذكور في الآية يتضمن ما وعد الله سبحانه تعليمه ليوسف من تأويل الأحاديث فإنه واقع بين قوله تعالى في الآيات السابقة: «وليعلمه من تأويل الأحاديث» وقوله حكاية عن يوسف في قوله لصاحبيه في السجن: «ذلكما ما علمني ربي» فافهم ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ قال في المفردات: الرود هو التردد في طلب الشيء برفق ومنه الرائد لطالب الكلاء، قال: والإرادة

منقولة من راد يرود إذا سعى في طلب شيء ، قال : والمراودة أن تنازع غيرك في الإرادة فتريد غير ما يريد أو ترود غير ما يرود ، وراودت فلانا عن كذا ، قال تعالى : ﴿ هي راودتني عن نفسي ﴾ وقال : ﴿ تراود فتاها عن نفسه ﴾ أي تصرفه عن رأيه ، وعلى ذلك قوله : ﴿ ولقد راودته عن نفسه ﴾ ﴿ سنراود عنه أباه ﴾ انتهى .

وفي المجمع : المراودة المطالبة بأمر بالرفق واللين ليعمل به ومنه المرود لأنه يعمل به ، ولا يقال في المطالبة بدين : راوده ، وأصله من راد يرود إذا طلب المرعى ، وفي المثل : الرائد لا يكذب أهله ، والتغليق إطباق الباب بما يعسر فتحه ، وإنما شدد ذلك لتكثير الإغلاق أو للمبالغة في الإيثاق ، انتهى .

وهيت لك اسم فعل بمعنى هلم ، ومعاذ الله أي اعوذ بالله معاذاً فهو مفعول مطلق قائم مقام فعله .

والآية الكريمة « وراودته التي هو في بيتها عن نفسه وغلقت الابواب وقالت هيت لك قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون » على ما فيها من الإيجاز تنبىء عن إجمال قصة المراودة غير أن التدبر في القيود المأخوذة فيها والسياق الذي هي واقعة فيه وسائر ما يلوح من أطراف قصته الموردة في السورة يجلي عن حقيقة الحال ويكشف القناع عن تفصيل ما خبىء من الأمر[١] .

وقوله : ﴿ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ﴾ الى آخر الآية : جواب ليوسف يقابل به مسألتها بالعياذ بالله يقول : أعوذ بالله معاذاً مما تدعينني اليه لأنه ربي الذي تولى أمري وأحسن مثواي وجعلني بذلك سعيداً مفلحاً ولو اقترفت هذا الظلم لتغربت به عن الفلاح وخرجت به من تحت ولايته .

---

١ . يوسف ٢٢ ـ ٣٤ : كلام حول قصة يوسف (يوسف ، امرأة العزيز ، يوسف وامرأة العزيز) .

وقد راعى عليه السلام في كلامه هذا أدب العبودية كله كما تقدم وقد أتى أولا بلفظة «الجلالة» ثم بصفة الربوبية ليدل به على أنه لا يعبد ربا غير الله ملة آبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلاَ أَنْ رَءَآ بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ التدبر البالغ في أطراف القصة وإمعان النظر فيما محتف به الجهات والأسباب والشرائط العاملة فيها يعطي أن نجاة يوسف منها لم تكن إلّا أمراً خارقاً للعادة وواقعة هي أشبه بالرؤيا منها باليقظة.

فقد كان يوسف عليه السلام رجلاً ومن غريزة الرجال الميل الى النساء، وكان شاباً بالغاً أشده وذلك أوان غليان الشهوة وثوران الشبق، وكان ذا جمال بديع يدهش العقول ويسلب الألباب والجمال والملاحة يدعو الى الهوى والترح، وكان مستغرقاً في النعمة وهنيىء العيش محبوراً بمثوى كريم وذلك من أقوى أسباب التهوس والإتراف، وكانت الملكة فتاة فائقة الجمال وكذلك تكون حرم الملوك والعظماء.

وكانت لا محالة متزينة بما يأخذ بمجامع كل قلب، وهي عزيزة مصر وهي عاشقة والهة تتوق اليها النفوس نفسها اليه، وكانت لها سوابق الإكرام والإحسان والإنعام ليوسف وذلك كله مما يقطع اللسان ويصمت الإنسان، وقد تعرضت له ودعته الى نفسها والصبر مع التعرض أصعب، وقد راودته هذه الفتانة وأتت فيها بما في مقدرتها من الغنج والدلال، وقد ألحت عليه فجذبته الى نفسها حتى قدت قميصه والصبر معها أصعب وأشق، وكانت عزيزة لا يرد أمرها ولا يثنى رأيها، وهي ربته خصه بها العزيز، وكانا في قصر زاه من قصور الملوك ذي المناظر الرائقة التي تبهر العيون وتدعو الى كل عيش هنيىء.

وكانا في خلوة وقد غلقت الأبواب وأرخت الستور، وكان لا يأمن الشر مع الامتناع، وكان في أمن من ظهور الأمر وانهتاك الستر لأنها كانت عزيزة بيدها أسباب الستر والتعمية، ولم تكن هذه المخالطة فائتة لمرة بل كان مفتاحاً لعيش هنيىء طويل، وكان يمكن ليوسف

أن يجعل هذه المخالطة والمعاشقة وسيلة يتوسل بها الى كثير من آمال الحياة وأمانيها كالملك والعزة والمال.

فهذه أسباب وأُمور هائلة لو توجهت الى جبل لهدته أو أقبلت على صخرة صماء لأذابتها ولم يكن هناك مما يتوهم مانعاً إلّا الخوف من ظهور الأمر أو مناعة نسب يوسف أو قبح الخيانة للعزيز.

أما الخوف من ظهور الأمر فقد مر أنه كان في أمر منه. ولو كان بدأ من ذلك شيء لكان في وسع العزيزة أن تؤوله تأويلاً كما فعلت فيما ظهر من أمر مراودتها فكادت حتى أرضت نفس العزيز إرضاء فلم يؤاخذها بشيء وقلبت العقوبة ليوسف حتى سجن.

وأما مناعة النسب فلو كانت مانعة لمنعت إخوة يوسف عما هو أعظم من الزنا وأشد إثماً فإنهم كانوا أبناء إبراهيم وإسحاق ويعقوب أمثال يوسف فلم تمنعهم شرافة النسب من أن يهموا بقتله ويلقوه في غيابت الجب ويبيعون من السيارة بيع العبيد ويثكلوا فيه أباهم يعقوب النبي عليه السلام فيبكي حتى ابيضت عيناه.

وأما قبح الخيانة وحرمتها فهو من القوانين الاجتماعية والقوانين الاجتماعية إنما تؤثر أثرها بما تستتبعه من التبعة على تقدير المخالفة. وذلك إنما يتم فيما إذا كان الإنسان تحت سلطة القوة المجرية والحكومة العادلة. وأما لو أغفلت القوة المجرية أو فسقت فأهملت أو خفي الجرم عن نظرها أو خرج من سلطانها فلا تأثير حينئذ لشيء من هذه القوانين كما سنتكلم فيه عنقريب.

فلم يكن عند يوسف عليه السلام ما يدفع به عن نفسه ويظهر به على هذه الأسباب القوية التي كانت لها عليه إلّا أصل التوحيد وهو الإيمان بالله. وإن شئت فقل المحبة الإلهية التي ملأت وجوده وشغلت قلبه فلم تترك لغيرها محلاً ولا موضع إصبع. فهذا هو ما يفيده التدبر في القصة. ولنرجع الى متن الآية.

فقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَءَا بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ لا ريب أن الآية تشير الى وجه نجاة يوسف من هذه الغائلة. والسياق يعطي أن المراد بصرف السوء والفحشاء عنه إنجاؤه مما أُريد منه وسئل بالمراودة والخلوة. وإن المشار اليه بقوله: «كذلك» هو ما يشتمل عليه قوله: «أن رآى برهان ربه».

فيؤل معنى قوله: «كذلك لنصرف» الى آخر الآية: الى أنه عليه السلام لما كان من عبادنا المخلصين صرفنا عنه السوء والفحشاء بما رآى من برهان ربه فرؤية برهان ربه هي السبب الذي صرف الله سبحانه به السوء والفحشاء عن يوسف عليه السلام.

ولازم ذلك أن يكون الجزاء المقدر لقوله: «لولا أن رآى برهان ربه» هو ارتكاب السوء والفحشاء. ولازم ذلك أن يكون «لولا أن آى» الخ: قيداً لقوله: «وهم بها» وذلك يقتضي أن يكون المراد بهمه بها نظير همها به هو القصد الى المعصية ويكون حينئذ همه بها داخلاً تحت الشرط. والمعنى أنه لولا أن رآى برهان ربه لهم بها وأوشك أن يرتكب فإن «لولا»، وإن كانت ملحقة بأدوات الشرط وقد منع النحاة تقدم جزائها عليها قياساً على إن الشرطية إلّا أن قوله: «وهم بها» ليس جزاء لها بل هو مقسم به بالعطف على قوله: «ولقد همت به» وهو في معنى الجزاء استغني به عن ذكر الجزاء فهو كقولنا: والله لأضربته إن يضربني والمعنى: والله إن يضربني أضربه.

ومعنى الآية: والله لقد همت به والله لولا أن رآى برهان ربه لهمّ بها وأوشك أن يقع في المعصية. وإنما قلنا: أوشك أن يقع، ولم نقل: وقع لأن الهم ـ كما قيل ـ لا يستعمل إلّا فيما كان مقروناً بالمانع كقوله تعالى: ﴿وهموا بما لم ينالوا﴾ (التوبة / ٧٤)، وقوله: ﴿إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا﴾ (آل عمران / ١٢٢)، وقول صخر:

أهمّ بأمر الحزم لا أستطيعه وقد حيل بين العير والنزوان

فلولا ما رآه من البرهان لكان الواقع هو الهم والاقتراب دون الارتكاب والاقتراف، وقد أشار سبحانه الى ذلك بقوله: «لنصرف عنه السوء والفحشاء» ولم يقل: لنصرفه عن السوء والفحشاء فتدبر فيه.

ومن هنا يظهر أن الأنسب أن يكون المراد بالسوء هو الهمّ بها والميل اليها كما أن المراد بالفحشاء اقتراف الفاحشة وهي الزنا فهو عليه السلام لم فعل ولم يكد، ولولا ما أراه الله من البرهان لهمّ وكاد أن يفعل، وهذا المعنى هو الذي يؤيده ما قدمناه من الاعتبار والتأمل في الأسباب والعوامل المجتمعة في هذا الحين القاضية لها عليه.

فقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ﴾ اللام فيه للقسم، والمعنى وأُقسم لقد قصدت يوسف بما تريده منه ولا يكون الهم إلّا بأن تشفع الإرادة بشيء من العمل.

وقوله: ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ معطوف على مدخول لام القسم من الجملة السابقة، والمعنى أُقسم لولا رؤيته برهان ربه لهمّ بها وكاد أن يجيبها لما تريده منه.

والبرهان هو السلطان ويراد به السبب المفيد لليقين لتسلطه على القلوب كالمعجزة قال تعالى: ﴿**فذانك برهانان من ربك الى فرعون وملأه**﴾ (القصص / ٣٢)، وقال: ﴿**يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم**﴾ (النساء / ١٧٤)، وقال: ﴿**ءإله مع الله قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين**﴾ (النمل / ٦٤) وهو الحجة اليقينية التي تجلي الحق ولا تدع ريباً لمرتاب.

والذي رآه يوسف عليه السلام من برهان ربه وإن لم يوضحه كلامه تعالى كل الإيضاح لكنه ـ على أي حال ـ كان سبباً من أسباب اليقين لا يجامع الجهل والضلال بتاتاً، ويدل على أنه كان من قبيل العلم قول يوسف عليه السلام فيما يناجي ربه كما سيأتي: ﴿**وإن لا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين**﴾ (الآية ٣٣ من السورة)، ويدل على أنه ليس من العلم المتعارف بحسن الأفعال وقبحها ومصلحتها ومفسدتها أن هذا النوع من العلم قد

يجامع الضلال والمعصية وهو ظاهر، قال تعالى: ﴿أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم﴾ (الجاثية / ٢٣) وقال: ﴿وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم﴾ (النمل / ١٤).

فالبرهان الذي أراه به وهو الذي يريه الله عباده المخلصين نوع من العلم المكشوف واليقين المشهود تطيعه النفس الإنسانية طاعة لا تميل معها الى معصية أصلاً، وسنورد فيه بعض الكلام إن شاء الله تعالى.

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾ اللام في «لنصرف» للغاية أو التعليل والمآل واحد و «كذلك» متعلق بقوله: «لنصرف» والإشارة الى ما ذكر من رؤية برهان ربه، والسوء هو الذي يسوء صدوره من العبد بما هو عبد وهو مطلق المعصية أو الهمّ بها، والفحشاء هو ارتكاب الأعمال الشنيعة كالزنا، وقد تقدم أن ظاهر السياق انطباق السوء والفحشاء على الزنا والهمّ به.

والمعنى: الغاية ـ أو السبب ـ في أن رآى برهان ربه هي أن نصرف عنه الفحشاء والهمّ بها.

ومن لطيف الإشارة في الآية ما في قوله: «لنصرف عنه السوء والفحشاء» حيث أُخذ السوء والفحشاء مصروفين عنه لا هو مصروفاً عنهما، لما في الثاني من الدلالة على أنه كان فيه ما يقتضي اقترافهما المحوج الى صرفه عن ذلك، وهو ينافي شهادته تعالى بأنه من عباده المخلصين وهم الذين أخلصهم الله لنفسه فلا يشاركه فيهم شيء فلا يطيعون غيره من تسويل شيطان أو تزيين نفس أو أي داع يدعو من دون الله سبحانه.

وقوله: ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ في مقام التعليل لقوله: «كذلك لنصرف» الخ؛ والمعنى: عاملنا يوسف كذلك لأنه من عبادنا المخلصين، وهم يعاملون هذه المعاملة.

ويظهر من الآية أن من شأن المخلصين من عباد الله أن يروا برهان ربهم، وأن الله سبحانه يصرف كل سوء وفحشاء عنهم فلا يقترفون معصية ولا يهمون بها بما يريهم الله من برهانه،

وهذه هي العصمة الإلهية .

ويظهر أيضاً أن هذا البرهان سبب علمي يقيني لكن لا من العلوم المتعارفة المعهودة لنا[١] .

قوله تعالى : ﴿ وَٱسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ ﴾ الاستباق هو التسابق وقد تقدم ، والقد والقط هو الشق إلّا أن القد هو الشق طولاً والقط هو الشق عرضاً ، والدبر والقبل كالخلف والأمام .

والسياق يعطي أن استباقهما كان لغرضين مختلفين فكان يوسف عليه السلام يريد أن يفتحه ويتخلص منها بالخروج من البيت ، وامرأة العزيز كانت تريد أن تسبقه اليه فتمنعه من الفتح والخروج لعلها تفوز بما تريده منه ، وأن يوسف سبقها الى الباب فاجتذبته من قميصه من الوراء فقدته ولم ينقدّ إلّا لأنه كان في حال الهرب مبتعداً منها وإلّا لم ينشق طولاً .

وقوله : ﴿ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ ﴾ الإلفاء الوجدان يقال : ألفيته كذا أي وجدت والمراد بسيدها زوجها . قيل : إنه جرىٍ على عرف مصر وقد كانت النساء بمصر يلقين زوجهن بالسيد ، وهو مستمر الى هذا الزمان .

قوله تعالى : ﴿ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ لما ألفيا سيدها لدى الباب انقلب مجلس المراودة الى موقف التحقيق ، وإنما أوجد هذا الموقف وجود العزيز لدى الباب وحضورهما والهيئة هذه الهيئة عنده ، ويتكفل ما جرى في هذا الموقف قوله : « وألفيا سيدها لدى الباب » الى تمام خمس آيات .

فبدأت امرأة العزيز تشكو يوسف اليه وتسأله أن يجازيه فذكرت أنه أراد بها سوءً وعليه أن يسجنه أو يعذبه عذاباً أليماً لكنها لم تصرح بذلك ولا بشيء من أطراف الواقعة بل كنّت

---

١ . يوسف ٢٢ ـ ٣٤ : بحث تفسيري وآراء المفسرين حول الآية « ولقد همت به وهم بها » : معنى هم يوسف بها .

وأتت بحكم عام عقلائي يتضمن مجازاة من قصد ذوات البعل بالفحشاء فقالت «ما جزاء من أراد بأهلك سوءً إلّا أن يسجن أو عذاب أليم» فلم يصرح باسم يوسف وهو المريد، ولا باسم نفسها وهي الأهل، ولا باسم السوء وهو الزنا بذات البعل كل ذلك تأدباً في حضرة العزيز وتقديساً لساحته.

ولم يتعين الجزاء بل رددته بين السجن والعذاب الأليم لأن قلبها الواله اليه المليء بحبه ما كان يساعدها على التعيين فإن في الإبهام نوعاً من الفرج إلّا أن في تعبيرها بقولها: «بأهلك» نوعاً من التحريض عليه وتهييجه على مؤاخذته ولم يكن ذلك إلّا كيداً منها للعزيز بالتظاهر بالوجد والأسى لئلا يتفطن بواقع الأمر فيؤاخذها أما إذا صرفته عن نفسها المجرمة فإن صرفه عن مؤاخذة يوسف عليه السلام لم يكن صعباً عليها تلك الصعوبة.

قوله تعالى: ﴿قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي﴾ لم يبدأ يوسف عليه السلام بالقول أدباً مع العزيز وصوناً لها أن يرميها بالجرم لكن لما اتهمته بقصدها بالسوء لم يرَ بدأ دون أن يصرح بالحق فقال «هي راودتني عن نفسي» وفي الكلام دلالة على القصر وهي من قصر القلب أي لم اردها بالسوء بل هي التي أرادت ذلك فراودتني عن نفسي.

وفي كلامه هذا ـ وهو خال عن أقسام التأكيد كالقسم ونحوه ـ دلالة على سكون نفسه عليه السلام وطمأنينته وأنه لم يحتشم ولم يجزع ولم يتملق حين دعوى براءته مما رمته به إذ كان لم يأت بسوء ولا يخافها ولا ما اتهمته وقد استعاذ بربه حين قال «معاذ الله».

قوله تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ الى آخر الآيتين. لما كانت الشهادة في معنى القول كان قوله: «إن كان قميصه» الخ؛ بمنزلة مقول القول بالنسبة اليه فلا حاجة الى تقدير القول قبل قوله: «إن كان قميصه» الخ؛ وقد قيل: إن هذا القول لما أدى مؤدى الشهادة عبر عنه بلفظ الشهادة.

وقد أشار هذا الشاهد الى دليل ينحل به العقدة ويتضح طريق القضية فتكلم فقال «إن

كان قميصه قدّ من قبل فصدقت وهو من الكاذبين » فإن من البين أن أحدهما صادق في دعواه والآخر كاذب ، وكون القدّ من قبل يدل على منازعتهما ومصارعتهما بالمواجهة فالقضاء لها عليه ، وإن كان قميصه قدّ من دبر فكذبت وهو من الصادقين فإن كون القدّ من دبر يدل على هربه منها وتعقيبها إياه واجتذابها له الى نفسها فالقضاء له عليها . وهو ظاهر .

وأمّا مَن هذا الشاهد ؟ فقد اختلف فيه المفسرون فقال بعضهم : كان رجلاً حكيماً أشار للعزيز بما أشار كما عن الحسن وقتادة وعكرمه ، وقيل : كان رجلاً وهو ابن عم المرأة وكان جالساً من زوجها لدى الباب ، وقيل : لم يكن من الإنس ولا الجن بل خلقاً من خلق الله كما عن مجاهد ، ورد بمنافاته الصريحة لقوله تعالى : « من أهلها » .

ومن طرق أهل البيت عليهم السلام وبعض طرق أهل السنة أنه كان صبياً في المهد من أهلها ، وسيجيء في البحث الروائي التالي إن شاء الله تعالى .

والذي ينبغي أن ينظر فيه أن الذي أتى به هذا الشاهد بيان عقلي ودليل فكري يؤدي الى نتيجة هي القاضية لأحد هذين المتداعيين على الآخر ، ومثل هذا لا يسمى شهادة عرفاً فإنها هي البيان المعتمد على الحس أو ما في حكمه وبالجملة القول الذي لا يعتمد على التفكير والتعقل كما في قوله : ﴿ شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم ﴾ (حم السجدة / ٢٠) ، وقوله : ﴿ قالوا نشهد إنك لرسول الله ﴾ (المنافقون / ١) فإن الحكم بصدق الرسالة وإن كان في نفسه مستنداً الى التفكر والتعقل لكن المراد بالشهادة تأدية ما عنده من الحق المعلوم قطعاً من غير ملاحظة كونه عن تفكر وتعقل كما في موارد يعبر عنه فيها بالقول ونحوه .

فليس من البعيد أن يكون في التعبير عن قول هذا القائل بمثل « وشهد شاهد » إشارة الى كون ذلك كلاماً صدر عنه من غير ترو وفكر فيكون شهادة لعدم اعتماده على تفكر وتعقل لا قولاً يعبر به عرفاً عن البيان الذي يبتني على ترو وتفكر . وبهذا يتأيد ما ورد من الرواية أنه

كان صبياً في المهد فقد كان ذلك بنوع من الإعجاز أيد الله سبحانه به قول يوسف ﷺ.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَآ قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾، أي فلما رآى العزيز قميص يوسف والحال أنه مقدود مشوق من خلف، قال إن الأمر من كيدكن معاشر النساء إن كيدكن عظيم فمرجع الضمائر معلوم من السياق.

ونسبة الكيد الى جماعة النساء مع كونه من امرأته الدلالة على أنه إنما صدر منها بما أنها من النساء. وكيدهن معهود معروف، ولذا استعظمه وقال ثانياً «إن كيدكن عظيم» وذلك أن الرجال اوتوا من الميل والانجذاب اليهن ما ليس يخفى واوتين من أسباب الاستمالة والجلب ما في وسعهن أن يأخذن بمجامع قلوب الرجال ويسخرن أرواحهم بجلوات فتانة وأطوار سحارة تسلب أحلامهم، وتصرفهم الى إرادتهن من حيث لا يشعرون وهو الكيد وإرادة الإنسان بالسوء ومفاد الآية أن العزيز لما شاهد أن قميصه مقدود من خلف قضى ليوسف ﷺ على امرأته.

قوله تعالى: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ من مقول قول العزيز أي إنه بعدما قضى له عليها أمر يوسف أن يعرض عن الأمر وأمر امرأته أن تستغفر لذنبها ومن خطيئتها.

فقوله: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾ يشير الى ما وقع من الأمر ويعزم على يوسف أن يعرض عنه ويفرضه كأن لم يكن فلا يحدث به ولا يذيعه، ولم يرد في كلامه تعالى ما يدل على أن يوسف ﷺ حدث به أحداً وهو الظن به ﷺ كما نرى أنه لم يظهر حديث المراودة للعزيز حتى اتهمته بسوء القصد فذكر الحق عند ذلك لكن كيف يخفى حديث استمر عهداً ليس بالقصير، وقد استولى عليها الوله وسلب منها الغرام كل حلم وحزم، ولم تكن المراودة مرة أو مرتين والدليل على ذلك ما سيأتي من قول النسوة «امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حباً».

وقوله: ﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ يقرر لها الذنب ويأمرها أن تستغفر ربها لذلك الذنب لأنها كانت بذلك من أهل الخطيئة، ولذلك قيل «من الخاطئين» ولم قل من الخاطئات.

وهذا كله من كلام العزيز على ما يعطيه السياق لا من كلام الشاهد لأنه قضاء وحكم والقضاء العزيز لا للشاهد.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبّاً إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ قصة نسوة مصر مع يوسف في بيت العزيز تتضمنها الآية الى تمام ست آيات.

والذي يعطيه التدبر فيها بما ينضم اليها من قرائن الأحوال وما يستوجبه طبع القصة أنه لما كان من أمر يوسف والعزيزة ما كان، شاع الخبر في المدينة تدريجاً، وصارت النساء وهن سيدات المدينة يتحدثن به في مجامعهن ومحافلهن فيما بينهن ويعيرن بذلك عزيزة مصر ويعبنها أنها تولهت الى فتاها وافتتنت به وقد أحاط بها حباً فظلت تراوده عن نفسه، وضلت به ضلالاً مبيناً.

وكان ذلك مكراً منهن بها على ما في طبع أكثر النساء من الحسد والعجب فإن المرأة تغلبه العواطف الرقيقة والإحساسات اللطيفة وركوز لطف الخلقة وجمال الطبيعة فيها مشعوفة القلب بالزينة والجمال متعلقة الفؤاد برسوم الدلال، ويورث ذلك فيها وخاصة في الفتيات إعجاباً بالنفس وحسداً للغير.

فقوله تعالى: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَيهَا﴾ الخ: النسوة اسم جمع للمرأة وتقييده بقوله: في المدينة تفيد أنهن كن من جهة العدد أو الشأن بحال تؤثر قولهن في شيوع الفضيحة.

وامرأة العزيز هي التي كان يوسف في بيتها وقد راودته عن نفسه والعزيز معناه معروف،

وقد كان يلقب به السيد الذي اشترى يوسف من السيارة وكان يلقب به الرؤساء بمصر كما لقب به يوسف بعدما جعل على خزائن الأرض.

وفي قوله: ﴿ تُرَاوِدُ ﴾ دلالة على الاستمرار وهو أفحش المراودة، والفتى الغلام الشاب والمرأة فتاة، وقد شاع تسمية العبد فتى وكأنه بهذه العناية اضيف الى ضميرها فقيل «فتاها».

وفي المفردات «شغفها حباً» أي أصاب شغاف قلبها أي باطنه. عن الحسن، وقيل: وسطه. عن أبي علي، وهما يتقاربان انتهى. وشغاف القلب غلافه المحيط به.

والمعنى: وقال عدة من نساء المدينة لا يخلو قولهن من أثر فيها وفي حقها: امرأة تستمر في مراودة عبدها عن نفسه ولا يحري بها ذلك لأنها مرأة ومن القحة أن تراود المرأة الرجل بل ذاك ـ إن كان ـ من طبع الرجال وإنها امرأة العزيز فهي عزيزة مصر فمن الواجب الذي لا معدل عنه أن تراعي شرف بيتها وعزة زوجها ومكانة نفسها، وإن الذي علقت به عبدها ومن الشنيع أن يتوله مثلها وهي عزيزة مصر بعبد عبراني من جملة عبيده، وإنها أحبته وتعدت ذلك الى مراودته فامتنع من إجابتها فلم تنته حتى ألحت واستمرت على مراودته وذلك أقبح وأشنع وأمعن في الضلال.

وذلك عقبن قوله :ن «امرأة العزيز تراود» الخ؛ بقولهن: «إنا لنراها في ضلال مبين».

قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَئاً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّيناً ﴾ قال في المجمع: المكر هو القتل بالحيلة على ما يراد من الطلبة. انتهى. وتسمية هذا القول منهن مكراً بامرأة العزيز لما فيه من فضاحتها وهتك سترها من ناحية رقيباتها حسداً وبغياً، وإنما أرسلت اليهن لتريهن يوسف وتبتليهن بما ابتليت به نفسها فيكففن عن لومها ويعذرنها في حبه.

وعلى هذا إنما سمي قولهن مكراً ونسب السمع اليه لأنه صدر منهن حسداً وبغياً لغاية

فضاحتها بين الناس .

وقوله : ﴿ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ ﴾ معناه معلوم وهو كناية عن الدعوة الى الحضور عندها .

وقوله : ﴿ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَئاً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّيناً ﴾ الإعتاد الإعداد والمراد به ما يتكؤ عليه من نمرق أو كرسي كما كان معمولاً في بيوت العظماء . وفسر المتكأ بالاترج وهو نوع من الفاكهة كما قرىء في الشواذ « متكأ » بالضم فالسكون وهو الاترج وقرىء « متكا » بضم الميم وتشديد التاء من غير همز .

وقوله : ﴿ وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّيناً ﴾ أي لقطع ما يرون أكله من الفاكهة كالاترج أو ما يشابهه من الفواكه المأكولة بالقطع وقوله : « وقالت اخرج عليهن » أي أمرت يوسف أن يخرج عليهن وهن خاليات الأذهان فارغات القلوب مشتغلات بأخذ الفاكهة وقطعها . وفي اللفظ دلالة على أنه ﷺ كان غائباً عنهن وكان في مخدع هناك أو بيت آخر في داخل بيت المأدبة الذي كن فيه فإنها قالت « اخرج عليهن » ولو كان في خارج من البيت لقالت « ادخل عليهن » .

وفي السياق دلالة على أن هذا التدبير كان مكراً منها تجاه مكرهن ليفتضحن به فيعذرنها فيما عذلنها ، وقد أصابت في رأيها حيث نظمت برنامج الملاقاة فأعتدت لهن متكا وآتت كل واحدة منهن سكيناً ، وأخفت يوسف عن أعينهن ثم فاجأتهن بإظهاره دفعة لهن ليغبن عن عقولهن ، ويندهشن بذاك الجمال البديع ويأتين بما لا يأتي به ذو شعور البتة وهو تقطيع الأيدي مكان الفواكه لا من الواحدة والثنتين منهن بل من الجميع .

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَـٰذَا بَشَرَاً إِنْ هَـٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ الإكبار الإعظام وهو كناية عن اندهاشهن وغيبتهن عن شعورهن وإرادتهن بمفاجأة مشاهدة ذاك الحسن الرائع طبقاً للناموس الكوني العام وهو خضوع الصغير للكبير وقهر العظيم للحقير فإذا ظهر العظيم الكبير بعظمته وكبريائه لشعور

الإنسان قهر سائر ما في ذهنه من المقاصد والأفكار فأنساها وصار يتخبط في أعماله.

ولذلك لما رأينه قهرت رؤيته شعورهن فقطعن ايديهن تقطيعاً مكان الفاكهة التي كن يردن قطعها، وفي صيغة التفعيل دلالة على الكثرة يقال: قتل القوم تقتيلاً وموّتهم الجدب تمويتاً.

وقوله: ﴿وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ﴾ تنزيه لله سبحانه في أمر يوسف وهذا كقوله تعالى: ﴿ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم﴾ (النور / ١٦) وهو أدب الكلام عند المليين إذا جرى القول في أمر فيه نوع تنزيه وتبرئة لأحد يبدء فينزه الله سبحانه ثم يشتغل بتنزيه من اريد تنزيهه فهن لما أردن تنزيه عليه السلام بقولهن: «ما هذا بشراً» الخ؛ بدأن بتنزيهه تعالى، ثم أخذن ينزهنه.

وقوله: ﴿مَا هٰذَا بَشَرًا إِنْ هٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ نفى أن يكون يوسف عليه السلام بشراً وإثبات أنه ملك كريم، وهذا بناء على ما يعتقده المليون ومنهم الوثنيون أن الملائكة موجودات شريفة هم مبادىء كل خير وسعادة في العالم منهم يترشح كل حياة وعلم وحسن وبهاء وسرور وسائر ما يتمنى ويؤمل من الامور ففيهم كل جمال صوري ومعنوي، وإذا مثلوا تخيلوا في حسن لا يقدر بقدر، ويتصوره أصحاب الأصنام في صور إنسانية حسنة بهية.

ولعل هذا هو السبب في قولهن: «إن هذا إلّا ملك كريم» حيث لم يصفنه بما يدل على حسن الوجه وجمال المنظر مع أن الذي فعل بهن ما فعل هو حسن وجهه واعتدال صورته بل سمينه ملكاً كريماً لتكون فيه إشارة الى حسن صورته وسيرته معاً، وجمال خَلقه وخُلقه وظاهره وباطنه جميعاً. والله أعلم.

وتقدم قولهن هذا على قول امرأة العزيز: «فذلكن الذي لمتنني فيه» يدل على أنهن لم يفهمهن بهذا الكلام إعذار لامرأة العزيز في حبها له وتيمها وغرامها به، وإنما كان ذلك اضطراراً

منهن على الثناء عليه وإظهاراً قهرياً لانجذاب نفوسهن وتوله قلوبهن اليه فقد كان فيه فضاحتهن ، ولم تقل امرأة العزيز « فذلكن الذي لمتني فيه » إلاّ بعدما فضحتهن فعلاً وقولاً بتقطيع الأيدي وتنزيه الحسن فلم يبق لهن إلاّ أن يصدقنها فيما تقول ويعذرنها فيما تفعل .

قوله تعالى : ﴿ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ﴾ الى آخر الآية : الكلام في موضع دفع الدخل كأن قائلاً يقول : فماذا قالت امرأة العزيز لهن ؟ فقيل « قالت فذلكن الذي لمتنني فيه » .

وقد فرعت كلامها على ما تقدمه من قولهن وفعلهن وأشارت الى شخص الذي لمنها فيه ووصفته بأنه الذي لمنها فيه ليكون هو بعينه جواباً لما رمينها به من ترك شرف بيتها وعزة زوجها وعفة نفسها في حبه ، وعذراً قبال لومهن إياها في مراودته ، وأقوى البيان أن يحال السامع الى العيان ، ومن هذا الباب قوله تعالى : ﴿ أهذا الذي يذكر آلهتكم ﴾ (الأنبياء / ٣٦) ، وقوله : ﴿ ربنا هؤلاء أضلونا ﴾ (الأعراف / ٣٨) .

ثم اعترفت بالمراودة وذكرت لهن أنها راودته لكنه أخذ بالعفة وطلب العصمة ، وإنما استرسلت وأظهرت لهن ما لم تزل تخفيه لما تخفيه لما رأت موافقة القلوب على التوله فيه فبثت الشكوى لهن ونبهت يوسف أنها غير تاركته فلوطن نفسه على طاعتها فيما تأمر به ، وهذا معنى قولها : « ولقد راودته عن نفسه فاستعصم » .

ثم ذكرت لهن ما عزمت عليه من إجباره على الموافقة وسياسته لو خالف فقالت « ولئن لم فعل ما آمره ليسجنن وليكونن من الصاغرين » وقد أكدت الكلام بوجوه من التأكيد كالقسم والنون واللام ونحوها ليدل على أنها عزمت على ذلك عزيمة جازمة ، وعندها ما يجبره على ما أرادته ولو استنكف فليوطن نفسه على السجن بعد الراحة ، والصغار والهوان بعد الإكرام والاحترام ، وفي الكلام تجلد ونوع تعزز وتمنع بالنسبة اليهن ونوع تنبيه وتهديد بالنسبة الى يوسف عليه السلام .

وهذا التهديد الذي يتضمنه قولها: «ولئن لم فعل ما آمره ليسجنن وليكونن من الصاغرين» أشد وأهول مما سألته زوجها يوم المراودة بقولها: «ما جزاء من أراد بأهلك سوء إلّا أن يسجن أو عذاب أليم».

أما أولاً: فلانها رددت الجزاء هناك بين السجن والعذاب الاليم وجمع ههنا بين الجزائين وهو السجن والكون من الصاغرين.

وأما ثانياً: فلانها ههنا قامت بالتهديد بنفسها لا بأن تسأل زوجها، وكلامها كلام من لا يتردد فيما عزم عليه ولا يرجع عما حزم به. وقد حققت أنها تملك قلب زوجها وتقدر أن تصرفه مما يريده الى ما تريده، وتقوى على التصرف في أمره كيفما شاءت؟

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ قال الراغب في المفردات: صبا فلان يصبو صبواً وصبوة إذا نزع واشتاق وفعل فعل الصبيان. قال تعالى «أصب إليهن وأكن من الجاهلين» انتهى. وفي المجمع: الصبوة لطافة الهوى. انتهى.

تفاوضت امرأة العزيز والنسوة فقالت وقلن واسترسلن في بت ما في ضمائرهن ويوسف عليه السلام واقف أمامهن يدعونه ويراودونه عن نفسه لكن يوسف عليه السلام لم يلتفت اليهن ولا كلمهن ولا بكلمة بل رجع الى ربه الذي ملك قلبه بقلب لا مكان فيه إلّا له ولا شغل لا إلّا به «وقال: رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه» الخ.

وقوله هذا ليس بدعاء على نفسه بالسجن وأن يصرف الله عنه ما يدعونه اليه بالقائه في السجن، وإنما هو بيان حال لربه وأنه عن تربية إلهية يرجح عذاب السجن في جنب الله على لذة المعصية والبعد منه، فهذا الكلام منه نظير ما قاله لامرأة العزيز حين خلت به وراودته عن نفسه «معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون» ففي الكلامين معاً تمنع وتعزز بالله، وإنما الفرق أنه يخاطب بأحدهما امرأة العزيز وبالآخر ربه القوي العزيز وليس شيء

من الكلامين دعاء البتة.

وفي قوله: ﴿رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ﴾ الخ؛ نوع توطئة لقوله: «وإلّا تصرف عني كيدهن أصب إليهن» الخ؛ الذي هو دعاء في صورة بيان الحال.

فمعنى الآية: رب إني لو خيرت بين السجن وبين ما يدعونني اليه لاخترت السجن على غيره وأسألك أن تصرف عني كيدهن فإنك إن لا تصرف عني كيدهن أنتزع وأمل اليهن وأكن من الجاهلين فإني إنما أتوقى شرهن بعلمك الذي علمتنيه وتصرف به عني كيدهن فإن أمسكت عن إفاضته علي صرت جاهلاً ووقعت في مهلكة الصبوة والهوى.

قوله تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أي استجاب الله مسألته في صرف كيدهن عنه حين قال «وإلّا تصرف عني كيدهن أصب إليهن» إنه هو السميع بأقوال عباده العليم بأحوالهم[(١)(٢)].

٣٥ ● ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ.

٣٦ ● وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْراً وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزاً تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ.

٣٧ ● قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ.

---

١. يوسف ٢٢ ـ ٣٤: ابحاث حول التقوى الديني ودرجاته في فصول (القانون والاخلاق الكريمة والتوحيد. يحصل التقوى الديني بأحد امور ثلاثة. كيف يورث الحب الاخلاص).

٢. يوسف ٢٢ ـ ٣٤: بحث روائي حول قصة يوسف عليه السلام: معنى هم يوسف بها.

٣٨ • وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبائِي إِبْراهِيمَ وَإِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ ما كانَ لَنا أَنْ نُشْرِكَ بِاللّٰهِ مِنْ شَيْءٍ ذٰلِكَ مِنْ فَضْلِ اللّٰهِ عَلَيْنا وَعَلَى النّاسِ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ النّاسِ لا يَشْكُرُونَ.

٣٩ • يا صاحِبَيِ السِّجْنِ ءَأَرْبابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللّٰهُ الْواحِدُ الْقَهّارُ.

٤٠ • ما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلّا أَسْماءً سَمَّيْتُمُوها أَنْتُمْ وَآباؤُكُمْ ما أَنْزَلَ اللّٰهُ بِها مِنْ سُلْطانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلّا لِلّٰهِ أَمَرَ أَلّا تَعْبُدُوا إِلّا إِيّاهُ ذٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ النّاسِ لا يَعْلَمُونَ.

٤١ • يا صاحِبَيِ السِّجْنِ أَمّا أَحَدُكُما فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْراً وَأَمّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيانِ.

٤٢ • وَقالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ ناجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْساهُ الشَّيْطانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَدا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ ما رَأَوُا الْآياتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتّىٰ حِينٍ﴾ البداء هو ظهور رأي بعدما لم يكن يقال؟ بدا لي في أمر كذا أي ظهر لي فيه رأي جديد، والضمير في قوله: «لهم» الى العزيز وامرأته ومن يتلوهما من أهل الاختصاص وأعوان الملك والعزة.

والمراد بالآيات الشواهد والأدلة الدالة على براءة يوسف عليه السلام وطهارة ذيله مما اتهموه به

كشهادة الصبي وقدّ القميص من خلفه واستباقهما الباب معاً، ولعل منها تقطيع النسوة أيديهن برؤيته واستعصامه عن مراودتهن إياه عن نفسه واعتراف امرأة العزيز لهن أنها راودته عن نفسه فاستعصم.

وقوله: ﴿ لَيَسْجُنُنَّهُ ﴾ اللام فيه للقسم أي أقسموا وعزموا لسجننه البتة، وهو تفسير للرأي الذي بدا لهم، ويتعلق به قوله: «حتى حين» ولا يخلو من معنى الانتظار بالنظر الى قطع حين عن الإضافة والمعنى على هذا ليسجننه حتى ينقطع حديث المراودة الشائع في المدينة وينساه الناس.

ومعنى الآية: ثم ظهر للعزيز ومن يتلوه من امرأته وسائر مشاوريه رأي جديد في يوسف من بعد ما رأوا هذه الآيات الدالة على براءته وعصمته وهو أن يسجنوه حيناً من الزمان حتى ينسى حديث المراودة الذي يجلب لهم العار والشين وأقسموا على ذلك.

ويظهر بذلك أنهم إنما عزموا على ذلك لمصلحة بيت العزيز وصوناً لاسرته عن هوان التهمة والعار، ولعل من غرضهم أن يتحفظوا على أمن المدينة العام ولا يخلوا الناس وخاصة النساء أن يفتتنوا به فإن الحسن الذي أوله امرأة العزيز والسيدات من شرفاء المدينة وفعل بهم ما فعل من طبعه أن لا يلبث دون أن يقيم في المدينة بلوى.

لكن الذي يظهر من قوله في السجن لرسول الملك: «ارجع الى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن» الى آخر ما قال، ثم قول الملك لهن: ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه، وقولهن: حاش لله ما علمنا عليه من سوء ثم قول امرأة العزيز: الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين، كل ذلك يدل على أن المرأة ألبست الأمر بعد على زوجها وأرابته في براءة يوسف عليه السلام فاعتقد خلاف ما دلت عليه الآيات أو شك في ذلك، ولم يكن ذلك إلّا عن سلطة تامة منها عليه وتمكن كامل من قلبه ورأيه.

وعلى هذا فقد كان سجنه بتوسل أو بأمر منها لتدفع بذلك تهمة الناس عن نفسها وتؤدب

يوسف لعله ينقاد لها ويرجع الى طاعتها فيما كانت تأمره به كما هددته به بمحضر من النسوة بقولها: «ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونن من الصاغرين».

قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ﴾ الى آخر الآية؛ الفتى العبد وسياق الآيات يدل على أنهما كانا عبدين من عبيد الملك، وقد وردت به الروايات كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

وقوله: ﴿قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا﴾ فصل قوله: «قال أحدهما» للدلالة على الفصل بين حكاية الرؤيا وبين الدخول كما يشعر به ما في السياق من قوله: «أراني» وخطابه له بصاحب السجن.

وقوله: ﴿أَرَانِي﴾ لحكاية الحال الماضية كما قيل، وقوله: «أعصر خمراً» أي أعصر عنباً كما يعصر ليتخذ خمراً فقد سمى العنب خمراً باعتبار ما يؤول اليه.

والمعنى أصبح أحدهما وقال ليوسف ﷺ إني رأيت فيما يرى النائم أني أعصر عنباً للخمر.

وقوله: ﴿وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ﴾ أي تنهشه وهي رؤيا أخرى ذكرها صاحبه. وقوله: «نبئنا بتأويله إنا نراك من المحسنين» أي قالا نبئنا بتأويله فاكتفى عن ذكر الفعل بقوله: «قال» «وقال» وهذا من لطائف تفنن القرآن، والضمير في قوله: «بتأويله» راجع الى ما يراه المدلول عليه بالسياق، وفي قوله: «إنا نراك من المحسنين» تعليل لسؤالهما التأويل و «نراك» أي نعتقدك من المحسنين لما نشاهد فيك من سيماهم، وإنما أقبلا عليه في تأويل رؤياهما لإحسانه، لمايعتقد عامة الناس أن المحسنين الأبرار ذووا قلوب طاهرة ونفوس زاكية فهم ينتقلون الى روابط الامور وجريان الحوادث انتقالاً أحسن وأقرب الى الرشد من انتقال غيرهم.

والمعنى: قال أحدهما ليوسف: إني رأيت فيما يرى النائم كذا وقال الآخر: إني رأيت

كذا، وقالا له: أخبرنا بتأويل ما رآه كل منا لأنا نعتقد أنك من المحسنين. ولا يخفى لهم أمثال هذه الامور الخفية لزكاء نفوسهم وصفاء قلوبهم.

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا﴾ لما أقبل صاحبا السجن على يوسف عليه السلام في سؤاله عن تأويل رؤيا رأياها عن حسن ظن به من جهة ما كانا يشاهدان منه سيماء المحسنين اغتنم عليه السلام الفرصة في بث ما عنده من أسرار التوحيد والدعوة الى ربه سبحانه الذي علمه ذلك فأخبرهما أنه عليم بذلك بتعليم من ربه خبير بتأويل الأحاديث وتوسل بذلك الى الكشف عن سر التوحيد ونفي الشركاء ثم أول رؤياهما.

فقال أولاً: لا يأتيكما طعام ترزقانه ـ وأنتما في السجن ـ إلّا نبأتكما بتأويله ـ أي بتأويل ذاكما الطعام وحقيقته وما يؤول اليه أمره ـ فأنا خبير بذلك فليكن آية لصدقي فيما أدعوكما اليه من دين التوحيد.

هذا على تقدير عود الضمير في قوله: «بتأويله» الى الطعام، ويكون عليه إظهاراً منه عليه السلام لآية نبوته نظير قول المسيح عليه السلام لبني إسرائيل: ﴿وأُنبؤكم بما تأكلون وما تدّخرون في بيوتكم إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين﴾ (آل عمران / ٤٩)، ويؤيد هذا المعنى بعض الروايات الواردة من طرق أهل البيت عليهم السلام كما سيأتي في بحث روائي إن شاء الله تعالى.

وأما على تقدير عود ضمير «بتأويله» الى ما رأياه من الرؤيا فقوله: «لا يأتيكما طعام» الخ؛ وعد منه لهما تأويل رؤياهما ووعد بتسريعه غير أن هذا المعنى لا يخلو من بعد بالنظر الى السياق.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾

بين ﷺ أن العلم والتنبؤ بتأويل الأحاديث ليس من العلم العادي الاكتسابي في شيء بل هو مما علمه إياه ربه ثم علل ذلك بتركه ملة المشركين واتباعه ملة آبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب أي رفضه دين الشرك وأخذه بدين التوحيد.

والمشركون من أهل الأوثان يعتقدون بالله سبحانه ويثبتون يوم الجزاء بالقول بالتناسخ كما تقدم في الجزء السابق من الكتاب لكن دين التوحيد يحكم أن الذي يقدر له شركاء في التأثير أو في استحقاق العبادة ليس هو الله وكذا عود النفوس بعد الموت بأبدان أخرى تتنعم فيها أو تعذب ليس من المعاد في شيء، ولذلك نفي ﷺ عنهم الإيمان بالله وبالآخرة، وأكد كفرهم بالآخرة بتكرار الضمير حيث قال «وهم بالآخرة هم كافرون» وذلك لأن من لا يؤمن بالله فأحرى به أن لا يؤمن برجوع العباد اليه.

وهذا الذي يقصه الله سبحانه من قول يوسف ﷺ «واتبعت ملة آبائى إبراهيم وإسحاق ويعقوب» هو أول ما أنبأ في مصر نسبه وأنه من أهل بيت إبراهيم وإسحاق ويعقوب ﷺ.

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَٰلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ أي لم يجعل الله سبحانه لنا أهل البيت سبيلاً الى أن نشرك به شيئاً ومنعنا من ذلك، ذلك المنع من فضل الله ونعمته علينا أهل البيت وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون فضله تعالى بل يكفرون به.

وأما أنه تعالى جعلهم بحيث لا سبيل لهم الى أن يشركوا به فليس جعل إجبار وإلجاء بل جعل تأيد وتسديد حيث أنعم عليهم بالنبوة والرسالة والله أعلم حيث يجعل الرسالة فاعتصموا بالله عن الشرك ودانوا بالتوحيد.

وأما أن ذلك من فضل الله عليهم وعلى الناس فلأنهم أيدوا بالحق وهو أفضل الفضل والناس في وسعهم أن يرجعوا اليهم فيفوزوا باتباعهم ويهتدوا بهداهم.

وأما أن أكثر الناس لا يشكرون فلأنهم يكفرون بهذه النعمة وهي النبوة والرسالة فلا

يعبؤون بها ولا يتبعون أهلها أو لأنهم يكفرون بنعمة التوحيد ويتخذون لله سبحانه شركاء من الملائكة والجن والإنس يعبدونهم من دون الله.

هذا ما ذكره أكثر المفسرين في معنى الآية.

ويبقى عليه شيء وهو أن التوحيد ونفي الشركاء ليس مما يرجع فيه الى بيان النبوة فإنه مما يستقل به العقل وتقضي به الفطرة فلا معنى لعده فضلاً على الناس من جهة الاتباع بل هم والأنبياء في أمر التوحيد على مستوى واحد وشرع سواء ولو كفروا بالتوحيد فإنما كفروا لعدم إجابتهم لنداء الفطرة لا لعدم اتباع الأنبياء[١].

قوله تعالى: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ لفظة الخير بحسب الوزن صفة من قولهم: خار يخار خيرة إذا انتخب واختار أحد شيئين يتردد بينهما من حيث الفعل أو من حيث الأخذ بوجه فالخير منهما هو الذي يفضل على الآخر في صفة المطلوبية فيتعين الأخذ به فخير الفعلين هو المطلوب منهما الذي يتعين القيام به وخير الشيئين هو المطلوب منهما من جهة الأخذ به كخير المالين من جهة التمتع به وخير الدارين من جهة سكناها وخير الانسانين من جهة مصاحبته، وخير الرأيين من جهة الأخذ به، وخير الإلهين من جهة عبادته، ومن هنا ذكر أهل الأدب أن الخير في الأصل «أخير» أفعل تفضيل، والحقيقة أنه صفة مشبهة تفيد بحسب المادة ما يفيده أفعل التفضيل من الفضل في القياس.

وبما مر يتبين أن قوله ﷺ: «ءأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار» الخ؛ مسوق لبيان الحجة على تعينه تعالى للعبادة إذا فرض تردد الأمر بينه وبين سائر الأرباب التي تدعى من دون الله لا لبيان أنه تعالى هو الحق الموجود دون غيره من الأرباب أو أنه تعالى هو

١. يوسف ٣٥ ـ ٤٢: كلام في التوحيد ونفي الشركاء.

الإله الذي تنتهي اليه الأشياء بدءاً وعوداً دونها أو غير ذلك فإنه الشيء إنما يسمى خيراً من جهة طلبه وتعيينه بالأخذ به بنحو فقوله عليه السلام: أهو خير أم سائر الأرباب يريد به السؤال عن تعين أحد الطرفين من جهة الأخذ به والأخذ بالرب هو عبادته.

ثم إنه عليه السلام سمى آلهتهم أرباباً متفرقين لأنهم كانوا يعبدون الملائكة وهم عندهم صفات الله سبحانه أو تعينات ذاته المقدسة التي تستند اليها جهات الخير والسعادة في العالم فيفرقون بين الصفات بتنظيمها طولاً وعرضاً ويعبدون كلا بما يخصه من الشأن فهناك إله العلم وإله القدرة وإله السماء وإله الأرض وإله الحسن وإله الحب وإله الأمن وإله الخصب وغير ذلك، ويعبدون الجن وهم مبادىء الشر في العالم كالموت والفناء والفقر والقبح والألم والغم وغير ذلك، ويعبدون أفراد كالكملين من الأولياء والجبابرة من السلاطين والملوك وغيرهم، وهم جميعاً متفرقون من حيث أعيانهم ومن حيث أصنامهم والتماثيل المتخذة لهم المنصوبة للتوجه بها اليهم.

وقابل الأرباب المتفرقين بذكر الله عز اسمه ووصفه بالواحد القهار حيث قال «أم الله الواحد القهار» فالكلمة تفيد بحسب المعنى خلاف ما يفيده قوله: «أرباب متفرقون» لضرورة التقابل بين طرفي الترديد.

قوله تعالى: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ الخ؛ بدء عليه السلام بخطاب صاحبيه في السجن أولاً ثم عمم الخطاب للجميع لأن الحكم مشترك بينهما وبين غيرهما من عبدة الأوثان.

ونفي العبادة إلّا عن الأسماء كناية عن أنه لا مسميات وراء هذه الأسماء فتقع العبادة في مقابل الأسماء كلفظة إله السماء وإله الأرض وإله البحر وإله البر والأب والام وابن الإله ونظائر ذلك.

وقد أكد كون هذه الأسماء ليس وراءها مسميات بقوله: «أنتم وآباؤكم» فإنه في معنى الحصر أي لم يضع هذه الأسامي أحد غيركم بل أنتم وآباؤكم وضعتموها، ثم أكده ثانياً بقوله: «ما أنزل الله بها من سلطان» والسلطان هو البرهان لتسلطه على العقول أي ما أنزل الله بهذه الأسماء أو بهذه التسمية من برهان يدل على أن لها مسميات وراءها، وحينئذ كان يثبت لها الالوهية أي المعبودية فصحت عبادتكم لها.

ومن الجائز أن يكون ضمير «بها» عائداً الى العبادة أي ما أنزل الله حجة على عبادتها بأن يثبت لها شفاعة واستقلالاً في التأثير حتى تصح عبادتها والتوجه اليها فإن الأمر الى الله على كل حال. واليه أشار بقوله بعده: «إن الحكم إلاّ لله».

وهو أعني قوله: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ مما لا ريب فيه البتة إذ الحكم في أمر ما لا يستقيم إلاّ ممن يملك تمام التصرف، ولا مالك للتصرف والتدبير في امور العالم وتربية العباد حقيقة إلاّ الله سبحانه فلا حكم بحقيقة المعنى إلاّ له.

وهو أعني قوله: «إن الحكم إلاّ لله» مفيد فيما قبله وما بعده صالح لتعليلهما معاً، أما فائدته في قوله قبل: «ما أنزل الله بها من سلطان» فقد ظهرت آنفاً، وأما فائدته في قوله بعد: «أمر أن لا تعبدوا إلاّ إياه» فلأنه متضمن لجانب إثبات الحكم كما أن قوله قبل: «وما أنزل الله بها من سلطان» متضمن لجانب السلب، وحكمه تعالى نافذ في الجانبين معاً فكأنه لما قيل «ما أنزل الله بها من سلطان» قيل «فماذا حكم به في أمر العبادة» فقيل «أمر أن لا تعبدوا إلاّ إياه» ولذلك جيىء بالفعل.

ومعنى الآية ـ والله أعلم ـ ما تعبدون من دون الله إلاّ أسماء خالية عن المسميات لم يضعها إلاّ أنتم وآباؤكم من غير أن ينزل الله سبحانه من عنده برهاناً يدل على أن لها شفاعة عند الله أو شيئاً من الاستقلال في التأثير حتى يصح لكم دعوى عبادتها لنيل شفاعتها، أو طمعاً في خيرها أو خوفاً من شرها.

وأما قوله: ﴿ذٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاٰ يَعْلَمُونَ﴾ فيشير به الى ما ذكره من توحيد الله ونفي الشريك عنه، والقيم هو القائم بالأمر القوي على تدبيره أو القائم على ساقه غير المتزلزل والمتضعضع، والمعنى أن دين التوحيد وحده هو القوي على إدارة المجتمع وسوقه الى منزل السعادة، والدين المحكم غير المتزلزل الذي فيه الرشد من غير غي والحقية من غير بطلان، ولكن أكثر الناس لانسهم بالحس والمحسوس وانهماكهم في زخارف الدنيا الفانية حرموا سلامة القلب واستقامة العقل لا يعلمون ذلك، وإنما يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة معرضون.

أما أن التوحيد دين فيه الرشد ومطابقة الواقع فيكفي في بيانه ما أقامه عليه السلام من البرهان، وأما أنه هو القوي على إدارة المجتمع الإنساني فلأن هذا النوع إنما يسعد في مسير حياته إذا بنى سنن حياته وأحكام معاشه على مبنى حق مطابق للواقع فسار عليها لا إذا بناها على مبنى باطل خرافي لا يعتمد على أصل ثابت[1].

قوله تعالى: ﴿يٰا صٰاحِبَيِ السِّجْنِ أَمّٰا أَحَدُكُمٰا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْراً وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيٰانِ﴾ معنى الآية ظاهر، وقرينة المناسبة قاضية بأن قوله: «اما أحدكما» الخ: تأويل رؤيا من قال منهما «إني أراني أعصر خمراً» وقوله: «وأما الآخر» الخ: تأويل لرؤيا الآخر.

وقوله: ﴿قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيٰانِ﴾ لا يخلو من إشعار بأن الصاحبين أو أحدهما كذب نفسه في دعواه الرؤيا ولعله الثاني لما سمع تأويل رؤياه بالصلب وأكل الطير من رأسه، ويتأيد بهذا ما ورد من الرواية من طرق أئمة أهل البيت عليهم السلام أن الثاني من الصاحبين قال له: إني كذبت فيما قصصت عليك من الرؤيا فقال عليه السلام «قضي الأمر الذي فيه تستفتيان»

---

١. يوسف ٣٥ ـ ٤٢: برهان على توحيد العبادة لله تعالى.

أي إن التأويل الذي استفتيتما فيه مقضيّ مقطوع لا مناص عنه.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا ٱذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ الضمائر في قوله: «قال» و«ظن» و«لبث» راجعة الى يوسف أي قال يوسف للذي ظن هو أنه سينجو منهما: اذكرني عند ربك بما يثير رحمته لعله يخرجني من السجن.

وإطلاق الظن على اعتقاده مع تصريحه لهما بأنه من المقضيّ المقطوع به وتصريحه بأن ربه علّمه تأويل الأحاديث لعله من إطلاق الظن على مطلق الاعتقاد وله نظائر في القرآن كقوله تعالى: ﴿الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم﴾ (البقرة / ٤٦).

وقوله: ﴿فَأَنْسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾ الخ: الضميران راجعان الى «الذي» أي فأنسى الشيطان صاحبه الناجي أن يذكره لربه أو عند ربه فلبث يوسف في السجن بضع سنين والبضع ما دون العشرة فإضافة الذكر الى ربه من قبيل إضافة المصدر الى معموله المعدى اليه بالحرف أو الى المظروف بنوع من الملابسة.

وأما إرجاع الضميرين الى يوسف حتى يفيد أن الشيطان أنسى يوسف ذكر الله سبحانه فتعلق بذيل غيره في نجاته من السجن فعوقب على ذلك فلبث في السجن بضع سنين كما ذكره بعضهم وربما نسب الى الرواية.

فمما يخالف نص الكتاب فإن الله سبحانه نص على كونه عليه السلام من المخلصين ونص على أن المخلصين لا سبيل للشيطان اليهم مضافاً الى ما أثنى الله عليه في هذه السورة.

والإخلاص لله لا يستوجب ترك التوسل بالأسباب فإن ذلك من أعظم الجهل لكونه طمعاً فيما لا مطمع فيه بل إنما يوجب ترك الثقة بها والاعتماد عليها وليس في قوله: «اذكرني عند ربك» ما يشعر بذلك البتة.

على أن قوله تعالى بعد آيتين: «وقال الذي نجا منهما وادكر بعد أُمة» الخ: قرينة صالحة

على أن الناسي هو الساقي دون يوسف.

٤٣ • وَقالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرىٰ سَبْعَ بَقَراتٍ سِمانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يابِساتٍ يا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيا تَعْبُرُونَ.

٤٤ • قالُوا أَضْغاثُ أَحْلامٍ وَما نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلامِ بِعالِمِينَ.

٤٥ • وَقالَ الَّذِي نَجا مِنْهُما وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ.

٤٦ • يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنا فِي سَبْعِ بَقَراتٍ سِمانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يابِساتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ.

٤٧ • قالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَباً فَما حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلّا قَلِيلاً مِمّا تَأْكُلُونَ.

٤٨ • ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ سَبْعٌ شِدادٌ يَأْكُلْنَ ما قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلّا قَلِيلاً مِمّا تُحْصِنُونَ.

٤٩ • ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ عامٌ فِيهِ يُغاثُ النّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ.

٥٠ • وَقالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمّا جاءَهُ الرَّسُولُ قالَ ارْجِعْ إِلىٰ رَبِّكَ فَسْئَلْهُ ما بالُ النِّسْوَةِ اللّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ.

٥١ ● قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ
مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ
الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ.
٥٢ ● ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ
الْخَائِنِينَ.
٥٣ ● وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي
إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ.
٥٤ ● وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ
الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ.
٥٥ ● قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ.
٥٦ ● وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ
نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ.
٥٧ ● وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ﴾ الى آخر الآية: رؤيا للملك يخبر بها الملأ والدليل عليه قوله: «يا أيها الملأ أفتوني في رؤياي» وقوله: «إني أرى» حكاية حال ماضية، ومن المحتمل أنها كانت رؤيا متكررة كما يحتمل مثله في قوله سابقاً: «إني أراني أعصر خمرا» «إني أراني أحمل» الخ.

والسمان جمع سمينة والعجاف جمع عجفاء بمعنى المهزولة. قال في المجمع: ولا يجمع فعلاء

على فعال غير العجفاء على عجاف والقياس في جمعه العجف بضم العين وسكون الجيم كالحمراء والخضراء والبيضاء على حمر وخضر وبيض، وقال غيره: إن ذلك من قبيل الإتباع والجمع القياسي عجف.

والإفتاء إفعال من الفتوى والفتيا، قال في المجمع: الفتيا الجواب عن حكم المعنى وقد يكون الجواب عن نفس المعنى فلا يكون فتياً انتهى.

وقوله: ﴿ تَعْبُرُونَ ﴾ من العبر وهو بيان تأويل الرؤيا وقد يسمى تعبيراً، وهو على أي حال مأخوذ من عبور النهر ونحوه كأن العابر يعبر من الرؤيا الى ما وراءها من التأويل، وهو حقيقة الأمر التي تمثلت لصاحب الرؤيا في صورة خاصة مألوفة له.

ومعنى الآية: وقال ملك مصر لملائه إني أرى في منامي سبع بقرات سمان يأكلهن سبع بقرات مهازيل وأرى سبع سنبلات خضر وسنبلات أُخر يابسات يا أيها الملأ بينوا لي ما عندكم من حكم رؤياى إن كنتم للرؤيا تعبرون.

قوله تعالى: ﴿ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ ﴾

الأحلام جمع حلم بضمتين وقد يسكن وسطه هو ما يراه النائم في منامه وكأن الأصل في معناه ما يتصور للإنسان من داخل نفسه من غير توصله اليه بالحس، ومنه تسمية العقل حلماً لأنه استقامة التفكر، ومنه أيضاً الحلم لزمان البلوغ قال تعالى: ﴿ وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم ﴾ (النور / ٥٩) أي زمان البلوغ، بلوغ العقل، ومنه الحلم بكسر الحاء بمعنى الأناءة ضد الطيش وهو ضبط النفس والطبع عن هيجان الغضب وعدم المعاجلة في العقوبة فإنه إنما يكون عن استقامة التفكر، وذكر الراغب: أن الأصل في معناه الحلم بكسر الحاء، ولا يخلو من تكلف.

وقال الراغب: الضغث قبضة ريحان أو حشيش أو قضبان وجمعه أضغاث، قال تعالى «وخذ بيدك ضغثاً» وبه شبه الأحلام المختلفة التي لا تتبين حقائقها «قالوا أضغاث أحلام» حِزَم أخلاط من الأحلام انتهى.

وتسمية الرؤيا الواحدة بأضغاث الأحلام كأنه بعناية دعوى كونها صوراً متفرقة مختلطة مجتمعة من رؤى مختلفة لكل واحد منها تأويل على حدة فإذا اجتمعت واختلطت عسر للمعبر الوقوف على تأويلها ، والإنسان كثيراً ما ينتقل في نومة واحدة من رؤيا الى أخرى ومنها الى ثالثة وهكذا فإذا اختلطت أبعاضها كانت أضغاث أحلام وامتنع الوقوف على حقيقتها ، ويدل على ما ذكرنا من العناية التعبير بأضغاث أحلام بتنكير المضاف والمضاف اليه معاً كما لا يخفى .

على أن الآية أعني قوله : « وقال الملك إني أرى » الخ : غير صريحة في كونه رؤيا واحدة وفي التوراة أنه رأى البقرات السمان والعجاف في رؤيا والسنبلات الخضر واليابسات في رؤيا اخرى .

وقوله : ﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ ﴾ إن كان الألف واللام العهد فالمعنى وما نحن بتأويل هذه المنامات التي هي أضغاث أحلام بعالمين . وإن كان لغير العهد والجمع المحلى باللام يفيد العموم فالمعنى وما نحن بتأويل جميع المنامات بعالمين وإنما نعبر غير أضغاث الأحلام منها ، وعلى أي حال لا تدافع بين عدهم رؤياه أضغاث أحلام وبين نفيهم العلم بتأويل الأحلام عن أنفسهم ، ولو كان المراد بالأحلام الأحلام الصحيحة فحسب كان كل من شطري كلامهم يغني عن الآخر .

ومعنى الآية قالوا أي قال الملأ للملك : ما رأيته أضغاث أحلام وأخلاط من منامات مختلفة وما نحن بتأويل هذا النوع من المنامات بعالمين أو وما نحن بتأويل جميع المنامات بعالمين وإنما نعلم تأويل الرؤي الصالحة .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴾ الامة الجماعة التي تقصد لشأن ويغلب استعمالها في الإنسان ، والمراد بها ههنا الجماعة من السنين وهي المدة التي نسي فيها هذا القائل وهو ساقي الملك أن يذكر يوسف عند به

وقد سأله يوسف ذلك فأنساه الشيطان ذكر ربه فلبث يوسف في السجن بضع سنين.

والمعنى: وقال الذي نجا من السجن يا صاحبي يوسف فيه وادكر بعد جماعة من السنين ما سأله يوسف في السجن حين أول رؤياه: أنا أُنبئكم بتأويل ما رآه الملك في منامه فأرسلوني الى يوسف في السجن حتى أُخبركم بتأويل ذلك.

وخطاب الجمع في قوله: «أُنبئكم» وقوله: «فأرسلون» تشريك لمن حضر مع الملك وهم الملأ من أركان الدولة وأعضاد المملكة الذين يلون أُمور الناس، والدليل عليه قوله الآتي: «لعلي أرجع الى الناس» كما سيأتي.

قوله تعالى: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ﴾ الى آخر الآية؛ في الكلام حذف وتقدير إيجازاً، والتقدير: فأرسلوه فجاء الى يوسف في السجن فقال: يا يوسف أيها الصديق أفتنا في رؤيا الملك وذكر الرؤيا وذكر أن الناس في انتظار تأويله وهذا الاسلوب من لطائف أساليب القرآن الكريم.

وسمى يوسف صديقاً وهو كثير الصدق المبالغ فيه لما كان رآى من صدقه فيما عبر به منامه ومنام صاحبه في السجن وأُمور أُخرى شاهدها من فعله وقوله في السجن، وقد أمضى الله سبحانه كونه صديقاً بنقله ذلك من غير رد.

وقد ذكر متن الرؤيا من غير أن يصرح أنه رؤيا فقال «أفتنا في سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأُخر يابسات» لأن قوله: «أفتنا» وهو سؤال الحكم الذي يؤدي اليه نظره، وكون المعهود فيما بينه وبين يوسف تأويل الرؤيا، وكذا ذيل الكلام يدل على ذلك ويكشف عنه.

وقوله: ﴿لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ لعل الأول تعليل لقوله: «أفتنا» ولعل الثاني تعليل لقوله: «أرجع» والمراد أفتنا في أمر هذه الرؤيا ففي إفتائك رجاء أن أرجع به الى الناس وأُخبرهم بها وفي رجوعي اليهم رجاء أن يعلموا به فيخرجوا به من الحيرة

والجهالة.

ومن هنا يظهر أن قوله: «أرجع» في معنى أرجع بذلك فن المعلوم أنه لو أفتى فيه فرجع المستفتي الى الناس كان رجوعه رجوع عالم بتأويله خبير بحكمه فرجوعه عندئذ اليهم رجوع بمصاحبة ما ألقى اليه من التأويل فافهم ذلك.

وفي قوله أولاً: «أفتنا» وثانياً «لعلي أرجع الى الناس» دلالة على أنه كان يستفتيه بالرسالة عن الملك والملأ ولم يكن يسأله لنفسه حتى يعلمه ثم يخبرهم به بل ليحمله اليهم ولذلك لم يخصه يوسف بالخطاب بل عم الخطاب له ولغيره فقال «تزرعون» الخ.

وفي قوله: ﴿إِلَى النَّاسِ﴾ إشعار أو دلالة على أن الناس كانوا في انتظار أن يرتفع بتأويله حيرتهم، وليس إلّا أن الملأ كانوا هم أولياء أُمور الناس وخيرتهم في الأمر خيرة الناس أو أن الناس أنفسهم كانوا على هذا الحال لتعلقهم بالملك واهتمامهم برؤياه لأن الرؤيا ناظرة غالباً الى ما يهتم به الإنسان من شؤن الحياة والملوك إنما يهتمون بشؤن الملكة وأُمور الرغبة.

قوله تعالى: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَباً فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلَّا قَلِيلاً مِمَّا تَأْكُلُونَ﴾ قال الراغب: الدأب إدامة السير دأب في السير دأباً قال تعالى: ﴿وسخر لكم الشمس والقمر دائبين﴾ والدأب العادة المستمرة دائماً على حاله، قال تعالى: ﴿كدأب آل فرعون﴾ أي كعادتهم التي يستمرون عليها. انتهى وعليه فالمعنى تزرعون سبع سنين زراعة متوالية مستمرة، وقيل: هو من دأب بمعنى التعب أي تزرعون بجد واجتهاد، ويمكن أن يكون حالاً أي تزرعون دائبين مستمرين أو مجدين مجتهدين فيه.

ذكروا أن «تزرعون» خبر في معنى الإنشاء، وكثيراً ما يؤتى بالأمر في صورة الخبر مبالغة في وجوب الامتثال كأنه واقع يخبر عنه كقوله تعالى: ﴿تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله﴾ (الصف / ١١)، والدليل عليه قوله بعد: «فما حصدتم فذروه في سنبله»، قيل:

وإنما أمر بوضعه وتركه في سنبله لأن السنبل لا يقع فيه سوس ولا يهلك وإن بقي مدة من الزمان ، وإذا ديس وصفي أسرع اليه الهلاك .

والمعنى : ازرعوا سبع سنين متواليات فما حصدتم فذروه في سنبله لئلا يهلك واحفظوه كذلك إلّا قليلاً وهو ما تأكلون في هذه السنين .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلاً مِمَّا تُحْصِنُونَ ﴾ الشداد جمع شديد من الشدة بمعنى الصعوبة لما في سني الجدب والمجاعة من الصعوبة والحرج على الناس أو هو من شد عليه إذا كر ، وهذا أنسب لما بعده من توصيفها بقوله : « يأكلن ما قدمتم لهن » .

وعليه فالكلام يشتمل على تمثيل لطيف كأن هذه السنين سباع ضارية تكر على الناس لافتراسهم وأكلهم فيقدمون اليها ما ادخروه عندهم من الطعام فتأكله وتنصرف عنهم .

والإحصان الإحراز والادخار ، والمعنى ثم يأتي من بعد ذلك أي ما ذكر من السنين الخصبة سبع سنين شداد يشددن عليكم يأكلن ما قدمتم لهن إلّا قليلاً مما تحرزون وتدخرون .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾ يقال : غاثه الله وأغاثه أي نصره ، ويغيثه بفتح الياء وضمها أي بنصره وهو من الغوث بمعنى النصرة وغاثهم الله يغيثهم من الغيث وهو المطر . فقوله : « فيه يغاث الناس » إن كان من الغوث كان معناه : ينصرون فيه من قبل الله سبحانه بكشف الكربة ورفع الجدب والمجاعة وإنزال النعمة والبركة ، وإن كان من الغيث كان معناه : يمطرون فيرتفع الجدب من بينهم .

وهذا المعنى الثاني أنسب بالنظر الى قوله بعده : « وفيه يعصرون » ولا يصغى الى قوله من يدعي : أن المعنى الأول هو المتبادر من سياق الآية إلّا على قراءة « يعصرون » بالبناء للمجهول ومعناه يمطرون .

وما أورده بعض المستشرقين على المعنى الثاني أنه لا ينطبق على مورد الآية فإن خصب

مصر إنما يكون بفيضان النيل لا بالمطر فالامطار لا تؤثر فيها أثراً.

رد عليه بأن الفيضان نفسه لا يكون إلّا بالمطر الذي يمده في مجاريه من بلاد السودان.

على أن من الجائز أن يكون «يغاث» مأخوذاً من الغيث بمعنى النبات، قال في لسان العرب: والغيث الكلاء ينبت من ماء السماء انتهى، وهذا أنسب من المعنيين السابقين بالنظر الى قوله: «وفيه يعصرون».

وقوله: ﴿وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ من العصر وهو إخراج ما في الشيء من ماء أو دهن بالضغط كإخراج ماء العنب والتمر للدبس وغيره وإخراج دهن الزيت والسمسم للائتدام والاستصباح وغيرهما. ويمكن أن يراد بالعصر الحلب أي يحلبون ضروع أنعامهم كما فسره بعضهم به.

والمعنى ثم يأتي من بعد ذلك أي ما ذكر من السبع الشداد عام فيه تنبت أراضيهم ـ أو يمطرون أو ينصرون ـ وفيه يتخذون الأشربة والأدهنة من الفواكه والبقول أو يحلبون ضروع أنعامهم. وفيه كناية عن توفر النعمة عليهم وعلى أنعامهم ومواشيهم.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْئَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ في الكلام حذف وإضمار إيجازاً، والتقدير ـ على ما يدل عليه السياق والاعتبار بطبيعة الأحوال ـ وجاء الرسول وهو الساقي فنبأهم بما ذكره يوسف من تأويل الرؤيا وقال الملك بعد ما سمعه: ائتوني به.

وظاهر أن الذي أنبأهم به من جدب سبع سنين متوالية كان أمراً عظيماً، والذي أشار اليه من الرأي البين الصواب أعظم منه وأغرب عند الملك المهتم بأمر أُمته المعتني بشؤن مملكته، وقد أفزعه ما سمع وأدهشه، ولذلك بإحضاره ليكلمه ويتبصره بما يقوله مزيد تبصر، ويشهد بهذا ما حكاه الله تعالى من تكليمه إياه بقوله: «فلما جاءه وكلمه» الخ.

ولم يكن أمره بإتيانه به إشخاصاً له بل إطلاقاً من السجن وإشخاصاً للتكليم. ولو كان إشخاصاً وإحضاراً لمسجون يعود الى السجن بعد التكليم لم يكن ليوسف عليه السلام أن يستنكف عن الحضور بل أُجبر عليه إجباراً بل كان إحضاراً عن عفو وإطلاق فوسعه أن يأتي الحضور ويسأله أن يقضي فيه بالحق، وكانت نتيجة هذا الإباء والسؤال أن يقول الملك ثانياً: ائتوني به أستخلصه لنفسي بعد ما قال أولاً: ائتوني به.

وقد راعى عليه السلام أدباً بارعاً في قوله للرسول: «ارجع الى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن» فلم يذكر امرأة العزيز بما يسوؤه وليس يريد إلّا أن يقضي بينه وبينها، وإنما أشار الى النسوة اللاتي راودنه، ولم يذكرهن أيضاً بسوء إلّا بأمر يظهر بالتحقيق فيه براءته ولا براءته من مراودة امرأة العزيز بل نزاهته من أي مراودة وفحشاء تنسب اليه فقد كان بلاؤه عظيماً.

ولم يذكرهن بشيء من المكروه إلّا ما في قوله: «إن ربي بكيدهن عليم» وليس إلّا نوعاً من بث الشكوى لربه.

وما ألطف قوله في صدر الآية وذيلها حيث يقول للرسول: «ارجع الى ربك فاسأله» ثم يقول «إن ربي بكيدهن عليم» وفيه نوع من تبليغ الحق، وليكن فيه تنبه لمن يزعم أن مراده من «ربي» فيما قال لامرأة العزيز «إنه ربي أحسن مثواي» هو زوجها، وأنه يسميه رباً لنفسه.

وما ألطف قوله: «ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن» والبال هو الأمر الذي يهتم به يقول: ما هو الأمر العظيم والشأن الخطير الذي أوقعهن فيما وقعن فيه، وليس إلّا هواهنَّ فيه ووهلنَّ في حبه حتى أنساهن أنفسهن فقطعن الأيدي مكان الفاكهة تقطيعاً فليفكر الملك في نفسه أن الابتلاء بمثل هذه العاشقات الوالهات عظيم جداً، والكف عن معاشقتهن والامتناع من إجابتهن بما يردنه وهن يفدينه بالأنفس والأموال أعظم، ولم يكن المراودة بالمرة والمرتين ولا الإلحاح والإصرار يوماً أو يومين ولن تتيسر المقاومة والاستقامة تجاه ذلك إلّا لمن صرف

الله عنه السوء والفحشاء ببرهان من عنده .

قوله تعالى: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾ الآية؛ قال الراغب: الخطب الأمر العظيم الذي يكثر فيه التخاطب قال تعالى «فما خطبك يا سامري» «فما خطبكم أيها المرسلون». انتهى.

وقال أيضاً: حصحص الحق أي وضح وذلك بانكشاف ما يظهره، وحص وحصحص نحو كف وكفكف وكب وكبكب، وحصه قطع منه إما بالمباشرة وإما بالحكم ـ الى أن قال ـ والحصة القطعة من الجملة، ويستعمل استعمال النصيب. انتهى.

وقوله: «قال ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه؟» جواب عن سؤال مقدر على ما في الكلام من حذف وإضمار إيجازاً ـ كل ذلك يدل عليه السياق ـ والتقدير: كأن سائلاً يسأل فيقول: فما الذي كان بعد ذلك؟ وما فعل الملك؟ فقيل: رجع الرسول الى الملك وبلغه ما قاله يوسف وسأله من القضاء فأحضر النسوة وسألهن عما يهمّ من شأنهن في مراودتهن ليوسف: ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه؟ قلن «حاش لله ما علمنا عليه من سوء» فنزهه عن كل سوء، وشهدن أنهن لم يظهر لهن منه ما يسوء فيما راودنه عن نفسه.

وذكرهن كلمة التنزيه «حاش لله» نظير تنزيههن حينما رأينه لأول مرة «حاش لله ما هذا بشراً» يدل على بلوغه عليه السلام النهاية في النزاهة والعفة فيما علمنه كما أن كان بالغاً في الحسن.

والكلام في فصل قوله: «قالت امرأة العزيز» نظير الكلام في قوله: «قال ما خطبكن» وقوله: «قلن حاش لله» فعند ذلك تكلمت امرأة العزيز وهي الأصل في هذه الفتنة واعرفت بذنبها وصدّقت يوسف عليه السلام فيما كان يدعيه من البراءة قالت: الآن حصحص ووضح الحق وهو أنه: أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين فنسبت المراودة الى نفسها وكذبت نفسها في اتهامه بالمراودة، ولم تقنع بذلك بر برأته تبرئة كاملة أنه لم يراود ولا أجابها في مراودتها بالطاعة.

واتضحت بذلك براءته ﷺ من كل وجه، وفي قول النسوة وقول امرأة العزيز جهات من التأكيد بالغة في ذلك كنفي السوء عنه بالنكرة في سياق النفي مع زيادة من «ما علمنا عليه من سوء» مع كلمه التنزيه «حاش لله» في قولهن. واعترافها بالذنب في سياق الحصر «أنا راودته عن نفسه» وشهادتها بصدقه مؤكدة بإنّ واللام والجملة الاسمية «وإنه لمن الصادقين» وغير ذلك في قولها. وهذا ينفي عنه ﷺ كل سوء أعم من الفحشاء والمراودة لها وأي ميل ونزعة اليها وكذب وافتراء، بنزاهة من حسن اختياره.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ من كلام يوسف ﷺ على ما يدل عليه السياق، وكأنه قاله عن شهادة النسوة على براءة ساحته من كل سوء واعتراف امرأة العزيز بالذنب وشهادتها بصدقه وقضاء الملك ببراءته.

وحكاية القول كثير النظير في القرآن كقوله: ﴿آمن الرسول بما أُنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله﴾ (البقرة / ٢٨٥) أي قالوا لا نفرق، الخ؛ وقوله: ﴿وإنا لنحن الصافون وإنا لنحن المسبحون﴾ (الصافات / ١٦٦).

وعلى هذا فالإشارة بقوله: «ذلك» الى إرجاع الرسول الى الملك وسؤاله القضاء، والضمير في «ليعلم» و «لم أخنه» عائد الى العزيز والمعنى إنما أرجعت الرسول الى الملك وسألته أن يحقق الأمر ويقضي بالحق ليعلم العزيز أني لم أخنه بالغيب بمراودة امرأته وليعلم أن الله لا يهدي كيد الخائنين.

يذكر ﷺ لما فعله من الإرجاع والسوال غايتين:

أحدهما: أن يعلم العزيز أنه لم يخنه وتطيب نفسه منه ويزول عنها وعن أمره أي شبهة وريبة.

والثاني: أن يعلم أن الخائن مطلقاً لا ينال بخيانته غايته وأنه سيفتضح لا محالة سنة الله التي قد خلت في عباده ولن تجد لسنة الله تبديلاً فإن الخيانة من الباطل، والباطل لا يدوم وسيظهر الحق عليه ظهوراً، ولو اهتدى الخائن الى بغيته لم تفتضح النسوة الاتي قطعن أيديهن وأخذن بالمراودة ولا امرأة العزيز فيما فعلت وأصرت عليه فالله لا يهدي كيد الخائنين.

وكان الغرض من الغاية الثانية «وأن الله لا يهدي كيد الخائنين» وتذكيره وتعليمه للملك، الحصول على لازم فائدة الخبر وهو أن يعلم الملك أنه عليه السلام عالم بذلك مذعن بحقيقته فإذا كان لم يخنه في عرضه بالغيب ولا يخون في شيء البتة كان جديراً بأن يؤتمن على كل شيء نفساً كان أو عرضاً أو مالاً.

وبهذا الامتياز البيّن يتهيأ ليوسف ما كان بباله أن يسأل الملك إياه وهو قوله بعد أن أُشخص عند الملك: «اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم».

والآية ظاهرة في أن هذا الملك هو غير عزيز مصر زوج المرأة الذي أُشير اليه بقوله: «وألفيا سيدها لدى الباب» وقوله: «وقال الذي اشتراه من مصر لامرأته أكرمي مثواه».

وقد ذكر بعض المفسرين أن هذه الآية والتي بعدها تتمة قول امرأة العزيز «الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين» وسيأتي الكلام عليه.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ تتمة كلام يوسف عليه السلام وذلك أن قوله: «أني لم أخنه بالغيب» كان لا يخلو من شائبة دعوى الحول والقوة وهو عليه السلام من المخلصين المتوغلين في التوحيد الذين لا يرون لغيره تعالى حولاً ولا قوة فبادر عليه السلام الى نفي الحول والقوة عن نفسه ونسبة ما ظهر منه من عمل صالح أو صفة جميلة الى رحمة ربه، وتسوية نفسه بسائر النفوس التي هي بحسب الطبع مائلة الى الأهواء أمارة بالسوء فقال «وما أُبرىء نفسي إن النفس لأمارة بالسوء إلّا ما رحم ربي» فقوله هذا كقول شعيب عليه السلام: ﴿إن أُريد إلّا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلّا

بالله ﴾ (هود / ٨٨).

فقوله : ﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ﴾ إشارة الى قوله : « أني لم أخنه بالغيب » وأنه لم قل هذا القول بداعي تنزيه نفسه وتزكيتها بل بداعي حكاية رحمة من ربه ، وعلل ذلك بقوله : « إن النفس لأمارة بالسوء » أي إن النفس بطبعها تدعو الى مشتهياتها من السيئات على كثرتها ووفورها فمن الجهل أن تبرء من الميل الى السوء ، وإنما تكفّ عن أمرها بالسوء ودعوتها الى الشر برحمة من الله سبحانه تصرفها عن السوء وتوفّقها لصالح العمل .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ يقال : أستخلصه أي جعله خالصاً ، والمكين صاحب المكانة والمنزلة ، وفي قوله : « فلما كلمه » حذف للإيجاز والتقدير : فلما أُتي به اليه وكلمه قال إنك اليوم ، الخ ؛ وفي تقييد الحكم باليوم اشارة الى التعليل ، والمعنى إنك اليوم وقد ظهر من مكارم أخلاقك في التجنب عن السوء والفحشاء والخيانة والظلم ، والصبر على مكروه وصغار في سبيل طهارة نفسك ، واختصاصك بتأييد من ربك غيبي وعلم بالأحاديث والرأي والحزم والحكمة والعقل لدينا ذو مكانة وأمانة ، وقد أطلق قوله : « مكين أمين » فأفاد بذلك عموم الحكم .

والمعنى : وقال الملك ائتوني بيوسف أجعله خالصاً لنفسي وخاصة لي فلما أُتي به اليه وكلمه قال له إنك اليوم وقد ظهر من كمالك ما ظهر لدينا ذو مكانة مطلقة وأمانة مطلقة يمكنك من كل ما تريد ويأتمنك على جميع شؤن الملك وفي ذلك حكم صدراته .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ لما عهد الملك ليوسف إنك اليوم لدينا مكين أمين وأطلق القول سأله يوسف عليه السلام أن ينصبه على خزائن الأرض ويفوّض اليه أمرها ، والمراد بالأرض أرض مصر .

ولم يسأله ما سأل إلّا ليتقلد بنفسه إدارة أمر الميرة وأرزاق الناس فيجمعها

ويدخرها لسنين السبع الشداد التي سيستقبل الناس وتنزل عليهم جديها ومجاعتها ويقوم بنفسه لقسمة الأرزاق بين الناس وإعطاء كل منهم ما يستحقه من الميرة من غير حيف.

وقد علل سؤاله ذلك بقوله: «أني حفيظ عليم» فإن هاتين الصفتين هما اللازم وجودهما فيمن يتصدى مقاماً هو سائله ولا غنى عنهما له، وقد أُجيب الى ما سأل واشتغل بما كان يريده كل ذلك معلوم من سياق الآيات وما يتلوها.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ التمكين هو الإقدار والتبوُّء أخذ المكان.

والإشارة بقوله: «كذلك» الى ما ساقه من القصة بما انتهى الى نيله ﷺ عزة مصر، وهو حديث السجن وقد كانت امرأة العزيز هددته بالصغار بالسجن فجعله الله سبباً للعزة، وعلى هذا النمط كان يجري أمره ﷺ أكرمه أبوه فحسده إخوته فكادوا به بإلقائه في غيابة الجب وبيعه من السيّارة ليذلوه فأكرم الله مثواه في بيت العزيز، وكادت به امرأة العزيز ونسوة مصر ليوردنه مورد الفجور فأبان الله عصمته ثم كادت به بالسجن لصغاره فتسبب الله بذلك لعزته.

وللإشارة الى أمر السجن وحبسه وسلبه حرية الاختلاط والعشرة، قال تعالى «وكذلك مكنّا ليوسف في الأرض يتبوّء منها حيث يشاء» أي رفعنا عنه حرج السجن الذي سلب منه إطلاق الإرادة فصار مطلق المشية له أن يتبوّء في أي بقعة يشاء فهذا الكلام بوجه يحاذي قوله تعالى السابق فيه حين دخل بيت العزيز ووصّاه امرأته: «وكذلك مكنّا ليوسف في الأرض ولنعلمه من تأويل الأحاديث والله غالب على أمره».

وبهذه المقايسة يظهر أن قوله ههنا: «نصيب برحمتنا من نشاء» في معنى قوله هناك: «والله غالب على أمره» وأن المراد أن الله سبحانه إذا شاء أن يصيب برحمته أحداً لم يغلب في مشيته ولا يسع لأي مانع مفروض أن يمنع من إصابته. ولو وسع لسبب أن يبطل مشية الله في أحد

لوسع في يوسف الذي تعاضدت الأسباب القاطعة وتظاهرت لخفضه فرفعه الله ولاإذلاله فأعزه الله، إن الحكم إلّا لله.

وقوله: ﴿وَلاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ إشارة الى أن هذا التمكين أجر اوتيه يوسف ﷺ، ووعد جميل للمحسنين جميعاً أن الله لا يضيع أجرهم.

قوله تعالى: ﴿وَلَأَجْرُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ أي لأولياء الله من عباده فهو وعد جميل اخروي لأوليائه تعالى خاصة وكان يوسف ﷺ منهم.

والدليل على أنه لا يعم عامة المؤمنين الجملة الحالية «وكانوا يتقون» الدالة على أن هذا الإيمان وهو حقيقة الإيمان لا محالة كان منهم مسبوقاً بتقوى مستمر حقيقي وهذا التقوى لا يتحقق من غير إيمان فهو إيمان بعد إيمان وتقوى وهو المساوق لولاية الله سبحانه قال تعالى ﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾ (يونس / ٦٤)[١].

٥٨ • وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ.

٥٩ • وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلاَ تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ.

٦٠ • فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلاَ كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلاَ تَقْرَبُونِ.

٦١ • قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ.

٦٢ • وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ.

---

١. يوسف ٤٣ـ٥٧: بحث رواني حول رؤيا ملك مصر وانباء يوسف بتأويله.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ﴾ في الكلام حذف كثير وإنما ترك الاقتصاص له لعدم تعلق غرض هام به، وإنما الغرض بيان لحوق أخي يوسف من أُمه به وإشراكه معه في النعمة والمنّ الإلهي ثم معرفتهم بيوسف ولحوق بيت يعقوب به فهو شطر مختار من قصته وما جرى عليه بعد عزة مصر.

والذي جاء اليه من إخوته هم العصبة ما خلا أُخيه من امه فإن يعقوب عليه السلام كان يأنس به ولا يخلي بينه وبينهم بعد ما كان من أمر يوسف ما كان، والدليل على ذلك كله ما سيأتي من الآيات.

وكان بين دخولهم هذا على أُخيهم يوسف وبين انتصابه على خزائن الأرض وتقلده عزة مصر بعد الخروج من السجن أكثر من سبع سنين فإنهم إنما جاؤا اليه في بعض السنين المجدبة وقد خلت السبع السنون المخصبة، ولم يروه منذ سلموه الى السيارة يوم أُخرج من الجب وهو صبي وقد مر عليه سنون في بيت العزيز ولبث بضع سنين في السجن وتولى أمر الخزائن منذ أكثر من سبع سنين، وهو اليوم في زي عزيز مصر لا يظن به أنه رجل عبري من غير القبط، وهذا كله صرفهم عن أن يظنوا به أنه أخوهم ويعرفوه لكنه عرفهم بكياسته أو بفراسة النبوة كما قال تعالى «وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون».

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ قال الراغب في المفردات: الجهاز ما يعد من متاع وغيره، والتجهيز حمل ذلك أو بعثه. انتهى. فالمعنى ولما حملهم ما أعد لهم من الجهاز والطعام الذي باعه منهم أمرهم بأن يأتوا اليه بأخ لهم من أبيهم وقال ائتوني، الخ.

وقوله: «ألا ترون أني أُوفي الكيل ـ أي لا أبخس فيه ولا أظلمكم بالاتكاء على قدرتي

وعزتي ـ وأنا خير المنزلين» أُكرم النازلين بي وأُحسن مثواهم. وهذا تحريض لهم أن يعودوا اليه ثانياً ويأتوا اليه بأخيهم من أبيهم كما أن قوله في الآية التالية: «فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون» تهديد لهم لئلا يعصوا أمره. وكما أن قولهم في الآية: «سنراود عنه أباه وإنا لفاعلون» تقبل منهم لذلك في الجملة وتطييب لنفس يوسف عليه السلام.

ثم من المعلوم أن قوله عليه السلام أوان خروجهم: «ائتوني بأخ لكم من أبيكم» مع ما فيه من التأكيد والتحريض والتهديد ليس من شأنه أن يورد كلاماً ابتدائياً من غير مقدمة وتوطئة تعمي عليهم وتصرفهم أن يتفطنوا أنه يوسف أو يتوهموا فيه ما يريبهم في أمره. وهو ظاهر. وقد أورد المفسرون في القصة من مفاوضته لهم وتكليمه إياهم أُموراً كثيرة لا دليل على شيء منها من كلامه تعالى في سياق القصة ولا أثر يطمأن اليه في أمثال المقام.

وكلامه تعالى خال عن التعرض لذلك. وإنما الذي يستفاد منه أنه سألهم عن خطبهم فأخبروه وهم عشرة أنهم إخوة وأن لهم أخاً آخر بقي عند أبيهم لا يفارقه أبوه ولا يرضى أن يفارقه لسفر أو غيره فأحب العزيز أن يأتوا به اليه فيراه.

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلاَ كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلاَ تَقْرَبُونِ﴾ الكيل بمعنى المكيل وهو الطعام، ولا تقربون أي لا تقربوني بدخول أرضي والحضور عندي للامتيار واشتراء الطعام. ومعنى الآية ظاهر، وهو تهديد منه لهم لو خالفوا عن أمره كما تقدم.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾ المراودة كما تقدم هي الرجوع في أمر مرة بعد مرة بالإلحاح أو الاستخدام، في قولهم ليوسف عليه السلام: «سنراود عنه أباه» دليل على أنهم قصوا عليه قصته أن أباهم يضن به ولا يرضى بمفارقته له ويأبى أن يبتعد منه لسفر أو أي غيبة، وفي قولهم: «أباه» ولم قولوا: أبانا تأييد لذلك.

وقولهم: ﴿وإِنَّا لَفَاعِلُونَ﴾ أي فاعلون للإتيان به أو للمراودة لحمله معهم والإتيان به اليه، ومعنى الآية ظاهر، وفيه تقبل منهم لذلك في الجملة وتطييب لنفس يوسف عليه السلام

كما تقدم.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ ٱجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ الفتيان جمع الفتى وهو الغلام. وقال الراغب: البضاعة قطعة وافرة من المال يقتنى للتجارة يقال: أبضع بضاعة وابتضعها. قال تعالى «هذه بضاعتنا ردت إلينا» وقال تعالى «ببضاعة مزجاة» والأصل في هذه الكلمة البضع ـ بفتح الباء ـ وهو جملة من اللحم ببضع أي يقطع ـ قال ـ وفلان بضعة مني أي جار مجرى بعض جسدي لقربه مني ـ قال ـ والبضع بالكسر المنقطع من العشرة، ويقال ذلك لما بين الثلاث الى العشرة وقيل: بل هو فوق الخمس ودون العشرة. انتهى، والرحال جمع رحل وهو الوعاء والأثاث، والانقلاب الرجوع.

ومعنى الآية: وقال يوسف ﷺ لغلمانه: اجعلوا ماهم وبضاعتهم التي قدموها ثمناً لما اشتروه من الطعام في أوعيتهم لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا ورجعوا الى أهلهم ـ وفتحوا الأوعية ـ لعلهم يرجعون إلينا ويأتوا بأخيهم فإن ذلك يقع في قلوبهم ويطمعهم الى الرجوع والتمتع من الإكرام والإحسان.

٦٣ ● فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ.

٦٤ ● قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظاً وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ.

٦٥ ● وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَٰذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ

أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ.

٦٦ • قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقاً مِنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ.

٦٧ • وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ ٱللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ.

٦٨ • وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ ٱللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ.

٦٩ • وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ.

٧٠ • فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ.

٧١ • قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ.

٧٢ • قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ.

٧٣ • قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ.

٧٤ ● قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ.

٧٥ ● قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذٰلِكَ نَجْزِي
الظَّالِمِينَ.

٧٦ ● فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ
كَذٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا
أَنْ يَشَاءَ ٱللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ
عَلِيمٌ.

٧٧ ● قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي
نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَاناً وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا
تَصِفُونَ.

٧٨ ● قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَباً شَيْخاً كَبِيراً فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ
إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ.

٧٩ ● قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذاً
لَظَالِمُونَ.

٨٠ ● فَلَمَّا اسْتَيْئَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيّاً قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ
أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقاً مِنَ ٱللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي
يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ
لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ.

٨١ ● إِرْجِعُوا إِلَىٰ أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا

إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ.

٨٢ • وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ الاكتيال أخذ الطعام كيلاً إن كان مما يكال، قال الراغب: الكيل كيل الطعام يقال: كلت له الطعام إذا توليت له ذلك، وكلته الطعام إذا أعطيته كيلاً، واكتلت عليه إذا أخذت منه كيلاً، قال تعالى: ﴿ويل للمطففين الذين اذا اكتالوا على الناس ـ يستوفون ـ واذا كالوهم﴾.

وقوله: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ﴾ أي لو لم نذهب بأخينا ولم يذهب معنا الى مصر، بدليل قوله: «فأرسل معنا أخانا» فهو إجمال ما جرى بينهم وبين عزيز مصر من أمره بمنعم من الكيل إن لم يأتوا بأخ لهم من أبيهم، يقصونه لأبيهم ويسألونه أن يرسله معهم ليكتالوا ولا يحرموا.

وقولهم: ﴿أَخَانَا﴾ إظهار رأفة وإشفاق لتطييب نفس ابيهم من انفسهم كقولهم: «وإنا لحافظون» بما فيه من التأكد البالغ.

قوله تعالى: ﴿قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظاً وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ قال في المجمع: الأمن اطمئنان القلب الى سلامة الأمر يقال: أمنه يأمنه أمناً انتهى فقوله: «هل آمنكم عليه» الخ؛ أي هل اطمئن اليكم في ابني هذا إلّا مثل ما اطمأننت اليكم في أخيه يوسف من قبل هذا فكان ما كان.

ومحصله أنكم تتوقعون مني أن أثق فيه بكم وتطمئن نفسي اليكم كما وثقت بكم واطمأننت

اليكم في أخيه من قبل وتعدونني بقولكم «وإنا له لحافظون» أن تحفظوه كما وعدتم في يوسف بقولكم «وإنا له لحافظون» وقد أمنتكم بمثل هذا الأمن على يوسف فلم تغنوا عني شيئاً وجئتم بقميصه الملطخ بالدم أن الذئب أكله وأمني لكم على هذا الأخ مثل أمني على أخيه من قبل أمن لمن لا يغني أمنه والاطمئنان اليه شيئاً ولا بيده حفظ ما سلم اليه واثتمن له.

وقوله: ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظاً وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ تفريع على سابق كلامه «هل آمنكم عليه» الخ: وتفيد الاستنتاج أي إذا كان الاطمئنان اليكم في أمره لُغيّ لا أثر له ولا يغني شيئاً فخير الاطمئنان والإتكال ما كان اطمئنانا الى الله سبحانه من حيث حفظه، وإذا تردد الأمر بين التوكل عليه والتفويض اليه وبين الاطمئنان الى غيره كان الوثوق به تعالى هو المختار المتعين.

وقوله: ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ في موضع التعليل لقوله: «فالله خير حافظاً» أي إن غيره تعالى ربما أُمن في أمر وائتمن عليه في أمانة سلم له فلم يرحم المؤتمن وضيع الأمانة لكنه سبحانه أرحم الراحمين لا يترك الرحمة في محل الرحمة ويترحم العاجز الضعيف الذي فوض اليه أمراً وتوكل عليه، ومن يتوكل على الله فهو حسبه.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ﴾ الى آخر الآية: البغي هو الطلب ويستعمل كثيراً في الشر ومنه البغي بمعنى الظلم والبغي بمعنى الزنا، وقال في المجمع: الميرة الأطعمة التي تحمل من بلد الى بلد ويقال: مرتهم أميرهم ميرا: إذا أتيتهم بالميرة، ومثله: امترتهم امتياراً. انتهى.

وقوله: ﴿يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي﴾ استفهام أي لما فتحوا متاعهم ووجدوا بضاعتهم ردت اليهم وكان ذلك دليلاً على اكرم العزيز لهم وأنه غير قاصد بهم سوء وقد سلم اليهم الطعام ورد اليهم الثمن فكان ذهابهم الى مصر للامتيار خير سفر نفعاً ودراً راجعوا أباهم وقالوا: يا أبانا ما الذي نطلب من سفرنا الى مصر وراء هذا؟ فقد اوفي لنا الكيل ورد الينا ما بذلناه من البضاعة

ثمناً.

فقولهم: ﴿يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَٰذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾ أرادوا به تطييب نفس أبيهم ليرضى بذهاب أخيهم معهم لأنه في أمن من العزيز وهم يحفظونه كما وعدوه ولذلك عقبوه بقولهم: «ونمير أهلنا ونحفظ أخانا ونزداد كيل بعير ذلك كيل يسير» أي سهل.

وربما قيل: إن «ما» في قوله: «ما نبغي» للنفي أي ما نطلب بما أخبرناك من العزيز وإكرامه لنا الكذب فهذه بضاعتنا ردت الينا، وكذا قيل: إن اليسير بمعنى القليل أي إن الذي جئنا به اليك من الكيل قليل لا يقنعنا فنحتاج الى أن نضيف اليه كيل بعير أخينا.

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقاً مِنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ الموثق بكسر الثاء ما يوثق به ويعتمد عليه، والموثق من الله هو أمر يوثق به ويرتبط مع ذلك بالله وإيتاء موثق إلهي وإعطاؤه هو أن يسلط الإنسان على أمر إلهي يوثق به كالعهد واليمين بمنزلة الرهينة، والمعاهد والمقسم بقوله عاهدت الله أن أفعل كذا أو بالله لأفعلن كذا يراهن كرامة الله وحرمته فيضعها رهينة عند من يعاهده أو يقسم له، ولو لم يف بما قال خسر في رهينته وهو مسؤل عند الله لا محالة.

والإحاطة من حاط بمعنى حفظ ومنه الحائط للجدار الذي يدور حول المكان ليحفظه والله سبحانه محيط بكل شيء أي مسلط عليه حافظ له من كل جهة لا يخرج ولا شيء من أجزائه من قدرته، وأحاط به البلاء والمصيبة أي نزل به على نحو انسدت عليه جميع طرق النجاة فلا مناص له منه، ومنه قولهم: أُحيط به أي هلك أو فسد أو انسدت عليه طرق النجاة والخلاص قال تعالى: ﴿وأُحيط بثمره فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها﴾ (الكهف / ٤٢)، وقال: ﴿وظنوا أنهم أُحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين﴾ (يونس / ٢٢) ومنه قوله في الآية: «إلّا أن يحاط بكم» أي أن ينزل بكم من النازلة ما يسلب منكم كل استطاعة وقدرة فلا

يسعكم الإتيان به إلي.

والوكالة نوع تسلط على أمر يعود الى الغير ليقوم به، وتوكيل الإنسان غيره في أمر تسليطه عليه ليقوم في إصلاحه مقامه، والتوكل عليه اعتماده والاطمئنان اليه في أمر، وتوكيله تعالى والتوكل عليه في الامور ليس بعناية أنه خالق كل شيء ومالكه ومدبره بل بعناية أنه أذن في نسبة الامور الى مصادرها والأفعال الى فواعلها وملكها إياها بنحو من التمليك وهي فاقدة للأصالة والاستقلال في التأثير والله سبحانه هو السبب المستقل القاهر لكل سبب الغالب عليه فمن الرشد إذا أراد الإنسان أمراً وتوصل اليه بالأسباب العادية التي بين يديه أن يرى الله سبحانه هو السبب الوحيد المستقل بتدبير الأمر وينفي الاستقلال والأصالة عن نفسه وعن الأسباب التي استعملها في طريق الوصول اليه فيتوكل عليه سبحانه. فليس التوكل هو قطع الإنسان أو نفيه نسبة الامور الى نفسه أو الى الأسباب بل هو نفيه دعوى الاستقلال عن نفسه وعن الأسباب وإرجاع الاستقلال والأصالة اليه تعالى مع إبقاء أصل النسبة غير المستقلة التي الى نفسه والى الأسباب.

ولذلك نرى أن يعقوب عليه السلام فيما تحكيه الآيات من توكله على الله لم يلغ الأسباب ولم يهملها بل تمسك بالأسباب العادية فكلم أولاً بنيه في أخيهم ثم أخذ منهم موثقاً من الله ثم توكل على الله وكذا فيما وصاهم في الآية الآتية بدخولهم من أبواب متفرقة ثم توكله على ربه تعالى.

فالله سبحانه على كل شيء وكيل من جهة الامور التي لها نسبة اليها كما أنه ولي لها من جهة استقلاله بالقيام على الامور المنسوبة اليها وهي عاجزة عن القيام بها بحول وقوة، وأنه رب كل شيء من جهة أنه المالك المدبر لها.

ومعنى الآية «قال» يعقوب لبنيه «لن أُرسله» أي أخاكم من ام يوسف «معكم حتى تؤتون» وتعطوني «موثقاً من الله» أثق به وأعتمد عليه من عهد أو يمين «لتأتنني به» واللام للقسم ولما كان إيتاؤهم موثقاً من الله إنما كان يمضي ويفيد فيما كان راجعاً الى استطاعتهم

وقدرتهم استثنى فقال «إلّا أن يحاط بكم» وتسلبوا الاستطاعة والقدرة «فلما آتوه موثقهم» من الله «قال» يعقوب «الله على ما نقول وكيل» أي إنا قاولنا جميعاً فقلت وقلتم وتوسلتم بذلك الى هذه الأسباب العادية للوصول الى غرض نبتغيه فليكن الله سبحانه وكيلاً على هذه الأقاويل يجريها على رسلها فمن التزم بشيء فليأت به كما التزم وإن تخلف فليجازه الله وينتصف منه.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ يَا بَنِيَّ لاَ تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ﴾ الى آخر الآية: هذه كلمة ألقاها يعقوب عليه السلام الى بنيه حين آتوه موثقاً من الله وتجهزوا واستعدوا للرحيل، ومن المعلوم من سياق القصة أنه خاف على بنيه وهم أحد عشر عصبة ـ لا من أن يراهم عزيز مصر مجتمعين صفاً واحداً لأنه كان من المعلوم أنه سيشخصهم اليه فيصطفون عنده صفاً واحداً وهم أحد عشر إخوة لأب واحد ـ بل إنما كان يخاف عليهم أن يراهم الناس فيصيبهم عين على ما قيل أو يحسدون أو يخاف منهم فينالهم ما يتفرق به جمعهم من قتل أو أي نازلة اخرى.

وقوله بعده: «وما أُغني عنكم من الله من شيء إن الحكم إلّا لله» لا يخلو من دلالة أو إشعار بأنه كان يخاف ذلك جداً فكأنه عليه السلام ـ والله أعلم ـ أحس حينما تجهزوا للسفر واصطفوا أمامه للوداع إحساس إلهام أن جمعهم وهم على هذه الهيئة الحسنة سيفرّق وينقّص من عددهم فأمرهم أن لا يتظاهروا بالاجماع كذلك وحذّرهم عن الدخول من باب واحد وعزم عليهم أن يدخلوا من أبواب متفرقة رجاء أن يندفع بذلك عنهم بلاء التفرقة بينهم والنقص في عددهم.

ثم رجع الى إطلاق كلامه الظاهر في كون هذا السبب الذي ركن اليه في دفع ما خطر بباله من المصيبة سبباً أصيلاً مستقلاً ـ ولا مؤثر في الوجود بالحقيقة إلّا الله سبحانه ـ فقيد كلامه بما يصلحه فقال مخاطباً لهم «وما أغني عنكم من الله من شيء» ثم علله بقوله: «إن الحكم إلّا لله» أي لست أرفع حاجتكم الى الله سبحانه بما أمرتكم به من السبب الذي تتقون به نزول النازلة

وتتوسلون به الى السلامة والعافية ولا أحكم بأن تحفظوا بهذه الحيلة فإن هذه الأسـباب لا تغني من الله شيئاً ولا لها حكم دون الله سبحانه فليس الحكم مطلقاً إلّا لله بل هـذه أسـباب ظاهرية إنما تؤثر إذا أراد الله لها أن تؤثر.

ولذلك عقب كلامه هذا بقوله: «عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون» أي إن هذا سبب أمرتكم باتخاذه لدفع ما أخافه عليكم من البلاء وتوكلت مع ذلك على الله في أخذ هذا السبب وفي سائر الأسباب التي أخذتها في اموري، وعلى هذا المسير يجب أن يسير كل رشيد غـير غوي يرى أنه لا يقوى باستقلاله لإدارة اموره ولا أن الأسباب العادية باستقلالها تقوى على إيصاله الى ما يبتغيه من المقاصد بل عليه أن يلتجيء في اموره الى وكيل يصلح شأنه ويدبر أمره أحسن تدبير فذلك الوكيل هو الله سبحانه القاهر الذي لا يقهره شيء الغـالب الذي لا يغلبه شيء يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ ٱللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا﴾ الى آخر الآية: الذي يعطيه سياق الآيات السابقة واللاحقة والتدبر فيها ـ والله أعلم ـ أن يكون المراد بدخولهم من حيث أمرهم أبوهم أنهم دخلوا مصر أو دار العزيز فيها من ابواب متفرقة كما أمرهم ابـوهم حـينما ودعوه للرحيل، وإنما اتخذ يعقوب عليه السلام هذا الأمر وسيلة لدفع ما تفرَّسه من نزول مصيبة بهم تفرق جمعهم وتنقص من عددهم كما أُشير اليه في الآية السابقة لكن اتخاذ هذه الوسيلة وهي الدخول من حيث أمرهم أبوهم لم يكن ليدفع عنهم البلاء وكان قضاء الله سبحانه ماضياً فيهم وأخذ العزيز أخاهم من أبيهم لحديث سرقت الصواع وانفصل منهم كبيرهم فـبقي في مـصر وأدى ذلك الى تفرق جمعهم ونقص عددهم فلم يغن يعقوب أو الدخول من حيث أمرهم من الله من شيء.

لكن الله سبحانه قضى بذلك حاجة في نفس يعقوب عليه السلام فإنه جعل هذا السبب الذي تخلف

عن أمره وأدى الى تفرق جمعهم ونقص عددهم بعينه سبباً لوصول يعقوب الى يوسف عليه السلام فإن يوسف أخذ أخاه اليه ورجع سائر الإخوة إلّا كبيرهم الى أبيهم ثم عادوا الى يوسف يسترحمونه ويتذللون لعزته فعرفهم نفسه وأشخص أباه وأهله الى مصر فاتصلوا به.

فقوله: ﴿مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ ٱللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي لم يكن من شأن يعقوب أو هذا الأمر الذي اتخذه وسيلة لتخلصهم من هذه المصيبة النازلة أن يغني عنهم من الله شيئاً البتة ويدفع عنهم ما قضى الله أن يفارق اثنان منهم جمعهم بل أُخذ منهم واحد وفارقهم ولزم أرض مصر آخر وهو كبيرهم.

وقوله: ﴿إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَيٰهَا﴾ قيل: إن «إلّا» بمعنى لكن أي لكن حاجة في نفس يعقوب قضاها الله فرد اليه ولده الذي فقده وهو يوسف.

ولا يبعد أن يكون «إلّا» استثنائية فإن قوله: «ما كان يغني عنهم من الله من شيء» في معنى قولنا: لم ينفع هذا السبب يعقوب شيئاً أو لم ينفعهم جميعاً شيئاً ولم يقض الله لهم جميعاً به حاجة إلّا حاجة في نفس يعقوب، وقوله: «قضاها» استئناف وجواب سؤال كأن سائلاً يسأل فيقول: ماذا فعل بها؟ فاجيب بقوله: «قضاها».

وقوله: ﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ﴾ الضمير ليعقوب أي إن يعقوب لذو علم بسبب ما علمناه من العلم أو بسبب تعليمنا إياه وظاهر نسبة التعليم اليه تعالى أنه علم موهبي غير اكتسابي وقد تقدم أن إخلاص التوحيد يؤدي الى مثل هذه العناية الإلهية، ويؤيد ذلك أيضاً قوله تعالى بعده: «ولكن أكثر الناس لا يعلمون» إذ لو كان من العلم الاكتسابي الذي يحكم بالأسباب الظاهرية ويتوصل اليه من الطرق العادية المألوفة لعلمه الناس واهتدوا اليه.

والجملة «وإنه لذو علم لما علمناه» الخ: ثناء على يعقوب عليه السلام، والعلم الموهبي لا يضل في هدايته ولا يخطىء في إصابته والكلام كما يفيده السياق يشير الى ما تفرس له يعقوب عليه السلام من البلاء وتوسل به من الوسيلة وحاجته في يوسف في نفسه لا ينساها ولا يزال يذكرها، فمن

هذه الجهات يعلم أن في قوله: «وإنه لذو علم لما علمناه» الخ: تصديقاً ليعقوب عليه السلام فيما قاله لبنيه وتصويباً لما اتخذه من الوسيلة لحاجته بأمرهم بما أمر توكله على الله فقضى الله له حاجة في نفسه.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ الإيواء اليه ضمه وتقريبه منه في مجلسه ونحوه، والابتئاس اجتلاب البؤس والاغتمام والحزن، وضمير الجمع للإخوة.

ومعنى الآية «ولما دخلوا على يوسف» بعد دخولهم مصر «آوى» وقرب «إليه أخاه» الذي أمرهم أن يأتوا به اليه وكان أخا له من أبيه وامه «قال» له «إني أنا أخوك» أي يوسف الذي فقدته منذ سنين ـ والجملة خبر بعد خبر أو جواب سؤال مقدر ـ «فلا تبتئس» ولا تغتم «بما كانوا» أي الإخوة «يعملون» من أنواع الأذى والمظالم التي حملهم عليها حسدهم لي ولك ونحن أخوان من ام أو لا تبتئس بما كان غلماني يعملون فإنه كيد لحبسك عندي.

وظاهر السياق أنه عرفه نفسه بإسرار القول اليه وسلاه على ما عمله الإخوة وطيب نفسه فلا يعبأ بقول بعضهم أن معنى قوله: إني أنا أخوك: أنا أخوك مكان أخيك الهالك ـ وقد كان أخبره أنه كان له أخ من امه هلك من قبل فبقي وحده لا أخ له من امه ـ ولم يعترف يوسف له بالنسب ولكنه أراد أن يطيب نفسه.

وذلك أنه ينافيه ما في قوله: «إني أنا أخوك» من وجوه التأكيد وذلك إنما يناسب تعريفه نفسه بالنسب ليستيقن أنه هو يوسف. على أنه ينافي أيضاً ما سيأتي من قوله لإخوته عند تعريفهم نفسه: «أنا يوسف وهذا أخي قد منّ الله علينا» فإنه إنما يناسب ما إذا علم أخوه أنه أخوه فأعتز بعزته كما لا يخفى.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ السقاية الظرف الذي يشرب فيه، والرحل ما

يوضع على البعير للركوب، والعير القوم الذين معهم أحمال الميرة وذلك اسم للرجال والجمال الحاملة للميرة وإن كان قد يستعمل في كل واحد من دون الآخر. ذكر ذلك الراغب في مفرداته.

ومعنى الآية ظاهر وهذة حيلة احتالها يوسف عليه السلام ليأخذ بها أخاه اليه كما قصه وفصله الله تعالى وجعل ذلك مقدمة لتعريفهم نفسه في حال التحق به أخوه وهما منعمان بنعمة الله مكرمان بكرامته.

وقوله: ﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ الخطاب لإخوة يوسف وفيهم أخوه لامه. ومن الجائز توجيه الخطاب الى الجماعة في أمر يعود الى بعضهم إذا كان لا يمتاز عن الآخرين، وفي القرآن منه شيء كثير. وهذا الأمر الذي سمي سرقة وهو وجود السقاية في رحل البعير كان قائماً بواحد منهم وهو أخو يوسف لامه لكن عدم تعينه بعد من بينهم كان مجوزاً لخطابهم جميعاً بأنكم سارقون فإن معنى هذا الخطاب في مثل هذا المقام أن السقاية مفقودة وهي عند بعضكم ممن لا يتعين إلّا بعد الفحص والتفتيش.

ومن المعلوم من السياق أن أخا يوسف لامه كان عالماً بهذا الكيد مستحضراً منه ولذلك لم يتكلم من أول الأمر الى آخره ولا بكلمة ولا نفى عن نفسه السرقة ولا اضطرب كيف؟ وقد عرّفه يوسف أنه أخاه وسلاه وطيب نفسه فليس إلّا أن يوسف عليه السلام كان عرّفه ما هو غرضه من هذا الصنع، وأنه إنما يريد بتسميته سارقاً وإخراج السقاية من رحله أن يقبض عليه ويأخذه اليه فتسميته سارقاً إنما كان اتهاماً في نظر الإخوة وأما بالنسبة اليه وفي نظره فلم يكن تسمية جدية وتهمة حقيقة بل توصيفاً صورياً فحسب لمصلحة لازمة جازمة.

فنسبة السرقة اليهم ـ بالنظر الى هذه الجهات ـ لم تكن من الافتراء المذموم عقلاً المحرم شرعاً. على أن القائل هو المؤذن الذي أذن بذلك.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ﴾ الفقد ـ كما قيل ـ غيبة الشيء

عن الحس بحيث لا يعرف مكانه، والضمير في قوله: «قالوا» للإخوة وهم العير، وقوله: «ماذا تفقدون» مقول القول والضمير في قوله: «عليهم» ليوسف وفتيانه كما يدل عليه السياق.

والمعنى قال إخوة يوسف المقبلين ليوسف وفتيانه: ماذا تفقدون؟ وفي السياق دلالة على أن المنادي إنما ناداهم من ورائهم وقد أخذوا في السير.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾ الصواع بالضم السقاية وقيل: إن الصواع هو الصاع الذي يكال به، وكان صواع الملك إناء يشرب فيه ويكال به ولذلك سمي تارة سقاية واخرى صواعاً، ويجوز فيه التذكير والتأنيث، ولذلك قال «ولمن جاء به» وقال «ثم استخرجها».

والحمل ما يحمله الحامل من الأثقال، وقد ذكر الراغب أن الأثقال المحمولة في الظاهر كالشيء المحمول على الظهر تختص باسم الحمل بكسر الحاء، والأثقال المحمولة في الباطن كالولد في البطن والماء في السحاب والثمرة في الشجرة تختص باسم الحمل بفتح الحاء.

وقال في المجمع: الزعيم والكفيل والضمين نظائر والزعيم أيضاً القائم بأمر القوم وهو الرئيس.

ولعل القائل «نفقد صواع الملك» هو فتيان يوسف والقائل «ولمن جاء به حمل بعير وأنا به زعيم» يوسف عليه السلام نفسه لأنه هو الرئيس الذي قوم أمر الإعطاء والمنع والضمانة والكفالة والحكم، ويعود معنى الكلام على هذا الى نحو من قولنا: أجاب عنهم يوسف وفتيانه أما فتيانه فقالوا: نفقد صواع الملك، وأما يوسف فقال: ولمن جاء به حمل بعير وأنا به زعيم، وهذه جعالة.

وظاهر بعض المفسرين: أن قوله: «ولمن جاء به حمل بعير وأنا به زعيم» تتمة قول المؤذن «أيتها العير إنكم لسارقون» وعلى هذا فقوله: «قالوا وأقبلوا عليهم ـ الى قوله ـ صواع

الملك» معترض.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾ المراد بالأرض أرض مصر وهي التي جاؤها ومعنى الآية ظاهر.

وفي قولهم: ﴿لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ﴾ دلالة على أنهم فتشوا وحقق في أمرهم أول ما دخلوا مصر للميرة بأمر يوسف عليه السلام بدعوى الخوف من أن يكونوا جواسيس وعيونا أو نازلين بها لأغراض فاسدة اخرى فسئلوا عن شأنهم ومحلهم ونسبهم وأمثال ذلك، وبه يتأيد ما ورد في بعض الروايات أن يوسف أظهر لهم أنه في ريب من أمرهم فسألهم عن شأنهم ومكانهم وأهلهم وعند ذلك ذكروا أن لهم أبا شائخاً وأخا من أبيهم فأمر بإيتانهم به، وسيأتي في البحث الروائي التالي إن شاء الله تعالى.

وقولهم: ﴿وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾ نفي أن يكونوا متصفين بهذه الصفة الرذيلة من قبل أن يعهد منهم أهل البيت ذلك.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ﴾ أي قال فتيان يوسف أو هو وفتيانه سائلين منهم عن الجزاء: ما جزاء السرق أو ما جزاء الذي سرق منكم إن كنتم كاذبين في إنكاركم.

والكلام في قولهم: «إن كنتم كاذبين» في نسبة الكذب اليهم يقرب من الكلام في قولهم: «إنكم لسارقون» وقد تقدم.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ مرادهم أن جزاء السرق نفس السارق أو جزاء السارق نفسه بمعنى أن من سرق مالاً يصير عبداً لمن سرق ماله وهكذا كان حكمه في سنة يعقوب عليه السلام كما يدل عليه قولهم: «كذلك نجزي الظالمين» أي هؤلاء الظالمين وهم السراق لكنهم عدلوا عنه الى قولهم: «جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه» للدلالة على أن السرقة إنما يجازى بها نفس السارق لا رفقته

وصحبه وهم أحد عشر نسمة لا ينبغي أن يؤاخذ منهم لو تحققت السرقة إلّا السارق بعينه من غير أن يتعدى الى نفوس الآخرين ورحالهم ثم للمسروق منه أن يملك السارق نفسه يفعل به ما يشاء.

قوله تعالى: ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ﴾ فيه تفريع على ما تقدم أي أخذ بالتفتيش والفحص بالبناء على ما ذكروه من الجزاء فبدأ بأوعيتهم وظروفهم قبل وعاء أخيه للتعمية عليهم حذراً من أن يتنبهوا ويتفطنوا أنه هو الذي وضعها في رحل أخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه وعند ذلك استقر الجزاء عليه لكونها في رحله.

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ الى آخر الآية: الإشارة الى ما جرى من الأمر في طريق أخذ يوسف عليه السلام أخاه لامه من عصبة إخوته، وقد كان كيداً لأنه يوصل الى ما يطلبه منهم من غير أن يعلموا ويتفطنوا به ولو علموا لما رضوا به ولا مكنوه منه، وهذا هو الكيد غير أنه كان بإلهام من الله سبحانه أو وحي منه اليه علمه به طريق التوصل الى أخذ أخيه. ولذلك نسب الله سبحانه ذلك الى نفسه مع توصيفه بالكيد فقال «كذلك كدنا ليوسف».

وليس كل كيد بمنفي عنه تعالى، وإنما تتنزه ساحة قدسه عن الكيد الذي هو ظلم ونظيره المكر والإضلال والاستدراج وغيرها.

وقوله: ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ بيان للسبب الداعي الى الكيد، وهو أنه كان يريد أن يأخذ أخاه اليه، ولم يكن في دين الملك أي سنته الجارية في أرض مصر طريق يؤدي الى أخذه، ولا أن السرقة حكمها استعباد السارق ولذلك كادهم يوسف ـ بأمر من الله ـ بجعل السقاية في رحله ثم إعلام أنهم سارقون حتى ينكروه فيسألهم عن جزائه ان كانوا كاذبين فيخبروا أن جزاء السرق عن عندهم أخذ السارق

واستعباده فيأخذهم بما رضوا به لأنفسهم.

وعلى هذا فلم يكن له أن يأخذ أخاه في دين الملك إلّا في حال يشاء الله ذلك وهو هذا الحال الذي رضوا فيه أن يجازوا بما رضوا به لأنفسهم.

ومن هنا يظهر أن الاستثناء يفيد أنه كان من دين الملك أن يؤخذ المجرم بما يرضاه لنفسه من الجزاء وهو أشق، وكان ذلك متداولاً في كثير من السنن القومية وسياسات الملوك.

وقوله: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ امتنان على يوسف عليه السلام بما رفعه الله على إخوته، وبيان لقوله: «كذلك كدنا ليوسف» وكان امتناناً عليه.

وفي قوله: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ بيان أن العلم من الامور التي لا يقب على حد ينتهي اليه بل كان ذي علم يمكن ان يفرض من هو أعلم منه.

وينبغي أن يعلم ان ظاهر قوله: «ذي علم» هو العلم الطاري على العالم الزائد على ذاته لما في لفظة «ذي» من الدلالة على المصاحبة والمقارنة فالله سبحانه وعلمه الذي هو صفة ذاته عين ذاته، وهو تعالى علم غير محدود كما ان وجوده أحدي غير محدود، خارج بذاته عن إطلاق الكلام.

على ان الجملة «وفوق كل ذي علم عليم» إنما تصدق فيما أمكن هناك فرض «فوق» والله سبحانه لا فوق له ولا تحت له ولا وراء لوجوده ولا حد لذاته ولا نهاية.

ولا يبعد ان يكون قوله: «وفوق كل ذي علم عليم» إشارة الى كونه تعالى فوق كل ذي علم أن يكون المراد بعليم هو الله سبحانه أورد في هيئة النكرة صوناً للسان عن تعريفه للتعظيم.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ الى آخر الآية؛ القائلون هم إخوة يوسف عليه السلام لأبيه، ولذلك نسبوا يوسف الى أخيهم المتهم بالسرقة لأنهما كانا من أم واحدة، والمعنى أنهم قالوا: إن يسرق هذا صواع الملك فليس ببعيد منه لأنه كان

له اخ وقد تحققت السرقة منه من قبل فهما يتوارثان ذلك من ناحية امهما ونحن مفارقوهما في الام.

وفي هذا نوع تبرئة لأنفسهم من السرقة لكنه لا يخلو من تكذيب لما قالوه آنفاً «وما كنا سارقين» لأنهم كانوا ينفقون به السرقة عن أبناء يعقوب جميعاً وإلّا لم يكن ينفعهم البتة فقولهم: «فقد سرق أخ له من قبل» يناقضه وهو ظاهر. على أنهم أظهروا بهذه الكلمة ما في نفوسهم من الحسد ليوسف واخيه ـ ولعلهم لم يشعروا به ـ وهذا يكشف عن أُمور مؤسفة كثيرة فيما بينهم.

وبهذا يتضح بعض الاتضاح معنى قول يوسف «أنتم شر مكاناً» كما ان الظاهر ان قوله: «أنتم شر مكاناً» الى آخر الآية كالبيان لقوله: «فاسرها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم» وكما أن قوله: «ولم يبدها لهم» عطف تفسير لقوله: «فأسرّها يوسف في نفسه».

والمعنى ـ والله أعلم ـ «فأسرها» أي اخفى هذه الكلمة التي قالوها اي لم يتعرض لما نسبوا اليه من السرقة ولم ينفه ولم يبين حقيقة الحال بل «أسرها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم» وكأن هناك قائلاً يقول: كيف أسرها في نفسه فاجيب أنه «قال: أنتم شر مكاناً» وأسوء حالاً لما في اقوالكم من التناقض وفي نفوسكم من غريزة الحسد الظاهرة واجترائكم على الكذب في حضرة العزيز بعد هذا الإكرام والإحسان كله «والله اعلم بما تصفون» إنه قد سرق أخ له من قبل فلم يكذبهم في وصفهم ولم ينفه.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا يا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَباً شَيْخاً كَبِيراً فَخُذْ أَحَدَنا مَكَانَهُ إِنَّا نَرٰيكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ سياق الآيات يدل على أنهم إنما قالوا هذا القول لما شاهدوا أنه استحق الأخذ والاستعباد، وذكروا أنهم أعطوا أباهم موثقاً من الله أن يرجعوه اليه فلم يكن في مقدرتهم أن يرجعوا الى أبيهم ولا يكون معهم، فعند ذلك عزموا أن يفدوه بواحد منهم إن قبل العزيز، وكلموا العزيز في ذلك أن يأخذ أي من شاء منهم، ويخلي عن سبيل أخيهم المتهم

ليرجعوه اليه أبيه.

ومعنى الآية ظاهر. وفي اللفظ ترقيق واسترحام وإثارة لصفة الفتوة والإحسان من العزيز.

قوله تعالى ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذاً لَظَالِمُونَ﴾ رد منه ﷺ لسؤالهم أن يأخذ أحدهم مكانه ومعنى الآية ظاهر.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا اسْتَيْئَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيّاً﴾ الى آخر الآية؛ قال في المجمع: اليأس قطع الطمع من الأمر يقال يئس ييأس وأيس يأيس لغة. واستفعل مثل استيأس واستأيس. قال: ويئس واستيأس بمعنى مثل سخر واستسخر وعجب واستعجب.

والنجي القوم يتناجون الواحد والجمع فيه سواء قال سبحانه «وقربناه نجياً» وإنما جاز ذلك لأنه مصدر وصف به، والمناجاة المسارة وأصله من النجوة هو المرتفع من الأرض فأنه رفع السر من كل واحد الى صاحبه في خفية، والنجوى يكون اسماً مصدرياً قال سبحانه «وإذ هم نجوى» أي يتناجون، وقال في المصدر «إنما النجوى من الشيطان» وجمع النجي أنجية قال: وبرح الرجل براحاً إذا تنحى عن موضعه. إنتهى.

والضمير في قوله: «فلما استيأسوا منه» ليوسف ويمكن أن يكون لأخيه والمعنى «فلما استيأسوا» أي إخوة يوسف «منه» أي من يوسف أن يخلي عن سبيل أخيه ولو بأخذ أحدهم بدلاً منه «خلصوا» وخرجوا من بين الناس الى فراغ «نجياً» يتناجون في أمرهم أيرجعون الى أبيهم وقد أخذ منهم موثقاً من الله أن يعيدوا أخاهم اليه أم يقيمون هناك ولا فائدة في إقامتهم؟ ماذا يصنعون؟

«قال كبيرهم» مخاطباً لسائرهم «ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله» ألا ترجعوا من سفركم هذا اليه إلّا بأخيكم، «ومن قبل» هذه الواقعة «ما فرطتم» أي تفريطكم وتقصيركم «في» أمر «يوسف» عهدتم أباكم أن تحفظوه وتردوه اليه سالماً فألقيتموه في الجب

ثم بعتموه من السيارة ثم أخبرتم أباكم أنه أكله الذئب.

«فلن أبرح الأرض» أي فإذا كان الشأن هذا الشأن لن أتنحى ولن أُفارق أرض مصر «حتى يأذن لي أبي» برفعه اليد عن الموثق الذي واثقته به «أو يحكم الله لي وهو خير الحاكمين» فيجعل لي طريقاً الى النجاة من هذه المضيقة التي سدت لي كل باب وذلك إما بخلاص أخي من يد العزيز من طريق لا أحتسبه أو بموتي أو بغير ذلك من سبيل !!.

أما أنا فأختار البقاء ههنا وأما أنتم فارجعوا الى أبيكم الى آخر ما ذكر في الآيتين التاليتين.

قوله تعالى: ﴿إرْجِعُوا إِلىٰ أَبِيكُمْ فَقُولُوا يا أَبانا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَما شَهِدْنا إِلّا بِما عَلِمْنا وَما كُنّا لِلْغَيْبِ حافِظِينَ﴾ قيل المراد بقوله: «وما شهدنا إلّا بما علمنا» أنا لم نشهد في شهادتنا هذه «إن إبنك سرق» إلّا بما علمنا من سرقته. وقيل المراد ما شهدنا عند العزيز أن السارق يؤخذ بسرقته ويسترق إلّا بما علمنا من حكم المسألة. قيل وإنما قالوا ذلك حين قال لهم يعقوب: ما يدري الرجل أن السارق يؤخذ بسرقته ويسترق؟ وإنما علم ذلك بقولكم. وأقرب المعنين الى السياق أولهما.

وقوله: ﴿وَما كُنّا لِلْغَيْبِ حافِظِينَ﴾ قيل أي لم نكن نعلم أن إبنك سيسرق فيؤخذ ويسترق وإنما كنا نعتمد على ظاهر الحال ولو كنا نعلم ذلك لما بادرنا الى تسفيره معنا ولا أقدمنا على الميثاق.

والحق أن المراد بالغيب كونه سارقاً مع جهلهم بما ومعنى الآية إن إبنك سرق وما شهدنا في جزاء السرقة إلّا بما علمنا وما كنا نعلم أنه سرق السقاية وأنه سيؤخذ بها حتى نكف عن تلك الشهادة فما كنا نظن به ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنّا فِيها وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنا فِيها وَإِنّا لَصادِقُونَ﴾ أي واسأل جميع من صاحبنا في هذه السفرة أو شاهد جريان حالنا عند العزيز تى لا يبقى لك أدنى ريب في أنا لم نفرط في أمره بل إنه سرق فاسترق.

فالمراد بالقرية التي كانوا فيها بلدة مصر ـ على الظاهر ـ وبالعير التي أقبلوا فيها القافلة التي كانوا فيها وكان رجالها يصاحبونهم في الخروج الى مصر والرجوع منها ثم أقبلوا مصاحبين لهم، ولذلك عقبوا عرض السؤال بقولهم: «وإنا لصادقون» أي فيما نخبرك من سرقته واسترقاقه لذلك، ونكلفك السؤال لإزالة الريب من نفسك.

٨٣ ● قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى ٱللّٰهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ.

٨٤ ● وَتَوَلّٰى عَنْهُمْ وَقَالَ يا أَسَفىٰ عَلىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ.

٨٥ ● قَالُوا تَاللّٰهِ تَفْتَؤُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتّىٰ تَكُونَ حَرَضاً أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ.

٨٦ ● قَالَ إِنَّما أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى ٱللّٰهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللّٰهِ مَا لاٰ تَعْلَمُونَ.

٨٧ ● يا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلاٰ تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللّٰهِ إِنَّهُ لاٰ يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ ٱللّٰهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكافِرُونَ.

٨٨ ● فَلَمّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنا بِبِضاعَةٍ مُزْجاةٍ فَأَوْفِ لَنا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنا إِنَّ ٱللّٰهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ.

٨٩ ● قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ ما فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جاهِلُونَ.

٩٠ ● قَالُوا ءَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهٰذا أَخِي قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ.

٩١ ● قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنا وَإِنْ كُنَّا لَخاطِئِينَ.

٩٢ ● قَالَ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى ٱللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ في المقام حذف كثير يدل عليه قوله: «ارجعوا الى أبيكم فقولوا» الى آخر الآيتين؛ والتقدير ولما رجعوا الى أبيهم وقالوا ما وصاهم به كبيرهم قال أبوهم بل سولت لكم أنفسكم أمراً، الخ.

وقوله: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً﴾ حكاية ما أجابهم به يعقوب عليه السلام ولم يقل عليه السلام هذا القول تكذيباً لهم فيما أخبروه به وحاشاه أن يكذب خبراً يحتف بقرائن الصدق وتصاحبه شواهد يمكن اختباره بها، ولا رماهم بقوله: «بل سولت لكم أنفسكم أمراً» رميا بالمظنة بل ليس إلّا أنه وجد بفراسة إلهية أن هذه الواقعة ترتبط وتتفرع على تسويل نفساني منهم إجمالاً وكذلك كان الأمر فإن الواقعة من أذناب واقعة يوسف وكانت واقعته من تسويل نفساني منهم.

ومن هنا يظهر أنه عليه السلام لم ينسب الى تسويل أنفسهم عدم رجوع أخي يوسف فحسب بل عدم رجوعه وعدم رجوع كبيرهم الذي توقف بمصر ولم يرجع اليه، ويشهد لذلك قوله:

«عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً» فجمع في ذلك بين يوسف وأخيه وكبير الإخوة فلم يذكر أخا يوسف وحده ولا يوسف وأخاه معاً. فظاهر السياق أن ترجيه رجوع بنيه الثلاثة مبني على صبره الجميل قبال ما سولت لهم أنفسهم أمراً.

فالمعنى ـ والله أعلم ـ أن هذه الواقعة مما سولت لكم أنفسكم كما قلت ذلك في واقعة يوسف فصبر جميل قبال تسويل انفسكم عسى الله أن يأتيني بأبنائي الثلاثة جميعاً.

ومن هنا يظهر أن قولهم: إن المعنى: ما عندي ان الأمر على ما تصفونه بل سولت لكم انفسكم أمراً فيما أظن، ليس في محله.

وقوله: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ ترج مجرد لرجوعهم جميعاً مع ما فيه من الإشارة الى أن يوسف حي لم يمت ـ على ما يراه ـ وليس مشرباً معنى الدعاء، ولو كان في معنى الدعاء لم يختمه بقوله: «إنه هو العليم الحكيم» بل بمثل قولنا: إنه هو السميع العليم أو الرؤف الرحيم أو ما يناظرهما كما هو المعهود في الأدعية المنقولة في القرآن الكريم.

بل هو رجاء لثمرة الصبر فهو يقول: إن واقعة يوسف السابقة وهذه الواقعة التي أخذت مني ابنين آخرين إنما هما لأمر ما سولته لكم انفسكم فسأصبر صبراً وأرجو به ان يأتيني الله بأبنائي جميعاً ويتم نعمته على آل يعقوب كما وعدنيه إنه هو العليم بمورد الاجتباء وإتمام النعمة حكيم في فعله يقدر الامور على ما تقتضيه الحكمة البالغة فلا ينبغي للإنسان ان يضطرب عند البلايا والمحن بالطيش والجزع ولا أن ييأس من روحه ورحمته.

والإسمان: العليم الحكيم هما اللذان ذكرهما يعقوب ليوسف عليه السلام لأول مرة أول رؤياه فقال «إن ربك عليم حكيم» ثم ذكرهما يوسف ليعقوب عليه السلام ثانياً حيث رفع ابويه على العرش وخرّوا له سجداً فقال «يا ابت هذا تأويل رؤياى ـ الى أن قال ـ وهو العليم الحكيم».

قوله تعالى: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ قال الراغب في المفردات: الأسف الحزن والغضب معاً، وقد يقال لكل واحد منهما على الانفراد وحقيقته ثوران دم القلب شهوة الانتقام فمتى كان ذلك على من دونه انتشر فصار غضباً، ومتى كان على من فوقه انقبض فصار حزناً ـ الى ان قال ـ وقوله تعالى: «فلما آسفونا انتقمنا منهم» أي أغضبونا قال أبو عبدالله[1] الرضا: إن الله لا يأسف كأسفنا ولكن له أولياء يأسفون ويرضون فجعل رضاهم رضاه وغضبهم غضبه. قال: وعلى ذلك قال: من أهان لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة. انتهى.

وقال: الكظم مخرج النفس يقال: أخذ بكظمه، والكظوم احتباس النفس ويعبر به عن السكوت كقولهم: فلان لا يتنفس إذا وصف بالمبالغة في السكوت، وكظم فلان حبس نفسه قال تعالى «إذ نادى وهو مكظوم» وكظم الغيظ حبسه قال تعالى «والكاظمين الغيظ»، ومنه كظم البعير إذا ترك الاجترار وكظم السقاء شده بعد ملئه مانعاً لنفسه. انتهى.

وقوله: ﴿وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ﴾ ابيضاض العين أي سوادها هو العمى وبطلان الإبصار وربما يجامع قليل إبصار لكن قوله الآتي: ﴿إذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيراً﴾ (الآية ٩٣ من السورة) يشهد بأنه كناية عن ذهاب البصر.

ومعنى الآية «ثم تولى» وأعرض يعقوب ﷺ «عنهم» أي عن أبنائه بعد ما خاطبهم بقوله: بل سولت لكم أنفسكم أمراً «وقال: يا أسفي» ويا حزني «على يوسف وابيضت عيناه» وذهب بصره «من الحزن» على يوسف «فهو كظيم» حابس غيظه متجرع حزنه لا يتعرض لبنيه بشيء.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَؤُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضاً أَوْ تَكُونَ

---

١. كذا في النسخة المنقولة عنها والصحيح ابوالحسن.

مِنَ الْهَالِكِينَ ﴾ الحرض والحارض المشرف على الهلاك وقيل: هو الذي لا ميت فينسى ولا حي فيرجى، والمعنى الأول أنسب بالنظر الى مقابلته الهلاك، والحرض لا يثنى ولا يجمع لأنه مصدر.

والمعنى: نقسم بالله لا تزال تذكر يوسف وتديم ذكره منذ سنين لا تكف عنه حتى تشرف على الهلاك أو تهلك، وظاهر قولهم هذا أنهم إنما قالوه رقة بحاله ورأفة به. ولعلهم إنما تفوهوا به تبرّماً ببكائه وسأمة من طول نياحه ليوسف، وخاصة من جهة أنه كان يكذبهم في ما كانوا يدعونه من أمر يوسف، وكان ظاهر بكائه وتأسفه أنه يكوهم كما ربما يؤيده قوله: «إنما أشكوا» الخ.

قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ قال في المجمع: البث الهم الذي لا يقدر صاحبه على كتمانه فيبثه أي يفرقه، وكل شيء فرقته فقد بثثته ومنه قوله: «وبث فيها من كل دابة» انتهى فهو من المصدر بمعنى المفعول أي المبثوث.

والحصر الذي في قوله: «إنما أشكو» الخ: من قصر القلب فيكون مفاده أني لست أشكو بثي وحزني اليكم معاشر ولدي وأهلي، ولو كنت أشكوه اليكم لأنقطع في أقل زمان كما يجري عليه دأب الناس في بثهم وحزنهم عند المصائب، وإنما أشكو بثي وحزني الى الله سبحانه، ولا يأخذه ملل ولا سأمة فيما يسأله عنه عباده ويبرمه أرباب الحوائج ويلحون عليه وأعلم من الله ما لا تعلمون فلست أيأس من روحه ولا أقنط من رحمته.

وفي قوله: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ إشارة إجمالية الى علمه بالله لا يستفاد منه إلّا ما يساعد على فهمه المقام كما اشرنا اليه.

قوله تعالى: ﴿يا بَنِيَّ اذهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلاَ تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا الْـقَوْمُ الْكـافِرُونَ ﴾ قـال في المجـمع:

التحسس - بالحاء - طلب الشيء بالحاسة والتجسس - بالجيم - نظيره وفي الحديث: لا تحسسوا ولا تجسسوا، وقيل إن معناهما واحد ونسق أحدهما على الآخر لاختلاف اللفظين كقول الشاعر «متى أدن منه ينأ عنه ويبعد».

وقيل: التجسس بالجيم البحث عن عورات الناس، وبالحاء الاستماع لحديث قوم وسئل ابن عباس عن الفرق بينهما؟ قال: لا يبعد أحدهما عن الآخر: التحسس في الخير والتجسس في الشر. انتهى.

وقوله: ﴿وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ﴾ الروح بالفتح فالسكون النفس أو النفس الطيب ويكنى به عن الحالة التي هي ضد التعب وهي الراحة وذلك أن الشدة التي فيها انقطاع الأسباب وانسداد طرق النجاة تتصور اختناقاً وكظماً للإنسان وبالمقابلة الخروج الى فسحة الفرج والظفر بالعافية تنفساً وروحاً لقولهم يفرج الهمّ وينفس الكرب، فالروح المنسوب اليه تعالى هو الفرج بعد الشدة بإذن الله ومشيته، وعلى من يؤمن بالله أن يعتقد أن الله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا قاهر لمشيته ولا معقب لحكمه، وليس له أن ييأس من روح الله ويقنط من رحمته فإنه تحديد لقدرته وفي معنى الكفر باحاطته وسعة رحمته كما قال تعالى حاكياً عن لسان يعقوب عليه السلام «إنه لا ييأس من روح الله إلّا القوم الكافرون» وقال حاكياً عن لسان إبراهيم عليه السلام ﴿ومن يقنط من رحمة ربه إلّا الضالون﴾ (الحجر / ٥٦)، وقد عد اليأس من روح الله في الأخبار المأثورة من الكبائر الموبقة.

ومعنى الآية - ثم قال يعقوب لبنيه آمراً لهم - «يا بني اذهبوا فتحسسوا» من يوسف وأخيه، الذي أُخذ بمصر وابحثوا عنهما لعلكم تظفرون بهما «ولا تيأسوا من روح الله» والفرج الذي يرزقه الله بعد الشدة «إنه لا ييأس من روح الله إلّا القوم الكافرون» الذين لا يؤمنون بأن الله يقدر أن يكشف كل غمة وينفس عن كل كربة.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ

﴿وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ﴾ الخ: البضاعة المزجاة المتاع القليل. وفي الكلام حذف والتقدير فساروا بني يعقوب الى مصر ولما دخلوا على يوسف قالوا، الخ.

كانت لهم ـ على ما يدل عليه السياق ـ حاجتان الى العزيز ولا مطمع لهم بحسب ظاهر الأسباب الى قضائهما واستجابته عليهم فيهما.

إحداهما: أن يبيع منهم الطعام ولا ثمن عندهم يفي بما يريدونه من الطعام على أنهم عرفوا بالكذب وسجل عليهم السرقة من قبل وهان أمرهم على العزيز لا يرجى منه أن يكرمهم بما كان يكرمهم به في الجيئة الاولى.

وثانيتهما: أن يخلي عن سبيل أخيهم المأخوذ بالسرقة، وقد استيأسوا منه بعدما كانوا ألحوا عليه فأبى العزيز حتى عن تخلية سبيله بأخذ أحدهم مكانه.

ولذلك لما حضروا عند يوسف العزيز وكلموه وهم يريدون أخذ الطعام وإعتاق أخيهم أوقفوا أنفسهم موقف التذلل والخضوع وبالغوا في رقة الكلام استرحاماً واستعطافاً فذكروا أولاً ما مسهم وأهلهم من الضر وسوء الحال ثم ذكروا قلة ما أتوا به من البضاعة ثم سألوه إيفاء الكيل، وأما حديث أخيهم المأخوذ فلم يصرحوا بسؤال تخلية سبيله بل سألوه أن يتصدق عليهم وإنما يتصدق بالمال والطعام مال وأخوهم المسترق مال العزيز ظاهراً ثم حرضوه بقولهم: «إن الله يجزي المتصدقين» وهو في معنى الدعاء.

فمعنى الآية «يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر» وأحاط بنا جميعاً المضيقة وسوء الحال «وجئنا» اليك «ببضاعة مزجاة» ومتاع قليل لا يعدل ما نسألك من الطعام غير أنه نهاية ما في وسعنا «فأوف لنا الكيل وتصدق علينا» وكأنهم يريدون به أخاهم أو إياه والطعام «إن الله يجزي المتصدقين» خيراً.

وقد بدؤا القول بخطاب «يا أيها العزيز» وختموه بما في معنى الدعاء، وأتوا خلاله بذكر سوء حالهم والاعتراف بقلة بضاعتهم وسؤاله أن يتصدق عليهم وهو من أمر السؤال

والموقف موقف الاسترحام ممن لا يستحق ذلك لسوء سابقته، وهم عصبة قد إصطفوا أما عزيز مصر.

وعند ذلك تمت الكلمة الإلهية أنه سيرفع يوسف وأخاه ويضع عنده سائر بني يعقوب لظلمهم، ولذلك لم يلبث يوسف عليه السلام دون أن أجابهم قوله: «هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه» وعرفهم نفسه، وقد كان يمكنه عليه السلام أن يخبر أباه وأخوته مكانه وأنه بمصر طول هذه المدة غير القصيرة لكن الله سبحانه شاء أن يوقف إخوته أمامه ومعه أخوه المحسود متوقف المذلة والمسكنة وهو متك على أريكة العزة.

قوله تعالى: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾ إنما يخاطب المخطىء المجرم بمثل هل علمت وأتدري وأرأيت ونحوها وهو عالم بما فعل لتذكيره جزاء عمله ووبال ذنبه لكنه عليه السلام أعقب استفهامه بقوله: «إذ أنتم جاهلون» وفيه تلقين عذر.

فقوله: ﴿هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ مجرد تذكير لعملهم بهما من غير توبيخ ومؤاخذة ليعرفهم من الله عليه وعلى أخيه وهذا من عجيب فتوة يوسف عليه السلام، ويا لها من فتوة.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا ءَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَٰذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ الى آخر الآية تأكيد الجملة المستفهم عنها للدلالة على أن الشواهد القطعية قامت على تحقق مضمونها وإنما يستفهم لمجرد الاعتراف فحسب.

وقد قامت الشواهد عندهم على كون العزيز هو أخاهم يوسف ولذلك سألوه بقولهم: «ءإنك لأنت يوسف» مؤكداً بإن واللام وضمير الفصل فأجابهم بقوله: «أنا يوسف وهذا أخي» وإنما ألحق أخاه بنفسه ولم يسألوا عنه وما كانوا يجهلونه ليخبر عن من الله عليهما، وهما معا المحسودان ولذا قال «قد منّ الله علينا».

ثم أخبر عن سبب المن الإلهي بحسب ظاهر الأسباب فقال «إنه من يتق ويصبر فإن الله لا

يضيع أجر المحسنين» وفيه دعوتهم الى الإحسان وبيان أنه يتحقق بالتقوى والصبر.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ الإيثار هو الاختيار والتفضيل، والخطأ ضد الصواب والخاطىء والمخطىء من خطأ خطأ وأخطأ إخطاء بمعنى واحد، ومعنى الآية ظاهر وفيها اعترافهم بالخطأ وتفضيل الله يوسف عليهم.

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ التثريب التوبيخ والمبالغة في اللوم وتعديد الذنوب، وإنما قيّد نفي التثريب باليوم ليدل على مكانة صفحه وإغماضه عن الانتقام منهم والظرف هذا الظرف هو عزيز مصر اوتي النبوة والحكم وعلم الأحاديث ومعه أخوه وهم أذلاء بين يديه معترفون بالخطيئة وأن الله آثره عليهم بالرغم من قولهم أول يوم: «ليوسف وأخوه أحب الى أبينا منا ونحن عصبة إن أبانا لفي ضلال مبين».

ثم دعا لهم واستغفر بقوله: «يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين» وهذا دعاء واستغفار منه لإخوته الذين ظلموه جميعاً وإن كان الحاضرون عنده اليوم بعضهم لا جميعهم كما يستفاد من قوله تعالى الآتي: «قالوا تالله إنك لفي ضلالك القديم» وسيجيء إن شاء الله تعالى[1].

٩٣ • إِذْهَبُوا بِقَمِيصِي هٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ.

٩٤ • وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ.

---

١. يوسف ٨٣ ـ ٩٢: بحث روائي حول قصة يوسف واخوانه في مصر؛ سيرة يوسف في مصر؛ حزن يعقوب على يوسف وتغيير حالته من الحزن.

٩٥ • قالُوا تَاللّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ الْقَدِيمِ.

٩٦ • فَلَمَّا أَنْ جاءَ الْبَشِيرُ أَلْقاهُ عَلىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيراً قالَ أَلَمْ
أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللّهِ ما لا تَعْلَمُونَ.

٩٧ • قالُوا يا أَبانَا اسْتَغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا إِنّا كُنّا خاطِئِينَ.

٩٨ • قالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّه هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ.

٩٩ • فَلَمَّا دَخَلُوا عَلىٰ يُوسُفَ آوىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقالَ ادْخُلُوا مِصْرَ
إِنْ شاءَ اللّهُ آمِنِينَ.

١٠٠ • وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً وَقالَ يا أَبَتِ هٰذا
تَأْوِيلُ رُؤْيايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَها رَبِّي حَقّاً وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ
أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ
الشَّيْطانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِما يَشاءُ إِنَّهُ هُوَ
الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ.

١٠١ • رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الأَحادِيثِ
فاطِرَ السَّمٰواتِ وَالأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيا وَالآخِرَةِ
تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصّالِحِينَ.

١٠٢ • ذٰلِكَ مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَما كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا
أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿إِذْهَبُوا بِقَمِيصِي هٰذٰا فَأَلْقُوهُ عَلىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ تتمة كلام يوسف عليه السلام يأمر فيه إخوته أن يذهبوا بقميصه الى أبيه فيلقوه على وجهه ليشفي الله به عينيه ويأتي بصيراً بعد ما صار من كثرة الحزن والبكاء ضريراً لا يبصر.

وهذا آخر العنايات البديعة التي أظهرها الله سبحانه في حق يوسف عليه السلام على ما يقصه في هذه السورة مما غلب الله الاسباب فحولها الى خلاف الجهة التي كانت تجري اليها حسده إخوته فاستذلوه وغربوه عن مستقره بالقائه في الجب وبيعه من السيارة بثمن بخس فجعل الله سبحانه هذا السبب بعينه سبباً لقراره في بيت عزيز مصر في أكرم مثوى ثم أقره في أريكة عزة تضرع اليه أمامها إخوته بقولهم: «يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة فأوف لنا الكيل وتصدق علينا إن الله يجزي المتصدقين».

ثم أحبته امرأة العزيز ونسوة مصر فراودنه عن نفسه ليوردنه في مهلكة الفجور فحفظه الله وجعل ذلك سبباً لظهور براءة ساحته وكمال عفته. ثم استذلوه فسجنوه فجعله الله سبباً لعزته وملكه.

وجاء إخوته الى أبيه يوم ألقوه في غيابة الجب بقميصه الملطخ بالدم فأخبروه بموته كذباً فكان القميص سبباً لحزن أبيه وبكائه في فراق ابنه حتى ابيضت عيناه وذهب بصره فرد الله سبحانه به بصره اليه وبالجملة اجتمعت الأسباب على خفضه وأراد الله سبحانه رفعه فكان ما أراده الله دون الذي توجهت اليه الأسباب والله غالب على أمره.

وقوله: ﴿وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أمر منه بانتقال بيت يعقوب من يعقوب وأهله وبنيه وذراريه جميعاً من البدو الى مصر ونزولهم بها.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ﴾ الفصل القطع والانقطاع والتنفيد تفعيل من الفند بفتحتين وهو ضعف الرأي، والمعنى لما خرجت العير الحاملة لقميص يوسف من مصر وانقطعت عنها قال أبوهم يعقوب لمن عنده من بنيه: إني لأجد ريح يوسف لولا أن ترموني بضعف الرأي أي إني لأحس بريحه وأرى أن اللقاء قريب ومن حقه أن تذعنوا بما أجده لولا أن تخطئوني لكن من المحتمل أن تفندوني فلا تذعنوا بقولي.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾ القديم مقابل الجديد والمراد به المتقدم وجوداً، وهذا ما واجهه به بعض بنيه الحاضرين عنده، وهو من سيىء حظهم في هذه القصة تفوّهوا بمثله في بدء القصة إذ قالوا «إن أبانا لفي ضلال مبين» وفي ختمها وهو قولهم هذا: «تالله إنك لفي ضلالك القديم».

والظاهر أن مرادهم بالضلال ههنا هو مرادهم بالضلال هناك وهو المبالغة في حب يوسف وذلك أنهم كانوا يرون أنهم أحق بالحب من يوسف وهم عصبة اليهم تدبير بيته والدفاع عنه لكن أباهم قد ضل عن مستوى طريق الحكمة وقدم عليهم في الحب طفلين صغيرين لا يغنيان عنه شيئاً فأقبل بكله اليهما ونسيهم، ثم لما فقد يوسف جزع له ولم يزل يجزع ويبكي حتى ذهبت عيناه وتقوّس ظهره.

فهذا هو مرادهم من كونه في ضلاله القديم ليسوا يعنون به الضلال في الدين حتى يصيروا بذلك كافرين:

أما أولاً: فلأن ما ذكر من فصول كلامهم في خلال القصة يشهد على أنهم كانوا موحدين على دين آبائهم إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليه السلام.

وأما ثانياً: فلأن المقام ههنا وكذا في بدء القصة حين قالوا: إن أبانا لفي ضلال مبين لا مساس له بالضلال في الدين حتى يحتمل رميهم أباهم فيه، وإنما يمس أمراً عملياً حيوياً وهو

حب أب لبعض أولاده وتقديمه في الكرامة على آخرين فهو المعني بالضلال.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَنْ جاءَ الْبَشِيرُ أَلْقاهُ عَلىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيراً قالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ﴾ البشير حامل البشارة وكان حامل القميص وقوله: «ألم أقل لكم إني أعلم» يشير عليه السلام الى قوله لهم حين لاموه على ذكر يوسف: «إنما أشكو بثي وحزني الى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون» ومعنى الآية ظاهر.

قوله تعالى: ﴿قالُوا يا أَبانَا اسْتَغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا إِنَّا كُنَّا خاطِئِينَ﴾ القائلون بنو يعقوب بدليل قولهم: «يا أبانا» ويريدون بالذنوب ما فعلوه به في أمر يوسف وأخيه. وأما يوسف فقد كان استغفر لهم قبل.

قوله تعالى: ﴿قالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ أخر عليه السلام الإستغفار لهم كما هو مدلول قوله: «سوف أستغفر لكم ربي» ولعله إنما أخره ليتم له النعمة بلقاء يوسف وتطيب نفسه به كل الطيب بنسيان جميع آثار الفراق ثم يستغفر لهم وفي بعض الأخبار: أنه أخره الى وقت يستجاب فيه الدعاء وسيجيء إن شاء الله.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلىٰ يُوسُفَ آوىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾ في الكلام حذف والتقدير فخرج يعقوب وآله من أرضهم وساروا الى مصر ولما دخلوا «الخ».

وقوله: ﴿آوىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾ فسروه بضمهما اليه. وقوله: «وقال أُدخلوا مصر» الخ: ظاهر في أن يوسف خرج من مصر لاستقبالهما وضمهما اليه هناك ثم عرض لهما دخول مصر إكراماً وتأدباً وقد أبدع عليه السلام في قوله: «إن شاء الله آمنين» حيث أعطاهم الأمن واصدر لهم حكمه على سنة الملوك وقيد ذلك بمشية الله سبحانه للدلالة على أن المشية الإنسانية لا تؤثر أثرها كسائر الاسباب إلّا إذا وافقت المشية الإلهية على ما هو مقتضى التوحيد الخالص.

وظاهر هذا السياق أنه لم يكن لهم الدخول والاستقرار في مصر إلّا بجواز من ناحية الملك،

ولذا أعطاهم الأمن في مبتدء الأمر.

وقد ذكر سبحانه «أبويه» والمفسرون مختلفون في أنهما كانا والديه أباه وامه حقيقة أو أنهما يعقوب وزوجه خالة يوسف بالبناء على أن أُمه ماتت وهو صغير، ولا يوجد في كلامه تعالى ما يؤيد أحد المحتملين غير أن الظاهر من الأبوين هما الحقيقيان.

ومعنى الآية «ولما دخلوا» أي أبواه وإخوته وأهلهم «على يوسف» وذلك في خارج مصر «آوى» وضم «اليه أبويه وقال» لهم مؤمناً لهم «ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين».

قوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً وَقَالَ يَا أَبَتِ هٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ﴾ الى آخر الآية: العرش هو السرير العالي ويكثر استعماله فيما يجلس عليه الملك ويختص به، والخرور السقوط على الارض والبدو البادية فإن يعقوب كان يسكن البادية.

وقوله: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ﴾ أي رفع يوسف أبويه على عرش الملك الذي كان يجلس عليه ومقتضى الاعتبار وظاهر السياق أنهما رفعا على العرش بأمر من يوسف تصداه خدمه لا هو بنفسه كما يشعر به قوله: «وخرّوا له سجداً» فإن الظاهر أن السجدة إنما وقعت لأول ما طلع عليهم يوسف فكأنهم دخلوا البيت واطمأن بهم المجلس ثم دخل عليهم يوسف فغشيهم النور الإلهي المتلألىء من جماله البديع فلم يملكوا أنفسهم دون أن خرّوا له سجداً.

وقوله: ﴿وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً﴾ الضمير ليوسف كما يعطيه السياق فهو المسجود له، وقول بعضهم: إن الضمير لله سبحانه نظراً الى عدم جواز السجود لغير الله لا دليل عليه من جهة اللفظ، وقد وقع نظيره في القرآن الكريم في قصة آدم والملائكة قال تعالى ﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلّا إبليس﴾ (طه / ١١٦).

والدليل على أنها لم تكن منهم سجدة عبادة ليوسف أن بين هؤلاء الساجدين يعقوب عليه السلام

وهو ممن نصّ القرآن الكريم على كونه مخلصاً ـ بالفتح ـ لله لا يشرك به شيئاً، ويوسف عليه السلام ـ وهو المسجود له ـ منهم بنص القرآن وهو القائل لصاحبيه في السجن: ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ولم يردعهم.

فليس إلّا أنهم إنما أخذوا يوسف آية الله فاتخذوه قبلة في سجدتهم وعبدوا الله بها لا غير كالكعبة التي تؤخذ قبلة فيصلى اليها فيعبد بها الله دون الكعبة، ومن المعلوم أن الآية من حيث إنها آية لا نفسية لها أصلاً فليس المعبود عندها إلّا الله سبحانه وتعالى. وقد تكرر الكلام في هذا المعنى فيما تقدم من أجزاء الكتاب.

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّاً﴾ الى آخر الآية؛ لما شاهد عليه السلام سجدة أبويه وإخوته الأحد عشر ذكر الرؤيا التي رآى فيها أحد عشر كوكباً والشمس والقمر له ساجدين وأخبر بها أباه وهو صغير فأوّلها له. فأشار الى سجودهم له وقال «يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ـ أي الرؤيا ـ ربي حقاً».

ثم أثنى على ربه شاكراً له فقال «وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن» فذكر إحسان ربه به في إخراجه من السجن وهو ضرّاء وبلاء دفعه الله عنه بتبديله سراء ونعمة من حيث لا يحتسب حيث جعله وسيلة لنيله العزة والملك.

ولم يذكر إخراجه من الجب قبل ذلك لحضور إخوته عنده وكان لا يريد أن يذكر ما يسوؤهم ذكره كرماً وفتوة بل أشار الى ذلك بأحسن لفظ يمكن أن يشار به اليه من غير أن يتضمن طعناً فيهم وشنآناً فقال «وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي» والنزغ هو الدخول في أمر لإفساده.

والمراد: وقد أحسن بي من بعد أن أفسد الشيطان بيني وبين إخوتي فكان من الأمر ما كان فأدّى ذلك الى فراق بيني وبينكم فساقني ربي الى مصر فأقرّني في أرغد عيش وأرفع عزة وملك ثم قرّب بيننا بنقلكم من البادية إليّ في دار المدنية والحضارة.

يعني أنه كانت نوائب نزلت بي إثر إفساد الشيطان بيني وبين إخوتي ومما أخصه بالذكر من بينها فراق بيني وبينكم ثم رزية السجن فأحسن بي ربي ودفعها عني واحدة بعد أخرى ولم يكن من المحن والحوادث العادية بل رزايا صماء وعقوداً لا تنحل لكن ربي نفذ فيها بلطفه ونفوذ قدرته فبدلها أسباب حياة ونعمة بعد ما كانت أسباب هلاك وشقاء وهذه الثلاثة الأخيرة عقب قوله: «وقد احسن بي» الخ؛ بقوله: «إن ربي لطيف لما يشاء».

فقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ﴾ تعليل لإخراجه من السجن ومجيئهم من البدو، ويشير به الى ما خصه الله به من العناية والمنة وأن البلايا التي أحاطت به لم تكن لتنحل عقدتها أو لتنحرف عن مجراها لكن الله لطيف لما يشاء نفذ فيها فجعل عوامل الشدة عوامل رخاء وراحة وأسباب الذلة والرقية وسائل عزة وملك.

واللطيف من أسمائه تعالى يدل على حضوره وإحاطته تعالى بما لا سبيل الى الحضور فيه والإحاطة به من باطن الأشياء وهو من فروع إحاطته تعالى بنفوذ القدرة والعلم قال تعالى: ﴿ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير﴾ (الملك / ١٤) والأصل في معناه الصغر والدقة والنفوذ يقال: لطف الشيء بالضم يلطف لطافة إذا صغر ودق حتى نفذ في المجاري والثقب الصغار. ويكنى به عن الإرفاق والملاءمة والاسم اللطف.

وقوله: ﴿هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ تعليل لجميع ما تقدم من قوله: «يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقاً» الخ؛ وقد علل ﷺ الكلام وختمه بهذين الاسمين محاذاة لأبيه حيث تكلم في رؤياه وقال «وكذلك يجتبيك ربك ـ الى أن قال ـ إن ربك عليم حكيم» وليس يبعد أن يفيد اللام في قوله: «العليم الحكيم» معنى العهد فيفيد تصديقه لقول أبيه ﷺ والمعنى: وهو ذاك العليم الحكيم الذي وصفته لي يوم أوّلت رؤياي.

قوله تعالى: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾

الى آخر الآية ؛ لما أثنى عليه السلام على ربه وعدَّ ما دفع عنه من الشدائد والنوائب أراد أن يذكر ما خصه به من النعم المثبتة وقد هاجت به المحبة الإلهية وانقطع بها عن غيره تعالى فترك خطاب أبيه وانصرف عنه وعن غيره ملتفتاً الى ربه وخاطب ربه عز اسمه فقال «رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث».

وقوله: ﴿فَاطِرَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾ إضراب وترق في الثناء، ورجوع منه عليه السلام الى ذكر أصل الولاية الإلهية بعد ما ذكر بعض مظاهرها الجلية كاخراجه من السجن والمجيء بأهله من البدو وإيتائه من الملك وتعليمه من تأويل الأحاديث فإن الله سبحانه رب فيما دق وجلَّ معاً، ولي في الدنيا والآخرة جميعاً.

وولايته تعالى أعني كونه قائماً كل شيء في ذاته وصفاته وأفعاله منشأها إيجاده تعالى إياها جميعاً وإظهاره لها من كتم العدم فهو فاطر السموات والأرض ولذا يتوجه اليه تعالى قلوب أوليائه والمخلصين من عباده من طريق هذا الاسم الذي يفيد وجوده تعالى لذاته وإيجاده لغيره قال تعالى: ﴿قالت رسلهم أفي الله شك فاطر السماوات والأرض﴾ (إبراهيم / ١٠).

ولذا بدء به يوسف عليه السلام وهو من المخلصين في ذكر ولايته فقال «فاطر السماوات والأرض أنت وليي في الدنيا والآخرة» أي إني تحت ولايتك التامة من غير أن يكون لي صنع في نفسي واستقلال في ذاتي وصفاتي وأفعالي أو أملك لنفسي شيئاً من نفع أو ضر أو موت أو حياة أو نشور.

وقوله: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ لما استغرق عليه السلام في مقام الذلة قبال رب العزة وشهد بولايته له في الدنيا والآخرة سأله سؤال المملوك المولى عليه أن يجعله كما يستدعيه ولايته عليه في الدنيا والآخرة وهو الإسلام ما دام حياً في الدنيا والدخول في

زمرة الصالحين في الآخرة فإن كمال العبد المملوك أن يسلم لربه ما يريده منه ما دام حياً ولا يظهر منه ما يكرهه ولا يرتضيه فيما يرجع اليه من الأعمال الاختيارية وأن يكون صالحاً لقرب مولاه لائقاً لمواهبه السامية فيما لا يرجع الى العبد واختياره. وهو سؤاله ﷺ الإسلام في الدنيا والدخول في زمرة الصالحين في الآخرة وهو الذي منحه الله سبحانه لجده إبراهيم ﷺ ﴿**ولقد اصطفيناه في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين**﴾ (البقرة / ١٣١).

وهذا الإسلام الذي سأله ﷺ أقصى درجات الإسلام وأعلى مراتبه. وهو التسليم المحض لله سبحانه. وهو أن لا يرى العبد لنفسه ولا لآثار نفسه شيئاً من الاستقلال حتى لا يشغله شيء من نفسه ولا صفاتها ولا أعمالها من ربه. وإذا نسب اليه تعالى كان إخلاصه عبده لنفسه.

ومما تقدم ظهر أن قوله: «توفني مسلماً» سؤال منه لبقاء الإخلاص واستمرار الإسلام ما دام حياً وبعبارة أُخرى أن يعيش مسلماً حتى يتوفاه الله فهو كناية عن أن يثبته الله على الإسلام حتى يموت، وليس يراد به أن يموت في حال الإسلام ولو لم يكن قبل ذلك مسلماً، ولا سؤالاً للموت وهو مسلم حتى يكون المعنى أني مسلم فتوفني.

ويتبين بذلك فساد ما روي عن عدة من قدماء المفسرين أن قوله: «توفني مسلماً» دعاء منه يسأل به الموت من الله سبحانه حتى قال بعضهم: لم يسأل أحد من الأنبياء الموت من الله ولا تمناه إلّا يوسف ﷺ.

قوله تعالى: ﴿ذٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ الإشارة الى نبأ يوسف ﷺ. والخطاب للنبي ﷺ. وضمير الجمع لإخوة يوسف والإجماع العزم والإرادة.

وقوله: ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ﴾ الخ؛ حال من ضمير الخطاب من «إليك» وقوله: «نوحيه إليك وما كنت» الى آخر الآية بيان لقوله: «ذلك من أنباء الغيب» والمعنى أن نبأ يوسف من

أنباء الغيب فإنا نوحيه اليك والحال أنك ما كنت عند إخوة يوسف إذ عزموا على أمرهم وهم يمكرون في أمر يوسف[(١)(٢)(٣)].

١٠٣ • وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ.
١٠٤ • وَمَا تَسْئَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ.
١٠٥ • وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ.
١٠٦ • وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّٰهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ.
١٠٧ • أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللّٰهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ.
١٠٨ • قُلْ هٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللّٰهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللّٰهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ.
١٠٩ • وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ.

---

١. يوسف ٩٣ ـ ١٠٢: بحث روائي حول قصة يوسف واخوانه ويعقوب حين وجدوا يوسف.

٢. يوسف ٩٣ ـ ١٠٢: كلام في قصة يوسف في فصول (قصته في القرآن، ما اثنى الله عليه ومنزلته المعنوية، قصته في التوراة الحاضرة).

٣. يوسف ٩٣ ـ ١٠٢: كلام في الرؤيا في فصول (الاعتناء بشأنها، للرؤيا حقيقة، المنامات الحقة، في القرآن ما يؤيد ذلك).

١١٠ ● حَتّىٰ إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جاءَهُمْ
نَصْرُنا فَنُجِّيَ مَنْ نَشاءُ وَلا يُرَدُّ بَأْسُنا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ.
١١١ ● لَقَدْ كانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبابِ ما كانَ حَدِيثاً
يُفْتَرىٰ وَلٰكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ
وَهُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَما أَكْثَرُ النّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ أي ليس من شأن أكثر الناس لانكبابهم على الدنيا وانجذاب نفوسهم الى زينتها وسهوهم عما أُودع في فطرهم من العلم بالله وآياته أن يؤمنوا به، ولو حرصت وأحببت إيمانهم. والدليل على هذا المعنى الآيات التالية.

قوله تعالى: ﴿وَما تَسْئَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلّا ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ﴾ الواو حالية أي ما هم بمؤمنين والحال أنك ما تسألهم على إيمانهم أو على هذا القرآن الذي ننزله عليك وتتلوه عليهم من أجر حتى يصدهم الغرامة المالية وإنفاق ما يحبونه من المال عن قبول دعوته والإيمان به.

وقوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلّا ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ﴾ بيان لشأن القرآن الواقعي وهو أنه ممحض في أنه ذكر للعالمين يذكرون به ما أودع الله في قلوب جماعات البشر من العلم به وبآياته فما هو إلّا ذكر يذكرون به ما أنستهم الغفلة والإعراض ولبس من الأمتعة التي يكتسب بها الأموال أو ينال بها عزة أو جاه أو غير ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمٰواتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْها وَهُمْ

عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ الواو حالية ويحتمل الاستئناف والمرور على الشيء هو موافاته ثم تركه بموافاة ما وراءه فالمرور على الآيات السماوية والأرضية مشاهدتها واحدة بعد أُخرى.

والمعنى أن هناك آيات كثيرة سماوية وأرضية تدل بوجودها والنظام البديع الجاري فيها على توحيد بهم وهم يشاهدونها واحدة بعد أُخرى فتتكرر عليهم والحال أنهم معرضون عنها لا يتنبهون.

ولو حمل قوله: «يمرون عليها» على التصريح من دون الكناية كان من الدليل على ما يبتني عليه الهيئة الحديثة من حركة الأرض وضعاً وانتقالاً فإنا نحن المارون على الأجرام السماوية بحركة الأرض الانتقالية والوضعية لا بالعكس على ما يخيل الينا في ظاهر الحس.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴾ الضمير في «أكثرهم» راجع الى الناس باعتبار إيمانهم أي أكثر الناس ليسوا بمؤمنين وإن لم تسألهم عليه أجراً وإن كانوا يمرون على الآيات السماوية والأرضية على كثرتها والذين آمنوا منهم ـ وهم الأقلون ـ ما يؤمن أكثرهم بالله إلّا وهم متلبسون بالشرك.

وتلبس الإنسان بالايمان والشرك معاً مع كونهما معنيين متقابلين لا يجتمعان في محل واحد نظير تلبسه بسائر الاعتقادات المتناقضة والأخلاق المتضادة إنما يكون من جهة كونهما من المعاني التي تقبل في نفسها القوة والضعف فتختلف بالنسبة والإضافة كالقرب والبعد فإن القرب والبعد المطلقين لا يجتمعان إلّا أنهما إذا كانا نسبيين لا يمتنعان الاجتماع والتصادق كمكة فإنها قريبة بالنسبة الى المدينة بعيدة بالنسبة الى الشام، وكذا هي بعيدة من الشام إذا قيست الى المدينة قريبة منه إذا قيست الى بغداد.

والإيمان بالله والشرك به وحقيقتهما تعلق القلب بالله بالخضوع للحقيقة الواجبية وتعلق القلب بغيره تعالى مما لا يملك شيئاً إلّا بإذنه تعالى يختلفان بحسب النسبة والإضافة فإن من الجائز أن يتعلق الإنسان مثلاً بالحياة الدنيا الفانية وزينتها الباطلة وينسى مع ذلك كل حق

وحقيقة، ومن الجائز أن ينقطع عن كل ما يصد النفس ويشغلها عن الله سبحانه ويتوجه بكله اليه ويذكره ولا يغفل عنه فلا يركن في ذاته وصفاته إلّا اليه ولا يريد إلّا ما يريده كالمخلصين من أوليائه تعالى.

وبين المنزلتين مراتب مختلفة بالقرب من أحد الجانبين والبعد منه وهي التي يجتمع فيها الطرفان بنحو من الاجتماع، ومن الدليل على ذلك الأخلاق والصفات المتمكنة في النفوس التي تخالف مقتضى ما تعتقده من حق أو باطل، والأعمال الصادرة منها كذلك ترى من يدعي الايمان بالله يخاف وترتعد فرائصه من أي نائبة أو مصيبة تهدده وهو يذكر أن لا قوة إلّا بالله، ويلتمس العزة والجاه من غيره وهو يتلو قوله تعالى: «إن العزة لله جميعاً» ويقرع كل باب يبتغي الرزق وقد ضمنه الله، ويعصي الله ولا يستحيي وهو يرى أن ربه عليم بما في نفسه سميع لما يقول بصير بما يعمل ولا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وعلى هذا القياس.

فالمراد بالشرك في الآية بعض مراتبه الذي يجامع بعض مراتب الايمان وهو المسمى باصطلاح فن الأخلاق بالشرك الخفي.

قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ الغاشية صفة سادة مسد الموصوف المحذوف لدلالة كلمة العذاب عليه، والتقدير عقوبة غاشية تغشاهم وتحيط بهم.

والبغتة الفجأة. وقوله: «وهم لا يشعرون» حال من ضمير الجمع أي تفاجئهم الساعة في إتيانها والحال أنهم لا يشعرون بإتيانها لعدم مسبوقيتها بعلامات تعين وقتها وتشخص قيامها والاستفهام للتعجيب، والمعنى أن أمرهم في إعراضهم عن آيات السماء والأرض وعدم إخلاصهم الايمان لله وتماديهم في الغفلة عجيب أفأمنوا عذاباً من الله يغشاهم أو ساعة تفاجئهم وتبهتهم؟

قوله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي

وَسُبْحَانَ ٱللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ لما ذكر سبحانه أن محض الإيمان به وإخلاص التوحيد له عزيز المنال وهو الحق الصريح الذي تدل عليه آيات السماوات والأرض أمر نبيه ﷺ أن يبين لهم أن سبيله هو الدعاء الى هذا التوحيد على بصيرة.

فقوله: ﴿ هَٰذِهِ سَبِيلِي ﴾ إعلان لسبيله، وقوله: «أدعو الى الله على بصيرة» بيان للسبيل، وقوله: «وسبحان الله» اعتراض للتنزيه، وقوله: «وما أنا من المشركين» تأكيد لمعنى الدعوة الى الله وبيان أن هذه الدعوة ليست دعوة اليه تعالى كيف كان بل دعوة على أساس التوحيد الخالص لا معدل عنه الى شرك أصلاً.

وأما قوله: ﴿ أَنَا وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي ﴾ فتوسعة وتعميم لحمل الدعوة وأن السبيل وإن كانت سبيل النبي ﷺ مختصة به لكن حمل الدعوة والقيام به لا يختص به بل من اتبعه ﷺ يقوم بها لنفسه.

لكن السياق يدل على أن الإشراك ليس بذاك العموم الذي يتراءى من لفظ «من اتبعني» فإن السبيل التي تعرفها الآية هي الدعوة عن بصيرة ويقين الى إيمان محض وتوحيد خالص وانما يشاركه ﷺ فيها من كان مخلصاً لله في دينه عالماً بمقام ربه ذا بصيرة ويقين وليس كل من صدق عليه أنه اتبعه على هذا النعت، ولا أن الاستواء على هذا المستوى مبذول لكل مؤمن حتى الذين عدهم الله سبحانه في الآية السابقة من المشركين وذمهم بأنهم غافلون عن ربهم آمنون من مكره معرضون عن آياته، وكيف يدعو الى الله من كان غافلاً عنه آمناً من مكره معرضاً عن آياته وذكره؟ وقد وصف الله في آيات كثيرة أصحاب هذه النعوت بالضلال والعمى والخسران ولا تجتمع هذه الخصال بالهداية والإرشاد البتة.

قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ ﴾ الى آخر الآية: لما ذكر سبحانه حال الناس في الايمان به ثم حال النبي ﷺ في دعوته إياهم عن رسالة إلهية من غير أن يسألهم فيها أجراً ويجر لنفسه نفعاً بين أن ذلك ليس

ببدع من الأمر بل مما جرت عليه السنة الإلهية في الدعوة الدينية فلم يكن الرسل الماضون ملائكة وإنما بعثوا من بين هؤلاء الناس وكانوا رجالاً من أهل القرى يخالطون الناس ويعرفون عندهم أوحى الله اليهم وأرسلهم نحوهم يدعونهم اليه كما أن النبي كذلك، ومن الممكن أن يسير هؤلاء المدعوون في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم فبلادهم الخربة ومساكنهم الخالية تفصح عما آل اليه أمرهم، وتنبىء عن عاقبة كفرهم وجحودهم وتكذيبهم لآيات الله.

فالنبي ﷺ لا يدعوهم إلّا كما كان يدعوهم الأنبياء من قبله، وليس يدعوهم إلّا الى ما فيه خيرهم وصلاح حالهم وهو أن يتقوا الله فيفلحوا ويفوزوا بسعادة خالدة ونعيم مقيم في دار باقية ولدار الآخرة خير للذين اتقوا أفلا تعقلون.

فقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ﴾ تطبيق لدعوة النبي ﷺ على دعوة من قبله من الرسل. ولعل توصيفهم بأنهم كانوا من أهل القرى للدلالة على أنهم كانوا من أنفسهم يعيشون بينهم ومعروفين عندهم بالمعاشرة والمخالطة ولم يكونوا ملائكة ولا من غير أنفسهم، ويؤيد ذلك توصيفهم بأنهم كانوا رجالاً فإن الرجال كانوا أقرب الى المعرفة من النساء ذوات الخدر.

وقوله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ إنذار لامة النبي ﷺ بمثل ما أُنذر به الامم الخالية فلم يسمعوا فذاقوا وبال أمرهم.

وقوله: ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ بيان النصح وأن ما يدعون اليه وهو التقوى ليس وراءه الّا ما فيه كل خيرهم وجماع سعادتهم.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ الى آخر الآية ذكروا أن يأس واستيأس بمعنى، ولا يبعد أن يقال: إن الاستيآس هو الاقتراب من اليأس بظهور آثاره لمكان هيئة الاستفعال وهو مما يعد يأساً عرفاً وليس باليأس

القاطع حقيقة.

وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْئَسَ﴾ الخ: متعلق الغاية بما يتحصل من الآية السابقة والمعنى تلك الرسل الذين كانوا رجالاً أمثالك من أهل القرى وتلك قراهم البائدة دعوهم فلم يستجيبوا وأنذروهم بعذاب الله فلم ينتهوا حتى إذا استيأس الرسل من إيمان اولئك الناس، وظن الناس أن الرسل قد كذبوا أي اخبروا بالعذاب كذباً جاء نصرنا فنجيء بذلك من نشاء وهم المؤمنون ولا يرد بأسنا أي شدتنا عن القوم المجرمين.

أما استيآس الرسل من إيمان قومهم فكما أُخبر في قصة نوح: **﴿واوحي الى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلّا من قد آمن﴾** (هود / ٣٦) **﴿وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلّا فاجراً كفاراً﴾** (نوح / ٢٧) ويوجد نظيره في قصص هود وصالح وشعيب وموسى وعيسى عليهم السلام.

وأما ظن اممهم أنهم قد كذبوا فكما اخبر عنه في قصة نوح من قولهم: **﴿بل نظنكم كاذبين﴾** (هود / ٢٧)، وكذا في قصة هود وصالح وقوله: **﴿فقال له فرعون إني لأظنك يا موسى مسحوراً﴾** (الإسراء / ١٠١).

وأما تنجية المؤمنين بالنصر فكقوله تعالى: **﴿وكان حقاً علينا نصر المؤمنين﴾** (الروم / ٤٧) وقد أُخبر به في هلاك بعض الامم أيضاً كقوله: **﴿نجينا هوداً والذين آمنوا معه﴾** (هود / ٥٨) **﴿نجينا صالحاً والذين آمنوا معه﴾** (هود / ٦٦) **﴿نجينا شعيباً والذين آمنوا معه﴾** (هود / ٤) الى غير ذلك.

وأما أن بأس الله لا يرد عن المجرمين فمذكور في آيات كثيرة عموماً وخصوصاً كقوله: **﴿ولكل امة رسول فإذا جاء رسولهم قضي بينهم بالقسط وهم لا يظلمون﴾** (يونس / ٤٧)، وقوله: **﴿وإذا أراد الله بقوم سوء فلا مرد له وما لهم من دونه من وال﴾** (الرعد / ١١) الى غير ذلك من الآيات.

هذا أحسن ما أوردوه في الآية من المعاني، والدليل على كون الآية بمضمونها غاية لما تتضمنه سابقتها كما قدمناه، وقد أوردوا لها معاني اخرى لا يخلو شيء منها من السقم والإضراب عنها اوجه.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبابِ﴾ الى آخر الآية: قال الراغب اصل العبر تجاوز من حال الى حال فأما العبور فيختص بتجاوز الماء ـ الى أن قال ـ والاعتبار والعبرة بالحالة التي يتوصل بها من معرفة المشاهد الى ما ليس بمشاهد قال تعالى: إن في ذلك لعبرة. انتهى.

والضمير في قصصهم للأنبياء ومنهم يوسف صاحب القصة في السورة، واحتمل رجوعه الى يوسف وإخوته والمعنى اقسم لقد كان في قصص الأنبياء أو يوسف وإخوته عبرة لأصحاب العقول، ما كان القصص المذكور في السورة حديثاً يفترى ولكن تصديق الذي بين يدي القرآن، وهو التوراة المذكور فيه القصة يعني توراة موسى عليه السلام.

وقوله: ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ الخ: أي بياناً وتمييزاً لكل شيء مما يحتاج اليه الناس في دينهم الذي عليهم بناء سعادتهم في الدنيا والآخرة، وهدى الى السعادة والفلاح ورحمة خاصة من الله سبحانه لقوم يؤمنون به فإنه رحمة من الله لهم يهتدون بهدايته الى صراط مستقيم[1].

---

١. يوسف ١٠٣ ـ ١١١: بحث روائي في: التوحيد والشرك: التسبيح: استيأس الرسل ومجيء نصر الله.

سورة الرعد مكية وهي ثلاث وأربعون آية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

١ ● الٓمٓر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ
وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاٰ يُؤْمِنُونَ.
٢ ● اللّٰهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمٰوٰاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهٰا ثُمَّ اسْتَوىٰ عَلَى
الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى
يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ.
٣ ● وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهٰا رَوٰاسِيَ وَأَنْهاراً وَمِنْ كُلِّ
الثَّمَرٰاتِ جَعَلَ فِيهٰا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ إِنَّ فِي
ذٰلِكَ لَآيٰاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ.
٤ ● وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجٰاوِرٰاتٌ وَجَنّٰاتٌ مِنْ أَعْنٰابٍ وَزَرْعٌ
وَنَخِيلٌ صِنْوٰانٌ وَغَيْرُ صِنْوٰانٍ يُسْقىٰ بِمٰاءٍ وٰاحِدٍ وَنُفَضِّلُ
بَعْضَهٰا عَلىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيٰاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ.

بيان:

غرض السورة بيان حقية ما نزل على النبي ﷺ من الكتاب وأنه آية الرسالة وأن قولهم: «لولا أُنزل عليه آية من ربه» وهم يعرّضون به للقرآن ولا يعدونه آية كلام مردود اليهم ولا ينبغي للنبي ﷺ أن يصغي اليه ولا لهم أن يتفوهوا به.

ويدل على ذلك ابتداء السورة بمثل قوله: «والذي أُنزل اليك من ربك الحق ولكن أكثر الناس لا يؤمنون» واختتامها بقوله: «ويقول الذين كفروا لست مرسلاً قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم» الآية؛ وتكرار حكاية قولهم: لولا أُنزل عليه آية من ربه.

ومحصل البيان على خطاب النبي ﷺ أن هذا القرآن النازل عليك حق لا يخالطه باطل فإن الذي يشتمل عليه من كلمة الدعوة هو التوحيد الذي تدل عليه آيات الكون من رفع السماوات ومد الأرض وتسخير الشمس والقمر وسائر ما يجري عليه عجائب تدبيره وغرائب تقديره تعالى.

وتدل على حقية دعوته أيضاً أخبار الماضين وآثارهم جاءتهم الرسل بالبينات فكفروا وكذبوا فأخذهم الله بذنوبهم. فهذا ما يتضمنه هذا الكتاب وهو آية دالة على رسالتك.

وقولهم: «لولا أُنزل عليه آية» تعريضاً منهم للقرآن مردود اليهم اولاً بأنك لست إلّا منذراً وليس لك من الأمر شيء حتى يقترح عليك بمثل هذه الكلمة وثانياً أن الهداية والإضلال ليسا كما يزعمون في وسع الآيات حتى يرجوا الهداية من آية يقترحونها وإنما ذلك الى الله سبحانه يضل من يشاء ويهدي من يشاء على نظام حكيم وأما قولهم: لست مرسلاً فيكفيك من الحجة شهادة الله في كلامه على رسالتك ودلالة ما فيه من المعارف الحقة على ذلك.

ومن الحقائق الباهرة المذكورة في هذه السورة ما يتضمنه قوله: «أنزل من السماء ماء»

الآية؛ وقوله: «ألا بذكر الله تطمئن القلوب»، وقوله: «يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب»، وقوله: «فلله المكر جميعاً».

والسورة مكية كلها على ما يدل عليه سياق آياتها وما تشتمل عليه من المضامين، ونقل عن بعضهم أنها مكية إلّا آخر آية منها فإنها نزلت بالمدينة في عبدالله بن سلام، وعزي ذلك الى الكلبي ومقاتل، ويدفعه أنها مختتم السورة قوبل بها ما في مفتتحها من قوله: «والذي أُنزل اليك من ربك الحق».

وقيل: إ السورة مدنية كلها إلّا آيتين منها وهما قوله: «ولو أن قرآناً سيرت به الجبال» الآية؛ والآية التي بعدها، ونسب ذلك الى الحسن وعكرمة وقتادة، ويدفعه سياق الآيات بما تشتمل عليه من المضامين فإنها لا تناسب ما كان يجري عليه الحال في المدينة وبعد الهجرة.

وقيل: إن المدني منها قوله تعالى: «ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة» الآية؛ والباقي مكي وكأن القائل اعتمد في ذلك على قبولها الانطباق على أوائل حال الإسلام بعد الهجرة الى الفتح وسيأتي في بيان معنى الآية ما يتضح به اندفاعه.

قوله تعالى: ﴿الٓمٓر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ﴾ الخ؛ الحروف المصدرة بها السورة هي مجموع الحروف التي صدرت بها سورة «الٓمٓ» وسور «الٓر» كما أن المعارف المبينة في السورة كأنها المجموع من المعارف المعنية في ذينك الصنفين من السور، وفي الرجاء أن نشرح القول في ذلك فيما سيأتي إن شاء الله العزيز.

وقوله: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ﴾ ظاهر سياق الآية وما يتلوها من الآيات الثلاث على ما بها من الاتصال وهي تعد الآيات الكونية من رفع السماوات ومد الأرض وتسخير الشمس والقمر وغير ذلك الدالة على توحيد الله سبحانه الذي يفصح عنه القرآن الكريم وتندب اليه الدعوة الحقة، وهي تذكر أن التدبر في تفصيلها والتفكر فيها يورث اليقين بالمبدء والمعاد والعلم، بأن الذي أُنزل الى النبي ﷺ حق.

فظاهر ذلك كله أن يكون المراد بالآيات المشار اليها بقوله: «تلك آيات الكتاب» الموجودات الكونية والأشياء الخارجية المسخرة في النظام العام الإلهي، والمراد بالكتاب هو مجموع الكون الذي هو بوجه اللوح المحفوظ أو المراد به القرآن الكريم بما يشتمل على الآيات الكونية بنوع من العناية والمجاز.

وعلى هذا يكون في الآية إشارة الى نوعين من الدلالة وهما الدلالة الطبعية التي تتلبس بها الآيات الكونية من السماء والأرض وما بينهما، والدلالة اللفظية التي تتلبس بها الآيات القرآنية المنزلة من عنده تعالى الى نبيه ﷺ، ويكون قوله: «ولكن أكثر الناس لا يؤمنون» استدراكاً متعلق بالجملتين معاً أعني بقوله: «تلك آيات الكتاب» وقوله: «والذي أُنزل اليك من ربك الحق» لا بالجملة الأخيرة فحسب.

والمعنى ـ والله أعلم ـ تلك الامور الكونية ـ وقد أُشير بلفظ البعيد دلالة على ارتفاع مكانتها ـ آيات الكتاب العام الكوني دالة على أن الله سبحانه واحد لا شريك له في ربوبيته والقرآن الذي أُنزل اليك من ربك حق ليس بباطل ـ واللام في قوله: «الحق» للحصر فتفيد المحوضة ـ فتلك آيات قاطعة في دلالتها وهذا حق في نزوله ولكن أكثر الناس لا يؤمنون، لا بتلك الآيات العينية ولا بهذا الحق النازل، وفي لحن الكلام شيء من اللوم والعتاب.

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمٰوٰاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ الى آخر الآية؛ قال الراغب في المفردات: العمود ما تعتمد عليه الخيمة وجمعه عمد ـ بضمتين ـ وعمد ـ بفتحتين ـ قال: في عمد ممدة، وقرىء في عمد، وقال: بغير عمد ترونها انتهى. وقيل: إن العمد بفتحتين اسم جمع للعماد لا جمع.

والمراد بالآية التذكير بدليل ربوبيته تعالى وحده لا شريك له وأن السماوات مرفوعة بغير عمد تعتمد عليها تدركها أبصاركم وهناك نظام جار وهناك شمس وقمر مسخران يجريان الى أجل مسمى، ولابد ممن يقوم على هذه الامور فيرفع السماء وينظم النظام ويسخر الشمس

والقمر ويدبر الأمر ويفصل هذه الآيات بعضها عن بعض تفصيلاً فيه رجاء أن توقنوا بلقاء ربكم فالله سبحانه هو ذاك القائم بما ذكر من أمر رفع السماوات وتنظيم النظام وتسخير الشمس والقمر وتدبير الأمر وتفصيل الآيات فهو تعالى رب الكل لا رب غيره.

فقوله: ﴿الَّذِي رَفَعَ السَّمٰوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ رفع السماوات هو فصلها من الأرض فصلاً يتسلط به على الأرض بإلقاء أشعتها وإنزال أمطارها وصواعقها عليها وغير ذلك فهي مرفوعة على الأرض من غير عمد محسوسة للإنسان تعتمد عليها فعلى الإنسان أن يتفطن أن لها رافعاً حافظاً لها أن تتحول من مكانها ممسكاً لها أن تزول من مستقرها.

وقوله: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ تقدم الكلام في معنى العرش والاستواء والتسخير في تفسير سورة الأعراف الآية ٥٤.

وقوله: ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ أي كل منهما يجري الى أجل معين يقف عنده ولا يتعداه كذا قيل ومن الجائز بل الراجح أن يكون الضمير المحذوف ضمير جمع راجعاً الى الجميع والمعنى كل من السماوات والشمس والقمر يجري الى أجل مسمى فإن حكم الجري والحركة وعام مطرد في جميع هذه الأجسام.

وقد تقدم الكلام في معنى الأجل المسمى في تفسير سورة الأنعام الآية ١ فراجع.

وقوله: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ التدبير هو الإتيان بالشيء عقيب الشيء ويراد به ترتيب الأشياء المتعدده المختلفة ونظمها بوضع كل شيء في موضعه الخاص به بحيث يلحق بكل منها ما يقصد به من الغرض والفائدة ولا يختل الحال بتلاشي الأصل وتفاسد الأجزاء وتزاحمها يقال: دبر أمر البيت أي نظم اموره والتصرفات العائدة اليه بحيث أدى الى صلاح شأنه وتمتع أهله بالمطلوب من فوائده.

فتدبير أمر العالم نظم أجزائه نظماً جيداً متقناً بحيث يتوجه به كل شيء الى غايته المقصودة منه وهي آخر ما يمكنه من الكمال الخاص به ومنتهى ما ينساق اليه من الأجل المسمى،

وتدبير الكل إجراء النظام العام العالمي بحيث يتوجه الى غايته الكلية وهي الرجـوع الى الله وظهور الآخرة بعد الدنيا .

وقوله : ﴿ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾ ظاهر السياق أن المـراد بالآيات هي الآيات الكونية فالمراد بتفصيلها هو تميز بعضها من بعض وفتقها بـعد رتـقها ، وهذا من سننه تعالى يفصل الأشياء ويميز كل شيء من كل شيء ويخرج من كل شيء ما هو كامن فيه مستخف في باطنه فينفصل به النور من الظلمة والحق من الباطل والخير من الشر والصالح من الطالح والمثيب من المجرم .

ولذا عقبه بقوله : «لعلكم بلقاء ربكم توقنون» فإن يوم اللقاء هو الساعة التي سماها الله بيوم الفصل ووعد فيه تميز المتقين من المجرمين والفجار قـال : ﴿ إن يـوم الفـصل مـيقاتهم أجمعين ﴾ (الدخان / ٤٠)، وقال : ﴿ وامتازوا اليوم أيها المجرمون ﴾ (يس / ٥٩)، وقال : ﴿ ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعاً فيجعله في جهنم أُولئك هم الخاسرون ﴾ (الأنفال / ٣٧).

وفي قوله : ﴿ لَعَلَّكُمْ بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ ﴾ ولم يقل : لعلكم بلقائه ، وضع الظاهر موضع المضمر والوجه فيه الإصرار على تثبيت الربوبية والتأكيد له والإشارة الى أن الذي خلق العالم ودبر أمره فصار رباً له هو رب لكم أيضاً فلا رب إلّا رب واحد لا شريك له .

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَاراً ﴾ الى آخر الآية : الرواسي جمع راسية من رسي إذا ثبت وقر ، والمراد بها الجبال لثباتها في مقرها ، والزوج خلاف الفرد ويطلق على مجموع الأمرين وعلى أحدهما فهما زوج وهما زوجان ، وربما يقيد الزوجان باثنين تأكيداً للدلالة على أن المراد هو اثنان لا أربعة كما في الآية .

وقوله : ﴿ هُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ ﴾ أي بسطها بسطاً صالحاً لأن يعيش فيه الحـيوان وينبت فيه الزرع والشجر . والكلام في نسبة مد الأرض اليه تعالى وكونه كالتوطئة والتمهيد لما

يلحق به من قوله: «وجعل فيها رواسي وأنهاراً» الخ؛ نظير الكلام في قوله في الآية السابقة: «الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها».

وقوله: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَاراً﴾ الضمير للأرض والكلام مسوق بحيث يستتبع بعض أجزائه بعضاً والغرض ـ والله أعلم ـ بيان تدبيره تعالى أمر سكنة الأرض من إنسان وحيوان في حركته لطلب الرزق وسكونه للارتياح فقد مد الله سبحانه الأرض ولولا ذلك لم يصلح لبقاء نوع الإنسان والحيوان ولو كانت ممدودة فحسب من غير ارتفاع وانخفاض في سطحها لم تصلح لظهور ما ادخر فيها من خزائن الماء على سطحها لشرب الزروع والبساتين فجعل سبحانه فيها الجبال الروامي وادخر فيها ما ينزل على الأرض من ماء السماء وشق من أطرافها أنهاراً وفجر منها عيوناً مطلة على السهل تسقي الزروع والجنان فيخرج به ثمرات مختلفة حلوة ومرة صيفة وشتوية برية وأهلية، وسلط على وجه الأرض الليل والنهار وهما عاملان قويان في رشد الأثمار والفواكه بتسليط الحرارة والبرودة المؤثرتين في النضج والنمو والانبساط والانقباض، وتسليط الضوء والظلمة النظامين لحركة الدواب والإنسان وسعيهما في طلب الرزق وسكونهما للنوم والرقدة.

فمد الأرض يسهل الطريق لجعل الجبال الرواسي وذلك لشق الأنهار وذلك لجعل الثمرات ١
المزدوجة المختلفة وبالليل والنهار يتم المطلوب وفي ذلك كله تدبير متصل متحد يكشف عن مدبر حكيم واحد لا شريك له في ربوبيته، وإن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون.

وقوله: ﴿وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ إِثْنَيْنِ﴾ أي ومن جميع الثمرات الممكنة الكينونة جعل في الأرض أنواعاً متخالفة نوعاً يخالف آخر كالصيفي والشتوي والحلو وغيره والرطب واليابس.

هذا هو المعروف في تفسير زوجين اثنين فالمراد بالزوجين الصنف يخالفه صنف آخر سواء كانا صنفين لا ثالث لهما أم لا. نظير ما تأتي فيه التثنية للتكرير كقوله تعالى: ﴿ثم ارجع البصر

كرتين ﴾ (الملك / ٤) أُريد به الرجوع كرة بعد كرة وإن بلغ من الكثرة ما بلغ[١].

وقوله: ﴿ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ ﴾ أي يلبس ظلمة الليل ضوء النهار فيظلم الهواء بعد ما كان مضيئاً، وذكر بعضهم أن المراد به إغشاء كل من الليل والنهار غيره وتعقيب الليل النهار والنهار الليل، ولا قرينة تدل على ذلك.

ثم ختم الآية بقوله: «إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون» فإن التفكر في النظام الجاري عليها الحاكم فيها القاضي باتصال بعضها ببعض وتلاؤم بعضها مع بعض المؤدي الى توجه المجموع وكل جزء من أجزائها الى غايات تخصها يكشف عن ارتباطها بتدبير واحد عقلي في غاية الإتقان والإحكام فيدل على أن لها رباً واحداً لا شريك له في ربوبيته عليماً لا يعتريه جهل قديراً لا يغلب في قدرته ذا عناية بكل شيء وخاصة بالإنسان يسوقه الى ما فيه سعادته الخالدة.

قوله تعالى: ﴿ وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجاوِراتٌ وَجَنّاتٌ مِنْ أَعْنابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوانٌ وَغَيْرُ صِنْوانٍ ﴾ الى آخر الآية؛ قال الراغب: الصنو الغصن الخارج عن أصل الشجرة يقال: هما صنوا نخلة وفلان صنو أبيه والتثنية صنوان وجمعه صنوان قال تعالى: صنوان وغير صنوان. انتهى. وقال: والاكل لما يؤكل بضم الكاف وسكونه قال تعالى «أُكلها دائم» والأكلة للمرة والأكلة كاللقمة. انتهى.

والمعنى أن من الدليل على أن هذا النظام الجاري قائم بتدبير مدبر وراءه يخضع له الأشياء بطبائعها ويجريها على ما يشاء وكيف يشاء أن في الأرض قطعاً متجاورات متقاربة بعضها من بعض متشابهة في طبع ترابها وفيها جنات من أعناب والعنب من الثمرات التي تختلف اختلافاً عظيماً في الشكل واللون والطعم والمقدار واللطافة والجودة وغير ذلك، وفيها زرع مختلف في

---

١. الرعد ١ ـ ٤: بحث في معنى «زوجين اثنين» في قوله تعالى: «ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين».

جنسه وصنفه من القمح والشعير وغير ذلك. وفيها نخيل صنوان أي أمثال نابتة على أصل مشترك فيه وغير صنوان أي متفرقة تسقي الجميع من ماء واحد ونفضل بعضها على بعض بما فيه من المزية المطلوبة في شيء من صفاته.

٥ • وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ ءَإِذَا كُنَّا تُراباً ءَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولٰـئِكَ الْأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولٰئِكَ أَصْحابُ النّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ.

٦ • وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنّاسِ عَلىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقابِ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ ءَإِذَا كُنَّا تُراباً ءَإِنّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ الى آخر الآية؛ قال في المجمع: العجب والتعجب هجوم ما لا يعرف سببه على النفس الغسل طوق تشد به اليد الى العنق انتهى.

أشار تعالى في مفتتح كلامه الى حقية ما أنزله الى نبيه من معارف الدين في كتابه ملوحاً الى أن آيات التكوين تهدي اليه وتدل عليه وأُصولها التوحيد والرسالة والبعث ثم فصل القول في دلالة الآيات التكوينية على ذلك واستنتج من حجج ثلاث ذكرها توحيد الربوبية والبعث بالتصريح، ويستلزم ذلك حقية الرسالة والكتاب المنزل الذي هو آيتها. فلما اتضح ذلك واستنار تمهدت الطريق لذكر شبه الكفار فيما يرجع الى الاصول الثلاثة فأشار في هذه الآية الى

شبهتهم في البعث وسيتعرض لشبههم وأقاويلهم في الرسالة والتوحيد في الآيات التالية.

وشبهتهم في ذلك قولهم: «ءإذا كنا تراباً ءإنا لفي خلق جديد» أورده بعنوان أنه عجب أحرى به أن يتعجب منه لظهور بطلانه وفساده ظهوراً لا مسوغ لإنسان سليم العقل أن يرتاب فيه فلو تفوه به إنسان لكان من موارد العجب فقال: «وأن تعجب فعجب قولهم» الخ.

ومعنى الجملة على ما يرشد اليه حذف متعلق «تعجب» إن تحقق منك تعجب ـ ولا محالة يتحقق لأن الانسان لا يخلو منه ـ فقولهم هذا عجيب يجب أن يتعلق به تعجبك، فالتركيب كناية عن وجوب التعجب من قولهم هذا لكونه قولاً ظاهر البطلان لا يميل اليه ذولب وحجى.

وقولهم: ﴿ءَإِذَا كُنَّا تُرَاباً ءَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ مرادهم من التراب بقرينة السياق ما يصير اليه بدن الإنسان بعد الموت من صورة التراب وينعدم عند ذلك الإنسان الذي هو الهيكل اللحمي الخاص المركب من أعضاء خاصة المجهّز بقوى مادية على زعمهم وكيف يشمل الخلقة أمراً منعدماً من أصله فيعود مخلوقاً جديداً؟.

ولشبهتهم هذه جهات مختلفة أجاب الله سبحانه في كلامه عن كل واحدة منها بما يناسبها ويحسم مادتها:

فمنها: استبعاد أن يستحيل التراب إنساناً سوياً، وقد أُجيب عنه بأن إمكان استحالة المواد الأرضية منياً ثم المني علقة ثم العلقة مضغة ثم المضغة بدن إنسان سوي ووقوع ذلك بعد إمكانه لا يدع ريباً في جواز صيرورة التراب ثانياً إنساناً سوياً قال تعالى: **﴿يا أيها الناس أن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة﴾** الآية، (الحج / ٥).

ومنها: استبعاد إيجاد الشيء بعد عدمه. وأُجيب بأنه مثل الخلق الاول فليجز كما جاز قال

تعالى: ﴿وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحي العظام وهي رميم قيل يحييها الذي أنشأها أول مرة﴾ (يس / ٧٩).

ومنها: أن الإنسان تنتفي ذاته بالموت فلا ذاته بالموت فلا ذات حتى تتلبس بالخلق الجديد ولا إنسان بعد الموت والفوت إلّا في تصور المتصور دون الخارج بنحو.

وقد أُجيب في كلامه تعالى عنه ببيان أن الإنسان ليس هو البدن المركب من عدة أعضاء مادية حتى ينعدم من أصله ببطلان التركيب وانحلاله بل حقيقته روح علوية ـ وإن شئت قلت: نفس ـ متعلق بهذا المركب المادي تستعمله في أغراضه ومقاصده وبها حياة البدن يبقى بها الإنسان محفوظ الشخصية وإن تغير بدنه وتبدل بمرور السنين ومضي العمر ثم الموت هو أن يأخذها الله من البدن وتقطع علقتها به ثم البعث هو أن يجدد الله خلق البدن وتعليقها به وهو القيام لله لفصل القضاء.

قال تعالى: ﴿وقالوا ءإذا ضللنا في الأرض إنا لفي خلق جديد بل هم بلقاء ربهم كافرون قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم ثم الى ربكم ترجعون﴾ (الم السجدة / ١١) يقول إنكم بالموت لا تضلون في الأرض ولا تنعدمون بل الملك الموكل بالموت يأخذ الأمر الذي تدل عليه لفظة «كم» و «نا» وهي النفوس فتبقى في قبضته ولا تضل ثم إذا بعثتم ترجعون الى الله بلحوق أبدانكم الى نفوسكم وأنتم انتم.

فللإنسان حياة باقية غير محدودة بما في هذه الدنيا الفانية وله عيشة في دار اخرى باقية ببقاء الله ولا يتمتع في حياته الثانية إلّا بما يكتسبه في حياته الاولى من الايمان بالله والأعمال الصالحة ويعده في يومه لغده من مواد السعادة فإن اتبع الحق وآمن بآيات الله سعد في أُخراه بكرامة القرب والزلفى وملك لا يبلى، وإن أخلد الى الأرض وانكب على الدنيا وأعرض عن الذكرى بقي في دار الشقاء والبوار وغل بأغلال الخيبة والخسران في مهبط اللعن وحضيض البعد وكان من أصحاب النار.

وإذا عرفت هذا الذي قدمناه وتأملته تأملاً كافياً بأن لك أن قوله تعالى: «اولئك الذين كفروا بربهم» الى آخر الآية ؛ ليس بمجرد تهديد بالعذاب لهؤلاء القائلين «ءإذا كنا تراباً ءإنا لفي خلق جديد» على ما يتخيل في بادىء النظر بل جواب بلازم القول.

توضيح ذلك أن لازم قولهم: إن الإنسان إذا مات وصار تراباً بطلت الإنسانية وانعدمت الشخصية أن يكون الإنسان صورة مادية قائمة بهذا الهيكل البدني المادي العائش بحياة مادية من غير أن تكون له حياة اخرى خالدة بعد الموت يبقى فيها ببقاء الرب تعالى ويسعد بقربه ويفوز عنده وبعبارة اخرى تكون حياته محدودة بهذه الحياة المادية غير أن تنبسط على ما بعد الموت وتدوم أبداً. وهذا في الحقيقة إنكار للعالم الربوبي إذ لا معنى لرب لا معاد اليه.

ولازم ذلك أن يقصر الإنسان همه في المقاصد الدنيوية والغايات المادية من غير أن يرتقي فهمه الى ما عند الله من النعيم المقيم والملك العظيم فيسعى لقربه تعالى ويعمل في يومه لغده كالمغلول الذي لا يستطيع حراكاً ولا يقدر على السعي لواجب أمره.

ولازم ذلك أن يثبت الإنسان في شقاء لازم وعذاب دائم فإنه افسد استعداد السعادة وقطع الطريق وهذه اللوازم الثلاث هي التي أشار تعالى اليه بقوله: «اولئك الذين كفروا» الخ.

فقوله: ﴿اولئك الذين كفروا بربهم﴾ إشارة الى اللازم الأول وهو إعراض منكري المعاد عن العالم الربوبي والحياة الباقية والستر على ما عند الله من النعيم المقيم والكفر به.

وقوله: ﴿وَأُولٰئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾ إشارة الى الازم الثاني وهو الإخلاد الى الأرض والركون الى الهوى والتقيد بقيود الجهل وأغلال الجحد والإنكار. وقد مر في تفسير قوله تعالى: ﴿إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً﴾ الآية. (البقرة / ٢٦) في الجزء الأول من الكتاب كلام في كون هذه التعبيرات القرآنية حقائق او مجازات فراجع اليه.

وقوله: ﴿أُولٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ إشارة الى اللازم الثالث وهو مكثهم في العذاب والشقاء.

قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ﴾ الى آخر الآية: قال في المجمع: الاستعجال طلب التعجيل بالأمر والتعجيل تقديم الأمر قبل وقته. والسيئة خصلة تسوء النفس ونقيضها الحسنة وهي خصة تسر النفس، والمثلات العقوبات واحدها مثلة بفتح الميم وضم الثاء، ومن قال في الواحد: مثلة بضم الميم وسكون الثاء قال في الجمع: مثلات بضمتين نحو غرفة وغرفات. وقيل في الجمع: مثلات ومثلات - أي بسكون الثاء وفتحها - انتهى.

وقال الراغب في المفردات: المثلة نقمة تنزل بالإنسان فيجعل مثالاً يرتدع به غيره وذلك كالنكال وجمعه مثلات ومثلات - أي بضم الميم أو فتحها وضم الثاء - وقد قرىء: من قبلهم المثلات، والمثلات بإسكان الثاء على التخفيف نحو عضد وعضد. انتهى.

وقوله: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ ضمير الجمع للذين كفروا المذكورين في الآية السابقة، والمراد باستعجالهم بالسيئة قبل الحسنة سؤالهم نزول العذاب اليهم استهزاء بالنبي ﷺ قبل سؤال الرحمة والعافية. والدليل عليه قوله: «وقد خلت من قبلهم المثلات» - والجملة في موضع الحال - فإن المراد به العقوبات النازلة على الأمم الماضين القاطعة لدابرهم.

والمعنى: يسألك الذين كفروا أن تنزل عليهم العقوبة الإلهية قبل الرحمة والعافية بعد ما سمعوك تنذرهم بعذاب الله استهزاء وهم على علم بالعقوبات النازلة قبلهم على الامم الماضين الذين كفروا برسلهم والآية في مقام التعجيب.

وقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ استئناف أو في موضع الحال، ويفيد بيان السبب في كون استعجالهم أمراً عجيباً أي إن ربك ذو رحمة واسعة تسع الناس في جميع أحوالهم حتى حال ظلمهم وذو غضب شديد وقد سبقت رحمته غضبه فما بالهم يعرضون عن وسيع رحمته ومغفرته ويسألون شديد عقابه وهم

مستعجلون؟ إن ذلك لعجيب.

٧ • وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ.

٨ • اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ.

٩ • عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ.

١٠ • سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ.

١١ • لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلاَ مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ.

١٢ • هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنْشِىءُ السَّحَابَ الثِّقَالَ.

١٣ • وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلٰئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ.

١٤ • لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لاَ يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلاَّ كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ

وَما دُعاءُ الْكافِرِينَ إِلّا فِي ضَلالٍ.

١٥ ۞ وَلِلّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمٰواتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصالِ.

١٦ ۞ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمٰواتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ لا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعاً وَلا ضَرّاً قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُماتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلّهِ شُرَكاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللّهُ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْواحِدُ الْقَهّارُ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ الى آخر الآية: ليس المراد بهذه الآية الآية القاضية بين الحق والباطل المهلكة للامة وهي المذكورة في الآية السابقة بقوله: «ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة» بأن يكون تكراراً لها وذلك لعدم إعانة السياق على ذلك، ولو أُريد ذلك لكان من حق الكلام أن يقال: ويقولون لولا «الخ».

بل المراد أنهم يقترحون على النبي ﷺ آية أُخرى غير القرآن تدل على صدقه في دعوى الرسالة وكانوا يحقرون أمر القرآن الكريم ولا يعبؤون به ويسألون آية أُخرى معجزة كما أُوتي موسى وعيسى وغيرهما عليهما السلام فكان في قولهم: «لولا أُنزل عليه آية» تعريض منهم للقرآن.

وأما قوله: ﴿إِنَّما أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هادٍ﴾ فإعطاء جواب للنبي ﷺ وفي

توجيه الخطاب اليه دونهم وعدم أمره أن يبلغ الجواب إياهم تعريض لهم أنهم لا يستحقون جواباً لعدم فقههم به وفقدهم القدر اللازم من العقل والفهم وذلك أن اقتراحهم الآية مبني على زعمهم ـ كما يدل عليه كثير مما حكى عنهم القرآن في هذا الباب على أن من الواجب أن يكون للرسول قدرة غيبية مطلقة على كل ما يريد فله أن يوجد ما أراد وعليه أن يوجد ما أُريد منه.

والحال أن الرسول ليس إلّا بشراً مثلهم أرسله الله اليهم لينذرهم عذاب الله ويحذرهم أن يستكبروا عن عبادته ويفسدوا في الأرض بناء على السنة الإلهية الجارية في خلقه أنه يهدي كل شيء الى كماله المطلوب ويدل عباده على ما فيه صلاح معاشهم ومعادهم.

فالرسول بما هو رسول بشر مثلهم لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً وليس عليه إلّا تبليغ رسالة ربه وأما الآيات فأمرها الى الله ينزلها إن شاء وكيف شاء فاقتراحها على الرسول جهل محض.

فالمعنى: أنهم يقترحون عليك آية ـ وعندهم القرآن أفضل آية ـ وليس اليك شيء من ذلك وإنما أنت هاد تهديهم من طريق الإنذار وقد جرت سنة الله في عباده أن يبعث في كل قوم هادياً يهديهم.

والآية تدل على أن الأرض لا تخلو من هاد يهدي الناس الى الحق إما نبي منذر وإما هاد غيره يهدي بأمر الله وقد مر بعض ما يتعلق بالمقام في أبحاث النبوة في الجزء الثاني وفي أبحاث الإمامة في الجزء الأول من الكتاب.

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ قال في المفردات: غاض الشيء وغاضه غيره نحو نقص ونقصه غيره قال تعالى «وغيض الماء» «وما تغيض الأرحام» أي تفسده الأرحام فتجعله كالماء الذي تبتلعه الأرض والغيضة المكان الذي يقف فيه الماء فيبتلعه وليلة غائضة أي

مظلمة انتهى.

وعلى هذا فالأنسب أن تكون الامور الثلاثة المذكورة في الآية أعني قوله: «ما تحمل كل أُنثى» و «ما تغيض الأرحام» و «ما تزداد» إشارة الى ثلاثة من أعمال الأرحام في أيام الحمل فما تحمله كل أُنثى هو الجنين الذي تعيه وتحفظه وما تغيضه الأرحام هو دم الحيض تنصب فيها فتصرفه الرحم في غذاء الجنين، وما تزداده هو الدم التي تدفعها الى خارج كدم النفاس والدم أو الحمرة التي تراها أيام الحمل أحياناً وهو الذي يظهر من بعض ما روي عن أئمة أهل البيت عليهم السلام وربما ينسب الى ابن عباس.

وقوله: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ المقدار هو الحد الذي يحد به الشيء ويتعين ويمتاز به من غيره إذ لا ينفك الشيء الموجود عن تعين في نفسه وامتياز من غيره ولولا ذلك لم يكن موجوداً البتة.

وهذا المعنى أعني كون كل شيء مصاحباً لمقدار وقريناً لحد لا يتعداه حقيقة قرآنية تكرر ذكرها في كلامه تعالى كقوله: ﴿قد جعل الله لكل شيء قدراً﴾ (الطلاق / ٣)، وقوله: ﴿وإن من شيء إلّا عندنا خزائنه وما ننزله إلّا بقدر معلوم﴾ (الحجر / ٢١) وغير ذلك من الآيات.

فإذا كان الشيء محدوداً بحد لا يتعداه وهو مضروب عليه ذلك الحد عند الله وبأمره ولن يخرج من عنده وإحاطته ولا يغيب عن علمه شيء كما قال: ﴿إن الله على كل شيء شهيد﴾ (الحج / ١٧) وقال: ﴿ألا إنه بكل شيء محيط﴾ (حم السجدة / ٥٤)، وقال: ﴿لا يعزب عنه مثقال ذرة﴾ (السبأ / ٣) فمن المحال أن لا يعلم تعالى ما تحمل كل أُنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد.

فذيل الآية أعني قوله: «وكل شيء عنده بمقدار» تعليل لصدرها أعني قوله: «الله يعلم ما تحمل كل أُنثى» الخ؛ والآية وما يتلوها كالتذييل للآية السابقة أن الله يعلم بكل شيء ويقدر

على كل شيء ويجيب الدعوة ويخضع له كل شيء فهو أحق بالربوبية فإليه أمر الآيات لا إليك وإنما أنت منذر.

قوله تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾ الغيب والشهادة كما سمعت مراراً معنيان إضافيان فالشيء الواحد يمكن أن يكون غيباً بالنسبة الى شيء وشهادة بالنسبة الى آخر وذلك أن الاشياء ـ كما تقدم ـ لا تخلو من حدود تلزمها ولا تنفك عنها فما كان من الاشياء داخلاً في حد الشيء غير خارج عنه فهو شهادة بالنسبة اليه مشهود لإدراكه وما كان خارجاً عن حد الشيء غير داخل فيه فهو غيب بالنسبة اليه غير مشهود لإدراكه.

ومن هنا يظهر أن الغيب لا يعلم به إلّا الله سبحانه أما أنه لا يصير معلوماً لشيء فلأن العلم نوع إحاطة ولا معنى لإحاطة الشيء بما هو خارج عن حد وجوده أجنبي عن إحاطته، وأما أنه تعالى يعلم الغيب فلأنه تعالى غير محدود الوجود بحد وهو بكل شيء محيط فلا يمتنع شيء عنه بحده فلا يكون غيباً بالنسبة اليه والى فرض أنه غيب بالنسبة الى غيره.

فيرجع معنى علمه بالغيب والشهادة بالحقيقة الى أنه لا غيب بالنسبة اليه بل الغيب والشهادة اللذان يتحققان فيما بين الأشياء بقياس بعضها الى بعض هما معاً شهادتان بالنسبة اليه تعالى، ويصير معنى قوله: «عالم الغيب والشهادة» أن الذي يمكن أن يعلم به أرباب العلم وهو الذي لا يخرج عن حد وجودهم والذي لا يمكن أن يعلموا به لكونه غيباً خارجاً عن حد وجودهم هما معاً معلومان مشهودان له تعالى لإحاطته بكل شيء.

وقوله: ﴿الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾ اسمان من أسمائه تعالى الحسنى، والكبر ويقابله الصغر من المعاني المتضائفة فإن الأجسام إذا قيس بعضها الى بعض من حيث حجمها المتفاوت فما احتوى على مثل حجم الآخر وزيادة كان كبيراً وما لم يكن كذلك كان صغيراً ثم توسعوا فاعتبروا ذلك في غير الأجسام، والذي يناسب ساحة قدسه تعالى من معنى الكبرياء أنه تعالى يملك كل كمال لشيء ويحيط به فهو تعالى كبير أي له كمال كل ذي كمال وزيادة.

والمتعال صفة من التعالي وهو المبالغة في العلو كما يدل عليه قوله: ﴿تعالى عما يقولون علواً كبيراً﴾ (الإسراء / ٤٣) فإن قوله: «علواً كبيراً» مفعول مطلق لقوله: «تعالى» وموضوع في محل قولنا: «تعالياً» فهو سبحانه علي ومتعال أما أنه علي فلأنه علا كل شيء وتسلط عليه والعلو هو التسلط. وأما أنه متعال فلأن له غاية العلو لأن علوه كبير بالنسبة الى كل علو فهو العالي المتسلط على كل عال من جهة.

ومن هنا تظهر النكتة في تعقيب قوله: «عالم الغيب والشهادة» بقوله: «الكبير المتعال» لأن مفاد مجموع الاسمين أنه سبحانه محيط بكل شيء متسلط عليه ولا يتسلط عليه ولا يغلبه شيء من جهة البتة فهو يعلم الغيب كما يعلم الشهادة ولا يتسلط عليه ولا يغلبه غيب حتى يعزى عن علمه بغيبته كما لا يتسلط عليه شهادة فهو عالم الغيب والشهادة لأنه كبير متعال.

قوله تعالى: ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ السرب بفتحتين والسروب الذهاب في حدور وسيلان الدمع والذهاب في مطلق الطريق يقال سرب سرباً وسروباً نحو مر مراً ومروراً. كذا في المفردات فالسارب هو الذاهب في طريق المعلن بنفسه.

والآية كالتفريع على الآية السابقة أي إذا كان الله سبحانه عالماً بالغيب والشهادة على سواء فسواء منكم من أسر القول ومن جهر به أي بالقول والله سبحانه يعلم بقولهما ويسمع حديثهما من غير أن يخفى عليه إسرار من أسر بقوله. وسواء منكم من هو مستخف بالليل يستمد بظلمة الليل وإرخاء سدولها لأن يخفى من أعين الناظرين ومن هو سارب بالنهار ذاهب في طريقه متبرز غير مخل لنفسه فالله يعلم بهما من غير أن يخفى المستخفي بالليل بمكيدته.

قوله تعالى: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ الخ: ظاهر السياق أن الضمائر الأربع «له» «يديه» «خلفه» «يحفظونه» مرجعها واحد ولا

مرجع يصلح لها جميعاً إلّا ما في الآية السابقة أعني الموصول في قوله: «من أسر القول» الخ: فهذا الإنسان الذي يعلم به الله سبحانه في جميع أحواله هو الذي له معقبات من بين يديه ومن خلفه.

وتعقيب الشيء إنما يكون بالمجيء بعده والإتيان من عقبه فتوصيف المعقبات بقوله: «من بين يديه ومن خلفه» إنما يتصور إذا كان سائراً في طريق، ثم طاف عليه المعقبات حوله وقد أخبر سبحانه عن كون الإنسان سائراً هذا السير بقوله: ﴿ **يا أيها الإنسان إنك كادح الى ربك كدحاً فملاقيه** ﴾ (الإنشقاق / ٦) وفي معناه سائر الآيات الدالة على رجوعه الى ربه كقوله: ﴿ **وإليه ترجعون** ﴾ (يس / ٨٣) ﴿ **وإليه تقلبون** ﴾ (العنكبوت / ٢١) فللإنسان وهو سائر الى ربه معقبات تراقبه من بين يديه ومن خلفه.

والآية أعني قوله: «إن الله لا يغير» الخ: يدل بالجملة على أن الله قضى قضاء حتم بنوع من التلازم بين النعم الموهوبة من عنده للإنسان وبين الحالات النفسية الراجعة الى الإنسان الجارية على استقامة الفطرة فلو جرى قوم على استقامة الفطرة وآمنوا بالله وعملوا صالحاً أعقبهم نعم الدنيا والآخرة كما قال: ﴿ **ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا** ﴾ (الأعراف / ٩٦) والحال ثابتة فيهم دائمة عليهم ما داموا على حالهم في أنفسهم فإذا غيروا حالهم في أنفسهم غير الله سبحانه حالهم الخارجية بتغيير النعم نقماً.

وأما قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ﴾ فإنما دخل في الحديث لا بالقصد الاولي لكنه تعالى لما ذكر أن كل شيء عنده بمقدار وأن لكل إنسان معقبات يحفظونه بأمره من أمره ولا يدعونه يهلك أو يتغير أو يضطرب في وجوده والنعم التي اوتيها، وهم على حالهم من الله لا يغيرها عليهم حتى يغيروا ما بأنفسهم وجب أن يذكر أن هذا التغيير من السعادة الى الشقاء ومن النعمة الى النقمة أيضاً من الامور المحكمة المحتومة التي

ليس لمانع أن يمنع من تحققها، وإنما أمره الى الله لا حظ فيه لغيره، وبذلك يتم أن الناس لا مناص لهم من حكم الله في جانبي الخير والشر وهم مأخوذ عليهم وفي قبضته.

فالمعنى: وإذا أراد الله بقوم سوء لا يريد ذلك إلّا إذا غيروا ما بأنفسهم من سمات معبودية ومقتضيات الفطرة فلا مرد لذلك السوء من شقاء أو نقمة أو نكال.

ثم قوله: ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ عطف تفسيري على قوله: «إذا أراد الله بقوم سوء فلا مرد له» ويفيد معنى التعليل له فإنه إذا لم يكن لهم من وال يلي أمرهم إلّا الله سبحانه لم يكن هناك أحد يرد ما أراد الله بهم من السوء.

فقد بان من جميع ما تقدم أن معنى الآية ـ على ما يعطيه السياق ـ والله أعلم ـ أن لكل من الناس على أي حال كان معقبات يعقبونه في مسيره الى الله من بين يديه ومن خلفه أي في حاضر حاله وماضيه يحفظونه بأمر الله من أن يتغير حاله بهلاك أو فساد أو شقاء بأمر آخر من الله، وهذا الأمر الآخر الذي يغير الحال إنما يؤثر أثره إذا غير قوم ما بأنفسهم فعند ذلك يغير الله ما عندهم من نعمه ويريد بهم السوء وإذا أراد بقوم سوء فلا مرد له لأنهم لا والي لهم يلي أمرهم من دونه حتى يرد ما أراد الله بهم من سوء[1].

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنْشِىءُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾ السحاب بفتح السين جمع سحابة بفتحها ولذلك وصف بالثقال.

والاراء إظهار ما من شأنه أن يحس بالبصر للمبصر ليبصره أو جعل الإنسان على صفة الرؤية والإبصار، والتقابل بين قوله: «يريكم» وقوله: «ينشيء» يؤيد المعنى الأول.

وقوله: ﴿خَوْفاً وَطَمَعاً﴾ مفعول له أي لتخافوا وتطمعوا، ويمكن أن يكون مصدرين بمعنى الفاعل حالين من ضمير «كم» أي خائفين وطامعين.

---

١. الرعد ٧ـ١٦: بحث في التلازم بين شيوع الصلاح في قوم ودوام النعمة عليهم.

والمعنى: هو الذي يظهر لعيونكم البرق ليظهر فيكم صفتا الخوف والطمع كما أن المسافر يخافه والحاضر يطمع فيه، وأهل البحر يخافونه وأهل البر يطمعون فيه ويخاف صاعقته ويطمع في غيثه، ويخلق بإنشائه السحابات التي تثقل بالمياه التي تحملها، وفي ذكر آية البرق بالإراءة وآية السحاب بالإنشاء لطف ظاهر.

قوله تعالى: ﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ﴾ الخ: الصواعق جمع صاعقة وهو القطعة النارية النازلة من السماء عن برق ورعد، والجدل المفاوضة والمنازعة في القول على سبيل المغالبة، وأصله من جدلت الحبل إذا أحكمت فتله، والمحال بكسر الميم مصدر ماحله يماحله اذا ماكره وقاواه ليتبين أيهما أشد وجادله لإظهار مساويه ومعائبه فقوله: «وهم يجادلون في الله وهو شديد المحال» معناه ـ والله أعلم ـ أن الوثنيين ـ واليهم وجه الكلام في إلقاء هذه الحجج ـ يجادلون في ربوبيته تعالى بتلفيق الحجة على ربوبية أربابهم كالتمسك بدأب آبائهم والله سبحانه شديد المماحلة لأنه عليم بمساويهم ومعائبهم قدير على إظهارها وفضاحتهم.

قوله تعالى: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لاَ يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ﴾ الى آخر الآية: الدعاء والدعوة توجيه نظر المدعو الى الداعي ويتأتى غالباً بلفظ أو إشارة، والاستجابة والإجابة إقبال المدعو على الداعي عن دعائه، وأما اشتمال الدعاء على سؤال الحاجة واشتمال الاستجابة على قضائها فذلك غاية متممة لمعنى الدعاء والاستجابة غير داخلة في مفهوميهما.

نعم: الدعاء إنما يكون دعاء حقيقة إذا كان المدعو ذا نظر يمكن أن يوجه الى الداعي وذا جدة وقدرة يمكنه بهما استجابة الدعاء وأما دعاء من لا يفقه أو يفقه ولا يملك ما ترفع به الحاجة فليس بحق الدعاء وإن كان في صورته.

ولما كانت الآية الكريمة قرر فيها التقابل بين قوله: «له دعوة الحق» وبين قوله: «والذين

يدعون من دونه» الخ: الذي يذكر أن دعاء غيره خال عن الاستجابة ثم يصف دعاء الكافرين بأنه في ضلال علمنا بذلك أن المراد بقوله: «دعوة الحق» الدعوة الحقة غير الباطلة وهي الدعوة التي يسمعها المدعو ثم يستجيبها البتة، وهذا من صفاته تعالى وتقدس فإنه سميع الدعاء قريب مجيب وهو الغني ذو الرحمة وقد قال: ﴿أُجيب دعوة الداع إذا دعان﴾ (البقرة / ١١٦) وقال: ﴿ادعوني أستجب لكم﴾ (المؤمن / ٦٠) فأطلق ولم يشترط في الاستجابة إلّا أن تتحقق هناك حقيقة الدعاء وأن يتعلق ذلك الدعاء به تعالى لا غير.

فلفظة دعوة الحق من إضافة الموصوف الى الصفة أو من الإضافة الحقيقية بعناية أن الحق والباطل كأنهما يقتسمان الدعاء فقسم منه للحق وهو الذي لا يتخلف عن الاستجابة، وقسم منه للباطل وهو الذي لا يهتدي الى هدف الإجابة كدعاء من لا يسمع أو لا يقدر على الاستجابة.

فهو تعالى لما ذكر في الآيات السابقة أنه عليم بكل شيء وأن له القدرة العجيبة ذكر في هذه الآية أن له حقيقة الدعاء والاستجابة فهو مجيب الدعاء كما أنه عليم قدير، وقد ذكر ذلك في الآية بطريقي الإثبات والنفي أعني إثبات حق الدعاء لنفسه ونفيه عن غيره.

ومثل من يدعو غير الله سبحانه مثل هذا الباسط كفيه الى الماء ليبلغ فاه وليس له من الدعاء إلّا صورته الخالية من المعنى واسمه من غير مسمى فهؤلاء المدعوون من دون الله لا يستجيبون للذين يدعونهم بشيء ولا يقضون حاجتهم إلّا كما يستجاب لباسط كفيه الى الماء ليبلغ فاه ويقضي حاجته أي لا يحصل لهم إلّا صورة الدعاء كما لا يحصل لذلك الباسط إلّا صورة الطلب ببسط الكفين.

ومن هنا يعلم أن هذا الاستثناء «إلّا كباسط كفيه» الخ: لا ينتقض به عموم النفي في المستثنى منه ولا يتضمن إلّا صورة الاستثناء فهو يفيد تقوية الحكم في جانب المستثنى منه فإن مفاده أن الذين يدعون من دون الله لا يستجاب لهم إلّا كما يستجاب لباسط كفيه الى

الماء ولن يستجاب له. وبعبارة أُخرى لن ينالوا بدعائهم إلّا أن لا ينالوا شيئاً أي لن ينالوا شيئاً البتة.

وهذا من لطيف كلامه تعالى ويناظر من وجه قوله تعالى الآتي: «قل أفأخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً» وآكد منه كما سيجيىء إن شاء الله.

ثم أكد سبحانه الكلام بقوله: «وما دعاء الكافرين إلّا في ضلال» مع ما فيه من الإشارة الى حقيقة أصيلة أُخرى وهي أنه لا غرض لدعاء إلّا الله سبحانه فإنه العليم القدير والغني ذو الرحمة فلا طريق له إلّا طريق التوجه اليه تعالى فمن دعا غيره وجعله الهدف لدعائه فقد الارتباط بالغرض والغاية وخرج بذلك عن الطريق فضل دعاؤه فإن الضلال هو الخروج عن الطريق وسلوك ما لا يوصل الى المطلوب.

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ السجود الخرور على الأرض بوضع الجبهة أو الذقن عليها قال تعالى ﴿وخروا له سجداً﴾ (يوسف / ١٠٠). وقال ﴿يخرون للأذقان سجداً﴾ (الإسراء / ١٠٧). والواحدة منه سجدة.

والكره ما يأتي به الإنسان من الفعل بمشقة فإن حمل عليه من خارج فهو الكره بفتح الكاف وما حمل عليه من داخل نفسه فهو الكره بضمها والطوع يقابل الكره مطلقاً.

وقال الراغب: الغدوة والغداة من أول النهار. وقوبل في القرآن الغدو بالآصال نحو قوله: «وبالغدو والآصال» وقوبل الغداة بالعشي قال «بالغداة والعشي» انتهى والغدو جمع غداة كقني وقناة وقال في المجمع: الآصال جمع أُصل ـ بضمتين ـ وأُصل جمع أصيل فهو جمع الجمع مأخوذ من الأصل فكأنه أصل الليل الذي ينشأ منه وهو ما بين العصر الى مغرب الشمس. انتهى.

وأما قوله: ﴿وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ ففيه إلحاق أظلال الأجسام الكثيفة بها

في السجود فإن الظل وإن كان عدمياً من حجب الجسم بكثافته عن نفوذ النور إلّا أن له آثاراً خارجية وهو يزيد وينقص في طرفي النهار ويختلف اختلافاً ظاهراً للحس فله نحو من الوجود ذو آثاره يخضع في وجوده وآثاره لله ويسجد له.

وهي تسجد لله سبحانه سجدة طوع في جميع الأحيان. وإنما خص الغدو والآصال بالذكر لا لما قيل: إن المراد بهما الدوام لأنه يذكر مثل ذلك للتأييد إذ لو أُريد سجودها الدائم لكان الأنسب به أن يقال: بأطراف النهار حتى يعم جميع ما قبل الظهر وما بعده كما وقع في قوله: ﴿ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى﴾ (طه / ١٣٠).

بل النكتة فيه ـ والله أعلم ـ أن الزيادة والنقيصة دائمتان للأظلال في الغداة والأصيل فيمثلان للحس السقوط على الأرض وذلة السجود. وأما وقت الظهيرة وأوساط النهار فربما انعدمت الأظلال فيها أو نقصت وكانت كالساكنة لا يظهر معنى السجدة منها ذلك الظهور.

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعاً وَلَا ضَرّاً﴾ الآية بما تشتمل على أمر النبي ﷺ بالاحتجاج على المشركين بمنزلة الفذلكة من الآيات السابقة.

وذلك أن الآيات السابقة تبين بأوضح البيان أن تدبير السماوات والأرض وما فيهما من شيء الى الله سبحانه كما أن خلقها منه وأنه يملك ما يفتقر اليه الخلق والتدبير من العلم والقدرة والرحمة وأن كل من دونه مخلوق مدبر لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً وينتج ذلك أنه الرب دون غيره.

فأمر تعالى نبيه ﷺ أن يسجل عليهم نتيجة بيانه السابق ويسألهم بعد تلاوة الآيات السابقة عليهم الكاشفة عن وجه الحق لهم بقوله: «من رب السماوات والأرض» أي من هو الذي يملك السماوات والأرض وما فيهما ويدبر أمرها؟ ثم أمره أن يجيب هو نفسه عن السؤال ويقول «الله» لأنهم وهم مشركون معاندون يمتنعون عن الإقرار بتوحيد الربوبية وفي ذلك

تلويح الى أنهم لا يعقلون حجة ولا يفقهون حديثاً.

ثم استنتج بمعونة هذه النتيجة نتيجة ثانية بها يتضح بطلان شركهم أوضح البيان وهي أن مقتضى ربوبيته تعالى الثابتة بالحجج السابقة أنه هو المالك للنفع والضرر فكل من دونه لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً فكيف لغيره؟ فاتخاذ أرباب من دون الله أي فرض أولياء من دونه يلون أمر العباد ويملكون لهم نفعاً وضراً في الحقيقة فرض لأولياء ليسوا بأولياء لأنهم لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً فكيف يملكون لغيرهم ذلك؟

وهذا هو المراد بقوله مفرعاً على السؤال السابق: «قل أفأتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً» أي فكيف يملكون لغيرهم ذلك: أي إذا كان الله سبحانه هو رب السماوات والأرض فقد قلتم باتخاذكم أولياء آلهة من دونه قولاً يكذبه نفسه وهو عدم ولا يتهم في عين ولايتهم وهو التناقض الصريح بأنهم أولياء غير أولياء وأرباب لا ربوبية لهم.

وبالتأمل فيما قدمناه أن الآية بمنزلة الفذلكة من سابق البيانات يعود مفاد الآية الى مثل قولنا: إذا تبين ما تقدم فمن رب السماوات والأرض إلّا الله؟ أفأتخذتم من دونه أولياء لا يملكون نفعاً ولا ضراً؟ فالعدول عن التفريع الى أمر النبي ﷺ بقوله: قل كذا وقل كذا وتكراره مرة بعد مرة إنما هو للتنزه عن خطابهم على ما بهم من قذارة الجهل والعناد وهذا من لطيف نظم القرآن.

قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ﴾ مثلان ضربهما الله سبحانه بعد تمام الحجة وإتمامها عليهم وأمر النبي ﷺ أن يضربهما لهم يبين بأحدهما حال المؤمن والكافر فالكافر بالحجة الحقة والآيات البينات غير المسلم لها أعمى والمؤمن بها بصير فالعاقل لا يسوي بينهما ببديهة عقله. ويبين بالثاني أن الكفر بالحق ظلمات كما أن الكافر الواقع فيها غير بصير والايمان بالحق نور كما أن المؤمن الآخذ به بصير ولا يستويان البتة فمن الواجب على المشركين إن كان لهم عقول سليمة ـ كما

يدعون ـ أن يسلموا للحق ويرفضوا الباطل ويؤمنوا بالله وحده.

قوله تعالى: ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ ـ الى قوله ـ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ في التعبير بقوله: «جعلوا» و «عليهم» دون أن يقال جعلتم وعليكم دليل على أن الكلام مصروف عنهم الى النبي ﷺ دون أن يؤمر بإلقائه اليهم.

ثم العود في جواب هذا الاحتمال الذي يتضمنه قوله: «أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم» الى الأمر بإلقائه اليهم بقوله: «قل الله خلق كل شيء وهو الواحد القهار» دليل على أن السؤال إنما هو عن النبي ﷺ والمطلوب من إلقاء توحيد الخالق اليهم هو الإلقاء الابتدائي لا الإلقاء بنحو الجواب، وليس إلّا لأنهم لا يقولون بخالق غير الله سبحانه كما قال تعالى: ﴿ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله﴾ (لقمان / ٢٥)، (الزمر / ٣٨) وقد كرر تعالى نقل ذلك عنهم.

فهؤلاء الوثنيون ما كانوا يرون لله سبحانه شريكاً في الخلق والإيجاد وإنما كانوا ينازعون الإسلام في توحيد الربوبية لا في توحيد الالوهية بمعنى الخلق والإيجاد، وتسليمهم توحيد الخالق المبدع وقصر ذلك على الله يبطل قولهم بالشركاء في الربوبية وتتم الحجة عليهم لأن اختصاص الخلق والإيجاد بالله سبحانه ينفي استقلال الوجود والعلم والقدرة عن غيره تعالى ولا ربوبية مع انتفاء هذه النعوت الكمالية.

ولذلك لم يبق لهم في القول بربوبية شركائهم مع الله سبحانه إلّا أن ينكروا توحده تعالى في الخلق والإيجاد ويثبتوا بعد الخلق والإيجاد لآلهتهم وهم لا يفعلونه. وهذا هو الموجب لذكره تعالى هذا الاحتمال لنبيه ﷺ من دون أن يخاطبهم به أو يأمره أن يخاطبهم.

فكأنه تعالى إذ يقول «أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم» يقول لنبيه ﷺ: هؤلاء تمت عليهم الحجة في توحيد الربوبية من جهة اختصاصه تعالى بالخلق والايجاد فلم يبق لهم إلّا أن يقولوا بشركة شركائهم في الخلق والايجاد فهل هم قائلون بأن

شركائهم خلقوا خلقاً كخلقه ثم تشابه الخلق عليهم فقالوا بربوبيتهم إجمالاً مع الله.

ثم أمر النبي ﷺ أن يلقي اليهم ما يقطع دابر هذا الاحتمال فقال «قل الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار» والجملة صدرها دعوى دليلها ذيلها أي أنه تعالى واحد في خالقيته لا شريك له فيها، وكيف يكون له فيها شريك وله وحدة يقهر كل عدد وكثرة وقد تقدم في تفسير قوله تعالى: ﴿ءأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار﴾ (يوسف / ٣٩) بعض الكلام في معنى كونه تعالى هو الواحد القهار، وتبين هناك أن مجموع هاتين الصفتين ينتج صفة الأحدية.

وقد بان مما ذكرناه وجه تغيير السياق في قوله: «أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم» والإعراض عن سياق الخطاب السابق فتأمل في ذلك واعلم أن أكثر المفسرين اشتبه عليهم الحال في الحجج التي تقيمها الآيات القرآنية لإثبات ربوبيته تعالى وتوحيده فيها ونفي الشريك عنه فخلطوا بينها وبين ما أُقيمت لإثبات الصانع فتنبه لذلك[1].

١٧ ﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمٰاءِ مٰاءً فَسٰالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهٰا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ
زَبَداً رٰابِياً وَمِمّٰا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النّٰارِ ابْتِغٰاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتٰاعٍ
زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذٰلِكَ يَضْرِبُ اللّٰهُ الْحَقَّ وَالْبٰاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ
فَيَذْهَبُ جُفٰاءً وَأَمّٰا مٰا يَنْفَعُ النّٰاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ
كَذٰلِكَ يَضْرِبُ اللّٰهُ الْأَمْثٰالَ.

---

١. الرعد ٧ ـ ١٦: بحث روائي في: قول الله تبارك وتعالى «انما انت منذر ولكل قوم هاد»: ان المنذر هو رسول الله وعلي عليه السلام هو الهادي: الغيب والشهادة: ان ليس من عبد الاّ ومعه ملائكة يحفظونه.

١٨ ● لِلَّذِينَ اسْتَجابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنىٰ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسابِ وَمَأْوٰيهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهادُ.

١٩ ● أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمىٰ إِنَّما يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبابِ.

٢٠ ● الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللّٰهِ وَلاٰ يَنْقُضُونَ الْمِيثاقَ.

٢١ ● وَالَّذِينَ يَصِلُونَ ما أَمَرَ اللّٰهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخافُونَ سُوءَ الْحِسابِ.

٢٢ ● وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقامُوا الصَّلوٰةَ وَأَنْفَقُوا مِمّا رَزَقْناهُمْ سِرّاً وَعَلاٰنِيَةً وَيَدْرَؤُنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدّارِ.

٢٣ ● جَنّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَها وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبائِهِمْ وَأَزْواجِهِمْ وَذُرِّيّاتِهِمْ وَالْمَلاٰئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بابٍ.

٢٤ ● سَلاٰمٌ عَلَيْكُمْ بِما صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدّارِ.

٢٥ ● وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللّٰهِ مِنْ بَعْدِ مِيثاقِهِ وَيَقْطَعُونَ ما أَمَرَ اللّٰهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدّارِ.

٢٦ ● أَللّٰهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيٰوةِ الدُّنْيا وَمَا الْحَيٰوةُ الدُّنْيا فِي الْآخِرَةِ إِلّا مَتاعٌ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ الى آخر الآية: قال في مجمع البيان: الوادي سفح الجبل العظيم المنخفض الذي يجتمع فيه ماء المطر، ومنه اشتقاق الدية لأنه جمع المال العظيم الذي يؤدي عن القتيل. والقدر إقتران الشيء بغيره من غير زيادة ولا نقصان والوزن يزيد وينقص فإذا كان مساوياً فهو القدر. وقرء الحسن بقدرها بسكون الدال، وهما لغتان يقال: أعطى قدر شبر وقدر شبر، والمصدر بالتخفيف لا غير.

قال: والاحتمال رفع الشيء على الظهر بقوة الحامل له، ويقال: علا صوته على فلان فاحتمله ولم يغضبه، والزبد وضر الغليان وهو خبث الغليان ومنه زبد القدر وزبد السيل.

والجفاء ممدود مثل الغثاء وأصله الهمز يقال: جفأ الوادي جفاء قال أبوزيد: يقال: جفأت الرجل إذا صرعته وأجفأت القدر بزبدها إذا ألقيت زبدها عنها، قال الفراء: كل شيء ينضم بعضه الى بعض فإنه يجيء على فعال مثل الحطام والقماش والغثاء والجفاء.

والإيقاد إلقاء الحطب في النار أستوقدت النار، وانقدت وتوقدت، والمتاع ما تمتعت به، والمكث السكون في المكان على مرور الزمان يقال: مكث ومكث ـ بفتح الكاف وضمها ـ وتمكث أي تلبث. انتهى.

وقال الراغب: الباطل نقيض الحق وهو ما لا ثبات له عند الفحص عنه قال تعالى «ذلك بأن الله هو الحق وأن ما تدعون من دونه الباطل» وقد يقال ذلك في الاعتبار الى المقال والفعال يقال: بطل بطولاً وبطلاً وبطلاناً وأبطله غيره قال عزّ وجلّ «وبطل ما كانوا يعملون» وقال «لم تلبسون الحق بالباطل». انتهى موضع الحاجة.

فبطلان الشيء هو أن يقدر للشيء نوع من الوجود ثم إذا طبق على الخارج لم يثبت على ما قدر ولم يطابقه الخارج والحق بخلافه فالحق والباطل يتصف بهما أولاً الاعتقاد ثم غيره بعناية

ما.

فالقول نحو السماء فوقنا والأرض تحتنا يكون حقاً لمطابقة الواقع إياه إذا فحص عنه وطبق عليه، ولقولنا: السماء تحتنا والأرض فوقنا كان باطلاً لعدم ثباته في الواقع على ما قدر له من الثبات، والفعل يكون حقاً إذا وقع على ما قدر له من الغاية أو الأمر كالأكل للشبع والسعي للرزق وشرب الدواء للصحة مثلاً إذا أثره وبلغ غرضه، ويكون باطلاً إذا لم يقع على ما قدر عليه من الغاية أو الأمر، والشيء الموجود في الخارج حق من جهة أنه موجود كما اعتقد كوجود الحق تعالى، والشيء غير الموجود وقد اعتقد له الوجود باطل وكذا لو كان موجوداً لكن قدر له من خواص الوجود ما ليس له كتقدير الاستقلال والبقاء للموجود الممكن فالموجود الممكن باطل من جهة عدم الاستقلال أو البقاء المقدر له وإن كان حقاً من جهة أصل الوجود قال:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل

والآية الكريمة من غرر الآيات القرآنية تبحث عن طبيعة الحق والباطل فتصف بدء تكونهما وكيفية ظهورهما والآثار الخاصة بكل منهما وسنة الله سبحانه الجارية في ذلك ولن تجد لسنة الله تحويلاً ولن تجد لسنة الله تبديلاً.

بين تعالى ذلك بمثل ضربه للناس، وليس بمثلين كما قاله بعضهم ولا بثلاثة أمثال كما ذكره آخرون كما سنشير اليه إن شاء الله وإنما هو مثل واحد ينحل الى أمثال فقال تعالى «أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابياً» وقوله: «أنزل» فعل فاعله هو الله سبحانه لم يذكر لوضوحه، وتنكير «ماء» للدلالة على النوع وهو الماء الخالص الصافي يعني نفس الماء من غير أن يختلط بشيء أو يشوبه تغير، وتنكير «أودية» للدلالة على اختلافها في الكبر والصغر والطول والقصر وتغايرها في السعة والوعي، ونسبة السيلان الى الاودية نسبة مجازية نظير قولنا: جرى الميزاب وتوصيف الزبد بالرابي لكونه طافياً يعلو

السيل دائماً وهذا كله بدلالة السياق، وإنما مثل بالسيل لأن احتمال الزبد الرابي فيه أظهر.

والمعنى: أنزل الله سبحانه من السماء وهي جهة العلو ماء بالإمطار فسالت الأودية الواقعة في محل الامطار المختلفة بالسعة والضيق والكبر والصغر بقدرها أي كل بقدره الخاص به فالكبير بقدره والصغير بقدره فاحتمل السيل الواقع في كل واحد من الأودية المختلفة زبداً طافياً عالياً وهو الظاهر على الحس يستر الماء ستراً.

ثم قال تعالى ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ﴾ من نشوية وما يوقدون عليه أنواع الفلزات والمواد الأرضية القابلة للإذابة المصوغة منها آلات الزينة وأمتعة الحياة التي يتمتع بها والمعنى ويخرج من الفلزات والمواد الأرضية التي يوقدون عليها في النار طلباً للزينة كالذهب والفضة أو طلباً لمتاع كالحديد وغيره يتخذ منه الآلات والأدوات، زبد مثل الزبد الذي يربو السيل يطفو على المادة المذابة ويعلوه.

ثم قال تعالى ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ الحَقَّ وَالْبَاطِلَ﴾ أي يثبت الله الحق والباطل نظير ما فعل في السيل وزبده وما يوقدون عليه في النار وزبده.

فالمراد بالضرب ـ والله أعلم ـ نوع من التثبيت من قبيل قولنا: ضربت الخيمة أي نصبتها وقوله: ضربت عليهم الذلة والمسكنة أي أوقعت وأثبتت وضرب بينهم بسور أي أُوجد وبني، واضرب لهم طريقاً في البحر أي افتح وثبت والى هذا المعنى أيضاً يعود ضرب المثل لأنه تثبيت ونصب لما يماثل الممثل حتى يتبين به حاله، والجميع في الحقيقة من قبيل إطلاق الملزوم وإرادة اللازم فإن الضرب وهو إيقاع شيء على شيء بقوة وعنف لا ينفك عادة عن تثبيت أمر في ما وقع عليه الضرب كثبوت الوتد في الأرض بضرب المطرقة وحلول الألم في جسم الحيوان بضربه فقد أُطلق الضرب وهو الملزوم وأُريد التثبيت وهو الأمر اللازم.

ثم قال تعالى ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ جمع بين الزبدين أعني زبد السيل وزبد ما يوقدون عليه وقد كانا متفرقين في الذكر لاشتراك الجميع فيما يذكر من الخاصة وهو أنه يذهب جفاء، ولذا قدمنا آنفاً أن الآية تتضمن مثلاً واحداً وإن انحل الى غير واحد من الأمثال.

وقد عدل عن ذكر الماء وغيره الى قوله: «وأما ما ينفع الناس» للدلالة على خاصة يختص بها الحق وهو أن الناس ينتفعون به وهو الغاية المطلوبة لهم.

والمعنى: فأما الزبد الذي كان يطفو على السيل ويعلوه أو يخرج مما يوقدون عليه في النار فيذهب جفاء ويصير باطلاً متلاشياً، وأما الماء الخالص أو العين الارضية المصوغة وفيهما انتفاع الناس وتمتعهم في معاشهم فيمكث في الأرض ينتفع به الناس.

ثم قال تعالى ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ وختم به القول أي إن الأمثال المضروبة للناس في كلامه تعالى يشابه المثل المضروب في هذه الآية في أنها تميز الحق من الباطل وتبين للناس ما ينفعهم في معاشهم ومعادهم.

ولا يبعد أن تكون الإشارة بقوله: «كذلك» الى ما ذكره من أمر نزول المطر وجريان الاودية بسيولها المزبدة وإيقاد المواد الأرضية وخروج زبدها، أعني أن تكون الإشارة الى نفس هذه الحوادث الخارجية والتكونات العينية لا القول فيدل على أن هذه الوقائع الكونية والحوادث الواقعة في عالم الشهادة أمثال مضروبة تهدي اولي النهي والبصيرة الى ما في عالم الغيب من الحقائق كما أن ما في عالم الشهادة آيات دالة على ما في عالم الغيب على ما تكرر ذكره في القرآن الكريم، ولا كثير فرق بين كون هذه المشهودات أمثالاً مضروبة أو آيات دالة وهو ظاهر.

قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ﴾ الى آخر الآية؛ المهاد الفراش الذي يوطأ لصاحبه والمكان المهد الموطأ وسميت جهنم لأنها

مهدت لاستقرارهم فيها لكفرهم وأعمالهم السيئة.

والآية وما بعدها من الآيات التسعة متفرعة على المثل المضروب في الآية السابقة كما تقدمت الإشارة اليه يبين الله سبحانه فيها آثار الاعتقاد الحق والإيمان به والاستجابة لدعوته، وآثار الاعتقاد الباطل والكفر به وعدم استجابة دعوته ويشهد بذلك سياق الآيات فإن الحديث فيها يدور حول عاقبة الايمان والكفر وأن العاقبة المحمودة التي للإيمان لا يقوم مقامها شيء ولو كان ضعف ما في الدنيا من نعمة.

وعلى هذا فالأظهر أن يكون المراد بالحسنى العاقبة الحسنى وما ذكره بعضهم أن المراد بها المثوبة الحسنى أو الجنة وإن كان حقاً بحسب المآل فإن عاقبة الايمان والعمل الصالح المحمودة هي المثوبة الإلهية الحسنى وهي الجنة لكن المثوبة أو الجنة غير مقصودة في المقام بما أنها مثوبة أو جنة بل بما أنها عاقبة أمرهم وينتهي اليها سعيهم.

ويؤيده بل يدل عليه قوله تعالى فيهم في الآيات التالية بعد تعريفهم بصفاتهم المختصة بهم: «أُولئك لهم عقب الدار جنات عدن يدخلونها» الآية.

وعلى هذا أيضاً فقوله: «لو أن لهم ما في الأرض جميعاً ومثله معه لافتدوا به» موضوع موضع الغاية المحذوفة للدلالة على فخامة أمرها وبلوغها الغاية من حمل الهول والدهشة والشر والشقوة بما لا يذكر.

والمعنى: والذين لم يستجيبوا لربهم يحل بهم أمر ـ أو يفوتهم أمر وهو نتيجة الاستجابة وعاقبتها الحسنى ـ من صفته أنه لو أن لهم ما في الارض من نعمة تلتذ بها النفس الانسانية وهو غاية ما يمكن لإنسان أن يأمله ويتمناه ثم أُضيف اليه مثله وهو فوق منية الإنسان وبعبارة ملخصة لو كانوا يملكون غاية مناهم في الحياة وما فوق هذه الغاية رضوا أن يفتدوا بهذا الذي يملكونه فرضاً عما يفوتهم من الحسنى، وفي بعض كلمات علي عليه السلام في وصفه «غير موصوف ما نزل بهم».

ثم أخبر تعالى عن هذا الذي لا يوصف من عاقبة أمرهم فقال «اولئك لهم سوء الحساب ومأواهم جهنم» وسوء الحساب الحساب الذي يسوؤهم ولا يسرهم فهو من إضافة الصفة الى الموصوف ثم ذم تعالى ذلك مشيراً الى سوء العاقبة بقوله: «وبئس المهاد» أي بئس المهاد مهادهم الذي مهد لهم ويستقرون فيه. ومجموع قوله: «اولئك لهم سوء الحساب» الخ؛ في موضع التعليل لما ذكر من الافتداء والتعليل بالإشارة كثير في الكلام يقال: افعل بفلان كذا وكذا ذاك الذي من صفته كذا وكذا.

ومعنى الآية ـ والله أعلم ـ للذين استجابوا لدعوة ربهم الحقة العاقبة الحسنى والذين لم يستجيبوا له لهم من عاقبة الامر ما يرضون أن يفدوا للتخلص منه فوق ما يمكنهم أن يتمنوه لأن الذي يحل بهم من العاقبة السيئة يتضمن أو يقارن سوء الحساب والقرار في وبئس المهاد مهادهم.

وقد وضع في الآية الاستجابة وعدم الاستجابة مكان الإيمان والكفر لمناسبة المثل المضروب في الآية السابقة من نزول الماء من السماء وقبول الأودية منه كل بقدره، والاستجابة قبول الدعوة.

قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ استفهام إنكاري وهو في موضع التعليل لما تضمنه الآية السابقة، وبيان تفصيلي لعاقبة حال الفريقين من حيث استجابة دعوة الحق وعدمها.

وملخص البيان: أن الحق يستقر في قلوب هؤلاء الذين استجابوا لربهم فتصير قلوبهم ألباباً وقلوباً حقيقية لها آثارها وبركاتها وهو التذكر والتبصر، ومن خواص هذه القلوب التي يعرف بها صاحبوها أن اولي الألباب يثبتون على الوفاء بعهد الله المأخوذ عنهم بفطرتهم فلا ينقضون ميثاق ربهم، ويثبتون على احترام ما وصلهم الله به وهي الرحم التي أجرى الله الخلقة من طريقها فيصلونها وهم خاشعون خائفون، ويثبتون بالصبر عند المصائب وعن

المعصية وعلى الطاعة، ويجرون بالتوجه الى ربهم وهو الصلاة، وإصلاح المجتمع وهو الإنفاق، ودرء السيئات بالحسنات.

فهؤلاء لهم عاقبة الدار المحمودة وهي الجنة يدخلونها وتنعكس اليهم فيها مثوبات أعمالهم الحسنة المذكورة فيصاحبون فيها الصالحين من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم كما وصلوا الرحم في الدنيا، والملائكة يدخلون عليهم من كل باب مسلمين عليهم بما صبروا كما فتحوا أبواب العبادات والطاعات المختلفة في الدنيا فهذا هو أثر الحق.

وقوله: ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ﴾ الاستفهام فيه للإنكار ـ كما تقدم ـ وفيه نفي التساوي بين من استقر في قلبه العلم بالحق ومن جهل الحق وفي توصيف الجاهل بالحق بالأعمى إيماء الى أن العالم به بصير وقد سماه بالأعمى والبصير في قوله آنفاً: «قل هل يستوي الأعمى والبصير» الآية، فالعلم بالحق بصيرة والجهل به عمى والتبصر يفيد التذكر ولذا عده من خواص اولى العلم بقوله: «إنما يتذكر».

وقوله: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ في مقام التعليل لما سبقه أعني قوله: «أفمن يعلم» الخ: أي إنهما لا يستويان لأن لاولي العلم تذكر ليس لاولي العمى والجهل، وقد وضع في موضع اولي العلم اولوا الألباب فدل على دعوى أخرى تفيد فائدة التعليل كأنه قيل: لا يستويان لأن لأحد الفريقين تذكراً ليس للآخر، وإنما اختص التذكر بهم لأن لهم ألباباً وقلوباً وليس ذلك لغيرهم.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ﴾ ظاهر السياق أن الجملة الثانية عطف تفسيري على الجملة الاولى فالمراد بالميثاق الذي لا ينقضونه هو عهد الله الذي يوفون به، والمراد بهذا العهد والميثاق بقرينة ما ذكر في الآية السابقة من تذكرهم هو ما عاهدوا به ربهم وواثقوه بلسان فطرتهم أن يوحدوه ويجروا على ما يقتضيه توحيده من الآثار فإن الانسان مفطور على توحيده تعالى وما يهتف به توحيده، وهذا عهد عاهدته

الفطرة وعقد عقدته.

وأما العهود والمواثيق المأخوذة بوسيلة الأنبياء والرسل على أمر من الله والأحكام والشرائع فكل ذلك من فروع الميثاق الفطري فإن الدين فطري.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ الخ: الظاهر أن المراد بالأمر هو الأمر التشريعي النازل بشهادة ذيل الآية «ويخافون سوء الحساب» فإن الحساب على الأحكام النازلة في الشريعة ظاهراً وإن كانت مدركة بالفطرة كقبح الظلم وحسن العدل فإن المستضعف الذي لم يبلغه الحكم الإلهي ولم يقصر لا يحاسب عليه كما يحاسب غيره، وقد تقدم في أبحاثنا السابقة أن الحجة لا تتم على الإنسان بمجرد الإدراك الفطري لولا انضمام طريق الوحي اليه قال تعالى: ﴿لئلا يكون الناس على الله حجة بعد الرسل﴾ (النساء / ١٦٥).

والآية مطلقة فالمراد به كل صلة أمر الله سبحانه بها و من أشهر مصاديقه صلة الرحم التي أمر الله بها وأكد القول في وجوبها، قال تعالى: ﴿واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام﴾ (النساء / ١).

وقد أكد القول فيه بما في ذيل الآية من قوله: «ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب» فأشار الى أن في ترك الصلة مخالفة لأمر الله فليخش الله في ذلك وعملاً سيئاً مكتوباً في صحيفة العمل محفوظاً على الإنسان يجب أن يخاف من حسابه السيىء.

والظاهر أن الفرق بين الخشية والخوف أن الخشية تأثر القلب من إقبال الشر أو ما في حكمه، والخوف هو التأثر عملاً بمعنى الإقدام على تهيئة ما يتقى به المحذور وإن لم يتأثر القلب ولذا قال سبحانه في صفة أنبيائه: ﴿ولا يخشون أحداً إلّا الله﴾ (الأحزاب / ٣٩). فنفى عنهم الخشية عن غيره وقد أثبت الخوف لهم عن غيره في مواضع من كلامه كقوله: ﴿فأوجس في نفسه خيفة موسى﴾ (طه / ٦٧) وقوله: ﴿وإما تخافن من قوم خيانة﴾ (الأنفال / ٥٨).

ولعله اليه يرجع ما ذكره الراغب في الفرق بينهما أن الخشية خوف يشوبه تعظيم وأكثر ما يكون ذلك عن علم. ولذا خص العلماء بها في قوله: ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ وكذا قول بعضهم: إن الخشية أشد الخوف لأنها مأخوذة من قولهم: شجرة خشية أي يابسة. وكذا قول بعضهم: إن الخوف يتعلق بالمكروه وبمنزله يقال: خفت المرض وخفت زيداً بخلاف الخشية فإنها تتعلق بالمنزل دون المكروه نفسه يقال: خشيت الله.

ولولا رجوعها الى ما قدمناه لكانت ظاهرة النقض وذكر بعضهم أن الفرق أغلبي لا كلي، والآخرون أن لا فرق بينهما أصلاً وهو مردود بما قدمناه من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلوٰةَ وَأَنفَقُوا﴾ الى آخر الآية: إطلاق الصبر يدل على اتصافهم بجميع شعبه وأقسامه وهي الصبر عند المصيبة والصبر على الطاعة والصبر عن المعصية لكنه مع ذلك مقيد بقوله: «ابتغاء وجه ربهم» أي طلباً لوجه ربهم فصفتهم التي يمدحون بها أن يكون صبرهم لوجه الله لأن الكلام في صفاتهم التي تنشأ وتنمو فيهم من استجابتهم لربهم وعلمهم بحقية ما أُنزل اليهم من ربهم لا كل صفة يمدحها الناس فيما بينهم وإن لم ترتبط بعبوديتهم وإيمانهم بربهم كالصبر عند الكريهة تمنعاً وعجباً بالنفس أو طلباً لجميل الثناء ونحوه كما قيل:

وقولي كلما جشأت وجاشت مكانك تحمدي أو تستريحي

والمراد بوجه الرب تعالى هو الجهة المنسوبة اليه تعالى من العمل ونحوه وهي الجهة التي عليها يظهر ويستقر العمل عنده تعالى أعني المثوبة التي له عنده الباقية ببقائه وقد قال تعالى: ﴿والله عنده حسن الثواب﴾ (آل عمران / ١٩٥)، وقال: ﴿وما عند الله باق﴾ (النحل / ٩٦)، وقال: ﴿كل شيء هالك إلّا وجهه﴾ (القصص / ٨٨).

وقوله: ﴿وَأَقَامُوا الصَّلوٰةَ﴾ أي جعلوها قائمة غير ساقطة بالإخلال بأجزائها وشرائطها أو بالاستهانة بأمرها، وعطف الصلاة وما بعدها على الصبر من عطف الخاص على

العام اعتناء بشأنه وتعظيماً لأمره. كما قيل.

وقوله: ﴿وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلَانِيَةً﴾ المراد به مطلق الإنفاق أعم من الواجب وغيره. والآية مكية لم ينزل وجوب الزكاة عند نزولها بعد. وتقييد الإنفاق بقوله: «سراً وعلانية» للدلالة على استيفائهم حقه فإن من الإنفاق ما يحسن فيه الإسرار ومنه ما يحسن فيه الإعلان فعلى من آمن بما أنزله الله بالحق أن يستوفي من كل حقه فيسر بالإنفاق إذا كان في إعلانه مظنة الرياء أو السمعة أو إهانة أو إذهاب ماء الوجه. ويعلن فيه فيما كان في إعلانه تشويق الناس على البر والمعروف ودفع التهمة ونحو ذلك.

وقوله: ﴿وَيَدْرَؤُنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ الدرء الدفع والمعنى إذا صادفوا سيئة جاؤا بحسنة تزيد عليها أو تعادلها فيدفعون بها السيئة. وهذا أعم من أن يكون ذلك في سيئة صدرت من أنفسهم فدفعوها بحسنة جاؤا بها فإن الحسنات يذهبن السيئات أو دفعوها بتوبة الى ربهم فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له أو في سيئة أتى بها غيرهم بالنسبة اليهم كمن ظلمهم فدفعوه بالعفو أو بالإحسان اليه أو من جفاهم فقابلوه بحسن الخلق والبشر كما إذا خاطبهم الجاهلون فقالوا: سلاماً أو أُتي بمنكر فنهوا عنه أو ترك معروف فأمروا بها.

فذلك كله من درء السيئة بالحسنة ولا دليل من جانب اللفظ يدل على التخصيص ببعض هذه الوجوه البتة.

وقد اختلف التعبير في هذه الصفاة المذكورة لاولي الألباب «الذين يوفون، ولا ينقضون، ويصلون، ويخشون، ويخافون، وصبروا، وأقاموا، وأنفقوا، ويدرؤن» فاتي في بعضها ـ وهي ستة ـ بلفظ المضارع، وفي بعضها ـ وهي ثلاثة ـ بلفظ الماضي.

وقد نقل عن بعضهم في وجه ذلك أن التعبير في قوله: «والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم» الخ؛ بلفظ الماضي وفيما تقدم بلفظ المضارع على سبيل التفنن في الفصاحة لأن هذه الأفعال وقعت صلة للموصول يعني «الذين» والموصول وصلته

في معنى اسم الشرط مع الجملة الشرطية . والماضي والمضارع يستويان معنى في الجملة الشرطية نحو إن ضربت ضربت وإن تضرب أضرب فكذا فيما بمعناه .

ولذا قال النحويون : إذا وقع الماضي صلة أو صفة لنكرة عامة احتمل أن يراد به المضي وأن يراد به الاستقبال فمن الأول « الذين قال لهم الناس » ومن الثاني « إلّا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم » .

وفيه أن إلغاء خصوصية زمان الفعل من المضي والاستقبال في الشرط وما في معناه لا يستوجب إلغاء لوازم الأزمنة كالتحقق في الماضي والجريان والاستمرار ونحوهما في المضارع فإن في الماضي مثلاً عناية بالتحقق وإن كان ملغى الزمان فصحة السؤال عن نكتة اختلاف التعبير في محله بعد .

ويستفاد من كلام بعض آخر في وجهه أن المراد بالأوصاف المتقدمة أعني الوفاء بالعهد والصلة والخشية والخوف الاستصحاب والاستمرار لكن الصبر لما كان مما يتوقف على تحققة التلبس بتلك الأوصاف اعتني بشأنه فعبر بلفظ الماضي الدال على التحقق وكذا في الصلاة والإنفاق اعتناء بشأنهما .

وفيه أن بعض الصفات السابقة لا يقصر في الأهمية عن الصبر والصلاة والإنفاق كالوفاء بعهد الله الذي أُريد به الإيمان بالله بإجابة دعوة الفطرة فلو كان الاعتناء بالشأن هو الوجه كان من الواجب أن يعبر عنه بلفظ الماضي كغيره من الصبر والصلاة والإنفاق .

والذي أحسب ـ والله أعلم ـ أن مجموع قوله تعالى : « والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية ويدرؤن بالحسنة السيئة » مسوق لبيان معنى واحد وهو الإتيان بالعمل الصالح أعني إتيان الواجبات وترك المحرمات وتدارك ما يقع فيه من الخلل استثناء بالحسنة فالعمل الصالح هو المقصود بالاصالة ودرء السيئة بالحسنة الذي هو تدارك الخلل الواقع في العمل مقصود بالتبع كالمتمم للنقيصة .

فلو جرى الكلام على السياق السابق وقيل «والذين يصبرون ابتغاء وجه ربهم ويقيمون الصلاة وينفقون مما رزقناهم سراً وعلانية ويدرؤن بالحسنة السيئة» فاتت هذه العناية وبطل ما ذكر من حديث الأصالة والتبعية لكن قيل «والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم» فاخذ جميع الصبر المستقر أمراً واحداً مستمراً ليدل على وقوع كل الصبر منهم ثم قيل «ويدرؤن» الخ؛ ليدل على دوام مراقبتهم بالنسبة اليه لتدارك ما وقع فيه من الخلل. وكذا في الصلاة والإنفاق فافهمه.

وهذه العناية بوجه نظيرة العناية في قوله تعالى: «إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة» الآية؛ حيث يدل على تفرع تنزل الملائكة على تحقق قولهم: «ربنا الله» واستقامتهم دون الاستمرار عليه.

وقوله: ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ أي عاقبتها المحمودة فإنها هي العاقبة حقيقة لأن الشيء لا ينتهي بحسب ما جبله الله عليه إلاّ الى عاقبة تناسبه وتكون فيها سعادته. وأما العاقبة المذمومة السيئة ففيها بطلان عاقبة الشيء لخلل واقع فيه. وإنما تسمى عاقبة بنحو من التوسع. ولذلك أُطلق في الآية عقبى الدار وأُريدت بها العاقبة المحمودة وقوبلت فيما يقابلها من الآيات بقوله: «ولهم سوء الدار». ومن هنا يظهر أن المراد بالدار هذه الدار الدنيا أي حياة الدار فالعاقبة عاقبتها.

قوله تعالى: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ العدن الاستقرار يقال: عدن بمكان كذا إذا استقر فيه ومنه المعدن لمستقر الجواهر الأرضية وجنات عدن أي جنات نوع من الاستقرار فيه خلود وسلام من كل جهة.

وجنات عدن «الخ»؛ بدل أو عطف بيان من قوله: «عقبى الدار» أي عاقبة هذه الدار المحمودة هي جنات العدن والخلود فليست هذه الحياة الدنيا بحسب ما طبعها الله عليه إلاّ حياة واحدة متصلة أولها عناء وبلاء وآخرها رخاء نعيم وسلام. وهذا الوعد هو الذي يحكي وفاءه

تعالى به حكاية عن أهل الجنة بقوله: ﴿وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده واورثنا الأرض نتبوء من الجنة حيث نشاء﴾ (الزمر / ٧٤).

والآية ـ كما سمعت ـ تحاذي قوله: «يصلون ما أمر الله به أن يوصل» وبيان لعاقبة هذا الحق الذي أخذوه وعملوا به وبشرى لهم أنهم سيصاحبون الصالحين من أرحامهم وأهليهم من الآباء والامهات والذراري والاخوان والاخوات وغيرهم ويشمل الجميع قوله: «آبائهم وأزواجهم وذرياتهم» لأن الامهات أزواج الآباء والاخوان والاخوات والاعمام والاخوال وأولادهم ذريات الآباء، والآباء من الداخلين فعهم أزواجهم وذرياتهم في الآية ايجاز لطيف.

قوله تعالى: ﴿وَالْمَلاٰئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بٰابٍ سَلاٰمٌ عَلَيْكُمْ بِمٰا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدّٰارِ﴾ وهذا عقبى أعمالهم الصالحة التي داموا عليها في كل باب من أبواب الحياة بالصبر على الطاعة وعن المعصية وعند المصيبة مع الخشية والخوف.

وقوله: «سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار» قول الملائكة وقد خاطبوهم بالأمن والسلام الخالد وعقبى محمودة لا يعتريها ذم وسوء أبداً.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ ٱللّٰهِ مِنْ بَعْدِ مِيثٰاقِهِ﴾ الى آخر الآية: بيان حال غير المؤمنين بطريق المقابلة وقد قوبل بقوله: «ويفسدون في الأرض» بقية ما ذكر في الآيات السابقة بعد الوفاء بعهد الله والصلة، من الأعمال الصالحة وفيه إيماء الى أن الأعمال الصالحة هي التي تضمن صلاح الأرض وعمارة الدار على نحو يؤدي الى سعادة النوع الإنساني ورشد المجتمع البشري، وقد تقدم بيانه في دليل النبوة العامة.

وقد بين تعالى جزاء عملهم وعاقبة أمرهم بقوله: «أُولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار» واللعن الابعاد من الرحمة والطرد من كل كرامة، وليس ذلك إلّا لانكبابهم على الباطل ورفضهم الحق النازل من الله، وليس للباطل إلّا البوار.

قوله تعالى: ﴿أَللّٰهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ﴾ الى آخر الآية: بيان أن ما أُوتي الفريقان من العاقبة المحمودة والجنة الخالدة ومن اللعنة وسوء الدار هو من الرزق الذي يرزقه الله من يشاء وكيف يشاء من غير حجر عليه أو إلزام.

وقد بين أن فعله تعالى يستمر على وفق ما جعله من نظام الحق والباطل فالاعتقاد الحق والعمل به ينتهي الى الارتزاق بالجنة والسلام والباطل من الاعتقاد والعمل به ينتهي الى اللعنة وسوء الدار ونكد العيش.

وقوله: ﴿وَفَرِحُوا بِالْحَيٰوةِ الدُّنْيا وَمَا الْحَيٰوةُ الدُّنْيا فِي الْآخِرَةِ إِلّا مَتَاعٌ﴾ يريد به ـ على ما يفيده السياق ـ أن الرزق هو رزق الاخرى لكنهم لميلهم الى ظاهر الحياة الدنيا وزينتها ركنوا اليها وفرحوا بها، وقد أخطأوا فإنها حياة غير مقصودة بنفسها ولا خالدة في بقائها بل مقصودة لغيرها الذي هو الحياة الآخرة فهي بالنسبة الى الآخرة متاع يتمتع به في غيره ولغيره غير مطلوب لنفسه فالحياة الدنيا بالقياس الى الحياة الآخرة إنما تكون من الحق إذا أُخذت مقدمة لها يكتسب بها رزقها وأما إذا أُخذت مطلوبة بالاستقلال فليست إلّا من الباطل الذي يذهب جفاء ولا ينتفع به في شيء، قال تعالى: ﴿وما هذه الحياة الدنيا إلّا لهو ولعب وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون﴾ (العنكبوت / ٦٤).

٢٧ ● وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللّٰهَ يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ.

٢٨ ● الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللّٰهِ أَلاٰ بِذِكْرِ اللّٰهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ.

٢٩ ● الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ.

٣٠ ● كَذٰلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ
الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمٰنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لاٰ إِلٰهَ
إِلاّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ.
٣١ ● وَلَوْ أَنَّ قُرآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ
بِهِ الْمَوْتىٰ بَلْ لِلّٰهِ الأَمْرُ جَمِيعاً أَفَلَمْ يَايْئَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ
لَوْ يَشٰاءُ ٱللّٰهُ لَهَدَى النّاسَ جَمِيعاً وَلاٰ يَزٰالُ الَّذِينَ كَفَرُوا
تُصِيبُهُمْ بِمٰا صَنَعُوا قٰارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِنْ دٰارِهِمْ حَتّىٰ
يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللّٰهِ إِنَّ ٱللّٰهَ لاٰ يُخْلِفُ الْمِيعٰادَ.
٣٢ ● وَلَقَدِ اسْتُهْزِىءَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ
أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كانَ عِقٰابِ.
٣٣ ● أَفَمَنْ هُوَ قٰائِمٌ عَلىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمٰا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلّٰهِ شُرَكٰاءَ
قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّؤُنَهُ بِمٰا لاٰ يَعْلَمُ فِي الأَرْضِ أَمْ بِظٰاهِرٍ مِنَ
الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ
وَمَنْ يُضْلِلِ ٱللّٰهُ فَمٰا لَهُ مِنْ هٰادٍ.
٣٤ ● لَهُمْ عَذٰابٌ فِي الْحَيٰوةِ الدُّنْيا وَلَعَذٰابُ الآخِرَةِ أَشَقُّ وَمٰا لَهُمْ
مِنَ ٱللّٰهِ مِنْ وٰاقٍ.
٣٥ ● مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهٰارُ أُكُلُهٰا
دٰائِمٌ وَظِلُّهٰا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكٰافِرِينَ النّٰارُ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ عود الى قول الكفار «لولا أُنزل عليه آية من ربه» وإنما ارادوا به أنه لو أُنزل على النبي ﷺ آية من ربه لاهتدوا به واستجابوا له وهم لا يعدون القرآن النازل اليه آية.

والدليل على إرادتهم هذا المعنى قوله بعده: «قل إن الله يضل من يشاء» الخ؛ وقوله بعد: «ولو أن قرآناً سيرت به الجبال ـ الى قوله ـ بل لله الأمر جميعاً» وقوله بعد: «وصدوا عن السبيل» الى آخر الآية.

فأجاب تعالى عن قولهم بقوله آمراً نبيه أن يلقيه اليهم: «قل إن الله يضل من يشاء ويهدي اليه من أناب» فأفاد أن الأمر ليس الى الآية حتى يهتدوا بنزولها ويضلوا بعدم نزولها بل أمر الإضلال والهداية الى الله سبحانه يضل من يشاء ويهدي من يشاء.

ولما لم يؤمن أن يتوهموا منه أن الأمر يدور مدار مشية جزافية غير منتظمة أشار الى دفعه بتبديل قولنا: ويهدي اليه من يشاء من قوله: «ويهدي اليه من أناب» فبين أن الأمر الى مشية الله تعالى جارية على سنة دائمة ونظام متقن مستمر وذلك أنه تعالى يشاء هداية من أناب ورجع اليه ويضل من أعرض ولم ينب فمن تلبس بصفة الإنابة والرجوع الى الحق ولم يتقيد بأغلال الأهواء هداه الله بهذه الدعوة الحقة ومن كان دون ذلك ضل عن الطريق وإن كان مستقيماً ولم تنفعه الآيات وإن كانت معجزة وما تغن الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون.

ومن هنا يظهر أن قوله: «إن الله يضل» الخ؛ على تقدير: إن الله يضل بمشيته من لم ينب اليه ويهدي اليه بمشيته من أناب اليه.

ويظهر أيضاً أن ضمير «إليه» في «يهدي إليه» راجع اليه تعالى وأن ما ذكره بعضهم أنه

راجع الى القرآن. وآخرون أنه راجع الى النبي ﷺ غير وجيه.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ الاطمئنان السكون والاستقرار والاطمئنان الى الشيء السكون اليه.

وظاهر السياق أن صدر الآية بيان لقوله في ذيل الآية السابقة: «من أناب» فالإيمان واطمئنان القلب بذكر الله هو الإنابة، وذلك من العبد تهيؤ واستعداد يستعقب عطية الهداية الإلهية كما أن الفسق والزيغ في باب الضلال تهيؤ واستعداد يستعقب الإضلال من الله كما قال: ﴿**وما يضل به الفاسقين**﴾ (البقرة / ٢٦)؛ وقال: ﴿**فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين**﴾ (الصف / ٥).

وليس الإيمان بالله تعالى مثلاً مجرد إدراك أنه حق فإن مجرد الإدراك ربما يجامع الإستكبار والجحود كما قال تعالى: ﴿**وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم**﴾ (النمل / ١٤) مع أن الإيمان لا يجامع الجحود فليس الايمان بشيء مجرد إدراك أنه حق مثلاً بل مطاوعة وقبول خاصة من النفس بالنسبة الى ما أدركته يوجب تسليمها له ولما يقتضيه من الآثار وآيته مطاوعة سائر القوى والجوارح وقبولها له كما طاوعته النفس وقبلته فترى المعتاد ببعض الأعمال المذمومة ربما يدرك وجه القبح أو المساءة فيه غير أنه لا يكف عنه لأن نفسه لا تؤمن به ولا تستسلم له وربما طاوعته وسلمت له بعدما أدركته وكفت عنه عند ذلك بلا مهل وهو الإيمان.

وهذا هو الذي يظهر من قوله تعالى: ﴿**فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء**﴾ (الأنعام / ١٢٥) فالهداية من الله سبحانه تستدعي من قلب العبد أو صدره وبالآخرة من نفسه أمراً نسبته اليه نسبة القبول والمطاوعة الى الأمر المقبول المطاوع، وقد عبر عنه في آية الأنعام بشرح الصدر وتوسعته، وفي الآية المبحوث عنها بالإيمان واطمئنان القلب وهو أن يرى الإنسان نفسه في أمن من قبوله ومطاوعته ويسكن قلبه اليه ويستقر هو في قلبه من غير أن يضطرب منه أو

ينقلع عنه.

ومن ذلك يظهر أن قوله: «وتطمئن قلوبهم بذكر الله» عطف تفسيري على قوله: «آمنوا» فالايمان بالله يلازم اطمئنان القلب بذكر الله تعالى.

ولا ينافي ذلك ما في قوله تعالى: ﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم﴾ (الأنفال / ٢) فإن الوجل المذكور فيه حالة قلبية متقدمة على الاطمئنان المذكور في الآية المبحوث عنها كما يرشد اليه قوله تعالى: ﴿الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله ذلك هدى الله يهدي به من يشاء﴾ (الزمر / ٢٣) وذلك أن النعمة هي النازلة من عنده سبحانه وأما النقمة أياً ما كانت فهي بالحقيقة امساك منه عن إفاضة النعمة وإنزال الرحمة وليست فعلاً ثبوتياً صادراً منه تعالى على ما يفيده قوله: ﴿ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده﴾ (فاطر / ٢).

وإذا كان الخوف والخشية انما هو من شر متوقع ولا شر عنده سبحانه فحقيقة الخوف من الله هي خوف الانسان من أعماله السيئة التي توجب إمساك الرحمة وانقطاع الخير المفاض من عنده، والنفس الانسانية إذا قرعت بذكر الله سبحانه التفتت أولاً الى ما أحاطت به من سمات القصور والتقصير فأخذتها القشعريرة في الجلد والوجل في القلب ثم التفتت ثانياً الى ربه الذي هو غاية طلبة فطرته فسكنت اليه واطمأنت بذكره.

وقال في مجمع البيان: وقد وصف الله المؤمن ههنا بأنه يطمئن قلبه الى ذكر الله، ووصفه في موضع آخر بأنه إذا ذكر الله وجل قلبه لأن المراد بالأول أنه يذكر ثوابه وإنعامه والآءه التي لا تحصى وأياديه التي لا تجازي فيسكن اليه، وبالثاني أنه يذكر عقابه وانتقامه فيخافه ويوجل قلبه. انتهى، وهذا الوجه أوفق بتفسير من فسر الذكر في الآية بالقرآن الكريم وقد سماه الله تعالى ذكراً في مواضع كثيرة من كلامه كقوله: ﴿وهذا ذكر مبارك﴾ (الأنبياء / ٥٠) وقوله:

﴿إنا نحن نزلنا الذكر﴾ (الحجر / ٩) وغير ذلك.

لكن الظاهر أن يكون المراد بالذكر أعم من الذكر اللفظي وأعني به مطلق انتقال الذهن والخطور بالبال سواء كان بمشاهدة آية أو العثور على حجة أو استماع كلمة، ومن الشاهد عليه قوله بعده: «ألا بذكر الله تطمئن القلوب» فإنه كضرب القاعدة يشمل كل ذكر سواء كان لفظياً أو غيره، وسواء كان قرآناً أو غيره.

وقوله: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ فيه تنبيه للناس أن يتوجهوا اليه ويريحوا قلوبهم بذكره فإنه لاهم للإنسان في حياته إلّا الفوز بالسعادة والنعمة ولا خوف له إلّا من أن تغتاله الشقوة والنقمة والله سبحانه هو السبب الوحيد الذي بيده زمام الخير واليه يرجع الأمر كله. وهو القاهر فوق عباده والفعال لما يريد وهو ولي عباده المؤمنين به اللآجئين اليه فذكره للنفس الأسيرة بيد الحوادث الطالبة لركن شديد يضمن له السعادة. المتحيرة في أمرها وهي لا تعلم أين تريد ولا أنى يراد بها؟ كوصف الترياق للسليم تنبسط به روحه وتستريح منه نفسه، والركون اليه والاعتماد عليه والاتصال به كتناول ذاك السليم لذلك الترياق وهو يجد من نفسه نشاط الصحة والعافية آنا بعد آن.

فكل قلب ـ على ما يفيده الجمع المحلى باللام من العموم ـ يطمئن بذكر الله ويسكن به ما فيه من القلق والاضطراب نعم إنما ذلك في القلب الذي يستحق أن يسمى قلباً وهو القلب الباقي على بصيرته ورشده، وأما المنحرف عن أصله الذي لا يبصر ولا يفقه فهو مصروف عن الذكر محروم عن الطمأنينة والسكون قال تعالى: ﴿فإنها لا تعمي الابصار ولكن تعمي القلوب التي في الصدور﴾ (الحج / ٤٦)، وقال: ﴿لهم قلوب لا يفقهون بها﴾ (الأعراف / ١٧٩) وقال ﴿نسوا الله فنسيهم﴾ (التوبة / ٦٧).

وفي لفظ الآية ما يدل على الحصر حيث قدم متعلق الفعل أعني قوله: «بذكر الله» عليه فيفيد أن القلوب لا تطمئن بشيء غير ذكر الله سبحانه. وما قدمناه من الايضاح ينور هذا

الحصر إذ لا هم لقلب الإنسان وهو نفسه المدركة إلّا نيل سعادته والأمن من شقائه وهو في ذلك متعلق بذيل الأسباب. وما من سبب إلّا وهو غالب في جهة ومغلوب من اخرى إلّا الله سبحانه فهو الغالب غير المغلوب الغني ذو الرحمة فبذكره أي به سبحانه وحده تطمئن القلوب ولا يطمئن القلب الى شيء غيره إلّا غفلة عن حقيقة حاله ولو ذكر بها أخذته الرعدة والقلق.

ومما قيل في الآية الكريمة أعني قوله: «الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله» الخ: أنها استئناف، وقوله: «الذين آمنوا» مبتدء خبره قوله في الآية التالية: «طوبى لهم وحسن مآب» وقوله: «الذين آمنوا وعملوا الصالحات» بدل من المبتدء وقوله: «ألا بذكر الله تطمئن القلوب» اعتراض بين المبتدء وخبره، وهو تكلف بعيد من السياق.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ﴾

طوبى على وزن فعلى بضم الفاء مؤنث أطيب فهي صفة لمحذوف وهو ـ على ما يستفاد من السياق ـ الحياة أو المعيشة وذلك أن النعمة كائنة ما كانت إنما تغتبط وتهنأ إذا طابت للإنسان ولا تطيب إلّا إذا اطمئن القلب اليه وسكن ولم يضطرب ولا يوجد ذلك إلّا لمن آمن بالله وعمل عملاً صالحاً فهو الذي يطمئن منه القلب ويطيب له العيش فإنه في أمن من الشر والخسران وسلام مما يستقبله ويدركه وقد أوى الى ركن لا ينهدم واستقر في ولاية الله لا يوجه اليه ربه إلّا ما فيه سعادته إن اعطي شيئاً فهو خير له وإن منع فهو خير له.

وقد قال في وصف طيب هذه الحياة: ﴿من عمل صالحاً من ذكر وانثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾ (النحل / ٩٧) وقال في صفة من لم يرزق اطمئنان القلب بذكر الله: ﴿ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى﴾ (طه / ١٢٤). ولعل وصف الحياة أو المعيشة في الآية التي نحن فيها بزيادة الطيب تلميحاً الى أنها نعمة لا تخلو من طيب على أي حال إلّا أنها فيمن اطمأن قلبه

بذكر الله أكثر طيباً لخلوصها من شوائب المنغصات.

فقوله: ﴿طُوبىٰ لَهُمْ﴾ في تقدير لهم حياة أو معيشة طوبى، فطوبى مبتدء و «لهم» خبره وإنما قدم المبتدء المنكر على الظرف لأن الكلام واقع موقع التهنئة وفي مثله يقدم ما به التهنئة استعجالاً بذكر ما يسر السامع ذكره نظير قولهم في البشارة: بشرى لك.

وبالجملة في الآية تهنئة الذين آمنوا وعملوا الصالحات ـ وهم الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله اطمئناناً مستمراً ـ بأطيب الحياة أو العيش وحسن المرجع، وبذلك يظهر اتصالها بما قبلها فإن طيب العيش من آثار اطمئنان القلب كما تقدم.

قوله تعالى: ﴿كَذٰلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ﴾ الى آخر الآية؛ متاب مصدر ميمي للتوبة وهي الرجوع، والإشارة بقوله: «كذلك» الى ما ذكره تعالى من سننه الجارية من دعوة الامم الى دين التوحيد ثم إضلال من يشاء وهداية من يشاء على وفق نظام الرجوع الى الله والإيمان به وسكون القلب بذكره وعدم الرجوع اليه.

والمعنى: وأرسلناك في امة قد خلت من قبلها امم إرسالاً يماثل هذه السنة الجارية ويجري في أمره على وفق هذا النظام لتتلو عليهم الذي أوحينا اليك وتبلغهم ما يتضمنه هذا الكتاب وهم يكفرون، بالرحمان وإنما قيل: بالرحمان، دون أن يقال «بنا» على ما يقتضيه ظاهر السياق إيماء الى أنهم في ردهم هذا الوحي الذي يتلوه النبي ﷺ عليهم وهو القرآن وعدم اعتنائهم بأمره حيث يقولون مع نزوله «لولا أُنزل عليه آية من ربه» يكفرون برحمة إلهية عامة تضمن لهم سعادة دنياهم وأُخراهم لو أخذوه وعملوا به.

ثم أمر تعالى: أن يصرح لهم القول في التوحيد فقال «قل هو ربي لا إله إلّا هو عليه توكلت واليه متاب» أي هو وحده ربي من غير شريك كما تقولون ولربوبيته لي وحده أتخذه القائم على جميع أُموري وبها، وأرجع اليه في حوائجي وبذلك يظهر أن قوله: «عليه توكلت واليه متاب» من آثار الربوبية المتفرعة عليها فإن الرب هو المالك المدبر فمحصل المعنى هو وكيلي

واليه أرجع .

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتىٰ بَلْ لِلّٰهِ الأَمْرُ جَمِيعاً﴾ المراد بتسيير الجبال قلعها من اصولها وإذهابها من مكان الى مكان وبتقطيع الأرض شقها وجعلها قطعة قطعة . وبتكليم الموتى إحياؤهم لاستخبارهم عما جرى عليهم بعد الموت ليستدل اعلى حقية الدار الآخرة فإن هذا هو الذي كانوا يقترحونه .

فهذه امور عظيمة خارقة للعادة فرضت آثاراً لقرآن فرضه الله سبحانه بقوله : «ولو أن قرآنا» الخ ؛ وجزاء لو محذوف لدلالة الكلام عليه فإن الكلام معقب بقوله : «بل لله الأمر جميعاً» والآيات ـ كما عرفت ـ مسوقة لبيان أن أمر الهداية ليس براجع الى الآية التي يقترحونها بقوله :م «لولا أُنزل عليه آية» بل الأمر الى الله يضل من يشاء كما أضلهم ويهدي اليه من أناب .

وعلى هذا يجري سياق الآيات كقوله تعالى بعد : ﴿ بل زين للذين كفروا مكرهم وصدوا عن السبيل ومن يضلل الله فما له من هاد ﴾ ، وقوله : ﴿ وكذلك أنزلناه حكماً عربياً ولئن اتبعت أهواءهم ﴾ الآية ؛ وقوله : ﴿ وما كان لرسول أن يأتي بآية إلّا بإذن الله ﴾ الآية ؛ الى غير ذلك ، وعلى مثله جرى سياق الآيات السابقة .

فجزاء لو المحذوف هو نحو من قولنا : ما كان لهم أن يهتدوا به إلّا أن يشاء الله والمعنى ولو فرض أن قرآناً من شأنه أنه تسير به الجبال أو تقطع به الأرض أو يحيا به الموتى فتكلم ما كان لهم أن يهتدوا به إلّا أن يشاء الله بل الأمر كله لله ليس شيء منه لغيره حتى يتوهم متوهم أنه لو أُنزلت آية عظيمة هائلة مدهشة أمكنها أن تهديهم لا بل الأمر لله جميعاً والهداية راجعة الى مشيته .

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَايْئَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللّٰهُ لَهَدَى النَّاسَ

جَمِيعاً ﴾ تفريع على سابقه .

ذكر بعضهم أن اليأس بمعنى العلم وهي لغة هوازن وقيل لغة حي من النخع وأنشدوا على ذلك قول سحيم بن وثيل الرباحي :

أقول لهم بالشعب إذ يأسرونني ألم تيأسوا أني ابن فارس زهدم

وقول رباح بن عدي :

ألم ييأس الأقوام أنـي أنـا ابنـه وإن كنت عن أرض العشيرة نائيا

ومحصل التفريع على هذا أنه إذا كانت الأسباب لا تملك من هدايتهم شيئاً حتى قرآن سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى ، وأن الامر لله جميعاً فمن الواجب أن يعلم الذين آمنوا أن الله لم يشأ هداية الذين كفروا ولو يشاء الله لهدى الناس جميعاً الذين آمنوا والذين كفروا لكنه لم يهد الذين كفروا فلم يهتدوا ولن يهتدوا .

وذكر بعضهم أن اليأس بمعناه المعروف وهو القنوط غير أن قوله : « أفلم ييأس » مضمن معنى العلم والمراد بيان لزوم علمهم بأن الله لم يشأ هدايتهم ولو شاء ذلك لهدى الناس جميعاً ولزوم قنوطهم عن اهتدائهم وإيمانهم .

فتقدير الكلام بحسب الحقيقة : أفلم يعلم الذين آمنوا أن الله لم يشأ هدايتهم ولو يشاء لهدى الناس جميعاً أو لم ييأسوا من اهتدائهم وايمانهم ؟ ثم ضمن اليأس معنى العلم ونسب اليه من متعلق العلم الجملة الشرطية فقط أعني قوله : « لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً » إيجازاً وإيثاراً للاختصار .

وذكر بعضهم : أن قوله : « أفلم ييأس » على ظاهر معناه من غير تضمين وقوله : « أن لو يشاء الله » الخ : متعلق بقوله : « آمنوا » بتقدير الباء ومتعلق « ييأس » محذوف وتقدير الكلام أفلم ييأس الذين آمنوا بأن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً من إيمانهم وذلك أن الذين آمنوا يرون أن الأمر لله جميعاً ويؤمنون بأنه تعالى لو يشاء لهدى الناس جميعاً ولو لم يشاء لم يهد فإذ لم

يهد ولم يؤمنوا فليعلموا أنه لم يشأ وليس في مقدرة سبب من الأسباب أن يهديهم ويوفقهم للإيمان فلييأسوا من إيمانهم.

وهذه وجوه ثلاثة لعل أعدلها أوسطها والآية على أي حال لا تخلو من إشارة الى أن المؤمنين كانوا يودون أن يؤمن الكفار ولعلهم لمودتهم ذلك لما سمعوا قول الكفار «لولا أُنزل عليه آية من ربه» طمعوا في إيمانهم ورجوا منهم الاهتداء إن أنزل الله عليهم آية أُخرى غير القرآن فسألوا النبي ﷺ أن يجيبهم على ذلك فأيأسهم الله من إيمانهم في هذه الآيات، وفي آيات أُخرى من كلامه مكية ومدنية كقوله في سورة يس وهي مكية: ﴿وسواء عليهم ءأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون﴾ (آية ١٠)، وقوله في سورة البقرة وهي مدنية: ﴿إن الذين كفروا سواء عليهم ءأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون﴾ (آية ٦).

قوله تعالى: ﴿وَلاَ يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِنْ دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لاَ يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ سياق الآيات يشهد أن المراد بقوله: «بما صنعوا» كفرهم بالرحمان قبال الدعوة الحقة، والقارعة هي المصيبة تقرع الإنسان قرعاً كأنها تؤذنه بأشد من نفسها وفي الآية تهديد ووعيد قطعي للذين كفروا بعذاب غير مردود وذكر علائم وأشراط له تقرعهم مرة بعد مرة حتى يأتيهم العذاب الموعود.

والمعنى: ولا يزال هؤلاء الذين كفروا بدعوتك الحقة تصيبهم بما صنعوا من الكفر بالرحمان مصيبة قارعة أو تحل تلك المصيبة القارعة قريباً من دارهم فلا يزالون كذلك حتى يأتي ما وعدهم الله من العذاب لأن الله لا يخلف ميعاده ولا يبدل قوله.

والتأمل في كون السورة مكية على ما يشهد به مضامين آياتها ثم في الحوادث الواقعة بعد البعثة وقبل الهجرة وبعدها الى فتح مكة يعطي أن المراد بالذين كفروا هم كفار العرب من أهل مكة وغيرهم الذين ردوا أول الدعوة وبالغوا في الجحود والعناد والحوا على الفتنة

والفساد.

والمراد بالذين تصيبهم القارعة من كان في خارج الحرم منهم تصيبهم قوارع الحروب وشن الغارات، وبالذين تحل القارعة قريباً من دارهم أهل الحرم من قريش تقع حوادث السوء قريباً من دارهم فتصيبهم معرتها وتنالهم وحشتها وهمها وسائر آثارها السيئة، والمراد بما وعدهم عذاب السيف الذي أخذهم في غزوة بدر وغيرها.

واعلم أن هذا العذاب الموعود للذين كفروا في هذه الآيات غير العذاب الموعود المتقدم في سورة يونس في قوله تعالى: ﴿ **ولكل أمة رسول فإذا جاء رسولهم قضي بينهم بالقسط وهم لا يظلمون** ـ الى قوله ثانياً ـ **وقضي بينهم بالقسط وهم لا يظلمون** ﴾ (يونس / ٤٧ ـ ٥٤) فإن الذي في سورة يونس وعيد عام للامة، والذي في هذه الآيات وعيد خاص بالذين كفروا في أول الدعوة النبوية من قريش وغيرهم، وقد تقدم في قوله: ﴿ **إن الذين كفروا سواء عليهم ءأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون** ﴾ (البقرة / ٦) في الجزء الأول من الكتاب أن المراد بقوله: «الذين كفروا» في القرآن إذا أطلق إطلاقاً المعاندون من مشركي العرب في أول الدعوة كما أن المراد بالذين آمنوا إذا اطلق كذلك السابقون الى الايمان في أول الدعوة.

قوله تعالى: ﴿ **أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ** ﴾ القائم على شيء هو المهيمن المتسلط عليه والقائم بشيء من الأمر هو الذي يدبره نوعاً من التدبير والله سبحانه هو القائم على كل نفس بما كسبت أما قيامه عليها فلأنه محيط بذاتها قاهر عليها شاهد لها، وأما قيامه بما كسبت فلأنه يدبر أمر أعمالها فيحولها من مرتبة الحركة والسكون الى أعمال محفوظة عليها في صحائف الأعمال ثم يحولها الى المثوبات والعقوبات في الدنيا والآخرة من قرب وبعد وهدى وضلال ونعمة ونقمة وجنة ونار.

والآية متفرعة على ما تقدمها أي إذا كان الله سبحانه يهدي من يشاء فيجازيه بأحسن الثواب ويضل من يشاء فيجازيه بأشد العقاب وله الأمر جميعاً فهو قائم على كل نفس بما

كسبت ومهيمن مدبر لنظام الأعمال فهل يعدله غيره حتى يشاركه في أُلوهيته ؟.

ومن ذلك يظهر أن الخبر في قوله: «أفمن هو قائم» الخ؛ محذوف يدل عليه قوله: «وجعلوا لله شركاء» ومن سخيف القول ما نسب الى الضحاك أن المراد بقوله: «أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت» الملائكة لكونهم موكلين على الاعمال والمعنى أفيكون الملائكة الموكلون على الأعمال بأمره شركاء له سبحانه؟ وهو معنى بعيد من السياق غايته.

قوله تعالى: ﴿قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لاٰ يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بِظٰاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ﴾ لما ذكر سبحانه قوله: «وجعلوا لله شركاء» عاد اليهم ببيان يبطل به قولهم ذلك مأخوذ من البيان السابق بوجه.

فأمر نبيه بأن يحاجهم بنوع من الحجاج عجيب في بابه فقال «قل سموهم» أي صفوهم فإن صفات الأشياء هي التي تتعين بها شؤنها وآثارها فلو كانت هذه الأصنام شركاء لله شفعاء عنده وجب أن يكون لها من الصفات ما يسوي لها الطريق لهذا الشأن كما يقال فيه تعالى إنه حي عليم قدير خالق مالك مدبر فهو رب كل شيء لكن الأصنام إذا ذكرت فقيل: هبل أو اللات أو العزى لم يوجد لها من الصفات ما يظهر به أنها شريكة لله شفيعة عنده.

ثم قال ﴿أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لاٰ يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ﴾ وأم منقطعة أي بل أتنبؤنه بكذا والمعنى أن اتخاذكم الأصنام شركاء له إنباء له في الحقيقة بما لا يعلم فلو كان له شريك في الأرض لعلم به لأن الشريك في التدبر يمتنع أن يخفى تأثيره في التدبير على شريكه والله سبحانه يدبر الأمر كله ولا يرى لغيره أثراً في ذلك لا موافقاً ولا مخالفاً. والدليل على أنه لا يرى لنفسه شريكاً في الأمر أنه تعالى هو القائم على كل نفس بما كسبت. وبعبارة أُخرى أن له الخلق والأمر وهو على كل شيء شهيد بالبرهان الذي لا سبيل للشك اليه. والآية بالجملة كقوله في موضع آخر: ﴿قل أتنبؤن الله بما لا يعلم في السماوات ولا في الأرض﴾ (يونس / ١٨).

ثم قال ﴿أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ﴾ أي بل أتنبؤنه بأن له شركاء بظاهر من القول من غير حقيقة وهذا كقوله: ﴿إن هي إلّا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم﴾ (النجم / ٢٣).

وعن بعضهم أن المراد بظاهر من القول ظاهر كتاب نازل من الله تسمى فيه الأصنام آلهة حقة وحاصل الآية نفي الدليل العقلي والسمعي معاً على الوهيتها وكونها شركاء لله سبحانه وهو بعيد من اللفظ.

ووجه الارتباط بين هذه الحجج الثلاث أنهم في عبادتهم الأصنام وجعلهم لله شركاء مترددون بين محاذير ثلاثة إما أن يقولوا بشركتها من غير حجة إذ ليس لها من الاوصاف ما يعلم به أنها شركاء لله، وإما أن يدعوا أن لها أوصافاً كذلك هم يعلمونها ولا يعلم بها الله سبحانه، وإما أن يكونوا متظاهرين بالقول بشركتها من غير حقيقة وهم يغرون الله بذلك تعالى عن ذلك علواً كبيراً.

قال الزمخشري في الكشاف: وهذا الاحتجاج وأساليبه العجيبة التي ورد عليها مناد على نفسه بلسان طلق ذلق أنه ليس من كلام البشر لمن عرف وأنصف على نفسه انتهى كلامه.

قوله تعالى: ﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ إضراب عن الحجج المذكورة ولوازمها والمعنى دع هذه الحجج فإنهم لا يجعلون له شركاء لشيء من هذه الوجوه بل مكر زينه لهم الشيطان وصدهم بذلك عن سبيل الله تعالى وذلك أنهم على علم بأنه لا حجة على شركتها وأن مجرد الدعوى لا ينفعهم لكنهم يريدون بترويج القول بالوهيتها وتوجيه قلوب العامة اليها عرض الدنيا وزينتها، ودعوتك الى سبيل الله مانعة دون ذلك فهم في تصلبهم في عبادتها ودعوة الناس اليها والحث على الأخذ بها يمكرون بك من وجه وبالناس من وجه آخر وقد زين لهم هذا المكر وهو السبب في جعلهم إياها شركاء لا غير ذلك من حجة أو غيرها وصدوا بذلك عن السبيل.

فهم زين لهم المكر وصدوا به عن السبيل والذي زين لهم وصدهم هو الشيطان بإغوائهم، واضلوا والذي اضلهم هو الله سبحانه بإمساك نعمة الهدى منهم ومن يضلل الله فما له من هاد.

قوله تعالى: ﴿لَهُمْ عَذابٌ فِي الْحَيٰوةِ الدُّنْيا وَلَعَذابُ الآخِرَةِ أَشَقُّ وَما لَهُمْ مِنَ اللّٰهِ مِنْ واقٍ﴾ أشق أفعل من المشقة وواق اسم فاعل من الوقاية بمعنى الحفظ.

وفي الآية إيجاز القول فيما وعد الله الذين كفروا من العذاب في الآيات السابقة، وفي قوله: «وما لهم من الله من واق» نفي الشفاعة وتأثيرها في حقهم أصلاً، ومعنى الآية ظاهر.

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهارُ أُكُلُها دائِمٌ وَظِلُّها تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكافِرِينَ النّارُ﴾ المثل هو الوصف يمثل الشيء.

وفي قوله: «مثل الجنة» الخ: بيان ما خص الله به المتقين من الوعد الجميل مقابلة لما أوعد به الذين كفروا وليكون تمهيداً لما يختم به القول من الإشارة الى محصل سعي الفريقين في مسيرهم الى ربهم ورجوعهم اليه، وقد قابل الذين كفروا بالمتقين إشارة الى أن الذين ينالون هذه العاقبة الحسنى هم الذين آمنوا وعملوا الصالحات دون المؤمنين من غير عمل صالح فإنهم مؤمنون بالله كافرون بآياته[1].

٣٦ ۞ وَالَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَفْرَحُونَ بِما أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الأَحْزابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّما أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللّٰهَ وَلا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ.

---

١. الرعد ٢٧ ـ ٣٥: بحث روائي في اطمئنان القلوب بذكر الله، شجرة طوبى: ان طوبى شجرة اصلها في دار علي عليه السلام في الجنة.

٣٧ ● وَكَذٰلِكَ أَنْزَلْنٰاهُ حُكْماً عَرَبِيّاً وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوٰاءَهُمْ بَعْدَ مٰا
جٰاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مٰا لَكَ مِنَ ٱللّٰهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاٰ وٰاقٍ.
٣٨ ● وَلَقَدْ أَرْسَلْنٰا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنٰا لَهُمْ أَزْوٰاجاً وَذُرِّيَّةً وَمٰا
كٰانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاّ بِإِذْنِ ٱللّٰهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتٰابٌ.
٣٩ ● يَمْحُو ٱللّٰهُ مٰا يَشٰاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتٰابِ.
٤٠ ● وإِنْ مٰا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمٰا عَلَيْكَ
الْبَلاٰغُ وَعَلَيْنَا الْحِسٰابُ.
٤١ ● أَوَلَمْ يَرَوْا أَنّٰا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهٰا مِنْ أَطْرٰافِهٰا وَٱللّٰهُ يَحْكُمُ
لاٰ مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسٰابِ.
٤٢ ● وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلّٰهِ الْمَكْرُ جَمِيعاً يَعْلَمُ مٰا
تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفّٰارُ لِمَنْ عُقْبَى الدّٰارِ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنٰاهُمُ الْكِتٰابَ يَفْرَحُونَ بِمٰا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ الى آخر الآية: الظاهر أن المراد بالذين أُوتوا الكتاب اليهود والنصارى أو هم والمجوس فإن هذا هو المعهود من إطلاقات القرآن والسورة مكية وقد أثبت التاريخ أن اليهود ما كانوا يعاندون النبوة العربية في أوائل البعثة وقبلها ذاك العناد الذي ساقتهم اليه حوادث ما بعد الهجرة وقد دخل جمع منهم في الإسلام أوائل الهجرة وشهدوا على نبوة النبي ﷺ وكونه مبشراً به في كتبهم كما قال تعالى: ﴿وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم﴾ (الأحقاف / ١٠).

وأنه كان من النصارى يومئذ قوم على الحق من غير أن يعاندوا دعوة الإسلام كقوم من نصارى الحبشة على ما نقل من قصة هجرة الحبشة وجمع من غيرهم. وقد قال تعالى في أمثالهم: ﴿الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون﴾ (القصص / ٥٢) وقال: ﴿ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون﴾ (الأعراف / ١٥٩) وكذا كانت المجوس ينتظرون الفرج بظهور منج ينشر الحق والعدل وكانوا لا يعاندون الحق كما يعانده المشركون.

فالظاهر أن يكونوا هم المعنيّون بالآية وخاصة المحقون من النصارى وهم القائلون بكون المسيح بشراً رسولاً كالنجاشي وأصحابه، ويؤيده ما في ذيل الآية من قوله: «قل إنما أُمرت أن أعبد الله ولا أُشرك به اليه أدعو» فإنه أنسب أن يخاطب به النصارى.

وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ﴾ اللام للعهد أي ومن أحزاب أهل الكتاب من ينكر بعض ما أُنزل اليك وهو ما دل منه على التوحيد ونفي التثليث وسائر ما يخالف ما عند أهل الكتاب من المعارف والأحكام المحرفة.

وقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ﴾ دليل على أن المراد من البعض الذي ينكرونه ما يرجع الى التوحيد في العبادة أو الطاعة وقد أمره الله أن يخاطبهم بالموافقة عليه بقوله: ﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلّا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله﴾ (آل عمران / ٦٤).

ثم تمم الكلام بقوله: ﴿إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ﴾ أي مرجعي فكان أول الكلام مفصحاً عن بغيته في نفسه ولغيره، وآخره عن سيرته أي أُمرت لأعبد الله وحده في عملي ودعوتي، وعلى ذلك أسير بين الناس فلا أدعو إلّا اليه ولا أرجع في أمر من اموري إلّا اليه فذيل الآية في معنى قوله: ﴿قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين﴾ (يوسف / ١٠٨).

ويمكن أن يكون المراد بقوله: «وإليه مآب» المعاد ويفيد حينئذ فائدة التعليل أي اليه أدعو

وحده لأن مآبي اليه وحده.

قوله تعالى: ﴿وَكَذٰلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْماً عَرَبِيّاً وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللّٰهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ وَاقٍ﴾ الإشارة بقوله: «كذلك» الى الكتاب المذكور في الآية السابقة وهو جنس الكتاب النازل على الأنبياء الماضين كالتوراة والإنجيل.

والمراد بالحكم هو القضاء والعزيمة فإن ذلك هو شأن الكتاب النازل من السماء المشتمل على الشريعة كما قال: ﴿وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه﴾ (البقرة / ٢١٢) فالكتاب حكم إلهي بوجه وحاكم بين الناس بوجه فهذا هو المراد بالحكم دون الحكمة كما قيل.

وقوله: ﴿عَرَبِيّاً﴾ صفة لحكم واشارة الى كون الكتاب بلسان عربي وهو لسانه ﷺ سنة الله التي قد خلت في عباده، قال تعالى: ﴿وما أرسلنا من رسول إلّا بلسان قومه﴾ (إبراهيم / ٤) وهذا ـ كما لا يخفى ـ من الشاهد على أن المراد بالمذكورين في الآية السابقة اليهود والنصارى، وأن هذه الآيات متعرضة لشأنهم كما كانت الآيات السابقة عليها متعرضة لشأن المشركين.

وعلى هذا فالمراد بقوله: «ولئن اتبعت أهواءهم» الخ: النهي عن اتباع أهواء أهل الكتاب، وقد ذكر في القرآن من ذلك شيء كثير، وعمدة ذلك أنهم كانوا يقترحون على النبي ﷺ آية غير القرآن كما كان المشركون يقترحونها، وكانوا يطمعون أن يتبعهم فيما عندهم من الأحكام لإحالتهم النسخ في الأحكام، وهذان الأمران ولا سيما أولهما عمدة ما تتعرض له هذه الآيات.

والمعنى: وكما أنزلنا على الذين أُوتوا الكتاب كتابهم أنزلنا هذا القرآن عليك بلسانك مشتملاً على حكم أوحاكما بين الناس ولئن اتبعت أهواء أهل الكتاب فتمنيت أن ينزل عليك

آية غير القرآن كما يقترحون أو داهنتهم وملت الى اتباع بعض ما عندهم من الأحكام المنسوخة أو المحرفة أخذناك بالعقوبة وليس لك ولي يلي أمرك من دون الله ولا واق يقيك منه فالخطاب للنبي ﷺ وهو المراد به دون الامة كما ذكره بعضهم.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجاً وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ لما نهى النبي ﷺ عن اتباع أهوائهم فيما اقترحوا عليه من إنزال آية غير القرآن ذكّره بحقيقة الحال التي تؤيسه من الطمع في ذلك ويعزم عليه أن يتوكل على الله ويرجع اليه الامور.

وهو أن سنة الله الجارية في الرسل أن يكونوا بشراً جارين على السنة المألوفة بين الناس من غير أن يتعدوها فيملكوا شيئاً مما يختص بالغيب كأن يكونوا ذا قوة غيبية فعالة لما تشاء قديرة على كل ما أرادت أو أُريد منها حتى تأتي بكل آية شاءت إلّا أن يأذن الله له فليس للرسول وهو بشر كسائرهم من الأمر شيء بل لله الأمر جميعاً.

فهو الذي ينزل الآية إن شاء غير أنه سبحانه إنما من الآيات إذا اقتضته الحكمة الإلهية وليست الأوقات مشتركة متساوية في الحكم والمصالح وإلّا لبطلت الحكمة واختل نظام الخليقة بل لكل وقت حكمة تناسبه وحكم يناسبه فلكل وقت آية تخصه.

وهذا هو الذي تشير اليه الآية فقوله: «ولقد أرسلنا من قبلك رسلاً وجعلنا لهم أزواجاً وذرية» إشارة الى السنة الجارية في الرسل من البشر العادية، وقوله: «وما كان لرسول أن يأتي بآية إلّا بإذن الله» إشارة الى حرمانهم من القدرة الغيبية المستقلة بكل ما أرادت إلّا أن يمدهم الإذن الإلهي.

وقوله: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ﴾ أي وقت محدود «كتاب» أي حكم مقضي مكتوب يخصه إشارة الى ما يلوّح اليه استثناء الإذن وسنة الله الجارية فيه، والتقدير فالله سبحانه هو الذي ينزل ما شاء ويأذن فيما شاء لكنه لا ينزل ولا يأذن في كل آية في كل وقت فإن لكل وقت كتاباً كتبه لا

يجري فيه إلّا ما فيه.

ومما تقدم يظهر ان ما ذكره بعضهم ان قوله: «لكل أجل كتاب» من باب القلب وأصله: لكل كتاب أجل أي إن لكل كتاب منزل من عند الله وقتاً مخصوصاً ينزل فيه ويعمل عليه فللتوراة وقت وللإنجيل وقت وللقرآن وقت. وجه لا يعبأ به.

قوله تعالى: ﴿يَمْحُو ٱللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ محو الشيء هو إذهاب رسمه وأثره يقال: محوت الكتاب إذا أذهبت ما فيه من الخطوط والرسوم قال تعالى: ﴿ويمح الله الباطل ويحق الحق بكلماته﴾ (الشورى / ٢٤) أي يذهب بآثار الباطل كما قال: ﴿فأما الزبد فيذهب جفاء﴾ وقال: ﴿وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة﴾ (أسرى / ١٢) أي أذهبنا أثر الإبصار من الليل فالمحو قريب المعنى من النسخ يقال: نسخت الشمس الظل أي ذهبت بأثره ورسمه.

وقد قوبل المحو في الآية بالإثبات وهو إقرار الشيء في مستقره بحيث لا يتحرك ولا يضطرب يقال: أثبت الوتد في الأرض إذا ركزته فيها بحيث لا يتحرك ولا يخرج من مركزه فالمحو هو إزالة الشيء بعد ثبوته برسمه ويكثر استعماله في الكتاب.

ووقوع قوله: «يمحو الله ما يشاء ويثبت» بعد قوله: «لكل أجل كتاب» واتصاله به من جانب وبقوله: «وعنده أُم الكتاب» من جانب ظاهر في أن المراد محو الكتب وإثباتها في الأوقات والآجال فالكتاب الذي أثبته الله في الأجل الأول إن شاء محاه في الأجل الثاني وأثبت كتاباً آخر فلا يزال يمحي كتاب ويثبت كتاب آخر.

وإذا اعتبرنا ما في الكتاب من آية وكل شيء آية صح أن يقال لا يزال يمحو آية ويثبت آية كما يشير اليه قوله: ﴿ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها﴾ (البقرة / ١٠٦)، وقوله: ﴿وإذا بدلنا آية مكان آية﴾ الآية: (النحل / ١٠١).

فقوله: ﴿يَمْحُو ٱللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾ على ما فيه من الإطلاق يفيد فائدة التعليل

لقوله: «لكل أجل كتاب» والمعنى أن لكل وقت كتاباً يخصه فيختلف فاختلاف الكتب باختلاف الأوقات والآجال إنما ظهر من ناحية اختلاف التصرف الإلهي بمشيته لا من جهة اختلافها في أنفسها ومن ذواتها بأن يتعين لكل أجل كتاب في نفسه لا يتغير عن وجهه بل الله سبحانه هو الذي يعين ذلك بتبديل كتاب مكان كتاب ومحو كتاب وإثبات آخر.

وقوله: ﴿وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ أي أصله فإن الام هي الأصل الذي ينشأ منه الشيء ويرجع اليه، وهو دفع للدخل وإبانة الحقيقة الأمر فإن اختلاف حال الكتاب المكتوب لأجل بالمحو والاثبات أي تغير الحكم المكتوب والقول المقضي به حينا بعد حين ربما أوهم أن الأمور والقضايا ليس لها عند الله سبحانه صورة ثابتة وإنما يتبع حكمه العلل والعوامل الموجبة له من خارج كأحكامنا وقضايانا معاشر ذوي الشعور من الخلق أو أن حكمه جزافي لا تعين له في نفسه ولا مؤثر في تعينه من خارج كما ربما يتوهم أرباب العقول البسيطة أن الذي له ملك ـ بكسر اللام ـ مطلق وسلطنة مطلقة له أن يريد ما يشاء ويفعل ما يريد على حرية مطلقة من رعاية أي قيد وشرط وسلوك أي نظام أولا نظام في عمله فلا صورة ثابتة لشيء من أفعاله وقضاياه عنده، وقد قال تعالى: ﴿ما يبدل القول لديّ﴾ (ق / ٢٩)، وقال: ﴿وكل شيء عنده بمقدار﴾ (الرعد / ٨) الى غير ذلك من الآيات.

فدفع هذا الدخل بقوله: «وعنده ام الكتاب» أي أصل جنس الكتاب والأمر الثابت الذي يرجع اليه هذه الكتب التي تمحى وتثبت بحسب الأوقات والآجال ولو كان هو نفسه تقبل المحو والاثبات لكان مثلها لا أصلاً لها ولو لم يكن من أصله كان المحو والاثبات في أفعاله تعالى إما تابعاً لامور خارجة تستوجب ذلك فكان تعالى مقهوراً مغلوباً للعوامل والأسباب الخارجية مثلنا والله يحكم لا معقب لحكمه.

وإما غير تابع لشيء أصلاً وهو الجزاف الذي يختل به نظام الخلقة والتدبير العام الواحد يربط الأشياء بعضها ببعض جلت عنه ساحته. قال تعالى: ﴿وما خلقنا السماوات والأرض

وما بينهما لاعبين ما خلقناهما إلّا بالحق﴾ (الدخان / ٣٩).

فالملخص من مضمون الآية أن لله سبحانه في كل وقت وأجل كتاباً أي حكماً وقضاء وأنه يمحو ما يشاء من هذه الكتب والأحكام والأقضية ويثبت ما يشاء أي يغير القضاء الثابت في وقت فيضع في الوقت الثاني مكانه قضاء آخر لكن عنده بالنسبة الى كل وقت قضاء لا يتغير ولا يقبل المحو والإثبات وهو الأصل الذي يرجع اليه الأقضية الاخر وتنشأ منه فيمحو ويثبت على حسب ما يقتضيه هو.

ويتبين بالآية أولاً: أن حكم المحو والاثبات عام لجميع الحوادث التي تداخله الآجال والأوقات وهو جميع ما في السماوات والأرض وما بينهما، قال تعالى ﴿ما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلّا بالحق وأجل مسمى﴾ (الأحقاف / ٣).

وذلك لإطلاق قوله: «يمحو الله ما يشاء ويثبت» واختصاص المورد بآيات النبوة لا يوجب تخصيص الآية لأن المورد لا يخصص.

قوله تعالى: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ «إما» هو إن الشرطية وما الزائدة للتأكيد والدليل عليه دخول نون التأكيد في الفعل بعده.

وفي الآية إيضاح لما للنبي ﷺ من الوظيفة وهو الاشتغال بأمر الإنذار والتبليغ فحسب فلا ينبغي له أن يتبع أهواءهم في نزول آية عليه كما اقترحوا حتى أنه لا ينبغي له أن ينتظر نتيجة بلاغه أو حلول ما أوعدهم الله من العذاب بهم.

وفي الآية دلالة على أن الحساب الإلهي يجري في الدنيا كما يجري في الآخرة.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ الخ: كلام مسوق للعبرة بعدما قدم اليهم الوعيد بالهلاك، ومنه يعلم أن إتيان الأرض ونقصها من أطرافها كناية عن نقص أهلها بالإماتة والإهلاك فالآية نظيرة قوله: ﴿بل متعنا هؤلاء

وآباءهم حتى طال عليهم العمر أفلا يرون أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها أفهم الغالبون﴾ (الأنبياء / ٤٤).

وقول بعضهم إن المراد به أو لم ير أهل مكة أنا نأتي أرضهم فننقصها من أطرافها بفتح القرى واحدة بعد واحدة للمسلمين فليخافوا أن نفتح بلدتهم وننتقم منهم يدفعه أن السورة مكية وتلك الفتوحات إنما كانت تقع بعد الهجرة. على أن الآيات بوعيدها ناظرة الى هلاكهم بغزوة بدر وغيرها لا الى فتح مكة.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لاٰ مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسٰابِ﴾ يريد به أن الغلبة لله سبحانه فإنه يحكم وليس قبال حكمه أحد يعقبه ليغلبه بالمنع والرد وهو سبحانه يحاسب كل عمل بمجرد وقوعه بلا مهلة حتى يتصرف فيه غيره بالإخلال فقوله: «والله يحكم» الخ: في معنى قوله في ذيل آية سورة الأنبياء المتقدمة: «أفهم الغالبون».

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعاً﴾ الى آخر الآية؛ أي وقد مكر الذين من قبلهم فلم ينفعهم مكرهم ولم يقدروا على صدنا من أن نأتي الأرض فننقصها من أطرافها فالله سبحانه يملك المكر كله ويبطله ويرده الى أهله فليعتبروا.

وقوله: ﴿يَعْلَمُ مٰا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ في مقام التعليل لملكه تعالى كل مكر فإن المكر إنما يتم مع جهل الممكور به وأما إذا علم به فعنده بطلانه.

وقوله: ﴿وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدّارِ﴾ قطع للحجاج بدعوى أن مسألة انتهاء الامور الى عواقبها من الامور الضرورية العينية لا تتخلف عن الوقوع وسيشهدونها شهود عيان فلا حاجة الى الإطالة والإطناب في إعلامهم ذلك فسيعلمون[1].

---

١. الرعد ٣٦ـ٤٢: بحث روائي حول الآية «يمحو الله ما يشاء ويثبت»: أُم الكتاب: علم الله.

٤٣ ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً﴾ الخ: بناء الكلام في السورة على إنكارهم حقية الكتاب وعدم عدهم إياه آية إلهية للرسالة ولذا كانوا يقترحون آية غيره كما حكاه الله تعالى في خلال الآيات مرة بعد مرة وأجاب عنه بما يرد عليهم قولهم فكأنهم لما يئسوا مما اقترحوا أنكروا أصل الرسالة لعدم إذعانهم بما أنزل الله من آية وعدم إجابتهم فيما اقترحوه من آية فكانوا يقولون: «لست مرسلاً».

فلقَّن الله نبيه ﷺ الحجة عليهم لرسالته بقوله: «قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب» وهو حجة قاطعة وليس بكلام خطابي ولا إحالة الى ما لا طريق الى حصول العلم به.

فقوله: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ استشهاد بالله سبحانه وهو ولي أمر الإرسال وإنما هي شهادة تأدية لا شهادة تحمل فقط فإن أمثال قوله تعالى: «إنك لمن المرسلين على صراط مستقيم» من آيات القرآن وكونه آية معجزة من الله ضروري، وكونه قولاً وكلاماً له سبحانه ضروري واشتماله على تصديق الرسالة بدلالة المطابقة المعتمدة على علم ضروري أيضاً ضروري، ولا نعني بشهادة التأدية إلّا ذلك.

ومن فسر شهادته تعالى من المفسرين بأنه تعالى قد أظهر على رسالتي من الأدلة والحجج ما فيه غنى عن شهادة شاهد آخر ثم قال: وتسمية ذلك شهادة مع أنه فعل وهي قول من المجاز حيث إنه يغني غناها بل هو أقوى منها. انتهى. فقد قصد المطلوب من غير طريقه.

وذلك أن الأدلة والحجج الدالة على حقية رسالته ﷺ إما القرآن وهو الآية المعجزة الخالدة، وإما غيره من الخوارق والمعجزات وآيات السورة ـ كما ترى ـ لا تجيب الكفار على ما اقترحوه من هذا القسم الثاني ولا معنى حينئذ للاستشهاد بما لم يجابوا عليه، وأما القرآن فمن البين أن الاستناد اليه من جهة أنه معجزة تصدّق الرسالة بدلالتها عليها أي كلام له تعالى يشهد بالرسالة، وإذا كان كذلك فما معنى العدول عن كونه كلاماً له تعالى يدل على حقية الرسالة أي شهادة لفظية منه تعالى على ذلك بحقيقة معنى الشهادة الى كونه دليلاً فعلياً منه عليها سمي مجازاً بالشهادة؟.

على أن كون فعله تعالى أقوى دلالة على ذلك من قوله ممنوع.

فقد تحصل أن معنى قوله: «الله شهيد بيني وبينكم» أن ما وقع في القرآن من تصديق الرسالة شهادة إلهية بذلك.

وأما جعل الشهادة شهادة تحمل ففيه إفساد المعنى من أصله وأي معنى لإرجاع أمر متنازع فيه الى علم الله واتخاذ ذلك حجة على الخصم ولا سبيل له الى ما في علم الله في أمره؟ أهو كما يقول أو فرية يفتريها على الله؟.

وقوله: ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ أي وكفى بمن عنده علم الكتاب شهيداً بيني وبينكم، وقد ذكر بعضهم أن المراد بالكتاب اللوح المحفوظ ويتعين على هذا أن يكون المراد بالموصول هو الله سبحانه فكأنه قيل: كفى بالله الذي عنده علم الكتاب شهيداً «الخ».

وفيه أولاً أنه خلاف ظاهر العطف، وثانياً أنه من عطف الذات مع صفته الى نفس الذات وهو قبيح غير جائز في الفصيح ولذلك ترى الزمخشري لما نقل في الكشاف هذا القول عن الحسن بقوله: وعن الحسن: «لا والله ما يعني إلّا الله» قال بعده: والمعنى كفى بالذي يستحق العبادة وبالذي لا يعلم علم ما في اللوح إلّا هو شهيداً بيني وبينكم. انتهى. فاحتال الى تصحيحه بتبديل لفظة الجلال «الله» من «الذي يستحق العبادة» وتبديل «من» من «الذي»

ليعود المعطوف والمعطوف عليه وصفين فيكون في معنى عطف أحد وصفي الذات على الآخر وإناطة الحكم بالذات بما له من الوصفين كدخالتهما فيه فافهم ذلك.

لكن من المعلوم أن تبديل لفظ من لفظ يستقيم إفادته لمعنى لا يوجب استقامة ذلك في اللفظ الأول وإلّا لبطلت أحكام الألفاظ.

على أن التأمل فيما تقدم في معنى هذه الشهادة وأن المراد به تصديق القرآن لرسالة النبي ﷺ يعطي أن وضع لفظة الجلالة في هذا الموضع لا للتلميح الى معناه الوصفي بل لإسناده الشهادة الى الذات المقدسة المستجمعة لجميع صفات الكمال لأن شهادته أكبر الشهادات قال سبحانه «قل أي شيء أكبر شهادة قل الله شهيد بيني وبينكم».

وذكر آخرون: أن المراد بالكتاب التوراة والإنجيل أو خصوص التوراة والمعنى وكفى بعلماء الكتاب شهداء بيني وبينكم لأنهم يعلمون بما بشر الله به الأنبياء فيَّ ويقرؤن نعتي في الكتاب.

وفيه أن الذي أُخذ في الآية هو الشهادة دون مجرد العلم، والسورة مكية ولم يؤمن أحد من علماء أهل الكتاب يومئذ كما قيل ولا شهد للرسالة بشيء فلا معنى للاحتجاج بالاستناد الى شهادة لم يقم بها أحد بعد.

وقيل: المراد القوم الذين أسلموا من علماء أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وتميم الداري والجارود وسلمان الفارسي، وقيل هو عبدالله بن سلام، ورد بأن السورة مكية وهؤلاء إنما أسلموا بالمدينة.

وللقائلين بأنه عبدالله بن سلام جهد بليغ في الدفاع عنه فقال بعضهم: إن مكية السورة لا تنافي كون بعض آياته مدنية فلم لا يجوز أن تكون هذه الآية مدنية مع كون السورة مكية.

وفيه أولاً: أن مجرد الجواز لا يثبت ذلك ما لم يكن هناك نقل صحيح قابل للتعويل عليه. على أن الجمهور نصوا على أنها مكية كما نقل عن البحر.

وثانياً: أن ذلك إنما هو في بعض الآيات الموضوعة في خلال آيات السور النازلة وأما في مثل هذه الآية التي هي ختام ناظرة الى ما افتتحت به السورة فلا إذ لا معنى لإرجاء بعض الكلام المرتبط الأجزاء الى أمد غير محدود.

وقال بعضهم: إن كون الآية مكية لا ينافي أن يكون الكلام إخباراً عما سيشهد به.

وفيه أن ذلك يوجب رداءة الحجة وسقوطها فأي معنى لأن يحتج على قوم يقولون «لست مرسلاً» فيقال: صدّقوا به اليوم لأن بعض علماء أهل الكتاب سوف يشهدون به.

وقال بعضهم: إن هذه الشهادة شهادة تحمّل لا يستلزم إيمان الشهيد حين الشهادة فيجوز أن تكون الآية مكية والمراد بها عبدالله بن سلام أو غيره من علماء اليهود والنصارى وإن لم يؤمنوا حين نزول الآية.

وفيه أن المعنى حينئذ يعود الى الاحتجاج بعلم علماء أهل الكتاب وإن لم يعترفوا به ولم يؤمنوا، ولو كان كذلك لكان المتعين أن يستشهد بعلم الذين كفروا أنفسهم فإن الحجة كانت قد تمت عليهم بكون القرآن كلام الله ولا يكون ذلك إلّا عن علمهم به فما الموجب للعدول عنهم الى غيرهم وهم مشتركون في الكفر بالرسالة ونفيها. على أنه تقدم أن الشهادة في الآية ليست إلّا شهادة أداء دون التحمل.

وقال بعضهم: ـ وهو ابن تيمية وقد أغرب ـ إن الآية مدنية بالاتفاق. وهو كما ترى.

وذكر بعضهم: أن المراد بالكتاب القرآن الكريم، والمعنى أن من تحمّل هذا الكتاب وتحقق بعلمه واختص به فإنه يشهد على أنه من عند الله وأني مرسل به فيعود مختتم السورة الى مفتتحها من قوله: «تلك آيات الكتاب والذي أُنزل إليك من ربك الحق ولكن أكثر الناس لا يؤمنون» وينعطف آخرها على أولها وعلى ما في أواسطها من قوله: «أفمن يعلم أن ما أُنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى إنما يتذكر اولوا الألباب».

وهذا في الحقيقة انتصار وتأييد منه تعالى لكتابه قبال ما أزرى به واستهانه الذين كفروا

حيث قالوا: «لولا أُنزل عليه آية من ربه» مرة بعد مرة و: «لست مرسلاً» فلم يعبؤا بأمره ولم يبالوا به وأجاب الله عن قولهم مرة بعد مرة ولم يتعرض لأمر القرآن ولم يذكر أنه أعظم آية للرسالة وكان من الواجب ذلك فقوله: «قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب» استيفاء لهذا الغرض الواجب الذي لا يتم البيان دونه وهذا من أحسن الشواهد على ما تقدم أن الآية كسائر السورة مكية.

وبهذا يتأيد ما ذكره جمع ووردت به الروايات من طرق أئمة أهل البيت عليهم السلام أن الآية نزلت في علي عليه السلام فلو انطبق قوله: «ومن عنده علم الكتاب» على أحد ممن آمن بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم يومئذ لكان هو فقد كان أعلم الامة بكتاب الله وتكاثرت الروايات الصحيحة على ذلك ولو لم يرد فيه إلّا قوله صلى الله عليه وآله وسلم في حديث[1] الثقلين المتواتر من طرق الفريقين: «لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض» لكان فيه كفاية.

---

١. وهو الحديث المعروف الذي رواه الفريقان عن جم غفير من الصحابة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم «اني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي لن يفترقا حتى يردا علي الحوض ما ان تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبداً». الحديث.

سورة إبراهيم مكية وهي اثنتان وخمسون آية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

١ ● آلر كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النّاسَ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ
بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلىٰ صِراطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ.
٢ ● أَللّٰهِ ٱلَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَوَيْلٌ
لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذابٍ شَدِيدٍ.
٣ ● أَلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيوٰةَ الدُّنْيا عَلَى ٱلْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ
سَبِيلِ ٱللّٰهِ وَيَبْغُونَها عِوَجاً أُولٰئِكَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ.
٤ ● وَما أَرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ ٱللّٰهُ
مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ.
٥ ● وَلَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسىٰ بِآياتِنا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُماتِ
إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيّامِ ٱللّٰهِ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآياتٍ لِكُلِّ صَبّارٍ
شَكُورٍ.

بيان:

السورة الكريمة تصف القرآن النازل على النبي ﷺ من حيث إنه آية رسالته يخرج بـه الناس من الظلمات إلى النور ويهديهم إلى صراط الله سبحانه الذي هو عزيز حميد أي غالب غير مغلوب وغني غير محتاج إلى الناس وجميل في فعله منعم عليهم. وإذا كان المنعم غـالباً غنياً حميد الأفعال كان على المنعم عليهم أن يجيبوا دعوته ويلبوا نداءه حتى يسعدوا بما أفاض عليهم من النعم، وأن يخافوا سخطه وشديد عذابه فإنه قـوي غـير محـتاج إلى أحـد، له أن يستغني عنهم فيذهب بهم ويأتي بآخرين كما فعل بالذين كفروا بنعمته من الامم الماضين فإن آيات السماوات والأرض ناطقة بأن النعمة كلها له وهو رب العزة وولي الحمد لا رب سواه.

وبهذا تختتم السورة إذ يقول عزّ من قائل: ﴿**هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا أنما هو إله واحد وليذكّر أُولوا الألباب**﴾.

ولعل ما ذكرنا هو مراد من قال: إن السورة مفتتحة ببيان الغرض من الرسالة والكـتاب يشير إلى قوله تعالى: ﴿**لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم**﴾.

والسورة مكيّة على ما يدل عليه سياق آياتها، ونسب إلى ابن عباس والحسن وقتادة أنها مكية إلا آيتين منها نزلتا في قتلى بدر من المشركين: ﴿**ألم ترَ إلى الذين بدّلوا نعمة الله كـفراً وأحلوا قومهم دار البوار جهنم يصلونها وبئس القرار**﴾ وسيأتي أن الآيتين غير صريحتين ولا ظاهرتين في ذلك.

قوله تعالى: ﴿الٓر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ أي هذا كتاب أنزلناه إليك، فهو خبر لمبتدأ محذوف على ما يعطيه السياق وقيل غير ذلك.

وقوله: ﴿لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ ظاهر السياق عموم الناس لا

خصوص قومه ﷺ ولا خصوص المؤمنين منهم إذ لا دليل على التقييد من جهة اللفظ، وكلامه تعالى صريح في عموم الرسالة كقوله: ﴿ليكون للعالمين نذيراً﴾ (الفرقان / ١) وقوله: ﴿لانذركم به ومن بلغ﴾ (الأنعام / ١٩)، وقوله: ﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً﴾ (الأعراف / ١٥٨)، والآيات الصريحة في دعوة اليهود وعامّة أهل الكتاب، وعمله ﷺ في دعوتهم وقبول إيمان من آمن منهم كعبدالله بن سلام وسلمان وبلال وصهيب وغيرهم تؤيد ذلك.

على أن آخر السورة ﴿هذا بلاغ للناس ولينذروا به﴾ الآية؛ وقد قوبل به أولها يؤيّد أن المراد بالناس أعمّ من المؤمنين الذين خرجوا من الظلمات إلى النور بالفعل.

وقد نسب الإخراج من الظلمات إلى النور إلى النبي ﷺ لكون أحد الأسباب الظاهرية لذلك وإليه ينتهي إيمان المؤمنين بدعوته بلا واسطة أو بواسطة. ولا ينافيه قوله: ﴿إنك لا تهدي من أحببت ولكنّ الله يهدي من يشاء﴾ (القصص / ٥٦)، فإن الآية إنما تنفي أصالته ﷺ في الهداية واستقلاله فيها من غير أن تنفي عنه مطلق الهداية حتى ما يكون على نحو الوساطة وبإذن من الله تعالى، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم﴾ (الشورى / ٥٢)، ولذلك قيد سبحانه قوله: «لتخرج» بقوله: «بإذن ربهم».

والمراد بالظلمات والنور والضلال والهدى، وقد تكرر في كلامه تعالى اعتبار الهدى نوراً وعدّ الضلال ظلمة وجمع الظلمات دون النور، لأن الهدى من الحق والحق واحد لا تغاير بين أجزائه ومصاديقه ولا كثرة بخلاف الضلال فإنه من اتباع الهوى والأهواء مختلفة متغاير بعضها مع بعض لا وحدة بينها ولا اتحاد لأبعاضها ومصاديقها قال تعالى: ﴿وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله﴾ (الأنعام / ١٥٣).

واللام في قوله: ﴿لِتُخْرِجَ النَّاسَ﴾ الخ؛ لام الغرض بناء على عموم الناس كما هو ظاهر الآية، وليس بلام المعاقبة إذ لو كان كذلك لكان الناس كلهم مؤمنين، والمعلوم خلافه.

وأما ما اعترض عليه بعضهم أن التربية الإلهية بإخراج الناس من الظلمات إلى النور وإيصالهم إلى السعادة والكمال مشروطة بالتهيؤ والاستعداد مع كون الفيض عاماً فالمقدار الممكن من هذه العاقبة على تقدير عمومه هو هذا المقدار .

ففيه أنه اعتراف بأن كون اللام للعاقبة خلاف ظاهر الآية . فإن الذي ذكره لا يتمّ إلا بتقييد « الناس » بالمستعدّين . لكن الذي يجب أن يعلم أن هذا الغرض غرض تشريعي معناه أن للحكم غاية مقصودة وهي المصلحة التي يستعقبها . فإن الله سبحانه يدعو الناس ليغفر لهم ويهديهم الى الايمان والعمل الصالح ليسعدهم بذلك ويدخلهم الجنة . ويرسل الرسل وينزّل عليهم الكتاب ليخرجوا الناس من الظلمات الى النور بإذن ربهم . ويريد بما يوجّهه اليهم من الأمر والنهي أن يطهّرهم ويُذهب عنهم رجز الشيطان . والآيات الدالّة على ذلك كثيرة لا موجب لإيرادها وكذا الروايات ولعلها تزهو الالوف .

قوله تعالى : ﴿ إِلَىٰ صِرَاطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ، ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ العزة تقابل الذلة . قال الراغب : العزة حالة مانعة للإنسان من أن يغلب من قولهم : أرض عزاز أي صلبة . قال تعالى : ﴿ أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعاً ﴾ وتعزّز اللحم اشتدّ وعزّ كأنه حصل في عزاز يصعب الوصول إليه . انتهى موضع الحاجه .

فعزة العزيز هي كونه بحيث يصعب نيله والوصول إليه ومنه عزيز القوم وهو الذي يقهر ولا يقهر لأنه ذو مقام لا يصل إليه من قصده دون أن يمنع قبل الوصول إليه ويقهر . ومنه العزيز لما قل وجوده لصعوبة نيله . ومنه العزيز بمعنى الشاق لأن الذي يشقّ على الإنسان يصعب حصوله . قال تعالى : ﴿ عزيز عليه ما عنتم ﴾ (التوبة / ١٢٨) . ومنه قوله : ﴿ وعزّني في الخطاب ﴾ (ص / ٢٣) . أي غلبني على ما فسر به .

والله سبحانه عزيز لأنه الذات الذي لا يقهره شيء من جهة وهو يقهر كل شيء من كل جهة ولذلك انحصرت العزة فيه تعالى فلا توجد عند غيره إلا باكتساب منه وبإذنه قال تعالى :

﴿أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعاً﴾ (النساء / ١٣٩)، وقال: ﴿من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً﴾ (فاطر / ١٠).

والحميد فعيل بمعنى المفعول من الحمد وهو الثناء على الجميل الاختياري، وإذ كان كل جمال ينتهي إليه سبحانه كان جميع الحمد له كما قال: ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ (سورة الحمد / ٢) ومن غريب القول ما عن الإمام الرازي على ما سننقله: أن الحميد معناه العالم الغني.

وقوله: ﴿إِلَىٰ صِرَاطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ بدل من قوله: «إلى النور» يبيّن به ما يوصل إليه الكتاب الذي أنزله على نبيه ﷺ بياناً بعد بيان فنبّه أولاً بأنه نور يميز الحق من الباطل والخير من الشر والسعادة من الشقاوة، وثانياً بأنه طريق واضح يجمع سالكيه في متنه وينتهي بهم جميعاً إلى الله العزيز الحميد.

والوجه في ذكر الصفتين الكريمتين: العزيز الحميد أنهما مبدءان لما سيورد في السورة من الكلام الموجه إليهم فإن عمدة الكلام في السورة هي تذكيرهم أن الله أنعم عليهم بربوبيته كل نعمة عظيمة، ثم عزم عليهم من طريق رسله أن يشكروه ولا يكفروه ووعد رسله أنهم إن آمنوا أدخلهم الجنة، وإن كفروا انتقم منهم وأوردهم مورد الشقاء والعذاب، فليخافوا ربهم وليحذروا مخالفة أمره وكفران نعمته لأن له كل العزة لا تمنع عن حلول سخطه بهم ونزول عذابه عليهم شيء، حميد لا يذم في إثابته المؤمنين، ولا في تعذيب الكافرين، كما لا يذم فيما بسط عليهم من نعمه التي لا تحصى.

فجلّ الكلام في هذه السورة فيما يقتضيه الصفات الثلاث: توحّده تعالى بالربوبية وعزته وكونه حميداً في أفعاله فليخف من عزته المطلقة، وليشكر وليوثق بما وعد وليتذكر من آيات ربوبيته.

وأما قوله: ﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ فبيان للعزيز

الحميد. والمراد بما في السماوات والأرض كل ما في الكون فيشمل نفس السماوات والأرض كما يشمل ما فيهما، فهو تعالى يملك كل شيء من كل جهة بحقيقة معنى الملك.

وفيه إشارة الى الحجة في كونه تعالى عزيزاً حميداً، فإنه تعالى وإن كان هو الذي يحق الحق بكلماته وهو الذي ينجح كل حجة في دلالتها، لكنه جاري عباده في كلامه على ما فطرهم عليه، وذلك أنه تعالى لما ملك كل خلق وأمر بحقيقة معنى الملك فهو المالك لكل قهر وغلبة فلا قهر إلا منه ولا غلبة إلا له، فهو تعالى عزيز وله أن يتصرف في ما يشاء بما يشاء ولا يكون تصرّفه إلا محموداً غير مذموم لأن التصرف إنما يكون مذموماً إذا كان المتصرف لا يملكه إما عقلاً أو شرعاً أو عرفاً، وأي تصرف نسبه اليه تعالى عقل أو شرع أو عرف فإنه يملكه، فهو تعالى حميد محمود الأفعال.

قوله تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ بيان لما تقتضيه صفة العزة من القهر لمن يردّ دعوته ويكفر بنعمته.

قوله تعالى: ﴿أَلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ الدُّنْيا عَلَى ٱلْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً﴾ الخ؛ قال الراغب في المفردات: وقوله عز وجل: «إن استحبُّوا الكفر على الإيمان» أي إن آثروه عليه، وحقيقة الاستحباب أن يتحرّى الإنسان في الشيء أن يحبه، واقتضى تعديته بعلى معنى الإيثار، وعلى هذا قوله تعالى: ﴿وأما ثمود فهديناهم فاستحبُّوا العمى على الهدى﴾، انتهى.

ومعنى استحباب الدنيا على الآخرة اختيار الدنيا وترك الآخرة رأساً، ويقابله اختيار الآخرة على الدنيا بمعنى أخذ الآخرة غاية للسعي وجعل الدنيا مقدّمة لها يتوسل بها اليها، وأما اختيار الآخرة وترك الدنيا من أصلها فإنه مضاف الى عدم إمكانه بحقيقة معنى الكلمة يوجب اختلال أمر الآخرة، وينجرّ الى تركها بالآخرة، فالحياة الدنيا حياة منقطعة والحياة الآخرة حياة دائمة يتوسل الى سعادتها من طريق الدنيا بالاكتساب، فمن اختار الآخرة وأثبتها

لزمه إثبات الدنيا لمكان مقدّميّتها، ومن اختار الدنيا وجعلها غاية لزمه نفي الآخرة من أصلها لأنها لو ثبتت ثبتت غاية وإذ لم يجعل غاية انتفت، فليس بين يدي الإنسان إلا خصلتان: اختيار الآخرة على الدنيا بجعل الآخرة غاية وإثبات الدنيا معها للمقدّمية، واختيار الدنيا على الآخرة بجعل الدنيا غاية ونفي الآخرة من أصلها.

وقوله: ﴿وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً﴾ مفاده أنهم يكفّون أنفسهم عن الاستنان بسنة الله والتدين بدينه أو يصدون ويصرفون الناس عن الإيمان بالله واليوم الآخر والتشرّع بشريعته عناداً منهم للحق، ويطلبون سنة الله عوجا ومنحرفة بالاستنان بغيرها من سنة اجتماعية أياً ما كانت ثم سجل عليهم الضلال بقوله سبحانه: «ذلك هو الضلال البعيد».

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ إلى آخر الآية. اللسان هو اللغة، قال تعالى: ﴿بلسان عربي مبين﴾ (الشعراء / ١٩٥).

والضمير في «قومه» عائد إلى «رسول» وفي «لهم» إلى «قومه» والمحصّل ما أرسلنا من رسول إلا بلسان قوم ذلك الرسول ليبين لقومه، ومن الخطأ إرجاع ضمير قومه إلى النبي ﷺ ليفيد أن الله سبحانه كان يوحي إلى جميع الرسل بالعربيّة لفساد المعنى بذلك لرجوع ضمير «لهم» إلى «قومه» فيفيد أنّ الله أنزل التوراة لموسى مثلاً بالعربية ليبين للعرب كما في الكشّاف.

والمراد بإرسال الرسول بلسان قومه إرساله بلسان القوم الذين كان يعيش فيهم ويخالطهم ويعاشرهم وليس المراد به الإرسال بلسان القوم الذين هو منهم نسباً لأنه سبحانه يصرح بمهاجرة لوط عليه السلام من كلدة وهم سريانية اللسان إلى المؤتفكات، وهم عبرانيون وسماهم قومه وأرسله إليهم ثم أنجاه وأهله إلا امرأته وهي منهم وأهلكهم قال تعالى: ﴿فآمن له لوط وقال إني مهاجر إلى ربي﴾ (العنكبوت / ٢٦) وفي مواضع من كلامه تعالى «قوم

لوط».

وأما من أُرسل إلى أزيد من أُمّة وهم أُولوا العزم من الرسل فمن الدليل على أنهم كانوا يدعون أقواماً من غير أهل لسانهم ما حكاه الله من دعوة إبراهيم ﷺ عرب الحجاز إلى الحجّ، ودعوة موسى ﷺ فرعون وقومه إلى الإيمان وعموم دعوة النبي ﷺ وقد اشتمل القرآن على دعوة اليهود والنصارى وغيرهم وقبول إيمان من آمن منهم بالنبيّ ﷺ وكذا ما يستفاد من عموم دعوة نوح ﷺ. وعلى هذا فالمراد بقوله: «وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم» ـ والله أعلم ـ أن الله لم يبين إرسال الرسل والدعوة الدينية على أساس معجز خارق للعادة الجارية ولا فوّض إلى رسله من الأمر شيئاً بل أرسلهم باللسان العادي الذي كانوا يكالمون قومهم ويحاورونهم به ليبيّنوا لهم مقاصد الوحي فليس لهم إلا البيان. وأما ما وراء ذلك من الهداية والإضلال فإلى الله سبحانه لا يشاركه في ذلك رسول ولا غيره.

فتعود الآية كالبيان والإيضاح لقوله تعالى قبل: «كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم» وأنّ معنى إخراجك الناس من الظلمات إلى النور أن تبين لهم ما أنزل الله لا أزيد من ذلك فيكون في معنى قوله: ﴿ **وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزّل إليهم** ﴾ (النحل / ٤٤).

وأما قوله: ﴿ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ فإشارة إلى ما أومأنا اليه أن أمر الهدى والضلال إلى الله لا يتحقق شيء منهما إلا عن مشيّة منه تعالى غير أنه سبحانه أخبرنا أنّ هذه المشيّة منه ليست جزافية غير منتظمة بل لها نظم ثابت فمن اتبّع الحق ولم يعانده هداه الله، ومن جاحده واتبّع هواه أضله الله فهو إضلال مجازاة غير الإضلال الابتدائي المذموم.

وقد قدم سبحانه الاضلال على الهداية إذ قال: «فيضلّ الله من يشاء ويهدي من يشاء» لأن ذلك أحوج إلى البيان بالنظر إلى أن الكلام مبني على عزته المطلقة فكان من الواجب أن

يبين أن ضلال من يضلّ عن السبيل كهدي من اهتدى إليها إنما هو بمشية منه تعالى ولم يغلب في إرادته ولم يزاحم في ملكه حتى لا يخيّل الى كل مغفل من الناس أن الله يصف نفسه بالعزة المطلقة وأنه غالب غير مغلوب وقاهر غير مقهور ثم يدعو الناس فلا يستجيبون دعوته ويأمرهم وينهاهم فيعصون ولا يطيعون وهل هذا الا غلبة منهم وقهر وهو مغلوب مقهور ؟

فكأنه تعالى أجاب عن ذلك بأن معنى دعوته أن يرسل رسولاً بلسان قومه فيبين لهم ما يسعدهم مما يشقيهم، وأمّا ضلال من ضلّ من الناس كهدي من اهتدى منهم فبمشيّة من الله وإذنه. وحاشاه أن يقهر في سلطانه أو يتصرَّف في ملكهاأحد بغير إذنه.

فضلال من ضلّ منهم دليل عزته فضلاً أن يكون ناقضاً لها كما أن هدى من اهتدى كذلك، ولذلك ذيّل الكلام بقوله: «وهو العزيز الحكيم» فهو سبحانه عزيز لا يغلبه ولا يضرّه ضلال من ضل منهم، ولا ينفعه هدى من اهتدى حكيم لا يشاء من شاء جزافاً وعبثاً بل عن نظام متقن دائمي.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ إلى آخر الآية؛ إذ كان الكلام في السورة مبنياً على الإنذار والتذكير بعزة الله سبحانه ناسب أن يذكر إرسال موسى بالآيات لهداية قومه فإن قصة رسالته من أوضح مصاديق ظهور العزة الإلهية من بين الرسل. وقد قال تعالى فيه: ﴿**ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين**﴾ (المؤمن / ٢٣). وقال حاكياً عنه ﷺ: ﴿**وأن لا تعلوا على الله إني آتيكم بسلطان مبين**﴾ (الدخان / ١٩).

فوزان الآية أعني قوله: «ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور»، من قوله: «كتاب أنزلنا إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم» وزان التنظير بداعي التأييد وتطييب النفس كما في قوله: ﴿**إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيّين من بعده**﴾ (النساء / ١٦٣).

وقوله: ﴿وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ ٱللَّهِ﴾ لا شك أن المراد بها أيام خاصة، ونسبة أيام خاصة إلى الله سبحانه مع كون جميع الأيام وكل الأشياء له تعالى ليست إلا لظهور أمره تعالى فيها ظهوراً لا يبقى معه لغيره ظهور، فهي الأزمنة والظروف التي ظهرت أو سيظهر فيها أمره تعالى وآيات وحدانيته وسلطنته كيوم الموت الذي يظهر فيه سلطان الآخرة وتسقط فيه الأسباب الدنيوية عن التأثير، ويوم القيامة الذي لا يملك فيه نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله، وكالأيام التي أهلك الله فيها قوم نوح وعاد وثمود فإن هذه وأمثالها أيام ظهر فيها الغلبة والقهر والإلهيان وأن العزة لله جميعاً.

ويمكن أن يكون منها أيام ظهرت فيها النعم الإلهية ظهوراً ليس فيه لغيره تعالى صنع كيوم خروج نوح عليه السلام وأصحابه من السفينة بسلام من الله وبركات ويوم إنجاء إبراهيم من النار وغيرهما فإنها أيضاً كسوابقها لا نسبة لها في الحقيقة إلى غيره تعالى فهي أيام الله منسوبة إليه كما ينسب الأيام إلى الامم والأقوام ومنه أيام العرب كيوم ذي قار ويوم فجار ويوم بغاث وغير ذلك.

وتخصيص بعضهم الأيام بنعماء الله سبحانه بالنظر إلى ما سيأتي من ذكر نعمه تعالى كتخصيص آخرين لها بنقماته تعالى خال عن الوجه بعدما كان الكلام جارياً في السورة على ما تقتضيه عزّته تعالى، ومن مقتضى صفة عزته الإنعام على العباد والأخذ الشديد إن كفروا بنعمته.

ثم تمّم الكلام بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أي كثير الصبر عند الضرّاء وكثير الشكر على النعماء.

٦ ● وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ
مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ

وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ.

٧ • وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ
عَذَابِي لَشَدِيدٌ.

٨ • وَقَالَ مُوسَىٰ إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ
ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ.

٩ • أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ
وَٱلَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لاٰ يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ
بِالبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا
أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ.

١٠ • قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ
يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى
قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ
يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ.

١١ • قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ
عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا
بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ.

١٢ • وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ
مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ.

١٣ • وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ

فِي مِلَّتِنا فَأَوْحىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظّالِمِينَ.

١٤ ● وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذٰلِكَ لِمَنْ خافَ مَقامِي
وَخافَ وَعِيدِ.

١٥ ● وَٱسْتَفْتَحُوا وَخابَ كُلُّ جَبّارٍ عَنِيدٍ.

١٦ ● مِنْ وَرائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقىٰ مِنْ ماءٍ صَدِيدٍ.

١٧ ● يَتَجَرَّعُهُ وَلاٰ يَكادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكانٍ وَما
هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرائِهِ عَذابٌ غَلِيظٌ.

١٨ ● مَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمالُهُمْ كَرَمادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ
فِي يَوْمٍ عاصِفٍ لاٰ يَقْدِرُونَ مِمّا كَسَبُوا عَلىٰ شَيْءٍ ذٰلِكَ هُوَ
الضَّلالُ البَعِيدُ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا نِعْمَةَ ٱللّهِ عَلَيْكُمْ﴾ إلى آخر الآية: السوم على ما ذكره الراغب بمعنى الذهاب في ابتغاء الشيء فهو لفظ لمعنى يتركب من الذهاب والابتغاء فكأنه في الآية بمعنى إذاقة العذاب، والاستحياء استبقاء الحياة.

والمعنى واذكر أيها الرسول لزيادة التثبّت في أن الله عزيز حميد إذ قال موسى لقومه وهم بنو إسرائيل: اذكروا نعمة الله عليكم يوم أنجاكم من آل فرعون وخاصة من القبط والحال أنهم مستمرون على إذاقتكم سوء العذاب ويكثرون ذبح الذكور من أولادكم وعلى استبقاء حياة نسائكم للاسترقاق، وفي ذلكم بلاء ومحنة من ربكم عظيم.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ

عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ قال في المجمع: التأذّن الإعلام يقال: آذن وتأذّن ومثله أوعد وتوعّد. انتهى.

وقوله: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ ﴾ الخ؛ معطوف على قوله: «وإذ قال موسى لقومه» وموقع الآية التالية «وقال موسى» الخ؛ من هذه الآية كموقع قوله: «ولقد أرسلنا موسى» الخ؛ من قوله: ﴿كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور﴾ فافهم ذلك فهو الأنسب بسياق كلامه تعالى.

ومن لطيف كرمه تعالى اللائح من الآية ـ كما ذكره بعضهم ـ اشتمالها على التصريح بالوعد والتعريض في الوعيد حيث قال: «لأزيدنّكم» وقال: «إن عذابي لشديد» ولم يقل: لاعذبنكم وذلك من دأب الكرام في وعدهم ووعيدهم غالباً.

والآية مطلقة لا دليل على اختصاص ما فيها من الوعد والوعيد بالدنيا ولا بالآخرة، وتأثير الإيمان والكفر والتقوى والفسق في شؤون الحياة الدنيا والآخرة معاً معلوم من القرآن.

وقد استدلّ بالآية على وجوب شكر المنعم، والحق أن الآية لا تدلّ على أزيد من أن الكافر على خطر من كفره فإن الله سبحانه لم يصرّح بفعلية العذاب على كل كفر إذ قال: «ولئن كفرتم إن عذابي لشديد» ولم يقل: لاعذبنكم.

قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ لما أمر تعالى بشكر نعمه بذكر ما تأذن به من الزيادة على الشكر والعذاب على الكفر على ما تقتضيه العزة المطلقة ذكر في تأييده من كلام موسى عليه السلام ما يجري مجرى التنظير فقال: «وقال موسى» والكلام جارٍ على هذا النمط الى تمام عشر آيات.

وأما أن الله غني وإن كفر من في الأرض جميعاً فإنه غني بالذات عن كل شيء فلا ينتفع بشكر ولا يتضرر بكفر، وإنما يعود النفع والضرر الى الإنسان فيما أتى به. وأما أنه حميد فلأن الحمد هو إظهار الحامد بلسانه ما لفعل المحمود من الجمال والحسن وفعله تعالى حسن جميل

من كل جهة فهو جميل ظاهر الجمال يمتنع خفاؤه وإخفاؤه. فهو تعالى محمود سواء حمده حامد باللسان أو لم يحمد.

على أن كل شيء يحمده بتمام وجوده حتى الكافر بنعمته كما قال تعالى: ﴿ وإن من شيء إلا يسبح بحمده ﴾ (الإسراء / ٤٤)، فهو تعالى محمود سواء حمده الناس بألسنتهم أو لم يحمدوه، وله كل الحمد سواء قصد به هو أو قصد به غيره.

قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ﴾ إلى آخر الآية: من كلام موسى عليه السلام يذكّر قومه من أيام الله في الامم الماضين ممن فنيت أشخاصهم وخمدت أنفاسهم وعفت آثارهم وانقطعت أخبارهم فلا يعلمهم بحقيقة حالهم تفصيلاً إلا الله كقوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم.

وقوله: ﴿ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ ﴾ الظاهر أن المراد به أن رُسلهم جاؤوهم بحجج بيّنة تبين الحق وتجليه من غير أي إبهام وريب فمنعوهم أن يتفوّهوا بالحق وسدُّوا عليهم طريق التكلم.

فالضميران في «أيديهم» و«أفواههم» للرسل، وردّ أيديهم في أفواههم كناية عن إجبارهم على أن يسكتوا ويكفُّوا عن التكلم بالحق كأنهم أخذوا بأيدي رسلهم وردُّوها في أفواههم إيذاناً بأن من الواجب عليكم أن تكفوا عن الكلام، ويؤيده قوله بعد: «وقالوا إنا كفرنا بما أُرسلتم به وإنا لفي شك مما تدعوننا اليه مريب» فإن دعوى الشك والريب قبال الحجة البيّنة والحق الصريح الذي لا يبقي مجالاً للشك لا تتحقق إلا من جاحد مكابر متحكم مجازف لا يستطيع أن يسمع كلمة الحق فيجبر قائلها على السكوت والصمت.

وأما قوله: ﴿ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ فهو نحو بيان لقوله: «فردُّوا أيديهم في أفواههم» والجملة الاولى أعني قولهم: «إنا كفرنا بما أُرسلتم به» إنكار للشريعة الإلهية التي هي متن الرسالة، والجملة الثانية أعني قولهم:

« وإنا لفي شك » الخ : إنكار لما جاؤوا به من الحجج والبيّنات وإظهار ريب فيما كانوا يدعون اليه وهو توحيد الربوبية .

قوله تعالى : ﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ أصل الفطر على ما ذكره الراغب الشقّ طولا يقال : فطرت الشيء فطراً أي شققته طولاً . وأفطر الشيء فطوراً وانفطر انفطاراً أي قبل الفطر . واستعمل في القرآن فيما انتسب إليه تعالى بمعنى الإيجاد بنوع من العناية كأنه تعالى شق العدم شقاً فأظهر من بطنه الأشياء فهي ظاهرة ما أمسك هو تعالى على شقي العدم موجودة ما كان ممسكاً لها ولو ترك الإمساك لانعدمت وزالت كما قال تعالى : ﴿ **إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكها من أحد من بعده** ﴾ (فاطر / ٤١).

وعلى هذا فتفسير الفطر بالخلق الذي هو جمع الأجزاء والأبعاض كما وقع في بعض العبارات ليس على ما ينبغي . ويؤيد ذلك أن الفطر لو كان بمعنى الخلق لكان البرهان الذي أُشير إليه بقوله : « فاطر السماوات والأرض » مسوقاً لإثبات وجود الخالق فكان أجنبياً عن المقام لأن الوثنية لا تنكر وجود خالق للعالم وأنه هو الله عزّ اسمه لا غير . وإنما ينكرون توحيد الربوبية والعبادة وهو أن يكون الله سبحانه هو الربّ المعبود لا غير . والبرهان على كونه تعالى خالقاً للسماوات والأرض لا ينفع فيه شيئاً .

وكيف كان فقوله : ﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ ﴾ الخ : كلام قوبل به قولهم : ﴿ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ وقد عرفت أن قولهم هذا يتضمن إنكارين : إنكارهم للرسالة وتشككهم في توحيد الربوبيّة فكلام الرسل المورد جواباً منهم عن قولهم بالمقابلة متضمن لجزءين .

فقولهم : ﴿ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ برهان على توحيد

الربوبية إذ لو سيق لمجرد الإنكار على الكفار من غير إشارة إلى برهان لم يكن حاجة إلى ذكر الوصف «فاطر السماوات والأرض» ففي ذكره دلالة على أنه مزيل كل شك وريب عنه تعالى.

وذلك أنا نرى في أول ما نعقل أن لهذا العالم المشهود الذي هو مؤلف من أشياء كثيرة كل واحد منها محدود في نفسه متميز من غيره وجوداً. وليس وجوده ولا وجود شيء من أجزائه من نفسه وقائماً بذاته وإلا لم يتغير ولم ينعدم فوجوده ووجود أجزائه وكذا كل ما يرجع إلى الوجود من الصفات والاثار من غيرها ولغيرها وهذا الغير هو الذي نسمّيه «الله» عز اسمه.

فهو تعالى الذي يوجد العالم وكل جزء من أجزائه ويحده ويميزه من غيره فهو في نفسه موجود غير محدود وإلا لاحتاج إلى آخر يحدده فهو تعالى واحد لا يقبل الكثرة لأن ما لا يحد بحد لا يقبل الكثرة.

وهو بوحدته يدبّر كل أمر كما أنه يوجده لأنه هو المالك لوجودها والكل أمر يرجع إلى وجودها، ولا يشاركه غيره في شيء لأن شيئاً من الموجودات غيره لا يملك لنفسه ولا لغيره فهو تعالى ربّ كل شيء لا ربّ غيره، كما أنه موجد كل شيء لا موجد غيره.

وهذا برهان تام سهل التناول حتى للأفهام البسيطة يناله الإنسان الذي يذعن بفطرته أن للعالم المشهود حقيقة وواقعية من غير أن يكون وهماً مجرداً كما يبديه السفسطة والشك، ويثبت به توحد الالوهية والربوبية. ولذلك تمسك به في هذا المقام الذي هو مقام خصام الوثنية.

وقوله: ﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ أي لا يعاجلكم بالعقوبة والهلاك ويؤخركم الى الأجل الذي لا يؤخر وقد سمّاه لكم ولا يبدّل القول لديه، وقد تقدم في تفسير أول سورة الأنعام أن الأجل أجلان: أجل موقوف معلّق، وأجل مسمى لا يؤخر.

ومن الدليل على هذا الذي ذكرناه قول نوح لقومه في هذا المقام على ما حكاه الله سبحانه:

﴿ويؤخركم الى أجل مسمى إن أجل الله اذا جاء لا يؤخر﴾ (نوح / ٤).

قوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ قد تقدم في مباحث النبوّة في الجزء الثاني من الكتاب أن الآية المعجزة حجة عامة على نبوة النبي لا حجة عامية وخاصة الوحي والنبوة التي هي نوع اتصال بالغيب أمر خارق للعادة الجارية بين أفراد الإنسان لا يجدونها من أنفسهم فعلى من يدّعيها الإثبات، ولا طريق الى إثباتها إلا بالإتيان بخارق عادة آخر يدلُّ على صحة هذا الاتصال الغيبي لأن حكم الأمثال واحد، وإذا جاز أن تخترق العادة بشيء جاز أن تخترق بما يماثله.

والرسل عليهم السلام لما احتجوا على كفار أُممهم في النبوة العامة بقولهم: «يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم الى أجل مسمى» عادت الكفار اليهم بطلب الدليل منهم على ما يدّعونه من النبوة لأنفسهم معتذرين في ذلك بقولهم: «إن أنتم إلا بشر مثلنا»، ثم صرّحوا بما يطلبونه من الدليل وهو الآية المعجزة بقولهم: «فأتونا بسلطان مبين».

فالمعنى سلّمنا أن من مقتضى العناية الإلهية أن يدعونا الى المغفرة والرحمة، لكنّا لا نسلّم لكم أن هذه الدعوة قائمة بكم كما تدّعون فإنكم بشر مثلنا لا تزيدون علينا بشيء، ولو كان مجرد البشرية يوجب ذلك لكنّا وجدناه من أنفسنا ونحن بشر، فإن كنتم صادقين في دعواكم هذه فأتونا بسلطان مبين أي ببرهان قاطع يتسلط على عقولنا ويضطرّنا الى الإذعان بنبوّتكم وهو آية معجزة غيبة تخرق العادة كما أن ما تدّعونه خارق مثلها.

وبهذا البيان يظهر أولاً أن كلامهم هذا من قبيل منع الدعوى، وقولهم: «إن أنتم إلا بشر مثلنا» سند المنع، وقولهم: «فأتونا بسلطان مبين» تصريح بطلب الدليل.

وثانياً أن قولهم: «تريدون ان تصدُّونا عما كان يعبد آباؤنا» من قبيل الاعتراض الواقع بين المنع وسنده ومعناه أنكم لما كنتم بشراً مثلنا لا فضل لكم علينا بشيء فلا وجه لأن نقبل

منكم ما لا نجده من أنفسنا ولا تعهده من أمثالنا ، والذي نعهده من أمثال هذه الامور أنها إنما تظهر عن أغراض ومطامع دنيوية مادية فليس إلا أنكم تريدون أن تصرفونا عن سنّتنا القومية وطريقتنا المثلى .

قوله تعالى : ﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ ﴾ إلى آخر الآية جواب الرسل عمّا أوردوه على رسالتهم بأنكم بشر مثلنا فلستم ذوي هوية ملكوتية حتى تتصلوا بالغيب فإن كنتم صادقين في دعواكم هذه القدرة الغيبية فأتونا بسلطان مبين .

ومحصل الجواب أن كوننا بشراً مثلكم مسلم لكنه يوجب خلاف ما استوجبتموه أما قولكم إن كونكم بشراً مثلنا يوجب أن لا تختصوا بخصيصة لا نجدها من أنفسنا وهي الوحي الرسالة فجوابه : أن المماثلة في البشرية لا توجب المماثلة في جميع الكمالات الصورية والمعنوية الإنسانية كما أن اعتدال الخلقة وجمال الهيئة وكذا رزانة العقل وإصابة الرأي والفهم والذكاء كمالات صورية ومعنوية توجد في بعض أفراد الإنسان دون بعض ، فمن الجائز أن ينعم الله بالوحي والرسالة على بعض عباده دون بعض فإنّ الله يمن على من يشاء منهم .

وأما قولكم ﴿ فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ فإنه مبني على كون النبي ذا شخصية ملكوتية وقدرة غيبية فعالة لما تشاء ، وليس كذلك فما النبي إلا بشر مثلكم يوحي إليه بالرسالة وليس له من الأمر شيء ، وما كان له أن يأتي بآية من عنده إلا أن يشاء الله ذلك ويأذن فيه .

فقوله : ﴿ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ﴾ تسليم من الرسل لقولهم : « إن أنتم إلا بشر مثلنا » لاستنتاج خلاف ما استنتجوه منه ، وقوله : « ولكن الله يمن على من يشاء » إشارة إلى مقدمة بانضمامها يستنتج المطلوب ، وقوله : « وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله » جواب منهم استنتجوه من كونهم بشراً مثلهم .

وتذييل هذا الكلام بقولهم : ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ للإشارة الى ما

يجري مجرى حجة ثانية على إرجاع الأمر كله ـ ومنه أمر الآية المعجزة ـ الى الله وهي حجة خاصة بالمؤمنين، وملخصها أن الايمان بالله سبحانه يقتضي منهم أن يذعنوا بأن الإتيان بالآية إنما هو الى الله لأن الحول والقوة له خاصة لا يملك غيره من ذلك شيئاً إلا بإذنه.

وذلك لأنه هو الله عز شأنه، فهو الذي يبدأ منه وينتهي اليه ويقوم به كل شيء فهو رب كل شيء المالك لتدبير أمره لا يملك شيء أمراً إلا بإذنه فهو وكيل كل شيء القائم بما يرجع اليه من الأمر، فعلى المؤمن ان يتخذ ربه وكيلاً في جميع ما يرجع اليه حتى في أعماله التي تنسب اليه لما أن القوة كلها له سبحانه وعلى الرسول ان يذعن بأن ليس له الإتيان بآية معجزة إلا بإذن الله.

والآية ظاهرة في أن الرسل ﷺ لم يدّعوا امتناع إتيانهم بالآية المعجزة المسماة سلطاناً مبيناً، وإنما ادّعوا امتناع أن يستقلوا بذلك من غير حاجه فيه إلى إذن الله سبحانه، واحتجوا على ذلك أولاً، وثانياً.

قوله تعالى: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَ قَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَعلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ ما استفهامية والاستفهام للإنكار، وقوله: «وقد هدانا سبلنا» حال من الضمير في «لنا» وسبل الأنبياء والرسل الشرائع التي كانوا يدعون اليها، قال تعالى: ﴿قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة﴾ (يوسف / ١٠٨) والمعنى ما الذي نملكه من العذر في أن لا نتوكل على الله والحال أنه تعالى هدانا سبلنا ولم يكن لنا صنع في هذه النعمة والسعادة التي من بها علينا فإذا كان سبحانه فعل بنا هذا الفعل الذي هو كل الخير، فمن الواجب أن نتوكل عليه في سائر الامور.

وهذا في الحقيقة حجة ثانية على وجوب التوكل عليه وإلقاء الزمام إليه سلك فيها من طريق الآثار الدالة على وجوب التوكل عليه كما أن الحجة السابقة سلك فيها من النظر في نفس المؤثر، وتقرير الحجة أن هدايته تعالى إيانا إلى سبلنا دليل على وجوب التوكل عليه لأنه لا يخون عباده ولا يريد بهم إلا الخير ومع وجود الدليل على التوكل لا معنى لوجود دليل على

عدم التوكل يكون عذراً لنا فيه فلا سبيل لنا إلى عدم التوكل عليه تعالى.

فقوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ يجري مجرى اللمّ. وقوله: «وما لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا» مجرى الإنّ فتدبر في هذا البيان العذب والاحتجاج السهل الممتنع الذي قدمه القرآن الكريم إلى متدبريه في أوجز لفظ.

وقوله: ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا﴾ من تفريع الصبر على ما بيّن من وجوب التوكل عليه أي إذا كان من الواجب أن نتوكل عليه ونحن مؤمنون به وقد هدانا سبلنا فلنصبرن على إيذائكم لنا في سبيل الدعوة إليه متوكلين عليه حتى يحكم بما يريد ويفعل ما يشاء من غير أن نأوي في ذلك إلى ما عندنا من ظاهر الحول والقوة.

وقوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ كلام مبني على الترقي أي كل من تلبّس بالتوكل فعليه أن يتوكل على الله سواء كان مؤمناً أو غير مؤمن إذ لا دليل غيره غير أن المتوكل بحقيقة التوكل لا يكون إلا مؤمناً فإنه مذعن أن الأمر كله لله فلا يسعه إلا أن يطيعه فيما يأمر وينتهي عما ينهى ويرضى بما يرضي به ويسخط عما سخط عنه وهذا هو الإيمان.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ هذا تهديد منهم بعد ما عجزوا في مناظرتهم وخسروا في محاجتهم. والخطاب في قولهم: «لنخرجنكم» الخ: للرسل والذين آمنوا معهم فما كانوا ليرضوا أن يعود الرسل في ملتهم ويبقى أتباعهم على دين التوحيد. على أن الله سبحانه صرّح بذلك في قصص بعضهم كقوله في شعيب: ﴿قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا﴾ (الأعراف / ٨٨).

وقوله: ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ «عاد» من الأفعال الناقصة بمعنى الصيرورة وهي الحيلولة من حال إلى حال سواء كان عليها سابقاً أو لا ومن الدليل عليه - كما قيل - قوله: «في ملتنا» ولو كان بمعنى الرجوع إلى ما كان لتعيّن أن يقال: إلى ملتنا.

ومن لطيف الصناعة في الآية دخول لام القسم ونون التأكيد على طرفي الترديد «لنخرجنكم أو لتعودن» مع أن أو للاستدراك وتفيد معنى الاستثناء ولا معنى لأن يقال: إلا أن تعودوا والله في ملتنا، إلا أن عودهم لما كان بإجبار من الكفار كان في معنى الإعادة وعاد قوله: «لتعودن» طرف الترديد وصح دخول اللام والنون وآل المعنى إلى قولنا: والله لنخرجنكم من أرضنا أو نعيدنكم في ملتنا.

قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ، وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ إلى آخر الآية: ضمير الجميع الأول والثاني للرسل والثالث للذين كفروا بدلالة السياق، والتعبير عنهم بالظالمين للإشارة إلى سببية ظلمهم للإهلاك فإن تعليق الحكم بالوصف مشعر بالعليّة كما أن قوله: «ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد» مشعر بعليّة الخوف للإسكان.

وقوله: ﴿مَقَامِي﴾ مصدر ميمي أُريد به قيامه تعالى على الأمر كله أو اسم مكان أُريد به مرتبة قيمومته تعالى للأمر كله، والمراد من وعيده تعالى ما أوعد به المخالفين عن أمره من العذاب.

فالمراد بالخوف من مقامه تعالى تقواه بما أنه الله القائم بأمر عباده والمراد بالخوف من وعيده تقواه بما أنه الله الذي حذّر عباده من مخالفة أمره بلسان أنبيائه ورسله فيعود على أي حال إلى التقوى وينطبق على قول موسى لقومه: ﴿**استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين**﴾ (الأعراف / ١٢٨) كما أشار إليه في الكشاف.

والمعنى فأوحى رب الرسل إليهم ـ وقد أُخذت صفة الربوبية الخاصة بهم لمكان توكلهم الجالب للرحمة والعناية ـ وأُقسم لنهلكن هؤلاء المهددين لكم بظلمهم ولنسكننكم هذه الأرض التي هددوكم بالإخراج منها ونورثكم إياها لصفة مخافتكم مني ومن وعيدي وكذلك نفعل فنورث الأرض عبادنا المتقين.

قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ الاستفتاح طلب الفتح والنصر. والخيبة انقطاع الرجاء والخسران والهلاك، والعنيد هو اللجوج ومنه المعاند.

والضمير في ﴿وَٱسْتَفْتَحُوا﴾ للرسل أي طلبوا النصر من الله لما انقطعت بهم الأسباب من كل جانب وبلغ بهم ظلم الظالمين وتكذيب المعاندين كقول نوح فيما حكاه الله: ﴿أني مغلوب فانتصر﴾ (القمر / ١٠)، ويمكن رجوع الضمير إلى الرسل والكفار جميعاً فإن الكفار أيضاً كانوا يصرون على أن يأتيهم الرسل بما يقضي بينهم كقولهم: ﴿متى هذا الفتح﴾ (الم السجدة / ٢٨) ﴿متى هذا الوعد﴾ (يس / ٤٨)، وعلى هذا التقدير يكون المعنى: واستفتح الرسل والكفار جميعاً، وكانت الخيبة للجبارين وهو عذاب الاستئصال.

قوله تعالى: ﴿مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ﴾ إلى آخر الآيتين؛ الصديد القيح السائل من الجرح، وهو بيان للماء الذي يسقونه في جهنم. والتجرع تناول المشروب جرعة جرعة على الاستمرار، والإساغة إجراء الشراب في الحلق يقال: ساغ الشراب وأسغته أنا كذا في المجمع والباقي ظاهر.

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ إلى آخر الآية، يوم عاصف شديد الحريج تمثيل لأعمال الكفار من حيث تترتب نتائجها عليها وبيان أنها حبط باطلة لا أثر لها من جهة السعادة فهو كقوله تعالى: ﴿وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا﴾ (الفرقان / ٢٣) فأعمالهم كذرات من الرماد اشتدت به الريح في يوم شديد الريح فنثرته ولم يبقَ منه شيئاً هذا مثلهم من جهة أعمالهم.

ومن هنا يظهر أن لا حاجة إلى تقدير شيء في الكلام وإرجاعه إلى مثل قولنا: مثل أعمال الذين كفروا الخ؛ والظاهر أن الآية ليست من تمام كلام موسى بل هي كالنتيجة المحصلة من

كلامه المنقول[١].

١٩ ● أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمٰوٰاتِ وَٱلْأَرضَ بِالحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ.

٢٠ ● وَمٰا ذٰلِكَ عَلَى اللّٰهِ بِعَزِيزٍ.

٢١ ● وَبَرَزُوا لِلّٰهِ جَمِيعاً فَقٰالَ الضُّعَفٰاءُ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا إِنّٰا كُنّٰا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنّٰا مِنْ عَذٰابِ اللّٰهِ مِنْ شَيْءٍ قٰالُوا لَوْ هَدٰينَا اللّٰهُ لَهَدَيْنٰاكُمْ سَوٰاءٌ عَلَيْنٰا أَجَزِعْنٰا أَمْ صَبَرْنٰا مٰا لَنٰا مِنْ مَحِيصٍ.

٢٢ ● وَقٰالَ الشَّيْطٰانُ لَمّٰا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ اللّٰهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمٰا كٰانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطٰانٍ إِلاّٰ أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلاٰ تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مٰا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمٰا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمٰا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظّٰالِمِينَ لَهُمْ عَذٰابٌ أَلِيمٌ.

٢٣ ● وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّٰالِحٰاتِ جَنّٰاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهٰارُ خٰالِدِينَ فِيهٰا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهٰا سَلاٰمٌ.

٢٤ ● أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللّٰهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهٰا ثٰابِتٌ وَفَرْعُهٰا فِي السَّمٰاءِ.

---

١. ابراهيم ٦ ـ ١٨: بحث روائي في الشكر وزيادة النعمة.

٢٥ ❁ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ
لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ.
٢٦ ❁ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ ٱلْأَرْضِ
مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ.
٢٧ ❁ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَفِي
ٱلْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ.
٢٨ ❁ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْراً وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ
ٱلْبَوَارِ.
٢٩ ❁ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ.
٣٠ ❁ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ
مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ.
٣١ ❁ قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ
سِرّاً وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ.
٣٢ ❁ أَللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً
فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِيَ
فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَارَ.
٣٣ ❁ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱللَّيْلَ
وَالنَّهَارَ.
٣٤ ❁ وَآتَيكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا

إِنَّ ٱلْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمٰوٰاتِ وَٱلْأَرْضَ بِالحَقِّ﴾ المراد بالرؤية هو العلم القاطع، فإنه لصالح لأن يتعلّق بكيفية خلق السماوات والأرض دون الرؤية البصرية.

ثم الفعل الحق ويقابله الباطل هو الذي يكون لفاعله فيه غاية مطلوبة يسلك إليه بذاته فن المشهود أن كل واحد من الأنواع من أول تكونه متوجه إلى غاية مؤجلة لا بغية له دون أن يصل إليها ثم البعض منها غاية للبعض ينتفع به في طريق كينونته ويصلح به في حدوثه وبقائه كالعناصر الارضية التي ينتفع بها النبات، والنبات الذي ينتفع به الحيوان وهكذا قال تعالى: **﴿وما خلقنا السماوات والارض وما بينهما لاعبين ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾** (الدخان / ٣٩). وقال: **﴿وما خلقنا السماء والارض وما بينهما باطلاً ذلك ظن الذين كفروا﴾** (ص / ٢٧).

فلا تزال الخلقة تقع مرحلة بعد مرحلة وتنال غاية بعد غاية حتى تتوقف في غاية لا غاية بعدها، وذلك رجوعها إلى الله سبحانه، قال تعالى: **﴿وأن إلى ربك المنتهى﴾** (النجم / ٤٢).

وبالجملة الفعل إنما يكون فعلا حقاً إذا كان له أمر يقصده الفاعل بفعله وغاية يسلك بالفعل إليها، وأما إذا كان فعلا لا يقصد به إلا نفسه من غير أن يكون هناك غرض مطلوب فهو الفعل الباطل، وإذا كان الفعل الباطل ذا نظام وترتيب فهو الذي يسمى لعباً كما يلعب الصبيان بإتيان حركات منظمة مرتبة لا غاية لهم وراءها ولا أن لهم همّاً إلا إيجاد ما تخيلوه من صورة الفعل لشوق نفساني منهم إلى ذلك.

وفعله تعالى ملازم للحق مصاحب له فخلق السماوات والارض يخلف عالماً باقياً بعد زواله، ولو لم يكن كذلك كان باطلاً لا أثر له ولا خلف يخلفه. وكان العالم المشهود بما فيه من النظام البديع لعباً منه سبحانه اتخذه لحاجة منه إليه كالتنفس من كرب وسأمة والتفرج من همّ أو التخلص من وحشة وحدة ونحو ذلك وهو سبحانه العزيز الحميد لا تمسّه حاجة ولا يذله فقر وفاقة.

وبما مرّ يظهر أن الباء في قوله: «بالحق» للمصاحبة وأن قول بعضهم: أن الباء للسببيّة أو الآلة وأن المعنى كيف خلقها بقوله الحق أو للغرض الحق ليس على ما ينبغي.

قوله تعالى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ، وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ أي بشاق صعب، والخطاب لعامة البشر بجعل النبي ﷺ مثالاً لهم يمثلون به لان الخطاب متوجه إليه في قوله قبل وبعد: «ألم تر» «وما ذلك».

قوله تعالى: ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعاً﴾ الى آخر الآية: البروز هو الخروج الى البراز بفتح الباء وهو الفضاء، يقال: برز اليه إذا خرج اليه بحث لا يحجبه عنه حاجب، ومنه المبارزة والبراز كخروج المقاتل من الصف الى كفؤه من العدو.

والتبع بفتحتين جمع تابع كخدم وخادم، وقيل: اسم جمع، وقيل: مصدر جيء به للمبالغة، والإغناء الإفادة وضمّن معنى الدفع ولذا عدّي بعن كما قيل، والجزع والصبر متقابلان، والمحيص اسم مكان من حاص يحيص حيصاً وحيوصاً إذا زال عن المكروه كما في المجمع فالمحيص هو المكان الذي يزول اليه الإنسان عن المكروه والشدة.

وقوله: ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعاً﴾ أي ظهروا له تعالى ظهوراً لا يحجبهم عنه حاجب وهذا بالنسبة الى أنفسهم حيث كانوا يتوهمون في الدنيا أن ربهم في غيبة عنهم وهم غائبون عنه، فإذا كان يوم القيامة زال كل ستر متوهم وشاهدوا أن لا حاجب هناك يحجبهم عنه، وأما هو تعالى فلا ساتر يستر عنه في دنيا ولا آخرة، قال تعالى: ﴿إن الله لا يخفى عليه شيء في

الأرض ولا في السماء﴾ (آل عمران / ٥).

ويمكن أن تكون الجملة كناية عن خلوصهم لحساب الأعمال وتعلق المشيئة الإلهية بانقطاع الأعمال وإنجاز الجزاء الموعود كما قال: ﴿سنفرغ لكم أيها الثقلان﴾ (الرحمن / ٣١).

وقوله: ﴿فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا -إلى قوله- مِنْ شَيْءٍ﴾ تخاصم بين الكفار يوم القيامة -على ما يعطيه السياق- فالضعفاء هم المقلدون المطيعون لأوليائهم من الكفار، والمستكبرون هم أولياؤهم المتبوعون أُولوا الطَّول والقوة المستنكفون عن الإيمان بالله وآياته.

والمعنى فقال الضعفاء المقلدون للذين استكبروا منهم إنا كنا في الدنيا لكم تابعين مطيعين من غير أن نسألكم حجة على ما تأمروننا به فهل أنتم مفيدون لنا اليوم تدفعون عنا شيئاً من عذاب الله الذي قضي علينا.

وعلى هذا فلفظة «من» في قوله: «من عذاب الله» للبيان، وفي قوله: «من شيء» زائدة للتأكيد كما في قولنا: ما جاءني من أحد، والنفي والاستفهام متقاربان حكماً ولا دليل على امتناع تقدم البيان على المبين وخاصة مع اتصالهما وعدم الفصل بينهما.

وقوله: ﴿قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ﴾ ظاهر السياق أن المراد بالهداية هنا الهداية الى طريق التخلص من العذاب ويمكن أن يكون المراد بها الهداية الى الدين الحق في الدنيا، والمآل واحد لما بين الدنيا والآخرة من التطابق، ولا يبرز في الاخرى إلا ما كان كامناً في الاولى، قال تعالى حكاية عن أهل الجنة: ﴿وقالوا الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله لقد جاءت رُسل ربنا بالحق﴾ (الأعراف / ٤٣)، مزجوا الهدايتين بعضاً ببعض كما هو ظاهر.

وقوله: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ﴾ سواء والاستواء

والتساوي واحد، وسواء خبر لمبتدأ محذوف والجملة الاستفهامية بيان لذلك، وقوله: «ما لنا من محيص» بيان آخر للتساوي، والمعنى الأمران متساويان علينا وبالنسبة الينا وهما الجزع والصبر لا مهرب لنا عن العذاب اللازم.

قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ﴾ الى آخر الآية في المجمع الإصراخ الاغاثة بإجابة الصارخ ويقال: استصرخني فلان فأصرخته أي أستغاث بي فأغثته. انتهى.

وهذا كلام جامع يلقيه الشيطان يوم القيامة الى الظالمين يبيّن فيه موقعه منهم وينبّىء أهل الجمع منهم بوجه الحق في الرابطة التي كانت بينه وبينهم في الدنيا وقد وعد الله سبحانه أنه سينبؤهم يوم القيامة بما كانوا فيه يختلفون، وأن الحق سيظهر يوم القيامة عن قبل كل من كان له من قبله خفاء أو التباس، فالملائكة يتبرّؤن من شركهم والجن والقرناء من الشياطين يطردونهم، والأصنام والآلهة التي اتخذوها أرباباً من دون الله يكفرون بشركهم، وكبراؤهم وأئمة الضلال لا يستجيبون لهم، والمجرمون أنفسهم يعترفون بضلالهم وجرمهم، كل ذلك واقعة في آيات كثيرة غير خفيّة على المتتبّع المتدبر فيها.

والشيطان وإن كان بمعنى الشرير وربما أُطلق في كلامه تعالى على كل شرير من الجن والإنس كقوله: ﴿وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن﴾ (الأنعام / ١١٢)، لكن المراد به في الآية الشيطان الذي هو مصدر كل غواية وضلال في بني آدم وهو إبليس فإن ظاهر السياق أنه يخاطب بكلامه هذا عامة الظالمين من أهل الجمع ويعترف أنه كان يدعوهم الى الشرك، وقد نصّ القرآن على أن الذي له هذا الشأن هو إبليس وقد ادّعى هو ذلك ولم يردّ الله ذلك عليه كما في قوله: ﴿قال فبعزتك لاغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين ـ إلى أن قال ـ لأملأنّ جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين﴾ (ص / ٨٥).

وأما ذريته وقبيله الذين يذكرهم القرآن بقوله: ﴿إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون﴾ (الأعراف / ٢٧)، وقوله: ﴿أفتتخذونه وذريته

أولياء﴾ (الكهف / ٥٠) فولاية الواحد منهم إما لبعض الناس دون بعض أو في بعض الأعمال دون بعض، وإما ولاية على نحو العونية فهو العون، والأصل الذي ينتهي اليه أمر الإضلال والإغواء هو إبليس.

فهذا القائل: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ﴾ الخ؛ هو إبليس يريد بكلامه ردّ اللوم على فعل المعاصي اليهم والتبرّي من شركهم فقوله: «إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم» أي وعدكم الله وعداً حققه الوقوع وصدّقته المشاهدة من البعث والجمع والحساب وفصل القضاء والجنة والنار، ووعدتكم أنا أن لا بعث ولا حساب ولا جنة ولا نار ولم أفِ بما وعدت حيث ظهر خلاف ما وعدت. كذا ذكره المفسرون.

وعلى هذا فالموعود جميع ما يرجع الى المعاد إثباتاً ونفياً أثبته الله سبحانه ونفاه إبليس، وإخلاف الوعد كناية عن ظهور الكذب وعدم الوقوع من إطلاق الملزوم وإرادة اللازم.

ومن الممكن ـ بل هو الوجه ـ أن يشمل الوعد ما يترتب على الإيمان والشرك في الدنيا والآخرة جميعاً لأنهما متطابقتان فقد وعد الله أهل الإيمان حياة طيبة وعيشة سعيدة، وأهل الشرك المعرضين عن ذكره معيشة ضنكاً وتحرُّجاً في صدورهم وعذاباً في قلوبهم في الدنيا، ووعد الجميع بعثاً وحساباً وجنة وناراً في الآخرة.

ووعد إبليس أولياءه بالأهواء اللذيذه والآمال الطويلة وأنساهم الموت وصرفهم عن البعث والحساب وخوّفهم الفقر والذلّة وملامة الناس، وكان مفتاحه في جميع ذلك إغفالهم عن مقام ربهم وتزيين ما بين أيديهم من الأسباب مستقلة بالتأثير خالقة لآثارها وتصوير نفوسهم لهم في صورة الاستقلال مهيمنة على سائر الأسباب تدبرها كيف شاءت فتغريهم على الاعتماد بأنفسهم دون الله وتسخير الأسباب في سبيل الآمال والأماني.

وبالجملة وعدهم الله فيما يرجع الى الدنيا والآخرة بما وفى لهم فيه، ودعاهم إبليس من طريق الإغفال والتزيين الى الأوهام والأماني وهي بين ما لا يناله الإنسان قطعاً وما إذا ناله

وجده غير ما كان يظنه. فيتركه الى ما يظنه كما يريد هذا في الدنيا وأما الآخرة فينسيه شؤنها كما تقدَّم.

وقوله: ﴿ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلاَّ أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ﴾ السلطان ـ كما ذكره الراغب ـ هو السلاطة وهو التمكن من القهر، وتسمى الحجة أيضاً سلطاناً لما فيها من التمكن من قهر العقول على ما لها من النتائج، وكثيراً ما يطلق ويراد به ذو السلطان كالملك وغيره.

والظاهر أن المراد ما هو أعم من السلطة الصورية والمعنوية فالمعنى وما كان في الدنيا لي عليكم من تسلط لا من جهة أشخاصكم وأعيانكم فاجبركم على معصية الله بسلب اختياركم وتحميل إرادتي عليكم، ولا من جهة عقولكم فاقيم لكم الحجة على الشرك كيفما شئت فتضطر عقولكم لقبوله وتطيعها نفوسكم فيما تأمرها به.

والظاهر أيضاً أن يكون الاستثناء في قوله: «إلا أن دعوتكم» منقطعاً والمعنى لكن دعوتكم من غير أي سلطان فاستجبتم لي، ودعوته الناس إلى الشرك والمعصية وإن كانت باذن الله لكنها لم تكن تسليطاً فإن الدعوة إلى فعل ليست تسلطاً من الداعي على فعل المدعو وإن كان نوع تسلط على نفس الدعوة، ومن الدليل عليه قوله تعالى فيما يأذن له: **﴿ واستفزز من استطعت منهم بصوتك ـ إلى أن قال ـ وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً إن عبادي ليس لك عليهم سلطان وكفى بربّك وكيلا ﴾** (الإسراء / ٦٥).

وقوله: ﴿ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ ﴾ أي ما أنا بمغيثكم ومنجيكم وما أنتم بمغيثي ومنجيّ فلا أنا شافع لكم ولا أنتم شافعون لي اليوم.

وقوله: ﴿ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ ﴾ أي اني تبرأت من اشراككم إياي في الدنيا، والمراد بالاشراك في الطاعة دون الاشراك في العبادة كما يظهر من قوله تعالى خطاباً لأهل الجمع: **﴿ ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين وأن**

اعبدوني﴾ (يس / ٦١).

وقوله: ﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ من تمام كلام إبليس على ما يعطيه السياق يسجّل عليهم العذاب الأليم لأنهم ظالمون ظلماً لا يرجع إلا الى أنفسهم.

وظاهر السياق أن قوله: ﴿مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ﴾ كناية عن انتفاء الرابطة بينه وبين تابعيه كما يشير تعالى اليه في مواضع اخرى بمثل قوله: ﴿لقد تقطّع بينكم وضلَّ عنكم ما كنتم تزعمون﴾ (الأنعام / ٩٤)، وقوله: ﴿فزيّلنا بينهم وقال شركاؤكم ما كنتم إيانا تعبدون﴾ (يونس / ٢٨).

وفي الآية دلالة واضحة على أن للانسان سلطاناً على عمله هو الذي يوجب ارتباط الجزاء به ويسلبه عن غيره، وهو الذي يعيد اللائمة اليه لا الى غيره، وأما كونه مستقلاً بهذا السلطان فلا دلالة فيها على ذلك البتة. وقد تكلمنا في ذلك في الجزء الأول من الكتاب في ذيل قوله: ﴿وما يضلُّ به إلا الفاسقين﴾ (البقرة / ٢٦).

قوله تعالى: ﴿وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ﴾ الخ: بيان ما ينتهي اليه حال السعداء من المؤمنين، وفي قوله: «تحيتهم فيها سلام» مقابلة حالهم من انعكاس السلام والتحية المباركة من بعضهم الى بعض مع حال غيرهم المذكورين في الآيتين السابقتين من الخصام وتجبيه بعضهم بعضاً بالكفر والتبرّي والإيآس.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ ذكروا أن «كلمة» بدل اشتمال من «مثلاً» و«كشجرة» صفة بعد صفة لقوله: «كلمة» أو خبر مبتدأ محذوف والتقدير هي كشجرة، وقيل: إن «كلمة» مفعول أول متأخر لضرب و«مثلاً» مفعوله الثاني قدّم لدفع محذور الفصل بين «كلمة» وصفتها وهي «كشجرة» والتقدير ضرب الله كلمة طيبة كشجرة طيبة الخ... مثلاً.

وقيل «ضرب» متعدّ لواحد و«كلمة» منصوب بفعل مقدّر كجعل واتخذ والتقدير ضرب الله مثلاً جعل كلمة طيبة كشجرة طيبة الخ؛ وأظن أن هذا أحسن الوجوه لو وجّه بكون «كلمة طيبة» الخ؛ عطف بيان لقوله: «ضرب الله مثلاً» من بيان الجملة للجملة. ويتعيّن حينئذ نصب «كلمة» بمقدّر هو جعل أو اتخذ لأن المدلول أنه مثّل الكلمة بالشجرة وشبّهها بها وهو معنى قولنا: اتخذ كلمة طيبة كشجرة الخ.

وقوله: ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ أي مرتكز في الأرض ضارب بعروقه فيها. وقوله: ﴿وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ أي ما يتفرع على ذلك الأصل من أغصانها في جهة العلو فكل ما علا وأظلّ سماء. وقوله: ﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ أي تثمر ثمرها المأكول كل زمان بإذن الله. وهذا نهاية ما تفيده شجرة من البركات.

والذي يعطيه التدبر في الآيات أن المراد بالكلمة الطيبة التي شبّهت بشجرة طيبة من صفتها كذا وكذا هو الاعتقاد الحق الثابت فإنه تعالى يقول بعد وهو كالنتيجة المأخوذة من التمثيل «يثبّت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة» الآية والقول هي الكلمة ولا كل كلمة بما هي لفظ بل بما هي معتمدة على اعتقاد وعزم يستقيم عليه الإنسان ولا يزيغ عنه عملاً.

ثم ختم الله سبحانه الآية بقوله: «ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون» ليتذكر به المتذكر أن لا محيص لمريد السعادة عن التحقق بكلمة التوحيد والاستقامة عليها.

قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ الاجتثاث الاقتلاع. يقال: جثته واجتثته أي قلعته واقتلعته. والجث بالضم ما ارتفع من الأرض كالأكمة. وجثة الشيء شخصه الناتىء. كذا في المفردات.

والكلمة الخبيثة ما يقابل الكلمة الطيبة ولذا اختلفوا فيها فقال كل قوم فيها ما يقابل ما قاله في الكلمة الطيبة وكذا اختلفوا في المراد بالشجرة الخبيثة فقيل: هي الحنظلة. وقيل:

الكشوث وهو نبت يلتفّ على الشوك والشجر لا أصل له في الأرض ولا ورق عليه، وقيل: شجرة الثوم، وقيل: شجرة الشوك، وقيل: الطحلب، وقيل: الكمأة، وقيل: كل شجرة لا تطيب لها ثمرة.

وقد عرفت حال هذه الاختلافات في الآية السابقة، وعرفت أيضاً ما يعطيه التدبر في معنى الكلمة الطيبة وما مثلت به ويجري ما يقابله في الكلمة الخبيثة وما مثلت به حرفاً بحرف فإنما هي كلمة الشرك مثلت بشجرة خبيثة مفروضة اقتلعت من فوق الأرض ليس لها أصل ثابت وما لها من قرار، وإذ كانت خبيثة فلا أثر لها إلا الضرّ والشرّ.

قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾ إلى آخر الآية؛ الظاهر أن «بالقول» متعلق بقوله: «يثبت» لا بقوله: «آمنوا»، والباء للآلة أو السببية لا للتعدية، وأن قوله: «في الحياة الدنيا وفي الآخرة» متعلق أيضاً بقوله: «يثبت» لا بقوله: «الثابت».

فيعود المعنى إلى أن الذين آمنوا إذا ثبتوا على إيمانهم واستقاموا ثبتهم الله عليه في الدنيا والآخرة، ولولا تثبيته تعالى لهم لم ينفعهم الثبات من أنفسهم شيئاً ولم يستفيدوا شيئاً من فوائده فإليه تعالى يرجع الأمر كله، فقوله تعالى: «يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت»، وفي باب الهداية يوازن قوله: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ (الصف / ٥)، في باب الإضلال.

غير أن بين البابين فرقاً وهو أن الهدى يبتدىء من الله سبحانه ويترتب عليه اهتداء العبد، والضلال يبتدىء من العبد بسوء اختياره فيجازيه الله بالضلال على الضلال، كما قال: ﴿وما يضلّ به إلا الفاسقين﴾ (البقرة / ٢٦) وقد تكاثرت الآيات القرآنية أن الهداية من الله سبحانه ليس لغيره فيها صنع.

وتوضيح المقام أن الله سبحانه خلق الإنسان على فطرة سليمة ركز فيها معرفة ربوبيّته وألهمها فجورها وتقواها، وهذه هداية فطرية أوليّة ثم أيدها بالدعوة الدينية التي قام بها أنبياؤه ورسله.

ثم إن الانسان لو جرى على سلامة فطرته واشتقاق إلى المعرفة والعمل الصالح هـداه الله فاهتدى العبد للإيمان عن هدايته تعالى، وأما جريه على سلامة الفطرة فلو سمّي اهتداء فإنما هو اهتداء متفرّع على السلامة الفطرية لو سمّيت هداية.

ولو انحرف الانسان عن صراط الفطرة بسوء اختياره وجهل مقام ربه وأخلد إلى الأرض واتبّع الهوى وعاند الحق فهو ضلال منه غير مسبوق بإضلال من الله ـ وحـاشاه سـبحانه ـ لكنه يستعقب إضلاله عن الطريق مجازاة وتثبيته على ما هو عليه بقطع الرحمة مـنه وسـلب التوفيق عنه وهذا إضلال مسبوق بضلاله من نفسه بسوء اختياره وإزاغة له عن زيغ منه.

وقوله: ﴿ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾ أي يجري تثبيت هؤلاء وإضـلال اولئك عـلى مـا تقتضيه مشيّته لا مانع له ولا دافع فلا حائل بين مشيته وفعله.

ويظهر من ذلك أن الله تعالى قد شاء تثبيت هؤلاء وإضلال اولئك وهو فاعلهما لا محالة فمن القضاء المحتوم سعادة المؤمن وشقاء الكافر وقد وردت به الرواية.

ووقوع لفظ الجلالة في قوله: «ويضلّ الله» وقوله: «ويفعل الله» من وقوع الظاهر موقع المضمر ويدلّ على فخامة الأمر ومهابة الموقف كما قيل.

قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْراً وَأَحَلُّوا قَـوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴾ قال في المجمع: الإحلال وضع الشيء في محل إما بمجاورة إن كان من قبيل الأجسام أو بمداخلة إن كان من قبيل الأعراض، والبوار الهلاك يقال: بار الشيء يبور بـوراً إذا هـلك ورجل بور أي هالك وقوم بور أيضاً. انتهى.

وقال الراغب: البوار فرط الكساد ولما كان فرط الكساد يؤدي الى الفساد كما قيل: كسد حتى فسد، عبرّ بالبوار عن الهلاك يقال: بار الشيء يبور بوراً وبؤراً قال عزّ وجل: ﴿ تجارة لن تبور ﴾ انتهى.

والآية تذكر حال أئمة الكفر ورؤساء الضلال في ظلمهم وكفرانهم نعمة الله سـبحانه التي

أحاطت بهم من كل جهة بدل أن يشكروها ويؤمنوا بربهم. وقد ذكر قبل كيفية خلقه تعالى السماوات والأرض على غنى منه وهي نعمة، ثم ذكر كلمة الحق التي يدعو اليها وما لها من الآثار الثابتة الطيبة وهي نعمة.

والآية مطلقة لا دليل على تقييدها بكفار مكة أو كفار قريش وإن كان الخطاب فيها للنبي ﷺ، وكان في ذيلها مثل قوله: «قل تمتّعوا فإن مصيركم الى النار» لظهور أن ذلك لا يوجب تقييداً في الآية مع إطلاق مضمونها وشمولها للطواغيت من الامم وما صنعوا بأقوامهم.

فقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْراً﴾ يذكر حال أئمة الكفر ورؤساء الضلال من الامم السابقة ومن هذه الامة والدليل على اختصاصه بهم قوله: «وأحلّوا قومهم دار البوار» المشعر بكونهم نافذي الكلمة مطاعين في قومهم فهم الأئمة والرؤساء.

والمراد بتبديلهم نعمة الله كفراً تبديلهم شكر نعمته الواجب عليهم كفراً ففي الجملة مضاف محذوف والتقدير: بدّلوا شكر نعمة الله كفراً. ويمكن أن يراد تبديل نفس النعمة كفراً بنوع من التجوّز. ونظير الآية في هذه العناية قوله تعالى: ﴿وتجعلون رزقكم أنكم تكذّبون﴾ (الواقعة / ٨٢).

وذكر إحلالهم قومهم دار البوار يستلزم إحلال أنفسهم فيها لأنهم أئمة الضلال ضلُّوا ثم أضلُّوا والتبعة تبعة الضلال. ونظير الآية في هذا المعنى قوله في فرعون: ﴿يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار﴾ (هود / ٩٨).

والمعنى ألم تنظر الى الأئمة والرؤساء من الامم السابقة ومن أُمتك الذين بدّلوا شكر نعمة الله كفراً واتبعتهم قومهم فحلُّوا وأحلُّوا قومهم دار الهلاك وهو الشقاء والنار.

قوله تعالى: ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾ بيان لدار البوار. واحتمال بعضهم أن يكون «جهنم» منصوباً بالاشتغال، والتقدير يصلون جهنم يصلونها والجملة مستأنفة خال عن الوجه لأن النصب مرجوح ولا نكتة تستوجب الاستئناف.

ومن هنا يظهر فساد قول من قال إن الآيات مدنية، والمراد بالذين كفروا هم عظماء مكة وصناديد قريش الذين جمعوا الجموع على النبي ﷺ وحاربوه ببدر فقتلوا وأحلُّوا قومهم دار البوار.

وذلك أنك عرفت من معنى الآية أنها مطلقة ولا موجب لتخصيصها بقتلى بدر من الكفار أصلاً، بل الآية تشمل كل إمام ضلال أحلَّ قومه دار البوار ممن تقدَّم وتأخر، والمراد بإحلال دار البوار إقرارهم في شقاء النار وإن لم يقتلوا ولا ماتوا ولا دخلوا النار بعد.

على أن ظاهر الآية التالية «وجعلوا لله أنداداً ليضلُّوا عن سبيله قبل تمتعوا فإن مصيركم الى النار» أن ضمير الجمع راجع الى الذين كفروا المذكورين في هذه الآية ولازمه كون خطاب قل تمتعوا خطاباً للباقين منهم وهم الذين أسلموا يوم الفتح وهو إيعاد بشقاء قطعي منجّز من غير استثناء.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ الأنداد جمع ندّ وهو المثل وهم الآلهة الذين اتخذوهم آلهة من دون الله من الملائكة والجن والإنس.

وإنما جعلوها أنداداً مع اعترافهم بأنهم مخلوقون لله سبحانه من جهة أنهم سمّوهم آلهة وأرباباً ونسبوا اليهم تدبير أمر العالم ثم عبدوهم خوفاً وطمعاً مع أن الأمر والخلق كله لله وقد اعترفت بذلك فطرتهم وأيَّد الله ذلك بما ألهمه أنبياءه ورسله من الآيات والحجج الدالَّة على وحدانيته.

فهم كانوا على بصيرة من أمر التوحيد لم يتخذوا الأنداد عن غفلة أو خطأ بل عمدوا الى ذلك ابتغاء عرض الحياة الدنيا وليستعبدوا الناس ويستدرّوهم بإضلالهم عن سبيل الله، ولذلك علَّل اتخاذهم الأنداد بقوله: «ليضلُّوا عن سبيله» ثم أمر النبي ﷺ أن يوعدهم بالنار التي اليها مرجعهم لا مرجع لهم سواها، فقال: «قل تمتعوا فإن مصيركم الى النار».

وكان من طبع الكلام أن يقال لهم: اتخذوا الأنداد أو أضلّوا عن سبيل الله فإن مصيركم الى النار، لكن بدّل من قوله: «تمتعوا» ليصرّح بغرضكم الفاسد الذي كانوا يخفونه ليكون أبلغ في فضاحتهم.

قوله تعالى: ﴿قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلوٰةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لاٰ بَيْعٌ فِيهِ وَلاٰ خِلاٰلٌ﴾ لما توعّدهم على لسان رسوله بعذاب يوم القيامة لإضلالهم الناس عن سبيل الله، أمره أن يأمر عباده الذين آمنوا بالتزام سبيله من قبل أن يأتي يوم القيامة فلا يسعهم تدارك ما فات منهم من السعادة بشيء من الأسباب الدائرة بينهم لذلك وهي ترجع الى أحد شيئين: إما المعارضة بإعطاء شيء وأخذ ما يعادله وهو البيع بالمعنى الأعمّ، وإما الخلّة والمحبة، ولا أثر من هذه الأسباب في يوم محض للحساب والجزاء فإن ذلك شأن يوم القيامة لا شأن له دون ذلك.

ومن هنا يظهر أن قوله: ﴿يُقِيمُوا الصَّلوٰةَ وَيُنْفِقُوا﴾ بيان لسبيل الله وقد اكتفى بهذين الركنين اللذين بهما يلحق سائر الوظائف الشرعية مما يصلح حياة الإنسان الدنيوية فيما بينه وبين ربه وما بينه وبين سائر أفراد نوعه.

وقوله: ﴿يُقِيمُوا الصَّلوٰةَ وَيُنْفِقُوا﴾ الخ؛ مجزومان لوقوعهما في جواب الأمر ومقول القول محذوف لدلالة الفعلين عليه، والتقدير: قل: أقيموا الصلاة وأنفقوا «الخ» يقيموا الصلاة وينفقوا «الخ».

قوله تعالى: ﴿أَللّٰهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوٰاتِ وَالْأَرْضَ﴾ الخ؛ لما ذكر سبحانه جعلهم لله أنداداً لإضلال الناس عن سبيل الله وأوعد عليه أورد في هذه الآية إلى تمام ثلاث آيات الحجة على اختصاص الربوبية بنفسه تعالى وتقدس من طريق اختصاص التدبير العام به من نظم الخلقة وإنزال الماء وإخراج الرزق وتسخير البحار ـ الفلك ـ والأنهار والشمس والقمر والليل والنهار.

وأشار في آخر الآيات إلى أنها وما لا تحصى من غيرها نعمة منه تعالى للإنسان لأن البيان في هذه السورة ـ كما تقدمت الاشارة إليه ـ يجري في ضوء الاسمين: العزيز الحميد.

فقوله: ﴿أَللَّهُ الَّذِي خَلَقَ﴾ الخ؛ في معنى قولنا: فهو الربّ وحده دون الذين جعلتموهم أنداداً له.

وقوله: ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ﴾ الخ؛ المراد بالسماء جهة العلو وهو معناها اللغوي، والماء النازل منها هو المطر النازل منها فإليه ينتهي الماء في الأرض الذي تعيش به ذوات الحياة من النبات والحيوان.

قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَارَ﴾ تسخير الفلك للناس هو جعلها بحيث تنفعهم في مقاصدهم وهي العبور بأنفسهم وأحمالهم وغير ذلك من غير أن ترسب في الماء أو تمتنع عن الحركة.

وأما قول بعضهم: تسخيرها لهم هو إقدارهم على صنعتها واستعمالها بإلهامهم طريق ذلك بعيد، فإن الظاهر من تسخير شيء للانسان هو التصرف فيه بجعله موافقاً لما يقصده من منافع نفسه دون التصرف في الانسان نفسه بإلهام ونحوه.

وكان من طبع الكلام أن يقال: وسخر لكم البحر لتجري فيه الفلك بأمره وسخر لكم الأنهار غير أنه عكس، وقيل: وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره لكون الفلك من أوضح النعم البحرية وإن لم تنحصر فيها نعمه ولعل ذلك هو السبب في العكس، لأن المقام مقام عدّ النعمة والنعمة في الفلك أوضح وإن كانت في البحر أعظم.

وإسناد جريها في البحر إلى أمره تعالى مع كونه مستنداً إلى الأسباب الطبيعية العاملة كالريح والبخار وسائر الأسباب، لكونه تعالى هو السبب المحيط الذي إليه ينتهي كل سبب.

وقوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَارَ﴾ وهي المياه الجارية في مختلف أقطار الأرض وتسخيرها هو تذليلها بحيث ينتفع بها الإنسان بالشرب والغسل وإزالة الأوساخ وغير ذلك

ويعيش بها الحيوان والنبات المسخَّران له.

قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ قال الراغب: الدأب إدامة السير دأب في السير دأباً، قال تعالى: «وسخّر لكم الشمس والقمر دائبين» والدأب العادة المستمرة دائماً على حالة، قال تعالى: «كدأب آل فرعون» أي كعادتهم التي يستمرون عليها. انتهى، ومعنى الآية واضح.

قوله تعالى: ﴿وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ السؤال هو الطلب ويفارقه أن السؤال إنما يكون ممن يعقل والطلب أعمّ وإنما تنبّه الإنسان للسؤال من جهة الحاجة الداعية اليه فأظهر له أن يرفع ما حلّت به من حاجة وكانت الوسيلة العادية اليه هي اللفظ فتوسل به اليه وربما توسل اليه بإشارة أو كتابة وسمي سؤالاً حقيقة من غير تجوّز.

فبالجملة معنى الآية أن الله تعالى أعطى النوع الإنساني ما سأله فما من حاجة من حوائجه إلا رفع كلها أو بعضها حسب ما تقتضيه حكمته البالغة.

وقوله: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ قال الراغب: الإحصاء: التحصيل بالعدد يقال: أحصيت كذا وذلك من لفظ الحصا واستعمال ذلك فيه من حيث إنهم كانوا يعتمدونه بالعدّ كاعتمادنا فيه على الأصابع. انتهى.

وفي الجملة إشارة إلى خروج النعم عن طوق الإحصاء ولازمه كون حوائج الإنسان التي رفعها الله بنعمه غير مقدور للانسان إحصاؤها.

وكيف يمكن إحصاء نعمه تعالى وعالم الوجود بجميع أجزائه وما يلحق بها من الأوصاف والأحوال مرتبطة منتظمة نافع بعضها في بعض متوقف بعضها على بعض، فالجميع نعمه بالنسبة الى الجميع وهذا أمر لا يحيط به إحصاء.

ولعل ذلك هو السر في إفراد النعمة في قوله: «نعمة الله» فإن الحق أن ليس هناك إلا النعمة

فلا حاجة الى تفخيمها بالجمع ليدلّ على الكثرة، والمراد بالنعمة جنس المنعم فيفيد ما يفيده الجمع.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنْسانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ أي كثير الكفران يظلم نفسه فلا يشكر نعمة الله ويكفر بها فيؤدّيه ذلك الى البوار والخسران، أو كثير الظلم لنعم الله لا يشكرها ويكفر بها، الجملة استئناف بياني يؤكد بها ما يستفاد من البيان السابق، فإن الواقف على ما مرَّ بيانه من حال نعمه تعالى وما آتى الإنسان من كل ما سأله منها لا يرتاب في أن الإنسان وهو غافل عنها طبعاً ظالم لنفسه كافر بنعمة ربه[1].

٣٥ ❁ وَإِذْ قالَ إِبْراهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هٰذا ٱلْبَلَدَ آمِناً وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ ٱلْأَصْنامَ.

٣٦ ❁ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ.

٣٧ ❁ رَبَّنا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنا لِيُقِيمُوا الصَّلٰوةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَراتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ.

٣٨ ❁ رَبَّنا إِنَّكَ تَعْلَمُ ما نُخْفِي وَما نُعْلِنُ وَما يَخْفىٰ عَلَى ٱللّٰهِ مِنْ شَيْءٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلا فِي السَّماءِ.

٣٩ ❁ أَلْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمٰعِيلَ وَإِسْحٰقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعاءِ.

---

١. ابراهيم ١٩ ـ ٣٤: بحث روائي في كلمة طيبة وشجرة طيبة وكلمة خبيثة وشجرة خبيثة.

٤٠ ❁ رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ.

٤١ ❁ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾ أي واذكر إذ قال إبراهيم والإشارة إلى مكة شرّفها الله تعالى.

وقد حكى الله سبحانه نظير هذا الدعاء على اختصار فيه عن إبراهيم عليه السلام في موضع آخر بقوله: ﴿وإذ قال إبراهيم ربّ اجعل هذا بلداً آمناً وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال ومن كفر فامتّعه قليلاً ثم اضطرّه إلى عذاب الناس وبئس المصير﴾ (البقرة / ١٢٦).

ومن الممكن أن يستفاد من اختلاف المحكيّين في التعبير أعني قوله: «اجعل هذا بلداً آمناً» وقوله: «اجعل هذا البلد آمنا» أنهما دعاءان دعا عليه السلام بهما في زمانين مختلفين، وأنه بعدما أسكن إسماعيل وأمه أرض مكة ورجع إلى أرض فلسطين ثم عاد اليهما وجد من إقبال جرهم إلى مجاورتهما مكاناً ما سرّ بذلك فدعا عند ذلك مشيراً إلى مكانهم «ربّ اجعل هذا بلداً آمناً» فسأل ربه أن يجعل المكان بلداً ولم يكن به وأن يرزق أهله المؤمنين من الثمرات، ثم لما عاد اليهم بعد ذلك بزمان وجد المكان بلداً فسأل ربه أن يجعل البلد آمناً.

ومما يؤيّد كونهما دعاءين ما فيهما من الاختلاف من غير هذه الجهة ففي آية البقرة الدعاء لأهل البلد بالرزق من الثمرات وفي الآيات المبحوث عنها الدعاء بذلك لذريته خاصة مع امور اخرى دعا بها لهم.

وعلى هذا يكون هذا الدعاء المحكي عن إبراهيم عليه السلام في هذه الآيات آخر ما أورده الله تعالى في كتابه من كلام إبراهيم عليه السلام ودعائه، وقد دعا به بعد ما أسكن إسماعيل وأمه بها

وجاورتهما قبيلة جرهم وبني البيت الحرام وبنيت بلدة مكة بأيدي القاطنين هناك كما تدل عليه فقرات الآيات.

وعلى تقدير أن يكون المحكيات دعاء واحداً يكون قوله: «ربّ اجعل» الخ؛ تقديره: ربّ اجعل هذا البلد بلداً آمناً وقد حذف في إحدى الآيتين المشار اليه وفي الاخرى الموصوف اختصاراً.

والمراد بالأمن الذي سأله عليه السلام الأمن التشريعي دون التكويني ـ كما تقدم في تفسير آية البقرة ـ فهو يسأل ربه أن يشرع لأرض مكة حكم الحرمة والأمن، وهو ـ على خلاف ما ربما يتوهم ـ من أعظم النعم التي أنعم الله بها على عبادة فإنا لو تأملنا هذا الحكم الإلهي الذي شرعه إبراهيم عليه السلام بإذن ربه أعني حكم الحرمة والأمن وأمعنا فيما يعتقده الناس من تقديس هذا البيت العتيق وما أحاط به من حرم الله الآمن وقد ركز ذلك في نفوسهم منذ أربعة آلاف سنة حتى اليوم وجدنا ما لا يحصى من الخيرات والبركات الدينية والدنيوية عائدة إلى أهلها وإلى سائر أهل الحق ممن يحن إليهم ويتعلق قلبه بهم، وقد ضبط التاريخ من ذلك شيئاً كثيراً وما لم يضبط أكثر فجعله تعالى مكة بلداً آمناً من النعم العظيمة التي أنعم الله بها على عباده.

قوله تعالى: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ، رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ ـ إلى قوله ـ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يقال: جنبه وأجنبه أي أبعده، وسؤاله عليه السلام أن يجنبه الله ويعبده وبنيه من عبادة الأصنام لواذ والتجاء إليه تعالى من الإضلال الذي نسبه إليهن في قوله: «رب إنهن أضللن» الخ.

ومن المعلوم أن هذا الإبعاد والإجناب منه تعالى كيفما كان وأياً ما كان تصرف مّا وتأثير منه تعالى في عبده بنحو، غير أنه ليس بنحو يؤدي إلى الإلجاء والاضطرار ولا ينجر إلى القهر والإجبار بسلب صفة الاختيار منه إذ لا مزية لمثل هذا الابتعاد حتى يسأل ذلك مثل إبراهيم خليل الله.

فرجع بالحقيقة إلى ما تقدم في قوله تعالى: ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت ﴾ الآية ؛ أن كل خير من فعل أو ترك فإنه منسوب اليه تعالى أولاً، ثم إلى العبد ثانياً بخلاف الشر من فعل أو ترك فإنه منسوب إلى العبد ابتداء ولو نسب إليه تعالى فإنما ينسب إذا كان على سبيل المجازاة، وقد أوضحنا ذلك.

فالاجتناب من عبادة الأصنام إنما يتحقق عن إجناب من الله رحمة منه لعبده وعناية، وليس في الحقيقة إلا أمراً تلبّس واتصف به العبد غير أنه إنما يملكه بتمليك الله سبحانه فهو المالك له بذاته والعبد يملكه بأمر منه وإذن كما أن العبد إنما يهتدي عن هداية من الله. وليس هناك إلا هدى واحد لكنه مملوك لله سبحانه لذاته والعبد إنما يملكه بتمليك منه سبحانه، وأبسط كلمة في هذا المعنى ما وقع في أخبار آل العصمة أن الله يوفق عبده لفعل الخير وترك الشر هذا.

فتلخّص أن المراد بقوله عليه السلام: «واجنبني» سؤال ما لله سبحانه من الصنع في ترك العبد عبادة الأصنام، وبعبارة أُخرى هو يسأل ربه أن يحفظه وبنيه من عبادة الأصنام ويهديهم إلى الحق إن هم عرضوا أنفسهم لذلك وأن يفيض عليهم إن استفاضوا لا أن يحفظهم منها سواء عرضوا لذلك أنفسهم أو لم يعرضوا وأن يفيض عليهم سواء استفاضوا أو امتنعوا فهذا معنى دعائه عليه السلام.

ومنه يعلم أن نتيجة الدعاء لبعض المدعوين لهم وإن كان بلفظ يستوعب الجميع، وهذا البعض هم المستعدون لذلك دون المعاندين والمستكبرين منهم وسنزيده بياناً.

ثم هو عليه السلام يدعو بهذا الدعاء لنفسه وبنيه «واجنبني وبنيّ أن نعبد الأصنام» وبنوه جميع من جاء من نسله بعده وهم بنو إسماعيل وبنو إسحاق فإن الابن كما يطلق على الولد من غير واسطة كذلك يطلق على غيره، ويصدق ذلك القرآن الكريم قال تعالى: ﴿ ملة أبيكم إبراهيم ﴾ (الحج / ٧٨) وقد تكرر إطلاق بني إسرائيل على اليهود في نيف وأربعين موضعاً من كلامه

تعالى.

فهو ﷺ يسأل البعد عن عبادة الأصنام لنفسه ولجميع من بعده من بنيه بالمعنى الذي تقدم، اللهم إلا أن يقال: إن قرائن الحال والمقال تدل على اختصاص الدعاة بآل إسماعيل القاطنين بالحجاز فلا يعم بني إسحاق.

ثم عقب ﷺ دعاءه «واجنبني وبني أن نعبد الأصنام» بقوله: «رب إنهن أضللن كثيراً من الناس» وهو في مقام التعليل لدعائه، وقد أعاد النداء «رب» إثارة للرحمة الإلهية، أي إني إنما أسألك أن تبعدني وبني عن عبادتهن لأنهن أضللن كثيراً من الناس ونسبة الاضلال إلى الأصنام لمكان الربط الذي بين الضلال وبينهن وإن لم يكن ارتباطاً شعورياً وليس من اللازم في نسبة أي فعل أو أثر إلى شيء أن يقوم به قياماً شعورياً وهو ظاهر.

ثم قوله ﷺ: ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ تفريع على ما تقدم من كلامه أي إذا كان كثير من الناس أضلتهم الأصنام بعبادتهن واستعذت بك وعرضت نفسي وبنيّ عليك أن تجنبنا من عبادتهن افترقنا نحن والناس طائفتين: الضالون عن طريق توحيدك والعارضون لأنفسهم على حفظك وإجنابك فمن تبعني الخ.

وقد عبّر ﷺ في تفريعه بقوله: ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي﴾ والإتّباع إنما يكون في طريق ـ وقد لوَّح إلى الطريق أيضاً بقوله: «أضللن» لأن الضلال إنما يكون عن الطريق ـ فمراده باتباعه التدين بدينه والسير بسيرته لا مجرد الاعتقاد بوحدانيته تعالى بل سلوك طريقته المبنية على توحيد الله سبحانه ليكون في ذلك عرض النفس على رحمته تعالى وإجنابه من عبادة الأصنام.

ومن الدليل على كون المراد بالاتباع هو سلوك سبيله قوله في ما يعادله من كلامه: «ومن عصاني» فإنه نسب العصيان إلى نفسه ولم يقل: ومن كفر بك أو عصاك أو فسق عن الحق ونحو ذلك كما لم يقل: فمن آمن بك أو أطاعك أو اتقاك وما أشبهه.

فمراده باتباعه سلوك طريقه والتدين بجميع ما أتى به من الاعتقاد والعمل وبعصيانه ترك سيرته وما أتى به من الشريعة اعتقاداً وعملاً كأنه عليه السلام يقول: من تبعني وعمل بشريعتي وسار بسيرتي فانه ملحق بي ومن أبنائي تنزيلاً أسألك أن تجنبني وإياه أن نعبد الأصنام، ومن عصاني بترك طريقتي كلها أو بعضها سواء كان من بني أو غيرهم فلا أُلحقه بنفسي ولا أسألك إجنابه وإبعاده بل أُخلّي بينه وبين مغفرتك ورحمتك[1].

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ـ إلى آخر الآية ـ مِن ذُرِّيَّتِي﴾ في تأويل مفعول ﴿أَسْكَنتُ﴾ أو سادّ مسدّه و «من» فيه للتبعيض ومراده عليه السلام ببعض ذريته ابنه اسماعيل ومن سيولد له من الأولاد دون إسماعيل وحده بدليل قوله بعد: «ربنا ليقيموا الصلاة».

والمراد بغير ذي زرع غير المزروع وهو آكد وأبلغ لأنه يدل ـ كما قيل ـ على عدم صلاحيته لأن يزرع لكونه أرضاً حجرية رملية خالية عن المواد الصالحة للزرع وهذا كقوله: «قرآناً غير ذي عوج».

ونسبة البيت إلى الله سبحانه لأنه مبني لغرض لا يصلح إلا له تعالى وهو عبادته، وكونه محرّماً هو ما جعل الله له من الحرمة تشريعاً. والظرف أعني قوله: «عند بيتك المحرّم» متعلق بقوله: «أسكنت».

وهذه الجملة من دعائه عليه السلام أعني قوله: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ ـ إلى قوله ـ الْمُحَرَّمِ﴾ من الشاهد على ما قدّمناه من أنه عليه السلام إنما دعا بهذا الدعاء في أواخر عمره بعد ما بني الكعبة وبنى الناس بلدة مكة وعمروها، كما أن من الشاهد عليه أيضاً قوله: «الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق».

---

١. ابراهيم ٣٥ ـ ٤١: بحث في قول ابراهيم عليه السلام «واجنبني وبني ان نعبد الاصنام»: الشرك الخفي.

وبذلك يندفع ما ربما يستشكل فيقال: كيف سماه بيتاً وقال: أسكنت من ذريتي عنده ولم يبنه بعد؟ كأن السائل يقدّر أنه إنما دعا به يوم أتى بإسماعيل وأمه إلى أرض مكة وكانت أرضاً قفراء لا أنيس بها ولا نبت.

ولا حاجة إلى دفعه بأنه كان يعلم بما علمه الله أنه سيبني هناك بيتاً لله أو بأن البيت كان قبل ذلك وإنما خرّبه بعض الطوائف أو رفعه الله إلى السماء في الطوفان وليت شعري إذا اندفع بهما هذا الإشكال فكيف يندفع بهما ما يتوجه من الإشكال على هذا التقدير إلى ظاهر قوله: ربّ اجعل هذا البلد آمناً وظاهر قوله: «وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق».

وقوله: ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَوٰةَ﴾ بيان لغرضه من إسكانهم هناك، وهو بانضمام ما تقدم من قوله: «بواد غير ذي زرع» وما يعقّبه من قوله: «فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات» يفيد أنه عليه السلام إنما اختار وادياً غير ذي زرع أعزل من أمتعة الحياة من ماء عذب ونبات ذي خضرة وشجر ذي بهجة وهواء معتدل خالياً من السكنة ليتمحضوا في عبادة الله من غير أن يشغلهم شواغل الدنيا.

وقوله: ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ الخ: من الهويّ بمعنى السقوط أي تحنّ وتميل إليهم بالمساكنة معهم أو بالحج إلى البيت فيأنسوا بهم، وارزقهم من الثمرات، بالنقل إليهم تجارة لعلهم يشكرون.

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ﴾ إلى آخر الآية معناه ظاهر، وقوله: «وما يخفى على الله شيء في الأرض ولا في السماء» من تمام كلام إبراهيم عليه السلام أو من كلامه تعالى، وعلى الأول ففي قوله: «على الله» التفات وجهه الإشارة إلى علة الحكم كأنه قيل: إنك تعلم ما نخفي وما نعلن لأنك الله الذي ما يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، ولا يبعد أن يستفاد من هذا التعليل أن المراد بالسماء ما هو خفي علينا غائب عن حسّنا والأرض لافه فافهم ذلك.

قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ كالجملة المعترضة بين فقرات دعائه دعاه إلى إيراده تذكّره في ضمن ما أورده من الأدعية عظيم نعمة الله عليه إذ وهب له ولدين صالحين مثلهما بعدما انقطع عنه الأسباب العادية المؤدية إلى ظهور النسل، وأنه إنما وهبهما له باستجابة دعائه للولد فحمد الله على ما وهبهما وأثنى عليه على استجبابة دعائه في ذلك.

قوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ﴾ الكلام في استناد إقامته الصلاة إلى الله سبحانه نظير الكلام في استناد إجنابه أن يعبد الأصنام فإن لإقامة الصلاة نسبة اليه تعالى بالإذن والمشية كما أن لها نسبة إلى العبد بالتصدي والعمل وقد مرّ الكلام فيه.

وهذه الفقرة ثاني دعاء يشترك فيه هو عليه السلام وذريته ويعقّب في الحقيقة قوله أولاً: «واجنبني وبنيَّ أن نعبد الأصنام» كما يلحق به دعاؤه الثالث المشترك فيه «ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين».

وقد أفرد نفسه في جميع الفقرات الثلاث عن غيره إذ قال: ﴿وَٱجْنُبْنِي﴾ ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ ﴿ٱغْفِرْ لِي﴾ لأن مطلوبه لحوق ذريته به كما قال في موضع آخر: ﴿واجعل لي لسان صدق في الآخرين﴾ (الشعراء / ٨٤) وفي موضع آخر كما حكاه الله بقوله: ﴿وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إني جاعلك للناس إماماً قال ومن ذريتي﴾ (البقرة / ١٢٤).

وأما قوله في الفقرة الاولى: «واجنبني وبني» وههنا «اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي» فقد تقدم أن المراد ببنيه بعضهم لا جميعهم فتتطابق الفقرتان.

ومن تطابق الفقرتين أنه أكد دعاءه في هذه الفقرة بقوله: «ربنا وتقبل دعاء» فإن سؤال تقبل الدعاء إلحاح وإصرار وتأكيد كما أن التعليل في الفقرة الاولى، بقوله: «رب إنهنَّ أضللن

كثيراً من الناس» تأكيد في الحقيقة لما فيها من الدعاء، بقوله: «واجنبني» الخ.

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾ ختم عليه السلام دعاءه ـ وهو آخر ما ذكر من دعائه في القرآن الكريم كما تقدم ـ بطلب المغفرة للمؤمنين يوم القيامة، ويشبه آخر ما دعا به نوح عليه السلام مما ذكر في القرآن: ﴿رب اغفر لي ولوالدي ولمن دخل بيتي مؤمناً وللمؤمنين والمؤمنات﴾ (نوح / ٢٨).

وفي الآية دليل على أنه عليه السلام لم يكن ولد آزر المشرك لصلبه فإنه عليه السلام ـ كما ترى ـ يستغفر لوالديه وهو على الكبر وفي آخر عهده «وقد تبرء من آزر في أوائل عهده بعدما استغفر له عن موعدة وعده إياه قال تعالى: ﴿قال سلام عليك سأستغفر لك ربي﴾ (مريم / ٤٧)، وقال: ﴿واغفر لأبي إنه كان من الضالين﴾ (الشعراء / ٨٦)، وقال: ﴿وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرء منه﴾ (التوبة / ١١٤) وقد تقدم تفصيل القول في قصصه عليه السلام في سورة الأنعام في الجزء السابع من الكتاب.

ومن لطيف ما في دعائه عليه السلام اختلاف النداء المكرر الذي فيه بلفظ «رب» و«ربنا» والعناية فيما أُضيف إلى نفسه بما يختص بنفسه من السبقة والإمامة، وفيما أُضيف إلى نفسه وغيره إلى المشتركات.

٤٢ ۞ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ.

٤٣ ۞ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ.

٤٤ ۞ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا

أَخِّرْنا إِلىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ أَوَلَمْ
تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ ما لَكُمْ مِنْ زَوالٍ.

٤٥ ❁ وَسَكَنْتُمْ فِي مَساكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ
فَعَلْنا بِهِمْ وَضَرَبْنا لَكُمُ ٱلْأَمْثالَ.

٤٦ ❁ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ ٱللّٰهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كانَ مَكْرُهُمْ
لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبالُ.

٤٧ ❁ فَلا تَحْسَبَنَّ ٱللّٰهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ ٱللّٰهَ عَزِيزٌ ذُو
ٱنْتِقامٍ.

٤٨ ❁ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَالسَّمٰواتُ وَبَرَزُوا لِلّٰهِ
ٱلْواحِدِ ٱلْقَهّارِ.

٤٩ ❁ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفادِ.

٥٠ ❁ سَرابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرانٍ وَتَغْشىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنّارُ.

٥١ ❁ لِيَجْزِيَ ٱللّٰهُ كُلَّ نَفْسٍ ما كَسَبَتْ إِنَّ ٱللّٰهَ سَرِيعُ ٱلْحِسابِ.

٥٢ ❁ هٰذا بَلاغٌ لِلنّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّما هُوَ إِلٰهٌ واحِدٌ
وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا ٱلْأَلْبابِ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللّٰهَ غافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظّٰالِمُونَ﴾ الى آخر الآيتين؛

يقال : شخص بصره أي سكن بحيث لا يطرف جفنه ، ويقال : بعير مهطع إذا صوَّب عنقه أي رفعه وهطع وأهطع بمعنى ، ويقال : أقنع رأسه إذا رفعه ، وقوله : لا يرتد اليهم طرفهم أي لا يقدرون على أن يطرفوا من هول ما يشاهدونه ، وقوله : وأفئدتهم هواء أي قلوبهم خالية عن التعقل والتدبير لشدة الموقف أو أنها زائلة .

والمعنى : ولا تحسبنّ الله ولا تظنّنه غافلاً عما يعمل هؤلاء الظالمون بما تشاهد من تمتعهم وإترافهم في العيش وإفسادهم في الأرض إنما يمهلهم الله ويؤخر عقابهم الى يوم يسكن فيه أبصارهم فلا تطرف والحال أنهم مادّون لأعناقهم رافعون لرؤسهم لا يقدرون على ردّ طرفهم وقلوبهم مدهوشة خالية عن كل تخيّل وتدبير من شدة هول يوم القيامة وفي الآية إنذار للظالمين وتعزية لغيرهم .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ ﴾ الى آخر الآية ؛ في الآية إنذار بعد إنذار وبين الإنذار فرق من جهتين :

إحداهما : أن الإنذار في الآيتين السابقتين إنذار بما أعدّ الله من أهوال يوم القيامة وأليم العذاب فيه . وأما الذي في هذه الآية وما يتلوها فهو إنذار بعذاب الاستئصال في الدنيا ومن الدليل عليه قوله : « فيقول الذين ظلموا ربنا أخّرنا الى أجل قريب » الخ .

والثانية : أن الإنذار الأول إنذار بعذاب قطعي لا صارف له عن أُمة ظالمة ولا فرد ظالم من أُمة وأما الإنذار الثاني فهو إنذار بعذاب غير مصروف عن أُمة ظالمة وأما الفرد فربما صرف عنه ، ولذلك ترى أنه تعالى يقول أولاً « وأنذر الناس » ثم يقول « فيقول الذين ظلموا » الخ ؛ ولم يقل : فيقولون أي الناس لأن عذاب الاستئصال لا يصيب المؤمنين قال تعالى : ﴿ **ثم ننجّي رسلنا والذين آمنوا كذلك حقاً علينا ننج المؤمنين** ﴾ (يونس / ١٠٣) وإنما يصيب الامة الظالمة بحلول أجلهم وهو طائفة من ظالمي الامة لا جميع أفرادها .

وبالجملة فقوله : ﴿ وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ ﴾ إنذار للناس بعذاب

الاستئصال الذي يقطع دابر الظالمين منهم. وقد تقدم في تفسير سورة يونس وغيره أن ذلك مكتوب على الامم قضاء بينهم وبين رسولهم حتى هذه الامة المحمدية وقد تكرر هذا الوعيد منه تعالى في عدة مواضع من كلامه.

وهذا هو اليوم الذي يطهّر الله الأرض فيه من قذارة الشرك والظلم ولا يعبد عليها يومئذ إلا الله سبحانه فإن الدعوة عامة والامة هم أهل الأرض فإذا محى الله عنهم الشرك لم يبق منهم إلا المؤمنون ويكون الدين كله لله. قال تعالى: ﴿**ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون**﴾.

وقوله: ﴿فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ﴾ المراد به الظالمون من الناس وهم الذين يأخذهم العذاب المستأصل ولا يتخطاهم، ومرادهم بقولهم: «أخّرنا الى أجل قريب» الاستمهال بمدة قصيرة تضاف الى عمرهم في الدنيا حتى يتداركوا فيه ما فوّتوه بظلمهم والدليل عليه قولهم: «نجب دعوتك ونتّبع الرسل».

والتعبير بالرسل بلفظ الجمع في قولهم: «ونتّبع الرسل» مع أن الآية تصف حال ظالمي هذه الامة ظاهراً وكان مقتضى ذلك أن يقال: ونتبع الرسول إنما هو للدلالة على أن الملاك في نزول هذا العذاب القضاء بين الرسالة وبين منكريها من غير اختصاص ذلك برسول دون رسول كما يفيده قوله: ﴿**ولكل أُمة رسول فإذا جاء رسولهم قضي بينهم بالقسط وهم لا يظلمون**﴾ (يونس / ٤٧).

وقوله: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ﴾ الإقسام تعليق الحكم في الكلام بأمر شريف من جهة شرافته ليدلّ به على صدقه إذ لو كذب المتكلم وقد أقسم في كلامه لأذهب بذلك شرف المقسم به كقولنا: والله إن كذا لكذا ولعمري إن الأمر على كذا، ويعدّ القسم أقوى أسباب التأكيد. ولا يبعد أن يكون الإقسام في الآية كناية عن إيراد

الكلام في صورة جازمة غير قابلة للترديد.

والكلام على تقدير القول، والمعنى يقال لهم توبيخاً وتبكيتاً: ألم تكونوا أقسمتم من قبل نزول العذاب ما لكم من زوال وأنكم بما عندكم من القوة والسطوة ووسائل الدفاع أمة خالدة مسيطرة على الحوادث فما لكم تستمهلون الى أجل قريب.

قوله تعالى: ﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ الى آخر الآية؛ معطوف على محل قوله: «أقسمتم» في الآية السابقة، والمعنى: أولم تكونوا سكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم من الامم السابقة، وظهر لكم أن هذه الدعوة حقة ويتعقبها لو ردّت عذاب مستأصل، من جهتين: جهة المشاهدة حيث تبيّن لكم كيف فعلنا باولئك الظالمين الذين سكنتم في مساكنهم؟ وجهة البيان حيث ضربنا لكم الأمثال وأنذرناكم عذاباً مستأصلاً يتعقبه إنكار الحق وردّ الدعوة النبوية ويقطع دابر الظالمين.

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾ حال من الضمير في «فعلنا» في الآية السابقة أو من الضمير في «بهم» فيها أو من الضميرين جميعاً على ما قيل، وضمائر الجمع راجعة الى «الذين ظلموا».

والمراد بكون مكرهم عند الله إحاطته تعالى به بعلمه وقدرته، ومن المعلوم أن المكر إنما يكون مكراً إذا لم يحط به الممكور به وجهله، وأما إذا كان الممكور به عالماً بما هيأه الماكر من المكر وقادراً على دفعه لغى المكر أو عاد مكراً على نفس الماكر كما قال تعالى: ﴿وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون﴾ (الأنعام / ١٢٣).

وقوله: ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾ إن وصليّة ـ على ما قيل ـ واللام في «لتزول» متعلق بمقدّر يدلّ عليه لفظ المكر كقولنا: يقتضي أو يوجب وما أشبه ذلك، والتقدير: الله محيط بمكرهم عالم به قادر على دفعه إن كان مكرهم دون هذه الشدة وإن كان على هذه الشدة.

والمعنى تبيّن لكم كيف فعلنا بهم والحال أنهم مكروا ما في وسعهم من المكر والله محيط بمكرهم وإن كان مكرهم عظيماً موجباً لزوال الجبال.

وربما قيل: إن «إن» نافية واللام هي الداخلة على المنفي بالجبال الآيات والمعجزات كناية والمعنى وما كان مكرهم لتبطل به آيات الله ومعجزاته التي هي كالجبال الراسيات التي لا تزول عن مكانها، وأُيّد هذا المعنى بقراءة ابن مسعود «وما كان مكرهم» وهو معنى بعيد.

وقرىء أيضاً «لتزول» بفتح اللام الاولى وضم اللام الثانية، وعلى هذا تكون «إن» مخففة من المشددة والمعنى والتحقيق أن مكرهم كان من العظمة بحيث تزول منه الجبال.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ تفريع على ما تقدم أن ترك مؤاخذة الظالمين بعملهم إنما هو لتأخيرهم الى يوم القيامة أي إذا كان الأمر كذلك فلا تحسبنّ الله مخلفاً لما وعد رسله من نصرهم ومؤاخذه المتخلفين عن دعوتهم، وكيف يخلف وعده وهو عزيز ذو انتقام شديد ولازم عزته المطلقة أن لا يخلف وعده فإن إخلاف الوعد إما لكون الواعد غير قادر على إنجاز ما وعده أو لتغير من الرأي بعروض حال ثانية تقهره على خلاف ما بعثته اليه الحال الاولى التي أوجبت عليه الوعد والله سبحانه عزيز على الإطلاق لا يتصف بعجز ولا تقهره حال ولا شيء آخر وهو الواحد القهار.

ولازم اتصافه بالانتقام أن ينتقم للحق ممن استكبر عنه واستعلى عليه وينتصف للمظلوم من الظالم.

وذو انتقام من أسمائه تعالى الحسنى التي سمى الله تعالى بها نفسه في مواضع من كلامه وقارنه في جميعها باسمه العزيز، قال تعالى: ﴿والله عزيز ذو انتقام﴾ (آل عمران / ٤)، (المائدة / ٩٥)، وقال: ﴿أليس الله بعزيز ذو انتقام﴾ (الزمر / ٣٧)، وقال في الآية المبحوث

عنها: ﴿إن الله عزيز ذو انتقام﴾ من ذلك يظهر أن «ذا انتقام» من فروع اسم «العزيز»[1].

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ الظرف متعلق بقوله: «ذو انتقام» وتخصيص انتقامه تعالى بيوم القيامة مع عمومه لجميع الأوقات والظروف إنما هو لكون اليوم أعلى مظاهر الانتقام الإلهي كما أن تخصيص بروزهم لله بذلك اليوم كذلك. وعلى هذا النسق جلّ الأوصاف المذكورة في كلامه تعالى ليوم القيامة كقوله: ﴿الأمر يومئذ لله﴾ (الإنفطار / ١٩)، وقوله: ﴿ما لكم من الله من عاصم﴾ (المؤمن / ٣٣)، الى غير ذلك وقد تقدمت الإشارة اليه كراراً.

والظاهر أن اللام في الأرض للعهد في الموضعين معاً وكذا في السماوات والسماوات معطوفة على الأرض الاولى والمعنى تبدَّل هذه الأرض غير هذه الأرض وتبدل هذه السماوات غير هذه السماوات.

وقوله: ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ معنى بروزهم وظهورهم لله يومئذ ـ مع كون الأشياء بارزة غير خفيَّة عليه دائماً ـ سقوط جميع العلل والأسباب التي كانت تحجبهم عنه تعالى ما داموا في الدنيا فلا يبقى يومئذ ـ على ما يشاهدون ـ شيء من الأسباب يملكهم ويتولى أمرهم ويستقلّ بالتأثير فيهم إلا الله سبحانه كما يدلّ عليه آيات كثيرة فهم لا يلتفتون الى جانب ولا يتوجهون الى جهة في ظاهرهم وباطنهم وحاضرهم والماضي الغائب من أحوالهم وأعمالهم إلا وجدوه سبحانه شاهداً مهيمناً عليه محيطاً به.

والدليل على هذا الذي ذكرناه توصيفه تعالى بالواحد القهّار المشعر بنوع من الغلبة فبروزهم لله يومئذ إنما هو ناشيء عن كونه تعالى هو الواحد الذي يقوم به وجود كل شيء ويقهر كل من دونه من مؤثر فلا يحول بينهم وبينه حائل فهم بارزون له بروزاً مطلقاً.

---

١. ابراهيم ٤٢ ـ ٥٢: كلام في معنى الانتقام ونسبته اليه تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ، سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ المقرَّنين من التقرين وهو جمع الشيء الى نظيره والأصفاد جمع الصفد وهو الغلّ الذي يجمع اليد الى العنق أو هو مطلق السلسلة يقرن بين المقيّدين. والسرابيل جمع السربال وهو القميص والقطران شيء أسود منتن يطلى به الإبل فإنهم يطلون فيصير كالقميص عليهم. والغشاوة بالفتح الستر والتغطية يقال: غشي يغشى غشاوة أي ستره وغطّاه. ومعنى الآيتين واضح.

قوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ معنى الآية واضح، وهي بظاهرها تدلّ على أن الذي تجزى به كل نفس هو عين ما كسبته من حسنة أو سيئة وإن تبدّلت صورته. فهي من الآيات الدالّة على أن الذي يلحق بهم يوم القيامة هو نتيجة أعمالهم.

فالآية تفسّر أولاً معنى الجزاء في يوم الجزاء، وثانياً معنى انتقامه تعالى يومئذ وأنه ليس من قبيل عقوبة المجرم العاصي تشفياً منه بل إلحاق ما يستدعيه عمل المجرم به وإن شئت فقل إيصال ما اكتسبه المجرم بعينه اليه.

وفي تعليل هذا الجزاء وهو في يوم القيامة بقوله: «إن الله سريع الحساب» إيماء الى أن الجزاء واقع من غير فصل ومهل إلا أن ظرف ظهوره هو ذلك اليوم لا غير. أو أن الحكم بالجزاء وكتابته واقع عند العمل وتحققه يوم القيامة ومآل الوجهين واحد في الحقيقة.

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا بَلَاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا ٱلْأَلْبَابِ﴾ البلاغ بمعنى التبليغ على ما ذكره الراغب أو بمعنى الكفاية على ما ذكره غيره.

والآية خاتمة السورة فالأنسب أن تكون الإشارة بهذا الى ما أُورد في السورة من البيان لا الى مجموع القرآن كما ذكره بعضهم ولا الى ما ذكر من قوله تعالى: «ولا تحسبنّ الله غافلاً عما

يعمل الظالمون» الى آخر السورة؛ كما ذكره آخرون.

وقوله: ﴿وَلِيُنذَرُوا بِهِ﴾ الخ: اللام فيه للغاية وهو معطوف على محذوف إنما حذف لفخامة أمره وعظم شأنه لا يحيط به أفهام الناس لاشتماله من الأسرار الالهية على ما لا يطيقونه، وإنما تسع عقولهم ما ذكر من غاياته وهو الإنذار والعلم بوحدانيته تعالى والتذكّر، فهم ينذرون بما ذكر فيها من مؤاخذته تعالى الظالمين عاجلاً وآجلاً، وتتمّ عليهم الحجة بما ذكر فيها من آيات التوحيد، ويتذكّر المؤمنون منهم خاصة بما فيها من المعارف الالهية.

وبهذا يتطابق مختتم السورة ومفتتحها أعني قوله في أول السورة: «كتاب أنزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور بإذن ربهم الى صراط العزيز الحميد» فقد تقدم أن مدلول الآية أمر النبي ﷺ بالدعوة والتبليغ الى صراط الله بما أنه تعالى ربهم العزيز الحميد ليخرج الناس من الظلمات الى النور بإذنه فإنهم إن استجابوا الدعوة وآمنوا خرجوا بذلك من ظلمات الكفر الى نور الايمان بالفعل وإن لم يستجيبوا أُنذروا ووقفوا على التوحيد الحق وخرجوا من الجهل الى العلم وهو نوع خروج من الظلمة الى النور وإن كان وبالاً عليهم وخساراً في الدعوة ـ على أي حال ـ وإنذار للناس وإعلامهم أنما هو إله واحد وتذكر لاولي الألباب منهم خاصة وهم المؤمنون[١].

---

١. ابراهيم ٤٢ ـ ٥٢: بحث روائي في يوم القيامة وتبديل الارض بغير الارض، والجنّة ونعيمها.

سورة الحِجر مكية وهي تسع وتسعون آية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

١ ● آلر تِلْكَ آياتُ ٱلْكِتابِ وَقُرآنٌ مُبِينٌ.

٢ ● رُبَما يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كانُوا مُسْلِمِينَ.

٣ ● ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ ٱلأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ.

٤ ● وَما أَهْلَكْنا مِنْ قَرْيَةٍ إِلاّ وَلَها كِتابٌ مَعْلُومٌ.

٥ ● ما تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَها وَما يَسْتَأْخِرُونَ.

٦ ● وَقالُوا يا أَيُّها ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ.

٧ ● لَوْ ما تَأْتِينا بِالمَلائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ ٱلْصّادِقِينَ.

٨ ● ما نُنَزِّلُ ٱلْمَلائِكَةَ إِلاّ بِالْحَقِّ وَما كانُوا إِذاً مُنْظَرِينَ.

٩ ● إِنّا نَحْنُ نَزَّلْنا الذِّكْرَ وَإِنّا لَهُ لَحافِظُونَ.

بيان:

تشتمل السورة على الكلام حول استهزاء الكفار بالنبي ﷺ ورميه بالجنون ورمي القرآن الكريم بأنه من أهذار المجانين ففيها تعزية للنبي ﷺ وأمره بالصبر والثبات والصفح عنهم وتطييب لنفسه الشريفة وإنذار وتبشير.

وهي مكية على ما تشهد به آياتها، ونقل في المجمع عن الحسن استثناء قوله: ﴿ولقد آتيناك سبعاً من المثاني﴾ الآية؛ وقوله: ﴿كما أنزلنا على المقتسمين الذين جعلوا القرآن عضين﴾ وسيأتي ما فيه.

وتشتمل السورة على قوله تعالى: ﴿فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين﴾ الخ؛ والآية تقبل الانطباق على ما ضبطه التاريخ أن النبي ﷺ اكتتم في أول البعثة ثلاث سنين أو أربعاً أو خمساً لا يعلن دعوته لاشتداد الأمر عليه فكان لا يدعو إلا آحاداً ممن يرجو منهم الايمان يدعوهم خفية ويسرّ اليهم الدعوة حتى أذن له ربه في ذلك وأمره أن يعلن دعوته.

وتؤيده الروايات المأثورة من طرق الشيعة وأهل السنة أنه ﷺ كان يكتتم في أول بعثته سنين لا يظهر فيها دعوته لعامة الناس حتى أنزل الله تعالى عليه: ﴿فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين إنا كفيناك المستهزئين﴾ فخرج الى الناس وأظهر الدعوة. وعليه فالسورة مكية نازلة في أول الدعوة العلنية.

ومن غرر الآيات القرآنية المشتملة على حقائق جمة في السورة قوله تعالى: ﴿وإن من شيء إلا عندنا خزائنه﴾ الآية؛ وقوله: ﴿إنا نحن نزّلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾.

قوله تعالى: ﴿الٓر تِلْكَ آيَاتُ ٱلْكِتَابِ وَقُرآنٌ مُبِينٌ﴾ الإشارة الى الآيات الكريمة القرآنية فالمراد بالكتاب القرآن، وتنكير القرآن للدلالة على عظم شأنه وفخامة أمره كما أن التعبير بتلك وهي للإشارة الى البعيد لذلك.

والمعنى هذه الآيات العالية منزلة الرفيعة درجة التي نتنزلها اليك آيات الكتاب الإلهي وآيات قرآن عظيم الشأن فاصل بين الحق والباطل على خلاف ما يرميها به الكفار بما يرمونك بالجنّة مستهزئين بكلام الله.

ومن الممكن أن يراد بالكتاب اللوح المحفوظ فان القرآن منه وفيه، قال تعالى: ﴿إنه لقرآن كريم في كتاب مكنون﴾ (الواقعة / ٧٨)، وقال: ﴿بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ﴾ (البروج / ٢٢) فيكون قوله: ﴿تِلْكَ آيَاتُ ٱلْكِتَابِ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾ كالملخص من قوله: ﴿والكتاب المبين إنا جعلناه قرآنا عربياً لعلكم تعقلون وإنه في أُمّ الكتاب لدينا لعلي حكيم﴾ (الزخرف / ٤).

قوله تعالى: ﴿رُبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ توطئة لما سيتعرض له من قولهم للنبي: ﴿يا أيها الذي نزّل عليه الذكر إنك لمجنون﴾ يشير به الى أنهم سيندمون على ما هم عليه من الكفر ويتمنون الإسلام لله والايمان بكتابه يوم لا سبيل لهم الى تحصيل ذلك.

فقوله: ﴿رُبَمَا يَوَدُّ﴾ المراد به ودادة التمني لا مطلق الودادة والحب، والدليل على ذلك قوله في بيان هذا المودّة: ﴿لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ فإن لفظي «لو» و«كانوا» تدلان على أن ودادتهم ودادة تمنّ وأنهم يتمنون الاسلام بالنسبة الى ماضي حالهم مما فاتهم ولن يعود اليهم فليس إلا الاسلام ما داموا في الدنيا.

فالآية تدلّ على أن الذين كفروا سيندمون على كفرهم ويتمنون أن لو كانوا مسلمين بعد انطواء بساط الحياة الدنيا.

قوله تعالى: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ الإلهاء الصرف والإشتغال يقال: ألهاه كذا عن كذا أي شغله عنه وأنساه ذكره.

وقوله: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ﴾ أمر برفع اليد عنهم وتركهم وما هم فيه من الباطل، وهو كناية عن النهي عن الجدال معهم والاحتجاج عليهم لإثبات

هذه الحقيقة وهي أنهم سوف يودُّون الاسلام ويتمنونه ولا سبيل لهم الى تحصيله وتدارك ما فات منه، وقوله: «فسوف يعلمون» في موضع التعليل للأمر أي ذرهم ولا تجادلهم ولا تحاجّهم فلا حاجة الى ذلك لأنهم سوف يعلمون ذلك فإن الحق ظاهر لا محالة.

وفي الآية تعريض لهم أنهم لا غاية لهم في حياتهم إلا الأكل والتمتع بلذات المادة والتلهّي بالآمال والأماني فلا منطق لهم إلا منطق الأنعام والحيوان العجم فمن الحريّ أن يُترَكوا وما هم فيه، ولا يلق اليهم الحجج الحقة المبنية على أساس العقل السليم والمنطق الإنساني.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ﴾ الى آخر الآيتين: تثبيت وتوكيد لقوله في الآية السابقة: «فسوف يعلمون» على ما يعطيه السياق والمعنى دعهم فإنهم لا يسلمون في هذه الحياة الدنيا وإنما يودُّون الإسلام بعد حلول أجلهم ونزول الهلاك بهم، والناس ليسوا بذوي خيرة في ذلك بل لكل أُمة كتاب معلوم عند الله مكتوب فيه أجلهم لا يقدرون أن يستقدموه ولا يستأخروه ساعة.

وفي الآيتين دلالة على أن الامة من الإنسان لها كتاب كما أن للفرد منه كتاباً، قال تعالى: ﴿وكلَّ إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً﴾ (الإسراء / ١٣).

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ كلام خارج مخرج الاستهزاء، ولذلك خاطبوه ﷺ لا باسمه بل بوصف نزول الذكر عليه كما كان يدّعيه، وجاؤا بالفعل المجهول للدلالة على أن منزله غير معلوم عندهم ولا اعتماد ولا وثوق لهم بما يدّعيه هو أن الله تعالى هو الذي أنزله، وتوصيفه بالذي نزّل عليه الذكر وكذا تسمية النازل عليه ذكراً كل ذلك من الاستهزاء كما أن قولهم: «إنك لمجنون» رمي وتكذيب.

قوله تعالى: ﴿لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ لو ما مثل هلاّ

للتحضيض أي هلاّ تأتينا بالملائكة إن كنت صادقاً في دعوى النبوّة ليشهدوا على صدق دعواك وينذروا معك، فهو قريب المعنى من قولهم على ما حكاه الله: ﴿لولا أُنزل اليه ملك فيكون معه نذيراً﴾ (الفرقان / ٧).

ووجه اقتراحهم على الأنبياء أن يأتوا بالملائكة ويظهروهم لهم اعتقادهم أن البشرية كينونة مادية مغمورة في قذارة الشهوة والغضب لا نسبة بينها وبين العالم السماوي الذي هو محض النورانية والطهارة فمن ادّعى نوعاً من الاتصال بذاك العالم الروحاني فعليه أن يأتي ببعض أهله من الملائكة الكرام ليصدّقوه في دعواه ويعينوه في دعوته.

على أن الملائكة عند الوثنيين آلهة دون الله سبحانه فدعوتهم الى التوحيد معناه أن هؤلاء الآلهة في معزل من الشفاعة والعبادة بأمر من الله سبحانه وهو إله الآلهة ولا دليل على ذلك كاعترافهم به فلينزلوا وليعترفوا ويصدّقوا، النبوة.

قوله تعالى: ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَائِكَةَ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذاً مُنْظَرِينَ﴾ جواب عما اقترحوا على النبي ﷺ أن ياتيهم بالملائكة حتى يصدقوه ومحصّل الجواب أن السنة الإلهية جارية على ستر ملائكته عنهم تحت أستار الغيب فلو أنزلهم وأظهرهم لهم عن اقتراحهم ذلك كان ذلك آية سماوية خارقة للعادة نازلة عن اقتراحهم، ومن شأن الآية المعجزة النازلة عن اقتراح الناس ان يعقبها عذاب الاستئصال والهلاك القطعي إن لم يؤمنوا بها، وهؤلاء الكفار المعاندون ليسوا بمؤمنين فهو الهلاك.

وبالجملة لو أنزل الله الملائكة والحال هذا الحال ـ هم يقترحون آية فاصلة تظهر الحق وتميط الباطل ـ لأنزلهم بالحق الفاصل المميز وما كانوا إذاً منظرين بل يهلكون ويقطع دابرهم، هذا محصّل ما ذكره بعضهم.

ويمكن أن يقرّر معنى الآية باستمداد من التدبّر في آيات أُخر أن ظرف الحياة المادية أعني هذه النشأة الدنيوية ظرف يختلط فيه الحق والباطل من غير ان يتمحّض الحق في الظهور

بجميع خواصه وآثاره كما يشير اليه قوله تعالى: ﴿كذلك يضرب الله الحق والباطل﴾ (الرعد / ١٧)، وقد تقدم تفصيل القول في ذلك فما يظهر فيه شيء من الحق إلا وهو يحتمل شيئاً من اللبس والشك كما يصدقه استقراء الموارد التي صادفناها مدى أعمارنا، ومن الشاهد عليه قوله تعالى: ﴿ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً وللبسنا عليهم ما يلبسون﴾ (الأنعام / ٩)، والظرف ظرف الامتحان والاختيار ولا اختيار إلا مع إمكان التباس الحق بالباطل واختلاط الخير والشر بنحو حتى يقف الإنسان على ملتقى الطريقين ومنشعب النجدين فيستدلّ على الخير والشر بآثارهما وأماراتهما ثم يختار ما يستحقه من السعادة والشقاوة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ﴾ صدر الآية مسوق سوق الحصر، وظاهر السياق أن الحصر ناظر الى ما ذكر من ردهم القرآن بأنه من أهذار الجنون وأنه ﷺ مجنون لا عبرة بما صنع ولا حجر ومن اقتراحهم أن يأتيهم بالملائكة ليصدقوه في دعوته وأن القرآن كتاب سماوي حق.

والمعنى ـ على هذا والله أعلم ـ أن هذا الذكر لم تأت به أنت من عندك حتى يعجزوك ويبطلوه بعنادهم وشدة بطشهم وتتكلف لحفظه ثم لا تقدر، وليس نازلاً من عند الملائكة حتى يفتقر الى نزولهم وتصديقهم إياه بل نحن أنزلنا هذا الذكر إنزالاً تدريجياً وإنا له لحافظون بما له من صفة الذكر بما لنا من العناية الكاملة به.

فهو ذكر حي خالد مصون من أن يموت وينسى من أصله، مصون من الزيادة عليه بما يبطل به كونه ذكراً، مصون من النقص كذلك، مصون من التغيير في صورته وسياقه بحيث يتغير به صفة كونه ذكراً لله مبيّناً لحقائق معارفه.

فالآية تدل على كون كتاب الله محفوظاً من التحريف بجميع أقسامه من جهة كونه ذكراً لله

سبحانه فهو ذكر حي خالد[١].

١٠ ● وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ.

١١ ● وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ.

١٢ ● كَذٰلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ.

١٣ ● لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ.

١٤ ● وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً مِنَ ٱلسَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ.

١٥ ● لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ الى آخر الآيتين: الشيع جمع شيعة وهي الفرقة المتفقة على سنّة أو مذهب يتّبعونه، قال تعالى: **﴿من الذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعاً كل حزب بما لديهم فرحون﴾** (الروم / ٣٢).

وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ أي رسلاً وقد حذف للاستغناء عنه فإن العناية بأصل تحقق الإرسال من قبل من غير نظر الى من أُرسل بل بيان أن البشر الأولين كالآخرين جرت عادتهم على أن لا يحترموا الرسالة الإلهية ويستهزؤا بمن أتى بها ويمضوا على إجرامهم لتكون في ذلك تعزية للنبي ﷺ فلا يضيق صدره بما قابلوه به من الإنكار والاستهزاء كما سيعود اليه في آخر السورة بقوله: **﴿ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما تقولون﴾** الخ: الآية ٩٧ من السورة.

---

١. الحجر ١ ـ ٩: كلام في ان القرآن مصون عن التحريف في فصول.

والمعنى: طب نفساً فنحن نزّلنا الذكر عليك ونحن نحفظه ولا يضيقنّ صدرك بما يقولون فهو دأب المجرمين من الامم الانسانية أُقسم لقد أرسلنا من قبلك في فرق الأولين وشيعهم وحالهم هذه الحال ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزؤن.

قوله تعالى: ﴿كَذٰلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ الى آخر الآيتين: السلوك: النفاذ والإنفاذ يقال: سلك الطريق أي نفذ فيه وسلك الخيط في الإبرة أي أنفذه فيها وأدخله وذكروا أن سلك وأسلك بمعنى.

والضميران في ﴿نَسْلُكُهُ﴾ و ﴿بِهِ﴾ للذكر المتقدم ذكره وهو القرآن الكريم والمعنى أن حال رسالتك ودعوتك بالذكر المنزل اليك تشبه حال الرسالة من قبلك فكما أرسلنا من قبلك فقابلوها بالرد والاستهزاء كذلك ندخل هذا الذكر وننفذه في قلوب هؤلاء المجرمين، ونبّأ به: أنهم لا يؤمنون بالذكر وقد مضت طريقة الأولين وسنتهم في أنهم يستهزؤن بالحق ولا يتّبعونه فالآيتان قريبتا المعنى من قوله: ﴿فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ، لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا﴾ الخ: العروج في السماء الصعود اليها والتسكير الغشاوة.

والمراد بفتح باب من السماء عليهم إيجاد طريق يتيسّر لهم به الدخول في العالم العلوي الذي هو مأوى الملائكة وليس كما يظنّ سقفاً جرمانياً له باب ذو مصراعين يفتح ويغلق، وقد قال تعالى: ﴿ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر﴾ (القمر / ١١).

فالمعنى: ولو فتحنا عليهم باباً من السماء ويسّرنا لهم الدخول في عالمها فداموا يعرجون فيه عروجاً بعد عروج حتى يتكرر لهم مشاهدة ما فيه من أسرار الغيب وملكوت الأشياء لقالوا إنما غشيت أبصارنا فشاهدت اموراً لا حقيقة لها بل نحن قوم مسحورون.

١٦ ۞ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ.

١٧ ۞ وَحَفَظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ.

١٨ ۞ إِلاَّ مَنِ ٱسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ.

١٩ ۞ وَٱلأَرضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ.

٢٠ ۞ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ.

٢١ ۞ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ.

٢٢ ۞ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ.

٢٣ ۞ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَارِثُونَ.

٢٤ ۞ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَأْخِرِينَ.

٢٥ ۞ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾ الى آخر الآيات الثلاث، البروج جمع برج وهو القصر سميّت بها منازل الشمس والقمر من السماء بحسب الحسّ تشبيهاً لها بالقصور التي ينزلها الملوك.

والضمير في قوله: ﴿وَزَيَّنَّاهَا﴾ للسماء كما في قوله: ﴿وَحَفَظْنَاهَا﴾ وتزيينها للناظرين هو ما نشاهده في جوّها من البهجة والجمال الذي يولّه الألباب بنجومها الزاهرة وكواكبها اللامعة على اختلاف أقدارها وتنوّع لمعاتها وقد كرّر سبحانه ذكر هذا التزيين الكاشف عن مزيد عنايته به كقوله: ﴿وزيّنا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً﴾ (حم السجدة /

١٢) ، وقوله : ﴿ إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب وحفظاً من كل شيطان مارد ، لا يسمّعون إلى الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب دحوراً ولهم عذاب واصب إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب ﴾ (الصافات / ١٠) .

واسترق السمع أخذ الخبر المسموع في خفية كمن يصغي خفية الى حديث قوم يسرونه فيما بينهم ، واستراق السمع من الشياطين هو محاولتهم أن يطّلعوا على بعض ما يحدّث به الملائكة فيما بينهم كما يدل عليه ما تقدم آنفاً من آيات سورة الصافات .

والشهاب هو الشعلة الخارجة من النار ويطلق على ما يشاهد في الجو من أجرام مضيئة كأن الواحد منها كوكب ينقضّ دفعة من جانب الى آخر فيسير سيراً سريعاً ثم لا يلبث دون أن ينطفيء .

فظاهر معنى الآيات : ولقد جعلنا في السماء ـ وهي جهة العلو ـ بروجاً وقصوراً هي منازل الشمس والقمر وزيناها أي السماء للناظرين بزينة النجوم والكواكب وحفظناها أي السماء من كل شيطان رجيم أن ينفذ فيها فيطّلع على ما تحتويه من الملكوت إلا من استراق السمع من الشياطين بالاقتراب منه ليسمع ما يحدّث به الملائكة من أحاديث الغيب المتعلقة بمستقبل الحوادث وغيرها فإنه يتبعه شهاب مبين .

وسنتكلم إن شاء الله في الشهب ومعنى رمي الشياطين فيما سيأتي من تفسير سورة الصافات .

قوله تعالى : ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ ﴾ مدّ الارض بسطها طولاً وعرضاً وبذلك صلحت للزرع والسكنى ولو اغشيت جبالاً شاهقة مضرّسة لفقدت كمال حياة الحيوان عليها .

والرواسي صفة محذوفة الموصوف والتقدير وألقينا فيها جبالاً رواسي وهو جمع راسية بمعنى الثابتة إشارة الى ما وقع في غير هذا الموضع أنها تمنع الأرض من الميدان كما قال : ﴿ وألق

في الأرض رواسي أن تميد بكم﴾ (النحل / ١٥).

والموزون من الوزن وهو تقدير الأجسام من جهة ثقلها ثم عمم لكل تقدير لكل ما يمكن أن يتقدر بوجه كتقدير الطول بالشبر والذراع ونحو ذلك وتقدير الحجم وتقدير الحرارة والنور والقدرة وغيرها، وفي كلامه تعالى: ﴿ونضع الموازين القسط ليوم القيامة﴾ (الأنبياء / ٤٧)، وهو توزين الأعمال ولا يتصف بثقل وخفة من نوع ما للأجسام الارضية منها.

وربما يكنّى به عن كون الشيء بحيث لا يزيد ولا ينقص عما يقتضيه الطبع أو الحكمة كما يقال: كلامه موزون وقامته موزونة وأفعاله موزونة أي مستحسنة متناسبة الأجزاء لا تزيد ولا تنقص مما يقتضيه الطبع أو الحكمة.

وبالنظر الى اختلاف اعتباراته المذكورة ذكر بعضهم أن المراد به إخراج كل ما يوزن من المعدنيات كالذهب والفضة وسائر الفلزّات، وقال بعضهم: إنه إنبات النباتات على ما لكل نوع منها من النظام البديع الموزون، وقيل: إنه خلق كل أمر مقدّر معلوم.

والذي يجب التنبه له التعبير بقوله: «من كل شيء موزون» دون أن يقال: من كل نبات موزون فهو يشمل غير النبات مما يظهر وينمو في الأرض كما أنه يشمل النبات لمكان قوله: «وأنبتنا» دون أن يقال: أخرجنا أو خلقنا وقد جيء بمن وظاهرها التبعيض فالمراد - والله أعلم - إنبات كل أمر موزون ذي ثقل مادي يمكن ان يزيد وينقص من الأجسام النباتية والأرضية، ولا مانع على هذا من أخذ الموزون بكل من معنييه الحقيقي والكنائي.

والمعنى: والأرض بسطناها وطرحنا فيها جبالاً ثابتة لتسكّنها من الميد وأنبتنا فيها من كل شيء موزون - ثقيل واقع تحت الجاذبة أو متناسب - مقداراً تقتضيه الحكمة.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ﴾ المعايش جمع معيشة وهي ما به يعيش الحيوان ويديم حياته من المأكول والمشروب وغيرهما ويأتي مصدراً

كالعيش والمعاش.

وقوله: ﴿وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرازِقِينَ﴾ معطوف على الضمير المجرور في «لكم» على ما ذهب اليه من النحاة الكوفيون ويونس والأخفش من جواز العطف على الضمير المجرور من غير إعادة الجارّ. وأما على قول غيرهم فربما يعطف على معايش والتقدير وجعلنا لكم من لستم له برازقين كالعبيد والحيوان الأهلي. وربما جعل «من» مبتدأ محذوف الخبر والتقدير: ومن لستم له برازقين جعلنا له فيها معايش وهذا كله تكلف ظاهر.

وكيف كان. المراد بمن العبيد والدواب ـ على ما قيل ـ أُتي بلفظة من وهي لاولي العقل تغليباً هذا. وليس من البعيد أن يكون المراد به كل ما عدا الانسان من الحيوان والنبات وغيرهما فإنها تسأل الرزق كما يسأله العقلاء ومن دأبه سبحانه في كلامه أن يطلق الألفاظ المختصة بالعقلاء على غيرهم إذا أُضيف اليها شيء من الآثار المختصة بهم كقوله تعالى في الأصنام: ﴿فاسألوهم إن كانوا ينطقون﴾ (الأنبياء / ٦٣). وقوله: ﴿فإنهم عدو لي﴾ (الشعراء / ٧٧). الى غير ذلك من الآيات المتعرضة لحال الأصنام التي كانوا يعبدونها ولا يستقيم للمعبود إلا أن يكون عاقلاً. وكذا قوله: ﴿فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين﴾ (حم السجدة / ١١). وغير ذلك.

والمعنى: وجعلنا لكم معشر البشر في الأرض أشياء تعيشون بها مما تدام به الحياة ولغيركم من أرباب الحياة مثل ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاّ عِنْدَنا خَزائِنُهُ وَما نُنَزِّلُهُ إِلاّ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ الخزائن جمع خزانة وهي مكان خزن المال وحفظه وادّخاره. والقدر بفتحتين أو فتح فسكون مبلغ الشيء وكميته المتعينة[1].

---

١. الحجر ١٦ ـ ٢٥: بحث في معنى قوله: «وان من شيء الاّ عندنا خزائنه»: الشيء: الخزائن.

والذي يعطيه التدبر في الآية وما يناظرها من الآيات الكريمة أنها من غرر كلامه تعالى تبيّن ما هو أدق مسلكاً وأبعد غوراً مما فسّروها به وهو ظهور الأشياء بالقدر والأصل الذي لها قبل إحاطته بها واشتماله عليها.

وذلك أن ظاهر قوله: «وإن من شيء» على ما به من العموم بسبب وقوعه في سياق النفي مع تأكيده بمن، كل ما يصدق عليه أنه شيء من دون أن يخرج منه إلا ما يخرجه نفس السياق وهو ما تدل عليه لفظة «نا» و«عند» و«خزائن» وما عدى ذلك مما يرى ولا يرى مشمول للعام.

فشخص زيد مثلاً وهو فرد إنساني ونوع من الإنسان أيضاً الموجود في الخارج بأفراده من الشيء والآية تثبت لذلك خزائن عند الله سبحانه فلننظر ما معنى كون زيد مثلاً له خزائن عند الله ؟

والذي يسهّل الأمر فيه أنه تعالى يعدّ هذا الشيء المذكور نازلاً من عنده والنزول يستدعي علواً وسفلاً ورفعة وخفضة وسماء وأرضاً مثلاً ولم ينزل زيد المخلوق مثلاً من مكان عال الى آخر سافل بشهادة العيان فليس المراد بإنزاله إلا خلقه لكنه ذو صفة يصدق عليه النزول بسببها، ونظير الآية قوله تعالى: ﴿وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج﴾ (الزمر / ٦)، وقوله: ﴿وأنزلنا الحديد﴾ (الحديد / ٢٥).

ثم قوله: ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ يقرن النزول وهو الخلقة بالقدر قرناً لازماً غير جائز الانفكاك لمكان الحصر، والباء إما للسببية أو الآلة أو المصاحبة والمآل واحد فكينونة زيد وظهوره بالوجود إنما هو بماله من القدر المعلوم فوجوده محدود لا محالة، كيف؟ وهو تعالى يقول: ﴿إنه بكل شيء محيط﴾ (حم السجدة / ٥٤)، ولو لم يكن محدوداً لم يكن محاطاً له تعالى فمن المحال أن يحاط بما لا حدّ له ولا نهاية.

وهذا القدر هو الذي بسببه يتعين الشيء ويتميز من غيره ففي زيد مثلاً شيء به يتميز من

عمرو وغيره من أفراد الانسان ويتميز من الفرس والبقر والأرض والسماء ويجوز لنا بـه أن نقول: ليس هو بعمرو ولا بالفرس والبقر والأرض والسماء ولولا هذا الحد لكـان هـو هـي وارتفع التميز.

وكذلك ما عنده من القوى والآثار والأعمال محدودة مقدّرة فليس إبصاره مـثلاً إبـصاراً مطلقاً في كل حال وفي كل زمان وفي كل مكان ولكل شيء وبكل عضو مثلاً بل إبصار في حال وزمان ومكان خاص ولشيء خاص وبعضو خاص وعلى شرائط خاصة، ولو كان إبـصاراً مطلقاً لأحاط بكل إبصار خاص وكان الجميع له ونظيره الكلام في سائر ما يعود اليـه مـن خصائص وجوده وتوابعه فافهم ذلك.

ومن هنا يظهر أن القدر خصوصية وجود الشيء وكيفية خلقته كما يستفاد أيضاً من قوله تعالى: ﴿**الذي خلق فسوّى والذي قدّر فهدى**﴾ (الأعلى / ٣)، وقوله: ﴿**الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى**﴾ (طه / ٥٠) فإن الآية الاولى رتبت الهداية وهي الدلالة على مـقاصد الوجود على خلق الشيء وتسويته وتقديره، والآية الثانية رتبتها على إعطائه ما يختصّ به من الخلق، ولازم ذلك ـ على ما يعطيه سياق الآيتين ـ كون قدر الشيء خصوصية خـلقه غـير الخارجة عنه.

ثم إنه تعالى وصف قدر كل شيء بأنه معلوم إذ قال: «**وما ننزله إلا بقدر معلوم**» ويفيد بحسب سياق الكلام أن هذا القدر معلوم له حينما يتنزل الشيء ولما يتمّ نزوله ويظهر وجوده فهو معلوم القدر معينه قبل إيجاده، واليه يؤل معنى قدر: ﴿**وكل شيء عنده بمقدار**﴾ (الرعد / ٨)، فإن ظاهر الآية أن كل شيء بماله من المقدار حاضر عنده معلوم له فقوله هناك: «عنده بمقدار» في معنى قوله ههنا: «بقدر معلوم» ونظير ذلك قوله في موضع آخر: ﴿**قد جـعل الله لكل شيء قدراً**﴾ (الطلاق / ٣)، أي قدراً لا يتجاوزه معيناً غير مبهم معلوماً غـير مجـهول وبالجملة للقدر تقدم على الشيء بحسب العلم والمشية وإن كان مقارناً له غير منفك عـنه في

وجوده.

ثم إنه تعالى أثبت بقوله: «عندنا خزائنه وما ننزله» الخ؛ للشيء عنده قبل نزوله الى هذه النشأة واستقراره فيها خزائن، وجعل القدر متأخراً عنها ملازماً لنزوله فالشيء وهو في هذه الخزائن غير مقدّر بقدر ولا محدود بحد وهو مع ذلك هو.

وقد جمع في تعريف هذه الخزائن بين كونها فوق القدر الذي يلحق الشيء وبين كونها خزائن فوق الواحدة والاثنتين، ومن المعلوم أن العدد لا يلحق إلا الشيء المحدود وأن هذه الخزائن لو لم تكن محدودة متميزة بعضها من بعض كانت واحدة البتة.

ومن هنا يتبين أن هذه الخزائن بعضها فوق بعض وكل ما هو عال منها غير محدود بحد ما هو دان غير مقدّر بقدره ومجموعها غير محدود بالحدّ الذي يلحق الشيء وهو في هذه النشأة، ولا يبعد أن يكون التعبير بالتنزيل الدال على نوع من التدريج في قوله: «وما ننزله» إشارة الى كونه يطوي في نزوله مرحلة بعد مرحلة وكلما ورد مرحلة طرأه من القدر أمر جديد لم يكن قبل حتى إذا وقع في الأخيرة أحاط به القدر من كل جانب قال تعالى: **﴿هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً﴾** (الدهر / ١)، فقد كان الإنسان ولكنه لم يكن شيئاً مذكوراً.

وهذه الخزائن جميعاً فوق عالمنا المشهود لأنه تعالى وصفها بأنها عنده وقد أخبرنا بقوله: «ما عندكم ينفد وما عند الله باق» أن ما عنده ثابت لا يزول ولا يتغير عما هو عليه فهذه الخزائن كائنة ما كانت أُمور ثابتة غير زائلة ولا متغيرة، والأشياء في هذه النشأة المادّيّة المحسوسة متغيّرة فانية لا ثابتة ولا باقية فهذه الخزائن الإلهية فوق عالمنا المشهود.

هذا ما يعطيه التدبر في الآية الكريمة وهو وإن كان لا يخلو من دقة وغموض يعضل على بادىء الفهم لكنك لو أمعنت في التدبر وبذلت في ذلك بعض جهدك استنار لك ووجدته من واضحات كلامه إن شاء الله تعالى وعلى من لم يتيسر له قبوله أن يعتمد الوجه الثالث المتقدم

فهو أحسن الوجوه الثلاثة المتقدمة والله ولي الهداية وسنرجع الى بحث القدر في كلام مستقل يختص به إن شاء الله في موضع يناسبه.

قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ اللواقح جمع لاقحة من اللقح بالفتح فالسكون يقال: لقح النخل لقحاً أي وضع اللقاح ـ بفتح اللام ـ وهو طلع الذكور من النخل على الإناث لتحمل بـالتمر، وقد ثبت بالأبحاث الحديثة في علم النبات أن حكم الزوجية جار في عامة النبات وأن فـيه ذكوريّة وأُنوثية وأن الرياح في مهبها تحمل الذرات من نطفة الذكور فتلقح بها الإناث، وهو قوله تعالى: «وأرسلنا الرياح لواقح».

وقوله: ﴿فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ﴾ إشارة الى المـطر النـازل مـن السحاب وقد تسلم الأبحاث العلمية الحديثة أن الماء الموجود في الكرة الأرضية من الأمطار النازلة عليها من السماء على خلاف ما كانت تعتقده القدماء أنه كرة ناقصة محيطة بكرة الأرض إحاطة ناقصة وهو عنصر من العناصر الأربعة.

وهذه الآية التي تثبت بشطرها الأول «وأرسلنا الرياح لواقح» مسألة الزوجية واللقاح في النبات، وبشطرها الثاني «وأنزلنا من السماء ماءً فأسقيناكموه» أن المياه الموجودة المدّخرة في الأرض تنتهي الى الأمطار، وقوله تعالى السابق: ﴿وأنبتنا فيها من كل شيء مـوزون﴾ الظاهر في أن للوزن دخلاً خاصاً في الإنبات والإنماء من نقود العلم التي سبق اليهـا القـرآن الكريم الأبحاث العلمية وهي تتلو المعجزة أو هي هي.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْـوَارِثُـونَ﴾ الكـلام مسـوق للحصر يريد بيان رجوع كل التدبير اليه، وقد كان ما عـدّه مـن النـعم كـالسماء بـبروجها والأرض برواسيها، وإنبات كل شيء موزون وجعل المعايش وإرسال اللواقح وإنزال المـاء من السماء إنما يتم نظاماً مبنياً على الحكمة والعلم إذا انضم اليه الحياة والموت والحشر، وكان

مما ربما يظن أن بعض الحياة والموت ليس اليه تعالى ولذا أكّد الكلام وأتى بالحصر دفعاً لذلك.

ثم جاء بقوله: ﴿وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾ أي الباقون بعد إماتتكم المتصرفون فيما خوّلناكموه من أمتعة الحياة كأنه تعالى يقول الينا تدبير أمركم ونحن محيطون بكم نحييكم بعدما لم تكونوا فنحن قبلكم، ونميتكم ونرثكم فنحن بعدكم.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾ لما كانت الآيات السابقة التي تعدّ النعم الإلهية وتصف التدبير مسوقة لبيان وحدانيته تعالى في ربوبيته، وكان لا ينفع الخلق والنظم من غير انضمام علمه تعالى وخاصة بمن يحييه ويميته عقّبها بهذه الآية الدالة على علمه بمن استقدم منهم بالوجود ومن استأخر أي المتقدمين من الناس والمتأخرين على ما يفيده السياق.

وقيل: المراد بالمستقدمين المستقدمون في الخير، وقيل: المستقدمون في صفوف الحرب، وقيل: المستقدمون الى الصف الأول في صلاة الجماعة والمستأخرون خلافهم، وهي أقوال ردية.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ الكلام مسوق للحصر أي هو يحشرهم لا غير فهو الرب.

وأُورد عليه أنه في مثل ذلك من الحصر يكون الفعل مسلّم الثبوت والنزاع إنما هو في الفاعل، وههنا ليس كذلك فإن الخصم لا يسلّم الحشر من أصله هذا.

وقد ذهب على هذا المعترض أن الآية حوّلت الخطاب السابق للناس عنهم الى النبي ﷺ التفاتاً فقيل «وإن ربك هو يحشرهم» ولم يقل: إن ربكم هو يحشركم، والنبي ﷺ مسلّم للحشر.

وبذلك يظهر نكتة الالتفات في الآية في مورده تعالى من التكلم مع الغير الى الغيبة. وفي

مورد النبي ﷺ من الغيبة الى الخطاب، وفي مورد الناس بالعكس.

وقد ختمت الآية بقوله: ﴿إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ لأن الحشر يتوقف على الحكمة المقتضية لحساب الأعمال ومجازاة المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، وعلى العلم حتى لا يغادر منهم أحد.

٢٦ • وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنْسانَ مِنْ صَلْصالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ.

٢٧ • وَٱلْجانَّ خَلَقْناهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نارِ السَّمُومِ.

٢٨ • وَإِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْملائِكَةِ إِنِّي خالِقٌ بَشَراً مِنْ صَلْصالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ.

٢٩ • فَإِذا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ ساجِدِينَ.

٣٠ • فَسَجَدَ ٱلْملائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ.

٣١ • إِلَّا إِبْلِيسَ أَبىٰ أَنْ يَكُونَ مَعَ السّاجِدِينَ.

٣٢ • قالَ يا إِبْلِيسُ ما لَكَ أَنْ لا تَكُونَ مَعَ السّاجِدِينَ.

٣٣ • قالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ.

٣٤ • قالَ فَاخْرُجْ مِنْها فَإِنَّكَ رَجِيمٌ.

٣٥ • وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ.

٣٦ • قالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ.

٣٧ • قالَ فَإِنَّكَ مِنَ المُنْظَرِينَ.

٣٨ ● إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ.

٣٩ ● قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ.

٤٠ ● إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ.

٤١ ● قَالَ هَٰذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ.

٤٢ ● إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ.

٤٣ ● وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ.

٤٤ ● لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ.

٤٥ ● إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ.

٤٦ ● أُدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ.

٤٧ ● وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَاناً عَلَىٰ سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ.

٤٨ ● لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ قال الراغب في المفردات: أصل الصلصال تردّد الصوت من الشيء اليابس ومنه قيل: صلّ المسمار وسمّي الطين الجاف صلصالاً. قال تعالى: «من صلصال كالفخار» «من صلصال من حماء مسنون» والصلصلة بقية ماء سميت بذلك لحكاية صوت تحرّكه في المزادة وقيل: الصلصال المنتن من الطين من قولهم: صلّ اللحم.

وقال: والحمأ والحمأة طين أسود منتن، وقال: وقوله: من حمأ مسنون قيل: متغير وقوله: لم يتسنَّه معناه لم يتغير والهاء للاستراحة. انتهى.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَانَ﴾ الخ: المراد به بدء خلقة الإنسان بدليل قوله: ﴿وبدء خلق الإنسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين﴾ (الم السجدة / ٨)، فهو إخبار عن خلقة النوع وظهوره في الأرض فإن خلق أول من خلق منهم ومنه خلق الباقي خلق الجميع.

قال في مجمع البيان: وأصل آدم كان من تراب وذلك قوله: «خلقه من تراب» ثم جعل التراب طيناً وذلك قوله: «وخلقته من طين» ثم ترك ذلك الطين حتى تغيّر واسترخى وذلك قوله: «من حمإ مسنون» ثم ترك حتى جفّ وذلك قوله: «من صلصال» فهذه الأقوال لا تناقض فيها إذ هي أخبار عن حالاته المختلفة. انتهى.

قوله تعالى: ﴿وَالجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ﴾ قال الراغب: السموم الريح الحارة تؤثر تأثير السمّ. انتهى. وأصل الجن الستر وهو معنى سار في جميع ما اشتق منه كالجن والمجنة والجنة والجنين والجنان بالفتح وجن عليه الليل وغير ذلك.

والجنّ طائفة من الموجودات مستورة بالطبع عن حواسنا ذات شعور وإرادة تكرر في القرآن الكريم ذكرهم ونسب اليهم أعمال عجيبة وحركات سريعة كما في قصص سليمان عليه السلام وهم مكلفون ويعيشون ويموتون ويحشرون تدل على ذلك كله آيات كثيرة متفرقة في كلامه تعالى.

وأما الجانُّ فهل هو الجن بعينه أو هو أبو الجن كما أن آدم عليه السلام أبو البشر كما عن ابن عباس أو هو إبليس نفسه كما عن الحسن أو الجان نسل إبليس من الجن أو هو نوع من الجن كما ذكره الراغب؟ أقوال مختلفة لا دليل على أكثرها.

والذي يهدي اليه التدبر في كلامه تعالى أنه قابل في هاتين الآيتين الإنسان بالجان فجعلهما

نوعين اثنين لا يخلوان عن نوع من الارتباط في خلقتهما، ونظير ذلك قوله: ﴿خلق الإنسان من صلصال كالفخار وخلق الجانّ من مارج من نار﴾ (الرحمن / ١٥).

ولا يخلو سياق ما نحن فيه من الآيات من دلالة على أن إبليس كان جانّاً وإلا لغى قوله: «والجان خلقناه من قبل» الخ؛ وقد قال تعالى في موضع آخر من كلامه في إبليس: ﴿كان من الجن ففسق عن أمر ربه﴾ (الكهف / ٥٠). فأفاد أن هذا الجانّ المذكور هو الجن نفسه أو هو نوع من أنواع الجنّ ثم ترك سبحانه في سائر كلامه ذكر الجانّ من أصله ولم يذكر إلا الجن حتى في موارد يعمُّ الكلام فيها إبليس وقبيله كقوله تعالى: ﴿شياطين الإنس والجنّ﴾ (الأنعام / ١١٢)، وقوله: ﴿وحق عليهم القول في أُمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس﴾ (حم السجدة / ٢٥)، وقوله: ﴿سنفرغ لكم أيها الثقلان ـ الى أن قال ـ يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا﴾ (الرحمن / ٣٣).

وظاهر هذه الآيات من جهة المقابلة الواقعة فيها بين الإنسان والجان تارة وبين الإنس والجن أُخرى أن الجنّ والجان واحد وإن اختلف التعبير.

وظاهر المقابلة بين قوله: «ولقد خلقنا الإنسان» الخ؛ وقوله: «وخلقنا الجان من قبل» الخ؛ أن خلق الجان من نار السموم المراد به الخلق الابتدائي وبدء ظهرو النوع كخلق الإنسان من صلصال؛ وهل كان استمرار الخلقة في أفراد الجان المستتبع لبقاء النوع على سنة الخلق الأول من نار السموم بخلاف الإنسان حيث بدىء خلقه من تراب ثم استمر بالنطفة؟ كلامه سبحانه خال عن بيانه ظاهراً غير ما في بعض كلامه من نسبة الذرية الى إبليس كما قال: ﴿أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني﴾ (الكهف / ٥٠)، ونسبة الموت اليهم كما في قوله: ﴿قد خلت من قبلهم من الجن والإنس﴾ (حم السجدة / ٢٥)، والمألوف من نوع فيه ذرية وموت هو التناسل والكلام بعد في هذا التناسل هل هو بسفاد كسفاد نوع من الحيوان أو بغير ذلك؟

وقوله: ﴿خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ﴾ مقطوع الإضافة أي من قبل خلق الانسان والقرينة هي المقابلة بين الخلقين.

وعد مبدء خلق الجان في الآية هو نار السموم لا ينافي ما في سورة الرحمان من عده مارجاً من نار أي لهيباً مختلطاً بدخان فإن الآيتين تلخصان أن مبدء خلقه ريح سموم اشتعلت فكانت مارج نار.

فمعنى الآيتين: أُقسم لقد بدأنا خلق النوع الانساني من طين قد جفّ بعد أن كان سائلاً متغيراً منتناً، ونوع الجان بدأنا خلقه من ريح حارّة حادة اشتعلت فصارت ناراً.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً﴾ الى آخر الآية؛ قال في المفردات: البشرة ظاهر الجلد والأدمة باطنه كذا قال عامة الادباء ـ الى أن قال ـ وعبر عن الانسان بالبشر اعتباراً بظهور جلده من الشعر بخلاف الحيوانات التي عليها الصوف أو الشعر أو الوبر، واستوى في لفظ البشر الواحد والجمع وثني فقال تعالى: ﴿أنؤمن لبشرين﴾ وخص في القرآن في كل موضع اعتبر من الانسان جثته وظاهره بلفظ البشر نحو «وهو الذي خلق من الماء بشراً» انتهى موضع الحاجة.

وقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً﴾ بإضمار فعل والتقدير: واذكر إذ قال ربك، وفي الكلام التفات من التكلم مع الغير الى الغيبة وكأن العناية فيه مثل العناية التي مرّت في قوله: ﴿وإن ربك هو يحشرهم﴾ فإن هذه الآيات أيضاً تكشف عن نبأ ينتهي الى الحشر والسعادة والشقاوة الخالدتين.

على أن التكلم مع الغير في السابق «ولقد خلقنا» من قبيل تكلم العظماء عنهم وعن خدمهم وأعوانهم تعظيماً أي بأخذه تعالى ملائكته الكرام معه في الأمر وهذه العناية مما لا يستقيم في مثل المقام الذي يخاطب فيه الملائكة في إخبارهم بإرادته خلق آدم عليه السلام وأمرهم بالسجود له إذا سوّاه ونفخ فيه من روحه فافهم ذلك ومعنى الآية ظاهر.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ التسوية جعل الشيء مستوياً قيّماً على أمره بحيث يكون كل جزء منه على ما ينبغي أن يكون عليه فتسوية الإنسان أن يكون كل عضو من أعضائه في موضع الذي ينبغي أن يكون فيه وعلى الحال التي ينبغي أن يكون عليها.

ولا يبعد أن يستفاد من قوله: «إني خالق ـ فإذا سوّيته» أن خلق بدن الإنسان الأول كان على سبيل التدريج الزماني فكان أولاً الخلق وهو جمع الأجزاء ثم التسوية وهو تنظيم الأجزاء ووضع كل جزء في موضعه الذي يليق به وعلى الحال التي تليق به ثم النفخ. ولا ينافيه ما في قوله تعالى: ﴿خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون﴾ (آل عمران / ٥٩)، فإن قوله: «ثم قال له» الخ: ناظر الى كينونة الروح وهو النفس الانسانية دون البدن كما عبّر عنه في موضع آخر بعد بيان خلق البدن بالتدريج بقوله: ﴿ثم أنشأناه خلقاً آخر﴾ (المؤمنون / ١٤).

وقوله: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ النفخ إدخال الهواء في داخل الأجسام بفم أو غيره ويكنّى به عن إلقاء أثر أو أمر غير محسوس في شيء، ويعني به في الآية إيجاده تعالى الروح الانساني بما له من الرابطة والتعلق بالبدن، وليس بداخل فيه دخول الهواء في الجسم المنفوخ فيه كما يشير اليه قوله سبحانه: ﴿ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر﴾ (المؤمنون / ١٤)، وقوله تعالى: ﴿قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكلّ بكم﴾ (السجدة / ١١).

فالآية الاولى ـ كما ترى ـ تبين أن الروح الانساني هو البدن منشأ خلقاً آخر والبدن على حاله من غير أن يزاد فيه شيء، والآية الثانية تبين أن الروح عند الموت مأخوذ من البدن والبدن على حاله من غير أن ينقص منه شيء.

فالروح أمر موجود في نفسه له نوع اتحاد بالبدن بتعلقه به وله استقلال عن البدن إذا انقطع تعلقه به وفارقه وقد تقدم بعض ما يتعلق من الكلام بهذا المقام في تفسير قوله تعالى: ﴿**ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات**﴾ (البقرة / ١٥٤) في الجزء الأول من الكتاب.

ونرجو أن نستوفي هذا البحث في ذيل قوله: « قل الروح من أمر ربي » الآية ٨٥ من سورة الإسراء إن شاء الله.

وإضافة الروح اليه تعالى في قوله: « من روحي » للتكرمة والتشريف من الإضافة اللامية المفيدة للملك ، وقوله: « فقعوا له ساجدين » أي اسجدوا ، ولا يبعد أن يفهم منه أن خرّوا على الأرض ساجدين له فيفيد التأكيد في الخضوع من الملائكة لهذا المخلوق الجديد كما قيل.

ومعنى الآية فإذا عدّلت تركيبه وأتممت صنع بدنه وأوجدت الروح الكريم المنسوب إليّ الذي أربط بينه وبين بدنه فقعوا وخرّوا على الأرض ساجدين له.

قوله تعالى: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلاَئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ، إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبىٰ أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ لفظة أجمعون تأكيد بعد تأكيد لتشديده ، والمراد أن الملائكة سجدوا له بحيث لم يبق منهم أحد وقد استثنى من ذلك إبليس ولم يكن منهم لقوله تعالى: ﴿**كان من الجن ففسق عن أمر ربه**﴾ (الكهف / ٥٠) ، وأما قول من قال: إن طائفة من الملائكة كانوا يسمعون الجن وكان إبليس منهم أو أن الجن بمعنى الستر فيعم الملائكة وغيرهم فما لا يصغى اليه ، وقد تقدم في تفسير سورة الأعراف كلام في معنى شمول الأمر بالسجود لإبليس مع عدم كونه من الملائكة ، ومعنى الآيتين ظاهر.

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَنْ لاَ تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ « مالك » مبتدأ وخبر أي ما الذي هو كائن لك ؟ وقوله: « أن لا تكون » من قبيل نزع الخافض والتقدير في أن لا تكون مع الساجدين وهم الملائكة ، ومحصّل المعنى: ما بالك لم تسجد ؟

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ

مَسْنُونٍ ﴾ في التعبير بقوله: «لم أكن لأسجد» دون أن يقول: لا أسجد أو لست أسجد دلالة على أن الإباء عن السجدة مقتضى ذاته وكان هو المترقب منه لو اطّلع على جوهره فتفيد الآية بالكناية ما يفيده قوله في موضع آخر: **﴿أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين﴾** (ص / ٧٦) بالتصريح.

وقد تقدم كلام في معنى السجود لآدم وأمر الملائكة وإبليس بذلك وائتمارهم وتمرده عنه، نافع في هذا الباب في تفسير سورتي البقرة والأعراف من هذا الكتاب.

قول تعالى **﴿فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ، وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾**
الرجيم فعيل بمعنى المفعول من الرجم وهو الطرد وشاع استعماله في الطرد بالحجارة والحصاة، واللعن هو الطرد والإبعاد من الرحمة.

ومن هنا يظهر أن قوله: **﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ﴾** الخ: بمنزلة البيان لقوله: «فإنك رجيم» فإن الرجم كان سبباً لخروجه من بين الملائكة من السماء أو من المنزلة الإلهية وبالجملة من مقام القرب وهو مستوى الرحمة الخاصة الإلهية فينطبق على الابعاد من الرحمة وهو اللعن.

وقد نسب سبحانه هذه اللعنة المجعولة على إبليس في موضع آخر الى نفسه فقال: **﴿وإن عليك لعنتي إلى يوم الدين﴾** (ص / ٥٨)، وقيّدها في الآيتين جميعاً بقوله: «الى يوم الدين».

أما جعل مطلق اللعنة عليه في قوله: «عليك اللعنة» فلأن اللعن يلحق المعصية وما من معصية إلا ولإبليس فيه صنع بالإغواء والوسوسة فهو الأصل الذي يرجع اليه كل معصية وما يلحقها من لعن حتى في عين ما يعود الى أشخاص العصاة من اللعن والوبال، وتذكّر في ذلك ما تقدم في ذيل قوله تعالى: **﴿ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه فيجعله في جهنم﴾** (الأنفال / ٣٧) في الجزء التاسع من الكتاب.

على أنه لعنه الله أول فاتح فتح باب معصية الله وعصاه في أمره فاليه يعود وبال هذا الطريق بسالكيه ما سلكوا فيه.

وأما جعل لعنته خاصة عليه في قوله : « عليه لعنتي » فلأن الإبعاد من الرحمة بالحقيقة إنما يؤثر أثره إذا كان منه تعالى إذ لا يملك أحد من رحمته إعطاء ومنعاً إلا بإذنه فاليه يعود حقيقة الإعطاء والمنع .

على أن اللعن من غيره تعالى بالحقيقة دعاء عليه بالإبعاد من الرحمة وأما نفس الإبعاد الذي هو نتيجة الدعاء فهو من صنعه القائم به تعالى وحقيقته المبالغة في منع الرحمة .

وقال في المجمع : وقال بعض المحققين : إنما قال سبحانه هنا : « وإن عليك اللعنة » بالألف واللام ، وقال في سورة ص : ﴿لعنتي﴾ بالإضافة لأن هناك يقول « لما خلقت بيديَّ » مضافاً ، فقال : « وإن عليك لعنتي » على المطابقة ، وقال هنا : « مالك ألّا تكون مع الساجدين » وساق الآية على اللام في قوله : « ولقد خلقنا الإنسان » وقوله : « والجان » فأتى باللام أيضاً في قوله : « وإن عليك اللعنة » انتهى وقال أيضاً في الآية بيان أنه لا يؤمن قط .

وأما تقييد اللعنة بقوله : ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ فلأن اللعنة هي عنوان الإثم والوبال العائد الى النفس من المعصية والمعصية محدودة بيوم القيامة فاليوم عمل ولا جزاء وغداً جزاء ولا عمل ، وإن شئت فقل : هذه الدار دار كتابة الأعمال وحفظها ويوم القيامة دار الحساب والجزاء .

قوله تعالى : ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ الانظار هو الامهال وقد صدّر كلامه بقوله : « رب » وهو يخاصمه وقد عصاه واستكبر عليه تعالى لأنه في مقام الدعاء لا مفر له من دعوته تعالى بما يثير به الرحمة الإلهية المطلقة وهو الالتجاء اليه بربوبيته له ليستجيب له وهو مغضوب عليه .

وقد صدّر مسألته بفاء التفريع في قوله : « فأنظرني » وذكر فيه بعثة عامة البشر من غير أن يخص بالذكر آدم أباهم الذي ابتلي بالرجم واللعن من أجل الإباء عن السجود له وذلك كله مبني على ما تقدم في تفسير آيات القصة في سورة الأعراف أن المأمور به كان هو السجود

لعامة البشر وكان آدم عليه السلام كالقنبلة المنصوبة للسجود يمثل به النوع الانساني.

وتوضيحه أنه قد تقدم في قوله تعالى: ﴿ **ولقد خلقناكم ثم صورنا ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس** ﴾ (الأعراف / ١١) أنهم إنما أُمروا بالسجدة لنوع الانسان لا لشخص آدم عليه السلام ولم يكن هذه السجدة تشريفاً اجتماعياً من غير غاية حقيقية بل كانت خضوعاً بحسب الخلقة فهم بحسب ما أُريد من خلقتهم خاضعون للإنسان بحسب ما أُريد من كمال خلقته. أي إنهم مسخرون لأجله عاملون في سبيل سعادة حياته أي إن للانسان منزلة من القرب ومرحلة من كمال السعادة تفوق ما للملائكة من ذلك.

فسجودهم جميعاً له دليل أنهم جميعاً مسخرون في سبيل كماله من السعادة عاملون لأجل فوزه وفلاحه كملائكة الحياة وملائكة الموت وملائكة الأرزاق وملائكة الوحي والمعقبات والحفظة والكتبة وغيرهم ممن تذكرهم متفرقات الآيات القرآنية فالملائكة أسباب إلهية وأعوان للانسان في سبيل سعادنه وكماله.

ومن هنا يظهر للمتدبر الفطن أن إباء إبليس عن السجدة استنكاف منه عن الخضوع لنوع الانسان والعمل في سبيل سعادته وإعانته على كماله المطلوب على خلاف ما ظهر من الملائكة فهو بإبائه عن السجدة خرج من جمع الملائكة كما يفيده قوله تعالى: «مالك أن لا تكون مع الساجدين» وأظهر الخصومة لنوع الانسان والبراءة منهم ما حيوا وعاشوا أو خالداً مؤبداً.

ويؤيده جعله تعالى اللعنة المطلقة عليه من يوم أبى الى يوم الدين وهو مدة مكث النوع الانساني في هذه الدنيا فجعلها عليه كذلك ولما يدّع إبليس أنه سيغويهم ولم يقل بعد «لاغوينهم أجمعين» مشعرٌ بأن إباءه عن السجدة نوع خصومة وعداوة منه لهذا النوع آخذاً من آدم الى آخر من سيولد ويعيش من ذريته.

فكأنه عليه اللعنة فهم من قوله تعالى: «وإن عليك اللعنة الى يوم الدين» أنَّ له شأناً مع

النوع الانساني الى يوم القيامة وأن لشقائهم وفساد أعمالهم ارتباطاً به من حيث امتنع عن السجود ولذلك سأل النظرة الى يوم يبعثون مفرّعاً ذلك على اللعنة المجعولة عليه فقال: «رب فأنظرني الى يوم يبعثون» ولم يقل: ربّ أنظرني الى يوم يبعثون ولم يقل: أنظرني الى يوم يموت آدم أو أنظرني ما دام حياً يعيش بل ذكر آدم وبنيه جميعاً وطلب النظرة الى يوم يبعثون مفرعاً ذلك على اللعنة الى يوم الدين فلما أُجيب الى ما سأل أبدى ما في كمون ذاته وقال: لاغوينهم أجمعين.

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ، إِلىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ جواب منه سبحانه لإبليس وفيه إجابة وردّ أما الإجابة فبالنسبة الى أصل الإنظار الذي سأله وأما الردّ فبالنسبة الى القيد وهو أن يكون الإنظار الى يوم يبعثون فإن من الواضح اللائح بالنظر الى سياق الآيتين أن يوم الوقت المعلوم غير يوم يبعثون فلم يسمح له بإنظاره الى يوم يبعثون بل الى يوم هو غيره ولا محالة هو قبل يوم البعث.

وظاهر يوم الوقت المعلوم أنه وقت تعيّن في العلم الإلهي نظير قوله: ﴿وما ننزله إلا بقدر معلوم﴾ (الحجر / ٢١)، وقوله: ﴿اولئك لهم رزق معلوم﴾ (الصافات / ٤١) فهو معلوم عند الله قطعاً وأما أنه معلوم لإبليس أو مجهول عنده فغير معلوم من اللفظ، وقول بعضهم: أنه سبحانه أبهم اليوم ولم يبيّن فهو معلوم لله غير معلوم لإبليس لأن في بيانه إغراء بالمعصية كلام خال عن الدليل فإبهام اللفظ بالنسبة الينا غير إبهام ما أُلقي الى إبليس من القول بالنسبة اليه على أن إغراء إبليس بالمعصية وهو الأصل لكل معصية مفروضة لا يخلو عن إشكال فافهمه.

على أن قول إبليس ثانياً «لاغوينهم أجمعين» شاهد على أنه سيبقى الى آخر ما يعيش الإنسان في الدنيا ممن يمكنه إغواؤه فقد كان فهم من قوله تعالى: «الى يوم الوقت المعلوم» أنه آخر عمر البشر العائشين في الأرض الجائز له إغواؤهم.

ونسب الى ابن عباس ومال اليه الجمهور أن اليوم هو آخر أيام التكليف وهو النفخة الاولى يوم يموت الخلائق وكأنه مبني على أن إبليس باقٍ ما بقي التكليف وأمكنت المخالفة والمعصية، وهو مدة عمر الإنسان في الدنيا، وينتهي ذلك الى النفخة الاولى التي بها يموت الخلائق فهو يوم الوقت المعلوم الذي أنظره الله اليه، وبينه وبين النفخة الثانية التي فيها يبعثون أربعمائة سنة أو اربعون سنة على اختلاف الروايات، وهي ما به التفاوت بين ما سأله إبليس وبين ما أجاب اليه الله سبحانه.

وهذا وجه حسن لولا ما فيه من قولهم: إن إبليس باقٍ ما بقي التكليف وأمكنت المخالفة والمعصية فإنها مقدمة لا بيّنة ولا مبيّنة وذلك أن تعويل القوم في ذلك على أن المستفاد من الآيات والأخبار كون كل كفر وفسوق موجود في النوع الإنساني مستنداً الى إغواء إبليس ووسوسته كما يدلُّ عليه أمثال قوله تعالى: ﴿ **ألم أعهد اليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدوٌّ مبين** ﴾ (يس / ٦٠) وقوله: ﴿ **وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم** ﴾ الخ؛ الى غير ذلك من الآيات. ومقتضاها أن يدوم وجود إبليس ما دام التكليف باقياً، والتكليف باقٍ ما بقي الإنسان وهو المطلوب.

وفيه أن كون المعصية الإنسانية مستندة بالجملة الى إغواء إبليس مستفادة من الآيات والروايات لا غبار عليه لكنه إنما يقتضي بقاء إبليس ما دامت المعصية والغواية باقية لا بقاءه ما دام التكليف باقياً، ولا دليل على الملازمة بين المعصية والتكليف وجوداً.

بل الحجة قائمة من العقل والنقل على أن غاية الانسان النوعية وهي السعادة ستعمُّ النوع ويتخلص المجتمع الانساني الى الخير والصلاح ولا يعبد على الأرض يومئذ إلا الله سبحانه، وينطوي وقتئذ بساط الكفر والفسوق، ويصفو العيش ويرتفع أمراض القلوب ووساوس الصدور، وقد تقدم تفصيل ذلك في مباحث النبوة في الجزء الثاني وفي قصص نوح في الجزء العاشر من الكتاب. قال تعالى: ﴿ **ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم**

بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون ﴾ (الروم / ٤١)، وقال: ﴿ **ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون** ﴾ (الأنبياء / ١٠٥).

ومن ذلك يظهر أن الذي استندوا اليه من الحجّة إنما يدل على كون يوم الوقت المعلوم الذي جعله الله غاية إنظار إبليس هو يوم يصلح الله سبحانه المجتمع الإنساني فينقطع دابر الفساد ولا يعبد يومئذ إلا الله لا يوم يموت الخلائق بالنفخة الاولى.

قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ، إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ الباء في قوله: «بما أغويتني» للسببيّة و«ما» مصدرية أي أتسبب بإغوائك إيّاي الى التزيين لهم وأُلقي اليهم ما استقر فيّ من الغواية كما قالوا يوم القيامة على ما حكى الله: ﴿ **أغويناهم كما غوينا** ﴾ (القصص / ٦٣).

وقول بعضهم: إن الباء للقسم أي أُقسم بإغوائك لازيننّ؛ من أردء القول فلم يعهد في كتاب ولا سنّة أن يقسم بمثل الإغواء والإضلال وليس فيه شيء مفهوم من التعظيم اللازم في القسم.

وقد نسب لعنه الله في قوله: ﴿ بِمَا أَغْوَيْتَنِي ﴾ الى الله سبحانه أنه أغواء ولم يردّه الله سبحانه اليه ولا أجاب عنه وليس مراده به غوايته إذ عصى أمر السجدة ولم يسجد لآدم عليه السلام والدليل على ذلك أن لا رابطة بين معصيته في نفسه وبين معصية الانسان لربه حتى يكون معصيته سبب معصيتهم ويتسبب هو بها الى إغوائهم.

وإنما يريد به ما يفيده قوله تعالى: «وإن عليك اللعنة الى يوم الدين» من استقرار اللعنة المطلقة فيه وهي الابعاد من الرحمة والإضلال عن طريق السعادة وهي إغواء له إثر الغواية التي أبداها من نفسه وأتى بها من عنده فيكون من إضلاله تعالى مجازاة لا إضلالاً ابتدائياً وهو جائز غير ممتنع عليه تعالى، ولذلك لم يرده كما قال تعالى: ﴿ **يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً وما يضل به إلا الفاسقين** ﴾ (البقرة / ٢٦)، وقد بيّنا ذلك في ذيل الآية ومواضع اخرى من هذا

الكتاب.

وعند هذا يستقيم معنى السببيّة أعني إغواؤه الناس بسبب الإغواء الذي مسّه واستقر فيه فإن البعد من الرحمة والبون من السعادة لما كان لازماً لنفسه بلزوم اللعنة الإلهية له كان كلما اقترب من قلب إنسان بالوسوسة والتسويل أو استولى على نفس من النفوس وهو بعيد من الرحمة والسعادة أوجب ذلك بعد من اقترب منه أو تسلط عليه، وهو إغواؤه بإلقاء أثر الغواية التي عنده اليه وهو ظاهر.

وقوله: ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي لازينَنَّ لهم الباطل أو لازيننَّ لهم المعاصي على ما قيل والمعنى الأول أجمع والمفعول محذوف على أي حال، والظاهر أن المفعول معرض عنه والفعل مستعمل استعمال اللازم، والغرض بيان أصل التزيين كناية عن الغرور يقال: زيّن له كذا وكذا أي حمله عليه غروراً. وضمير «هم» لآدم وذريته على ما يدلُّ عليه السياق، والمراد بالتزيين لهم في الأرض غرورهم في هذه الحياة الأرضية وهي الحياة الدنيا وهو السبب القريب للإغواء فيكون عطف قوله: «ولاغوينهم أجمعين» عليه من عطف المسبب على السبب المترتب عليه.

والآية تشعر بل تدل على ما قدمناه في تفسير آيات جنة آدم في الجزء الأول من الكتاب أن معصية آدم بالأكل من الشجرة المنهيّة عن وسوسة إبليس لم تكن معصية لأمر مولوي بل مخالفة لأمر إرشادي لا يوجب نقضاً في عصمته فإنه يعرف الأرض في الآية ظرفاً لتزيينه وإغوائه فما كان غروره لآدم وزوجته في الجنة إلا ليخرجهما منها وينزلهما الى الأرض فيتناسلا فيها فيغويهما وبنيهما عن الحق ويضلهم عن الصراط قال تعالى: ﴿يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما﴾ (الأعراف / ٢٧).

وقوله: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ استثنى من عموم الإغواء طائفة خاصة من البشر وهم المخلصون ـ بفتح اللام على القراءة المشهورة ـ والسياق يشهد أنهم الذين

اخلصوا لله وما أخلصهم إلا الله سبحانه، وقد قدمنا في الكلام على الاخلاص في تفسير سورة يوسف أن المخلصين هم الذين أخلصهم الله لنفسه بعدما أخلصوا أنفسهم لله فليس لغيره سبحانه فيهم شركة ولا في قلوبهم محلّ فلا يشتغلون بغيره تعالى فما ألقاه اليهم الشيطان من حبائله وتزييناته عاد ذكراً لله مقرّباً اليه.

ومن هنا يترجح أن الاستثناء إنما هو الإغواء فقط لا منه ومن التزيين بمعنى أنه لعنه الله يزين للكل لكن لا يغوي إلا غير المخلصين.

ويستفاد من استثناء العباد أولاً ثم تفسيره بالمخلصين أن حق العبودية إنما هو بأن يخلص الله العبد لنفسه أي أن لا يملكه إلا هو ويرجع الى أن لا يرى الإنسان لنفسه ملكاً وأنه لا يملك نفسه ولا شيئاً من صفات نفسه وآثارها وأعمالها وأن الملك ـ بكسر الميم وضمها ـ لله وحده.

قوله تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ ظاهر الكلام على ما يعطيه السياق أنه كنايه على أن الأمر اليه تعالى لا غنى فيه عنه بوجه كما أن كون طريق السفينة على البحر يقيضي على راكبيها بأن لا مفرّ لهم مما يستدعيه العبور على الماء من العدَّة والوسيلة وكذا كون طريق القافلة على الجبل يحوجهم الى ما يتهيّأ به لعبور قلله الشاهقة ومسالكه الصعبة فكونه صراطاً عليه تعالى بالاستقامة هو أنه أمر متوقف من كل جهة الى حكمه وقضائه تعالى فإنه الله الذي منه يبدأ كل شيء واليه ينتهي فلا يتحقق أمر إلا وهو ربه القيُّوم عليه.

وظاهر السياق أيضاً أن الإشارة بقوله: «هذا صراط» الخ؛ الى قول إبليس «لاغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين» لما أظهر بقوله هذا أنه سينتقم منهم ويبسط سلطته بالتزيين والإغواء عليهم جميعاً فلا يخلص منهم إلا القليل كأنه يشير الى أنه سيستقلّ بما عزم عليه ويعلو بإرادته على الله سبحانه فيما أراد من خلقهم واستخلافهم واستعبادهم كما حكاه الله تعالى من قوله في موضع آخر من قوله: ﴿ولا تجد أكثرهم شاكرين﴾ (الأعراف / ١٧).

فمعنى الآية أن ما ذكرت من أنك ستغويهم أجمعين واستثنيت منهم من استثنيت وأظهرت نسبته الى قوّتك ومشيئتك زاعماً فيه أنك مستقل به، أمر لا يملكه إلا أنا ولا يحكم فيه غيري ولا يصدر إلا عن قضائي فإن أغويت فبإذني أغويت وإن مُنعت فبمشيئتي منعت فليس اليك من الأمر شيء ولا من الملك إلا ما ملّكتك ولا من القدرة إلا ما أقدرتك، والذي أقضيه لك من السلطان أن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتّبعك، الخ.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ هذا هو القضاء الذي أشار سبحانه اليه في الآية السابقة في أمر الإغواء وذكر أنه له وحده ليس لغيره فيه صنع ولا نصيب.

ومحصّلة أن آدم وبنيه كلهم عباده لا كما قاله إبليس حيث قصر عباده على المخلصين منهم إذ قال: «إلا عبادك منهم المخلصين» ولم يجعل سبحانه له عليهم ـ أي على العباد ـ سلطاناً حتى يستقل بأمرهم فيغويهم، وإنما جعل له السلطان على طائفة منهم وهم الذين اتبعوه من الغاوين وولّوه أمرهم وألقوا اليه زمام تدبيرهم فهؤلاء هم الذين له عليهم سلطان.

فإذا أمعنت في الآية وجدتها تردّ على إبليس قوله: «لاغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين» من ثلاث جهات أصلية:

إحداها: أنه حصر عباده في المخلصين منهم ونفى عنهم سلطان نفسه وعمّم سلطانه على الباقين والله سبحانه عمّم عباده على الجميع وقصر سلطان إبليس على طائفة منهم وهم الذين اتبعوه من الغاوين ونفى سلطانه على الباقين.

والثانية: أنه لعنه الله ادَّعى لنفسه الاستقلال في إغوائهم كما يظهر من قوله: «لاغوينهم» في سياق المخاصمة والتقريع بالانتقام والله سبحانه يردّ عليه بأنه منه مزعمة باطلة وإنما هو عن قضاء من الله وسلطان بتسليطه وإنما ملّكه إغواء من اتبعه وكان غاوياً في نفسه وبسوء اختياره.

فلم يأتِ إبليس بشيء من نفسه ولم يفسد أمراً على ربه لا في إغوائه أهل الغواية فإنه بقضاء من الله سبحانه أن يستقر لأهل الغواية غيّهم بسببه ـ وقد اعترف لعنه الله بذلك بعض الاعتراف بقوله: «رب بما أغويتني» ـ ولا في استثنائه المخلصين فإنه أيضاً بقضاء من الله نافذ فلا حكم إلا لله.

وهذا الذي تفيده الآية الكريمة أعني تسليط إبليس على إغواء الغاوين الذين هم في أنفسهم غاوون وتخليص المخلصين وهم مخلصون في أنفسهم من كيده كل ذلك بقضاء من الله، مبني على أصل عظيم يفيده التوحيد القرآني المفاد بأمثال قوله تعالى: ﴿**إن الحكم إلا لله**﴾ (يوسف / ٦٧)، وقوله: ﴿**وهو الله لا إله إلا هو له الحمد في الاولى والآخرة وله الحكم**﴾ (القصص / ٧٠)، وقوله: ﴿**الحق من ربك**﴾ (آل عمران / ٦٠)، وقوله: ﴿**ويحقُّ الله الحقَّ بكلماته**﴾ (يونس / ٨٢)، وغير ذلك من الآيات الدالّة على أن كل حكم إيجابي أو سلبي فهو مملوك لله نافذ بقضائه.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ الظاهر أن «موعد» اسم مكان والمراد بكون جهنم موعدهم كونه محل إنجاز ما وعدهم الله من العذاب.

وهذا منه سبحانه تأكيد لثبوت قدرته ورجوع الأمر كله اليه كأنه تعالى يقول له ﴿**ما ذكرته من السلطان على الغاوين ليس لك من نفسك ولم تعجزنا بل نحن سلّطناك عليهم لاتباعهم لك على أنّا سنجازيهم بعذاب جنهم**﴾.

ولكون الكلام مسوقاً لبيان حالهم اقتصر على ذكر جزائهم ولم يذكر معهم إبليس ولا جزاءه بخلاف قوله: ﴿**لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين**﴾ (ص / ٨٥) وقوله: ﴿**فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفوراً**﴾ (الإسراء / ٦٣)، لأن المقام غير المقام.

قوله تعالى: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾ لم يبين سبحانه في شيء من صريح كلامه ما هو المراد بهذه الأبواب أهي كأبواب الحيطان مداخل تهدي

الجميع الى عرصة واحدة أم هي طبقات ودركات تختلف في نوع العذاب وشدته ؟ وكثيراً ما يسمى في الامور المختلفة الأنواع كل نوع باباً كما يقال : أبواب الخير وأبواب الشر وأبواب الرحمة. قال تعالى : ﴿ فتحنا عليهم أبواب كل شيء ﴾ (الأنعام / ٤٤)، وربما سمي أسباب الشيء وطرق الوصول اليه أبواباً كأبواب الرزق لأنواع المكاسب والمعاملات.

وليس من البعيد أن يستفاد المعنى الثاني من متفرقات آيات النار كقوله تعالى : ﴿ وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً حتى إذا جاوها فتحت أبوابها ـ الى أن قال ـ قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها ﴾ (الزمر / ٧٢)، وقوله : ﴿ إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ﴾ (النساء / ١٤٥)، الى غير ذلك من الآيات.

ويؤيّده قوله : ﴿ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ ﴾ فإن ظاهره أن نفس الجزء مقسوم موزع على الباب ، وهذا إنما يلائم الباب بمعنى الطبقة دون الباب بمعنى المدخل وأما تفسير بعضهم الجزء المقسوم بالفريق المعين المفروز من غيره فوهنه ظاهر.

وعلى هذا فكون جهنم لها سبعة أبواب هو كون العذاب المعدّ فيها متنوعاً الى سبعة أنواع ثم انقسام كل نوع أقساماً حسب انقسام الجزء الداخل الماكث فيه ، وذلك يستدعي انقسام المعاصي الموجبة للدخول فيها سبعة أقسام ، وكذا انقسام الطرق المؤدية والأسباب الداعية الى تلك المعاصي ذاك الانقسام ، وبذلك يتأيّد ما ورد من الروايات في هذه المعاني كما سيوافيك إن شاء الله.

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ، أُدْخُلُوهَا بِسَلامٍ آمِنِينَ ﴾ أي إنهم مستقرون في جنّات وعيون يقال لهم : ادخلوها بسلام لا يوصف ولا يكتنه نعته في حال كونكم آمنين من كل شرّ وضرّ.

لما ذكر سبحانه قضاءه فيمن اتبع إبليس من الغاوين ذكر ما قضى به في حق المتقين من الجنة ، وقد ورد تفسير التقوى في كلامه ﷺ بالورع عن محارم الله ، وقد تكرر في كلامه

تعالى بشراهم بالجنة فيكون المتقون أعم من المخلصين.

فالحق أن الآية إنما تشمل الذين استقرت فيهم ملكة التقوى وهو الورع عن محارم الله فاولئك هم المقضي عليهم بالسعادة والجنة قضاء لازماً. نعم المستفاد من الكتاب والسنة أن أهل التوحيد وهم من حضر الموقف بشهادة أن لا إله إلا الله لا يخلدون في النار ويدخلون الجنة لا محالة. وهذا غير دلالة آية المتقين على ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَاناً عَلَىٰ سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ الى آخر الآيتين. الغل الحقد، وقيل هو ما في الصدر من حقد وحسد مما يبعث الإنسان الى إضرار الغير. والسرر جمع سرير والنصب هو التعب والعي الوارد من خارج.

يصف تعالى في الآيتين حال المتقين في سعادتهم بدخول الجنة. اختص بالذكر هذه الامور من بين نعم الجنة على كثرتها فإن العناية باقتضاء من المقام متعلقة ببيان أنهم في سلام وأمن مما ابتلي به الغاوون من بطلان السعادة وذهاب السيادة والكرامة فذكر أنهم في أمن من قبل أنفسهم لأن الله نزع ما في صدورهم من غل فلا يهم الواحد منهم بصاحبه سوء بل هم إخوان على سرر متقابلين ولتقابلهم معنى سيأتي في البحث الروائي إن شاء الله تعالى، وأنهم في أمن من ناحية الأسباب والعوامل الخارجة فلا يمسهم نصب أصلاً، وأنهم في أمن وسلام من ناحية ربهم فما هم من الجنة بمخرجين أبداً فلهم السعادة والكرامة من كل جهة، ولا يغشاهم ولا يمسهم شقاء ووهن من جهة أصلاً لا من ناحية أنفسهم ولا من ناحية سائر ما خلق الله ولا من ناحية ربهم[1][2].

---

١. الحجر ٢٦-٤٨: كلام في الاقضية التي صدرت عن مصدر العزة في بدء خلق الانسان.

٢. الحجر ٢٦-٤٨: بحث روائي في: الروح التي نفخ الله في آدم؛ لم اضاف الله الروح الى نفسه؟؛ زمان موت ابليس؛ ابواب جهنم.

٤٩ ❁ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ.

٥٠ ❁ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ.

٥١ ❁ وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ.

٥٢ ❁ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلاماً قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ.

٥٣ ❁ قَالُوا لاَ تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ.

٥٤ ❁ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَنْ مَسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ.

٥٥ ❁ قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالحَقِّ فَلا تَكُنْ مِنَ ٱلْقَانِطِينَ.

٥٦ ❁ قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ.

٥٧ ❁ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ.

٥٨ ❁ قَالُوا إِنَّا أُرسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُجْرِمِينَ.

٥٩ ❁ إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ.

٦٠ ❁ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُ قَدَّرنَا إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَابِرِينَ.

٦١ ❁ فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ.

٦٢ ❁ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ.

٦٣ ❁ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ.

٦٤ ❁ وَأَتَيْنَاكَ بِالحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ.

٦٥ ❁ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ ٱللَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلاَ يَلْتَفِتْ
مِنْكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ.

٦٦ ❁ وَقَضَيْنا إِلَيْهِ ذٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دابِرَ هٰؤُلاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ.

٦٧ ❁ وَجاءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ.

٦٨ ❁ قالَ إِنَّ هٰؤُلاءِ ضَيْفِي فَلا تَفْضَحُونِ.

٦٩ ❁ وَٱتَّقُوا ٱللّٰهَ وَلا تُخْزُونِ.

٧٠ ❁ قالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعالَمِينَ.

٧١ ❁ قالَ هٰؤُلاءِ بَناتِي إِنْ كُنْتُمْ فاعِلِينَ.

٧٢ ❁ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ.

٧٣ ❁ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ.

٧٤ ❁ فَجَعَلْنا عالِيَها سافِلَها وَأَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ حِجارَةً مِنْ سِجِّيلٍ.

٧٥ ❁ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآياتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ.

٧٦ ❁ وَإِنَّها لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ.

٧٧ ❁ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ.

٧٨ ❁ وَإِنْ كانَ أَصْحابُ ٱلْأَيْكَةِ لَظالِمِينَ.

٧٩ ❁ فَانْتَقَمْنا مِنْهُمْ وَإِنَّهُما لَبِإِمامٍ مُبِينٍ.

٨٠ ❁ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحابُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ.

٨١ ❁ وَآتَيْناهُمْ آياتِنا فَكانُوا عَنْها مُعْرِضِينَ.

٨٢ ❁ وَكانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبالِ بُيُوتاً آمِنِينَ.

٨٣ ❁ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ.

٨٤ ❁ فَما أَغْنىٰ عَنْهُم ما كانُوا يَكْسِبُونَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿نَبِّىءْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ، وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ المراد بقوله: «عبادي» على ما يفيده سياق الآيات مطلق العباد ولا يعبؤ بما ذكره بعضهم: أن المراد بهم المتقون السابق ذكرهم أو المخلصون.

وتأكيد الجملتين بالإسمية وإنّ وضمير الفصل واللام في الخبر يدل على أن الصفات المذكورة فيها أعني المغفرة والرحمة وألم العذاب بالغة في معناها النهاية بحيث لا تقدّر بقدر ولا يقاس بها غيرها، فما من مغفرة أو رحمة إلا ويمكن أن يفرض لها مانع يمنع من إرسالها أو مقدّر يقدّرها ويحدّها، لكنه سبحانه يحكم لا معقّب لحكمه ولا مانع يقاومه فلا يمنع عن إنجاز مغفرته ورحمته شيء ولا يحدّهما أمر إلا أن يشاء ذلك هو جلّ وعز، فليس لأحد ان ييأس من مغفرته أو يقنط من روحه ورحمته استناداً الى مانع يمنع أو رادع يردع إلا ان يخافه تعالى نفسه كما قال: ﴿لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم وأنيبوا إلى ربكم﴾ (الزمر / ٥٤).

وليس لأحد أن يحقّر عذابه أو يؤمّل عجزه أو يأمن مكره والله غالب على أمره ولا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون.

قوله تعالى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾ الضيف معروف ويطلق على المفرد والجمع وربما يجمع على أضياف وضيوف وضيفان لكن الأفصح ـ كما قيل ـ أن لا يثنّى ولا يجمع لكونه مصدراً في الأصل.

والمراد بالضيف الملائكة المكرمون الذين أُرسلوا لبشارة إبراهيم بالولد ولهلاك قوم لوط سمّاهم ضيفاً لأنهم دخلوا عليه في صورة الضيف.

قوله تعالى: ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلاماً قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ. قَالُوا لاَ

تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴾ ضمير الجمع في «دخلوا وقالوا» في الموضعين للملائكة فقولهم: «سلاماً» تحية وتقديره نسلم عليك سلاماً وقول إبراهيم ﷺ «إنا منكم وجلون» أي خائفون والوجل: الخوف.

وإنما قال لهم إبراهيم ذلك بعدما استقر بهم المجلس وقدّم اليهم عجلاً حنيذاً فلم يأكلوا منه فلما رآى أيديهم لا تصل اليه نكرهم وأوجس منهم خيفة كما في سورة هود فالقصة مذكورة على نحو التلخيص.

وقولهم: ﴿ لَا تَوْجَلْ ﴾ تسكين لوجله وتأمين له وتطييب لنفسه بأنهم رسل ربه وقد دخلوا عليه ليبشّروه بغلام عليم أي بولد يكون غلاماً وعليماً، ولعل المراد كونه عليماً بتعليم الله ووحيه فيقرب من قوله في موضع آخر: ﴿فبشّرناه بإسحاق نبياً﴾ (الصافات / ١١٢).

قوله تعالى: ﴿ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَنْ مَسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴾ تلقى إبراهيم ﷺ البشرى وهو شيخ كبير هرم لا عقب له من زوجه وقد أيأسته العادة الجارية عن الولد وابن كان يجلّ أن يقنط من رحمة الله ونفوذ قدرته، ولذا تعجب من قولهم واستفهمهم كيف يبشّرونه بالولد وحاله هذه الحال؟ وزوجه عجوز عقيم كما وقع في موضع آخر من كلامه تعالى.

فقوله: ﴿ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَنْ مَسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ ﴾ الكبر كناية عن الشيخوخة ومسّه هو نيله منه ما نال بإفناء شبابه وإذهاب قواه، والمعنى إني لأتعجب من بشارتكم إياي والحال أني شيخ هرم فنى شبابي وفقدت قوى بدني، والعادة تستدعي أن لا يولد لمن هذا شأنه ولد.

وقوله: ﴿ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴾ تفريع على قوله: «مسني الكبر» وهو استفهام عمّا بشّروه به كأنه يشكّ في كون بشارتهم بشرى بالولد مع تصريحهم بذلك لا استبعاد ذلك فيسأل ما هو الذي تبشّرون به؟ فإن الذي يدل عليه ظاهر كلامكم أمر عجيب، وهذا شائع في الكلام يقول

الرجل إذا أُخبر بما يستبعده أو لا يصدقه: ما تقول؟ وما تريد؟ وماذا تصنع؟.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ ـ الى قوله ـ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ الباء في «بالحق» للمصاحبة أي إن بشارتنا ملازمة للحق غير منفكة منه فلا تدفعها بالاستبعاد فتكون من القانطين من رحمة الله، وهذا جواب للملائكة وقد قابلهم إبراهيم عليه السلام على نحو التكنية فقال: «ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون» والاستفهام إنكاري أي إن القنوط من رحمة الله مما يختص بالضالين ولست أنا بضال فليس سؤالي سؤال قانط مستبعد.

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ الخطب الأمر الجليل الشأن العظيم، وفي خطابهم بالمرسلين دلالة على أنهم ذكروا له ذلك قبلاً، ومعنى الآية ظاهر.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّا أُرسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ـ الى قوله ـ لَمِنَ ٱلْغَابِرِينَ﴾ قال في المفردات: الغابر الماكث بعد مضيّ من هو معه قال تعالى: «إلا عجوزاً في الغابرين» يعني فيمن طال أعمارهم، وقيل: فيمن بقي ولم يسر مع لوط، وقيل: فيمن بقي بعد في العذاب، وفي آخر «إلا امرأتك كانت من الغابرين» وفي آخر «قدرنا إنها لمن الغابرين» ـ الى أن قال ـ والغبار ما يبقى من التراب المثار وجعل على بناء الدخان والعثار ونحوهما من البقايا. انتهى ولعله من هنا ما ربما يسمى الماضي والمستقبل معاً غابراً أما الماضي فبعناية أنه بقي فيما مضى ولم يتعد الى الزمان الحاضر وأما المستقبل فبعناية أنه باق لم يفن بعد كالماضي.

والآيات جواب الملائكة لسؤال إبراهيم «قالوا إنا أُرسلنا» من عند الله سبحانه «الى قوم مجرمين» نكروهم ولم يسموهم صوناً للسان عن التصريح باسمهم تنفراً منه ومستقبل الكلام يعينهم ثم استثنوا وقالوا: «إلا آل لوط» وهم لوط وخاصته وظهر به أن القوم قومه «إنا لمنجّوهم» أي مخلصوهم من العذاب «أجمعين» وظاهر السياق كون الاستثناء منقطعاً.

ثم استثنوا امرأة لوط من آله للدلالة على أن النجاة لا تشملها وأن العذاب سيأخذها ويهلكها فقالوا: «إلا امرأته قدرنا إنها لمن الغابرين» أي الباقين من القوم بعد خروج آل لوط

من قريتهم.

وقد تقدم تفصيل القول في ضيف إبراهيم عليه السلام في سورة هود في الجزء العاشر من الكتاب وعقدنا هناك بحثاً مستقلاً فيه.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ، قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾ إنما قال لهم لوط عليه السلام ذلك لكونهم ظاهرين بصور غلمان مرد حسان وكان يشقه ما يراه منهم وشأن قومه شأنهم من الفحشاء كما تقدم في سورة هود، والمعنى ظاهر.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ، وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ الامتراء من المرية وهو الشكّ، والمراد بما كانوا فيه يمترون العذاب الذي كان ينذرهم به لوط وهم يشكون فيه، والمراد بإتيانهم بالحق إتيانهم بقضاء حق في أمر القوم لا معدل عنه كما وقع في موضع آخر من قولهم: ﴿وإنهم آتيهم عذاب غير مردود﴾ (هود / ٧٦)، وقيل: المراد «وأتيناك بالعذاب الذي لا شك فيه» وما ذكرناه هو الوجه.

وفي آيات القصة تقديم وتأخير لا بمعنى اختلال ترتيبها بحسب النزول عند التأليف بوضع ما هو مؤخر في موضع المقدم وبالعكس بل بمعنى ذكره تعالى بعض أجزاء القصة في غير محله الذي يقتضيه الترتيب الطبعي وتعيّنه له سنّة الاقتصاص لنكتة توجب ذلك.

وترتيب القصة بحسب أجزائها على ما ذكرها الله سبحانه في سورة هود وغيرها والاعتبار يساعد ذلك مقتضاه أن يكون قوله: «فلما جاء آل لوط» الى تمام آيتين قبل سائر الآيات. ثم قوله: «وجاء أهل المدينة» الى تمام ستّ آيات. ثم قوله: «قالوا بل جئناك» الى تمام أربع آيات. ثم قوله: «فأخذتهم الصيحة مشرقين» الى آخر الآيات.

وحقيقة هذا التقديم والتأخير أن للقصة فصولاً أربعة وقد أُخذ الفصل الثالث منها فوضع بين الأول والثاني أعني أن قوله: «وجاء أهل المدينة» الى آخره أُخّر في الذكر ليتصل آخره وهو قوله: «لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون» بأول الفصل الأخير «فأخذتهم الصيحة

مشرقين» وذلك ليتمثل به الغرض في الاستشهاد بالقصة وينجلي أوضح الانجلاء وهو نزول عذاب هائل كعذابهم في حال سكرة منهم وأمن منه لا يخطر ببالهم شيء من ذلك وذلك أبلغ في الدهشة وأوقع في الحسرة يزيد في العذاب ألماً على ألم.

ونظير هذا في التلويح بهذه النكتة ما في آخر قصة أصحاب الحجر الآتية من اتصال قوله: «وكانوا ينحتون من الجبال بيوتاً آمنين» بقوله: «فأخذتهم الصيحة مصبحين» كل ذلك ليجلّي معنى قوله تعالى في صدر المقال: «وأن عذابي هو العذاب الأليم» فافهم ذلك.

قوله تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ ٱللَّيْلِ﴾ الى آخر الآية: الإسراء هو السير بالليل، فقوله: «بقطع من الليل» يؤكده وقطع الليل شطر مقطوع منه، والمراد باتباعه أدبارهم هو أن يسير وراءهم فلا يترك أحداً يتخلّف عن السير ويحملهم على السير الحثيث كما يشعر به قوله: «ولا يلتفت منكم أحد».

والمعنى: وإذ جئناك بعذاب غير مردود وأمر من الله ماض يجب عليك أن تسترِ بأهلك ليلاً وتأخذ أنت وراءهم لئلا يتخلفوا عن السير ولا يساهلوا فيه ولا يلتفت أحد منكم الى ورائه وامضوا حيث تؤمرون، وفيه دلالة على أنه كانت أمامهم هداية إلهية تهديهم وقائد يقودهم.

قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ﴾ القضاء مضمّن معنى الوحي ولذا عدّي بإلى ـ كما قيل ـ والمراد بالأمر أمر العذاب كما يفسره قوله: «أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين» والإشارة اليه بلفظة «ذلك» للدلالة على عظم خطره وهول أمره.

والمعنى: وقضينا أمرنا العظيم في عذابهم موحياً ذلك الى لوط وهو أن دابر هؤلاء وأثرهم الذي من شأنه أن يبقى بعدهم من نسل وبناء وعمل مقطوع حال كونهم مصبحين أو التقدير أوحينا اليه قاضياً، الخ.

قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ـ الى قوله ـ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ يدلّ نسبة المجيء الى أهل المدينة على كونهم جماعة عظيمة يصحّ عدّهم أهل المدينة لكثرتهم.

فالمعنى «وجاء» الى لوط «أهل المدينة» جمع كثير منهم يريدون أضيافه وهم «يستبشرون» لولعهم بالفحشاء وخاصة بالداخلين في بلادهم من خارج فاستقبلهم لوط مدافعاً عن أضيافه «قال إن هؤلاء ضيفي فلا تفضحون» بالعمل الشنيع بهم «واتقوا الله ولا تخزون قالوا» المهاجمون من أهل المدينة: ألم نقطع عذرك في إيوائهم «أولم ننهك عن العالمين» أن تؤويهم وتشفع فيهم وتدافع عنهم فلما يئس لوط عليه السلام منهم عرض عليهم بناته أن ينصرفوا عن أضيافه بنكاحهن ـ كما تقدم بيانه في سورة هود ـ «قال إن هؤلاء بناتي إن كنتم فاعلين».

قوله تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ـ الى قوله ـ مِنْ سِجِّيلٍ﴾ قال في المفردات: العمارة ضدّ الخراب. قال: والعمر اسم لمدة عمارة البدن بالحياة فهو دون البقاء فإذا قيل: طال عمره فمعناه عمارة بدنه بروحه، وإذا قيل: بقاؤه فليس يقتضي ذلك فإن البقاء ضد الفناء، ولفضل البقاء على العمر وصف الله به وقلما وصف بالعمر قال: والعمر ـ بالضم ـ والعمر ـ بالفتح ـ واحد لكن خصّ القسم بالعمر ـ بالفتح ـ دون العمر ـ بالضم ـ نحو «لعمرك إنهم لفي سكرتهم»، انتهى.

والخطاب في ﴿لَعَمْرُكَ﴾ للنبي صلى الله عليه وآله وسلم فهو قسم ببقائه وقول بعضهم: إنه خطاب من الملائكة للوط عليه السلام وقسم بعمره لا دليل عليه من سياق الآيات.

والعمه هو التردد على حيرة والسجّيل حجارة العذاب وقد تقدم تفصيل القول في معناه في تفسير سورة هود.

والمعنى أُقسم بحياتك وبقائك يا محمد إنهم لفي سكرتهم وهي غفلتهم بانغمارهم في

الفحشاء والمنكر يتردّدون متحيرين «فأخذتهم الصيحة» وهي الصوت الهائل «مشرقين» أي حال كونهم داخلين في إشراق الصبح فجعلنا عالي بلادهم سافلها وفوقها تحتها وأمطرنا وأنزلنا من السماء عليهم حجارة من سجّيل.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ ـ الى قوله ـ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ الآية العلامة والمراد بالآيات أولاً العلامات الدالّة على وقوع الحادثة من بقايا الآثار وبالآية ثانياً العلامة الدالّة للمؤمنين على حقّية الإنذار والدعوة الإلهية، والتوسّم التفرّس والانتقال من سيماء الأشياء على حقيقة حالها.

والمعنى: أن في ذلك أي فيما جرى من الأمر على قوم لوط وفي بلادهم لعلامات من بقايا الآثار للمتفرّسين وإن تلك العلامات لبسبيل للعابرين مقيم لم تعف ولم تنمحِ بالكلية بعد، إن في ذلك لآية للمؤمنين تدلّ على حقيّة الإنذار والدعوة وقد تبيّن بذلك وجه إيراد الآيات جمعاً ومفرداً في الموضعين.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ ـ الى ـ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ﴾ الأيكة واحدة الأيك وهو الشجر الملتف بعضه ببعض فقد كانوا ـ كما قيل ـ في غيضة أي بقعة كثيفة الأشجار.

وهؤلاء ـ كما ذكروا ـ هم قوم شعيب عليه السلام أو طائفة من قومه كانوا يسكنون الغيضة، ويؤيده قوله تعالى ذيلاً: «وإنهما لبإمام مبين» أي مكانا قوم لوط وأصحاب الأيكة لفي طريق واضح فإن الذي على طريق المدينة الى الشام هي بلاد قوم لوط وقوم شعيب الخربة أهلكهم الله بكفرهم وتكذيبهم لدعوة شعيب عليه السلام وقد تقدمت قصتهم في سورة هود. وقوله: «فانتقمنا منهم» الضمير لأصحاب الأيكة وقيل: لهم ولقوم لوط. ومعنى الآيتين ظاهر.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ ـ الى قوله ـ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أصحاب الحجر هم ثمود قوم صالح، والحجر اسم بلدة كانوا يسكنونها وعدّهم

مكذبين لجميع المرسلين وهم إنما كذبوا صالحاً المرسل اليهم إنما هو لكون دعوة الرسل دعوة واحدة، والمكذّب لواحد منهم مكذّب للجميع.

وقوله: ﴿وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ إن كان المراد بالآيات المعجزات والخوارق ـ كما هو الظاهر ـ فالمراد بها الناقة وشربها وما ظهر لهم بعد عقرها الى أن أُهلكوا، وقد تقدمت القصة في سورة هود، وإن كان المراد بها المعارف الإلهية التي بلّغها صالح عليه السلام ونشرها فيهم أو المجموع من المعارف الحقّة والآية المعجزة فالأمر واضح.

وقوله: ﴿وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً آمِنِينَ﴾ أي كانوا يسكنون الغيران والكهوف المنحوتة من الحجارة آمنين من الحوادث الأرضية والسماوية بزعمهم.

وقوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴾ أي صيحة العذاب التي كان فيها هلاكهم، وقد تقدّمت الإشارة الى مناسبة اجتماع الأمن مع الصيحة في الآيتين لقوله في صدر الآيات: «وإن عذابي هو العذاب الأليم».

وقوله: ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي من الأعمال لتأمين سعادتهم في الحياة.

٨٥ • وَمَا خَلَقْنَا السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ.

٨٦ • إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ.

٨٧ • وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ.

٨٨ • لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ.

٨٩ ● وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ.
٩٠ ● كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ.
٩١ ● ٱلَّذِينَ جَعَلُوا ٱلْقُرآنَ عِضِينَ.
٩٢ ● فَوَرَبِّكَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ.
٩٣ ● عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ.
٩٤ ● فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ.
٩٥ ● إِنَّا كَفَيْنَاكَ ٱلْمُسْتَهْزِئِينَ.
٩٦ ● ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللهِ إِلَهاً آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ.
٩٧ ● وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ.
٩٨ ● فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ.
٩٩ ● وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمٰوَاتِ وَالْأَرضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ﴾ الباء في قوله: «بالحق» للمصاحبة أي إن خلقها جميعاً لا ينفك عن الحق ويلازمه فللخلق غاية سيرجع اليها قال تعالى: ﴿إن إلى ربك الرجعى﴾ (العلق / ٨)، ولولا ذلك لكان لعباً باطلاً قال تعالى: ﴿وما خلقنا السمات والأرض وما بينهما لاعبين ما خلقناهما إلّا بالحقّ﴾ (الدخان / ٣٩)، وقال: ﴿وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً﴾ (ص / ٢٧)، ومن الدليل على كون المراد بالحق ما يقابل اللعب الباطل تذييل الكلامه بقوله: «وإن الساعة لآتية» وهو ظاهر.

قوله تعالى: ﴿فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ قال في المفردات: صفح الشيء عرضه وجانبه كصفحة الوجه وصفحة السيف وصفحة الحجر والصفح ترك التثريب وهو أبلغ من العفو ولذلك قال: «فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره» وقد يعفو الانسان ولا يصفح قال تعالى: ﴿فاصفح عنهم وقل سلام﴾ ﴿فاصفح الصفح الجميل﴾ ﴿أفنضرب عنكم الذكر صفحا﴾.

وصفحت عنه أوليته صفحة جميلة معرضاً عن ذنبه، أو لقيت صفحته متجافياً عنه أو تجاوزت الصفحة التي أثبت فيها ذنبه من الكتاب الى غيرها من قولك تصفحت الكتاب، وقوله: «إن الساعة لآتية فاصفح الصفح الجميل» فأمر له ﷺ أن يخفف كفر من كفر كما قال: «ولا تحزن عليك ولا تكُ في ضيق مما يمكرون» والمصافحة الافضاء بصفحة اليد. انتهى.

وسيأتي ما في الرواية من تفسير علي ﷺ الصفح بالعفو من غير عتاب.

وقوله: ﴿فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ تفريع على سابقه أي إذا كانت الخلقة بالحق وهناك يوم فيه يحاسبون ويجازون لا ريب فيه فلا تشغل نفسك بما ترى منهم من التكذيب والاستهزاء واعفُ عنهم من غير أن تقع فيهم بعتاب أو مناقشة وجدال فإن ربك الذي خلقك وخلقهم هو عليم بحالك وحالهم ووراءهم يوم لا يفوتونه.

ومن هنا يظهر أن قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ تعليل لقوله: «فاصفح الصفح الجميل».

وهذه الآيات الحافّة لقوله: «فاصدع بما تؤمر» تسلية للنبي ﷺ وتطييب لنفسه ليأخذ قوله: «فاصدع بما تؤمر» موقعه فقد عرفت في أول السورة أن الغرض الأصيل منها هو الأمر بإعلان الدعوة وعرفت أيضاً بالتدبّر في الآيات السابقة أنها مسرودة ليتخلص بها الى تسليته ﷺ عما لقي من قومه من الايذاء والإهانة والاستهزاء ويتخلص من ذلك الى الأمر المطلوب.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِنَ ٱلْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ ٱلْعَظِيمَ﴾ السبع المثاني هي سورة الحمد على ما فسّر في عدّة من الروايات المأثورة عن النبي ﷺ وأئمة أهل البيت عليهم السلام فلا يصغى الى ما ذكره بعضهم: أنها السبع الطوال، وما ذكره بعض آخر أنها الحواميم السبع، وما قيل: إنها سبع صحف من الصحف النازلة على الأنبياء، فلا دليل على شيء منها من لفظ الكتاب ولا من جهة السنّة.

وقد كثر اختلافهم في قوله: ﴿مِنَ ٱلْمَثَانِي﴾ من جهة كون ﴿مِنَ﴾ للتبعيض او للتبيين وفي كيفية اشتقاق لفظة المثاني ووجه تسميتها بالمثاني.

والذي ينبغي أن يقال ـ والله أعلم ـ إن «من» للتبعيض فإنه سبحانه سمّى جميع آيات كتابه مثاني إذ قال: ﴿كتاباً متشابهاً مثاني تقشعرّ منه قلوب الذين يخشون ربهم﴾ (الزمر / ٢٣) وآيات سورة الحمد من جملتها فهي بعض المثاني لا كلها.

والظاهر أن المثاني جمع مثنية اسم مفعول من الثني بمعنى اللوي والعطف والإعادة قال تعالى: ﴿يثنون صدورهم﴾ (هود / ٥)، وسميت الآيات القرآنية مثاني لأن بعضها يوضح حال البعض ويلوي وينعطف عليه كما يشعر به قوله: «كتاباً متشابهاً مثاني» حيث جمع بين كون الكتاب متشابهاً يشبه بعض آياته بعضاً وبين كون آياته مثاني، وفي كلام النبي ﷺ في صفة القرآن «يصدّق بعضه بعضاً» وعن علي عليه السلام فيه «ينطق بعضه ببعض ويشهد بعضه على بعض» او هي جمع مثنى بمعنى التكرير والإعادة كناية عن بيان بعض الآيات ببعض.

وفي قوله: ﴿سَبْعاً مِنَ ٱلْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ ٱلْعَظِيمَ﴾ من تعظيم أمر الفاتحة والقرآن ما لا يخفى أما القرآن فلتوصيفه من ساحة العظمة والكبرياء بالعظيم، وأما الفاتحة فلمكان التعبير عنه بالنكرة غير الموصوفة «سبعاً» وفيه من الدلالة على عظمة قدرها وجلالة شأنها ما لا يخفى وقد قوبل بها القرآن العظيم وهي بعضه.

والآية ـ كما تبيّن ـ في مقام الامتنان وهي مع ذلك لوقوعها في سياق الدعوة الى الصفح

والاعراض تفيد أن في هذه الموهبة العظمى المتضمنة لحقائق المعارف الالهية الهادية الى كل كمال وسعادة بإذن الله عدّة أن تحملك على الصفح الجميل والاشتغال بربك والتوغل في طاعته.

قوله تعالى: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ ـ الى قوله ـ الْمُبِينُ﴾ الآيتان: في مقام بيان الصفح الجميل الذي تقدم الأمر به، ولذلك جيء بالكلام في صورة الاستئناف.

والمذكور فيها أربعة دساتير: منفيان ومثبتان فقوله: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ﴾ مدّ العينين الى ما متّعوا به من زهرة الحياة الدنيا كناية عن التعدي عن قصر النظر على ما آتاه الله من نعمة، والمراد بالأزواج الأزواج من الرجال والنساء أو الأصناف من الناس كالوثنيين واليهود والنصارى والمجوس، والمعنى لا تتجاوز عن النظر عما أنعمناك به من النعم الظاهرة والباطنة الى ما متّعنا به أزواجاً قليلة أو أصنافاً من الكفار.

وربما أخذ بعضهم قوله: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ كناية عن إطالة النظر وإدامته، وأنت تعلم أن الغرض على أي حال النهي عن الرغبة والميل والتعلق القلبي بما في أيديهم من أمتعة الحياة كالمال والشوكة والصيت والذي يكنّى به عن ذلك هو النهي عن أصل النظر اليه لا عن إطالته وإدامته، ويشهد به ما سننقله من آية الكهف.

وقوله: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أي من جهة تماديهم في التكذيب والاستهزاء وإصرارهم على أن لا يؤمنوا بك.

وقوله: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ قالوا: هو كناية عن التواضع ولين الجانب، والأصل فيه أن الطائر إذا أراد أن يضم اليه أفراخه بسط جناحه عليها ثم خفضه لها، هذا.

وقوله: ﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ﴾ أي لا دعوى لي إلّا أني نذير أُنذركم بعذاب

الله سبحانه مبين أُبين لكم ما تحتاجونه الى بيانه، وليس لي وراء ذلك من الأمر شيء.

فهذه الامور الأربعة أعني ترك الرغبة بما في أيديهم من متاع الحياة الدنيا وترك الحزن عليهم إذا كفروا واستهزؤا، وخفض الجناح للمؤمنين وإظهار أنه نذير مبين هو الصفح الجميل الذي يليق بالنبي ﷺ، ولو أُسقط منها واحد لاختل الأمر.

قوله تعالى: ﴿كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ، ٱلَّذِينَ جَعَلُوا ٱلْقُرْآنَ عِضِينَ﴾

قال في المجمع: عضين جمع عضة وأصله عضوة فنقصت الواو ولذلك جمعت عضين بالنون كما قيل: عزوة وعزون والأصل عزوة، والتعضية: التفريق مأخوذاً من الأعضاء يقال: عضّيت الشيء أي فرّقته وبعّضته قال رؤبة: وليس دين الله بالمعضي، انتهى موضع الحاجة.

وقوله: ﴿كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ﴾ لا يخلو السياق من دلالة على أنه متعلق بمقدّر يلوّح اليه قوله: «وقل إني أنا النذير المبين» أي بعذاب منزل ينزل عليكم كما أنزلنا على المقتسمين، والمراد بالمقتسمين هم الذين يصفهم قوله بعد: «الذين جعلوا القرآن عضين» وهم على ما وردت به الرواية قوم من كفار قريش جزؤا القرآن أجزاءً فقالوا: سحر، وقالوا: أساطير الأولين، وقالوا: مفترى، وتفرقوا في مداخل طرق مكة أيام الموسم يصدون الناس الواردين عن رسول الله ﷺ كما سيأتي في البحث الروائي إن شاء الله.

فالظاهر أن الآيتين تذكران قوماً نهضوا في أوائل البعثة على إطفاء نور القرآن وبعّضوه أبعاضاً ليصدوا عن سبيل الله فأنزل الله عليهم العذاب وأهلكهم، وهم الذين ذكروا في الآيتين ثم يذكر الله مآل أمرهم بقوله: «فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعلمون».

قوله تعالى: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ قال في المجمع: الصدع والفرق والفصل نظائر، وصدع بالحق إذا تكلم به جهاراً، انتهى.

والآية تفريع على ما تقدم، ومن حقها أن تتفرع لأنها الغرض في الحقيقة من السورة أي إذا كان الأمر على ما ذكر وأُمرت بالصفح الجميل وكنت نذيراً بعذابنا كما أنزلنا على المقتسمين

فأظهر كلمة الحق وأعلن الدعوة.

وبذلك يظهر أن قوله: «إنا كفيناك المستهزئين» في مقام التعليل لقوله: «فاصدع» الخ؛ كما يشعر الكلام أو يدل على أن هؤلاء المستهزئين هم المقتسمون المذكورون قبل. ومعنى الآية إذا كان الأمر كما ذكرناه وكنت نذيراً بعذابنا كما أنزلناه على المقتسمين «فاصدع بما تؤمر» وأعلن الدعوة وأظهر الحق «وأعرض عن المشركين إنا» أي لأننا «كفيناك المستهزئين» بإنزال العذاب عليهم وهم «الذين يجعلون مع الله إلهاً آخر فسوف يعلمون».

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ رجع ثانياً الى حزنه ﷺ وضيق صدره من استهزائهم لمزيد العناية بتسليته وتطييب نفسه وتقوية روحه. وقد أكثر سبحانه في كلامه وخاصة في السور المكية من ذلك لشدة الأمر عليه ﷺ.

قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ، وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ وصّاه سبحانه بالتسبيح والتحميد والسجدة والعبادة أو إدامة العبودية مفرّعاً ذلك على ضيق صدره بما يقولون ففي ذلك استعانة على الغمّ والمصيبة، وقد أمره في الآيات السابقة بالصفح والصبر. ويستفاد الأمر بالصبر أيضاً من قوله: «واعبد ربك حتى يأتيك اليقين» فإن ظاهره الأمر بالصبر على العبودية حتى حين، وبذلك يصير الكلام قريب المضمون من قوله تعالى لدفع الشدائد والمقاومة على مرّ الحوادث: ﴿استعينوا بالصبر والصلاة﴾ (البقرة / ١٥٣).

وبذلك يتأيد أن المراد بالساجدين المصلون وأنه أمر بالصلاة وقد سميت سجوداً تسمية لها باسم أفضل أجزائها ويكون المراد بالتسبيح والتحميد اللفظي منهما كقول سبحان الله والحمد لله أو ما في معناهما نعم لو كان المراد بالصلاة في آية البقرة التوجه الى الله سبحانه أمكن أن يكون المراد بالتسبيح والتحميد ـ أو بهما وبالسجود ـ المعنى اللغوي وهو تنزيه تعالى عما يقولون والثناء عليه بما أنعم به عليه من النعم والتذلل له تذلل العبودية.

وأما قوله: ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾ فإن كان المراد به الأمر بالعبادة كان كالمفسر للآية السابقة وإن كان المراد الأخذ بالعبودية ـ كما هو ظاهر السياق، وخاصة سياق الآيات السابقة الآمرة بالصفح والإعراض ولازمهما الصبر كان بقرينة تقييده بقوله: «حتى يأتيك اليقين» أمراً بانتهاج منهج التسليم والطاعة والقيام بلوازم العبوديّة.

وعلى هذا فالمراد بإتيان اليقين حلول الأجل ونزول الموت الذي يتبدّل به الغيب من الشهادة ويعود به الخبر عياناً، ويؤيد ذلك تفريع ما تقدم من قوله: «فاصفح الصفح الجميل» على قوله: «وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلّا بالحق وإن الساعة لآتية» فإنه بالحقيقة أمر بالعفو والصبر على ما يقولون لأن لهم يوماً ينتقم الله منهم ويجازيهم بأعمالهم فيكون معنى الآية دُم على العبوديّة واصبر على الطاعة وعن المعصية وعلى مرّ ما يقولون حتى يدركك الموت وينزل عليك عالم اليقين فتشاهد ما يفعل الله بهم ربك.

وفي التعبير بمثل قوله: ﴿ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾ إشعار أيضاً بذلك فإن العناية فيه بأن اليقين طالب له وسيدركه فليعبد ربه حتى يدركه ويصل اليه، وهذا هو عالم الآخرة الذي هو عالم اليقين العام بما وراء الحجاب دون الاعتقاد اليقيني الذي ربما يحصل بالنظر أو بالعبادة[1].

---

١. الحجر ٨٥ـ ٩٩: بحث فلسفي في كيفية وجود التكليف ودوامه.

سورة النحل مكية وهي مائة وثمان وعشرون آية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

١ • أَتىٰ أَمْرُ ٱللّٰهِ فَلاٰ تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحٰانَهُ وَتَعٰالىٰ عَمّٰا يُشْرِكُونَ.

٢ • يُنَزِّلُ ٱلْمَلاٰئِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلىٰ مَنْ يَشٰاءُ مِنْ عِبٰادِهِ أَنْ
أَنْذِرُوا أَنَّه لاٰ إِلَٰهَ إِلاّٰ أَنَا فَاتَّقُونِ.

٣ • خَلَقَ السَّمٰوٰاتِ وَٱلْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعٰالىٰ عَمّٰا يُشْرِكُونَ.

٤ • خَلَقَ ٱلْإِنْسانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذٰا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ.

٥ • وَٱلْأَنْعٰامَ خَلَقَهٰا لَكُمْ فِيهٰا دِفْءٌ وَمَنٰافِعُ وَمِنْهٰا تَأْكُلُونَ.

٦ • وَلَكُمْ فِيهٰا جَمٰالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ.

٧ • وَتَحْمِلُ أَثْقٰالَكُمْ إِلىٰ بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بٰالِغِيهِ إِلاّٰ بِشِقِّ ٱلْأَنْفُسِ
إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ.

٨ • وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغٰالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهٰا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مٰا لاٰ
تَعْلَمُونَ.

٩ • وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ
أَجْمَعِينَ.

١٠ • هُوَ ٱلَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ
فِيهِ تُسِيمُونَ.

١١ • يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ
الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ.

١٢ • وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَالنُّجُومُ
مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ.

١٣ • وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً
لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ.

١٤ • وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُوا
مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ
فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ.

١٥ • وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَاراً وَسُبُلاً
لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ.

١٦ • وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ.

١٧ • أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ.

١٨ • وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ.

١٩ • وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ.

٢٠ ❁ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ لاَ يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ.

٢١ ❁ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ.

بيان:

الغالب على الظنّ ـ إذا تدبّرنا السورة ـ أن صدر السورة ممـا نزلت في أواخر عهد النبي ﷺ بمكة قبيل الهجرة، وهي أربعون آية يذكر الله سبحانه في شطر منها أنواع نعمه السماوية والأرضية مما تقوم به حياة الإنسان وينتفع به في معاشه نظاماً متقناً وتدبيراً متصلاً يدلّ على وحدانيته تعالى في ربوبيته.

ويحتجّ في شطر آخر على بطلان مزاعم المشركين وخيبة مساعيهم وأنه سيجازيهم كما جازى أمثالهم من الامم الماضية وسيفصل القضاء بينهم يوم القيامة.

وقد افتتح سبحانه هذه الآيات بقوله: «أتى أمر الله فلا تستعجلوه سبحانه وتعالى عما يشركون» مفرّعاً آيات الاحتجاج على ما فيه من التنزيه والتسبيح ومن ذلك يعلم أن عمدة الغرض في صدر السورة الإنباء بإشراف الأمر الإلهي ودنوّه منهم وقرب نزوله عليهم، وفيه إيعاد للمشركين فقد كانوا يستعجلون النبي ﷺ ـ استهزاء به ـ لما كانوا يسمعون كلام الله سبحانه يذكر كثيراً نزول أمره تعالى وينذرهم به وفيه مثل قوله للمؤمنين: **﴿فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره﴾** وليس إلّا أمره تعالى بظهور الحق على الباطل والتوحيد على الشرك والإيمان على الكفر، هذا ما يعطيه التدبر في صدر السورة.

وأما ذيلها وهي ثمان وثمانون آية من قوله: **﴿والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا﴾** الى آخر السورة على ما بينها من الاتصال والارتباط فسياق الآيات فيه يشبه أن تكون مما نزلت في أوائل عهد النبي ﷺ بالمدينة بعيد الهجرة ـ فصدر السورة وذيلها متقاربا

النزول وذلك لما فيها من آيات لا تنطبق مضامينها إلّا على بعض الحوادث الواقعة بعيد الهجرة كقوله تعالى: ﴿والذين هاجروا في الله﴾ الآية؛ وقوله: ﴿ولقد نعلم انهم يقولون إنما يعلمه بشر﴾ الآية النازلة على قول في سلمان الفارسي وقد آمن بالمدينة، وقوله: ﴿من كفر بالله من بعد إيمانه إلّا من أُكره﴾ الآية النازلة في عمار - كما سيأتي - وكذا الآيات النازلة في اليهود والآيات النازلة في الأحكام كل ذلك يفيد الظن بكون الآيات مدنية.

ومع ذلك فاختلاف النزول لائح من بعضها كقوله: ﴿والذين هاجروا﴾ الخ (الآية ٤١)، وقوله: ﴿وإذ بدّلنا آية مكان آية﴾ (الآية ١٠١) الى تمام آيتين أو خمس آيات، وقوله: ﴿من كفر بالله من بعد إيمانه﴾ (الآية ١٠٦) وعدة آيات تتلوها.

والإنصاف - بعد ذلك كله - أن قوله تعالى: ﴿والذين هاجروا﴾ (الآية ٤١) الى تمام آيتين؛ وقوله: ﴿من كفر بالله من بعد إيمانه﴾ (الآية ١٠٦) وبضع آيات بعدها، وقوله: ﴿وإن عاقبتم فعاقبوا﴾ (الآية ١٢٦) وآيتان بعدها مدنية لشهادة سياقها بذلك، والباقي أشبه بالمكية منها بالمدنية. وهذا وإن لم يوافق شيئاً من المأثور لكن السياق يشهد به وهو أولى بالاتّباع. وقد مرّ في تفسير آية ١١٨ من سورة الأنعام احتمال أن تكون نازلة بعد سورة النحل وهي مكية. والغرض الذي هو كالجامع لآيات ذيل السورة أن فيها أمراً بالصبر ووعداً حسناً على الصبر في ذات الله.

وغرض السورة الإخبار بإشراف أمر الله وهو ظهور الدين الحق عليهم، ويوضح تعالى ذلك ببيان أن الله هو الإله المعبود لا غير لقيام تدبير العالم به، كما أن الخلقة قائمة به ولانتهاء جميع النعم اليه، وانتفاء ذلك عن غيره، فالواجب أن يعبد الله ولا يعبد غيره، وبيان أن الدين الحق لله فيجب أن يؤخذ به ولا يشرّع دونه دين ورد ما أبداه المشركوه من الشبهة على النبوة والتشريع وبيان أُمور من الدين الإلهي.

هذا هو الذي يرومه معظم آيات السورة وتنعطف الى بيانه مرة بعد مرة وفي ضمنها آيات

تتعرض لأمر الهجرة وما يناسب ذلك مما يحوم حولها.

قوله تعالى: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ظاهر السياق أن الخطاب للمشركين لأن الآيات التالية مسوقة احتجاجاً عليهم، الى قوله في الآية الثانية والعشرين: ﴿إلهكم إله واحد﴾ ووجه الكلام فيها الى المشركين، وهي جميعاً كالمتفرعة على قوله في ذيل هذه الآية: «سبحانه وتعالى عما يشركون» ومقتضاه أن يكون الأمر الذي أخبر بإتيانه أمراً يطهّر ساحة الربوبية من شركهم بحسم مادته، ولم تقع في كلامه حكاية استعجال من المؤمنين في أمر، بل المذكور استعجال المشركين بما كان يذكر في كلامه تعالى من أمر الساعة وأمر الفتح وأمر نزول العذاب، كما يشير اليه قوله: ﴿قل أرأيتم إن أتاكم عذابه بياتاً او نهاراً ماذا يستعجل منه المجرمون ـ الى قوله ـ ويستنبئونك أحق هو قل إي وربي إنه لحقّ وما أنتم بمعجزين﴾ (يونس / ٥٣) الى غير ذلك من الآيات.

وعلى هذا فالمراد بالأمر ما وعد الله النبي ﷺ والذين آمنوا وأوعد المشركين مرة بعد مرة في كلامه أنه سينصر المؤمنين ويخزي الكافرين ويعذبهم ويظهر دينه بأمر من عنده كما قال: ﴿فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره﴾ (البقرة / ١٠٩). واليه يعود أيضاً ضمير «فلا تستعجلوه» على ما يفيده السياق أو يكون المراد بإتيان الأمر إشرافه على التحقق وقربه من الظهور، وهذا شائع في الكلام قال لمن ينتظر ورود الأمير: هذا الأمير جاء وقد دنا مجيئه ولم يجيء بعد.

وعلى هذا أيضاً يكون قوله: «سبحانه وتعالى عما يشركون» من قبيل الالتفات من الخطاب الى الغيبة إشارة الى أنهم ينبغي أن يعرض عن مخاطبتهم ومشافهتهم لانحطاط أفهامهم لشركهم ولم يستعجلوا نزول الأمر إلّا لشركهم استهزاء وسخرية.

قوله تعالى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ الى آخر الآية: الناس على اختلافهم الشديد قديماً وحديثاً في حقيقة الروح لا يختلفون في

أنهم يفهمون منه معنى واحداً وهو ما به الحياة التي هي ملاك الشعور والارادة فهذا المعنى هو المراد في الآية الكريمة.

وأما حقيقته إجمالاً فالذي يفيده مثل قوله تعالى: ﴿يوم يقوم الروح والملائكة صفاً﴾ (النبأ / ٣٨)، وقوله: ﴿تعرج الملائكة والروح إليه﴾ (المعارج / ٤) وغيرهما أنه موجود مستقل ذو حياة وعلم وقدرة وليس من قبيل الصفات والأحوال القائمة بالأشياء كما ربما يتوهم، وقد أفاد بقوله: «قل الروح من أمر ربي» أنه من سنخ أمره، وعرف أيضاً أمره بمثل قوله: ﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء﴾ (يس / ٨٣)، فدل على أنه كلمة الإيجاد التي يوجد سبحانه بها الأشياء أي الوجود الذي يفيضه عليها لكن لا من كل جهة بل من جهة استناد اليه تعالى بلا مادة ولا زمان ولا مكان كما يفيده قوله: ﴿وما أمرنا إلّا واحدة كلمح بالبصر﴾ (القمر / ٥٠) فإن هذا التعبير إنما يورد فيما لا تدريج فيه أي لا مادة ولا حركة له، وليكن هذا الإجمال عندك حتى يرد عليك تفصيله فيما سيأتي إن شاء الله في تفسير سورة الإسراء.

فتحصّل أن الروح كلمة الحياة التي يلقيها الله سبحانه الى الأشياء فيحييها بمشيئته، ولذلك سمّاه وحياً وعدَّ إلقاءه وإنزاله على نبيّه إيحاء في قوله: ﴿وكذلك أوحينا اليك روحاً من أمرنا﴾ (الشورى / ٥٢)، فإن الوحي هو الكلام الخفي والتفهيم بطريق الإشارة والإيماء فيكون إلقاء كلمته تعالى ـ كلمة الحياة ـ الى قلب النبي ﷺ وحياً للروح اليه، فافهم ذلك.

فقوله تعالى: «ينزّل الملائكة بالروح من أمره» الباء للمصاحبة او للسببية ولا كثير تفاوت بينهما في المآل كما هو ظاهر عند المتأمل فإن تنزيل الملائكة بمصاحبة الروح إنما هو لإلقائه في روع النبي ﷺ ليفيض عليه المعارف الإلهية وكذا تنزيلهم بسبب الروح لأن كلمته تعالى أعني كلمة الحياة تحكم في الملائكة وتحييهم كما تحكم في الإنسان وتحييه، وضمير «ينزّل» له تعالى والجملة استئناف تفيد تعليل قوله في الآية السابقة: «سبحانه وتعالى عما

يشركون».

والمعنى: أن الله منزَّه ومتعالٍ عن شركهم او عن الشريك الذي يدعونه له ولتنزّهه وتعاليه عن الشريك ينزّل سبحانه الملائكة بمصاحبة الروح الذي هو من سنخ أمره وكلمته في الإيجاد ـ او بسببه ـ على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلّا أنا فاتقون.

وقوله: ﴿عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ أي إن بعث الرسل وتنزل الملائكة بالروح من أمره عليهم متوقف على مجرد المشية الإلهية من غير أن يقهره تعالى في ذلك قاهر غيره فيجبره على الفعل او يمنعه من الفعل كما في سائر أفعاله تعالى فإنه تعالى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

وقوله: ﴿أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّه لاٰ إِلَٰهَ إِلَّاٰ أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ بيان لقوله: «ينزّل الملائكة بالروح» لكونه في معنى الوحي أو بيان للروح بناء على كونه بمعنى الوحي، والإنذار هو إخبار فيه تخويف، كما أن التبشير هو إخبار فيه سرور على ما ذكره الراغب او إعلام بالمحذور كما ذكره غيره، والتقدير على الأول أخبروهم مخوّفين بوحدانيتي في الالوهية ووجوب تقواي، وعلى الثاني أعلموهم ذلك، على أن يكون «أنه» مفعولاً ثانياً لا منصوباً بنزع الخافض.

وقد علم بذلك أن قوله: «فاتقون» متفرع على قوله: «لا إله إلّا أنا» والجملتان جميعاً مفعول ثان او في موضعه لقوله: «أنذروا» ويوضح ذلك أن لا إله وهو الذي يبتدىء منه وينتهي اليه كل شيء او المعبود بالحق من لوازم صفة أُلوهيته أن يتقيه الإنسان لتوقّف كل خير وسعادة اليه، فلو فرض أنه واحد لا شريك له في أُلوهيته كان لازمه أن يتق وحده لأن التقوى وهو إصلاح مقام العمل فرع لما في مقام الاعتقاد والنظر، فعبادة الآلهة الكثيرين والخضوع لهم لا يجامع الاعتقاد بإله واحد لا شريك له الذي هو القيوم على كل شيء وبيده زمام كل أمر، ولذا لم يؤمر نبي أن يدعو الى توحيد من غير عمل او الى عمل من غير توحيد،

قال تعالى: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلّا نوحي اليه أنه لا إله إلّا أنا فاعبدون﴾ (الأنبياء / ٢٥).

فالذي أُمر الرسل بالإنذار به في الآية هو مجموع قوله: «أنه لا إله إلّا أنا فاتقون» وهو تمام الدين لاندراج الاعتقادات الحقة في التوحيد والأحكام العملية جميعاً في التقوى، ولا يعبؤ بما ذكره بعضهم ان قوله: «فاتقون» للمستعجلين من الكفار المذكورين في الآية الاولى او لخصوص كفار قريش من غير أن يكون داخلاً فيما أُمر به الرسل من الإنذار.

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تقدم معنى خلق السماوات والأرض بالحق، ولازم خلقها بالحق أن لا يكون للباطل فيها أثر، ولذلك عقّبه بتنزيهه عن الشركاء الذين يدعونهم ليشفعوا لهم عند الله ويهدوهم الى الخير ويقوهم الشر فإنهم من الباطل الذي لا أثر له.

وفي الآية والآيات التالية لها احتجاج على وحدانيته تعالى في الالوهية والربوبية من جهتي الخلق والتدبير جميعاً فإن الخلق والإيجاد آية الالوهية وكون الخلق بعضها نعمة بالنسبة الى بعض آية الربوبية لأن الشيء لا يكون نعمة بالنسبة الى آخر إلّا عن ارتباط بينهما واتصال من أحدهما بالآخر يؤدي الى نظام جامع بينهما وتدبير واحد يجمعهما، ووحدة التدبير آية وحدة المدبر فكون ما في السماوات والأرض من مخلوق نعماً للإنسان يدلّ على أن الله سبحانه وحده ربه ورب كل شيء.

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ المراد به الخلق الجاري في النوع الإنساني وهو جعل نسله من النطفة فلا يشمل آدم وعيسى عليهما السلام.

والخصيم صفة مشبهة من الخصومة وهي الجدال، والآية وإن أمكن أن تحمل على الامتنان حيث إن من عظيم المنّ أن يبدّل الله سبحانه بقدرته التامة قطرة من ماء مهين إنساناً كامل الخلقة منطقياً متكلماً ينبيء عن كل ما جلّ ودقّ ببيانه البليغ لكن كثرة الآيات التي توبّخ

الإنسان وتقرّعه على وقاحته في خصامه في ربه كقوله تعالى: ﴿ أولم يرَ الإنسان أنّا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين، وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم﴾ (يس / ٧٨) ترجّح أن يكون المراد بذيل الآية بيان وقاحة الإنسان.

ويؤيد ذلك أيضاً بعض التأيد ما في ذيل الآية السابقة من تنزيهه تعالى من شركهم.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ الأنعام جمع نعم وهي الإبل والبقر والغنم سُمّيت بذلك لنعمة مسّها بخلاف الحافر الذي يصلب كذا في المجمع، وفي المفردات: الدفء خلاف البرد. انتهى. وكأن المراد بالدفء ما يحصل من جلودها وأوصافها وأوبارها من الحرارة للإتّقاء من البرد، او المراد بالدفء ما يدفؤ به.

والمراد بالمنافع سائر ما يستفاد منها لغير الدفء من أصوافها وأوبارها وجلودها وألبانها وشحومها وغير ذلك، وقوله: «لكم» يمكن أن يكون متعلقاً بقوله: «خلقها» ويكون قوله: «فيها دفء ومنافع» حالاً من ضمير «خلقها» ويمكن أن يكون «لكم» ظرفاً مستقراً متعلقاً بالجملة الثانية أي في الأنعام دفء كائناً لكم.

قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ الجمال الزينة وحسن المنظر، قال في المجمع: الإراحة ردّ الماشية بالعشيّ من مراعيها الى منازلها والمكان الذي تراح فيه مراح، والسروح خروج الماشية الى المرعى بالغداة، يقال: سرحت الماشية سرحاً وسروحاً وسرحها أهلها. انتهى.

يقول تعالى: ولكم في الأنعام منظر حسن حين تردّونها بالعشيّ الى منازلها وحين تخرجونها بالغداة الى مراعيها.

قوله تعالى: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ الأثقال جمع ثقل وهو المتاع الذي يثقل حمله، والمراد بقوله: «بشق الأنفس» مشقة تتحمّلها الأنفس في قطع المسافات البعيدة والمسالك الصعبة.

والمراد أن الأنعام كالإبل وبعض البقر تحمل أمتعتكم الثقيلة الى بلد ليس يتيسر لكم بلوغها إلّا بمشقة تتحمّلها أنفسكم فرفع عنكم المشاق بخلقها وتسخيرها لكم إن ربكم رؤف رحيم.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ معطوف على الأنعام فيما مرّ أي والخيل والبغال والحمير خلقها لكم لتركبوها، وزينةً أي إن في خلقها ارتباطاً بمنافعكم وذلك أنكم تركبونها وتتخذونها زينة وجمالاً، وقوله: «ويخلق ما لا تعلمون» أي يخلق ما لا علم لكم به من الحيوان وغيره، وسخّرها لكم لتنتفعوا بها، والدليل على ما قدّرناه هو السياق.

قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ القصد ـ على ما ذكره الراغب وغيره ـ استقامة الطريق وهو كونه قيّماً على سالكيه يوصلهم الى الغاية، والظاهر أن المصدر بمعنى الفاعل والإضافة من إضافة الصفة الى موصوفها والمراد السبيل القاصد بدليل مقابلته بقوله: «ومنها جائر» أي ومن السبيل ما هو جائر أي مائل عن الغاية يورد سالكيه غيرها ويضلهم عنها.

والمراد بكون قصد السبيل على الله وجوب جعل سبيل قاصد عليه تعالى يسلكه عباده فيوردهم مورد السعادة والفلاح وإذ لا حاكم غيره يحكم عليه فهو الذي أوجب على نفسه أن يجعل لهم طريقاً هذا نعته ثم يهديهم اليه أما الجعل فهو ما جهز الله كل موجود ومنها الإنسان من القوى والأدوات بما لو استعملها كما نظمت أدّته الى سعادته وكماله المطلوب قال تعالى: ﴿**الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى**﴾ (طه / ٥٠)، وقال في الإنسان خاصة: ﴿**فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله**﴾ (الروم / ٣٠)[1].

---

١. النحل ١ ـ ٢١: بحث في السبيل القاصد. تشاجر الاشاعرة والمعتزلة في الآية «وعلى الله قصد السبيل».

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ شروع في نوع آخر من النعم وهي النعم النباتية التي يقتات بها الإنسان وغيره وما سخّر له لتدبير أمرها كالليل والنهار والشمس والقمر وما يحذو حذوها، ولذلك غيّر السياق فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِي﴾ الخ؛ ولم يقل: وأنزل من السماء.

وقوله: ﴿تُسِيمُونَ﴾ من الإسامة وهي رعي المواشي ومنه السائمة للماشية الراعية و «من» الاولى تبعيضية والثانية نشوية والشجر من النبات ما له ساق وورق وربما توسع فاطلق على ذي الساق وغيره جميعاً، ومنه الشجر المذكور في الآية لمكان قوله: «فيه تسيمون» والباقي واضح.

قوله تعالى: ﴿يُنبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَاتِ﴾ الخ؛ الزيتون شجر معروف ويطلق على ثمره أيضاً يقال: إنه اسم جنس جمعي واحده زيتونة، وكذا النخيل. ويطلق على الواحد والجمع، والأعناب جمع عنبة وهي ثمرة شجرة الكرم ويطلق على نفس الشجرة كما في الآية، والسياق يفيد أن قوله: «ومن كل الثمرات» تقديره ومن كل الثمرات أنبت أشجارها. ولعل التصريح بأسماء هذه الثمرات الثلاث بخصوصها وعطف الباقي عليها لكونها مما يقتات بها غالباً.

ولما كان في هذا التدبير العام الوسيع الذي يجمع شمل الإنسان والحيوان في الارتزاق به حجة على وحدانيته تعالى في الربوبية ختم الآية بقوله: «إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون».

قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ الى آخر الآية قد تكرّر الكلام في معنى تسخير الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم. ولكون كل من المذكورات وكذا مجموع الليل والنهار ومجموع الشمس والقمر والنجوم ذا خواصّ وآثار في نفسه من شأنه أن يستقل بإثبات وحدانيته في ربوبيته تعالى ختم الآية بقوله: «إن في ذلك

لآيات لقوم يعقلون» فجمع الآيات في هذه الآية بخلاف الآيتين السابقة واللاحقة.

قوله تعالى: ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ الذرء الخلق، واختلاف ألوان ما ذرأه في الأرض غير ما مرّ كما يختلف ألوان المعادن وسائر المركّبات العنصرية التي ينتفع بها الانسان في معاشه ولا يبعد أن يكون اختلاف الألوان كناية عن الاختلاف النوعي بينها فتقرب الآية مضموناً من قوله تعالى: ﴿وفي الأرض قطع متجاورات وجنّات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضّل بعضها على بعض في الأكل﴾ (الرعد / ٤)، وقد تقدم تقريب الاستدلال به.

واختلاف الألوان فيما ذرأ في الأرض كإنبات الشجر والثمر أمر واحد يستدلّ به على وحدانيته في الربوبية ولذا قال: «إن في ذلك لآية» ولم قل: لآيات.

وهذه حجج ثلاث نسب الاولى الى الذين يتفكّرون، والثانية الى الذين يعقلون، والثالثة الى الذين يتذكرون، وذلك أن الحجة الاولى مؤلفة من مقدمات ساذجة يكفي في إنتاجها مطلق التفكر، والثانية مؤلفة من مقدمات علمية لا يتيسر فهمها إلّا لمن غار في أوضاع الأجرام العلوية والسفلية وعقل آثار حركاتها وانتقالاتها، والثالثة مؤلفة من مقدمات كلية فلسفية إنما ينالها الإنسان يتذكّر ما للوجود من الأحكام العامة الكلية كاحتياج هذه النشأة المتغيرة الى المادة وكون المادة العامة واحدة متشابهة الأمر، ووجوب انتهاء هذه الاختلافات الحقيقية الى أمر آخر وراء المادة الواحدة المتشابهة.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ الخ: وهذا فصل آخر من النعم الإلهية وهو نعم البحر والجبال والأنهار والسبل والعلامات وكأن ما تقدمه من الفصل مشتملاً على نعم البرّ والسهل من الأشجار والأثمار ونحوها، ولذلك قال: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ﴾ ولم يقل: وسخّر، الخ.

والطري فعيل من الطراوة وهو الغضّ الجديد من الشيء على ما ذكره في المفردات، والمخر شقّ الماء عن يمين وشمال، يقال: مخرت السفينة تمخر مخراً فهي ماخرة ومخر الأرض أيضاً شقها للزراعة. على ما في المجمع والمراد بأكل اللحم الطري من البحر هو أكل لحوم الحيتان المصطادة منه، وباستخراج حلية تلبسونها ما يستخرج منه بالغوص من أمثال اللؤلؤ والمرجان التي تتحلى وتتزيّن بها النساء.

وقوله: ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ﴾ أي تشاهد السفائن تشق ماءه عن اليمين والشمال، ولعل قوله: «وترى» من الخطابات العامة التي لا يقصد بها مخاطب خاص وكثيراً ما يستعمل كذلك ومعناه يراه كل راءٍ ويشاهده كل من له أن يشاهد فليس من قبيل الالتفات من خطاب الجمع السابق الى خطاب الواحد.

وقوله: ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي ولتطلبوا بعض رزقه في ركوب البحر وإرسال السفائن فيه، والجملة معطوفة على محذوف والتقدير وترى الفلك مواخر فيه لتنالوا بذلك كذا وكذا ولتبتغوا من فضله، وهو كثير النظير في كلامه تعالى.

وقوله: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي ومن الغايات في تسخير البحر وإجراء الفلك فيه شكركم له المرجوّ منكم إذ هو من زيادته تعالى في النعمة فقد أغناكم بما أنعم عليكم في البر عن أن تتصرفوا في البحر بالغوص وإجراء السفن وغير ذلك لكنه تعالى زادكم بتسخير البحر لكم نعمة لعلكم تشكرونه على هذا الزائد فإن الإنسان قليلاً ما يتنبّه في الضروريات أنها نعمة موهوبة من لدنه سبحانه ولو شاء لقطعها وأما الزوائد النافعة فهي أقرب من هذا التنبه والانتقال.

قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَاراً وَسُبُلاً لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ قال في المجمع: الميد الميل يميناً وشمالاً وهو الاضطراب ماد يميد ميداً. انتهى.

وقوله: ﴿أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾ أي كراهة أن تميد بكم أو أن لا تميد بكم والمراد أنه طرح على الارض جبالاً ثوابت لئلا تضطرب وتميل يميناً وشمالاً فيختلّ بذلك نظام معاشكم.

وقوله: ﴿وَأَنْهَاراً﴾ أي وجعل فيها أنهاراً تجري بمائها وتسوقه الى مزارعكم وبساتينكم وتسقيكم وما عندكم من الحيوان الأهلي.

وقوله: ﴿وَسُبُلاً لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ معطوف على قوله: ﴿وَأَنْهَاراً﴾ أي وجعل سبلاً لغاية الاهتداء المرجو منكم، والسبل منها ما هي طبيعية وهي المسافات الواقعة بين بقعتين من الأرض الواصلة إحداهما بالاخرى من غير أن يقطع ما بينهما بحاجب او مانع كالسهل بين الجبلين، ومنها ما هي صناعية وهي التي تتكون بعبور المارّة وآثار الأقدام او يعملها الإنسان.

والظاهر من السياق عموم السبل لكلا القسمين، ولا ضير في نسبة ما جعله الإنسان الى جعله تعالى كما نسب الأنهار والعلامات الى جعله تعالى وأكثرها من صنع الإنسان وكما نسب ما عمله الإنسان من الأصنام وغيرها الى خلقه تعالى في قوله: ﴿والله خلقكم وما تعملون﴾ (الصافات / ٩٦).

وذلك أنها كائنة ما كانت من آثار مجعولاته تعالى وجعل الشيء ذي الأثر جعل لأثره بوجه وإن لم يكن جعلاً مستقيماً من غير واسطة.

قوله تعالى: ﴿وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ العلامات جمع علامة وهي ما يعلم به الشيء، وهو معطوف على قوله: «أنهاراً» أي وجعل علامات تستدلون بها على الأشياء الغائبة عن الحس وهي كل آية وأمارة طبيعية أو وضعية تدل على مدلولها ومنها الشواخص والنصب واللغات والإشارات والخطوط وغيرها.

ثم ذكر سبحانه الاهتداء بالنجوم فقال: ﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ ولعلّ الالتفات فيه من الخطاب الى الغيبة للتحرّز عن تكرار «تهتدون» بصيغة الخطاب في آخر الآيتين.

والآية السابقة «وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين» المتضمنة لمسألة الهداية المعنوية التي هي كالمعترضة بين الآيات العادّة للنعم الصورية وإن كان الأنسب ظاهراً أن يوضع بعد هذه الآية أعني قوله: «وبالنجم هم يهتدون» المتعرضة هي وما قبلها للهداية الصوريّة غير أن ذلك لم يكن خالياً من اللبس وإيهام التناقض بخلاف موقعها الذي هي واقعة فيه وإن كانت كالمعترضة كما هو ظاهر.

قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لاٰ يَخْلُقُ ـ الى قوله ـ إِلٰهُكُمْ إِلٰهٌ واٰحِدٌ﴾ الآيات تقرير إجمالي للحجة المذكورة تفصيلاً في ضمن الآيات الستّ عشرة الماضية واستنتاج للتوحيد وهي حجة واحدة أُقيمت لتوحيد الربوبيّة، وملخصها أن الله سبحانه خالق كل شيء فهو الذي أنعم بهذه النعم التي لا يحيط بها الإحصاء التي ينتظم بها نظام الكون. وهو تعالى عالم بسرّها وعلنها فهو الذي يملك الكل ويدبر الأمر فهو ربها، وليس شيء مما يدعونه على شيء من هذه الصفات فليست أرباباً فالإله واحد لا غير وهو الله عز اسمه.

وإنما سيقت آيات الخلقة لتثبيت أمر النعمة إذ من البين أنه إذا كان الله سبحانه خالقاً لكل شيء موجوداً له كانت آثار وجودات الأشياء وهي النعم التي يتنعم بها له سبحانه كما أن وجوداتها له ملكاً طلقاً لا يقبل بطلاناً ولا نقلاً ولا تبديلاً فهو سبحانه المنعم بها حقيقة لا غيره من شيء حتى الذي نفس النعمة من آثار وجوده فإنه وما له من أثر هو لله وحده.

ولذلك ضمّ الى حديث الخلق والإنعام قوله تعالى: «والله يعلم ما تسرّون وما تعلنون» لأن مجرد استناد الخلق والإنعام الى شيء لا يستلزم ربوبيته ولا يستوجب عبادته لولا انضمام العلم اليهما ليتم بذلك أنه مدبر يهدي كل شيء الى كماله المطلوب له وسعادته المكتوبة في صحيفة عمله. ومن المعلوم أنّ العبادة إنما تستقيم عبادة إذا كان المعبود موسوماً بسمة العلم عالماً بعبادة من يعبده شاهداً لخضوعه.

فمجموع ما تتضمنه الآيات من حديث الخلق والنعمة والعلم مقدمات لحجة واحدة أُقيمت على توحيد الربوبية الذي ينكره الوثنية كما عرفت.

فقوله: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لاٰ يَخْلُقُ أَفَلاٰ تَذَكَّرُونَ﴾ قياس ما له سبحانه من النعت الى ما لغيره منه ونفي للمساواة، والاستفهام للإنكار، والمراد بمن لا يخلق آلهتهم الذين يدعونهم من دون الله.

وبيانه ـ كما ظهر مما تقدم ـ أن الله سبحانه يخلق الأشياء ويستمر في خلقها فلا يستوي هو ومن لا يخلق شيئاً فإنه تعالى لخلقه الأشياء يملك وجوداتها وآثار وجوداتها التي هي الأنظمة الخاصة بها والنظام العام الجاري عليها.

وقوله: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ ٱللّٰهِ لاٰ تُحْصُوهٰا﴾ الخ: إشارة الى كثرة النعم الإلهية كثرة خارجة عن حيطة الإحصاء، وبالحقيقة ما من شيء إلّا وهو نعمة إذا قيس الى النظام الكلي وإن كان ربما وجد بينها ما ليس بنعمة إذا قيس الى بعض آخر.

وقد علل سبحانه ذلك بقوله: ﴿إِنَّ ٱللّٰهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وهو من ألطف التعليل وأود فأفاد سبحانه أن خروج النعمة عن حد الاحصاء إنما هو من بركات اتصافه تعالى بصفتي المغفرة والرحمة فإنه بمغفرته ـ والمغفرة هي الستر ـ يستر ما في الأشياء من وبال النقص وشوهة القصور، وبرحمته ـ والرحمة إتمام النقص ورفع الحاجة ـ يظهر فيها الخير والكمال ويحلّيها بالجمال فببسط المغفرة والرحمة على الأشياء يكون كل شيء نافعاً في غيره خيراً مطلوباً عنده فيصير نعمة بالنسبة اليه فالأشياء بعضها نعمة لبعض فللنعمة الإلهية من السعة والعرض ما لمغفرته ورحمته من ذلك: فإن تعدّوا نعمة الله لا تحصوها، فافهم ذلك.

والآية من الموارد التي استعملت فيها المغفرة في غير الذنب والمعصية للأمر المولوي كما هو المعروف عند المتشرعة.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ إشارة الى الركن الثالث من أركان الربوبية وهو العلم فإن الإله لو كان غير متصف بالعلم استوت العبادة واللاعبادة بالنسبة اليه فكانت عبادته لغواً لا أثر لها.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ لاَ يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ إشارة الى فقدان الركن الأول من أركان الربوبية في آلهتهم الذين يدعون من دون الله ويتفرع عليه الركن الثاني وهو إيتاء النعمة، فليس الذين يدعونهم آلهة وأرباباً والله الرب.

وقوله: ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ إشارة الى فقدان الركن الثالث من أركان الربوبية في أصنامهم وهو العلم بما يسرّون وما يعلنون وقد بالغ في نفي ذلك فنفى أصل الحياة المستلزم لنفي مطلق العلم فضلاً عن نوعه الكامل الذي هو العلم بما يسرّون وما يعلنون فقال: «أموات غير أحياء» فأثبت الموت أولاً وهو لا يجامع الشعور ثم أكده بنفي الحياة ثانياً.

وخصَّ من وجوه جهلهم عدم شعورهم متى يبعث عبّادهم من الناس فقال: «وما يشعرون أيّان يبعثون» أي ما يدري الأصنام أيّان يبعث عبّادهم فإن العبادة هي التي يجزي بها الإنسان يوم البعث فمن الواجب في الإله المعبود أن يعلم متى يوم البعث حتى يجزي عبّاده فيه عن عبادتهم، وهؤلاء لا يدرون شيئاً من ذلك.

وقوله: ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ بيان لنتيجة الحجة التي أُقيمت في الآيات السابقة أي إذا كان الله سبحانه هو الواجد لما تتوقف عليه الالوهية وهي المعبودية بالحق، وغيره تعالى ممن يدعون من دونه غير واجد لشيء مما تتوقف عليه وهو الخلق والإنعام والعلم فإلهكم الذي يحق له أن يعبد واحد ولازم معناه أنه الله عزّ اسمه[1].

---

١. النحل ١ ـ ٢١: بحث روائي في: أمر الله.

٢٢ ● إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ.

٢٣ ● لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ.

٢٤ ● وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ.

٢٥ ● لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ.

٢٦ ● قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ.

٢٧ ● ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ ٱلَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْيَ ٱلْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى ٱلْكَافِرِينَ.

٢٨ ● ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ ٱلْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَىٰ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ.

٢٩ ● فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ.

٣٠ ● وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْراً لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا

فِي هٰذِهِ الدُّنْيا حَسَنَةٌ وَلَدارُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دارُ ٱلْمُتَّقِينَ.
٣١ ● جَنّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَها تَجْرِي مِنْ تَحْتِها ٱلْأَنْهارُ لَهُمْ فِيها ما
يَشاؤُنَ كَذٰلِكَ يَجْزِي ٱللّٰهُ ٱلْمُتَّقِينَ.
٣٢ ● ٱلَّذِينَ تَتَوَفّٰيهُمُ ٱلْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُم
ٱدْخُلُوا ٱلْجَنَّةَ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ.
٣٣ ● هَلْ يَنْظُرُونَ إِلّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذٰلِكَ
فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَما ظَلَمَهُمُ ٱللّٰهُ وَلٰكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ
يَظْلِمُونَ.
٣٤ ● فَأَصابَهُمْ سَيِّئاتُ ما عَمِلُوا وَحاقَ بِهِمْ ما كانُوا يَسْتَهْزِؤُنَ.
٣٥ ● وَقالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شاءَ ٱللّٰهُ ما عَبَدْنا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ
نَحْنُ وَلا آباؤُنا وَلا حَرَّمْنا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذٰلِكَ فَعَلَ
ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلاغُ ٱلْمُبِينُ.
٣٦ ● وَلَقَدْ بَعَثْنا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ ٱعْبُدُوا ٱللّٰهَ وَٱجْتَنِبُوا
الطّٰاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى ٱللّٰهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ
الضَّلالَةُ فَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ
ٱلْمُكَذِّبِينَ.
٣٧ ● إِنْ تَحْرِصْ عَلىٰ هُدٰيهُمْ فَإِنَّ ٱللّٰهَ لا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَما لَهُمْ
مِنْ ناصِرِينَ.
٣٨ ● وَأَقْسَمُوا بِاللّٰهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ لا يَبْعَثُ ٱللّٰهُ مَنْ يَمُوتُ بَلىٰ

وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ النّاسِ لاٰ يَعْلَمُونَ.

٣٩ ● لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كٰانُوا كٰاذِبِينَ.

٤٠ ● إِنَّمٰا قَوْلُنٰا لِشَيْءٍ إِذٰا أَرَدْنٰاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿إِلٰهُكُمْ إِلٰهٌ وٰاحِدٌ فَالَّذِينَ لاٰ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ قد تقدم الكلام في قوله: «إلهكم إله واحد» وأنه نتيجة الحجّة التي أُقيمت في الآيات السابقة.

وقوله: ﴿فَالَّذِينَ لاٰ يُؤْمِنُونَ بالْآخِرَةِ﴾ الخ؛ تفريع عليه، وافتتاح لفصل جديد من الكلام حول أعمال الكفّار من أقوالهم وأعمالهم الناشئة عن عدم إيمانهم بالله سبحانه وإنما ذكر عدم إيمانهم بالآخرة ولم يذكر عدم إيمانهم بالله وحده لأن الذي أُقيمت عليه الحجة هو التوحيد الكامل وهو وجوب الاعتقاد بإله عليم قدير خلق كل شيء وأتمّ النعمة لا لغواً باطلاً بل لحق ليرجعوا اليه فيحاسبهم على ما عملوا ويجازيهم بما اكتسبوا مما عهده اليهم من الأمر والنهي بواسطة الرسل.

فالتوحيد المندوب اليه في الآيات الماضية هو القول بوحدانيّته تعالى والايمان بما أتى به رسل الله والايمان بيوم الحساب والجزاء، ولذلك وصفهم الكفار بعدم الايمان بالآخرة لأن الايمان بها يستلزم الايمان بالوحدانيّة والرسالة.

وقوله: ﴿قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ﴾ أي للحق وقوله: «وهم مستكبرون» أي عن الحق، والاستكبار ـ على ما ذكروه ـ طلب الترفع بترك الإذعان للحق.

والمعنى: إلهكم واحد على ما تدل عليه الآيات الواضحة في دلالتها، وإذا كان الأمر على هذا الوضوح والجلاء لا يستتر بستر ولا يرتاب فيه فهم فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة للحق جاحدة له عناداً وهم مستكبرون عن الانقياد للحق من غير حجة ولا برهان.

قوله تعالى: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ «لا جرم» كلمة مركبة باقية على حالة واحدة يفيد معنى التحقيق على ما ذكره الخليل وسيبويه واليه يرجع ما ذكره غيرهما وإن اختلفوا في أصل تركبه قال الخليل: وهو كلمة تحقيق ولا يكون إلّا جواباً يقال: فعلوا كذا فيقول السامع: لا جرم يندمون.

والمعنى من المحقق ـ أو حق ـ أن الله يعلم ما يسرّون وما يعلنون، وهو كناية وتهديد بالجزاء السيء أي إنّه يعلم ما يخفونه من أعمالهم وما يظهرونه فسيجزيهم بما عملوا ويؤاخذهم على ما أنكروا واستكبروا إنه لا يحب المستكبرين.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ قال الراغب في المفردات: السَطر والسطَر ـ بفتح السكون أو بفتحتين ـ السطر من الكتابة ومن الشجر المغروس ومن القوم الوقوف ـ الى أن قال ـ وجمع السطر أسطر وسطور وأسطار.

قال: وأما قوله: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ فقد قال المبرّد: هي جمع اسطورة نحو أُرجوحة وأُثفية وأثافي وأُحدوثة وأحاديث، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي شيء كتبوه كذباً وميناً فيما زعموا نحو قوله تعالى: «أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً» انتهى وقال غيره: أساطير جمع أسطار وأسطار جمع سطر فهو جمع الجمع.

وقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾ يمكن أن يكون القائل بعض المؤمنين وإنما قاله اختباراً لحالهم واستفهاماً لما يرونه في الدعوة النبوية، ويمكن أن يكون من المشركين وإنما قاله لهم ليقلدهم فيما يرونه. وعبر عن القرآن بمثل قوله: ﴿مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾ لنوع من

التهكم والاستهزاء، ويمكن أن يكون شاكاً متحيراً باحثاً، والآية التالية وكذا قوله فيما سيأتي: «وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم» يؤيد أحد الوجهين الأخيرين.

وقوله: ﴿قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي الذي يسأل عنه أكاذيب خرافية كتبها الأولون وأثبتوها وتركوها لمن خلفهم، ولازم هذا القول دعوى أنه ليس نازلاً من عند الله سبحانه.

قوله تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ الى آخر الآية؛ قال في المفردات: الوزر ـ بفتحتين ـ الملجأ الذي يلتجأ اليه من الجبل، قال تعالى: «كلا لا وزر الى ربك يومئذ المستقرّ» والوزر ـ بالكسر فالسكون ـ الثقل تشبيهاً بوزر الجبل، ويعبّر بذلك عن الإثم كما يعبّر عنه بالثقل، قال تعالى: «ليحملوا أوزارهم كاملة» الآية؛ كقوله: «وليحملنّ أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم».

قال: وحمل وزر الغير بالحقيقة هو على نحو ما أشار اليه ﷺ بقوله: «من سنّ سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها من غير أن ينقص من أجره شيء، ومن سنّ سنّة سيئة كان له وزرها ووزر من عمل بها» أي مثل وزر من عمل بها، وقوله: ﴿ولا تزر وازرة وزر اخرى﴾ أي لا تحمل وزره من حيث يتعرّى المحمول عنه، انتهى.

والذي ذكره من الحديث النبوي مروي من طرق الخاصة والعامة جميعاً ويصدّقه من الكتاب العزيز مثل قوله: ﴿والذين آمنوا واتّبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء كل امرء بما كسب رهين﴾ (الطور / ٢١)، وقوله: ﴿ونكتب ما قدّموا وآثارهم﴾ (يس / ١٢) والآيات في هذا المعنى كثيرة.

وأما قوله في تفسير قوله ﷺ: «كان له وزرها ووزر من عمل بها» أي مثل وزر من عمل بها فكلام ظاهري لا بأس بأن يوجه به الآية والرواية لرفع التناقض بينهما وبين مثل قوله تعالى: ﴿لا تزر وازرة وزر اخرى﴾ (الأنعام / ١٦٤)، وقوله: ﴿ليوفّينهم ربك

أعمالهم﴾ (هود / ١١١). إذ لو حمل الآمر وزر السيئة وعذّب بعذابها دون الفاعل ناقض ذلك الآية الاولى. ولو قسّم بينهما وحمل كل منهما بعض الوزر وعذّب ببعض العذاب ناقض الآية الثانية، وأما لو حمل السانّ والآمر مثل ما للعامل الفاعل لم يناقض شيئاً.

وفي تقييد قوله: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ﴾ بقوله: ﴿كَامِلَةً﴾ دفع لتوهم التقسيم والتبعيض بأن يحملوا بعضاً من أوزار أنفسهم وبعضاً من أوزار الذين يضلونهم فيعود الجميع أوزاراً كاملة بل يحملون أوزار أنفسهم كاملة ثم من أوزار الذين يضلونهم.

وقوله: ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ﴾ من تبعيضية لأنهم لا يحملون جميع أوزارهم بل أوزارهم التي ترتبت على إضلالهم خاصة بشهادة السياق فالتبعيض إنما هو لتميز الأوزار المترتبة على الإضلال من غيرها لا للدلالة على تبعيض كل وزر من أوزار الإضلال وحمل بعضه على هذا وبعضه على ذاك ولا تقسيم مجموع أوزار الإضلال وحمل قسم منه على هذا وقسم منه على ذاك مع تعريته عن القسم الآخر فإن أمثال قوله تعالى: ﴿ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾ (الزلزال / ٨) تنافي ذلك فافهم.

وتقييده سبحانه قوله: ﴿يُضِلُّونَهُمْ﴾ بقوله: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ للدلالة على أن الذين أضلهم هؤلاء المشركون الذين قالوا: أساطير الأولين إنما ضلوا باتباعهم لهم تقليداً وبغير علم فالقائلون أئمة الضلال وهؤلاء الضلّال أتباعهم ومقلّدوهم ثم ختم سبحانه الآية بذمهم وتقبيح أمرهم جميعاً فقال: «ألا ساء ما يزرون».

قوله تعالى: ﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ ٱلْقَوَاعِدِ﴾ الخ: إتيانه تعالى بنيانهم من القواعد هو حضور أمره تعالى عنده بعد ما لم يكن حاضراً. وهذا شائع في الكلام وخرور السقف سقوطه على الأرض وانهدامه.

والظاهر ـ كما يشعر به السياق ـ أن قوله: ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ كناية عن إبطال كيدهم وإفساد مكرهم من حيث لا

يتوقعون كمن يتقي أمامه ويراقبه فيأتيه العدو من خلفه فالله سبحانه يأتي بنيان مكرهم من ناحية قواعده وهم مراقبون سقفه مما يأتيه من فوق فينهدم عليهم السقف لا بهادم يهدمه من فوقه بل بانهدام القواعد.

وعلى هذا فقوله: ﴿وَأَتَيٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ﴾ عطف تفسيري يفسّر قوله: «فأتى الله بنيانهم» الخ؛ والمراد بالعذاب العذاب الدنيوي.

وفي الآية تهديد للمشركين الذين كانوا يمكرون بالله ورسوله بتذكيرهم ما فعل الله بالماكرين من قبلهم من مستكبري الامم الماضية حيث ردّ مكرهم الى أنفسهم فكانوا هم الممكورين.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ ٱلَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ﴾ الإخزاء من الخزي وهو على ما ذكره الراغب الذل الذي يستحيي منه، والمشاقّة من الشقّ وهو قطع بعض الشيء وفصله منه فهي المخاصمة والمعاداة والاختلاف ممن من شأنه أن يأتلف ويتفق فمشاقة المشركين في شركائهم هو اختلافهم مع أهل التوحيد وهم أُمة واحدة فطهرهم الله جميعاً على التوحيد ودين الحق ومخاصمتهم لهم وانفصالهم عنهم.

والمعنى: أن الله سبحانه سيخزيهم يوم القيامة ويضرب عليهم الذلة والهوان بقوله: أين شركائي الذين كنتم تشاقون أهل الحق فيهم وتخاصمونهم وتوجدون الاختلاف في دين الله.

قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْيَ ٱلْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى ٱلْكَافِرِينَ﴾ الخزي ذلة الموقف والسوء العذاب على ما يفيده السياق.

وهؤلاء الذين وصفهم الله بأنهم اوتوا العلم وأخبر أنهم يتكلمون بكذا هم الذين رزقوا العلم بالله وانكشفت لهم حقيقة التوحيد فإن ذلك هو الذي يعطيه السياق من جهة المقابلة بينهم مع وصفهم بالعلم وبين المشركين الذين ينكشف لهم يومئذ أنهم ما كانوا يعبدون إلّا

أسماء سموها وسراباً توهموه.

على أن الله سبحانه يخبر عنهم أنهم يتكلمون يومئذ ويقولون كذا وقد قال في وصف اليوم: ﴿لا يتكلمون إلّا من أذن له الرحمان وقال صواباً﴾ (النبأ / ٣٨) والقول لا يكون صواباً بحق المعنى إلّا مع كون قائله مصوناً من خطأه ولغوه وباطله، ولا يكون مصوناً في قوله إلّا إذا كان مصوناً في فعله وفي علمه فهؤلاء قوم لا يرون إلّا الحق ولا يفعلون إلّا الحق ولا ينطقون إلّا بالحق.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ﴾ الى آخر الآية؛ الظاهر أنه تفسير للكافرين الواقع في آخر الآية السابقة كما أن قوله الآتي: ﴿الذين تتوفاهم الملائكة طيبين﴾ الخ؛ تفسير للمتقين الواقع في آخر الآية التي قبله، ولا يستلزم كونه بياناً للكافرين كونه من تمام قول الذين اوتوا العلم حتى يختل نظم الكلام بقولهم: «إن الخزي اليوم» الخ؛ ثم بيانهم بقولهم: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ الخ؛ دون أن يقولوا: الذين توفاهم الملائكة كما لا يخفى.

وقوله: ﴿فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ﴾ أي الاستسلام وهو الخضوع والانقياد، وضمير الجمع للكافرين والمعنى الكافرون هم الذين تتوفاهم الملائكة ويقبضون أرواحهم والحال أنهم ظالمون لأنفسهم بكفرهم بالله فألقوا السلم وقدموا الخضوع والانقياد مظهرين بذلك أنهم ما كانوا يعملون من سوء، فيرد عليهم قولهم ويكذبون ويقال لهم: بلى قد فعلتم وعملتم إن الله عليم بما كنتم تعملون قبل ورودكم هذا المورد وهو الموت.

قوله تعالى: ﴿فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ الخطاب للمجموع كما كان قوله: «إن الخزي اليوم والسوء على الكافرين» وكذا قوله: «الذين تتوفاهم الملائكة» الخ؛ ناظراً الى جماعة الكافرين دون كلّ واحد منهم.

وعلى هذا يعود معناه الى مثل قولنا: ليدخل كل واحد منكم باباً من جهنم يناسب عمله وموقفه من الكفر لا أن يدخل كل واحد منهم جميع الأبواب او أكثر من واحد منها، وقد تقدم الكلام في معنى أبواب جهنم في تفسير قوله تعالى: ﴿لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم﴾ (الحجر / ٤٤).

والمتكبرون هم المستكبرون بحسب المصداق وإن كانت العناية اللفظية مختلفة فيهما كالمسلم والمستسلم فالمستكبر هو الذي يطلب الكبر لنفسه بإخراجه من القوة الى الفعل وإظهاره لغيره، والمتكبر هو الذي يقبله لنفسه ويأخذه صفة.

قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْراً﴾ الى آخر الآية؛ أخذ المسؤل عنهم هم الذين اتقوا أي الذين شأنهم في الدنيا أنهم تلبّسوا بالتقوى وهم المتصفون به المستمرون بدليل إعادة ذكرهم بعد لفظ المتقين مرتين فيكون المسؤل عنهم من هذه الطائفة خِيارهم الكاملين في الايمان كما كان المسؤل عنهم في الطائفة الاخرى شرارهم الكاملين في الكفر وهم المستكبرون.

وقوله: ﴿قَالُوا خَيْراً﴾ أي أنزل خيراً لأنه أنزل قرآناً يتضمن معارف وشرائع في أخذها والعمل بها خير الدنيا والآخرة وفي قولهم: «خيراً» اعتراف بكون القرآن نازلاً من عنده تعالى مضافاً الى وصفهم له بالخيرية وفي ذلك إظهار منهم المخالفة للمستكبرين حيث أجابوا بقولهم: أساطير الأولين أي هو أساطير ولو قال المتقون: خير بالرفع لم يكن فيه اعتراف بالنزول كما أنه لو قال المستكبرون: أساطير الأولين بالنصب كان فيه اعتراف بالنزول. كذا قيل.

وقوله: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾ ظاهر السياق أنه بيان لقولهم: «خيراً» وهل هو تتمة قولهم أو بيان منه تعالى؟ ظاهر قوله: «ولنعم دار المتقين جنات عدن» الى آخر الآية؛ أنه كلام منه تعالى يبين به وجه الخيرية فيما أنزله اليهم

فإنه أشبه بكلام الرب تعالى منه بكلام المربوب وخاصة المتقين الذين لا يجترؤن على أمثال هذه الاقتراحات .

والمراد بالحسنة المثوبة الحسنة وذلك لأنهم بالإحسان الذي هو العمل بما يتضمنه الكتاب يرزقون مجتمعاً صالحاً يحكم فيه العدل والإحسان وعيشة طيبة مبنية على الرشد والسعادة ينالون ذلك جزاء دنيوياً لإحسانهم لقوله : « لهم في الدنيا » ولدار الحياة الآخرة خير جزاءً لأن فيها بقاء بلا فناء ونعمة من غير نقمة وسعادة ليس معها شقاء .

ومعنى الآية : وقيل للمتقين من المؤمنين ماذا أنزل ربكم من الكتاب وما شأنه ؟ قالوا أنزل خيراً . وكونه خيراً هو أن للذين أحسنوا ـ أي عملوا بما فيه فوضع الإحسان موضع الأخذ والعمل بما في الكتاب إيماء الى أن الذي يأمر به الكتاب أعمال حسنة ـ في هذه الدنيا مثوبة حسنة ولدار الآخرة خير لهم جزاء .

ثم مدح دارهم ليكون تأكيداً للقول فقال : « ولنعم دار المتقين » ثم بيّن دار المتقين بقوله : « جنات عدن يدخلونها تجري من تحتها الأنهار لهم فيها ما يشاؤن كذلك يجزي الله المتقين » والمعنى ظاهر .

قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّيٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ بيان للمتقين كما كان قوله : « الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم » الخ ؛ بياناً للمستكبرين .

والطيب تعرّي الشيء مما يختلط به فيكدّره ويذهب بخلوصه ومحوضته يقال : طاب لي العيش أي خلص وتعرّى مما يكدّره وينغصه والقول الطيب ما كان عارياً من اللغو والشتم والخشونة وسائر ما يوجب فيه غضاضة . والفرق بين الطيب والطهارة أن الطهارة كون الشيء على طبعه الأصلي بحيث يخلو عما يوجب التنفر عنه والطيب كونه على أصله من غير أن يختلط به ما يكدره ويفسد أمره سواء تنفّر عنه أم لا ولذلك قوبل الطيب بالخبيث المشتمل على

الخبث الزائد. قال تعالى: ﴿الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات﴾ (النور / ٢٦)، وقال: ﴿والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذي خبث لا يخرج إلّا نكداً﴾ (الأعراف / ٥٨).

وعلى هذا فالمراد بكون المتقين طيبين في حال توفيهم خلوصهم من خبث الظلم في مقابل المستكبرين الذين وصفهم بالظلم حال التوفي في قوله السابق: «الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم» ويكون معنى الآية أن المتقين هم الذين تتوفاهم الملائكة متعرّين عن خبث الظلم ـ الشرك والمعاصي ـ يقولون لهم سلام عليكم ـ وهو تأمين قولي لهم ـ ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون ـ وهو هداية لهم اليها ـ.

قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ الخ: رجوع الى حديث المستكبرين من المشركين وذكر بعض أحوالهم وأقوالهم وقياسهم بمن سبقهم من طغاة الامم الماضين وما آل اليه أمرهم.

وقوله: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ سياق الآية وخاصة ما في الآية التالية من حديث العذاب ظاهر في أنها مسوقة للتهديد فالمراد بإتيان الملائكة نزولهم لعذاب الاستئصال وينطبق على مثل قوله: ﴿ما ننزّل الملائكة إلّا بالحق وما كانوا إذاً منظرين﴾ (الحجر / ٨). والمراد بإتيان أمر الرب تعالى قيام الساعة وفصل القضاء والإنتقام الإلهي منهم.

وأما كون المراد بإتيان الأمر ما تقدم في أول السورة من قوله: «أتى أمر الله» وقد قرّبنا هناك أن المراد به مجيء النصر وظهور الاسلام على الشرك فلا يلائم اللحن الشديد الذي في الآية تلك الملائمة. وأيضاً سيأتي في ذيل الآيات ذكر إنكارهم للبعث وإصرارهم على نفيه والرد عليهم. وهو يؤيد كون المراد بإتيان الأمر قيام الساعة.

وقد أضاف الرب الى النبي ﷺ فقال: ﴿أَمْرُ رَبِّكَ﴾ ولم يقل: أمر الله أو أمر ربهم ليدل

به على أن فيه انتصاراً له ﷺ وقضاء له عليهم.

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ تأكيد للتهديد وتأييد بالنظير أي فعل الذين من قبلهم مثل فعلهم من الجحود والاستهزاء مما فيه بحسب الطبع انتظار عذاب الله «فأصابهم سيئات ما عملوا» الخ.

وقوله: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ معترضة يبيّن بها أن الذي نزل بهم من العذاب لهم يستوجبه إلّا الظلم، غير أن هذا الظلم كان هو ظلمهم أنفسهم لا ظلماً منه تعالى وتقدّس، ولم يعذبهم الله سبحانه عن ظلم وقع منهم مرة أو مرتين بل أمهلهم إذ ظلموا حتى استمروا في ظلمهم وأصروا عليه ـ كما يدل عليه قوله: كانوا أنفسهم يظلمون ـ فعند ذلك أنزل عليهم العذاب، ففي قوله: «وما ظلمهم الله» الخ: إثبات الاستمرار على الظلم عليهم ونفي أصل الظلم عن الله سبحانه.

قوله تعالى: ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا يَسْتَهْزِئُونَ﴾ حاق بهم أي حلّ بهم، وقيل: معناه نزل بهم وأصابهم، والذي كانوا به يستهزؤن هو العذاب الذي كانت رسلهم ينذرونهم به ومعنى الآية ظاهر.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ الخ: الذي تورده الآية شبهة على النبوة من الوثنيين المنكرين لها، ولذلك عرّفهم بنعتهم الصريح حيث قال: «وقال الذين أشركوا» ولم يكتف بالضمير ولم يقل: وقالوا كما في الآيات السابقة ليعلم أن الشبهة لهم بعينهم.

وقوله: ﴿لَوْ شَاءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا﴾ جملة شرطية حذف فيها مفعول «شاء» لدلالة الجزاء عليه، والتقدير لو شاء الله أن لا نعبد من دونه شيئاً ما عبدنا، الخ.

وقوله: ﴿مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ لفظة من الاولى بيانية والثانية زائدة

لتأكيد الاستغراق في النفي. والمعنى ما عبدنا شيئاً دونه. ونظير ذلك قوله: «ولا حرّمنا من دونه من شيء».

وقوله: ﴿نَحْنُ وَلاَ آباؤُنا﴾ بيان لضمير التكلم في «عبدنا» للدلالة على أنهم يتكلمون عنهم وعن آبائهم جميعاً لأنهم كانوا يقتدون في عبادة الأصنام بآبائهم. وقد تكرّر في القرآن حكاية مثل قولهم: ﴿إنا وجدنا آباءنا على أُمة وإنا على آثارهم مقتدون﴾ (الزخرف / ٢٣).

وقوله: ﴿وَلاَ حَرَّمْنا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ عطف على قوله: «عبدنا» الخ؛ أي ولو شاء الله أن لا نحرّم من دونه من شيء أو نحلّ ما حرَّمناه ما حرَّمنا. الخ؛ والمراد البحيرة والسائبة وغيرهما مما حرَّموه.

ثم إن قولهم: ﴿لَوْ شاءَ ٱللَّهُ ما عَبَدْنا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ الخ؛ ظاهر من جهة تعليق نفي العبادة على نفس مشيته تعالى في أنهم أرادوا بالمشية إرادته التكوينية التي لا تتخلف عن المراد البتة ولو أرادوا غيرها لقالوا: لو شاء الله كذا لأطعناه واستجبنا دعوته أو ما يفيد هذا المعنى.

فكأنهم يقولون: لو كانت الرسالة حقة وكان ما جاء به الرسل من النهي عن عبادة الأصنام والأوثان والنهي عن تحريم البحيرة والسائبة والوصيلة وغيرها نواهي لله سبحانه كان الله سبحانه شاء أن لا نعبد شيئاً غيره وأن لا نحرم من دونه شيئاً. ولو شاء الله سبحانه أن لا نعبد غيره ولا نحرم شيئاً لم نعبد ولم نحرم لاستحالة تخلف مراده عن إرادته لكنا نعبد غيره ونحرم أشياء فليس يشاء شيئاً من ذلك فلا نهي ولا أمر منه تعالى ولا شريعة ولا رسالة من قبله.

قوله تعالى: ﴿كَذٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلاغُ ٱلْمُبِينُ﴾. خطاب للنبي ﷺ بأمره أن يبلغ رسالته بلاغاً مبيناً ولا يعتني بما لقّوه من

الحجة فإنها داحضة والحجة تامة عليهم بالبلاغ وفيه إشارة إجمالية الى دحض حجتهم.

فقوله: ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي على هذا الطريق الذي سلكه هؤلاء سلك الذين من قبلهم فعبدوا غير الله وحرّموا ما لم يحرّمه الله ثم إذا جاءتهم رسلهم ينهونهم عن ذلك قالوا: لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ولا حرّمنا من دونه من شيء فالجملة كقوله تعالى: ﴿كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كفروا بآيات الله فأخذهم الله بذنوبهم﴾ (الأنفال / ٥٢).

وقوله: ﴿فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ اي بلّغهم الرسالة بلاغاً مبيناً تتم به الحجة عليهم فإنما وظيفة الرسل البلاغ المبين وليس من وظيفتهم أن يلجؤا الناس الى ما يدعونهم اليه وينهونهم عنه ولا أن يحملوا معهم إرادة الله الموجبة التي لا تتخلف عن المراد ولا أمره الذي إذا أراد شيئاً قال له كن فيكون حتى يحوّلوا بذلك الكفر الى الإيمان ويضطرّوا العاصي على الإطاعة.

فإنما الرسول بشر مثلهم والرسالة التي بعث بها إنذار وتبشير وهي مجموعة قوانين اجتماعية أوحاها اليه الله فيها صلاح الناس في دنياهم وآخرتهم صورتها صورة الأوامر والنواهي المولوية وحقيقتها الإنذار والتبشير، قال تعالى: ﴿قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إني ملك﴾ (الأنعام / ٥٠)، فهذا ما أمر به نبيه ﷺ أن يبلّغهم وقد أمر به نوحاً ومن بعده من الرسل عليهم السلام أن يبلّغوه أممهم كما في سورة هود وغيرها.

وقال أيضاً مخاطباً نبيه ﷺ: ﴿قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ أنما إلهكم إله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً﴾ (الكهف / ١١٠).

فهذا هو الذي يشير اليه على سبيل الإجمال بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ فإن ظاهره كما أشرنا اليه سابقاً أن هذه حجة

دائرة بينهم قديماً وحديثاً. وعلى هذا ليس من شأن الرسول إجبار الناس وإلجاؤهم على الإيمان والطاعة بل البلاغ المبين بالإنذار والتبشير وحجتهم لا تدفع ذلك فبلّغ ما أُرسلت به بلاغاً مبيناً ولا تطمع في هداية من ضلّ منهم. وستفصّل الآيتان التاليتان ما أجملته هذه الآية وتوضحانها.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلاَلَةُ﴾الخ: الطاغوت في الأصل مصدر كالطغيان وهو تجاوز الحدّ بغير حق، واسم المصدر منه الطغوى، قال الراغب: الطاغوت عبارة عن كل متعدّ وكل معبود من دون الله، ويستعمل في الواحد والجمع، قال تعالى: ﴿فمن يكفر بالطاغوت﴾ ﴿والذين اجتنبوا الطاغوت﴾ ﴿أولياؤهم الطاغوت﴾. انتهى.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً﴾ إشارة الى أن بعث الرسول أمر لا يختص به امة دون امة بل هو سنّة إلهية جارية في جميع الناس بما أنهم في حاجة اليه وهو يدركهم أينما كانوا كما أشار الى عمومه في الآية السابقة إجمالاً بقوله: «كذلك فعل الذين من قبلهم».

وقوله: ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ بيان لبعث الرسول على ما يعطيه السياق أن ماكانت حقيقة بعث الرسول إلّا أن يدعوهم الى عبادة الله واجتناب الطاغوت لأن الأمر وكذا النهي من البشر وخاصة إذا كان رسولاً ليس إلّا دعوة عادية لا إلجاء واضطراراً تكوينياً، ولا أن للرسول أن يدّعي ذلك حتى يرد عليه أنه لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء وإذ لم يشأ فلا معنى للرسالة.

وقوله: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلاَلَةُ﴾ أي كانت كل من هذه الامم مثل هذه الامة منقسمة الى طائفتين فبعضهم هو من هداه الله الى ما دعاهم اليه الرسول من عبادة الله واجتناب الطاغوت.

وذلك أن الهداية من الله سبحانه لا يشاركه فيها غيره ولا تنسب الى أحد دونه إلّا بالتبع كما قال: ﴿إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء﴾ (القصص / ٥٦) وسنشير اليه في الآية التالية: ﴿إن تحرص على هداهم فإن الله لا يهدي من يضل﴾ والآيات في حصر الهداية فيه تعالى كثيرة، ولا يستلزم ذلك كونها أمراً اضطرارياً لا صنع فيه للعبد أصلاً فإنها اختيارية بالمقدمة كما يشير اليه قوله: ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين﴾ (العنكبوت / ٦٩) يفيد أن للهداية الإلهية طريقاً ميسّراً للانسان وهو الإحسان في العمل وأن الله لمع المحسنين لا يدعهم يضلّون.

وبعض هذه الامم ـ الطائفة الثانية منهم ـ هو من حقّت عليه الضلالة أي ثبتت ولزمت. وهذه الضلالة هي التي من قبل العبد بسوء اختياره وليست بالتي تتبعها مجازاة من الله فإن الله يصفها بقوله: حقت ثم يضيفها في الآية التالية الى نفسه إذ يقول: ﴿فإن الله لا يهدي من يضل﴾ فقد كانت هناك ضلالة ثم حقت وثبتت بإثبات الله مجازاة فصارت هي التي من قبل الله سبحانه مجازاة، فتبصّر.

ولم ينسب الله سبحانه في كلامه الى نفسه إضلالاً إلّا ما كان مسبوقاً لظلم من العبد أو فسق أو كفر وتكذيب أو نظائرها كقوله: ﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ (الجمعة / ٥) وعدم الهداية هو الإضلال، وقوله: ﴿ويضلُّ الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء﴾ (إبراهيم / ٢٧)، وقوله: ﴿وما يضلُّ به إلّا الفاسقين﴾ (البقرة / ٢٦)، وقوله: ﴿إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقاً إلّا طريق جهنم﴾ (النساء / ١٦٨)، وقوله: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ (الصف / ٥)، الى غير ذلك من الآيات.

ولم يقل سبحانه: فمنهم من هدى الله ومنهم من أضلّه مع كون ضلالهم ضلال مجازاة لا مانع من إضافته اليه تعالى دفعاً لإيهام نسبة أصل الضلال اليه بل ذكر أولاً من هداه ثم قابله بمن كان من حقه أن يضل ـ وهو الذي اختار الضلالة على الهدى أي اختار أن لا يهتدي ـ فلم

يهدِه الله وحقّ له ذلك.

وقوله: ﴿فَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ ظاهر السياق أن الخطاب للذين أشركوا القائلين «لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء» والالتفات الى خطابهم لكونه أشد تأثيراً فلي تثبيت القول وإتمام الحجة.

والكلام متفرع على ما بيّن جواباً لحجتهم إجمالاً وتفصيلاً ومحصّل المعنى أن الرسالة والدعوة النبوية ليست من الإرادة التكوينية الملجئة الى ترك عبادة الأصنام وتحريم ما لم يحرّمه الله حتى يستدلوا بعدم وجود الإلجاء على عدم وجود الرسالة وكذب مدّعيها بل هي دعوة عادية بعث الله سبحانه بها رسلاً يدعونكم الى عبادة الله واجتناب الطاغوت وحقيقته الإنذار والتبشير، ومن الدليل على ذلك آثار الامم الماضية الظالمة التي تحكي عن نزول العذاب عليهم فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين حتى يتبين لكم أن الدعوة النبوية التي هي إنذار حق وأن الرسالة ليست كما تزعمون.

قوله تعالى: ﴿إِنْ تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لاَ يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ لما بيّن أن الامم الماضين انقسموا طائفتين وكانت إحدى الطائفتين هم الذين حقّت عليهم الضلالة وكانت هؤلاء الذين أشركوا وقالوا ما قالوا كالذين من قبلهم منهم بيّن في هذه الآية أن ثبوت الضلالة في حقهم إنما هو ثبوت لا زوال معه وتحتم لا يقبل التغيير فإنه لا هادي بالحقيقة إلّا الله فإن جاز هداهم كان الله هو هاديهم لكنه لا يهديهم فإنه يضلهم ولا يجتمع الهدى والضلال معاً، وليس هناك ناصر ينصرهم على الله فيقهره على هداهم فليؤيس منهم.

ففي الآية تعزية للنبي ﷺ وإرشاد له أن لا يحرص في هداهم، وإعلام له أن القضاء قد مضى في حقهم وما يبدّل القول لديه وما هو بظلّام للعبيد.

فقوله: ﴿إِنْ تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ﴾ الخ: في تقدير إن تحرص على هداهم لم ينفعهم

حرصك شيئاً فليسوا ممن يمكن له الاهتداء فإن الله هو الذي يهدي من اهتدى، وهو لا يهديهم فإنه يضلهم ولا يناقض تعالى فعل نفسه، وليس لهم ناصرون ينصرونهم عليه.

وفي هذه الآيات الثلاث مشاجرات طويلة بين المجبّره والمفوّضة وكل يفسرها بما يقتضيه مذهبه حتى قال الامام الرازي: إن المشركين أرادوا بقولهم: لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء، الخ: أنه لما كان الكل من التوحيد والشرك والهدى والضلال من الله كانت بعثة الأنبياء عبثاً فنقول: هذا اعتراض على الله وجار مجرى طلب العلة في أحكامه وأفعاله تعالى وذلك باطل فلا يقال له: لِمَ فعلت هذا ولِمَ لم تفعل ذلك؟

قال: فثبت أن الله تعالى إنما ذمّ هؤلاء القائلين لأنهم اعتقدوا أن كون الأمر كذلك يمنع عن جواز بعثة الرسل لا لأنهم كذبوا في قولهم ذلك. انتهى ملخصاً.

وفي قوله: ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ دلالة على أن لغيرهم ناصرين كثيرين وذلك أن السياق يدل على أنه ليس لهم ناصر أصلاً لا واحد ولا كثير فنفي الناصرين بصيغة الجمع يكشف عن عناية زائدة بذلك أي أن هناك ناصرين لكنهم ليسوا لهم بل لغيرهم وليس إلّا من يهتدي بهدى الله، ونظير الآية ما حكاه الله سبحانه عن المجرمين يوم القيامة: ﴿فما لنا من شافعين﴾ (الشعراء / ١٠٠).

وهؤلاء الناصرون هم الملائكة الكرام وسائر أسباب التوفيق والهداية والله سبحانه من ورائهم محيط، قال تعالى: ﴿إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد﴾ (المؤمن / ٥١).

قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَىٰ﴾ الى آخر الآية؛ قال في المفردات: الجهد والجهد ـ بفتح الجيم وضمها ـ الطاقة، والمشقة أبلغ من الجهد بالفتح، قال: وقال تعالى: «وأقسموا بالله جهد أيمانهم» أي حلفوا واجتهدوا في الحلف أن يأتوا به على أبلغ ما في وسعهم. انتهى.

وقال في المجمع في معنى قوله: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ أي بلغوا في القسم كل مبلغ. انتهى.

وقولهم: ﴿لاَ يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَنْ يَمُوتُ﴾ إنكار للحشر، والجملة كناية عن أن الموت فناء فلا يتعلق به بعده خلق جديد، وهذا لا ينافي قول كلهم أو جلهم بالتناسخ فإنه قول بتعلق النفس بعد مفارقتها البدن ببدن آخر إنساني أو غير إنساني وعيشها في الدنيا، وهو قولهم بالتولد بعد التولد.

وقوله: ﴿بَلَىٰ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً﴾ أي ليس الأمر كما يقولون بل يبعث الله من يموت وعده وعداً ثابتاً عليه حقاً أي إن الله سبحانه أوجبه على نفسه بالوعد الذي وعد عباده، وأثبته إثباتاً فلا يتخلف ولا يتغير.

وقوله: ﴿وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ أي لا يعلمون أنه من الوعد الذي لا يخلف والقضاء الذي لا يتغير لإعراضهم عن الآيات الدالة عليه الكاشفة عن وعده وهي خلق السماوات والأرض واختلاف الناس بالظلم والطغيان والعدل والإحسان والتكليف النازل في الشرائع الإلهية.

قوله تعالى: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ﴾ اللام للغاية والغرض أي يبعث الله من يموت ليبين لهم، الخ؛ والغايتان في الحقيقة غاية واحدة فإن الثانية من متفرعات الاولى ولوازمها فإن الكافرين إنما يعلمون أنهم كانوا كاذبين في نفي المعاد من جهة تبين الاختلاف الذي ظهر بينهم وبين الرسل بسبب إثبات المعاد ونفيه وظهور المعاد لهم عياناً.

وتبين ما اختلف فيه الناس من شؤن يوم القيامة، وقد تكرر في كلامه هذا التعبير وما في معناه تكراراً صحّ معه جعل تبيين الاختلاف معرّفاً لهذا اليوم الذي ثقل في السماوات والأرض، وعلى ذلك يتفرع ما قصه الله سبحانه في كلامه من تفاصيل ما يجري فيه من المرور

على الصراط وتطاير الكتب ووزن الأعمال والسؤال والحساب وفصل القضاء.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ هو نظير قوله في موضع آخر: ﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾ (يس / ٨٢). ومنه يعلم أنه تعالى يسمّي أمره قولاً كما يسمي أمره وقوله من حيث قوته وإحكامه وخروجه عن الإبهام وكونه مراداً حكماً وقضاء. قال تعالى: ﴿وما أُغني عنكم من الله من شيء إن الحكم إلّا لله﴾ (يوسف / ٦٧). وقال: ﴿وقضينا اليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين﴾ (الحجر / ٦٦). وقال: ﴿وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون﴾ (البقرة / ١١٧). وكما يسمي قوله الخاص كلمة. قال تعالى: ﴿ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين إنهم لهم المنصورون﴾ (الصافات / ١٧٢). وقال: ﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون﴾ (آل عمران / ٥٩). ثم قال في عيسى عليه السلام: ﴿وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه﴾ (النساء / ١٧١).

٤١ ● وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ.

٤٢ ● الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ.

٤٣ ● وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ.

٤٤ ● بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ.

٤٥ ● أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ

أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذابُ مِنْ حَيْثُ لاٰ يَشْعُرُونَ.

٤٦ ❁ أَوَ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَما هُمْ بِمُعْجِزِينَ.

٤٧ ❁ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ.

٤٨ ❁ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلىٰ ما خَلَقَ ٱللّٰهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلاٰلُهُ عَنِ
ٱلْيَمِينِ وَالشَّمٰائِلِ سُجَّداً لِلّٰهِ وَهُمْ دٰاخِرُونَ.

٤٩ ❁ وَلِلّٰهِ يَسْجُدُ ما فِي السَّمٰوٰاتِ وَما فِي ٱلْأَرْضِ مِنْ دٰابَّةٍ
وَٱلْمَلاٰئِكَةُ وَهُمْ لاٰ يَسْتَكْبِرُونَ.

٥٠ ❁ يَخٰافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ.

٥١ ❁ وَقٰالَ ٱللّٰهُ لاٰ تَتَّخِذُوا إِلٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ إِنَّما هُوَ إِلٰهٌ وٰاحِدٌ فَإِيّٰايَ
فَارْهَبُونِ.

٥٢ ❁ وَلَهُ ما فِي السَّمٰوٰاتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وٰاصِباً أَفَغَيْرَ ٱللّٰهِ
تَتَّقُونَ.

٥٣ ❁ وَما بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ ٱللّٰهِ ثُمَّ إِذٰا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ
تَجْئَرُونَ.

٥٤ ❁ ثُمَّ إِذٰا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذٰا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ.

٥٥ ❁ لِيَكْفُرُوا بِما آتَيْنٰاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ.

٥٦ ❁ وَيَجْعَلُونَ لِما لاٰ يَعْلَمُونَ نَصِيباً مِمّٰا رَزَقْنٰاهُمْ تَاللّٰهِ لَتُسْأَلُنَّ
عَمّٰا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ.

٥٧ ❁ وَيَجْعَلُونَ لِلّٰهِ ٱلْبَنٰاتِ سُبْحٰانَهُ وَلَهُمْ ما يَشْتَهُونَ.

٥٨ ❁ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ.

٥٩ ❁ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ
يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ.

٦٠ ❁ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ
وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ.

٦١ ❁ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَٰكِنْ
يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ
سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ.

٦٢ ❁ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ
الْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ.

٦٣ ❁ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ
أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ.

٦٤ ❁ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ
وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ وعد جميل للمهاجرين، وقد كانت من المؤمنين هجرتان عن مكة: إحداهما الى حبشة عدّة من المؤمنين بالنبي ﷺ بإذن من الله ورسوله اليها ولبثوا فيها حيناً في أمن وراحة من أذى مشركي مكة وعذابهم

وفتنتهم.

والثانية هجرتهم من مكة الى المدينة بعد مهاجرة النبي ﷺ، والظاهر أن المراد بالهجرة في الآية هي الهجرة الثانية فسياق الآيتين أكثر ملاءمة لها من الاولى وهو ظاهر.

وقوله: ﴿فِي ٱللَّهِ﴾ متعلق بهاجروا، والمراد بكون المهاجرة في الله أن يكون طلب مرضاته محيطاً بهم في مهاجرتهم لا يخرجون منه الى غرض آخر كما يقال: سافر في طلب العلم وخرج في طلب المعيشة أي لا غاية له إلّا طلب العلم ولا بغية له إلّا طلب المعيشة، والسياق يعطي أن قوله: «من بعدما ظلموا» أيضاً مقيّد بذلك معنى، والتقدير: والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا فيه، وإنما حذف اختصاراً وإنما اكتفي به قيداً للمهاجرة لأنها محل الابتلاء فتخصيصه بإيضاح الحال أولى.

وقوله: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ قيل: أي بلدة حسنة بدلاً مما تركوه من وطنهم كمكة وحواليها بدليل قوله: «لنبوّئنهم» فإنه من بوّأت له مكاناً أي سوّيت وأقررته فيه.

وقيل: أي حالة حسنة من الفتح والظفر ونحو ذلك فيكون قوله: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ﴾ الخ؛ من الاستعارة بالكناية.

والوجهان متحدان مآلاً فإنهم إنما كانوا يهاجرون ليعقدوا مجتمعاً إسلامياً طيباً لا يُعبَد فيه إلّا الله، ولا يحكم فيه إلّا العدل والإحسان أو ليدخلوا في مجتمع هذا شأنه فلو رجوا في مهاجرهم غاية حسنة أو وعدوا بغاية حسنة كان ذلك هذا المجتمع الصالح، ولو حمدوا البلدة التي يهاجرون اليها لكان حمدهم للمجتمع الاسلامي المستقر فيها لا لمائها أو هوائها فالغاية الحسنة التي يعدهم الله في الدنيا هي هذا المجتمع سواء اريد بالحسنة البلدة أو الغاية.

وقوله: ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ تتميم للوعد وإشارة الى أن أجر الآخرة أفضل من هذا الأجر الدنيوي لو كانوا يعلمون ما أعدّ الله لهم فيها من النعم فإن

فيها سعادة من غير شقاء وخلوداً من غير فناء ولذّة غير مشوبة بألم وجوار رب العالمين.

قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ لا يبعد أن يستفاد من سياق الآيتين أن جملة العناية فيهما الى وعد المهاجرين في الله وعداً حسناً في الدنيا والآخرة من غير نظر الى الإخبار بتحقق المهاجرة قبل حال الخطاب فيكون الكلام في معنى الاشتراط: من يهاجر في الله فله كذا وكذا، وتكون العناية في قوله: «الذين صبروا» الخ: بتوصيف المهاجرين بالصبر والتوكل من غير نظر الى ما تحقق منهم من ذلك أيام توقفهم في أوطانهم بين المشركين قبال أذاهم وفتنتهم.

والعناية بالتوصيف إنما هي لكون كلتا الصفتين دخيلتين في الغاية الحسنة التي وعدوا بها إذ لو لم يصبروا على مرّ الجهاد وأظهروا الجزع عند هجوم العظائم ولم يتأيدوا بالتوكل على الله واعتمدوا على أنفسهم الضعيفة أُحيط بهم ولم يتهيأ لهم المستقر وفرّقهم العدو المصر على عداوته بدداً وتلاشى المجتمع الصالح الذي أقاموه في مهاجرهم هذا في الدنيا، وأما أمر الآخرة ففساده بفساد المجتمع أو تلاشيه أوضح.

ولو كان المراد وعد المهاجرين الذين تحقق منهم الهجرة قبل نزول الآية تطييباً لنفوسهم وتسلية لهم عما أُخرجوا من ديارهم وأموالهم وقاسوا الفتن والمحن كان قوله: «الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون» مدحاً لهم بما ظهر منهم ايام إقامتهم بمكة وغيرها من الصبر في الله على أذى المشركين والتوكل على الله فيما عزموا عليه من الاسلام لله.

قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ رجوع ثان الى بيان كيفية إرسال الرسل وإنزال الكتب حتى يتضح للمشركين أنه لم تكن الدعوة الدينية إلّا دعوة عادية من رجال يوحى اليهم من البشر يندبون الى ما فيه صلاح الناس في دنياهم وعقباهم.

وأنه لم يدّع أحد من الرسل ولا ادّعي في كتاب من كتب الشرائع أن الدعوة الدينية ظهور

للقدرة الغيبية القاهرة لكل شيء والارادة التكوينية لهدم النظام الجاري ونقض سنّة الاختيار وإبطالها حتى يقول القائل منهم «لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء» الخ.

وعلى هذا فقوله سبحانه: ﴿وَمٰا أَرْسَلْنٰا مِنْ قَبْلِكَ إِلاّٰ رِجٰالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ﴾ مسوق لحصر الرسالة على البشر العادي من رجال يوحى اليهم قبال ما ادعاه المشركون أنها لو كانت لكانت نقضاً لنظام الطبيعة وإبطالاً للإختيار والإستطاعة.

والحق أن الآية ﴿وَمٰا أَرْسَلْنٰا مِنْ قَبْلِكَ إِلاّٰ رِجٰالاً﴾ إنما هي في مقام بيان أن الرسل كانوا رجالاً من البشر العادي من غير عناية بكونهم أول ما بعثوا للرسالة أفراداً بالغين مبلغ الرجال فالغرض أن نوحاً وإبراهيم وموسى وعيسى ويحيى عليهم السلام ـ وهم رسل ـ كانوا رجالاً يوحى اليهم ولم يكونوا أشخاصاً مجهزين بقدرة قاهرة غيبية وإرادة إلهية تكوينية.

ويقرب من الآية قوله تعالى في موضع آخر: ﴿**وما أرسلنا قبلك إلّا رجالاً نوحي إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون وما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين**﴾ (الأنبياء / ٨).

وقوله: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لاٰ تَعْلَمُونَ﴾ الظاهر أنه خطاب للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ولقومه، وقد كان الخطاب في سابق الكلام للنبي صلى الله عليه وآله وسلم خاصة والمعنى موجّه الى الجميع فهو تعميم الخطاب للجميع ليتخذ كل من المخاطبين سبيله فمن كان لا يعلم ذلك كبعض المشركين راجع أهل الذكر واسألهم ومن كان يعلم ذلك كالنبي صلى الله عليه وآله وسلم والمؤمنين به كان في غنى عن الرجوع والسؤال.

والذكر حفظ معنى الشيء أو استحضاره، ويقال لما به يحفظ أو يستحضر قال الراغب في المفردات: الذكر تارة يقال ويراد به هيئة للنفس بها يمكن للإنسان أن يحفظ ما يقتنيه من المعرفة وهو كالحفظ إلّا أن الحفظ يقال اعتباراً بإحرازه والذكر يقال اعتباراً باستحضاره، وتارة يقال لحضور الشيء في القلب أو القول ولذلك قيل: الذكر ذكران: ذكر بالقلب، وذكر

باللسان، وكل واحد منهما ضربان: ذكر عن نسيان وذكر لا عن نسيان بل عن إدامة الحفظ، انتهى موضع الحاجة.

والظاهر أن الأصل فيه ما هو للقلب وإنما يسمى اللفظ ذكراً اعتباراً بإفادته المعنى وإلقائه إياه في الذهن، وعلى هذا المعنى جرى استعماله في القرآن غير أن مورده فيه ذكر الله تعالى فالذكر إذا أُطلق فيه ولم يتقيد بشيء هو ذكره.

وبهذه العناية أيضاً سمّي القرآن وحي النبوة والكتب المنزلة على الأنبياء ذكراً، والآيات في ذلك كثيرة لا حاجة الى إيرادها في هذا الموضع. وقد سمى الله سبحانه في الآية التالية القرآن ذكراً.

فالقرآن الكريم ذكر كما أن كتاب نوح وصحف إبراهيم وتوراة موسى وزبور داود وإنجيل عيسى عليه السلام ـ وهي الكتب السماوية المذكورة في القرآن ـ كلها ذكر، وأهلها المتعاطون لها المؤمنون بها أهل الذكر.

ولما كان أهل الشيء وخاصته أعرف بحاله وأبصر بأخباره كان على من يريد التبصر في أمره أن يرجع الى أهله، وأهل الكتب السماوية القائمون على دراستها وتعلمها والعمل بشرائعها هم أهل الخبرة بها والعالمون بأخبار الأنبياء الجائين بها فعلى من أراد الاطلاع على شيء من أمرهم أن يراجعهم ويسألهم.

لكن المشركين المخاطبين بمثل قوله: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ﴾ لما كانوا لا يسلمون للنبي صلى الله عليه وآله وسلم النبوة ولا يصدقونه في دعواه ويستهزؤن بالقرآن ذي الذكر كما يذكره تعالى في قوله: ﴿وقالوا يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون﴾ (الحجر / ٦)، لم ينطبق قوله: «فاسألوا أهل الذكر» بحسب المورد إلّا على أهل التوراة، وخاصة من حيث كونهم أعداء للنبي صلى الله عليه وآله وسلم رادين لنبوته وكانت نفوس المشركين طيبة بهم لذلك، وقد قالوا في المشركين: ﴿هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً﴾ (النساء / ٥١).

قوله تعالى: ﴿ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ ﴾ متعلق بمقدّر يدلُّ عليه ما في الآية السابقة من قوله: «وما أرسلنا» أي أرسلناهم بالبيّنات والزبر وهي الآيات الواضحة الدالّة على رسالتهم والكتب المنزّلة عليهم.

وذلك أن العناية في الآية السابقة إنما هي ببيان كون الرسل بشراً على العادة فحسب فكأنه لما ذكر ذلك اختلج في ذهن السامع أنهم بماذا أُرسلوا؟ فاجيب عنه فقيل: بالبينات والزبر أما البينات فلإثبات رسالتهم وأما الزبر فلحفظ تعليماتهم.

وقيل: وهو متعلق بقوله: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا ﴾ أي وما أرسلنا بالبينات والزبر إلاّ رجالاً نوحي اليهم. وفيه أنه لا بأس به في نفسه لكنه مفوّت لما تقدّم من النكتة.

قوله تعالى: ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ لا شك أن تنزيل الكتاب على الناس وإنزال الذكر على النبي ﷺ واحد بمعنى أن تنزيله على الناس هو إنزاله اليه ليأخذوا به ويوردوه مورد العمل كما قال تعالى: ﴿ يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا اليكم نوراً مبيناً ﴾ (النساء / ١٧٤)، وقال: ﴿ لقد أنزلنا اليكم كتاباً فيه ذكركم أفلا تعقلون ﴾ (الأنبياء / ١٠).

فيكون محصّل المعنى أن القصد بنزول هذا الذكر الى عامة البشر وأنك والناس في ذلك سواء، وإنما اخترناك لتوجيه الخطاب وإلقاء القول لا لنحمّلك قدرة غيبية وإرادة تكوينية إلهية فنجعلك مسيطراً عليهم وعلى كل شيء بل لأمرين:

أحدهما: أن تبين للناس ما نزّل تدريجاً اليهم لأن المعارف الإلهية لا ينالها الناس بلا واسطة فلابد من بعث واحد منهم للتبيين والتعليم، وهذا هو غرض الرسالة ينزل اليه الوحي فيحمله ثم يؤمر بتبليغه وتعليمه وتبيينه.

والثاني: رجاء أن يتفكروا فيك فيتبصّروا أن ما جئت به حق من عند الله فإن الأوضاع المحيطة بك والحوادث والأحوال الواردة عليك في مدى حياتك من اليتم وخمود الذكر

والحرمان من التعلم والكتابة وفقدان مربّ صالح والفقر والاحتباس بين قوم جهلة أخسّاء صفر الأيدي من مزايا المدنية وفضائل الإنسانية كانت جميعاً أسباباً قاطعة أن لا تذوق من عين الكمال قطرة ، ولا تقبض من عرى السعادة على مسكة . لكن الله سبحانه أنزل اليك ذكراً تتحدّى به على الجن والإنس مهيمناً على سائر الكتب السماوية تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبرهاناً ونوراً مبيناً .

فالتفكر فيك نعم الدليل الهادي الى أن ليس لك فيما جئت به صنع ولا لك من الأمر شيء وأن الله أنزله بعلمه وأيّدك لذلك بقدرته من غير أن يداخله من الأسباب العادية شيء .

هذا ما تفيده الآية الكريمة نظراً الى سياقها وسياق ما قبلها ومحصّله أن قوله : « لتبين » الخ ؛ غاية للإنزال لا لنفسه بل من حيث تعلّقه بشخص النبي ﷺ ، وأن متعلق « يتفكرون » المحذوف هو نحو قولنا : فيك لا قولنا : في الذكر .

وفي الآية دلالة على حجيّة قول النبي ﷺ في بيان الآيات القرآنية . وأمّا ما ذكره بعضهم أن ذلك في غير النص والظاهر من المتشابهات أو فيما يرجع الى أسرار كلام الله وما فيه من التأويل فمما لا ينبغي أن يصغى اليه .

هذا في نفس بيانه ﷺ ويلحق به بيان أهل بيته لحديث الثقلين المتواتر وغيره وأما سائر الامة من الصحابة أو التابعين أو العلماء فلا حجية لبيانهم لعدم شمول الآية وعدم نص معتمد عليه يعطي حجية بيانهم على الإطلاق .

وأما قوله تعالى : « فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون » فقد تقدم أنه إرشاد الى حكم العقلاء بوجوب رجوع الجاهل الى العالم من غير اختصاص الحكم بطائفة دون طائفة .

هذا كله في نفس بيانهم المتلقى بالمشافهة . وأما الخبر الحاكي له فما كان منه بياناً متواتراً أو محفوفاً بقرينة قطعية وما يلحق به فهو حجة لكونه بيانهم . وأما ما كان مخالفاً للكتاب أو غير مخالف لكنه ليس بمتواتر ولا محفوفاً بالقرينة فلا حجيّة فيه لعدم كونه بياناً في الأول وعدم

إحراز البيانية في الثاني وللتفصيل محل آخر.

قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ هذه الآية والآيتان بعدها إنذار وتهديد للمشركين وهم الذين يعبدون غير الله سبحانه ويشرعون لأنفسهم سنناً يستنون بها في الحياة فما يعملون من الأعمال مستقلين فيها بأنفسهم معرضين عن شرائع الله النازلة من طريق النبوة استناداً الى حجج داحضة اخلقوها لأنفسهم كلها سيئات وما يتقلبون فيها مدى حياتهم من حركة أو سكون وأخذ أو رد وفعل أو ترك وهم على ما هم عليه من استكبار وغرور، كلها ذنوب يقترفونها مكراً بالله ربهم وبرسله الداعين الى الأخذ بدين الله ولزوم سبيله.

فقوله: ﴿السَّيِّئَاتِ﴾ مفعول ﴿مَكَرُوا﴾ بتضمينه بمعنى عملوا أي عملوا السيئات ماكرين؛ وما احتمله بعضهم من كون السيئات وصفاً ساداً مسدّ المفعول المطلق والتقدير: يمكرون المكرات السيئات بعيد من السياق.

وبالجملة الكلام لتهديد المشركين وإنذارهم بالعذاب الإلهي ويدخل فيهم مشركوا مكة، والكلام متفرع على ما تقدم كما يدل عليه قوله: «أفأمن» بفاء التفريع.

والمعنى ـ والله أعلم ـ فإذا دلّت الآيات البينات على أن الله هو ربهم لا شريك له في ربوبيته وأن الرسالة ليست بأمر محال بل هي دعوة الى ما فيه صلاح معاشهم ومعادهم وخير دنياهم وأُخراهم من رجال هم أمثالهم يبعثهم الله ويوحي اليهم بما تشتمل عليه الدعوة، فهؤلاء الذين يعرضون عن ذلك ويمكرون بالله ورسله بالتشبّث بهذه الحجج الواهية لتسوية الطريق الى ترك دين الله وتشريع ما يوافق أهواءهم ويعملون السيئات هل أمنوا أن يخسف الله بهم الأرض أو يأتيهم العذاب وهم لا يشعرون، أي يفاجئهم من غير أن يتنبهوا بتوجيه اليهم قبل نزوله.

قوله تعالى: ﴿أَوَ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ الفاعل هو الله سبحانه وقد كثرت في القرآن نسبة الأخذ اليه. وقيل: الضمير للعذاب. والتقلّب هو التحول من حال الى حال والمراد به تحوّل المشركين في مقاصدهم وأعمالهم السيئة وانتقالهم من نعمة الى نعمة اخرى من نعم الحياة الدنيا، قال تعالى: ﴿لا يغرّنك تقلّب الذين كفروا في البلاد متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد﴾ (آل عمران / ١٩٧).

فالمراد بأخذهم في تقلبهم أن يأخذهم في عين ما يتقلبون فيه من السيئات مكراً بالله ورسله بالعذاب أو المعنى يعذبهم بنفس ما يتقلبون فيه فيعود النعمة نقمة، وهذا أنسب بالنظر الى قوله: «فما هم بمعجزين».

وقوله: ﴿فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ في مقام التعليل لأخذهم في تقلبهم ومكرهم السيئات أي لأنهم ليسوا بمعجزين لله فيما أراد بالتغلب عليه أو بالفرار من حكمه، والمعنى ظاهر.

قوله تعالى: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ﴾ التخوف تمكن الخوف من النفس واستقراره فيها فالأخذ على تخوف هو العذاب مبنياً على المخافة بأن يشعروا بالعذاب فيتقوه ويحذروه بما استطاعوا من توبة وندامة ونحوهما فيكون الأخذ على تخوف مقابلاً لإتيان العذاب من حيث لا يشعرون.

وقوله: ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ﴾ في مقام التعليل أي يأخذهم على تخوف ويتنزّل في عذابهم الى هذا النوع من العذاب الذي هو أهون الأنواع المعدودة لأنه رؤف رحيم، وفي التعبير بقوله: «ربكم» إشارة الى ذلك، وكونه في مقام التعليل بالنسبة الى الوجهين الأولين ظاهر، وأما بالنسبة الى الثالث فلأن الأخذ بالنقص لا يخلو من مهلة وفرصة يتنبه فيها من تنبه فيأخذ بالحذر بتوبة أو غيرها.

والكلام في تعداد أنواع العذاب المذكورة ليس مسوقاً للحصر كما نبّه به بعضهم بل إحصاء لأنواع منه.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلَـٰلُهُ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ﴾ المراد بالرؤية الرؤية البصرية والنظر الحسي الى الأشياء الجسمانية لأن المطلوب إلفات النظر الى الأجسام فوات الأظلال.

والتفيؤ من الفيء وهو الظل راجعاً، ولذا قيل: إن الظل هو ما في أول النهار الى زوال الشمس والفيء هو ما يكون بعد زوال الشمس الى آخر النهار، والظاهر أن الظل أعمّ من الفيء كما تقدم وتؤيده الآية. فالتفيّؤ رجوع الظل بعد زواله.

والشمائل جمع شمأل وهو خلاف اليمين، وجمعه باعتبار أخذ كل سمت مفروض خلف الشيء وعن يساره جهة شمال على حدة فهي شمائل تقابل اليمين كما أن عدّ كل شيء ذا أظلال بهذه العناية أخذاً للظل بالنسبة الى كل جهة من اليمين والشمائل ظلاً غيره بالنسبة الى جهة اخرى لا لأن الشيء المذكور جمع بحسب المعنى وإن كان مفرداً بحسب اللفظ. والدخور هو الخضوع والصغار.

فمعنى الآية ـ والله أعلم ـ «أو لم يروا» هؤلاء المشركون المنكرون لتوحيد الربوبية ولدعوة النبوة أو لم ينظروا «الى ما خلق الله من شيء» من هذه الأجسام القائمة على بسيط الأرض من جبل أو بناء أو شجر أو أي جسم منتصب «يتفيؤ» ويرجع ويدور ﴿ظِلَـٰلُهُ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ﴾ واقعة على الأرض تذللاً وتعبّداً له سبحانه «وهم داخرون» خاضعون صاغرون.

وقد تقدم الكلام في معنى سجدة الظلال ذيل قوله تعالى: ﴿وظلالهم بالغدوّ والآصال﴾ (الرعد / ١٥)، في الجزء الحادي عشر من الكتاب.

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ الى آخر الآيتين: ذكرت الآية السابقة سجود الظلال وهو معنى مشهود فيها يمثل معنى السجود لله، وتذكر هذه الآية سجود ما في السماوات والأرض من دابة ـ والدابة ما

يدبّ ويتحرك بالانتقال من مكان الى مكان ـ بحقيقة السجود التي هي نهاية التذلل والتواضع قبال العظمة والكبرياء فإن صورة السجدة التي هي خرور الإنسان ووقوعه على وجهه على الأرض إنما تعدّ عبادة إذا أُريد بها تمثيل هذا المعنى فحقيقة السجدة هي التذلل المذكور.

ويدخل في عموم الدابة الإنسان وكذا الجن لأنه سبحانه يصفهم في كلامه بما يفيد أن لهم دبيباً كما لسائر الدواب من الإنسان والحيوان، ولم يدخل سبحانه الملائكة في عموم الدابة وأفردهم بالذكر، وفي ذلك من التلويح الى ما نسب اليهم في كلامه تعالى من النزول والصعود والذهاب والمجيء مما ظاهره النقلة والحركة المكانية ليس من نوع ما للدواب من الدبيب والانتقال المكاني ما لا يخفى.

فقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ﴾ أي له يخضع وينقاد خضوعاً وانقياداً ذاتياً هي حقيقة السجود فمن حقه تعالى أن يُعبَد ويُسجَد له.

وفي الآية دلالة على أن في غير الأرض من السماوات شيئاً من الدواب يسكنها ويعيش فيها.

وقوله: ﴿وَٱلْمَلاٰئِكَةُ وَهُمْ لاٰ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ الإستكبار والتكبر من الإنسان أن يعدّ نفسه كبيراً ويضعه موضع الكبر وليس به ولذلك يعدّ في الرذائل لكن التكبر ربما يطلق على ما لله سبحانه من الكبرياء بالحق وهو الكبير المتعال فهو تعالى كبير متكبر وليس يقال: مستكبر ولعل ذلك كذلك اعتباراً باللفظ فإن الاستكبار بحسب أصل هيئته طلب الكبر ولازمه أن لا يكون ذلك حاصلاً للطالب من نفسه وإنما يطلب الكبر والعلوّ على غيره دعوى فكان مذموماً، وأما التكبر فهو الظهور بالكبرياء سواء كانت له في نفسه كما لله سبحانه وهو التكبر الحق أو لم يكن له إلّا دعوى وغروراً كما في غيره.

فتبين بذلك أن الاستكبار مذموم دائماً أما استكبار المخلوق على مخلوق آخر فلأن الفقر

والحاجة قد استوعبها جميعاً وشيء منها لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ولا لغيره فاستكبار أحدهما على الآخر خروج منه عن حدّه وتجاوز عن طوره وظلم وطغيان.

وأما قوله: ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ فإشارة الى عدم استكبارهم في مقام الفعل وقد تقدم أنه إذا لم يستكبر عليه تعالى في ذات لم يستكبر عليه في فعل فهم لا يعصون الله سبحانه في أمر بل يفعلون ما يؤمرون، وفي إتيان قوله: «يؤمرون» مبنياً للمجهول من التعظيم والتفخيم لمقامه سبحانه ما لا يخفى.

فتبين أن الملائكة نوع من خلق الله تعالى لا تأخذهم غفلة عن مقام ربهم ولا يطرأ عليهم ذهول ولا سهو ولا نسيان عن ذلك ولا يشغلهم عنه شاغل، وهم لا يريدون إلّا ما يريده الله سبحانه.

وإنما خص سبحانه الملائكة من بين الساجدين المذكورين في الآية بذكر شأنهم وتعريف أوصافهم وتفصيل عبوديتهم لأن أكثر آلهة الوثنيين من الملائكة كإله السماء وإله الأرض وإله الرزق وإله الجمال وغيرهم، وللدلالة على أنهم ـ بالرغم من زعم الوثنيين ـ أمعن خلق الله تعالى في عبودتيه وعبادته.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ الرهبة الخوف وتقابل الرغبة كما ان الخوف يقابل به الرجاء.

والكلام معطوف على قوله: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ﴾ وقيل: معطوف على قوله: «وانزلنا إليك الذكر» وقيل: على قوله: «ما خلق الله» على طريقة قوله: (علفتها تبناً وماء بارداً) اي سقيتها ماء بارداً، والتقدير في الآية أولم يروا الى ما خلق الله من شيء وألم يسمعوا الى ما قال الله: «لا تتخذوا» الخ؟ والأول هو الوجه.

وقوله: ﴿لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ اريد به ـ والله اعلم ـ النهي عن التعدّي عن الإله الواحد باتخاذ غيره معه فيشمل الاثنين وما فوقه من العدد، ويؤيده تأكيده بقوله: ﴿إِنَّمَا

﴿هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ و﴿ٱثْنَيْنِ﴾ و﴿إِلَٰهَيْنِ﴾ كما أن ﴿وَاحِدٌ﴾ صفة ﴿إِلَٰهٌ﴾ جيء بهما للإيضاح والتبيين.

والظاهر أن الأمر بالرهبة كناية عن الأمر بالعبادة وإنما اختصت الرهبة بالذكر ليوافق ما تقدم في حديث سجدة الكل التي هي الأصل في تشريع العبادة من خوف الملائكة، وعلى هذا فالظاهر أن المراد بالرهبة ما هي رهبة إجلال ومهابة لا ما هي رهبة مؤاخذة وعذاب، فافهم ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَلَهُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ﴾ قال في المفردات: الوصب السقم اللازم وقد وصب فلان فهو وصب وأوصبه كذا فهو يتوصب نحو يتوجع، قال تعالى: «ولهم عذاب واصب» «وله الدين واصباً» فتوعّدٌ لمن اتخذ إلهين وتنبيهٌ أن جزاء من فعل ذلك عذاب لازم شديد.

ويكون الدين ههنا الطاعة، ومعنى الواصب الدائم أي حق الإنسان أن يطيعه دائماً في جميع أحواله كما وصف به الملائكة حيث قال: «لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون» ويقال: وصب وصوباً دام، ووصب الدين وجب، ومفازة واصبة بعيدة لا غاية لها. انتهى.

والآية وما بعدها تحتج على وحدانيته تعالى في الالوهية بمعنى المعبودية بالحق وأن الدين له وحده ليس لأحد أن يشرّع من ذلك شيئاً ولا أن يطاع فيما شرّع فالآية وما بعدها في مقام التعليل لقوله: «وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين» الى آخر الآية؛ واحتجاج على مضمونها وعود بعد عود الى ما تقدم بيانه من التوحيد والنبوة الذين ينكرهما المشركون.

فقوله: ﴿وَلَهُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ احتجاج على توحّده تعالى في الربوبية فإن ما في السماوات والأرض من شيء فهو مملوك له بحقيقة معنى الملك إذ ما في العالم المشهود من شيء فهو بما له من الصفات والأفعال، قائم به تعالى موجود بإيجاده وظاهر بإظهاره لا يسعه أن ينقطع منه ولا لحظة فالأشياء قائمة به قيام الملك بمالكه مملوكة له ملكاً

حقيقياً لا يقبل تغييراً ولا انتقالاً كما هو خاصة الملك الحقيقي كملك الإنسان لسمعه وبصره مثلاً.

وإذا كان كذلك كان هو تعالى المدبر لأمر العالم إذ لا معنى لكون العالم مملوكاً له بهذا الملك ثم يستقل غيره بتدبير أمره والتصرف فيه وينعزل هو تعالى عما خلقه وملكه، وإذا كان هو المدبر لأمره كان هو الرب له إذ الرب هو المالك المدبر، وإذا كان هو الرب كان هو الذي يجب أن يتق ويخضع له بالعبادة.

وقوله: ﴿وَلَهُ الدِّينُ وَاصِباً﴾ أي دائماً لازماً، وذلك أنه لما كان تعالى هو الرب الذي يملك الأشياء ويدبر أمرها ومن واجب التدبير أن يستن العالم الإنساني بسنّة يبلغ به الجري عليها غايته ويهديه الى سعادته ـ وهذه السنّة والطريقة هي التي يسميها القرآن ديناً ـ كان من الواجب أن يكون تعالى هو القائم على وضع هذه السنّة وتشريع هذه الطريقة فهو تعالى المالك للدين كما قال: «وله الدين واصباً» وعليه أن يشرّع ما يصلح به التدبير كما قال فيما مرّ: «وعلى الله قصد السبيل» الآية.

وقوله: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ﴾ استفهام إنكاري ـ متفرع على الجملتين جميعاً ـ على الظاهر، والمعنى: وإذا كان كذلك فهل غيره تعالى تتقون وتعبدون؟ وليس يملك شيئاً ولا يدبر أمراً حتى يعبد، وليس من حقه أن يشرّع ديناً فيطاع فيما وضعه وشرّعه.

قوله تعالى: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْئَرُونَ﴾ بيان آخر لوحدانيته تعالى في الربوبية يفرّع سبحانه عليه ذمّهم وتوبيخهم على شركهم بالله وعلى تشريعهم اموراً من عند أنفسهم من غير إذن منه ورضى ويجري الكلام في هذا المجرى الى تمام بعض آيات.

والمراد بالضر سوء الحال من جهة فقدان النعمة التي تصلح بها الحال، والجؤار بضم الجيم صوت الوحوش استعير لرفع الصوت بالدعاء والتضرع والاستغاثة تشبيهاً له به.

وقوله: ﴿ وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ الكلام مسوق للعموم وليس مجرد دعوى غير مستدل فقد بيّن ذلك في الآيات السابقة. على أن السامعين يسلّمون ذلك ويقولون به ويدلّ عليه جؤارهم واستغاثتهم اليه عند مسيس الضر بفقدان نعمة من النعم.

فالمعنى: أن جميع النعم التي عندكم من إنعامه تعالى عليكم وأنتم تعلمون ذلك ثم إذا حلَّ بكم شيء من الضر وسوء حال يسير رفعتم أصواتكم بالتضرع وجأرتم اليه لا الى غيره ولو كان لغيره صنيعة عندكم لتوجّهتم اليه فهو سبحانه منعم النعمة وكاشف الضر فما بالكم لا تخصّونه بالعبادة ولا تطيعونه.

قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾ شروع في ذمّهم وتوبيخهم وينتهي الى إيعادهم وحق لهم ذلك لأن الذي يستدعيه كشف الضر عن استغاثتهم ورجوعهم الفطري الى ربهم أن يوحدوه بالربوبية بعدما انكشفت لهم الحقيقة باندفاع البليّة ونزول الرحمة لكن فريقاً منهم تفاجئهم الشقوة فيعودون الى التعلق بالأسباب فينتبه عندئذ الراقد من رذائل ملكاتهم فيثير لهم الأهواء ويشركون بربهم غيره، ومنه الأسباب التي يتعلقون بها، ومعنى الآية ظاهر.

قوله تعالى: ﴿ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ اللام للغاية أي إنهم إنما يشركون بربهم ليكفروا بما أعطيناهم من النعمة بكشف الضر عنهم ولا يشكروه.

وجعل الكفر بالنعمة غاية للشرك إنما هو بدعوى أنهم لا غاية لهم في مسير حياتهم إلّا الكفر بنعمة الله وعدم شكره على ما أولى فإن اشتغالهم بالحس والمادة أورثهم في قلوبهم ملكة التعلق بالأسباب الظاهرة وإسناد النعم الإلهية اليها وضربهم إياها حجاباً ثخيناً على عرفان الفطرة فأنساهم ذلك توحيد ربهم في ربوبيته فصاروا يذكرون عند كل نعمة أسبابها الظاهرة دون الله، ويتعلقون بها ويخشون انقطاعها ويخضعون لها دون الله فكأنهم بل إنهم لا غاية لهم إلّا كفر نعمة الله وعدم شكرها.

فالكفر بالله سبحانه هو غايتهم العامة في كل شأن أبدوه وكل عمل أتوا به فإذا أشركوا بربهم بعد كشف الضرّ بالخضوع لسائر الأسباب فإنما أشركوا ليكفروا بما آتاهم من النعمة.

ولما كان كفرانهم هذا ـ وهو كفر دائم يصرّون عليه واستكبار على الله، وقد قال تعالى: ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد﴾ (إبراهيم / ٧) أثار ذكر ذلك الغضب الإلهي فعدل عن خطاب النبي ﷺ وهم على نعت الغيبة الى خطابهم وإيعادهم من غير توسيط فقال: «فتمتعوا فسوف تعلمون».

ولم يذكر ما يتمتعون به ليفيد بالإطلاق أن كل ما تمتعوا به سيؤاخذون عليه ولا ينفعهم شيء منه، ولم يذكر ما يعلمونه ـ وهو لا محالة أمر يسوؤهم ـ ليكونوا على جهل منه حتى يحل بهم مفاجأة ويبدو لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون وفيه تشديد للإيعاد.

قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لاَ يَعْلَمُونَ نَصِيباً مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ ذكروا أنه معطوف على سائر جناياتهم التي دلّت عليها الآيات السابقة والتقدير أنهم يفعلون ما قصصناه من جناياتهم ويجعلون لما لا يعلمون نصيباً، والظاهر أن «ما» في «لما لا يعلمون» موصولة والمراد به آلهتهم وضمير الجمع يعود الى المشركين ومفعول «لا يعلمون» محذوف والمعنى ويجعل المشركون لآلهتهم التي لا يعلمون من حالها أنها تضر وتنفع نصيباً مما رزقناهم.

والمراد من هذا الجعل ما ذكره سبحانه في سورة الأنعام بقوله: ﴿وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ساء ما يحكمون﴾ (الأنعام / ١٣٦). هذا ما ذكروه ولا يخلو عن تكلف.

ويمكن أن يكون معطوفاً على ما مرّ من قوله: «يشركون» والتقدير إذا فريق منكم بربهم يشركون ويجعلون لما لا يعلمون نصيباً مما رزقناهم. والمراد بما لا يعلمون الأسباب الظاهرة

التي ينسبون اليها الآثار على سبيل الاستقلال وهم جاهلون بحقيقة حالها ولا علم لهم جازماً أنها تضر وتنفع مع ما يرون من تخلفها عن التأثير أحياناً.

وإنما نسب اليهم أنهم يجعلون لها نصيباً من رزقهم مع أنهم يسندون الرزق اليها بالاستقلال من غير أن يذكروا الله معها ومقتضاه نفي التأثير عنه تعالى رأساً لا إشراكه معها لأن لهم علماً فطرياً بأن الله سبحانه له تأثير في الأمر وقد ذكر عنهم آنفاً أنهم يجأرون اليه عند مس الضر وإذا اعتبر اعترافهم هذا مع إسنادهم التأثير الى الأسباب أنتج ذلك أن الأسباب عندهم شركاء لله في الرزق ولها نصيب فيه ثم أوعدهم بقوله: «تالله لتسألن عما كنتم تفترون».

قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَاتِ سُبْحانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ عتاب آخر لهم في حكم حكموا به جهلاً من غير علم فاحترموا لأنفسهم وأساؤا الأدب مجترئين على الله سبحانه حيث اختاروا لأنفسهم البنين وكرهوا البنات لكنهم نسبوها الى الله سبحانه.

فقوله: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَاتِ سُبْحانَهُ﴾ هو أخذهم الآلهة دون الله أو بعض الآلهة إناثاً، وقولهم: إنهن بنات الله. وقد قيل: إن خزاعة وكنانة كانوا يقولون: إن الملائكة بنات الله.

وكانت الوثنية البرهميه والبوذية والصابئة يثبتون آلهة كثيرة من الملائكة والجن إناثاً وهنّ بنات الله. وفي القرآن الكريم: ﴿وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمان إناثاً﴾ (الزخرف / ١٩)، وقال تعالى: ﴿وجعلوا بينه وبين الجنّة نسباً﴾ (الصافات / ١٥٨).

وقوله: ﴿وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ ظاهر السياق أنه معطوف على «لله البنات» والتقدير ويجعلون لهم ما يشتهون، أي يثبتون لله سبحانه البنات باعتقاد أن الملائكة بناته ويثبتون لأنفسهم ما يشتهون وهم البنون بقتل البنات ووأدها والمحصّل أنهم يرضون لله بما لا يرضون به لأنفسهم.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ اسوداد الوجه كناية عن الغضب، والكظيم هو الذي يتجرع الغيظ، والجملة حالية أي ينسبون الى ربهم البنات والحال أنهم إذا بشّر أحدهم بالانثى فقيل: ولدت لك بنت اسود وجهه من الغيظ وهو يتجرع غيظه.

قوله تعالى: ﴿يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ﴾ الى آخر الآية: التواري الاستخفاء والتخفي وهو مأخوذ من الوراء، والهون الذلة والخزي، والدس الإخفاء.

والمعنى: يستخفي هذا المبشر بالبنت من القوم من سوء ما بشر به على عقيدته ويتفكر في أمره: أيمسك ما بشر به وهي البنت على ذلة من إمساكه وحفظه أم يخفيه في التراب كما كان ذلك عادتهم في المواليد من البنات كما قيل: إن أحدهم كان يحفر حفيرة صغيرة فإذا كان المولود أُنثى جعلها في الحفيرة وحثا عليها التراب حتى تموت تحته، وكانوا يفعلون ذلك مخافة الفقر عليهن فيطمع غير الأكفاء فيهن.

وأول ما بدا لهم ذلك أن بني تميم غزوا كسرى فهزمهم وسبى نساءهم وذراريهم فأدخلهن دار الملك واتخذ البنات جواري وسرايا ثم اصطلحوا بعد برهة واستردّوا السبايا فخيّرن في الرجوع الى أهلهن فامتنعت عدّة من البنات فأغضب ذلك رجال بني تميم فعزموا لا تولد لهم أُنثى إلّا وأدوها ودفنوها حيّة ثم تبعهم في ذلك بعض من دونهم فشاع بينهم وأد البنات.

وقوله: ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ هو حكمهم أن له البنات ولهم البنون لا لهوان البنات وكرامة البنين في نفس الأمر بل معنى هذا الحكم عندهم أن يكون لله ما يكرهون ولهم ما يحبون، وقيل: المراد بالحكم حكمهم بوجوب وأد البنات وكون إمساكهن هوناً، وأول الوجهين أوفق وأنسب للآية التالية.

قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ المثل هو الصفة ومنه سمّي المثل السائر مثلاً لأنه صفة تسير في

الألسن وتجري في كل موضع تناسبه وتشابهه.

والسوء ـ بالفتح والسكون ـ مصدر ساء يسوء كما أن السوء بالضم اسمه وإضافة المثل الى السوء تفيد التنويع فإن الأشياء إنما توصف إما من جهة حسنها وإما من جهة سوئها وقبحها فالمثل مثلان: مثل الحسن ومثل السوء.

والحسن والقبح ربما كانا من جهة الخلقة لا صنع للإنسان ولا مدخل لاختياره فيهما كحسن الوجه ودمامة الخلقة، وربما لحقا من جهة الأعمال الاختيارية كحسن العدل وقبح الظلم، وإنما يحمد ويذمّ العقل ما كان من القسم الثاني دون القسم الأول فيدور الحمد والذم بحسب الحقيقة مدار العمل بما تستحسنه وتأمر به الفطرة الإنسانية من الأعمال التي توصله الى ما فيه سعادة حياته وترك العمل بها وهو الذي يتضمنه الدين الحق من أحكام الفطرة.

ومن المعلوم أن الطبع الإنساني لا رادع له عن اقتراف العمل السيىء إلّا أليم المؤاخذة وشديد العقاب وإذعانه بإيقاعه وإنجازه، وأما الذم فإنه يتبدل مدحاً إذا شاع الفعل وخرج بذلك عن كونه منكراً غير معروف.

وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ مسوق لإفادة الحصر وتعليل ما تقدمه أي وهو الذي له كل العزة فلا تعتريه ذلة أصلاً لأن كل ذلة فهو فقد عزة ما وليس يفقد عزة ما، وله كل الحكمة فلا يعرضه جهالة لأنها فقد حكمة ما ليس يفقد شيئاً من الحكمة.

وإذ لا سبيل لذلة ولا جهالة اليه فلا يتصف بشيء من صفات النقص، ولا ينعت بشيء من نعت الذمّ وأمثال السوء، لكن الكافر ذليل في ذاته جهول في نفسه فتلحقه وتلازمه صفات النقص ويتصف بصفات الذم وأمثال السوء فللذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء.

والمؤمن وإن كان ذليلاً في ذاته جهولاً في نفسه كالكافر إلّا أنه لدخوله في ولاية الله أعزه ربه بعزته وأظهره على الجهالة بتأييده بروح منه، قال تعالى: ﴿والله ولي المؤمنين﴾ (آل عمران / ٦٨)، وقال: ﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين﴾ (المنافقون / ٨)، وقال:

﴿ أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم روح منه ﴾ (المجادلة / ٢٢).

قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ ﴾ الى آخر الآية: ضمير «عليها» عائد الى الأرض لدلالة «الناس» عليها.

ولا يبعد أن يدعى أن السياق يدل على كون المراد بالدابة الإنسان فقط من جهة كونه يدب ويتحرك. والمعنى ولو أخذ الله الناس بظلمهم مستمراً على المؤاخذة ما ترك على الأرض من إنسان يدب ويتحرك. أما جل الناس فإنهم يهلكون بظلمهم وأما الأشذ الأندر وهم الأنبياء والأئمة المعصومون من الظلم فهم لا يوجدون الهلاك آبائهم وامهاتهم من قبل.

والقوم أخذوا الدابة في الآية بإطلاق معناها وهو كل ما يدب على الأرض من إنسان وحيوان فعاد معنى الآية الى أنه لو يؤاخذهم بظلمهم لأهلك البشر وكل حيوان على الأرض فتوجه اليه: أن هذا هو الإنسان يهلك بظلمه فما بال سائر الحيوان يهلك ولا ظلم له أن يهلك بظلم من الإنسان؟

وأوجه ما أُجيب به عنه قول بعضهم بإصلاح منا: إن الله تعالى لو أخذهم بظلمهم بكفر أو معصية لهلك عامة الناس بظلمهم إلّا المعصومين منهم وأما المعصومون على شذوذهم وقلة عددهم فإنهم لا يوجدون لهلاك آبائهم وامهاتهم من قبل. وإذا هلك الناس وبطل النسل هلكت الدواب من سائر الحيوان لأنها مخلوقة لمنافع العباد ومصالحهم كما يشعر به قوله تعالى: ﴿ خلق لكم ما في الأرض جميعاً ﴾ (البقرة / ٢٩).

وقوله: ﴿ وَلَٰكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ استدراك عن مقدر يدل عليه الجملة الشرطية في صدر الآية والتقدير: فلا يعاجل في مؤاخذتهم ولكن يؤخرهم الى أجل مسمى والأجل المسمى بالنسبة الى الفرد من الإنسان موته المحتوم. وبالنسبة الى الامة يوم انقراضها وبالنسبة الى عامة البشر نفخ الصور وقيام الساعة. ولكل منها ذكر في كلامه تعالى قال: ﴿ ومنكم من يتوفى من قبل

ولتبلغوا أجلاً مسمى﴾ (المؤمن / ٦٧)، وقال: ﴿ولكل امة أجل فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾ (الأعراف / ٣٤)، وقال: ﴿ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لقضي بينهم﴾ (الشورى / ١٤).

قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ الى آخر الآية؛ عود الى نسبة المشركين اليه تعالى البنات واختيارهم لأنفسهم البنين وهم يكرهون البنات ويحبون البنين ويستحسنونهم.

فقوله: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ يعني البنات وقوله: «وتصف ألسنتهم الكذب» أي تخبر ألسنتهم الخبر الكاذب وهو «أن لهم الحسنى» أي العاقبة الحسنى من الحياة وهي أن يخلفهم البنون. وقيل: المراد بالحسنى الجنة على تقدير صحة البعث وصدق الأنبياء فيما يخبرون به كما حكاه عنهم في قوله: ﴿ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لي وما أظن الساعة قائمة ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى﴾ (حم السجدة / ٥٠)، وهذا الوجه لا بأس به لولا ذيل الآية بما سيجيء من معناه.

وقوله: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾ أي المقدمون الى عذاب النار يقال فرط وأفرط أي تقدم والإفراط والإسراف في التقدم كما أن التفريط التقصير فيه، والفرط بفتحتين هو الذي يسبق السيّارة لتهيئة المسكن والماء. ويقال: أفرطه أي قدّمه.

ولما كان قولهم كذباً وافتراء إن لله ما يكرهون ولهم الحسنى في معنى دعوى أنهم سبقوا ربهم الى الحسنى وتركوا له ما يكرهون أو عدهم بحقيقة هذا الزعم جزاء لكذبهم وهو أن لهم النار وأنهم مقدمون اليها حقاً وذلك قوله: «لا جرم أن لهم النّار» الخ.

قوله تعالى: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ظاهر السياق أن المراد باليوم يوم نزول الآية والمراد بكون الشيطان ولياً لهم يومئذ اتفاقهم على الضلال في زمان الوحي والمراد

بالعذاب الموعود عذاب يوم القيامة كما هو ظاهر غالب الآيات التي توعد بالعذاب.

والمعنى: تالله لقد أرسلنا رسلنا الى امم من قبلك كاليهود والنصارى والمجوس ممن لم ينقرضوا كعاد وثمود فزين لهم الشيطان أعمالهم فاتبعوه وأعرضوا عن رسلنا فهو وليهم اليوم وهو متفقون على الضلال ولهم يوم القيامة عذاب أليم.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي ٱخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ الخ؛ ضمير لهم للمشركين والمراد بالذي اختلفوا فيه هو الحق من اعتقاد وعمل فيكون المراد بالتبين الإيضاح والكشف لإتمام الحجة. والدليل على هذا الذي ذكرنا تفريق أمر المؤمنين منهم وإفرادهم بالذكر في قوله: «وهدى ورحمة لقوم يؤمنون».

والمعنى: هذا حال الناس في الاختلاف في المعارف الحقة والأحكام الإلهية وما أنزلنا عليك الكتاب إلّا لتكشف لهؤلاء المختلفين الحق الذي اختلف فيه فيتم لهم الحجة، وليكون هدى ورحمة لقوم يؤمنون يهديهم الله به الى الحق ويرحمهم بالايمان به والعمل.

٦٥ • وَٱللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ.

٦٦ • وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَناً خَالِصاً سَائِغاً لِلشَّارِبِينَ.

٦٧ • وَمِنْ ثَمَرَاتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ.

٦٨ • وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ.

٦٩ ❁ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِنْ
بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذٰلِكَ
لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ.

٧٠ ❁ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّيكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلىٰ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ
لِكَيْ لاٰ يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ.

٧١ ❁ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا
بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ
ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ.

٧٢ ❁ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ
أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ
يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ.

٧٣ ❁ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ مَا لاٰ يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقاً مِنَ السَّمٰوَاتِ
وَٱلْأَرْضِ شَيْئاً وَلاٰ يَسْتَطِيعُونَ.

٧٤ ❁ فَلاٰ تَضْرِبُوا لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاٰ تَعْلَمُونَ.

٧٥ ❁ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلاً عَبْداً مَمْلُوكاً لاٰ يَقْدِرُ عَلىٰ شَيْءٍ وَمَنْ
رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقاً حَسَناً فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرّاً وَجَهْراً هَلْ
يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاٰ يَعْلَمُونَ.

٧٦ ❁ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلاً رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لاٰ يَقْدِرُ عَلىٰ شَيْءٍ
وَهُوَ كَلٌّ عَلىٰ مَوْلٰيهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لاٰ يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي

هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ.

٧٧ ۞ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ الخ: يريد إنبات الأرض بعد ما انقطعت عنه بحلول الشتاء بماء السماء الذي او المطر فتأخذ أصول النباتات وبذورها في النمو بعد سكونها، وهي حياة من سنخ الحياة الحيوانية وإن كانت أضعف منها، وقد اتضح بالأبحاث الحديثة أن للنبات من جراثيم الحياة ما للحيوان وإن اختلفتا صورة وأثراً.

وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ المراد بالسمع قبول ما من شأنه أن يقبل من القول فإن العاقل الطالب للحق إذا سمع ما يتوقع فيه الحق أصغى واستمع اليه ليعيه ويحفظه، قال تعالى: ﴿الذين يستمعون القول فيتّبعون أحسنه اولئك الذين هداهم الله وأُولئك هم أُولوا الألباب﴾ (الزمر / ١٨).

فإذا ذكّر من فيه قريحة قبول الحق حديث إنزال الله المطر وإحيائه الأرض بعد موتها كان له في ذلك آية للبعث وأن الذي أحياها لمحي الموتى.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً﴾ الخ: الفرث هو الثفل الذي ينزل الى الكرش والامعاء فإذا دفع فهو سرجين وليس فرثاً، والسائغ اسم فاعل من السوغ يقال: ساغ الطعام والشراب إذا جرى في الحلق بسهولة.

وقوله: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً﴾ أي لكم في الإبل والبقر والغنم لأمراً أمكنكم أن تعتبروا به وتتّعظوا ثم بيّن ذلك الأمر بقوله: «نسقيكم مما في بطونه» الخ: أي بطون

ما ذكر من الأنعام أخذ الكثير شيئاً واحداً.

وقوله: ﴿ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ ﴾ الفرث في الكرش وألبان الأنعام مكانها مؤخر البطن بين الرجلين، والدم مجراها الشرايين والأوردة وهي محيطة بهما جميعاً فأخذ اللبن شيئاً هو بين الفرث والدم كأنه باعتبار مجاورته لكل منهما واجتماع الجميع في داخل الحيوان وهذا كما يقال: اخترت زيداً من بين القوم ودعوته وأخرجته من بينهم إذا اجتمع معهم في مكان واحد وجاورهم فيه وإن كان جالساً في حاشية القوم لا وسطهم، والمراد بذلك أني ميّزته من بينهم وقد كان غير متميز.

والمعنى: نسقيكم مما في بطونه لبناً خارجاً من بين فرث ودم خالصاً غير مختلط ولا مشوب بهما ولا مستصحب لشيء من طعمهما ورائحتهما سائغاً للشاربين فذلك عبرة لمن اعتبر وذريعة الى العلم بكمال القدرة ونفوذ الإرادة، وأن الذي خلّص اللبن من بين فرث ودم لقادر على أن يبعث الإنسان ويحييه بعد ما صار عظاماً رميماً وضلّت في الأرض أجزاؤه.

قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً ﴾ الى آخر الآية؛ قال في المفردات: السكر ـ بضم السين ـ حالة تعرض بين المرء وعقله ـ الى أن قال ـ والسكر ـ بفتحتين ـ ما يكون منه السكر، قال تعالى: « تتخذون منه سكراً ورزقاً حسناً » انتهى.

وقال في المجمع: السكر في اللغة على أربعة أوجه: الأول ما أسكر من الشراب، والثاني ما طعم من الطعام، قال الشاعر: « جعلت عيب الأكرمين سكراً » أي جعلت ذمّهم طعماً لك، والثالث السكون ومنه ليلة ساكرة أي ساكنة، قال الشاعر: « وليست بطلق ولا ساكرة » ويقال: سكرت الريح سكنت، قال: « وجعلت عين الحرور تسكر »، والرابع المصدر من قولك: سكر سكراً ومنه التسكير التحيير في قوله: « سكّرت أبصارنا » انتهى. والظاهر أن الأصل في معناه هو زوال العقل باستعمال ما يوجب ذلك، وسائر ما ذكره من المعاني مأخوذة

منه بنوع من الاستعارة والتوسّع.

وقوله: ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ﴾ إما جملة اسميّة معطوفة على قوله: «والله أنزل من السماء ماء» كقوله في الآية السابقة: «وإن لكم في الأنعام لعبرة»، والتقدير: ومن ثمرات النخيل والأعناب ـ أو[1] شيء ـ تتخذون منه، الخ؛ قالوا: والعرب ربما يضمر ما الموصولة كثيراً، ومنه قوله تعالى: ﴿وإذا رأيت ثم رأيت نعيماً وملكاً كبيراً﴾ (الدهر / ٢٠)، والتقدير رأيت ما ثمّ، أو التقدير ومن ثمرات النخيل والأعناب شيء تتخذونه منه، بناء على عدم جواز حذف الموصول وإبقاء الصلة على ما ذهب اليه البصريون من النحاة.

وإمّا جملة فعلية معطوفة على قوله: «أنزل من السماء» كما في الآية التالية «وأوحى ربك» والتقدير خلق لكم أو آتاكم من ثمرات النخيل والأعناب، وقوله: «تتخذون منه» الخ؛ بدل منه أو استئناف كأن قائلاً يقول: ماذا نستفيد منه فقيل: تتخذون منه سكراً ورزقاً حسناً، وإفراد ضمير «منه» بتأويل المذكور كقوله: «مما في بطونه» في الآية السابقة.

وقوله: ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً﴾ أي تتخذون مما ذكر من ثمرات النخيل والأعناب ما هو مسكر كالخمر بأنواعها ورزقاً حسناً كالتمر والزبيب والدبس وغير ذلك مما يقتات به.

ثم ختم سبحانه الآية بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ حثاً على التعقل والإمعان في أمر النبات وثمراته.

قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً﴾ الى آخر الآيتين، الوحي ـ كما قال الراغب ـ الإشارة السريعة وذلك يكون بالكلام على سبيل الرمز أو بصوت مجرّد عن التركيب أو بإشارة ونحوها، والمحصّل من موارد استعماله أنه إلقاء

---

١. الترديد مبني على المذهبين في حذف الموصوف كما سيأتي.

المعنى بنحو يخفى على غير من قصد إفهامه فالإلهام بإلقاء المعنى في فهم الحيوان من طريق الغريزة من الوحي وكذا ورود المعنى في النفس من طريق الرؤيا أو من طريق الوسوسة أو بالاشارة كل ذلك من الوحي، وقد استعمل في كلامه تعالى في كل من هذه المعاني كقوله: «وأوحى ربك الى النحل» الآية. وقوله: ﴿ وأوحينا إلى أُم موسى ﴾ (القصص / ٧)، وقوله: ﴿ إن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ﴾ (الأنعام / ١٢١)، وقوله: ﴿ فأوحى اليهم أن سبّحوا بكرة وعشيّاً ﴾ (مريم / ١١)، ومن الوحي التكليم الإلهي لأنبيائه ورسله، قال تعالى: ﴿ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلّا وحياً ﴾ (الشورى / ٥١)، وقد قرّر الأدب الديني في الإسلام أن لا يطلق الوحي على غير ما عند الأنبياء والرسل من التكليم الالهي.

قال في المجمع: والذلل جمع الذلول، يقال: دابة ذلول بيّن الذل ورجل ذلول بيّن الذل والذلة. انتهى.

وقوله: ﴿ وَأَوْحىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ ﴾ أي ألهمه من طريق غريزته التي أودعها في بنيته، وأمر النحل وهو زنبور العسل في حياته الاجتماعية وسيرته وصنعته لعجيب، ولعل بداعة أمره هو الموجب لصرف الخطاب عنهم الى النبي ﷺ إذ قال: «وأوحى ربك».

وقوله: ﴿ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمّا يَعْرِشُونَ ﴾ هذا من مضمون الوحي الذي أُوحي اليه، والظاهر أن المراد بما يعرشون هو ما يبنون لبيوت العسل.

وقوله: ﴿ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ ﴾ الأمر بأن تأكل من كل الثمرات مع أنها تنزل غالباً على الأزهار إنما هو لأنها إنما تأكل من مواد الثمرات أول ما تتكوّن في بطون الأزهار ولما تكبر وتنضج.

وقوله: ﴿ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً ﴾ تفريعه على الأمر بالأكل يؤيّد أن المراد به رجوعها الى بيوتها لتودع فيها ما هيأته من العسل المأخوذ من الثمرات وإضافة السبل الى الرب للدلالة على أن الجميع بإلهام إلهي.

وقوله: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ﴾ الخ: استئناف بعد ذكر جملة ما أُمرت به يبين فيه ما يترتب على مجاهدتها في امتثال أمر الله سبحانه ذللاً وهو أنه يخرج من بطونها أي بطون النحل «شراب» وهو العسل «مختلف ألوانه» بالبياض والصفرة والحمرة الناصعة وما يميل الى السواد ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾ من غالب الأمراض.

وتفصيل القول في حياة النحلة هذه الحشرة الفطنة التي بنت حياتها على مدنية عجيبة فاضلة لا تكاد تحصى غرائبها ولا يحاط بدقائقها ثم الذي تهيؤه ببالغ مجاهدتها وما يشتمل عليه من الخواص خارج عن وسع هذا الكتاب فليراجع في ذلك مظان تحقيقه.

ثم ختم الآية بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ وقد اختلف التعبير بذلك في هذه الآيات فخصّ الآية في إحياء الأرض بعد موتها بقوم يسمعون، وفي ثمرات النخيل والأعناب بقوم يعقلون، وفي أمر النحل بقوم يتفكرون.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ الخ: الأرذل اسم تفضيل من الرذالة وهي الرداءة، والرذل الدون والرديء، والمراد بأرذل العمر بقرينة قوله: ﴿لِكَيْ لَا يَعْلَمَ﴾ الخ: سن الشيخوخة والهرم التي فيها انحطاط قوى الشعور والإدراك، وهي تختلف باختلاف الأمزجة وتبتدىء على الأغلب من الخمس والسبعين.

والمعنى: والله خلقكم معشر الناس ثم يتوفاكم في متوسط ومنكم من يُردّ الى سن الهرم فينتهي الى أن لا يعلم بعد علم شيئاً لضعف القوى، وهذه آية أن حياتكم وموتكم وكذا شعوركم وعلمكم ليست بأيديكم وإلّا اخترتم البقاء على الوفاة والعلم على عدمه بل ذلك على ما له من عجيب النظام منته الى علمه وقدرته تعالى، ولهذا علمه بقوله: «إن الله عليم قدير».

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ﴾ الى آخر الآية:

فضّل بعض الناس على بعض في ارزق وهو ما تبق به الحياة ربما كان من جهة الكمية كالغني المفضل بالمال الكثير على الفقير، وربما كان من جهة الكيفية كأن يستقل بالتصرف فيه بعضهم ويتولى أمر الآخرين مثل ما يستقل المولى الحر بملك ما في يده والتصرف فيه بخلاف عبده الذي ليس له أن يتصرف في شيء إلّا بإذنه وكذا الأولاد الصغار بالنسبة الى وليهم والأنعام والمواشي بالنسبة الى مالكها.

وقوله: ﴿فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ قرينة على أن المراد هو القسم الثاني من التفضيل وهو أن بعضهم فضّل بالحرية والاستقلال بملك ما رزق وليس يختار أن يردّ ما رزق باستقلاله وحريته الى ما يملكه ويملك رزقه، ولا أن يبذل له ما أُوتيه من نعمة حتى يتساويا ويتشاركا فيبطل ملكه ويذهب سوده.

فهذه نعمة ليسوا بمغمضين عنها ولا برادّين لها على غيرهم. وليست إلّا من الله سبحانه فإن أمر المولوية والرقّية وإن كان من الشئون الاجتماعية التي ظهرت عن آراء الناس والسنن الاجتماعية الجارية في مجتمعاتهم لكن له اصول طبيعية تكوينية هي التي بعثت آراءهم على اعتباره كسائر الامور الاجتماعية العامة.

والمعنى ـ والله أعلم ـ والله فرّق بينكم بأن فضّل بعضكم على بعض في الرزق فبعضكم حرّ مستقل في التصرف فيه. وبعضكم عبد تبع له لا يتصرف إلّا عن إذن فليس الذين فضّلوا برادّي رزقهم الذي رزقوه على سبيل الحرية والاستقلال على ما ملكت أيمانهم حتى يكون هؤلاء المفضلون والمفضل عليهم في الرزق سواء فليسوا سواء بل هي نعمة تختص بالمفضلين أفبنعمة الله يجحدون؟

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ الى آخر الآية: قال في المفردات: قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ جمع حافد وهو المتحرك المسرع بالخدمة أقارب

كانوا أو أجانب. قال المفسرون: هم الأسباط ونحوهم وذلك أن خدمتهم أصدق - الى أن قال - قال الأصمعي: أصل الحفد مداركة الخطو. انتهى.

وفي المجمع: وأصل الحفد الإسراع في العمل - الى أن قال - ومنه قيل للأعوان حفدة لإسراعهم في الطاعة. انتهى. والمراد بالحفدة في الآية الأعوان الخدم من البنين لمكان قوله: «وجعل لكم من أزواجكم» ولذا فسر بعضهم قوله: «بنين وحفدة» بصغار الأولاد وكبارهم، وبعضهم بالبنين والأسباط وهم بنو البنين.

والمعنى: والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً تألفونها وتأنسون بها، وجعل لكم من أزواجكم بالإيلاد بنين وحفدة وأعواناً تستعينون بخدمتهم على حوائجكم وتدفعون بهم عن أنفسكم المكاره ورزقكم من الطيبات وهي ما تستطيبونه من أمتعة الحياة وتنالونه بلا علاج وعمل كالماء والثمرات أو بعلاج وعمل كالأطعمة والملابس ونحوها، و «من» في «من الطيبات» للتبعيض وهو ظاهر.

ثم وبخهم بقوله: ﴿أَفَبِالْبَاطِلِ﴾ وهي الأصنام والأوثان ومن ذلك القول بالبنات لله، والأحكام التي يشرعها لهم أئمتهم أئمة الضلال «يؤمنون وبنعمة الله هم يكفرون» والنعمة هي جعل الازواج من أنفسهم وجعل البنين والحفدة من أزواجهم فإن ذلك من أعظم النعم وأجلاها لكونه أساساً تكوينياً يبتني عليه المجتمع البشري، ويظهر به فيهم حكم التعاون والتعاضد بين الأفراد، وينتظم به لهم أمر تشريك الأعمال والمساعي فيتيسر لهم الظفر بسعادتهم في الدنيا والآخرة.

ولو أن الإنسان قطع هذا الرابط التكويني الذي أنعم الله به عليه وهجر هذا السبب الجميل، وإن توسّل بأي وسيلة غيره لتلاشى جمعه وتشتت شمله وفي ذلك هلاك الإنسانية.

قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقاً مِنَ ٱلسَّمٰوٰاتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْئاً وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ﴾ عطف على موضع الجملة السابقة والمعنى يكفرون

بنعمة الله ويعبدون من دون الله ما لا يملك، الخ.

وقد ذكروا أن ﴿رِزْقاً﴾ مصدر و ﴿شَيْئاً﴾ مفعوله والمعنى لا يملك لهم أن يرزق شيئاً، وقيل: الرزق بمعنى المرزوق و ﴿شَيْئاً﴾ بدل منه، وقيل: إن ﴿شَيْئاً﴾ مفعول مطلق والتقدير: لا يملك شيئاً من الملك. وخير الوجوه أوسطها.

وفي الآية رجوع الى التخلص لبيان الغرض من تعداد النعم وهو التوحيد وإثبات النبوة بمعنى التشريع والمعاد يجري ذلك الى تمام أربع آيات ينهى في اولاها عن ضربهم الأمثال لله سبحانه، ويضرب في الثانية مثل تبين به وحدانيته تعالى في ربوبيّته، وفي الثالثة مثل يتبين به أمر النبوّة والتشريع، ويتعرض في الرابعة لأمر المعاد.

قوله تعالى: ﴿فَلاَ تَضْرِبُوا لِلَّهِ ٱلأَمْثَالَ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ الظاهر السابق الى الذهن أن المراد بضرب الأمثال التوصيف المصطلح عليه بالاستعارة التمثيلية وهي إجراء الأوصاف عليه تعالى بضرب من التشبيه كقولهم: إن له بنات كالإنسان، وإن الملائكة بناته، وإن بينه وبين الجنة نسباً وصهراً، وإنه كيف يحيي العظام وهي رميم الى غير ذلك، وهذا هو المعنى المعهود من هذه الكلمة في كلامه تعالى، وقد تقدم في خلال الآيات السابقة قوله: «للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء ولله المثل الأعلى».

فالمعنى: إذا كان الأمر على ما ذكر فلا تصفوه سبحانه بما تشبّهونه بغيره وتقيسونه الى خلقه لأن الله يعلم وأنتم لا تعلمون حقائق الامور وكنهه تعالى.

قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلاً عَبْداً مَمْلُوكاً لاَ يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ الى آخر الآية: ما في الآية من المثل المضروب يفرض عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء، وآخر رزق من الله رزقاً حسناً ينفق منه سراً وجهراً ثم يسأل هل يستويان؟ واعتبار التقابل بين المفروضين يعطي أن كلاً من الطرفين مقيد بخلاف ما في الآخر من الوصف مع تبيين الأوصاف بعضها لبعض.

فالعبد المفروض مملوك غير مالك لا لنفسه ولا لشيء من متاع الحياة وهو غير قادر على التصرف في شيء من المال. والذي فرض قباله حر يملك نفسه وقد رزقه الله رزقاً حسناً وهو ينفق منه سراً وجهراً وعلى قدرة منه على التصرف بجميع أقسامه.

وقوله: ﴿هَلْ يَسْتَوُونَ﴾ سؤال عن تساويهما. ومن البديهي أن الجواب هو نفي التساوي ويثبت به أن الله سبحانه وهو المالك لكل شيء المنعم بجميع النعم لا يساوي شيئاً من خلقه وهم لا يملكون لا أنفسهم ولا غيرهم ولا يقدرون على شيء من التصرف فمن الباطل قولهم: إن مع الله آلهة غيره وهم من خلقه.

والتعبير بقوله: ﴿يَسْتَوُونَ﴾ دون أن يقال: يستويان للدلالة على أن المراد من ذلك الجنس من غير أن يختص بمولى وعبد معينين كما قيل.

وقوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي له عزَّ اسمه جنس الحمد وحقيقته وهو الثناء على الجميل الاختياري لأن جميل النعمة من عنده ولا يحمد إلّا الجميل فله تعالى كل الحمد كما أن له جنسه فافهم ذلك.

وقوله: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي أكثر المشركين لا يعلمون أن النعمة كلها لله لا يملك غيره شيئاً ولا يقدر على شيء بل يثبتون لأوليائهم شيئاً من الملك والقدرة على سبيل التفويض فيعبدونهم طمعاً وخوفاً. هذا حال أكثرهم وأما أقلهم من الخواص فانهم على علم من الحق لكنهم يحيدون عنه بغياً وعناداً.

قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ﴾ الى آخر الآية: قال في المجمع: الأبكم الذي يولد أخرس لا يفهم ولا يفهّم. وقيل: الأبكم الذي لا يقدر أن يتكلم والكلّ الثقل يقال: كلَّ عن الأمر يكلُّ كلاً إذا ثقل عليه فلم ينبعث فيه.

وكلّت السكين كلولاً إذا غلظت شفرتها. وكلَّ لسانه إذا لم ينبعث في القول لغلظه وذهاب حدّه فالأصل فيه الغلظ المانع من النفوذ. والتوجيه: الإرسال في وجه من الطريق. يقال:

وجّهته الى موضع كذا فتوجّه اليه. انتهى.

فقوله: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلاً رَجُلَيْنِ﴾ مقايسة أُخرى بين رجلين مفروضين متقابلين في أوصافهما المذكورة.

وقوله: ﴿أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لاٰ يَقْدِرُ عَلىٰ شَيْءٍ﴾ أي محروم من أن يفهم الكلام ويفهم غيره بالكلام لكونه أبكم لا يسمع ولا ينطق فهو فاقد لجميع الفعليات والمزايا التي يكتسبها الإنسان من طريق السمع الذي هو أوسع الحواس نطاقاً، به يتمكن الإنسان من العلم بأخبار من مضى وما غاب عن البصر من الحوادث وما في ضمائر الناس ويعلّم العلوم والصناعات، وبه يتمكن من إلقاء ما يدركه من المعاني الجليلة والدقيقة الى غيره، ولا يقوى الأبكم على درك شيء منها إلّا النزر اليسير مما يساعد عليه البصر بإعانة من الإشارة.

فقوله: ﴿لاٰ يَقْدِرُ عَلىٰ شَيْءٍ﴾ مخصص عمومه بالأبكم أي لا يقدر على شيء مما يقدر عليه غير الأبكم وهو جملة ما يحرمه الأبكم من تلقّي المعلومات وإلقائها.

وقوله: ﴿وَهُوَ كَلٌّ عَلىٰ مَوْلِيٰهُ﴾ أي ثقل وعيال على من يلي ويدبر أمره فهو لا يستطيع أن يدبر أمر نفسه. وقوله: «أينما يوجّهه لا يأت بخير» أي الى أي جهة أرسله مولاه لحاجة من حوائج نفسه أو حوائج مولاه لم يقدر على رفعها فهو لا يستطيع أن ينفع غيره كما لا ينفعه نفسه، فهذا أعني قوله: «أحدهما أبكم لا يقدر على شيء» الخ: مثل أحد الرجلين، ولم يذكر سبحانه مثل الآخر لحصول العلم به من قوله: «هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل» الخ؛ وفيه إيجاز لطيف.

وقوله: ﴿هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلىٰ صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ فيه إشارة الى وصف الرجل المفروض وسؤال عن استوائهما إذا قويس بينهما وعدمه.

أما الوصف فقد ذكر له منه آخر ما يمكن أن يتلبس به غير الأبكم من الخير والكمال الذي يحلي نفسه ويعدو الى غيره وهو العدل الذي هو التزام الحد الوسط في الأعمال واجتناب

الإفراط والتفريط فإن الأمر بالعدل إذا جرى على حقيقته كان لازمه أن يتمكن الصلاح من نفس الانسان ثم ينبسط على أعماله فيلتزم الاعتدال في الامور ثم يحب انبساطه على أعمال غيره من الناس فيأمرهم بالعدل وهو ـ كما عرفت ـ مطلق التجنب عن الإفراط والتفريط أي العمل الصالح أعم من العدل في الرعية.

ثم وصفه بقوله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وهو السبيل الواضح الذي يهدي سالكيه الى غايتهم من غير عوج، والانسان الذي هو في مسير حياته على صراط مستقيم يجري في أعماله على الفطرة الانسانية من غير أن يناقض بعض أعماله بعضاً أو يتخلف عن شيء مما يراه حقاً، وبالجملة لا تخلف ولا اختلاف في أعماله.

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ الغيب يقابل الشهادة في إطلاقات القرآن الكريم وقد تكرر فيه «عالم الغيب والشهادة» وقد تقدم مراراً أنهما أمران إضافيان فالأمر الواحد غيب وغائب بالنسبة الى شيء وشهادة ومشهود بالنسبة الى آخر.

وإذ كان من الأشياء ما هو ذو وجوه يظهر ببعض منها لغيره ويخفي ببعض أعني أنه متضمن غيباً وشهادة كانت إضافة الغيب والشهادة الى الشيء تارة بمعنى اللام فيكون مثلاً غيب السماوات والأرض ما هو غائب عنهما خارج من حدودهما، ويلحق بهذا الباب الإضافة لنوع من الاختصاص، كما في قوله: ﴿فلا يظهر على غيبه أحداً﴾ (الجن / ٢٦).

وتارة بمعنى «من» أو ما يقرب منه فيكون المراد بغيب السماوات والأرض الغيب الذي يشتملان عليه نوعاً من الاشتمال قبال ما يشتملان عليه من الشهادة وبعبارة اخرى ما يغيب عن الأفهام من أمرهما قبال ما يظهر منهما.

والساعة هي من غيب السماوات والأرض بهذا المعنى الثاني.

فقوله: ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ أي بالنسبة اليه وإلّا

فقد استعظم سبحانه أمرها بما يهون عنده كل أمر خطير ووصفها بأوصاف لا يعادلها فيها غيرها، قال تعالى: ﴿ثقلت في السماوات والأرض﴾ (الأعراف / ١٨٧).

وتشبيه أمرها بلمح البصر إنما هو من جهة أن اللمحة وهي مدّ البصر وإرساله للرؤية أخف الأعمال عند الإنسان وأقصرها زماناً فهو تشبيه بحسب فهم السامع ولذلك عقّبه بقوله: «أو هو أقرب» فإن مثل هذا السياق يفهم منه الإضراب فكأنه تعالى يقول: إن أمرها في خفة المؤنة والهوان والسهولة بالنسبة الينا يشبه لمح أحدكم ببصره، وإنما أُشبّهه به رعاية لحالكم وتقريباً الى فهمكم وإلّا فالأمر أقرب من ذلك، كما قال فيها: ﴿ويقول كن فيكون﴾ (الأنعام / ٧٣)، فأمر الساعة بالنسبة الى قدرته ومشيّته تعالى كأمر أيسر الخلق وأهونه.

وعلّل تعالى ذلك بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فقدرته على كل شيء توجب أن تكون الأشياء بالنسبة اليه سواء.

وإياك أن تتوهم أن عموم القدرة لا يستوجب ارتفاع الاختلاف من بين الأشياء من حيث النسبة، فقلة الاسباب المتوسطة بين الفاعل وفعله والشرائط والموانع وكثرتها لها تأثير في ذلك لا محالة، فالإنسان مثلاً قادر على التنفس وحمل ما يطيقه من الاثقال وليسا سواء بالنسبة اليه وعلى هذا القياس.

٧٨ ❁ وَاللّٰهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاٰ تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَٱلْأَبْصارَ وَٱلْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ.

٧٩ ❁ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمٰاءِ مٰا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللّٰهُ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ.

٨٠ ❁ وَاللّٰهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَناً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ جُلُودِ

ٱلْأَنعَامِ بُيُوتاً تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ
أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثاً وَمَتَاعاً إِلَىٰ حِينٍ.

٨١ ● وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلالاً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ ٱلْجِبَالِ
أَكْنَاناً وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ
بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ.

٨٢ ● فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلاغُ ٱلْمُبِينُ.

٨٣ ● يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَافِرُونَ.

٨٤ ● وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً ثُمَّ لا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلا
هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ.

٨٥ ● وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا ٱلْعَذَابَ فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلا هُمْ
يُنْظَرُونَ.

٨٦ ● وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هٰؤُلاءِ شُرَكَاؤُنَا
ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ
لَكَاذِبُونَ.

٨٧ ● وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ.

٨٨ ● ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَاباً فَوْقَ
ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ.

٨٩ ● وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ
شَهِيداً عَلَىٰ هٰؤُلاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ

وَهُدىً وَرَحْمَةً وَبُشْرىٰ لِلْمُسْلِمِينَ .

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاٰ تَعْلَمُونَ شَيْئاً﴾ الى آخر الآية. الامهات جمع أم والهاء زائدة نظير إهراق وأصله أراق وقد تأتي أمّات، وقيل: الامهات في الانسان والامات في غيره من الحيوان. والأفئدة جمع قلة للفؤاد وهو القلب واللب، ولم يبن له جمع كثرة.

وقوله: ﴿أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ إشارة الى التولّد و«لا تعلمون شيئاً» حال من ضمير الخطاب أي أخرجكم من أرحامهن بالتولد والحال أن نفوسكم خالية من هذه المعلومات التي أحرزتموها من طريق الحس والخيال والعقل بعد ذلك.

والآية تؤيد ما ذهب اليه علماء النفس أن لوح النفس خالية عن المعلومات أول تكوّنها ثم تنتقش فيها شيئاً فشيئاً ـ كما قيل ـ وهذا في غير علم النفس بذاتها فلا يطلق عليه عرفاً «يعلم شيئاً» والدليل عليه قوله تعالى في خلال الآيات السابقة فيمن يردّ الى أرذل العمر: «لكي لا يعلم من بعد علم شيئاً» فإن من الضروري أنه في تلك الحال عالم بنفسه.

واحتج بعضهم بعموم الآية على أن العلم الحضوري يعني به علم الإنسان بنفسه كسائر العلوم الحصولية مفقود في بادىء الحال حادث بعد ذلك ثم ناقش في أدلة كون علم النفس بذاتها حضورياً مناقشات عجيبة.

وفيه أن العموم منصرف الى العلم الحصولي ويشهد بذلك الآية المتقدمة.

وقوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ إشارة الى مبادي العلم الذي أنعم بها على الإنسان فمبدأ التصوّر هو الحس، والعمدة فيه السمع والبصر وإن كان هناك غيرهما من اللمس والذوق والشم، ومبدأ الفكر هو الفؤاد.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ﴾ الخ: قال في المجمع: الجو الهواء البعيد من الأرض. انتهى. يقول: ألم ينظروا الى الطير حال كونها مسخرات لله سبحانه في جو السماء والهواء البعيد من الأرض، ثم استأنف فقال مشيراً الى ما هو نتيجة هذا النظر: «ما يسمكهن إلا الله».

وإثبات الإمساك لله سبحانه ونفيه عن غيره مع وجود أسباب طبيعية هناك مؤثرة في ذلك وكلامه تعالى يصدّق ناموس العلّية والمعلولية إنما هو من جهة أن توقف الطير في الجو من دون أن تسقط كيفما كان والى أي سبب استند هو وسببه والرابطة التي بينهما جميعاً مستندة الى صنعه تعالى فهو الذي يفيض الوجود عليه وعلى سببه وعلى الرابطة التي بينهما فهو السبب المفيض لوجوده حقيقة وإن كان سببه الطبيعي القريب معه يتوقف هو عليه.

ومعنى توقفه في وجوده على سببه ليس أن سببه يفيد وجوده بعد ما استفاد وجود نفسه منه تعالى بل إن هذا المسبب يتوقف في أخذه الوجود منه تعالى الى أخذ سببه الوجود منه تعالى قبل ذلك، وقد تقدم بعض الكلام في توضيح ذلك من قريب.

وهذا معنى توحيد القرآن، والدليل عليه من جهة لفظه أمثال قوله: ﴿ألا له الخلق والأمر﴾ (الأعراف / ٥٤)، وقوله: ﴿أن القوة لله جميعاً﴾ (البقرة / ١٦٥)، وقوله: ﴿الله خالق كل شيء﴾ (الزمر / ٦٢)، وقوله: ﴿إن الله على كل شيء قدير﴾ (النحل / ٧٧).

والدليل على ما قدمناه في معنى النفي والإثبات في الآية قوله تعالى: «مسخرات» فإن التسخير إنما يتحقق بقهر أحد السببين الآخر في فعله على ما يريده السبب القاهر ففي لفظه دلالة على أن للمقهور نوعاً من السببية.

وليس طيران الطائر في جو السماء بالحقيقة بأعجب من سكون الإنسان في الأرض فالجميع ينتهي الى صنعه تعالى على حد سواء لكن أُلفة الإنسان لبعض الامور وكثرة عهده به توجب خمود قريحة البحث عنه فإذا صادف ما يخالف ما ألفه وكثر عهده به كالمستثنى من

الكلية انتبه لذلك وانتزعت القريحة للبحث عنه والإنسان يرى الأجسام الأرضية الثقيلة معتمدة على الأرض مجذوبة اليها فإذا وجد الطير مثلاً تنقض كلية هذا الحكم بطيرانها تعجب منه وانبسط للبحث عنه والحصول على علته. وللحق نصيب من هذا البحث وهذا هو أحد الأسباب في أخذ هذا النوع من الامور في القرآن مواد للإحتجاج.

وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي في كونها مسخرات في جو السماء فإن للطير وهو في الجو دفيفاً وصفيفاً وبسطاً لأجنحتها وقبضاً وسكوناً وانتقالاً وصعوداً ونزولاً وهي جميعاً آيات لقوم يؤمنون كما ذكره الله.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَناً﴾ الى آخر الآية؛ في المفردات: البيت مأوى الإنسان بالليل لأنه يقال: بات أقام بالليل كما يقال: ظل بالنهار. ثم قد يقال: للمسكن بيت من غير اعتبار الليل فيه. وجمعه أبيات وبيوت لكن البيوت بالمسكن أخص والأبيات بالشعر، قال: ويقع ذلك على المتخذ من حجر ومدر وصوف ووبر. انتهى موضع الحاجة.

والسكن ما يسكن اليه. والظعن الارتحال وهو خلاف الإقامة. والصوف للضأن والوبر للإبل كالشعر للانسان ويسمى ما للمعز شعراً كالإنسان. والأثاث متاع البيت الكثير ولا يقال للواحد منه أثاث. قال في المجمع: ولا واحد للأثاث كما أنه لا واحد للمتاع. انتهى. والمتاع أعم من الأثاث فإنه مطلق ما يتمتع به ولا يختص بما في البيت.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَناً﴾ أي جعل لكم بعض بيوتكم سكناً تسكنون اليه، ومن البيوت ما لا يسكن اليه كالمتخذ لادخار الأموار واختزان الأمتعة وغير ذلك وقوله: «وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً» الخ؛ أي من جلودها بعد الدبغ وهي الأنطاع والأدم «بيوتاً» وهي القباب والخيام «تستخفونها» أي تعدونها خفيفة من جهة الحمل «يوم ظعنكم» وارتحالكم «ويوم إقامتكم» من غير سفر وظعن.

وقوله: ﴿وَمِنْ أَصْوافِها وَأَوْبارِها وَأَشْعارِها﴾ الخ؛ معطوف على موضع «من جلود» أي وجعل لكم «من أصوافها» وهي للضأن و«أوبارها» وهي للابل «وأشعارها» وهي للمعز «أثاثاً» تستعملونه في بيوتكم «ومتاعاً» تتمتعون به «الى حين» محدود، قيل: وفيه إشارة الى أنها فانية داثرة فلا ينبغي للعاقل أن يختارها على نعيم الآخرة.

قوله تعالى: ﴿وَاللّٰهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلالاً﴾ الى آخر الآية؛ الظرفان أعني قوله: «لكم» و«مما خلق» متعلقان بجعل وتعليق الظلال بما خلق لكونها أمراً عدمياً محققاً بتبع غيره وهي مع ذلك من النعم العظيمة التي أنعم الله بها على الإنسان وسائر الحيوان والنبات فما الانتفاع بالظل للانسان وغيره بأقل من الانتفاع بالنور ولولا الظل وهو ظل الليل وظل الأبنية والأشجار والكهوف وغيرها لما عاش على وجه الأرض عائش.

وقوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبالِ أَكْناناً﴾ الكن ما يستتر به الشيء حتى أن القميص كن للابسه، وأكنان الجبال هي الكهوف والثقب الموجودة فيها.

وقوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرابِيلَ تَقِيكُمُ الحَرَّ﴾ أي قمصاً يحفظكم من الحر. قال في المجمع: ولم يقل: وتقيكم البرد لأن ما وقى الحر وقى البرد، وإنما خص الحر بذلك مع أن وقايتها للبرد أكثر لأن الذين خوطبوا بذلك أهل حر في بلادهم فحاجتهم الى ما يقي الحر أكثر. عن عطاء.

قال: على أن العرب يكتفي بذكر أحد الشيئين عن الآخر للعلم به قال الشاعر:

وما أدري إذا يممت أرضاً　　　أُريد الخير أيهما يليني

فكنى عن الشر ولم يذكره لأنه مدلول عليه، ذكره الفراء انتهى.

ولعل بعض الوجه في ذكره الحر والاكتفاء به أن البشر الأولي يسكنون المناطق الحارة من الأرض فكانشدة الحر أمسّ بهم من شدة البرد وتنبههم لاتخاذ السراويل إنما هو للإتقاء مما كان الابتلاء به أقرب اليهم وهو الحر والله أعلم.

وقوله: ﴿وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ﴾ الظاهر أن المراد به درع الحديد ونحوه.

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ امتنان عليهم بإتمام النعم التي ذكرها، وكانت الغاية المرجوة من ذلك إسلامهم لله عن معرفتها فإن المترقب المتوقع ممن يعرف النعم وإتمامها عليه أن يسلم لإرادة منعمه ولا يقابله بالاستكبار لأن منعماً هذا شأنه لا يريد به سوء.

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ قال في المجمع: البلاغ الاسم والتبليغ المصدر مثل الكلام والتكليم، انتهى.

لما فرغ عن ذكر ما أُريد ذكره من النعم والاحتجاج بها ختمها بما مدلوها العتاب واللوم والوعيد على الكفر ويتضمن ذكر وحدانيته تعالى في الربوبية والمعاد والنبوة، وبدء ذلك ببيان وظيفة النبي ﷺ في رسالته وهو البلاغ فقال: «فإن تولوا» أي يتفرع على هذا البيان الذي ليس فيه إلا دعوتهم الى ما فيه صلاح معاشهم ومعادهم من غير أن يتبعه إجبار أو إكراه أنهم إن تولوا وأعرضوا عن الإصغاء اليه والإهتداء به «فإنما عليك البلاغ المبين» والتبليغ الواضح الذي لا إهام فيه ولا ستر عليه لأنك رسول وما على الرسول إلا ذلك.

وفي الآية تسلية للنبي ﷺ وبيان وظيفة له.

قوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ المعرفة والإنكار متقابلان كالعلم والجهل وهذا هو الدليل على أن المراد بالإنكار وهو عدم المعرفة لازم معناه وهو الإنكار في مقام العمل وهو عدم الايمان بالله ورسوله واليوم الآخر أو الجحود لساناً مع معرفتها قلباً، لكن قوله: «وأكثرهم الكافرون» يخص الجحود بأكثرهم كما سيجيء فيبقى للإنكار المعنى الأول.

وقوله: ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ دخول اللام على «الكافرون» يدل على الكمال أي إنهم كافرون بالنعم الالهية أو بما تدل عليه من التوحيد وغيره جميعاً لكن أكثرهم كاملون في

كفرهم وذلك بالجحود عناداً والإصرار عليه والصدّ عن سبيل الله.

والمعنى: يعرفون نعمة الله بعنوان أنها نعمة منه ومقتضاه أن يؤمنوا به وبرسوله واليوم الآخر ويسلموا في العمل إذا وردوا مورد العمل عملوا بما هو من آثار الإنكار دون المعرفة، وأكثرهم لا يكتفون بمجرد الإنكار العملي بل يزيدون عليه بكمال الكفر والعناد مع الحق والجحود والإصرار عليه.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً ثُمَّ لاٰ يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلاٰ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ قال في المجمع: قال الزجّاج: والعتب الموجدة يقال: عتب عليه يعتب إذا وجد عليه فإذا فاوضه ما عتب عليه قالوا: عاتبه، وإذا رجع الى مسرّته قيل: أعتب، والاسم العتبى وهو رجوع المعتوب عليه الى ما يرضي العتاب، واستعتبه طلب منه أن يعتب. انتهى.

وقوله: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً﴾ يفيد السياق أن المراد بهذا اليوم القيامة، وبهؤلاء الشهداء الذين يبعث كل واحد منهم من أمة. شهداء الأعمال الذين تحمّلوا حقائق أعمال أُمتهم في الدنيا وهم يستشهد بهم ويشهدون عليهم يوم القيامة، وقد تقدم بعض الكلام في معنى هذه الشهادة في تفسير قوله: ﴿لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾ (البقرة / ١٤٣) في الجزء الأول من الكتاب.

ولا دلالة في لفظ الآية على أن المراد بشهيد الامة نبيّها. ولا أن المراد بالامة أُمة الرسول فمن الجائز أن يكون غير النبي من أُمته كالإمام شهيداً كما يدلّ عليه آية البقرة السابقة وقوله تعالى: ﴿وجيء بالنبيين والشهداء﴾ (الزمر / ٦٩)، وعلى هذا فالمراد بكل أمة أُمة الشهيد المبعوث وأهل زمانه.

وقوله: ﴿ثُمَّ لاٰ يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلاٰ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ ذكر بعث شهداء الامم دليل على أنهم يشهدون على أُممهم بما عملوا في الدنيا، وقرينة على أن المراد من نفي الإذن للكافرين أنهم لا يؤذن لهم في الكلام وهو الاعتذار لا محالة، ونفي الإذن في الكلام إنما هو تمهيد

لأداء الشهود شهادتهم كما تلوّح اليه آيات أُخر كقوله: ﴿اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم﴾ (يس / ٦٥)، وقوله: ﴿هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون﴾ (المرسلات / ٣٦).

على أن سياق قوله: «ثم لا يؤذن» الخ؛ يفيد أن المراد بهذا الذي ذكر نفي ما يتقي به الشر يومئذ من الحيل وبيان أنه لا سبيل الى تدارك ما فات منهم وإصلاح ما فسد من أعمالهم في الدنيا يومئذ وهو أحد أمرين: الاعتذار أو استئناف العمل. أما الثاني فيتكفله قوله: «ولا هم يستعتبون» ولا يبقى للأول وهو الاعتذار بالكلام إلا قوله: «ثم لا يؤذن للذين كفروا».

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ كانت الآية السابقة بالحقيقة مسوقة لبيان الفرق بين يوم الجزاء الذي هو يوم القيامة وبين سائر ظروف الجزاء في الدنيا بأن جزاء يوم القيامة لا يرتفع ولا يتغير باعتذار ولا باستعتاب، وهذه الآية بيان فرق عذاب اليوم مع العذابات الدنيوية التي تتعلق بالظالمين في الدنيا فإنها تقبل بوجه التخفيف أو الإنظار بتأخير مّا وعذاب يوم القيامة لا يقبل تخفيفاً ولا إنظاراً.

فقوله: ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا ٱلْعَذَابَ﴾ ذكر الظلم في الصلة دون الكفر ونحوه للدلالة على سبب الحكم وملاكه، والمراد برؤية العذاب إشرافه عليهم وإشرافهم عليه بعد فصل القضاء كما يفيده السياق. والمراد بالعذاب عذاب يوم القيامة وهو عذاب النار.

والمعنى ـ والله أعلم ـ وإذا قضي الأمر بعذابهم وأشرفوا على العذاب بمشاهدة النار فلا مخلص لهم عنه بتخفيف أو بإنظار وإمهال.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ﴾ الى آخر الآية: مضيّ في حديث يوم البعث، وقوله: «وإذا رأى الذين أشركوا» وهم في عرف القرآن عبدة الأصنام

والأوثان قرينة على أن المراد بقوله: «شركاءهم» الذين أشركوهم بالله زعماً منهم أنهم شركاء لله وافتراء ويدل أيضاً عليه ذيل الآية والآية التالية.

فتسميتهم شركاءهم وهم يسمونهم شركاء الله للدلالة بها على أن ليس لهم من الشركة إلا الشركة بجعلهم بحسب وهمهم فليس لإشراكهم شركاءهم من الحقيقة إلا أنها لا حقيقة لها.

وقوله: ﴿قَالُوا رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ﴾ معناه ظاهر وهو تعريف منهم إياهم لربهم، ولا حاجة الى البحث عن غرض المشركين في تعريفهم فإن اليوم يوم أحاط بهم الشقاء والعذاب من كل جانب، والانسان في مثل ذلك يلوي الى كل ما يخطر بباله من طرق السعي في خلاص نفسه وتنفيس كربه.

وقوله: ﴿فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ قال في المجمع: تقول: ألقيت الشيء إذا طرحته، واللقى الشيء الملقى، وألقيت اليه مقالة إذا قلتها له، وتلقّاها إذا قبلها، انتهى.

والمعنى: أن شركاءهم ردّوا اليهم وكذّبوهم، وقد عبَّر سبحانه في موضع آخر عن هذا التكذيب بالكفر كقوله: ﴿ويوم القيامة يكفرون بشرككم﴾ (فاطر / ١٤) وقوله حكاية عن مخاطبة الشيطان لهم يوم القيامة: ﴿إني كفرت بما أشركتمون من قبل﴾ (إبراهيم / ٢٢).

قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ السلم الإسلام والاستسلام، وكأن في التعبير بإلقاء السلم إشارة الى انضمام شيء من الخضوع والمقهورية بالقهر الالهي الى سلمهم.

وضمير «ألقوا» عائد الى الذين أشركوا بقرينة قوله بعد: «وضلّ عنهم ما كانوا يفترون» فالمراد أن المشركين يسلّمون يوم القيامة لله وقد كانوا يدعون الى الاسلام في الدنيا وهم يستكبرون.

والآية المبحوث عنها أعني قوله: ﴿وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ صدرها يشير الى إسلامهم وذيلها الى كون ذاك الإسلام اضطرارياً لا ينفعهم لأنهم كانوا يرون لله أُلوهية ولشركائهم أُلوهية فاختاروا تسليم شركائهم وعبادتهم على التسليم لله ثم لما ظهر لهم الحق يوم القيامة وكذبهم شركائهم بطل ما زعموه وضل عنهم ما افتروه فلم يبق للتسليم إلا الله سبحانه فسلموا له مضطرين وانقادوا له كارهين.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَاباً فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ استئناف متعرض لحال أئمة الكفر بالخصوص بعدما أشار الى حال عامة الظالمين والمشركين في الآيات السابقة.

والسامع إذا سمع ما شرحه الله من حالهم يوم القيامة في هذه الآيات وأنهم معذبون جميعاً من غير أن يخفف عنهم أو ينظروا فيه، وقد سمع منه أن منهم طائفة هم أشد كفراً وأشق من غيرهم إذ يقول «وأكثرهم الكافرون» خطر بباله طبعاً أنهم هل يساوون غيرهم في العذاب الموعود وهم يزيدون عليهم في السبب وهو الكفر.

فاستؤنف الكلام جواباً عن ذلك فقيل «الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله» بالعناد واللجاج فاكتملوا في الكفر واقتدى بهم غيرهم «زدناهم عذاباً» وهو الذي للصد وهم يختصون به «فوق العذاب» وهو الذي بإزاء مطلق الظلم والكفر ويشاركون فيه عامة إخوانهم. وكأن اللام في العذاب للعهد الذكري يشار بها الى ما ذكر في قوله: «وإذا رأى الذين ظلموا العذاب» الخ؛ «بما كانوا يفسدون» تعليل لزيادة العذاب.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَى هَؤُلَاءِ﴾ الخ؛ صدر الآية تكرار ما تقدم قبل بضع آيات من قوله: «ويوم نبعث من كل امة شهيداً» غير أنه كان هناك توطئة وتمهيداً لحديث عدم الإذن لهم في الكلام يومئذ، وهو ههنا توطئة وتمهيد لذكر شهادته ﷺ لهؤلاء يومئذ وهو في الموضعين مقصود

لغيره لا لنفسه.

وكيف كان فقوله: «ويوم نبعث في كل امة شهيداً عليهم من أنفسهم» يدل على بعث واحد في كل أمة للشهادة على أعمال غيره وهو غير البعث بمعنى الإحياء للحساب بل بعث بعد البعث، وإنما جعل من أنفسهم ليكون أتم للحجة وأقطع للمعذرة كما يفيده السياق وذكره المفسرون حتى أنهم ذكروا شهادة لوط على قومه ولم يكن منهم نسباً ووجهوه بأنه كان تأهل فيهم وسكن معهم فهو معدود منهم.

وقوله: ﴿وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَىٰ هٰؤُلاءِ﴾ يفيد أنه ﷺ شهيد على هؤلاء، واستظهروا أن المراد بهؤلاء هم أمته، وأيضاً إنهم قاطبة من بعث اليه من لدن عصره الى يوم القيامة ممن حضره ومن غاب ومن عاصره ومن جاء بعده من الناس.

وآيات الشهادة من معضلات آيات القيامة على ما في جميع آيات القيامة من الإعضال وصعوبة المنال، وقد تقدم في ذيل قوله: ﴿لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾ (البقرة / ١٤٣) في الجزء الأول من الكتاب نبذة من الكلام في معنى هذه الشهادة[١].

وقوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ ذكروا أنه استئناف يصف القرآن بكرائم صفاته فصفته العامة أنه تبيان لكل شيء والتبيان والبيان واحد ـ كما قيل ـ وإذ كان كتاب هداية لعامة الناس وذلك شأنه كان الظاهر أن المراد بكل شيء كل ما يرجع الى أمر الهداية مما يحتاج اليه الناس في اهتدائهم من المعارف الحقيقية المتعلقة بالمبدء والمعاد والأخلاق الفاضلة والشرائع الإلهية والقصص والمواعظ فهو تبيان لذلك كله.

١. النحل ٧٨ ـ ٨٩: بحث في الحجج التي تقام يوم القيامة على الانسان؛ الشهادة القائمة يوم القيامة.

٩٠ • إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ
عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ.

٩١ • وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ
تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا
تَفْعَلُونَ.

٩٢ • وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ
أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا
يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ
تَخْتَلِفُونَ.

٩٣ • وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ
وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ.

٩٤ • وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا
وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ
عَظِيمٌ.

٩٥ • وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ
إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ.

٩٦ • مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا
أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ.

٩٧ ● مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ
حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ.
٩٨ ● فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللّٰهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ.
٩٩ ● إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ.
١٠٠ ● إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ.
١٠١ ● وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللّٰهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ
مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ.
١٠٢ ● قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا
وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ.
١٠٣ ● وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ
إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ.
١٠٤ ● إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللّٰهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللّٰهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ
أَلِيمٌ.
١٠٥ ● إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللّٰهِ وَأُولٰئِكَ هُمُ
الْكَاذِبُونَ.

بيان:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللّٰهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبىٰ﴾ ابتدء سبحانه بهذه الأحكام الثلاثة التي هي بالترتيب أهم ما يقوم به صلب المجتمع الإنساني لما أن

صلاح المجتمع العام أهم ما يبتغيه الاسلام في تعاليمه المصلحة فإن أهم الأشياء عند الانسان في نظر الطبيعة وإن كان هو نفسه الفردية، لكن سعادة الشخص مبنية على صلاح الظرف الاجتماعي الذي يعيش هو فيه، وما أصعب أن يفلح فرد في مجتمع فاسد أحاط به الشقاء من كل جانب.

ولذلك اهتم في إصلاح المجتمع اهتماماً لا يعادله فيه غيره وبذل الجهد البالغ في جعل الدساتير والتعاليم الدينية حتى العبادات من الصلاة والحج والصوم اجتماعية ما أمكن فيها ذلك، كل ذلك ليستصلح الإنسان في نفسه ومن جهة ظرف حياته.

فقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ أمر بالعدل ويقابله الظلم، قال في المفردات: العدالة والمعادلة لفظ يقتضي معنى المساواة، ويستعمل باعتبار المضايقة، والعدل ـ بفتح العين ـ والعدل ـ بكسرها ـ يتقاربان لكن العدل ـ بفتح العين ـ يستعمل فيما يدرك بالبصيرة كالأحكام، وعلى ذلك قوله تعالى: «أو عدل ذلك صياماً» والعدل ـ بكسر العين ـ والعديل فيما يدرك بالحاسة كالموزونات والمعدودات والمكيلات، فالعدل هو التقسيط على سواء.

قال: والعدل ضربان: مطلق يقتضي العقل حسنه، ولا يكون في شيء من الأزمنة منسوخاً ولا يوصف بالاعتداء بوجه نحو الإحسان الى من أحسن اليك وكفّ الأذى عمن كفّ أذاه عنك، وعدل يعرف كونه عدلاً بالشرع ويمكن أن يكون منسوخاً في بعض الأزمنة كالقصاص واروش الجنايات وأصل مال المرتدّ، ولذلك قال: «فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه»، وقال: «وجزاء سيّئة سيّئة مثلها» فسمّي اعتداء وسيّئة.

وهذا النحو هو المعني بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ فإن العدل هو المساواة في المكافاة إن خيراً فخير وإن شراً فشر، والإحسان أن يقابل الخير بأكثر منه والشر بأقل منه، انتهى موضع الحاجة.

وقوله: ﴿وَالْإِحْسَانِ﴾ الكلام فيه من حيث اقتضاء السياق كسابقه فالمراد به

الإحسان الى الغير دون الإحسان بمعنى إتيان الفعل حسناً ، وهو إيصال خير أو نفع الى غير لا على سبيل المجازاة والمقابلة كأن يقابل الخير بأكثر منه ويقابل الشر بأقل منه ـ كما تقدم ـ ويوصل الخير الى غير متبرعاً به ابتداء .

والإحسان على ما فيه من إصلاح حال من أذلته المسكنة والفاقة أو اضطرته النوازل ، وما فيه من نشر الرحمة وإيجاد المحبة يعود محمود أثره الى نفس المحسن بدوران الثروة في المجتمع وجلب الأمن والسلامة بالتحبيب .

وقوله : « وإيتاء ذي القربى » أي إعطاء المال لذوي القرابة وهو من أفراد الإحسان خص بالذكر ليدل على مزيد العناية بإصلاح هذا المجتمع الصغير الذي هو السبب بالحقيقة لانعقاد المجتمع المدني الكبير كما أن مجتمع الازدواج الذي هو أصغر بالنسبة الى مجتمع القرابة سبب مقدم مكون له فالمجتمعات المدنية العظيمة إنما ابتدأت من مجتمع بيتي عقده الازدواج ثم بسطه التوالد والتناسل ووسعه حتى صار قبيلة وعشيرة ولم يزل يتزايد ويتكاثر حتى عادت امة عظيمة فالمراد بذي القربى الجنس دون الفرد وهو عام لكل قرابة كما ذكروه .

وفي التفسير المأثور عن أئمة أهل البيت عليهم السلام أن المراد بذي القربى الإمام من قربة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، والمراد بالإيتاء إعطاء الخمس الذي فرضه الله سبحانه في قوله : ﴿ **واعلموا أن ما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين** ﴾ الآية (الأنفال / ٤١) وقد تقدم تفسيرها .

ولعل التعبير بالإفراد حيث قيل ﴿ ذِي ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ ولم يقل : ذوي القربى أو اولي القربى كما في قوله : ﴿ **وإذا حضر القسمة اولوا القربى واليتامى والمساكين** ﴾ (النساء / ٨) ، وقوله : ﴿ **وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين** ﴾ (البقرة / ١٧٧) يؤيد ذلك .

واحتمال إرادة الجنس من ذي القربى يبعده ما وقع في سياق آية الخمس من ذكر اليتامى والمساكين معه بصيغة الجمع مع عدم ظهور نكتة يختص بها ذوي القربى أو اليتامى والمساكين

تقضي الفرق.

على أن الآية لا قرينة واضحة فيها على كون المراد بالإيتاء هو الإحسان ثم بالإحسان مطلق الإحسان. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَاءِ وَٱلْمُنْكَرِ وَٱلْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ قال في المفردات: الفحش والفحشاء والفاحشة ما عظم قبحه من الأفعال والأقوال. انتهى ولعل الأصل في معناه الخروج عن الحد فيا لا ينبغي يقال: غبن فاحش أي خارج عن حد التحمل والصبر والسكوت.

والمنكر ما لا يعرفه الناس في مجتمعهم من الأعمال التي تكون متروكة عندهم لقبحها أو إثمها كالمواقعة أو كشف العورة في مشهد من الناس في المجتمعات الإسلامية.

والبغي الأصل في معناه الطلب وكثر استعماله في طلب حق الغير بالتعدي عليه فيفيد معنى الاستعلاء والاستكبار على الغير ظلماً وعتواً، وربما كان بمعنى الزنا والمراد به في الآية هو التعدي على الغير ظلماً.

قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا ٱلْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ الخ؛ قال في المفردات: العهد حفظ الشيء ومراعاته حالاً بعد حال، وسمي المَوثق الذي يلزم مراعاته عهداً. قال: وعهد فلان الى فلان يعهد أي ألقى اليه العهد وأوصاه بحفظه، انتهى.

وظاهر إضافة العهد الى الله تعالى في قوله: «وأوفوا بعهد الله» أن المراد به هو العهد الذي يعاهد فيه الله على كذا دون مطلق العهد ويأتي نظير الكلام في نقض اليمين.

وقوله: «ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها» نقض اليمين نكثه ومخالفة مقتضاه والمراد باليمين هو اليمين بالحلف بالله سبحانه كأن ما عدا ذلك ليس بيمين والدليل عليه قوله بعد: «وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً».

والمراد بتوكيدها إحكامها بالقصد والعزم وكونها لأمر راجح بخلاف قولهم: لا والله وبلى والله وغيره من لغو الأيمان. فالتوكيد في هذه الآية يفيد ما يفيده التعقيد في قوله تعالى: ﴿لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدّتم الأيمان﴾ (المائدة / ٨٩).

ونقض اليمين بحسب الاعتبار أشنع من نقض العهد وإن كان منهياً عنهما جميعاً على أن العناية بالحلف في الشرع الاسلامي أكثر كما في باب القضاء.

وبهذا يظهر معنى قوله تعالى: ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً﴾ فإن الحالف إذا قال: والله لأفعلن كذا أو لأتركن كذا فقد علّق ما حلف عليه نوعاً من التعليق على الله سبحانه وجعله كفيلاً عنه في الوفاء بما عقد عليه اليمين. فإن نكث ولم يف كان لكفيله أن يؤديه الى الجزاء والعقوبة. ففي نكث اليمين إهانة وإرزاء بساحة العزة والكرامة مضافاً الى ما في نقض اليمين والعهد معاً من الانقطاع والانفصال عنه سبحانه بعد توكيد الاتصال.

فقوله: «وقد جعلتم الله» الخ: حال من ضمير الجمع في قوله: «ولا تنقضوا» وقوله: «والله عليم بما تفعلون» في معنى تأكيد النهي بأن العمل مبغوض وهو به عليم.

قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثاً﴾ الى آخر الآية: النقض ويقابله الابرام إفساد ما أُحكم من حبل أو غزل بالفتل فنقض الشيء المبرم كحل الشيء المعقود. والنكث النقض. قال في المجمع: وكل شيء نقض بعد الفتل فهو أنكاث حبلاً كان أو غزلاً. والدخل بفتحتين في الاصل كل ما دخل الشيء وليس منه. ويكنى به عن الدغل والخدعة والخيانة. كما قيل: وأربى أفعل من الربا وهو الزيادة.

وقوله: ﴿وَلاَ تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثاً﴾ في معنى التفسير لقوله في الآية السابقة: «ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها» وهو تمثيل بمرأة تغزل الغزل بقوة ثم تعود فتنقض ما أتبعت نفسها فيه وغزلته من بعد قوة وتجعله أنكاثاً لا فتل فيه ولا إبرام.

ونقل عن الكلبيّ أنها امرأة حمقاء من قريش كانت تغزل مع جواريها الى انتصاف النهار ثم تأمرهن أن ينقضن ما غزلن ولا يزال ذلك دابها، واسمها ريطة بنت عمرو بن كعب بن سعد بن تميم بن مرة، وكانت تسمى خرقاء مكة.

وقوله: ﴿ تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ﴾ أي تتخذون أيمانكم وسيلة للغدر والخدعة والخيانة تطيّبون بها نفوس الناس ثم تخونون وتخدعونهم بنقضها، وإنما يفعلون ذلك لتكون امة ـ وهم الحالفون ـ أربى وأزيد سهماً من زخارف الدنيا من أُمة ـ وهم المحلوف لهم ـ.

فالمراد بالدخل وسيلته من تسمية السبب باسم المسبب و«أن تكون أُمة» مفعول له بتقدير اللام، والكلام نوع بيان لنقض اليمين أو لكونهم كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً، ومحصّل المعنى أنكم كمثلها إذ تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم فتؤكدونها وتعقدونها ثم تخونون وتخدعون بنقضها ونكثها والله ينهاكم عنه.

وذكر بعضهم أن قوله: «تتخذون أيمانكم» الخ؛ جملة استهامية محذوفة الأداة والاستفهام للإنكار.

وقوله: ﴿ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ ﴾ الخ: أي إن ذلك امتحان إلهي يمتحنكم به وأُقسم ليبيّن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون فتعلمون عند ذلك ما حقيقة ما أُنتم عليه اليوم من التكالب على الدنيا وسلوك سبيل الباطل لإماطة الحق ودحضه ويتبين لكم يومئذ من هو الضالّ ومن هو المهتدي.

قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ الخ: لما انجرّ الكلام الى ذكر اختلافهم عقّب ذلك ببيان أن اختلافهم ليس بناقض للغرض الإلهي في خلقهم ولا أنهم معجزون له سبحانه ولو شاء لجعلهم أُمة واحدة لا اختلاف بينهم ولكن الله سبحانه جعلهم مختلفين بالهداية والإضلال فهدى قوماً

وأضلَّ آخرين.

وذلك أنه تعالى وضع سعادة الانسان وشقاءه على أساس الاختيار وعرّفهم الطاعة المفضية الى غاية السعادة والمعصية المؤدّية الى غاية الشقاء فمن سلك مسلك المعصية واجتاز للضلال جازاه الله ذلك، ومن ركب سبيل الطاعة واختار الهدى جازاه الله ذلك وسيسأهم جميعاً عما عملوا واختاروا.

وأن قوله: ﴿وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ لدفع ما يسبق الى الوهم أن استناد الضلال والهدى اليه سبحانه يبطل تأثير اختيارهم في ذلك وتبطل بذلك الرسالة وتلغو الدعوة فاجيب بأن السؤال باقٍ على حاله لما أن اختياركم لا يبطل بذلك بل الله سبحانه يمدّ لكم من الضلال والهدى ما أنتم تختارونه بالركون الى معصيته أو بالإقبال الى طاعته.

قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَتَّخِذُوا أَيْمانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِها﴾ الى آخر الآية؛ قال في المفردات: الصدود والصدّ قد يكون انصرافاً عن الشيء وامتناعاً نحو «يصدّون عنك صدوداً» وقد يكون صرفاً ومنعاً نحو «وزيّن لهم الشيطان أعمالهم فصدَّهم عن السبيل». انتهى.

والآية نهي عن اتخاذ الأيمان دخلاً بعد النهي عن أصل نقض الأيمان لأن لخصوص اتخاذها دخلاً مفسدة مستقلة هي ملاك النهي غير المفسدة التي لأصل نقض الأيمان وقد أشار الى مفسدة أصل النقض بقوله: «وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً» الخ؛ ويشير في هذه الآية الى مفسدة اتخاذها دخلاً بقوله: «فتزلَّ قدم بعد ثبوتها وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله ولكم عذاب عظيم».

وقوله: ﴿وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِما صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللّهِ وَلَكُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ﴾ معطوف على قوله: «تزل قدم» الخ، وبيان نتيجته كما أنه بيان نتيجة وعاقبة لقوله: «تتخذوا أيمانكم دخلاً» وبذلك يظهر أن قوله: «بما صددتم عن سبيل الله» بمنزلة التفسير لقوله:

«فتزلّ قدم بعد ثبوتها».

والمراد بالصدود عن سبيل الله الإعراض والإمتناع عن السنة الفطرية التي فطر الله الناس عليها ودعت الدعوة النبوية اليها من التزام الصدق والاستقامة ورعاية العهود والمواثيق والأيمان والتجنب عن الدغل والخدعة والخيانة والكذب والزور والغرور.

والمراد بذوق السوء العذاب، وقوله: «ولكم عذاب عظيم» حال عن فاعل «تذوقوا» ويمكن أن يكون المراد بذوق السوء ما ينالهم من آثار الضلالة السيئة في الدنيا، وقوله: «ولكم عذاب عظيم» إخباراً عما يحل بهم في الآخرة، هذا ما يستفاد من ظاهر الآية الكريمة.

فالمعنى: ولا تتخذوا أيمانكم وسيلة دخل بينكم حتى يؤديكم ذلك الى الزوال عما ثبتم عليه ونقض ما أبرمتموه، وفيه إعراض عن سبيل الله الذي هو التزام الفطرة والتحرز عن الغدر والخدعة والخيانة والدغل وبالجملة الإفساد في الأرض بعد إصلاحها، ويؤديكم ذلك الى أن تذوقوا السوء والشقاء في حياتكم الدنيا ولكم عذاب عظيم في الاخرى.

قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللّهِ ثَمَناً قَلِيلاً إِنَّمَا عِنْدَ اللّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ قال في المفردات: كل ما يحصل عوضاً عن شيء فهو ثمنه، انتهى.

والظاهر أن الآية نهي عن نقض العهد بعد ما تقدم الأمر بالوفاء به اعتناء بشأنه كما جرى مثل ذلك في نقض الأيمان، والآية مطلقة، والمراد بعهد الله العهد الذي عوهد به الله مطلقاً، والمراد بالاشتراء به ثمناً قليلاً بقرينة ذيل الآية أن يبدّل العهد من شيء من حطام الدنيا فينقض لنيله فسمى المبدل منه ثمناً لأنه عوض كما تقدم، والباقي ظاهر.

قوله تعالى: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللّهِ بَاقٍ﴾ في مقام التعليل لقوله في الآية السابقة: «ما عند الله هو خير لكم» وقد وجّهه بأن الذي عندكم أي في الحياة الدنيا التي هي حياة مادية قائمة على أساس التبدل والتحول منعوتة بنعت الحركة والتغير زائل نافد، وما عند الله سبحانه مما يعد المتقين منكم باق لا يزول ولا يفنى والباقي خير من النافد بصريح

حكم العقل.

واعلم أن قوله: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ على ما في لفظه من الإطلاق قاعدة كلية غير منقوضة باستثناء، تحتها جزئيات كثيرة من المعارف الحقيقية.

قوله تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ لما كان الوفاء بالعهد مستلزماً للصبر على مُرّ مخالفة هوى النفس في نقضه والاسترسال فيما تشتهيه، صرف الكلام عن ذكر أجر خصوص الموفين بالعهد الى ذكر أجر مطلق الصابرين في جنب الله.

فقوله: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ﴾ وعد مؤكد على مطلق الصبر سواء كان صبراً على الطاعة أو على المعصية أو عند المصيبة غير أنه يجب أن يكون صبراً في جنب الله ولوجه الله فإن السياق لا يساعد على غيره.

وقوله: ﴿بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ الباء للمقابلة كما في قولنا: بعت هذا بهذا، وليس المراد بأحسن ما كانوا يعملون الأحسن من أعمالهم في مقابل الحسن منها بأن يميز الله سبحانه بين أعمالهم الحسنة فيقسّمها الى حسن وأحسن ثم يجزيهم بأحسنها ويلغي الحسن كما ذكره بعضهم فإن المقام لا يؤيّده، وآيات الجزاء تنفيه والرحمة الواسعة الإلهية تأباه.

وليس المراد به الواجبات والمستحبّات من أعمالهم قبال المباحات التي أتوا بها فإنها لا تخلو من حسن كما ذكره آخرون.

فإن الكلام ظاهر في أن المراد بيان الأجر على الأعمال المأتي بها في ظرف الصبر مما يرتبط به ارتباطاً، وواضح أن المباحات التي يأتي بها الصابر في الله لا ارتباط لها بصبره فلا وجه لاعتبارها بين الأعمال ثم اختيار الأحسن من بينها.

على أنه لا مطمع لعبد في أن يثيبه الله على ما أتى به من المباحات حتى يبين له أن الثواب في مقابل ما أتى به من الواجبات والمستحبات التي هي أحسن مما أتى به من المباحات فيكون

ذكر الحسن مستدركاً زائداً.

ومن هنا يظهر أن ليس المراد به النوافل بناء على عدم الإلزام فيها فتكون أحسن ما عمل فإن كون الواجب مشتملاً من المصلحة الموجبة للحسن على أزيد من النقل معلوم من الخطابات التشريعية بحيث لا يرتاب فيه.

بل المراد بذلك أن العمل الذي يأتون به وله في نوعه ما هو حسن وما هو أحسن فالله سبحانه يجزيه من الأجر على ما أتى به ما هو أجر الفرد الأحسن من نوعه فالصلاة التي يصلّيها الصابر في الله يجزيه الله سبحانه لها أجر الفرد الأحسن من الصلاة وإن كانت ما صلّاها غير أحسن وبالحقيقة يستدعي الصبر أن لا يناقش في العمل ولا يحاسب ما هو عليه من الخصوصيات المقتضية لخسّته ورداءته كما يفيده قوله تعالى: ﴿إنما يوفّى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾.

قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيوٰةً طَيِّبَةً﴾ الى آخر الآية: وعد جميل للمؤمنين إن عملوا عملا صالحاً وبشرى للإناث أن الله لا يفرّق بينهن وبين الذكور في قبول إيمانهن ولا أثر عملهن الصالح الذي هو الإحياء بحياة طيبة والأجر بأحسن العمل على الرغم مما بنى عليه أكثر الوثنية وأهل الكتاب من اليهود والنصارى من حرمان المرأة من كل مزيّة دينية أو جلّها وحطّ مرتبتها من مرتبة الرجل ووضعها وضعاً لا يقبل الرفع البتة.

فقوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ حكم كلي من قبيل ضرب القاعدة لمن عمل صالحاً أي من كان وقد قيّده بكونه مؤمناً وهو في معنى الاشتراط فإن العمل ممن ليس مؤمناً حابط لا يترتب عليه أثر. كما قال تعالى: ﴿ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله﴾ (المائدة / ٥)، وقال: ﴿وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون﴾ (هود/١٦).

وقوله: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ الإحياء إلقاء الحياة في الشيء وإفاضتها عليه فالجملة بلفظها دالة على أن الله سبحانه يكرم المؤمن الذي يعمل صالحاً بحياة جديدة غير ما يشاركه سائر الناس من الحياة العامة، وليس المراد به تغيير صفة الحياة فيه وتبديل الخبيثة من الطيبة مع بقاء أصل الحياة على ما كانت عليه، ولو كان كذلك لقيل: فلنطيّبنّ حياته.

فالآية نظيرة قوله: ﴿أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس﴾ (الأنعام / ١٢٢)، وتفيد ما يفيده من تكوين حياة ابتدائية جديدة.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ الاستعاذة طلب المعاذ، والمعنى: إذا قرأت القرآن فاطلب منه تعالى ما دمت تقرؤه أن يعيذك من الشيطان الرجيم أن يغويك، فالاستعاذة المأمور بها حال نفس القارىء ما دام يقرأ وقد أُمر أن يوجدها لنفسه ما دام يقرأ، وأما قول القارىء: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم أو ما يشابهه من اللفظ فهو سبب لإيجاد معنى الاستعاذة في النفس وليس بنفسها إلا بنوع من المجاز، وقد قال سبحانه: إستعذ بالله، ولم يقل: قل أعوذ بالله.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ في مقام التعليل للأمر الوارد في الآية السابقة أي استعذ بالله حين القراءة ليعيذك منه لأنه ليس له سلطان على من آمن بالله وتوكل عليه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ ضمائر الإفراد الثلاثة للشيطان أي ينحصر سلطان الشيطان في الذين يتخذونه وليّاً لهم يدبّر امورهم كما يريد، وهم يطيعونه، وفي الذين يشركون به إذا يتخذونه ولياً من دون الله وربّاً مطاعاً غيره فإن الطاعة عبادة كما يشير اليه قوله: ﴿ألم أعهد اليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدوّ مبين وأن اعبدوني﴾ (يس / ٦١).

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ

مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاٰ يَعْلَمُونَ ﴾ إشارة الى النسخ وحكمته، وجواب عما اتهموه ﷺ به من الافتراء على الله. والظاهر من سياق الآيات أن القائلين هم المشركون وإن كانت اليهود هم المتصلبين في نفي النسخ ومن المحتمل أن تكون الكلمة مما تلقّفه المشركون من اليهود فكثيراً ما كانوا يراجعونهم في أمر النبي ﷺ.

وقوله: ﴿ وَإِذٰا بَدَّلْنٰا آيَةً مَكٰانَ آيَةٍ ﴾ قال في المفردات: الإبدال والتبديل والتبدّل والاستبدال جعل شيء مكان آخر، وهو أعم من العوض فإن العوض هو أن يصير لك الثاني بإعطاء الأول، والتبديل قد يقال للتغير مطلقاً وإن لم يأت ببدله قال تعالى: ﴿ فبدّل الذين ظلموا قولاً غير الذي قيل لهم ﴾ ـ الى أن قال ـ وقال تعالى: ﴿ فمن بدله بعد ما سمعه ﴾ و﴿ اذا بدلنا آية مكان آية ﴾ و﴿ بدلناهم بجنتيهم جنتين ﴾ ﴿ ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة ﴾ انتهى موضوع الحاجة.

فالتبديل بمعنى التغيير يخالف التبديل بمعناه المعروف في أن مفعوله الأول هو المأخوذ والمطلوب بخلافه بالمعنى المعروف فمعنى قوله: «وإذا بدّلنا آية مكان آية» معناه وضعنا الآية الثانية مكان الاولى بالتغيير فكانت الثانية المبدلة هي الباقية المطلوبة.

وقوله: ﴿ وَاللّٰهُ أَعْلَمُ بِمٰا يُنَزِّلُ ﴾ كناية عن أن الحق لم يتعد مورده وأن الذي أنزله هو الحقيق بأن ينزل فإن الله أعلم به منهم، والجملة حالية.

وقوله: ﴿ قٰالُوا إِنَّمٰا أَنْتَ مُفْتَرٍ ﴾ القول للمشركين يخاطبون النبي ﷺ ويتهمونه بأنه يفتري على الله الكذب فإن تبديل قول مكان قول، والثبات على رأي ثم العدول عنه مما يتنزه عنه ساحة رب العزة.

وقد بالغوا في قولهم إذ لم يقولوا: افتريت في هذا التبديل والنسخ بل قالوا: «إنما أنت مفتر» فقصروه ﷺ في الافتراء، وأتوا بالجملة الاسمية وسموه مفترياً، وقد بنوا ذلك على أن ما جاء به النبي ﷺ من سنخ واحد وهو يسند الجميع الى ربه ويقول: إنما أنا نذير فإذا كان مفترياً في

واحد كان مفترياً في الجميع فليس إلا مفترياً.

وقوله: «بل أكثرهم لا يعلمون» أي أكثر هؤلاء المشركين الذين يتهمونك بقوله: «إنما أنت مفتر» لا يعلمون حقيقة هذا التبديل والحكمة المؤدية اليه على ما سينكشف في الجواب أن الأحكام الإلهية تابعة لمصالح العباد ومن المصالح ما يتغير بتغير الأوضاع والأحوال والأزمنة فمن الواجب أن يتغير الحكم بتغير مصلحته فينسخ الحكم الذي ارتفعت مصلحته الموجبة له بحكم آخر حدثت مصلحته.

فأكثر هؤلاء غافلون عن هذا الأمر وأما الأقل منهم فهم واقفون على حقيقة الأمر ولو إجمالاً غير أنهم مستكبرون على الحق معاندون له وإنما يلقون القول إلقاء من غير رعاية جانب الحق.

قوله تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدىً وَبُشْرىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ قد تقدمت في أول السورة إشارة الى معنى الروح، والقدس الطهارة والنزاهة والظاهر أن الإضافة للاختصاص أي روح طاهرة عن قذارات المادة نزيهة عن الخطأ والغلط والضلال، وهو المسمى في موضع آخر من كلامه تعالى بالروح الأمين، وفي موضع آخر بجبريل من الملائكة قال تعالى: ﴿نزل به الروح الأمين على قلبك﴾ (الشعراء / ١٩٤)، وقال: ﴿من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك﴾ (البقرة / ٩٧).

فقوله: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ﴾ أمر بالجواب والأسبق الى الذهن أن يكون الضمير راجعاً الى القرآن من جهة كونه ناسخاً أي الآية الناسخة، ويمكن أن يكون راجعاً الى مطلق القرآن، وفي التعبير بالتنزيل دون الإنزال إشارة الى التدريج.

وكان من طبع الكلام أن يقال: من ربي لكن عدل عنه الى قوله: «من ربك» للدلالة على كمال العناية والرحمة في حقه ﷺ كأنه لا يرضى بانقطاع خطابه فيغتنم الفرصة لتكليمه أينما

أمكن، وليدل على أن المراد بالقول المأمور به إخبارهم بذلك لا مجرد التلفظ بهذه الألفاظ فافهم.

وقوله: ﴿لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ التثبيت تحكيم الثبات وتأكيده بإلقاء الثبات بعد الثبات عليهم كأنهم بأصل إيمانهم بالله ورسوله واليوم الآخر ثبتوا على الحق وبتجدد الحكم حسب تجدد المصلحة يؤتون ثباتاً على ثبات من غير أن يضعف ثباتهم الأول بالمضي على أعمال لا تطابق مصلحة الوقت فإن من الواضح أن من أمر بسلوك سبيل لمصلحة غاية فأخذ بسلوكه عن إيمان بالآمر الهادي فقطع قطعة منه على حسب ما يأمره به رعاية لمصلحة الغاية بسرعة أو بطء أو في ليل أو نهار ثم تغير نحو المصلحة فلو لم يغير الآمر الهادي نحو السلوك واستمر على أمره السابق لضعف إيمان السالك وانسلب أركانه لكن لو أمر بنحو جديد من السلوك يوافق المصلحة ويضمن السعادة زاد إيمانه ثباتاً على ثبات.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ افتراء آخر منهم على النبي ﷺ وهو قولهم: «إنما يعلمه بشر» وهو كما يلوّح اليه سياق اعتراضهم وما ورد في الجواب عنه أنه كان هناك رجل أعجمي غير فصيح في منطقه عنده شيء من معارف الأديان وأحاديث النبوة ربما لاقاه النبي ﷺ فاتهموه بأنه يأخذ ما يدّعيه وحياً منه والرجل هو الذي يعلمه وهو الذي حكاه الله تعالى من قولهم: «إنما يعلّمه بشر» وفي القول إيجاز، وتقديره: إنما يعلمه بشر وينسب ما تعلمه منه الى الله افتراء عليه، وهو ظاهر.

ومن المعلوم أن الجواب عنه بمجرّد أن لسان الرجل أعجمي والقرآن عربي مبين لا يحسم مادة الشبهة من أصلها لجواز أن يلقي اليه المطالب بلسانه الأعجمي ثم يسبكها هو ﷺ ببلاغة منطقه في قالب العربية الفصيحة بل هذا هو الأسبق الى الذهن من قولهم: «إنما يعلمه بشر» حيث عبّروا عن ذلك بالتعليم دون التلقين والإملاء، والتعليم أقرب الى المعاني منه الى

الألفاظ.

وبذلك يظهر أن قوله: «لسان الذي يلحدون اليه ـ الى قوله ـ مبين» ليس وحده جواباً عن شبهتهم بل ما يتلوه من الكلام الى تمام آيتين من تمام الجواب.

وملخص الجواب مأخوذ من جميع الآيات الثلاث أن ما اتهمتموه به أن بشراً يعلمه ثم هو ينسبه الى الله افتراء إن أردتم أنه يعلمه القرآن بلفظه بالتلقين عليه وأن القرآن كلامه لا كلام الله فجوابه أن هذا الرجل لسانه أعجمي وهذا القرآن عربي مبين.

وإن أردتم أن الرجل يعلمه معاني القرآن ـ واللفظ لا محالة للنبي ﷺ ـ وهو ينسبه الى الله افتراء عليه فالجواب عنه أن الذي يتضمنه القرآن معارف حقّة لا يرتاب ذو لبّ فيها وتضطرّ العقول الى قبولها قد هدى الله النبي اليها فهو مؤمن بآيات الله إذ لو لم يكن مؤمناً لم يهده الله والله لا يهدي من لا يؤمن بآياته وإذ كان مؤمناً بآيات الله فهو لا يفتري على الله الكذب فإنه لا يفتري عليه إلا من لا يؤمن بآياته. فليس هذا القرآن بمفترى، ولا مأخوذاً من بشر ومنسوباً الى الله سبحانه كذباً.

فقوله: «لسان الذي يلحدون اليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين» جواب عن أول شقّي الشبهة وهو أن يكون القرآن بلفظه مأخوذاً من بشر على نحو التلقين، والمعنى: أن لسان الرجل الذي يلحدون أي يميلون اليه وينوونه بقولهم: «إنما يعلمه بشر» أعجمي أي غير فصيح بيّن وهذا القرآن المتلو عليكم لسان عربي مبين وكيف يتصوّر صدور بيان عربي بليغ من رجل أعجمي اللسان؟

وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ الى آخر الآيتين؛ جواب عن ثاني شقّي الشبهة وهو أن يتعلم منه المعاني ثم ينسبها الى الله افتراء.

والمعنى: أن الذين لا يؤمنون بآيات الله ويكفرون بها لا يهديهم الله اليه والى معارفه الحقة الظاهرة ولهم عذاب أليم، والنبي ﷺ مؤمن بآيات الله لأنه مهدي بهداية الله، وإنما يفتري

الكذب وينسبه الى الله الذين لا يؤمنون بآيات الله وأُولئك هم الكاذبون المستمرون على الكذب، وأما مثل النبي ﷺ المؤمن بآيات الله فإنه لا يفتري الكذب ولا يكذب فالآيتان كنايتان عن أن النبي ﷺ مهدي بهداية الله مؤمن بآياته ومثله لا يفتري ولا يكذب[1].

١٠٦ ● مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ.

١٠٧ ● ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا ٱلْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا عَلَى ٱلْآخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْكَافِرِينَ.

١٠٨ ● أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ ٱلْغَافِلُونَ.

١٠٩ ● لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْخَاسِرُونَ.

١١٠ ● ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ.

١١١ ● يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ.

---

١. النحل ٩٠ ـ ١٠٥: بحث روائي حول الآية «ان الله يأمر بالعدل والاحسان»: الحياة الطيبة.

بيان:

قوله تعالى: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ﴾ الاطمئنان السكون والاستقرار، والشرح البسط، قال في المفردات: أصل الشرح بسط اللحم ونحوه، يقال: شرحت اللحم وشرّحته، ومنه شرح الصدر أي بسطه بنور إلهي وسكينة من جهة الله وروح منه، قال تعالى: ﴿رب اشرح لي صدري﴾ ﴿ألم نشرح لك صدرك﴾ ﴿ألم نشرح لك صدرك﴾ ﴿أفمن شرح الله صدره﴾ وشرح المشكل من الكلام بسطه وإظهار ما يخفى من معانيه. انتهى.

وقوله: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ﴾ شرط جوابه قوله: «فعليهم غضب من الله» وعطف عليه قوله: «ولهم عذاب عظيم» وضمير الجمع في الجزاء عائد الى إسم الشرط «من» لكونه بحسب المعنى كلياً ذا أفراد.

وقوله: ﴿إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ﴾ استثناء من عموم الشرط والمراد بالإكراه الإجبار على كلمة الكفر والتظاهر به فإن القلب لا يقبل الإكراه والمراد أستثني من أُكره على الكفر بعد الايمان فكفر في الظاهر وقلبه مطمئن بالإيمان.

وقوله: «ولكن من شرح بالكفر صدراً» أي بسط صدره للكفر فقبله قبول رضى ووعاه، والجملة استدراك من الاستثناء فيعود الى معنى المستثنى منه فإن المعنى ما أُريد بقولي «من كفر بالله من بعد إيمانه» من أُكره وقلبه مطمئن بالايمان ولكن أُريد به من شرح بالكفر صدراً، وفي مجموع الاستثناء والاستدراك بيان كامل للشرط، وهذه هي النكتة لاعتراض الاستثناء بين الشرط والجزاء وعدم تأخيره الى أن تتم الشرطيّة.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْآخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْكَافِرِينَ﴾ بيان لسبب حلول غضب الله بهم وثبوت العذاب العظيم عليهم

وهو أنهم اختاروا الحياة الدنيا وهي الحياة المادية التي لا غاية لها إلا التمتع الحيواني والاشتغال بمشتهيات النفس على الآخرة التي هي حياة دائمة مؤبدة في جوار رب العالمين وهي غاية الحياة الإنسانية.

وبعبارة اخرى هؤلاء لم يريدوا إلا الدنيا وانقطعوا عن الآخرة وكفروا بها والله لا يهدي القوم الكافرين وإذ لم يهدهم الله ضلوا عن طريق السعادة والجنة والرضوان فوقعوا في غضب من الله وعذاب عظيم.

قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ إشارة الى أن اختيار الحياة الدنيا على الآخرة والحرمان من هداية الله سبحانه هو الوصف الذي يوصف به الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم والذين يسمّون غافلين.

فإنهم باختيارهم الحياة الدنيا غاية لأنفسهم وحرمانهم من الإهتداء الى الاخرى انقطعوا عن الآخرة وتعلقوا بالدنيا وجعلوها غاية لأنفسهم فوقف حسهم وعقلهم فيها دون أن يتعدياها الى ما وراءها وهو الآخرة فليسوا يبصرون ما يعتبرون به ولا يسمعون عظة يتعظون بها ولا يعقلون حجة يهتدون بها الى الآخرة.

قوله تعالى: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ لأنهم ضيعوا رأس مالهم في الدنيا فبقوا لا زاد لهم يعيشون به في اخراهم، وقد وقع في نظير المقام من سورة هود: ﴿لا جرم أنهم في الآخرة هم الأخسرون﴾ (هود / ٢٢)، ولعل وجه التشديد هناك أنه تعالى أضاف الى صفاتهم هناك أنهم صدوا عن سبيل الله فراجع.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ الفتنة في الأصل إدخال الذهب النار ليظهر جودته ثم استعمل في مطلق البلاء والتعذيب، وقد كانت قريش ومشركوا مكة يفتنون

المؤمنين ليردوهم عن دينهم ويعذبونهم بأنواع العذاب حتى ربما كانوا يموتون تحت العذاب كما فتنوا عماراً وأباه وأُمه فقتل أبواه وارتد عمار ظاهراً فتفصى منهم بالتقية، وفي ذلك نزلت الآيات السابقة كما سيأتي إن شاء الله في البحث الروائي.

فقوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هاجَرُوا مِنْ بَعْدِ ما فُتِنُوا﴾ وعد جميل للمهاجرين من بعد ما فتنوا بالمغفرة والرحمة يوم القيامة قبال ما أُوعد غيرهم بالخسران التام يومئذ وقد قيّد ذلك بالجهاد والصبر بعد المهاجرة.

وقوله: «إن ربك من بعدها لغفور رحيم» بمنزلة تلخيص صدر الكلام ـ لطوله ـ ليلحق به ذيله، ويفيد فائدة التأكيد كقولنا: زيد في الدار زيد في الدار كذا وكذا، ويفيد أن لما ذكر من قيود الكلام دخلاً في الحكم فالله سبحانه لا يرضى عنهم إلا أن يهاجروا ولا عن هجرتهم إلا أن يجاهدوا بعدها ويصبروا.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجادِلُ عَنْ نَفْسِها وَتُوَفّىٰ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ إتيان النفس يوم القيامة كناية عن حضورها عند الملك الديّان، كما قال: ﴿فإنهم لمحضرون﴾ (الصافات / ١٢٧)، والضمير في قوله: «عن نفسها» للنفس ولا ضير في إضافة النفس الى ضمير النفس فإن النفس ربما يراد بها الشخص الإنساني كقوله: ﴿من قتل نفساً بغير نفس﴾ (المائدة / ٣٢)، وربما يراد بها التأكيد ويتحدد معناها بما تقدمها من المؤكد سواء كان إنساناً أو غيره، كما يقال: الإنسان نفسه والفرس نفسه والحجر نفسه والسواد نفسه، ويقال: نفس الإنسان ونفس الفرس ونفس الحجر ونفس السواد، وقوله: «عن نفسها» المراد فيه بالمضاف المعنى الثاني وبالمضاف اليه المعنى الأول، وقد دفع التعبير بالضمير بشاعة تكرار اللفظ بالإضافة، وفي هذا المقدار كفاية عن الأبحاث الطويلة التي أوردها المفسرون.

وقوله: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجادِلُ عَنْ نَفْسِها﴾ الظرف متعلق بقوله في الآية

السابقة: «لغفور رحيم» ومجادلة النفس عن نفسها دفاعها عن نفسها وقد نسيت كل شيء وراء نفسها على خلاف ما كانت عليه في الدنيا من التعلق بكل شيء دون نفسها بنسيانها وليس ذلك إلا لظهور حقيقة الأمر عليها وهي أن الإنسان لا سبيل له الى ما وراء نفسه، وليس له في الحقيقة إلا أن يشتغل بنفسه.

فاليوم تأتي النفس وتحضر للحساب وهي تجادل وتصر على الدفاع عن نفسها بما تقدر عليه من الأعذار.

وقوله: ﴿وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ التوفية إعطاء الحق تاماً من غير تنقيص، وقد علّق التوفية على نفس العمل إذ قيل «ما عملت» فافيد أن الذي أُعطيته نفس العمل من غير أن يتصرف فيه بتغيير أو تعويض، وفيه كمال العدل حيث لم يضف الى ما استحقته شيء ولا نقص منه ولذلك عقبّه بقوله: «وهم لا يظلمون»[1].

١١٢ ● وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ.

١١٣ ● وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ.

١١٤ ● فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالاً طَيِّباً وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ.

---

١. النحل ١٠٦ ـ ١١١: بحث روائي في امر رسول الله المسلمين بالهجرة: التقية: ايذاء المشركين بلالاً: اخذ المشركين عمار بن ياسر: تقية عمار بن ياسر.

١١٥ ● إِنَّما حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنْزِيرِ وَما أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ باغٍ وَلا عادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ.

١١٦ ● وَلا تَقُولُوا لِما تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هٰذا حَلالٌ وَهٰذا حَرامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ ٱلْكَذِبَ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ ٱلْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ.

١١٧ ● مَتاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ.

١١٨ ● وَعَلَى ٱلَّذِينَ هادُوا حَرَّمْنا ما قَصَصْنا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَما ظَلَمْناهُمْ وَلٰكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ.

١١٩ ● ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهالَةٍ ثُمَّ تابُوا مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِها لَغَفُورٌ رَحِيمٌ.

١٢٠ ● إِنَّ إِبْراهِيمَ كانَ أُمَّةً قانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ.

١٢١ ● شاكِراً لِأَنْعُمِهِ ٱجْتَباهُ وَهَداهُ إِلىٰ صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ.

١٢٢ ● وَآتَيْناهُ فِي الدُّنْيا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي ٱلْآخِرَةِ لَمِنَ الصّالِحِينَ.

١٢٣ ● ثُمَّ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً وَما كانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ.

١٢٤ ● إِنَّما جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ.

١٢٥ ● أُدْعُ إِلىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ

وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ.

١٢٦ ● وَإِنْ عاقَبْتُمْ فَعاقِبُوا بِمِثْلِ ما عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصّابِرِينَ.

١٢٧ ● وَاصْبِرْ وَما صَبْرُكَ إِلاّ بِاللّهِ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمّا يَمْكُرُونَ.

١٢٨ ● إِنَّ اللّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ.

بيان:

﴿وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيها رِزْقُها رَغَداً﴾ الى آخر الآية؛ الرغد من العيش هو الواسع الطيّب.

هذا مثل ضربه الله تعالى فوصف فيه قرية آتاها ما تحتاج اليه من نعم الحياة، وأتمّ ذلك كله بنبي بعثه اليهم يدعوهم الى ما فيه صلاح دنياهم وأُخراهم فكفروا بأنعمه وكذّبوا رسوله فبدّل الله نعمته نقمة وعذّبهم بما ظلموا بتكذيب رسوله، وفي المثل تحذير عن كفران نعمة الله بعد إذ بذلت والكفر بآياته بعد إذ أنزل.

وفيه توطئة وتمهيد لما سيذكره من محللات الأكل ومحرّماته وينهى عن تشريع الحلال والحرام بغير إذن الله كل ذلك بالاستفادة من سياق الآيات فإن كل سابقة منها تسوق النظر الى اللاحقة.

وقوله: ﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللّهِ فَأَذاقَهَا اللّهُ لِباسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾ التعبير بأنعم الله وهو جمع قلة للإشارة بها الى الأصناف المذكورة وهي ثلاثة: الأمن والاطمئنان وإتيان الرزق، والإذاقة استعارة للايصال اليسير فإذاقة الجوع والخوف مشعر بأن الذي

يوصلها قادر على تضعيف ذلك وتكثيره بما لا يقدر بقدر كيف لا؟ وهو الله الذي له القدرة كلها.

ثم إضافة اللباس الى الجوع والخوف وفيها دلالة على الشمول والإحاطة كما يشمل اللباس البدن، ويحيط به، تشعر بأن هذا المقدار اليسير من الجوع والخوف الذي أذاقهم شملهم كما يشمل اللباس بدن الإنسان وهو سبحانه قادر على أن يزيد على ذلك فهو المتناهي في قهره وغلبته وهم المتناهون في ذلتهم وهوانهم.

ثم ختم الآية بقوله: «بما كانوا يصنعون» للدلالة على أنه سنة المجازاة في الشكر والكفر قائمة على ساق.

والمعنى: ضرب الله مثلاً مثل قرية كان أهلها آمنين من كل شر وسوء يهددهم في نفوسهم وأعراضهم وأموالهم ساكنين غير مضطرين يأتيهم رزقهم طيباً واسعاً من كل مكان من غير أن يضطروا الى السفر والاغتراب فكفر أهلها بهذه النعم الإلهية ولم يشكروه سبحانه فأناهم الله شيئاً يسيراً من نقمته ـ بسلب هذه النعم ـ وهو الجوع والخوف اللذان عماهم وشملاهم قبال ما استمروا عليه بكفران الأنعم جزاء لكفرانهم.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ وهذا هو النعمة المعنوية التي أضافها الى نعمه المادية المذكورة، وكان فيها صلاح معاشهم ومعادهم وتحذير لهم من الكفران بأنعم الله وشرح ما فيه من الشؤم والشقاء لكنهم كذبوا رسولهم الذي هو منهم يعرفونه ويدرون أنه إنما يدعوهم لأمر إلهي ويهديهم الى سبيل الرشاد وسعادة الجد فظلموا ذلك فأخذهم العذاب بظلمهم.

وبهذا التقرير يظهر ما في القيود المأخوذة في الآية من النكات.

قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّباً﴾ الى آخر الآية، تفريع على ما تحصل من المثل نتيجة، والتقدير إذا كان الحال هذا الحال وكان في كفران هذا الرزق الرغد

عذاب وفي تكذيب الدعوة عذاب فكلوا مما رزقكم الله حال كونه حلالاً طيباً أي لستم بممنوعين منه وأنتم تستطيبونه فكلوا منه واشكروا نعمة الله إن كنتم إياه تعبدون.

قوله تعالى: ﴿إِنَّما حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنْزِيرِ وَما أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ باغٍ وَلا عادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ تقدم الكلام في معنى الآية في تفسير سورة البقرة الآية ١٧٣ وسورة المائدة الآية ٣ وسورة الأنعام الآية ١٤٥.

والآية بمعناها على اختلاف ما في لفظها واقعة في أربعة مواضع من القرآن: في سورتي الأنعام والنحل وهما مكيتان من أوائل ما نزلت بمكة وأواخرها، وفي سورتي البقرة والمائدة وهما من أوائل ما نزلت بالمدينة وأواخرها، وهي تدلّ على حصر محرّمات الأكل في الأربع المذكورة: الميتة والدم ولحم الخنزير وما أُهلَّ لغير الله به كما نبّه عليه بعضهم.

لكن بالرجوع الى السنّة يظهر أن هذه هي المحرَّمات الأصلية التي عني بها في الكتاب وما سوى هذه الأربع من المحرَّمات مما حرَّمه النبي ﷺ بأمر من ربه وقد قال تعالى: ﴿ما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾ (الحشر / ٧)، وقد تقدم بعض الروايات الدالَّة على هذا المعنى.

قوله تعالى: ﴿وَلا تَقُولُوا لِما تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هٰذا حَلالٌ وَهٰذا حَرامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ الخ؛ «ما» في قوله: «لما تصف» مصدرية والكذب مفعول «تصف» أي لا تقولوا هذا حلال وهذا حرام بسبب وصف ألسنتكم لغاية افتراء الكذب على الله.

ثم قال سبحانه في مقام تعليل النهي: «إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون» ثم بيّن حرمانهم من الفلاح بقوله: «متاع قليل ولهم عذاب أليم».

قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هادُوا حَرَّمْنا ما قَصَصْنا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ﴾ الخ؛

المراد بقوله: «ما قصصنا عليك من قبل» ـ كما قيل ـ ما قصّه تعالى على نبيه ﷺ في سورة الأنعام ـ وقد نزلت قبل سورة النحل بلا إشكال ـ بقوله: ﴿وعلى الذين هادوا حرّمنا كل ذي ظفر﴾ الى آخر الآية؛ (الأنعام / ١٤٦).

والآية في مقام دفع الدخل وفيها عطف على مسألة النسخ المذكورة سابقاً كأن قائلاً يقول: فإذا كانت محرّمات الأكل منحصرة في الأربع المذكورة: الميتة والدم ولحم الخنزير وما أُهل لغير الله به، وكان ما وراءها حلالاً فما هذه الأشياء المحرّمة على بني إسرائيل من قبل؟ هل هذا إلّا ظلم بهم؟

فأجاب عنه بأنا حرّمنا عليهم ذلك وما ظلمناهم في تحريمه ولكنهم كانوا يظلمون أنفسهم فنحرّم عليهم بعض الأشياء أي إنه كان محللاً لهم مأذوناً فيه لكنهم ظلموا أنفسهم وعصوا ربهم فجزيناهم بتحريمه عقوبة كما قال سبحانه في موضع آخر: ﴿فبظلم من الذين هادوا حرّمنا عليهم طيّبات أُحلّت لهم﴾ الآية؛ ولو أنهم بعد ذلك كله رجعوا الى ربهم وتابوا عن معاصيهم تاب الله عليهم ورفع الحظر عنهم وأذن لهم فيما منعم عنه إنه لغفور رحيم.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ الجهالة والجهل واحد وهو في الأصل ما يقابل العلم لكن الجهالة كثيراً ما تستعمل بمعنى عدم الانكشاف التام للواقع وإن لم يخل المحلّ عن علم ما مصحح للتكليف كحال ما يقترف المحرمات وهو يعلم بحرمتها لكن الأهواء النفسانية تغلبه وتحمله على المعصية ولا تدعه يتفكر في حقيقة هذه المخالفة والمعصية فله علم بما ارتكب ولذلك يؤاخذ ويعاقب على ما فعل وهو مع ذلك جاهل بحقيقة الأمر ولو تبصّر تمام التبصر لم يرتكب.

والمراد بالجهالة في الآية هذا المعنى إذ لو كان المراد هو الأول وكان ما ذكر من عمل السوء مجهولاً من حيث حكمه أو من حيث موضوعه لم يكن العمل معصية حتى يحتاج الى التوبة

فالمغفرة والرحمة.

وقوله في ذيل الآية: «إن ربك من بعدها» تلخيص لتفصيل قوله في صدرها: «إن ربك للذين» الخ؛ وفائدته حفظ فهم السامع عن التشوش والضلال وإبراز العناية ببعدية المغفرة والرحمة بالنسبة الى التوبة نظير ما مرّ من قوله: «ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ثم جاهدوا وصبروا إن ربك من بعدها لغفور رحيم».

قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ الآية؛ وما يتلوها على اتصالها بما تقدم من حصر محرمات الأكل في الأربع وتحليل ما وراءها، وهذه الآية الى تمام أربع آيات بمنزلة التفصيل لما تقدمها كأنه قيل: هذا حال ملة موسى التي حرّمنا فيها على بني إسرائيل بعض ما أُحلَّ لهم من الطيبات، وأما هذه الملة التي أنزلناها اليك فإنما هي الملة التي تحقق بها إبراهيم فاجتباه الله وهداه الى صراط مستقيم وأصلح بها دنياه وآخرته، وهي ملة معتدلة جارية على الفطرة تحلل الطيبات وتحرّم الخبائث يجلب العمل بها من الخير ما جلبه لإبراهيم عليه السلام منه.

فقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ قال في المفردات: وقوله: «إن إبراهيم كان أُمة قانتاً لله» أي قائماً مقام جماعة في عبادة الله نحو قولهم: فلان في نفسه قبيلة، انتهى؟ وهو قريب مما نقل عن ابن عباس، وقيل: معناه الإمام المقتدى به، وقيل: إنه كان أُمة منحصرة في واحد مدة من الزمان لم يكن على الأرض موحّد يوحّد الله غيره.

وقوله: ﴿قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ القنوت: الإطاعة والعبادة أو دوامها، والحنف: الميل من الطرفين الى حاقّ الوسط وهو الاعتدال.

قوله تعالى: ﴿شَاكِراً لِأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ الاجتباء من الجباية وهو الجمع واجتباء الله الانسان هو إخلاصه لنفسه وجمعه من التفرّق في المذاهب المختلفة. وفي تعقيب قوله: «شاكراً لأنعمه» بقوله: «اجتباه» الخ؛ مفصولاً إشعار بالعلّية

وذلك يؤيد ما تقدم في سورة الأعراف في تفسير قوله: ﴿ولا تجد أكثرهم شاكرين﴾ (الأعراف / ١٧)، أن حقيقة الشكر هو الإخلاص في العبودية.

قوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي ٱلْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ الحسنة هي المعيشة الحسنة فقد كان عليه السلام ذا مال كثير ومروّة عظيمة.

وقد بسطنا الكلام في معنى الاجتباء في تفسير سورة يوسف عند الآية ٦، وفي معنى الهداية والصراط المستقيم في تفسير الفاتحة عند قوله: ﴿إهدنا الصراط المستقيم﴾ (الآية ٦)، وفي معنى قوله: ﴿وإنه في الآخرة لمن الصالحين﴾ (البقرة / ١٣٠)، فراجع.

وفي توصيفه تعالى إبراهيم عليه السلام بما وصفه من الصفات إشارة الى أنها من مواهب هذا الدين الحنيف، فإن انتحل به الإنسان ساقه الى ما ساق اليه إبراهيم عليه السلام.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ تكرار اتّصافه بالحنف ونفي الشرك لمزيد العناية به.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ الى آخر الآية: قال في المفردات: أصل السبت القطع ومنه سبت السير قطعه وسبت شعره حلقه، وأنفه اصطلمه، وقيل: سُمّي يوم السبت لأن الله تعالى ابتدأ بخلق السماوات والأرض يوم الأحد فخلقها في ستة أيام كما ذكره فقطع عمله يوم السبت فسمّي بذلك.

وسبت فلان صار في السبت، وقوله: «يوم سبتهم شرّعاً» قيل: يوم قطعهم للعمل «ويوم لا يسبتون» قيل: معناه لا يقطعون العمل وقيل: يوم لا يكونون في السبت وكلاهما إشارة الى حالة واحدة، وقوله: «إنما جعل السبت» أي ترك العمل فيه «وجعلنا نومكم سباتاً» أي قطعاً للعمل وذلك إشارة الى ما قال في صفة الليل: «لتسكنوا فيه» انتهى.

فالمراد بالسبت على ما ذكره نفس اليوم لكن معنى جعله جعل ترك العمل فيه وتشريعه، ويمكن أن يكون المراد به المعنى المصدري دون اليوم المجعول فيه ذلك كما هو ظاهر قوله:

﴿ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعاً ويوم لا يسبتون لا تأتيهم ﴾ (الأعراف / ١٦٣).

وكيف كان فقد كان من طبع الكلام أن يقال: إنما جعل السبت للذين، حتى يفيد نوعاً من الاختصاص والملك وأن الله شرَّع لهم في كل أُسبوع أن يقطعوا العمل يوماً يفرغون فيه لعبادة ربهم وهو يوم السبت كما جعل للمسلمين في كل اسبوع يوماً يجتمعون فيه للعبادة والصلاة وهو يوم الجمعة.

فقوله: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾ بتعدية جعل بعلى دون اللام من قبيل قولهم: لي عليك دين وهذا عليك لا لك فتفيد معنى التكليف والتشديد والإبتلاء أي إنما جعل للتشديد عليهم وابتلائهم وامتحانهم فقد كان هذا الجعل عليهم لا لهم كما أنجر أمرهم فيه الى لعن طائفة منهم ومسخ آخرين وقد أُشير الى ذلك في سورة البقرة الآية ٦٥ وسورة النساء الآية ٤٧.

والأنسب على هذا أن يكون المراد بقوله: «اختلفوا فيه» أي في السبت اختلافهم فيه بعد التشريع فإنهم تفرقوا فيه فرقاً ممن قبله وممن رده وممن احتال للعمل فيه على ما اشير الى قصصهم في سور البقرة والنساء والأعراف لا اختلافهم فيه قبل التشريع بأن يعرض عليهم أن يسبتوا في كل اسبوع يوماً للعبادة ثم يجعل ذلك اليوم هو الجمعة فيختلفوا فيه فيجعل عليهم يوم السبت كما وقع في بعض الروايات.

والمعنى إنما جعل يوم السبت أو قطع العمل للعبادة يوماً في كل اسبوع تشديداً وابتلاء وفتنة وكلفة على اليهود الذين اختلفوا فيه بعد تشريعه بين من قبله ومن ردّه ومن احتال فيه للعمل مع التظاهر بقبوله وإن ربك ليحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون.

وبالبناء على هذا يكون وزان الآية وزان قوله السابق: «وعلى الذين هادوا حرَّمنا» الخ: في أنها في معنى الجواب عن سؤال مقدر عطفاً على ما مر من حديث النسخ، والتقدير وأما جعل السبت لليهود فإنما جعل لا لهم بل عليهم ليبتليهم الله ويفتنهم به ويشدد عليهم كما قد

تكرر نظائره فيهم لكونهم عاتين معتدين مستكبرين وبالجملة الآية ناظرة الى الإعتراض بتشريع بعض الأحكام غير الفطرية على اليهود ونسخه في هذه الشريعة.

وإنما لم يضم الى قوله سابقاً: «وعلى الذين هادوا حرمنا» الخ؛ لكون مسألة السبت مغايرة لسنخ مسألة تحليل الطيبات واستثناء محرمات الأكل، وقد عرفت أن الكلام على اتصاله من قوله: «وعلى الذين هادوا» الى قوله: «وما كان من المشركين» سبع آيات تامة ثم اتصلت بها هذه الآية وهي ثامنتها الملحقة بها.

ومن هنا يظهر الجواب عما اعترض به أن توسيط جعل السبت بين حكاية أمر النبي ﷺ باتباع ملة إبراهيم عليه السلام وبين أمره ﷺ بالدعوة اليها وبعبارة اخرى وقوع قوله: «إنما جعل السبت» الخ؛ بين قوله: «ثم أوحينا إليك» الخ؛ وقوله: «ادع الى سبيل ربك» الخ؛ كالفصل بين الشجر ولحائه.

ومحصل الجواب أن قوله: «ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم» الآية؛ من تمام السياق السابق، وقوله: «إنما جعل السبت» الآية، متصل بما تقدمه كما عرفت، وأما قوله: «ادع الى سبيل ربك» الآية؛ فهو استئناف وأمر بالدعوة الى سبيل الله بفنون الخطاب لا الى ملة إبراهيم حتى يتصل بالآية السابقة نوع اتصال وإن كان سبيل الله هو ملة إبراهيم بعينها لكن للفظ حكم وللمعنى بحسب المآل حكم آخر، فافهم.

قوله تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ الى آخر الآية لا شك في أنه يستفاد من الآية أن هذه الثلاثة: الحكمة والموعظة والمجادلة من طرق التكليم والمفاوضة فقد أُمر بالدعوة بأحد هذه الامور فهي من أنحاء الدعوة وطرقها وإن كان الجدال لا يعد دعوة بمعناها الأخص.

وقد فسرت الحكمة ـ كما في المفردات ـ بإصابة الحق بالعلم والعقل، والموعظة ـ كما عن الخليل ـ بأنه التذكير بالخير فيما يرق له القلب، والجدال ـ كما في المفردات ـ بالمفاوضة على

سبيل المنازعة والمغالبة.

والتأمل في هذه المعاني يعطي أن المراد بالحكمة ـ والله أعلم ـ الحجة التي تنتج الحق الذي لا مرية فيه ولا وهن ولا إبهام والموعظة هو البيان الذي تلين به النفس ويرق له القلب، لما فيه من صلاح حال السامع من الغبر والعبر وجميل الثناء ومحمود الأثر ونحو ذلك.

والجدال هو الحجة التي تستعمل لفتل الخصم عما يصرّ عليه وينازع فيه من غير أن يريد به ظهور الحق بالمؤاخذة عليه من طريق ما يتسلمه هو والناس أو يتسلمه هو وحده في قوله أو حجته.

فينطبق ما ذكره تعالى من الحكمة والموعظة والجدال بالترتيب على ما اصطلحوا عليه في فن الميزان بالبرهان والخطابة والجدل.

غير أنه سبحانه قيّد الموعظة بالحسنة والجدال بالتي هي أحسن، ففيه دلالة على أن من الموعظة ما ليست بحسنة ومن الجدال ما هو أحسن وما ليس بأحسن ولا حسن، والله تعالى يأمر من الموعظة بالموعظة الحسنة ومن الجدال بأحسنه.

ثم إن في قوله: «بالحكمة والموعظة الحسنة وجدالهم بالتي هي أحسن» أخذاً بالترتيب من حيث الأفراد فالحكمة مأذون فيها بجميع أفرادها، والموعظة منقسمة الى حسنة وغير حسنة والمأذون فيها منها هي الموعظة الحسنة، والمجادلة منقسمة الى حسنة وغير حسنة ثم الحسنة الى التي هي أحسن وغيرها والمأذون فيها منها التي هي أحسن، والآية ساكتة عن توزيع هذه الطرق بحسب المدعوّين بالدعوة فالملاك في استعمالها من حيث المورد حسن الأثر وحصول المطلوب وهو ظهور الحق.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ قال في المفردات: العقوبة والعقاب والمعاقبة تختص بالعذاب، انتهى. والأصل في معناه العقب وهو مؤخر الرِّجل وعقيب الشيء وعاقبة الأمر ما يليه من ورائه أو آخره،

والتعقيب الإتيان بشيء عقيب شيء ومعاقبتك غيرك أن تأتي بما يسوؤه عقيب إتيانه بما يسوؤك فينطبق على المجازاة والمكافأة بالعذاب.

فقوله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ الخطاب فيه للمسلمين ـ على ما يفيده السياق ـ ولازمه أن يكون المراد بالمعاقبة مجازاة المشركين والكفار، وبقوله: «عوقبتم به» عقاب الكفار إياهم ومجازاتهم لهم بما آمنوا بالله ورفضوا آلهتهم.

والمعنى: وإن أردتم مجازاة الكفار وعذابهم فجازوهم على ما فعلوا بكم بمثل ما عذبوكم به مجازاة لكم على إيمانكم وجهادكم في الله.

وقوله: ﴿وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ أي صبرتم على مُرّ ما عوقبتم به ولم تعاقبوا ولم تكافؤا لهو خير لكم بما أنكم صابرون لما فيه من إيثار رضى الله وثوابه فيما أصابكم من المحنة والمصيبة على رضى أنفسكم بالتشفي بالإنتقام فيكون العمل خالصاً لوجهه الكريم، ولما في الصبح والعفو من إعمال الفتوّة ولها آثارها الجميلة.

قوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ﴾ الى آخر الآية أمر للنبي ﷺ بالصبر وبشرى له أن الله قوّاه على الصبر على مرّ ما يلقاه في سبيله فإنه تعالى يذكر أن صبره إنما هو بحول وقوة من ربه ثم يأمره بالصبر ولازم الأمر قدرة المأمور على المأمور به ففي قوله: «وما صبرك إلّا بالله» إشارة الى أن الله قوّاك على ما أمرك به.

وقوله: ﴿وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أي على الكافرين لكفرهم. وقد تقدم تفسير هذا المعنى سابقاً في السورة وغيرها.

وقوله: «ولا تك في ضيق مما يمكرون» الظاهر أن المراد النهي عن التحرج من مكرهم في الحال أو على سبيل الاستمرار دون مجرد الاستقبال.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ أي إن التقوى والإحسان كل منهما سبب مستقل في موهبة النصرة الالهية وإبطال مكر أعداء الدين ودفع

كيدهم فالآية تعليل لقوله : « ولا تك في ضيق مما يمكرون » ووعد بالنصر .

وهذه الآيات الثلاث أشبه مضموناً بالآيات المدنية منها بالمكية وقد وردت روايات من طرق الفريقين أنها نزلت في منصرف النبي ﷺ عن أُحد وسيأتي في البحث الروائي وإن كان من الممكن توجيه اتصالها بما قبلها بوجه كما تصدى له بعضهم .

ومما يجب أن يتنبه له أن الآية التي قبل الثلاثة أجمع لغرض السورة من هذه الثلاث ، وأن لآيات السورة مع الإغماض عن قوله : « والذين هاجروا » الآية ، وقوله : « من كفر بعد إيمانه » الى تمام بضع آيات ، وقوله : « وإن عاقبتم » الى آخر السورة ، سياقاً واحداً متصلاً .

سورة الإسراء مكية وهي مائة وإحدى عشرة آية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

١ ● سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرىٰ بِعَبْدِهِ لَيلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ.

بيان:

السورة تتعرض لأمر توحيده تعالى عن الشريك مطلقاً ومع ذلك يغلب فيها جانب التسبيح على جانب التحميد كما بدئت به فقيل «سبحان الذي اسرى بعبده» الآية؛ وكرر ذلك فيها مرة بعد مرة كقوله: «سبحانه وتعالى عما يعقلون» الآية ٤٣ وقوله: «قل سبحان ربي» الآية ٩٣، وقوله: «ويقولون سبحان ربنا» الآية ١٠٨ حتى ان الآية الخاتمة للسورة: «وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الذل وكبره تكبيرا» تحمد الله على تنزهه عن الشريك والولي واتخاذ الولد.

والسورة مكية لشهادة مضامين آياتها بذلك . وعن بعضهم كما في روح المعاني استثناء آيتين منها وهما « وإن كادوا ليفتنونك » الآية ؛ وقوله : « وان كادوا ليستفزونك » الآية ؛ وعن بعضهم إلّا اربع آيات وهي الآيتان المذكورتان وقوله : « وإذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس » الآية ، وقوله : « وقل رب أدخلني مدخل صدق » الآية .

وعن الحسن أنها مكية إلّا خمس آيات منها وهي قوله : « ولا تقتلوا النفس » الآية ؛ « اولئك الذين يدعون » «أقم الصلاة » « وآت ذا القربى » الآية .

وعن مقاتل : مكية إلّا خمس « وإن كادوا ليفتنونك » الآية « وإن كادوا ليستفزونك » الآية ؛ « وإذ قلنا لك » الآية ؛ « وقل رب أدخلني » الآية ؛ « إن الذين اوتوا العلم من قبله » الآية .

وعن قتادة والمعدل عن ابن عباس مكية إلّا ثماني آيات وهي قوله : « وإن كادوا ليفتنونك » الآية ؛ الى قوله : « وقل رب أدخلني مدخل صدق » الآية .

ولا دلالة في مضامين الآيات على كونها مدنية ، ولا الأحكام المذكورة فيها مما يختص نزولاً بالمدينة وقد نزلت نظائرها في السور المكية كالأنعام والأعراف .

وقد افتتحت السورة فيما ترومه من التسبيح بالاشارة الى معراج النبي ﷺ فذكر إسراؤه ﷺ من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى وهو بيت المقدس والهيكل الذي بناه داود وسليمان عليهما السلام وقدسه الله لبني إسرائيل .

ثم سبق الكلام بالمناسبة الى ما قدره الله لمجتمع بني إسرائيل من الرقي والانحطاط والعزة والذلة فكلما أطاعوا رفعهم الله وكلما عصوا خفضهم الله . وقد أنزل عليهم الكتاب وأمرهم بالتوحيد ونفي الشريك .

ثم عطف فيها الكلام على حال هذه الأمة وما أُنزل عليهم من الكتاب بما يشاكل حال بني إسرائيل وأنهم إن أطاعوا أُثيبوا وإن عصوا عوقبوا فإنما هي الأعمال يعامل الانسان بما عمل منها . وعلى ذلك جرت السنة الإلهية في الامم الماضين .

ثم ذكرت فيها حقائق جمة من المعارف الراجعة الى المبدأ والمعاد والشرائع العامة من الأومر والنواهي وغير ذلك.

ومن غرر الآيات فيها قوله تعالى: «قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمان أياماً تدعوا فله الأسماء الحسنى» الآية ١١٠ من السورة، وقوله: «وكلا نمد هؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً» الآية ٢٠ منها، وقوله: «وإن من قرية إلّا نحن مهلكوها» الآية ٥٨ منها وغير ذلك.

قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرىٰ بِعَبْدِهِ لَيلاً﴾ الى آخر الآية: سبحان اسم مصدر للتسبيح بمعنى التنزيه ويستعمل مضافاً وهو مفعول مطلق قائم مقام فعله فتقدير «سبحان الله» سبحت الله تسبيحاً أي نزهته عن كل ما لا يليق بساحة قدسه وكثيراً ما يستعمل للتعجب لكن سياق الآيات إنما يلائم التنزيه لكونه الغرض من البيان وإن أصر بعضهم على كونه للتعجب.

والإسراء والسرى السير بالليل يقال: سرى وأسرى أي سار ليلا وسرى وأسرى به أي سار به ليلا، والسير يختص بالنهار أو يعمه والليل.

وقوله: «ليلا» مفعول فيه ويفيد من الفائدة أن هذا الإسراء تم له بالليل فكان الرواح والمجيء في ليلة واحدة قبل أن يطلع فجرها.

وقوله: ﴿إِلَى ٱلمَسْجِدِ الأَقْصَى﴾ هو بيت المقدس بقرينة قوله: ﴿الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾. والقصى البعد وقد سمي المسجد الاقصى لكونه أبعد مسجد بالنسبة الى مكان النبي ﷺ ومن معه من المخاطبين وهو مكة التي فيها المسجد الحرام.

وقوله: ﴿لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنا﴾ بيان غاية الإسراء وهي إراءة بعض الآيات الإلهية ـ لمكان من ـ وفي السياق دلالة على عظمة هذه الآيات التي أراها الله سبحانه كما صرح به في موضع آخر من كلامه يذكر فيه حديث المعراج بقوله: ﴿لقد رأى من آيات ربه الكبرى﴾

(النجم / ١٨).

وقوله: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ تعليل لإسرائه به لإراءة آياته أي إنه سميع لاقوال عباده بصير بأفعالهم وقد سمع من مقال عبده ورأى من حاله ما استدعى أن يكرمه هذا الإكرام فيسري به ليلا ويريه من آياته الكبرى.

وفي الآية التفات من الغيبة الى التكلم مع الغير في قوله: «باركنا حوله لنريه من آياتنا» ثم رجوع الى الغيبة السابقة والوجه فيه الإشارة الى أن الإسراء وما ترتب عليه من إراءة الآيات إنما صدر عن ساحة العظمة والكبرياء وموطن العزة والجبروت فعملت فيه السلطنة العظمى وتجلى الله له بآياته الكبرى، ولو قيل: ليريه من آياته أو غير ذلك لفاتت النكتة.

والمعنى: لينزه تنزيهاً من أسرى بعظمته وكبريائه وبالغ قدرته وسلطانه بعبده محمد في جوف ليلة واحدة من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى وهو بيت المقدس الذي بارك حوله ليريه بعظمته وكبريائه آياته الكبرى، وإنما فعل به ذلك لانه سميع بصير علم بما سمع من مقاله ورأى من حاله أنه خليق أن يكرم هذه التكرمة.

بحث روائي:

في تفسير القمي عن أبيه عن ابن أبي عمير عن هشام بن سالم عن أبي عبدالله عليه السلام قال: جاء جبرئيل وميكائيل وإسرافيل بالبراق الى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأخذ واحد باللجام وواحد بالركاب وسوى الآخر عليه ثيابه فتضعضعت البراق فلطمها جبرائيل ثم قال لها: اسكني يا براق فما ركبك نبي قبله ولا يركبك بعده مثله.

قال: فرفَّت به ورفعته ارتفاعاً ليس بالكثير ومعه جبرئيل يريه الآيات من السماء والأرض. قال: فبينا أنا في مسيري إذ نادى مناد عن يميني: يا محمد فلم أجبه ولم التفت اليه ثم نادى مناد عن يساري: يا محمد فلم أجبه ولم التفت اليه ثم استقبلتني امرأة كاشفة عن

ذراعيها عليها من كل زينة الدنيا فقالت: يا محمد انظرني حتى اكلمك فلم التفت اليها ثم سرت فسمعت صوتاً أفزعني فجاوزت فنزل بي جبرئيل فقال: صل فصليت فقال: تدري أين صلت؟ قلت: لا. فقال: صليت بطور سيناء حيث كلم الله موسى تكليماً ثم ركبت فمضينا ما شاء الله ثم قال لي: انزل فصل فنزلت وصليت فقال لي: تدري أين صليت؟ فقلت: لا. قال: صليت في بيت لحم، وبيت لحم بناحية بيت المقدس حيث ولد عيسى بن مريم.

ثم ركبت فمضينا حتى انتهينا الى بيت المقدس فربطت البراق بالحلقة التي كانت الأنبياء تربط بها فدخلت المسجد ومعي جبرئيل الى جنبي فوجدنا ابراهيم وموسى وعيسى فيمن شاء الله من أنبياء الله عليهم السلام فقد جمعوا إلي وأقيمت الصلاة ولا أشك إلّا وجبرئيل سيتقدمنا فلما استووا أخذ جبرئيل بعضدي فقدمني وأممتهم ولا فخر.

ثم أتاني الخازن بثلاثة أواني إناء فيه لبن وإناء فيه ماء وإناء فيه خمر، وسمعت قائلا يقول: إن أخذ الماء غرق وغرقت امته، وإن أخذ الخمر غوى وغويت امته وإن أخذ اللبن هدى وهديت امته قال: فأخذت اللبن وشربت منه فقال لي جبرئيل: هديت وهديت امتك.

ثم قال لي: ماذا رأيت في مسيرك؟ فقلت: ناداني مناد عن يميني فقال: أوأجبته فقلت: لا ولم ألتفت اليه فقال: داعي اليهود لو أجبته لتهودت امتك من بعدك ثم قال ماذا رأيت؟ فقلت ناداني مناد عن يساري فقال لي: أو أجبته؟ فقلت: لا ولم التفت اليه فقال: ذاك داعي النصارى ولو أجبته لتنصرت امتك من بعدك. ثم قال: ماذا استقبلك؟ فقلت: لقيت امرأة كاشفة عن ذراعيها عليها من كل زينة الدنيا فقالت: يا محمد انظرني حتى أُكلمك. فقال: أوكلمتها؟ فقلت: لم اكلمها ولم التفت اليها فقال: تلك الدنيا ولو كلمتها لاختارت امتك الدنيا على الآخرة.

ثم سمعت صوتاً أفزعني، فقال لي جبرئيل: أتسمع يا محمد؟ قلت: نعم قال: هذه صخرة

قذفتها عن شفير جهنم منذ سبعين عاماً فهذا حين استقرت قالوا: فما ضحك رسول الله ﷺ حتى قبض.

قال: فصعد جبرئيل وصعدت معه الى السماء الدنيا وعليها ملك يقال له: اسماعيل وهو صاحب الخطفة التي قال الله عز وجل: «إلا من خطف الخطفة فاتبعه شهاب ثاقب» وتحته سبعون الف ملك تحت كل ملك سبعون الف ملك.

فقال: يا جبرئيل! من هذا الذي معك؟ فقال: محمد رسول الله قال: وقد بعث؟ قال: نعم ففتح الباب فسلمت عليه وسلم علي واستغفرت له واستغفر لي وقال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح، وتلقتني الملائكة حتى دخلت السماء الدنيا فما لقيني ملك إلّا ضاحكاً مستبشراً حتى لقيني ملك من الملائكة لم أر أعظم خلقاً منه كريه المنظر ظاهر الغضب فقال لي مثل ما قالوا من الدعاء إلّا أنه لم يضحك ولم أر فيه من الاستبشار ما رأيت من ضحك الملائكة فقلت: من هذا يا جبرئيل فإني قد فزعت منه؟ فقال: يجوز أن يفزع منه فكلنا نفزع منه إن هذا مالك خازن النار لم يضحك قط، ولم يزل منذ أن ولاه الله جهنم يزداد كل يوم غضباً وغيظاً على أعداء الله وأهل معصيته فينتقم الله به منهم، ولو ضحك الى أحد قبلك أو كان ضاحكاً الى أحد بعدك لضحك اليك فسلمت عليه فرد السلام علي وبشرني بالجنة.

فقلت لجبرئيل وجبرئيل بالمكان الذي وصفه الله «مطاع ثم أمين»: ألا تأمره أن يريني النار؟ فقال له جبرئيل: يا مالك أر محمداً النار فكشف عنها غطاءها وفتح باباً منها فخرج منها لهب ساطع في السماء وفارت وارتفعت حتى ظننت ليتناولني مما رأيت فقلت: يا جبرئيل! قل له فليرد عليها غطاءها فأمره فقال لها: ارجعي فرجعت الى مكانها الذي خرجت منه.

ثم مضيت فرأيت رجلاً آدماً جسيماً فقلت: من هذا يا جبرئيل؟ فقال: هذا أبوك آدم فإذا هو يعرض عليه ذريته فيقول: روح طيبة وريح طيبة من جسد طيب ثم تلا رسول الله ﷺ

سورة المطففين على رأس سبع عشرة آية «كلا إن كتاب الأبرار لفي عليين وما أدراك ما عليون كتاب مرقوم يشهده المقربون» الى آخرها؛ قال: فسلمت على أبي آدم وسلم علي واستغفرت له واستغفر لي، وقال: مرحباً بالابن الصالح والنبي الصالح المبعوث في الزمن الصالح.

قال: ثم مررت بملك من الملائكة جالس على مجلس واذا جميع الدنيا بين ركبتيه وإذا بيده لوح من نور ينظر فيه مكتوب فيه كتاب ينظر فيه لا يتلفت يميناً ولا شمالاً، مقبلا عليه كهيئة الحزين فقلت: من هذا يا جبرئيل؟ قال: هذا ملك الموت دائب في قبض الأرواح فقلت: يا جبرئيل أدنني منه حتى اكلمه فأدناني منه فسلمت عليه، وقال له جبرئيل: هذا محمد نبي الرحمة الذي أرسله الله الى العباد فرحب بي وحياني بالسلام وقال: أَبشر يا محمد فإني أرى الخير كله في امتك فقلت: الحمد لله المنان ذي النعم على عباده ذلك من فضل ربي ورحمته علي فقال جبرئيل: هو أشد الملائكة عملا فقلت: أكل من مات أو هو ميت فيما بعد هذا تقبض روحه؟ فقال: نعم. قلت: وتراهم حيث كانوا وتشهدهم بنفسك؟ فقال: نعم. فقال ملك الموت: ما الدنيا كلها عندي فيما سخره الله لي ومكنني عليها إلّا كالدرهم في كف الرجل يقلبه كيف يشاء، وما من دار إلّا وأنا أتصفحه كل يوم خمس مرات، وأقول اذا بكى أهل الميت على ميتهم: لا تبكوا عليه فإن لي فيكم عودة وعودة حتى لا يبقى منكم أحد فقال رسول الله ﷺ: كفى بالموت طامة يا جبرئيل فقال جبرئيل: إن ما بعد الموت أطم وأطم من الموت.

قال: ثم مضيت فإذا أنا بقوم بين أيديهم موائد من لحم طيب ولحم خبيث يأكلون اللحم الخبيث ويدعون الطيب فقلت: من هؤلاء يا جبرئيل؟ فقال: هؤلاء الذين يأكلون الحرام ويدعون الحلال وهم من امتك يا محمد.

فقال رسول الله ﷺ: ثم رأيت ملكاً من الملائكة جعل الله أمره عجيباً نصف جسده

الناس والنصف الآخر ثلج فلا النار تذيب الثلج ولا الثلج تطفىء النار وهو ينادي بصوت رفيع ويقول : سبحان الذي كف حر هذه النار فلا تذيب الثلج وكف برد هذا الثلج فلا يطفىء حر هذه النار اللهم يا مؤلف بين الثلج والنار ألف بين قلوب عبادك المؤمنين فقلت : من هذا يا جبرئيل ؟ فقال : هذا ملك وكله الله بأكناف السماء واطراف الأرضين وهو انصح ملائكة الله لأهل الأرض من عباده المؤمنين يدعو لهم بما تسمع منذ خلق.

ورأيت ملكين يناديان في السماء احدهما يقول : اللهم اعط كل منفق خلفاً والآخر يقول : اللهم اعط كل ممسك تلفاً.

ثم مضيت فإذا أنا بأقوام لهم مشافر كمشافر الإبل يقرض اللحم من جنوبهم ويلقي في افواههم فقلت : من هؤلاء يا جبرئيل ؟ فقال : هؤلاء الهمازون اللمازون.

ثم مضيت فإذا انا بأقوام ترضخ رؤسهم بالصخر فقلت : من هؤلاء يا جبرئيل ؟ فقال : هؤلاء الذين ينامون عن صلاة العشاء.

ثم مضيت فإذا أنا بأقوام تقذف النار في أفواههم وتخرج من ادبارهم فقلت : من هؤلاء يا جبرئيل ؟ قال : هؤلاء الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيرا.

ثم مضيت فاذا انا باقوام يريد احدهم ان يقوم فلا يدر من عظم بطنه فقلت : من هؤلاء يا جبرئيل ؟ قال : هؤلاء الذين ياكلون الربا لا يقومون إلّا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس. وإذا هم بسبيل آل فرعون يعرضون على الناس غدواً وعشياً يقولون ربنا متى تقوم الساعة ؟.

قال : ثم مضيت فاذا أنا بنسوان معلقات بثديهن فقلت : من هؤلاء يا جبرئيل ؟ فقال : هؤلاء اللواتي يورثت أموال أزواجهن أولاد غيرهم. ثم قال رسول الله ﷺ : اشتد غضب الله على إمرأة أدخلت على قوم في نسبهم من ليس منهم فاطلع على عوراتهم وأكل خزائنهم.

ثم قال: مررنا بملائكة من ملائكة الله عز وجل خلقهم الله كيف شاء ووضع وجوههم كيف شاء، ليس شيء من أطباق أجسادهم إلّا وهو يسبح الله ويحمده من كل ناحية باصوات مختلفة اصوات مرتفعة بالتحميد والبكاء من خشية الله فسألت جبرئيل عنهم فقال: كما ترى خلقوا إن الملك منهم الى جنب صاحبه ما كلمهم كلمة قط ولا رفعوا رؤسهم الى ما فوقها ولا خفضوها الى ما تحتها خوفاً من الله وخشوعاً فسلمت عليهم فردوا علي ايماء برؤسهم لا ينظرون إلي من الخشوع فقال لهم جبرئيل: هذا محمد نبي الرحمة أرسله الله الى العباد رسولا ونبياً. وهو خاتم النبيين وسيدهم أفلا تكلمون؟ قال: فلما سمعوا ذلك من جبرئيل أقبلوا علي بالسلام وأكرموني وبشروني بالخير لي ولامتي.

قال: ثم صعدنا الى السماء الثانية فاذا فيها رجلان متشابهان فقلت: من هذان يا جبرئيل؟ فقال لي: ابنا الخالة يحيى وعيسى عليهما السلام فسلمت عليهما وسلما علي واستغفرت لهما واستغفرا لي وقالا: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح وإذا فيها من الملائكة وعليهم الخشوع قد وضع الله وجوههم كيف شاء ليس منهم ملك الا يسبح الله بحمده بأصوات مختلفة.

ثم صعدنا الى السماء الثالثة فاذا فيها رجل فضل حسنه على سائر الخلق كفضل القمر ليله البدر على سائر النجوم فقلت: من هذا يا جبرئيل؟ فقال: هذا أخوك يوسف فسلمت عليه وسلم علي واستغفرت له واستغفر لي، وقال: مرحباً بالنبي الصالح والأخ الصالح والمبعوث في الزمن الصالح، وإذا فيها ملائكة عليهم من الخشوع مثل ما وصفت في السماء الاولى والثانية، وقال لهم جبرئيل في أمري ما قال للآخرين وصنعوا في مثل ما صنع الآخرون.

ثم صعدنا الى السماء الرابعة وإذا فيها رجل فقلت: من هذا يا جبرئيل؟ فقال: هذا إدريس رفعه الله مكاناً علياً فسلمت عليه وسلم علي واستغفرت له واستغفر لي، وإذا فيها من الملائكة الخشوع مثل ما في السموات التي عبرناها فبشروني بالخير لي ولامتي، ثم رأيت ملكاً جالساً على سرير تحت يديه سبعون الف ملك تحت كل ملك سبعون الف ملك فوقع في نفس رسول

الله ﷺ أنه هو فصاح به جبرئيل فقال: قم فهو قائم الى يوم القيامة.

ثم صعدنا الى السماء الخامسة فاذا فيها رجل كهل عظيم العين لم أر كهلا أعظم منه حوله ثلة من امته فأعجبني كثرتهم فقلت: من هذا يا جبرئيل؟ فقال: هذا المحبب في قومه هارون بن عمران فسلمت عليه وسلم علي واستغفرت له واستغفر لي وإذا فيها من الملائكة الخشوع مثل ما في السماوات.

ثم صعدنا الى السماء السادسة وإذا فيها رجل آدم طويل كأنه من شنوة ولو أن له قميصين لنفذ شعره فيهما وسمعته يقول: يزعم بنو إسرائيل أني أكرم ولد آدم على الله وهذا رجل أكرم على الله مني فقلت: من هذا يا جبرئيل؟ فقال: هذا أخوك موسى بن عمران فسلمت عليه وسلم علي واستغفرت له واستغفر لي، وإذا فيها من الملائكة الخشوع مثل ما في السماوات.

قال: ثم صعدنا الى السماء السابعة فما مررت بملك من الملائكة إلّا قالوا: يا محمد احتجم وامر امتك بالحجامة، وإذا فيها رجل أشمط الرأس واللحية جالس على كرسي فقلت: يا جبرئيل من هذا الذي في السماء السابعة على باب البيت المعمور في جوار الله؟ فقال: هذا يا محمد أبوك إبراهيم وهذا محلك ومحل من اتقى من امتك ثم قرء رسول الله: «إن أولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين» فسلمت عليه وسلم علي وقال: مرحباً بالنبي الصالح والابن الصالح والمبعوث في الزمن الصالح واذا فيها من الملائكة الخشوع مثل ما في السموات فبشروني بالخير لي ولامتي.

قال رسول الله ﷺ: ورأيت في السماء السابعة بحارا من نور تتلألأ تلألؤها يخطف بالأبصار، وفيها بحار من ظلمة وبحار من ثلج ترعد فكلما فزعت ورأيت هولاً سألت جبرئيل فقال: ابشر يا محمد واشكر كرامة ربك واشكر الله بما صنع اليك قال: فثبتني الله بقوته وعونه حتى كثر قولي لجبرئيل وتعجبي.

فقال جبرئيل: يا محمد تعظم ما ترى؟ إنما هذا خلق من خلق ربك فكيف بالخالق الذي

خلق ما ترى وما لا ترى أعظم من هذا من خلق ربك إن بين الله وبين خلقه سبعين ألف حجاب وأقرب الخلق الى الله أنا وإسرافيل وبيننا وبينه أربعة حجب حجاب من نور وحجاب من الظلمة وحجاب من الغمامة وحجاب من الماء.

قال: ورأيت من العجائب التي خلق الله وسخر على ما أراده ديكاً رجلاه في تخوم الأرضين السابعة ورأسه عند العرش وهو ملك من ملائكة الله تعالى خلقه الله كما أراد رجلاه في تخوم الأرضين السابعة ثم أقبل مصعداً حتى خرج في الهواء الى السماء السابعة وانتهى فيها مصعداً حتى انتهى قرنه الى قرب العرش وهو يقول: سبحان ربي حيثما كنت لا تدري أين ربك من عظم شأنه، وله جناحان في منكبه إذا نشرهما جاوزا المشرق والمغرب فاذا كان في السحر نشر جناحيه وخفق بهما وصرخ بالتسبيح يقول: سبحان الله الملك القدوس، سبحان الله الكبير المتعال لا إله إلّا الله الحي القيوم وإذا قال ذلك سبحت ديوك الأرض كلها وخفقت باجنحتها وأخذت بالصراخ فاذا سكت ذلك الديك في السماء سكت ديوك الأرض كلها، ولذلك الديك زغب أخضر وريش أبيض كاشد بياض ما رأيته قط، وله زغب أخضر أيضاً تحت ريشه الابيض كأشد خضرة ما رايتها قط.

قال: ثم مضيت مع جبرئيل فدخلت البيت المعمور فصليت فيه ركعتين ومعي اناس من اصحابي عليهم ثياب جدد وآخرين عليهم خلقان فدخل أصحاب الجدد وجلس أصحاب الخلقان.

ثم خرجت فانقاد لي نهران نهر يسمى الكوثر ونهر يسمى الرحمة فشربت من الكوثر واغتسلت من الرحمة ثم انقادا لي جميعا حتى دخلت الجنة وإذا على حافتيها بيوتي وبيوت أهلي وإذا ترابها كالمسك، واذا جارية تنغمس في أنهار الجنة فقلت: لمن أنت يا جارية؟ فقالت: لزيد بن حارثه فبشرته بها حين أصبحت، واذا بطيرها كالبخت، واذا رمانها مثل الدلي العظام، واذا شجرة لو ارسل طائر في اصلها ما دارها سبعمائة سنة، وليس في الجنة منزل

الا وفيه غصن منها فقلت: ما هذه يا جبرئيل؟ فقال: هذه شجرة طوبى قال الله: «طوبى لهم وحسن مآب».

قال رسول الله ﷺ: فلما دخلت الجنة رجعت الى نفسي فسألت جبرئيل عن تلك البحار وهولها واعاجيبها فقال: هي سرا دقات الحجب التي احتجب الله تبارك وتعالى بها ولولا تلك الحجب لهتك نور العرش كل شيء فيه.

وانتهيت الى سدرة المنتهى فاذا الورقة منها تظل امة من الامم فكنت منها كما قال الله تعالى: «قاب قوسين أو أدنى» فناداني «آمن الرسول بما أُنزل اليه من ربه» فقلت أنا مجيباً عني وعن امتي: «والمؤمنون كل آمن بالله وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا واليك المصير» فقال الله: «لا يكلف الله نفساً الا وسعها، لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت» فقلت: «ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا أو أخطانا» فقال الله: لا اؤاخذك. فقلت «ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا» فقال الله: احملك فقلت: «ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا انت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين» فقال الله تبارك وتعالى: قد اعطيتك ذلك لك ولامتك. فقال الصادق ؑ: ما وفد الى الله تعالى احد اكرم من رسول الله ﷺ حين سأل لامته هذه الخصال.

فقال رسول الله ﷺ: يارب أعطيت أنبياءك فضائل فاعطني فقال الله: قد أعطيتك فيما اعطيتك كلمتين من تحت عرشي: لا حول ولا قوة الا بالله، ولا منجا منك الا اليك.

قال: وعلمتني الملائكة قولا اقوله اذا اصبحت وأمسيت: اللهم ان ظلمي اصبح مستجيراً بعفوك. وذنبي اصبح مستجيراً بمغفرتك وذلي اصبح مستجيراً بعزتك. وفقري اصبح مستجيرا بغناك ووجهي الفاني اصبح مستجيرا بوجهك الباقي الذي لا يفنى، واقول ذلك اذا امسيت.

ثم سمعت الأذان فإذا ملك يؤذن لم ير في السماء قبل تلك الليلة فقال: الله أكبر الله أكبر فقال الله: صدق عبدي أنا أكبر من كل شيء فقال: «أشهد أن لا إله إلّا الله أشهد أن لا إله إلّا الله» فقال الله: صدق عبدي أنا الله لا إله إلّا أنا ولا إله غيري فقال: «أشهد أن محمداً رسول الله أشهد أن محمداً رسول الله» فقال الله: صدق عبدي إن محمداً عبدي ورسولي انا بعثته وانتجبته فقال: «حي على الصلاة حي على الصلاة» فقال: صدق عبدي دعا الى فريضتي فمن مشى اليها راغباً فيها محتسباً كانت له كفارة لما مضى من ذنوبه فقال: «حي على الفلاح حي على الفلاح» فقال الله: هي الصلاح والنجاح والفلاح. ثم أممت الملائكة في السماء كما أممت الأنبياء في بيت المقدس.

قال: ثم غشيتني ضبابة فخررت ساجداً فناداني ربي أني قد فرضت على كل نبي كان قبلك خمسين صلاة وفرضتها عليك وعلى امتك فقم بها انت في امتك قال رسول الله ﷺ: فانحدرت حتى مررت على ابراهيم فلم يسألني عن شيء حتى انتهيت الى موسى فقال: ما صنعت يا محمد؟ فقلت: قال ربي: فرضت على كل نبي كان قبلك خمسين صلاة وفرضتها عليك وعلى امتك. فقال موسى: يا محمد ان امتك آخر الأمم وأضعفها وإن ربك لا يزيده شيء وإن امتك لا تستطيع أن تقوم بها فارجع الى ربك فاسأله التخفيف لامتك.

فرجعت الى ربي حتى انتهيت الى سدرة المنتهى فخررت ساجداً ثم قلت: فرضت علي وعلى امتي خمسين صلاة ولا أُطيق ذلك ولا امتي فخفف عني فوضع عني عشراً فرجعت الى موسى فأخبرته فقال: ارجع لا تطيق فرجعت الى ربي فوضع عني عشراً فرجعت الى موسى فأخبرته فقال: ارجع وفي كل رجعة أرجع اليه أخر ساجداً حتى رجع الى عشر صلوات فرجعت الى موسى واخبرته فقال: لا تطيق فرجعت الى ربي فوضع عني خمسا فرجعت الى موسى واخبرته فقال: لا تطيق فقلت: قد استحييت من ربي ولكن اصبر عليها فناداني مناد: كما صبرت عليها فهذه الخمس بخمسين كل صلاة بعشر، ومن هم من امتك بحسنة يعملها

فعملها كتبت له عشراً وإن لم يعمل كتبت له واحدة، ومن هم من امتك بسيئة فعملها كتبت عليه واحدة وإن لم يعملها لم أكتب عليه.

فقال الصادق عليه السلام: جزى الله موسى عن هذه الامة خيراً فهذا تفسير قول الله: «سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير».

اقول: وقد ورد ما يقرب مما قصته هذه الرواية في روايات كثيرة جداً من طرق الشيعة وأهل السنة، وقوله في الرواية: «رجلاً آدماً» يقال: رجل آدم أي أسمر اللون، والطامة هي الأمر الشديد الذي يغلب ما سواه، ولذلك سميت القيامة بالطامة، والأكتاف جمع كتف والمراد الأطراف والنواحي، وقوله: «فوقع في نفس رسول الله أنه هو» أي أنه الملك الذي يدبر أمر العالم وينتهي اليه كل أمر.

وقوله: شنوة بالشين والنون والواو وربما يهمز قبيلة كانوا معروفين بطول القامة، وقوله: «أشمط الرأس واللحية» الشمط بياض الشعر يخالطه سواد، والزغب أول ما يبدو من الشعر والريض وصغارهما، والبخت الإبل الخراساني والدلي بضم الدال وكسر اللام وتشديد الياء جمع دلو على فعول، والصبابة بفتح الصاد لمهملة والباء الموحدة الشوق والهوى الرقيق وبالمعجمة مضمومة الغيم الرقيق.

وفي أمالي الصدوق عن أبيه عن علي عن أبيه عن ابن أبي عمير عن أبان بن عثمان عن أبي عبدالله جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام قال: لمّا أُسري برسول الله صلى الله عليه وآله الى بيت المقدس حمله جبرئيل على البراق فأتيا بيت المقدس وعرض عليه محاريب الأنبياء وصلّى بها وردّه فمر رسول الله صلى الله عليه وآله في رجوعه بعير لقريش واذا لهم ماء في آنية وقد أضلّوا بعيراً لهم وكانوا يطلبونه فشرب رسول الله صلى الله عليه وآله من ذلك الماء وأهرق باقيه.

فلمّا أصبح رسول الله صلى الله عليه وآله قال لقريش: إنّ الله جلّ جلاله قد اسرى بي الى بيت المقدس

وأراني آثار الأنبياء ومنازلهم، وإني مررت بعير لقريش في موضع كذا وكذا وقد أضلّوا بعيراً لهم فشربت من مائهم وأهرقت باقي ذلك فقال أبو جهل: قد أمكنتكم الفرصة منه فاسألوه كم الأساطين فيها والقناديل؟ فقال: يا محمّد إن هاهنا من قد دخل بيت المقدس فصف لنا كم أساطينه وقناديله ومحاريبه؟ فجاء جبرئيل فعلق صورة بيت المقدس تجاه وجهه فجعل يخبرهم بما يسألونه عنه فلما أخبرهم، قالوا: حتى يجيء العير ونسألهم عما قلت، فقال لهم رسول الله ﷺ: تصديق ذلك أن العير يطلع عليكم مع طلوع الشمس يقدمها جمل أورق.

فلما كان من الغد أقبلوا ينظرون الى العقبة ويقولون هذه الشمس تطلع الساعة فبينما هم كذلك إذ طلعت عليهم العير حين طلع القرص يقدمها جمل أورق فاخبروهم عما قال رسول الله ﷺ فقالوا: لقد كان هذا: ضل جمل لنا في موضع كذا وكذا، ووضعنا ماء فأصبحنا وقد أُهريق الماء فلم يزدهم ذلك إلّا عتوّا.

أقول: وفي معناها روايات اخرى من طريق الفريقين.

وفيه بإسناده عن عبدالله بن عباس قال: إن رسول الله ﷺ لما أُسري به الى السماء انتهى به جبرئيل الى نهر يقال له النور وهو قوله عزوجل: «جعل الظلمات والنور» فلما انتهى به الى ذلك قال له جبرئيل: يا محمد اعبر على بركة الله فقد نوّر الله لك بصرك ومر لك أمامك فإن هذا نهر لم يعبره أحد لا ملك مقرب ولا نبي مرسل غير أن لي في يوم اغتماسة فيه ثم أخرج منه فأنفض أجنحتي فليس من قطرة تقطر من أجنحتي إلا خلق الله تبارك وتعالى منها ملكاً مقرباً له عشرون ألف وجه وأربعون ألف لسان كل لسان يلفظ بلغة لا يفقهها اللسان الآخر.

فعبر رسول الله ﷺ حتى انتهى الى الحجب والحجب خمس مائة حجاب من الحجاب الى الحجاب مسيرة خمسمائة عام ثم قال: تقدم يا محمد فقال له: يا جبرئيل ولم لا تكون معني؟ قال: ليس لي أن أجوز هذا المكان فتقدم رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يتقدم حتى سمع ما قال الرب تبارك وتعالى: أنا المحمود وأنت محمد شققت اسمك من اسمي فمن وصلك وصلته ومن

قطعك بتكته انزل الى عبادي فأخبرهم بكرامتي إياك وأني لم أبعث نبياً إلا جعلت له وزيـرا وإنك رسولي وإن عليا وزيرك.

وفي المناقب عن ابن عباس في خبر: وسمع يعني رسـول الله ﷺ صـوتا «آمـنا بـرب العالمين» قال يعني جبرئيل: هؤلاء سحرة فرعون، وسمع لبيك اللـهم لبـيك قـال: هـؤلاء الحجاج، وسمع التكبير قال: هؤلاء الغزاة، وسمع التسبيح قال: هؤلاء الأنبياء.

فلما بلغ الى سدرة المنتهى وانتهى الى الحجب، قال جبرئيل: تقدم يا رسول الله ليس لي أن أجوز هذا المكان ولو دنوت أنملة لاحترقت.

وفي الاحتجاج عن ابن عباس قال: قال النبي ﷺ فيما احتج على اليهود: حملت عـلى جناح جبرئيل حتى انتهيت الى السماء السابعة فجاوزت سدرة المنتهى عندها جـنة المأوى حتى تعلقت بساق العرش فنوديت من ساق العرش: إني أنا الله لا إله إلّا أنا السلام للمؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الرؤف الرحيم فرأيته بقلبي وما رأيته بعيني. الخبر.

وفي الكافي بإسناده عن أبي الربيع قال: حججنا مع أبي جعفر عليه السلام في السنة التي كان حج فيها هشام بن عبدالملك وكان معه نافع مولى عمر بن الخطاب فنظر نافع الى أبي جعفر عليه السلام في ركن البيت وقد اجتمع اليه الناس فقال نافع: يا أمير المؤمنين من هذا الذي قد تداك عـليه الناس؟ فقال: هذا نبي أهل الكوفة هذا محمد بن علي فقال: اشهد لآتينه فلأسألنه من مسائل لا يجيبني فيها إلّا نبي أو وصي أو ابن نبي. قال: فاذهب اليه واسأله لعلك تخجله.

فجاء نافع حتى اتكى على الناس ثم أشرف على أبي جعفر عليه السلام وقال: يا محمد ابن علي إني قرأت التوراة والإنجيل والزبور والفرقان وقد عرفت حلالها وحرامها، وقد جئت أسألك عن مسائل لا يجيب فيها إلّا نبي أو وصي نبي أو ابن نبي. قال: فرفع أبو جعفر عليه السلام رأسه وقال: سل عما بدا لك.

فقال: أخبرني كم بين عيسى وبين محمد من سنة؟ قال: أُخبرك بقولي أو بـقولك قـال:

أخبرني بالقولين جميعاً قال: أما في قولي فخمسمائة سنة، وأما في قولك فستمائة سنة، قال: فأخبرني عن قول الله عز وجل: ﴿ **واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمان آلهة يعبدون** ﴾ من الذي سأله محمد ﷺ وكان بينه وبين عيسى عليه السلام خمسمائة سنة؟.

قال: فتلا أبو جعفر عليه السلام هذه الآية: ﴿ **سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا** ﴾ فكان من الآيات التي أراها الله تبارك وتعالى محمداً ﷺ حيث أسرى به الى البيت المقدس أن حشر الله الأولين والآخرين من النبيين والمرسلين ثم أمر جبرئيل فأذّن شفعا وأقام شفعا، وقام في أذانه حي على خير العمل ثم تقدم محمد ﷺ فصلى بالقوم.

فلما انصرف قال لهم: على ما تشهدون؟ ما كنتم تعبدون؟ قالوا: نشهد أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له وأنك رسول الله اخذ على ذلك عهودنا ومواثيقنا. فقال: نافع: صدقت يا أبا جعفر.

وفي العلل باسناده عن ثابت بن دينار قال: سألت زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام عن الله جل جلاله هل يوصف بمكان؟ فقال: تعالى الله عن ذلك. قلت: فلِمَ أسرى بنبيه محمد ﷺ الى السماء؟ قال: ليريه ملكوت السماوات وما فيها من عجائب صنعه وبدائع خلقه.

قلت: فقول الله عزوجل: ﴿ **ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى** ﴾ قال: ذاك رسول الله ﷺ دنا من حجب النور فرأى ملكوت السماوات ثم تدلى فنظر من تحت الى ملكوت الأرض حتى ظن أنه في القرب من الأرض كقاب قوسين أو أدنى.

وفي تفسير القمي باسناده عن إسماعيل الجعفي قال: كنت في المسجد الحرام قاعداً وأبوجعفر عليه السلام في ناحية فرفع رأسه فنظر الى السماء مرة والى الكعبة مرة ثم قال: «سبحان الذي اسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى» وكرر ذلك ثلاث مرات ثم

التفت إلي فقال: أي شيء يقولون أهل العراق في هذه الآية يا عراقي؟ قلت: يقولون اسرى به من المسجد الحرام الى البيت المقدس. فقال: ليس هو كما يقولون ولكنه اسري به من هذه الى هذه وأشار بيده الى السماء وقال: ما بينهما حرم.

قال: فلما انتهى به الى سدرة المنتهى تخلف عنه جبرئيل فقال رسول الله ﷺ: يا جبرئيل أفي مثل هذا الموضع تخذلني؟ فقال: تقدم أمامك فوالله لقد بلغت مبلغاً لم يبلغه خلق من خلق الله قبلك فرأيت ربي وحال بيني وبينه السبحة قلت: وما السبحة جعلت فداك؟ فأومأ بوجهه الى الأرض وأومأ بيده الى السماء وهو يقول: جلال ربي جلال ربي، ثلاث مرات. قال: يا محمد قلت: لبيك يارب قال: فيم اختصم الملأ الأعلى؟ قلت سبحانك لا علم لي إلا ما علمتني.

قال: فوضع يده بين ثديي فوجدت بردها بين كتفي. قال: فلم يسألني عما مضى ولا عما بقي الا علمته فقال: يا محمد فيم اختصم الملأ الأعلى؟ قال: قلت: في الدرجات والكفارات والحسنات فقال: يا محمد انه قد انقضت نبوتك وانقطع أكلك فمن وصيك؟ فقلت: يارب اني قد بلوت خلقك فلم أر فيهم من خلقك أحد أطوع لي من علي فقال: ولي يا محمد فقلت: يارب اني قد بلوت خلقك فلم أر من خلقك أحداً أشد حبا لي من علي بن أبي طالب قال: ولي يا محمد فبشره بأنه آية الهدى وامام أوليائي ونور لمن أطاعني والكلمة الباقية التي ألزمتها المتقين من أحبه أحبني ومن أبغضه أبغضني معها أني أخصه بما لم أخص به أحداً فقلت: يارب أخي وصاحبي ووزيري ووارثي فقال: انه أمر قد سبق انه مبتلى به معها أني قد نحلته ونحلته ونحلته ونحلته أربعة أشياء عقدها بيده ولا يفصح بما عقدها.

أقول: قوله ﷺ: «ولكنه أُسري به من هذه الى هذه» أي من الكعبة الى البيت المعمور، وليس المراد به نفي الإسراء الى بيت المقدس ولا تفسير المسجد الأقصى في الآية بالبيت المعمور بل المراد نفي أن ينتهي الاسراء الى بيت المقدس ولا يتجاوزه فقد استفاضت الروايات

بتفسير المسجد الأقصى ببيت المقدس.

وقوله ﷺ: «فرأيت ربي» أي شاهدته بعين قلبي كما تقدم في بعض الروايات السابقة ويؤيده تفسير الرؤية بذلك في روايات أُخر.

وقوله: «وحالت بيني وبينه السبحة» أي بلغت من القرب والزلفى مبلغاً لم يبق بيني وبينه إلا جلاله، وقوله: فوضع يده بين ثديي، الخ؛ كناية عن الرحمة الإلهية، ومحصله نزول العلم من لدنه تعالى على قلبه بحيث يزيل كل ريب وشك.

وفي الدر المنثور أخرج ابن أبي شيبة ومسلم وابن مردويه من طريق ثابت عن أنس أنّ رسول الله ﷺ قال: أُتيت بالبراق وهو دابة أبيض طويل فوق الحمار ودون البغل يضع حافره عند منتهى طرفه فركبته حتى أتيت بيت المقدس فربطته بالحلقة التي يربط بها الأنبياء ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين.

ثم خرجت فجاءني جبريل بإناء من خمر وإناء من لبن فاخترت اللبن فقال جبريل: اخترت الفطرة، ثم عرج بنا الى سماء الدنيا فاستفتح جبريل فقيل: من أنت؟ قال: جبريل قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بعث اليه؟ قال: قد بعث اليه ففتح لنا فإذا أنا بآدم فرحب بي ودعا لي بخير.

ثم عرج بنا الى السماء الثانية فاستفتح جبريل فقيل: من أنت؟ قال: جبريل قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بعث اليه؟ قال: قد بعث اليه ففتح لنا فإذا أنا بابني الخالة عيسى بن مريم ويحيى بن زكريا فرحبا بي ودعوا لي بخير.

ثم عرج بنا الى السماء الثالثة فاستفتح جبريل فقيل: من أنت؟ قال: جبريل قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بعث اليه؟ قال: قد بعث اليه ففتح لنا فإذا أنا بيوسف وإذا هو قد أُعطي شطر الحسن فرحب بي ودعا لي بخير.

ثم عرج بنا الى السماء الرابعة فاستفتح جبريل. قيل: من هذا؟ قال: جبريل قيل: ومن

معك ؟ قال : محمد ، قيل : وقد بعث اليه ، قال : قد بعث اليه ففتح لنا فاذا أنا بإدريس فرحب بي ودعا لي بخير .

ثم عرج بنا الى السماء الخامسة فاستفتح جبريل . قيل : من هذا ؟ قال : جبريل قيل : ومن معك ؟ قال : محمد ، قيل : وقد بعث اليه ؟ قال : قد بعث اليه ففتح لنا فإذا أنا بهارون فرحب بي ودعا لي بخير .

ثم عرج بنا الى السماء السادسة فاستفتح جبريل . قيل : من هذا ؟ قال : جبريل قيل : ومن معك ؟ قال : محمد ، قيل : وقد بعث اليه ؟ قال : قد بعث اليه ففتح لنا فإذا أنا بموسى فرحب بي ودعا لي بخير .

ثم عرج بنا الى السماء السابعة فاستفتح جبريل . قيل : من هذا ؟ قال : جبريل قيل : ومن معك ؟ قال : محمد ، قيل : وقد بعث اليه ؟ قال : قد بعث اليه ففتح لنا فإذا أنا بإبراهيم مسند ظهره الى البيت المعمور وإذا يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون اليه .

ثم ذهب بي الى سدره المنتهى فإذا ورقها فيها كآذان الفيلة واذا ثمرها كالقلال فلما غشيها من أمر الله ما غشي تغيرت فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها فأوحى إليّ ما أوحى وفرض عليّ خمسين صلاة في كل يوم وليله فنزلت حتى انتهيت الى موسى فقال : ما فرض ربّك على أُمتك ؟ قلت : خمسين صلاة قال : ارجع الى ربّك فأسأله التخفيف فإن امتك لا تطيق ذلك فاني قد بلوت بني اسرائيل وخبرتهم .

فرجعت الى ربي فقلت : يارب خفف عن امتي فحط عني خمساً فرجعت الى موسى فقلت : حط عني خمساً فقال : إن امتك لا يطيقون ذلك فارجع الى ربك فأسأله التخفيف قال : فلم أزل أرجع بين ربي وموسى حتى قال : يا محمد إنهن خمس صلوات لكل يوم وليلة لكل صلاة عشر فتلك خمسون صلاة ، ومن هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة فإن عملها كتبت له عشراً ، ومن هم بسيئة فلم يعملها لم يكتب شيئاً فإن عملها كتبت سيئة واحدة فنزلت حتى انتهيت الى

موسى فأخبرته فقال: ارجع الى ربك فاسأله التخفيف فقلت: قد رجعت الى ربي حتى استحييت منه.

أقول: وقد روي الخبر عن أنس بطرق مختلفة منها ما عن البخاري ومسلم وابن جرير وابن مردويه من طريق شريك بن عبدالله بن أبي نمر عن أنس قال: ليلة أُسري برسول الله ﷺ من مسجد الكعبة جاءه ثلاثة نفر قبل أن يوحى اليه وهو نائم في المسجد الحرام فقال أولهم: أيهم هو؟ فقال أوسطهم: هو خيرهم فقال أحدهم خذوا خيرهم فكانت تلك الليلة فلم يرهم حتى أتوه ليلة اخرى فيما يرى قلبه وتنام عيناه ولا ينام قلبه وكذلك الأنبياء تنام أعينهم ولا ينام قلوبهم فلم يكلموه حتى احتملوه فوضعوه عند بئر زمزم فتولاه منهم جبريل فشق جبريل ما بين نحره الى لبته حتى فرغ من صدره وجوفه فغسله من ماء زمزم بيده حتى أنقى جوفه ثم أتى بطست من ذهب محشواً إيماناً وحكمة فحشا به صدره ولغاديده يعني عروق حلقه ثم أطبقه ثم عرج به الى سماء الدنيا ثم ساق الحديث نحواً مما تقدم.

والذي وقع فيه من شق بطن النبي ﷺ وغسله وإنقائه ثم حشوه إيماناً وحكمة حال مثالية شاهدها وليس بالأمر المادي كما ربما يزعم، ويشهد به حشوه إيماناً وحكمة وأخبار المعراج مملوءة من المشاهدات المثالثة والتمثلات الروحية، وقد ورد هذا المعنى في عدة من أخبار المعراج المروية من طرق القوم ولا ضير فيه كما لا يخفى.

وظاهر الرواية أن معراجه ﷺ كان قبل البعثة وأنه كان في المنام أما كونه قبل البعثة فيدفعه معظم الروايات الواردة في الإسراء وهي أكثر من أن تحصى وقد اتفق على ذلك علماء هذا الشأن.

على أن الحديث نفسه يدفع كون الإسراء قبل البعثة وقد اشتمل على فرض الصلوات وكونها أولاً خمسين ثم سؤال التخفيف بإشارة من موسى عليه السلام ولا معنى للفرض قبل النبوة فمن الحري أن يحمل صدر الحديث على أن الملائكة أتوه أولاً قبل أن يوحى اليه ثم تركوه ثم جاؤه

ليلة اخرى بعد بعثته وقد ورد في بعض رواياتنا أن الذين كانوا نائمين معه في المسجد ليلة أُسري به هم حمزة بن عبدالمطلب وجعفر وعلي ابنا أبي طالب.

وأما ما وقع فيه من كون ذلك في المنام فيمكن ـ على بعد ـ أن يكون ناظراً الى ما ذكر فيه من حديث الشق والغسل لكن الأظهر أن المراد به وقوع الإسراء بجملته في المنام كما يدل عليه ما يأتي من الروايات.

وفي الدر المنثور أيضاً أخرج ابن إسحاق وابن جرير عن معاوية بن أبي سفيان أنه كان إذا سئل عن مسرى رسول الله ﷺ قال: كانت رؤيا من الله صادقة.

اقول: وظاهر الآية الكريمة: ﴿ **سبحان الذي أسرى بعبده ـ الى قوله ـ لنريه من آياتنا** ﴾ يرده، وكذا آيات صدر سورة النجم وفيها مثل قوله: ﴿ **ما زاغ البصر وما طغى لقد رآى من آيات ربه الكبرى** ﴾ على أن الآيات في سياق الامتنان وفيها ثناء على الله سبحانه بذكر بديع رحمته وعجيب قدرته، ومن الضروري أن ذلك لا يتم برؤيا يراها النبي ﷺ والرؤيا يراها الصالح والطالح وربما يرى الفاسق الفاجر ما هو ابدع مما يراه المؤمن المتقي والرؤيا لا تعد عند عامة الناس إلّا نوعاً من التخيل لا يستدل به على شيء من القدرة والسلطنة بل غاية ما فيها أن يتفاءل بها فيرجى خيرها أو يتطير بها فيتخاف شرها.

وفيه أخرج ابن اسحاق وابن جرير عن عائشة قالت: ما فقدت جسد رسول الله ﷺ ولكن الله أسرى بروحه.

اقول: ويرد عليه ما ورد على سابقه على أنه يكفي في سقوط الرواية اتفاق كلمة الرواة وأرباب السير على أن الإسراء كان قبل الهجرة بزمان وأنه ﷺ بنى بعائشه في المدينة بعد الهجرة بزمان لم يختلف في ذلك اثنان والآية أيضاً صريحة في إسرائه ﷺ من المسجد الحرام.

وفيه أخرج الترمذي وحسّنه والطبرانيّ وابن مردويه عن ابن مسعود: قال: قال رسول

الله ﷺ: لقيت ابراهيم ليلة اسري بي فقال: يا محمد اقرأ امتك مني السلام وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة عذبة الماء وأنها قيعان وأن غراسها سبحان الله والحمد لله ولا إله إلّا الله والله أكبر لا حول ولا قوة إلّا بالله.

وفيه أخرج الطبرانيّ عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: لمّا اسري بي الى السماء ادخلت الجنة فوقعت على شجرة من أشجار الجنة لم أر في الجنة أحسن منها ولا أبيض ورقاً ولا أطيب ثمرة فتناولت ثمرة من ثمرها فأكلتها فصارت نطفة في صلبي فلما هبطت الى الأرض واقعت خديجة فحملت بفاطمة فإذا أنا اشتقت الى ريح الجنة شممت ريح فاطمة.

وفي تفسير القميّ عن أبيه عن ابن محبوب عن ابن رئاب عن أبي عبيدة عن الصادق عليه السلام قال: كان رسول الله ﷺ يكثر تقبيل فاطمة فأنكرت ذلك عائشة فقال رسول الله ﷺ: يا عائشة إني لمّا اسري بي الى السماء دخلت الجنة فأدناني جبرئيل من شجرة طوبى وناولني من ثمارها فأكلته فحول الله ذلك ماء في ظهري فلما هبطت الى الأرض واقعت خديجة فحملت بفاطمة فما قبلتها قط إلّا وجدت رائحة شجرة طوبى منها.

وفي الدر المنثور أخرج الطبراني في الأوسط عن ابن عمر أن النبي ﷺ لما اسري به الى السماء اوحى اليه بالأذان فنزل به فعلمه جبريل.

وفيه أخرج ابن مردويه عن علي أن النبي ﷺ علم الأذان ليلة اسري به وفرضت عليه الصلاة.

وفي العلل بإسناده عن إسحاق بن عمار قال: سألت أبا الحسن موسى بن جعفر عليه السلام كيف صارت الصلاة ركعة وسجدتين؟ وكيف إذا صارت سجدتين لم تكن ركعتين؟ فقال: إذا سألت عن شيء ففرغ قلبك لتفهم. إن أول صلاة صلاها رسول الله ﷺ إنما صلاها في السماء بين يدي الله تبارك وتعالى قدام عرشه جل جلاله.

وذلك أنه لما اسري به وصار عند عرشه تبارك وتعالى قال: يا محمد ادن من صاد

فاغتسل مساجدك وطهرها وصل لربك فدنا رسول الله ﷺ الى حيث أمره الله تبارك وتعالى فتوضأ فأسبغ وضوءه ثم استقبل الجبار تبارك وتعالى قائماً فأمره بافتتاح الصلاة ففعل.

فقال: يا محمد اقرأ بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين الى آخرها ففعل ذلك ثم أمره أن يقرأ نسبة ربه تبارك وتعالى بسم الله الرحمن الرحيم قل هو الله أحد الله الصمد ثم أمسك عنه القول فقال رسول الله ﷺ: قل هو الله أحد الله الصمد فقال: قل: لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد فأمسك عنه القول فقال رسول الله ﷺ: كذلك الله ربي كذلك الله ربي.

فلما قال ذلك قال: اركع يا محمد لربك فركع رسول الله ﷺ فقال له وهو راكع: قل سبحان ربي العظيم وبحمده ففعل ذلك ثلاثاً، ثم قال: ارفع رأسك يا محمد ففعل ذلك رسول الله ﷺ فقام منتصباً بين يدي الله فقال: اسجد يا محمد لربك فخر رسول الله ﷺ ساجداً فقال: قل سبحان ربي الأعلى وبحمده ففعل ذلك رسول الله ﷺ ثلاثاً فقال: استو جالساً يا محمد ففعل فلما استوى جالساً ذكر جلال ربه جل جلاله فخر رسول الله ﷺ ساجداً من تلقاء نفسه لا لأمر أمره ربه عز وجل فسبح أيضاً ثلاثاً فقال: انتصب قائماً ففعل فلم يرى ما كان رآى من عظمة ربه جل جلاله.

فقال له: اقرء يا محمد وافعل كما فعلت في الركعة الاولى ففعل ذلك رسول الله ﷺ ثم سجد سجدة واحدة فلما رفع رأسه ذكر جلال ربه تبارك وتعالى فخر رسول الله ﷺ ساجداً من تلقاء نفسه لا لأمر أمره ربه عزوجل فسبح أيضاً ثم قال له: ارفع رأسك ثبتك الله واشهد أن لا إله إلّا وأن محمداً رسول الله وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور اللهم صل على محمد وآل محمد كما صليت وباركت وترحمت على إبراهيم وآل إبراهيم إنك حميد مجيد اللهم تقبل شفاعته في امته وارفع درجته ففعل.

فقال: يا محمد واستقبل رسول الله ﷺ ربه تبارك وتعالى وجهه مطرقاً فقال: السلام

عليك فأجابه الجبار جل جلاله فقال: وعليك السلام يا محمد بنعمتي قويتك على طاعتي وبعصمتي اتخذتك نبيا وحبيباً.

ثم قال أبوالحسن عليه السلام: وإنما كانت الصلاة التي امر بها ركعتين وسجدتين وهو صلى الله عليه وآله وسلم إنما سجد سجدتين في كل ركعة كما أخبرتك من تذكره لعظمة ربه تبارك وتعالى فجعله الله عزوجل فرضاً.

قلت: جعلت فداك واما صاد الذي امر أن يغتسل منه؟ فقال: عين تنفجر من ركن من أركان العرش يقال له: ماء الحياة وهو ما قال الله عزوجل: ﴿ص والقرآن ذي الذكر﴾ إنما أمره أن يتوضأ ويقرء ويصلي.

أقول: وفي معناها روايات أُخر.

وفي الكافي بإسناده عن علي بن أبي حمزة قال: سأل أبوبصير أبا عبدالله عليه السلام وأنا حاضر فقال: جعلت فداك كم عرج برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟ فقال: مرتين فأوقفه جبرئيل موقفاً فقال له: مكانك يا محمد فلقد وقفت موقفاً ما وقفه ملك قط ولا نبي إن ربك يصلي فقال: يا جبرئيل وكيف يصلي؟ فقال: يقول: سبوح قدوس أنا رب الملائكة والروح سبقت رحمتي غضبي فقال: اللهم عفوك عفوك.

قال: وكان كما قال الله: قاب قوسين أو أدنى فقال له أبو بصير: جعلت فداك وما قاب قوسين أو أدنى؟ قال: ما بين سيتها الى رأسها فقال: بينهما حجاب يتلألأ ولا أعلمه إلّا وقد قال: من زبرجد فنظر في مثل سم الإبرة الى ما شاء الله من نور العظمة. الحديث.

أقول: وآيات صدر سورة النجم تؤيد ما في الرواية من وقوع المعراج مرتين ثم الاعتبار يساعد على ما في الرواية من صلاته تعالى فإن الأصل في معنى الصلاة الميل والانعطاف، وهو من الله سبحانه الرحمة ومن العبد الدعاء كما قيل، واشتمال ما أخبر به جبرئيل من صلاته تعالى على قوله: «سبقت رحمتي غضبي» يؤيد ما ذكرناه ولذلك أيضاً أوقفه جبرئيل في الموقف

الذي أوقفه وذكر له أنه موطأ ما وطئه أحد قبله وذلك أن لازم ما وصفه بهذا الوصف أن يكون الموقف هو الحد الفاصل بين الخلق والخالق وآخر ما ينتهي اليه الانسان من الكمال فهو الحد الذي يظهر فيه الرحمة الإلهية وتفاض على ما دونه ولهذا اوقف ﷺ لمشاهدته.

وفي المجمع ـ وهو ملخص من الروايات ـ أن النبي ﷺ قال: أتاني جبرائيل وأنا بمكة فقال: قم يا محمد فقمت معه وخرجت الى الباب فإذا جبرائيل ومعه ميكائيل وإسرافيل فأتى جبرائيل بالبراق وكان فوق الحمار ودون البغل خده كخد الإنسان وذنبه كذب البقر وعرفه كعرف الفرس وقوائمه كقوائم الإبل عليه رحل من الجنة وله جناحان من فخذيه خطوه منتهى طرفه فقال: اركب فركبت ومضيت حتى انتهيت الى بيت المقدس.

ثم ساق الحديث الى أن قال: فلما انتهيت الى بيت المقدس إذا ملائكة نزلت من السماء بالبشارة والكرامة من عند رب العزة وصليت في بيت المقدس، وفي بعضها ـ بشر لي إبراهيم ـ في رهط من الأنبياء ثم وصف موسى وعيسى ثم أخذ جبرائيل بيدي إالصخرة فأقعدني عليها فإذا معراج الى السماء لم أر مثلها حسناً وجمالاً.

فصعدت الى السماء الدنيا ورأيت عجائبها وملكوتها وملائكتها يسلمون علي ثم صعد بي جبرائيل الى السماء الثانية فرأيت فيها عيسى بن مريم ويحيى بن زكريا. ثم صعد بي الى السماء الثالثة فرأيت فيها يوسف. ثم صعد بي الى السماء الرابعة فرأيت فيها ادريس. ثم صعد بي الى السماء الخامسة فرأيت فيها هارون ثم صعد بي الى السماء السادسة فإذا فيها خلق كثير يموج بعضهم في بعض وفيها الكروبيون ثم صعد بي الى السماء السابعة فأبصرت فيها خلقاً وملائكة ـ وفي حديث أبي هريرة رأيت في المساء السادسة موسى، ورأيت في السماء السبعة ابراهيم.

قال: ثم جاوزناها متصاعدين الى أعلى عليين ـ ووصف ذلك الى أن قال ـ ثم كلمني ربي وكلمته، ورأيت الجنة والنار، ورأيت العرش وسدرة المنتهى ثم رجعت الى مكة فلما أصبحت حدثت به الناس فكذبني أبو جهل والمشركون وقال مطعم بن عدي: أتزعم أنك سرت

مسيرة شهرين في ساعة ؟ أشهد أنك كاذب.

قالوا: ثم قالت قريش: أخبرنا عما رأيت فقال: مررت بعير بني فلان وقد أضلوا بعيراً لهم وهم في طلبه وفي رحلهم قعب[1] مملوء من ماء فشربت الماء ثم غطيته فأسألوهم هل وجدوا الماء في القدح ؟ قالوا: هذه آية واحدة.

قال: ومررت بعير بني فلان فنفرت بكرة فلان فانكسرت يدها فاسألوهم عن ذلك فقالوا: هذه آية اخرى قالوا: فأخبرنا عن عيرنا قال: مررت بها بالتنعيم وبين لهم أحمالها وهيآتها وقال: يقدمها جمل أورق عليه فزارتان محيطتان وتطلع عليكم عند طلوع الشمس قالوا: هذه آية اخرى.

ثم خرجوا يشتدون نحو التيه وهم يقولون: لقد قضى محمد بيننا وبينه قضاء بينا، وجلسوا ينتظرون متى تطلع الشمس فيكذبوه ؟ فقال قائل: والله إن الشمس قد طلعت، وقال آخر: والله هذة الإبل قد طلعت يقدمها بعير أورق فبهتوا ولم يؤمنوا.

وفي تفسير العياشي عن هشام بن الحكم عن أبي عبدالله عليه السلام قال: إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم صلى العشاء الآخرة وصلى الفجر في الليلة التي اسري به بمكة.

أقول: وفي بعض الأخبار أنه صلى الله عليه وآله وسلم صلى المغرب بالمسجد الحرام ثم اسري به ولا منافاة بين الروايتين وكذا لا منافاة بين كونه صلى المغرب اوالعشاء الآخرة والفجر بمكة وبين كون الصلوات الخمس فرضت عليه في السماء ليلة الإسراء فإن فرض أصل الصلاة كان قبل ذلك، وأما أنها كم ركعة كانت فغير معلوم غير أن الآثار تدل على أنه صلى الله عليه وآله وسلم كان يقيم الصلاة منذ بعثه الله نبياً وفي سورة العلق: ﴿ أرأيت الذي ينهى عبداً إذا صلى ﴾ وقد روي أنه صلى الله عليه وآله وسلم كان يصلي بعلي وخديجة عليهما السلام بالمسجد الحرام قبل أن يعلن دعوته بمدة.

---

١. القعب: القدح الضخم الغليظ.

وفي الكافي عن العامري عن أبي جعفر عليه السلام قال: لما عرج برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نزل بالصلاة عشر ركعات ركعتين ركعتين فلما ولد الحسن والحسين عليهما السلام زاد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سبع ركعات شكراً لله فأجاز الله له ذلك وترك الفجر لم يزد فيها لأنه يحضرها ملائكة الليل وملائكة النهار فلما أمره الله بالتقصير في السفر وضع عن امته ست ركعات وترك المغرب لم ينقص منه شيئاً، وإنما يجب السهو فيما زاد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فمن شك في أصل الفرض في الركعتين الأوليين استقبل صلاته.

وروى الصدوق في الفقيه باسناده عن سعيد بن المسيب أنه سأل علي بن الحسين عليه السلام فقال: متى فرضت الصلاة على المسلمين على ما هي اليوم عليه؟ فقال: بالمدينة حين ظهرت الدعوة وقوي الإسلام وكتب الله على المسلمين الجهاد زاد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الصلاة سبع ركعات في الظهر ركعتين وفي العصر ركعتين وفي المغرب ركعة وفي العشاء الآخرة ركعتين، وأقر الفجر على ما فرضت بمكة. الحديث.

وفي الدر المنثور أخرج أحمد والنسائي والبزار والطبراني وابن مردويه والبيهقي في الدلائل بسند صحيح عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: لما اسري بي مرت بي رائحة طيبة فقلت: يا جبريل ما هذه الرائحة الطيبة؟ قال: ماشطة بيت فرعون وأولادها كانت تمشطها فسقط المشط من يدها فقالت: بسم الله فقالت ابنة فرعون: أبي؟ قال: بلى ربي وربك ورب أبيك قالت: أولك رب غير أبي؟ قال: نعم قالت: فأخبر بذلك أبي؟ قال: نعم.

فأخبرته فدعاها فقال: ألك رب غيري؟ قالت: نعم ربي وربك الله الذي في السماء فأمر ببقرة من نحاس فأحميت ثم أمر بها لتلق فيها وأولادها. قالت: إن لي اليك حاجة قال: وما هي؟ قال: تجمع عظامي وعظام ولدي فتدفنه جميعاً. قال: ذلك لك لما لك علينا من حق فألقوا واحداً واحداً حتى بلغ رضيعاً فيهم قال: نعي يا أمه ولا تقاعسي فإنك على الحق فألقيت هي وولدها.

قال ابن عباس: وتكلم أربعة وهم صغار: هذا وشاهد يوسف وصاحب جريج وعيسى بن مريم.

اقول: وروي من وجه آخر عن ابن عباس عن ابي بن كعب عن النبي ﷺ.

وفيه أخبرج ابن مردويه عن أنس أن النبي ﷺ قال: ليلة اسري بي مررت بناس يقرض شفاههم بمقاريض من نار كلما قرضت عادت كما كانت فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء خطباء امتك الذين يقولون ما لا يفعلون.

اقول: وهذا النوع من التمثلات البرزخية التي تصور الأعمال بنتائجها والعذابات المعدة لها كثيرة الورود في أخبار الإسراء وقد تقدم شطر منها في ضمن الروايات.

واعلم أن ما أوردناه من أخبار الإسراء نبذة يسيرة منها وهي كثيرة بالغة حد التواتر رواها جم غفير من الصحابة كأنس بن مالك وشداد بن الأوس وعلي بن أبي طالب عليه السلام وأبو سعيد الخدري وأبو هريرة وعبدالله بن مسعود وعمر بن الخطاب وعبدالله بن عمر وعبدالله بن عباس وابي بن كعب وسمرة بن جندب وبريدة وصهيب ابن سنان وحذيفة بن اليمان وسهل بن سعد وأبو أيوب الأنصاري وجابر بن عبدالله وأبو الحمراء وأبو الدرداء وعروة وام هاني وام سلمة وعائشة وأسماء بنت أبي بكر كلهم عن رسول الله ﷺ وروتها جماعة كثيرة من رواة الشيعة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام.

وقد اتفقت أقوال من يعتنى بقوله من علماء الإسلام على أن الإسراء كان بمكة قبل الهجرة كما يستفاد من قوله تعالى: ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام﴾ الآية؛ ويدل عليه ما اشتملت عليه كثير من الروايات من إخباره ﷺ قريشاً بذلك صبيحة ليلته وانكارهم ذلك عليه واخباره اياهم بأساطين المسجد الاقصى وما لقيه في الطريق من العير وغير ذلك.

ثم اختلفوا في السنة التي اسري به ﷺ فيها فقيل: في السنة الثانية من البعثة كما عن ابن

عباس، وقيل في السنة الثالثة منها كما في الخرائج عن علي عليه السلام. وقيل في السنة الخامسة او السادسة، وقيل بعد البعثة بعشر سنين وثلاثة أشهر، وقيل: في السنة الثانية عشرة منها، وقيل: قبل الهجرة بسنة وخمسة أشهر، وقيل: قبلها بسنة وثلاثة اشهر، وقيل: قبلها بستة أشهر.

ولا يهمنا الغور في البحث عن ذلك ولا عن الشهر واليوم الذي وقع فيه الإسراء ولا مستند يصح التعويل عليه لكن ينبغي أن يتنبه أن من الروايات المأثورة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام ما يصرح بوقوع الإسراء مرتين، وهو المستفاد من آيات سورة النجم حيث يقول سبحانه: ﴿ولقد رآه نزلة اخرى﴾ الآيات؛ على ما سيوافيك ان شاء الله من تفسيره.

وعلى هذا فمن الجائز أن يكون ما وصفه صلى الله عليه وآله وسلم في بعض الروايات من عجيب ما شاهده راجعاً الى ما شاهده في الاسراء الأول وبعض ما وصفه في بعض آخر راجعاً الى الإسراء الثاني، وبعضه مما شاهده في الإسراءين معاً.

ثم اختلفوا في المكان الذي اسري به صلى الله عليه وآله وسلم منه فقيل: اسري به من شعب أبي طالب وقيل: اسري به من بيت ام هاني وفي بعض الروايات دلالة على ذلك وقد اولوا قوله تعالى: ﴿أسرى بعبده من المسجد الحرام﴾ الى أن المراد بالمسجد الحرام الحرم كله مجازاً فيشمل مكة، وقيل: اسري به من نفس المسجد الحرام لظهور الآية الكريمة فيه ولا دليل على التأويل.

ومن الجائز بالنظر الى ما نبهنا به من كون الإسراء مرتين أن يكون أحد الاسراءين من المسجد الحرام والآخر من بيت ام هاني، وأما كونه من الشعب فما ذكر فيما ذكر فيه من الروايات أن أبا طالب كان يطلبه طول ليلته وانه اجتمع هو وبنو هاشم في المسجد الحرام ثم سل سيفه وهدد قريشاً إن لم يحصل على النبي صلى الله عليه وآله وسلم ثم نزوله من السماء ومجيئه اليهم وإخباره قريشاً بما رأى كل دلك لا يلائم ما كان هو صلى الله عليه وآله وسلم وبنو هاشم جميعاً عليه من الشدة والبلية أيام كانوا في

الشعب.

وعلى أي حال فالاسراء الذي تعطيه الآية: ﴿سبحان الذي اسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى﴾ وهو الاسراء الذي كان الى بيت المقدس كان مبدؤه المسجد الحرام لكمال ظهور الآية ولا موجب للتأويل.

ثم اختلفوا في كيفية الإسراء فقيل: كان اسراؤه ﷺ بروحه وجسده من المسجد الحرام الى بيت المقدس ثم منه الى السماوات وعليه الاكثر وقيل: كان بروحه وجسده من مكة الى بيت المقدس ثم بروحه من بيت المقدس الى السماوات وعليه جمع، وقيل: كان بروحه ﷺ وهو رؤيا صادقة أراها الله نبيه ونسب الى بعضهم.

قال في المناقب: اختلف الناس في المعراج فالخوارج ينكرونه، وقال الجهمية: عرج بروحه دون جسمه على طريق الرؤيا، وقالت الإمامية والزيدية والمعتزله: بل عرج بروحه وبجسمه الى بيت المقدس لقوله تعالى: ﴿إلى المسجد الاقصى﴾ وقال آخرون: بل عرج بروحه وبجسمه الى السماوات روي ذلك عن ابن عباس وابن مسعود وجابر وحذيفة وانس وعائشة ام هاني.

ونحن لا ننكر ذلك إذا قامت الدلالة، وقد جعل الله معراج موسى الى الطور: ﴿وما كنت بجانب الطور﴾ ولإبراهيم الى السماء الدنيا: ﴿وكذلك نري ابراهيم﴾ ولعيسى الى الرابعة: ﴿بل رفعه الله اليه﴾ ولإدريس الى الجنة: ﴿ورفعناه مكاناً علياً﴾ ولمحمد ﷺ: ﴿فكان قاب قوسين﴾ وذلك لعلو همته. انتهى.

والذي ينبغي أن يقال ان اصل الاسراء مما لا سبيل الى انكاره فقد نص عليه القرآن وتواترت عليه الاخبار عن النبي ﷺ والأئمة من اهل بيته عليهم السلام.

واما كيفية الإسراء فظاهر الآية والروايات بما يحتف بها من القرائن ظهوراً لا يقبل الدفع أنه اسري به من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى بروحه وجسده جميعاً، واما العروج الى

السماوات فظاهر آيات سورة النجم كما سيأتي ان شاء الله في تفسيرها وصريح الروايت على كثرها البالغة وقوعه، ولا سبيل الى إنكاره من اصله غير انه من الجائز ان يقال بكونه بروحه لكن لا على النحو الذي يراه القائلون به من كون ذلك من قبيل الأحلام ومن نوع ما يراه النائم من الرؤى، ولو كان كذلك لم يكن لما يدل عليه الآيات بسياقها من اظهار المقدرة والكرامة معنى، ولا لذاك الإنكار الشديد الذي اظهرته قريش عندما قص ﷺ لهم القصة وجه، ولا لما اخبرهم به من حوادث الطريق مفهوم معقول.

بل ذلك ـ إن كان ـ بعروجه ﷺ بروحه الشريفة الى ما وراء هذا العالم المادي مما يسكنه الملائكة المكرمون وينتهي اليه الأعمال ويصدر منه الأقدار ورأى عند ذلك من آيات ربه الكبرى وتمثلت له حقائق الأشياء ونتائج الأعمال وشاهد ارواح الأنبياء العظام وفاوضهم ولقي الملائكة الكرام وسامرهم، ورأى من الآيات الإلهية ما لا يوصف إلا بالأمثال كالعرش والحجب والسرادقات.

والقوم لذهابهم الى أصالة الوجود المادي وقصر الوجود غير المادي فيه تعالى لما وجدوا الكتاب والسنة يصفان اموراً غير محسوسة بتمثيلها في خواص الأجسام المحسوسة كالملائكة الكرام والعرش والكرسي واللوح والقلم والحجب والسرادقات حملوا ذلك على كونها أجساماً مادية لا يتعلق بها الحس ولا يجري فيها احكام المادة. وحملوا ايضاً ما ورد من التمثيلات في مقامات الصالحين ومعارج القرب وبواطن صور المعاصي ونتائج الأعمال وما يناظر ذلك الى نوع من التشبيه والاستعارة فوقعوا في ورطة السفسطة بتغليط الحس واثبات الروابط الجزافية بين الأعمال ونتائجها وغير ذلك من المحاذير.

ولذلك ايضاً لما نفى النافون منهم كون عروجه ﷺ الى السماوات بجسمه المادي اضطروا الى القول بكونه في المنام وهو عندهم خاصة مادية للروح المادي واضطروا لذلك الى تأويل الآيات والروايات بما لا تلائمه ولا واحدة منها.

بحث آخر:

قال في مجمع البيان: فأما الموضع الذي أُسري اليه اين كان؟ فان الاسراء الى بيت المقدس، وقد نص به القرآن ولا يدفعه مسلم، وما قاله بعضهم: ان ذلك كان في النوم فظاهر البطلان اذ لا معجز يكون فيه ولا برهان.

وقد وردت روايات كثيرة في قصة المعراج في عروج نبينا ﷺ الى السماء ورواها كثير من الصحابة مثل ابن عباس وابن مسعود وانس وجابر بن عبدالله وحذيفة وعائشة وام هاني وغيرهم عن النبي ﷺ وزاد بعضهم ونقص بعض وتنقسم جملتها الى اربعة اوجه.

أحدها: ما يقطع على صحتها لتواتر الأخبار به وإحاطة العلم بصحته.

وثانيها: ما ورد في ذلك مما يجوزه العقول ولا يأباه الاصول فنحن نجوزه ثم نقطع على أن ذلك كان في يقظته دون منامه.

وثالثها: ما يكون ظاهره مخالفاً لبعض الاصول إلّا انه يمكن تأويلها على وجه يوافق المعقول فالأولى تأويله على وجه يوافق الحق والدليل.

ورابعها: ما لا يصح ظاهره ولا يمكن تأويله إلّا على التعسف البعيد فالأولى أن لا نقبله.

فأما الأول المقطوع به فهو انه أُسري به على الجملة، وأما الثاني فمنه ما روي انه طاف في السماوات ورأى الانبياء والعرش وسدرة المنتهى والجنة والنار ونحو ذلك. وأما الثالث فنحو ما روي انه رآى قوماً في الجنة يتنعمون فيها وقوماً في النار يعذبون فيها فيحمل على انه رآى صفتهم او أسمائهم، وما الرابع فنحو ما روي انه ﷺ كلم الله جهرة ورآه وقعد معه على سريره ونحو ذلك مما يوجب ظاهره التشبيه، والله سبحانه متقدس عن ذلك، وكذلك ما روي انه شق بطنه وغسله لأنه ﷺ كان طاهراً مطهراً من كل سوء وعيب وكيف يطهر القلب وما فيه من الاعتقاد بالماء. انتهى.

وما ذكره من التقسيم في محله غير ان غالب ما اورده من الامثلة للأقسام منظور فيه فما

ذكره من الطواف ورؤية الانبياء ونحو ذلك تمثلات برزخية او روحية وكذا ما ذكره من حديث شق البطن والغسل تمثل برزخي لا ضير فيه وأحاديث الأسراء مملوءة من ذكر هذا النوع من التمثل كتمثل الدنيا في هيئة مرأة عليها من كل زينة الدنيا، وتمثل دعوة اليهودية والنصرانية وما شاهده من انواع النعيم والعذاب لأهل الجنة والنار وغير ذلك.

ومما يؤيد هذا الذي ذكرناه ما في ألسنة هذه الاخبار من الاختلاف في بيان حقيقة واحدة كما في بعضها من صعوده ﷺ الى السماء بالبراق وفي آخر على جناح جبريل وفي آخر بمعراج منصوب على صخرة بيت المقدس الى السماء الى غير ذلك مما يعثر عليه الباحث المتدبر في خلال هذه الروايات.

فهذه وأمثالها ترشد الى ان هذه البيانات موضوعة على التمثيل او التمثل الروحي، ووقوع هذه التمثيلات في ظواهر الكتاب والسنة مما لا سبيل الى انكاره البتة.

٢ • وَآتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ وَجَعَلْناهُ هُدىً لِبَنِي إِسْرائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلاً.

٣ • ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كانَ عَبْداً شَكُوراً.

٤ • وَقَضَيْنا إِلىٰ بَنِي إِسْرائِيلَ فِي الْكِتابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّاً كَبِيراً.

٥ • فَإِذا جاءَ وَعْدُ أُولٰهُما بَعَثْنا عَلَيْكُمْ عِباداً لَنا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجاسُوا خِلالَ الدِّيارِ وَكانَ وَعْداً مَفْعُولاً.

٦ • ثُمَّ رَدَدْنا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْناكُمْ بِأَمْوالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْناكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً.

٧ • إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ
الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ
أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيراً.
٨ • عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ
لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدىً لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلاً﴾ الكتاب كثيراً ما يطلق في كلامه تعالى على مجموع الشرائع المكتوبة على الناس القاضية بينهم فيما اختلفوا فيه من الاعتقاد والعمل ففيه دلالة على اشتماله على الوظائف الاعتقادية والعملية التي عليهم ان يأخذوها ويتلبسوا بها. ولعله لذلك قيل: «وآتينا موسى الكتاب» ولم يقل التوراة ليدل به على اشتماله على شرائع مفترضة عليهم.

وبذلك يظهر ان قوله: «وجعلناه هدى لبني اسرائيل» بمنزلة التفسير لإيتائه الكتاب. وكونه هدى اي هادياً لهم هو بيانه لهم شرائع ربهم التي لو أخذوها وعملوا بها لاهتدوا الى الحق ونالوا سعادة الدارين.

وقوله: ﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلاً﴾ ان: فيه للتفسير ومدخولها محصل ما يشتمل عليه الكتاب الذي جعل هدى لهم فيؤول المعنى الى أن محصل ما كان الكتاب يبينه لهم ويهديهم اليه هو نهيه إياهم ان يشركوا بالله شيئاً ويتخذوا من دونه وكيلا فقوله: «لا تتخذوا من دوني وكيلاً» تفسيراً لقوله: «وجعلناه هدى لبني إسرائيل» إن كان ضمير «لا تتخذوا»

عائداً اليهم كما هو الظاهر، وتفسير لجميع ما تقدمه إن احتمل رجوعه الى موسى وبني إسرائيل جميعاً.

قوله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً﴾ تطلق الذرية على الأولاد بعناية كونهم صغاراً ملحقين بآبائهم، وهي ـ على ما يهدي اليه السياق ـ منصوبة على الاختصاص ويفيد الاختصاص عناية خاصة من المتكلم به في حكمه فهو بمنزلة التعليل كقوله تعالى: ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت﴾ (الأحزاب / ٣٣) أي ليفعل بكم ذلك لأنكم أهل بيت النبوة.

فقوله: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ يفيد فائدة التعليل بالنسبة الى ما تقدمه كما أن قوله: «إنه كان عبداً شكوراً» يفيد فائدة التعليل بالنسبة اليه.

فيتلخص معنى الآيتين في مثل قولنا: انا جزينا نوحاً بما كان عبداً شكوراً لنا أنا ابقينا دعوته واجرينا سنته وطريقته في ذرية من حملناهم معهم في السفينة ومن ذلك انا انزلنا على موسى الكتاب وجعلناه هدى لبني اسرائيل

ويظهر من قوله في الآية: «ذرية من حملنا من نوح» ومن قوله: «وجعلنا ذريته هم الباقين» ان الناس ذرية نوح عليه السلام من جهة الابن والبنت معاً، ولو كانت الذرية منتهية الى ابنائه فقط وكان المراد بقوله: «من حملنا من نوح» ابناؤه فقط كان الأحسن بل المتعين ان يقال: ذرية نوح وهو ظاهر.

قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّاً كَبِيراً﴾ قال الراغب في المفردات: القضاء فصل الأمر قولاً كان ذلك أو فعلا، وكل واحد منهما على وجهين: الهي وبشري فمن القول الإلهي قوله: ﴿وقضى ربك أن لا تعبدوا الا اياه﴾ اي امر بذلك، وقال: ﴿وقضينا الى بني اسرائيل في الكتاب﴾ فهذا قضاء بالاعلام والفصل في الحكم اي اعلمناهم واوحينا اليهم وحياً جزماً وعلى هذا: ﴿وقضينا اليه

ذلك الأمر ان دابر هؤلاء مقطوع﴾.

ومن الفعل الإلهي قوله: ﴿والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء﴾ وقوله: ﴿فقضاهن سبع سماوت في يومين﴾ اشارة الى ايجاده الابداعي والفراغ منه نحو: ﴿بديع السماوات والأرض﴾.

قال: ومن القول البشري نحو قضى الحاكم بكذا فان حكم الحاكم يكون بالقول، ومن الفعل البشري: ﴿فإذا قضيتم مناسككم﴾ ﴿ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم﴾ انتهى موضع الحاجة.

والعلو هو الإرتفاع وهو في الآية كناية عن الطغيان بالظلم والتعدي ويشهد بذلك عطفه على الإفساد عطف التفسير، وفي هذا المعنى قوله: ﴿إن فرعون علا في الأرض وجعل اهلها شيعا﴾.

ومعنى الآية وأخبرنا وأعلمنا بني اسرائيل إخباراً قاطعاً في الكتاب وهو التوراة: أُقسم وأُحق هذا القول انكم شعب اسرائيل ستفسدون في الارض وهي ارض فلسطين وما يتبعها مرتين مرة بعد مرة وتعلون علوا كبيرا وتطغون طغيانا عظيماً.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَيٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَّنَا﴾ الخ؛ قال الراغب: البؤس والبأس والبأساء الشدة والمكروه الا ان البؤس في الفقر والحرب اكثر والبأس والبأساء في النكاية نحو والله اشد بأساً واشد تنكيلا. انتهى موضع الحاجة.

وفي المجمع: الجوس التخلل في الديار يقال: تركت فلان يجوس بني فلان ويجوسهم ويدوسهم اي يطؤهم، قال ابو عبيد: كل موضع خالطته ووطأته فقد حسته وجسته قال: وقيل: الجوس طلب الشيء باستقصاء. انتهى.

وقوله: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَيٰهُمَا﴾ تفريع على قوله: «لتفسدن» الخ؛ وضمير التثنية راجع الى المرتين وهما الإفسادتان فالمراد بها الإفسادة الاولى، والمراد بوعد اولاهما ما

وعدهم الله من النكال والنقمة على افسادهم فالوعد بمعنى الموعود. ومجيء الوعد كناية عن وقت انجازه، ويدل ذلك على انه وعدهم على افسادهم مرتين وعدين ولم يذكر انجازا فكأنه قيل: لتفسدن في الأرض مرتين ونحن نعدكم الانتقام على كل منهما فإذا جاء وعد المرة الاولى، الخ؛ كل ذلك معونة السياق.

وقوله: ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ اي انهضناهم وارسلناهم اليكم ليذلوكم وينتقموا منكم، والدليل على كون البعث الانتقام والإذلال قوله: ﴿اولى بأس شديد﴾ الخ.

وقوله: ﴿وَكَانَ وَعْداً مَفْعُولاً﴾ تأكيد لكون القضاء حتماً لازماً والمعنى فإذا جاء وقت الوعد الذي وعدناه على المرة الاولى من افسادكم مرتين بعثنا وانهضنا عليكم من الناس عبادا لنا اولى بأس وشدة شديدة فدخلوا بالقهر والغلبة ارضكم وتوسطوا في دياركم فأذلوكم وادهبوا استقلالكم وعلوكم وسؤددكم وكان وعدا مفعولا لا محيص عنه.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً﴾ قال في المجمع: الكرة معناه الرجعة والدولة، والنفير العدد من الرجال قال الزجاج: ويجوز أن يكون جمع نفر كما قيل: العبيد والضئين والمعيز والكليب، ونفر الانسان ونفره ونفيره ونافرته رهطه الذين ينصرونه وينفرون معه انتهى.

ومعنى الآية ظاهر، وظاهرها أن بني اسرائيل ستعود الدولة لهم على أعدائهم بعد وعد المرة الأولى فيغلبونهم ويقهرونهم ويتخلصون من استعبادهم واسترقاقهم وأن هذه الدولة سترجع اليهم تدريجاً في برهة معتد بها من الزمان كما هو لازم امدادهم بأموال وبنين وجعلهم اكثر نفيراً.

وفي قوله في الآية التالية: ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ اشعار بل دلالة بمعونة السياق ان هذه الواقعة وهي رد الكرة لبني اسرائيل على اعدائهم انما

كانت لرجوعهم الى الإحسان بعد ما ذاقوا وبال اساءتهم قبل ذلك كما ان إنجاز وعد الآخرة انما كان لرجوعهم ثانياً الى الإساءة بعد رجوعهم هذا الى الإحسان.

قوله تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ اللام في «لأنفسكم» و«فلها» للاختصاص اي ان كلا من احسانكم وإساءتكم يختص بأنفسكم دون ان يلحق غيركم، وهي سنة الله الجارية ان العمل يعود اثره وتبعته الى صاحبه ان خيرا وان شرا فهو كقوله: ﴿تلك امة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم﴾ (البقرة / ١٤١).

فالمقام مقام بيان ان اثر العمل لصاحبه خيرا كان او شرا، وليس مقام بيان ان الإحسان ينفع صاحبه والإساءة تضر حتى يقال: وإن اسأتم فعليها كما قيل: ﴿لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت﴾ (البقرة / ٢٨٦).

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيراً﴾ التتبير الإهلاك من التبار بمعنى الهلاك والدمار.

وقوله: ﴿لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ﴾ من المساءة يقال: ساء زيد فلاناً اذا احزنه وهو على ما قيل متعلق بفعل مقدر محذوف للإيجاز. واللام للغاية والتقدير بعثناهم ليسوؤا وجوهكم بظهور الحزن والكآبة فيها وبدو آثار الذلة والمسكنة وصغار الاستعبار عليها بما يرتكبونه فيكم من القتل الذريع والسبي والنهب.

وقوله: ﴿وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ المراد بالمسجد هو المسجد الأقصى - بيت المقدس - ولا يعبؤ بما ذكره بعضهم ان المراد به جميع الأرض المقدسة مجازا. وفي الكلام دلالة أولاً انهم في وعد المرة الاولى ايضاً دخلوا المسجد عنوة وإنما لم يذكر قبلا للإيجاز. وثانياً ان دخولهم المسجد انما كان للهتك والتخريب. وثالثاً يشعر الكلام بأن هؤلاء المهاجمين المبعوثين لمجازاة بني اسرائيل والانتقام منهم هم الذين بعثوا

عليهم اولاً.

وقوله: ﴿ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيراً ﴾ اي ليهلكوا الذي غلبوا عليه إهلاكاً فيقتلوا النفوس ويحرقوا الاموال ويهدموا الابنية ويخربوا البلاد، واحتمل ان يكون ما مصدرية بحذف مضاف وتقدير الكلام: وليتبروا مدة علوهم تتبيراً. والمعنى الاول اقرب الى الفهم وأوفق بالسياق.

والمقايسة بين الوعدين اعني قوله: «بعثنا عليكم عبادا لنا» الخ؛ وقوله: «ليسوؤا وجوهكم» الخ؛ يعطي ان الثاني كان اشد على بني اسرائيل وامر وقد كادوا ان يفنوا ويبيدوا فيه عن آخرهم وكفى في ذلك قوله تعالى: «وليتبروا ما علوا تتبيرا».

والمعنى فإذا جاء وعد المرة الآخرة وهي الثانية من الإفسادتين بعثناهم ليسوؤا وجوهكم بظهور الحزن والكآبة وبدو الذله والمسكنة وليدخلوا المسجد الاقصى كما دخلوه اول مرة وليهلكوا الذي غلبوا عليه ويفنوا الذي مروا عليه اهلاكاً وافناء.

قوله تعالى: ﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً ﴾ الحصير من الحصر وهو ـ على ما ذكروه ـ التضييق والحبس قال تعالى: ﴿ واحصروهم ﴾ (التوبة / ٥) اي ضيقوا عليهم.

وقوله: ﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ ﴾ اي بعد البعث الثاني على ما يفيده السياق وهو ترج للرحمة على تقدير ان يتوبوا ويرجعوا الى الطاعة والإحسان بدليل قوله: ﴿ وان تعودوا نعد ﴾ اي وان تعودوا الى الافساد والعلو، بعدما رجعتم عنه ورحمكم ربكم نعد الى العقوبة والنكال، وجعلنا جهنم للكافرين حصيراً ومكاناً حابساً لا يستطيعون منه خروجاً.

وفي قوله: ﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ ﴾ التفات من التكلم مع الغير الى الغيبة وكأن الوجه فيه الاشارة الى ان الأصل الذي يقتضيه ربوبيته تعالى ان يرحم عباده ان جروا على

ما يقتضيه خلقتهم ويرشد اليه فطرتهم الا ان ينحرفوا عن خط الخلقة ويخرجوا عن صراط الفطرة، والايماء الى هذه النكتة يوجب ذكر وصف الرب فاحتاج السياق ان يتغير عن التكلم مع الغير الى الغيبة ثم لما استوفيت النكتة بقوله: «عسى ربكم ان يرحمكم» عاد الكلام الى ما كان عليه[1].

٩ • إِنَّ هٰذَا الْقُرآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً.

١٠ • وَأَنَّ الَّذِينَ لاٰ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذاباً أَلِيماً.

١١ • وَيَدْعُ الإِنْسانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكانَ الإِنْسانُ عَجُولاً.

١٢ • وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالحِسابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً.

١٣ • وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ القِيامَةِ كِتاباً يَلْقيٰهُ مَنْشُوراً.

١٤ • إِقْرَءْ كِتابَكَ كَفىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً.

١٥ • مَنِ اهْتَدىٰ فَإِنَّما يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّما يَضِلُّ عَلَيْها وَلاٰ تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرىٰ وَما كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً.

---

١. الإسراء ٢ ـ ٨: بحث رواتي في سيرة نوح عليه السلام؛ فساد بني اسرائيل وعلوهم.

١٦ ● وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ
عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً.
١٧ ● وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ
عِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً.
١٨ ● مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ
جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُوماً مَدْحُوراً.
١٩ ● وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ
سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً.
٢٠ ● كُلّاً نُمِدُّ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ
مَحْظُوراً.
٢١ ● أُنْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ
وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً.
٢٢ ● لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهاً آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مَخْذُولاً.

بيان:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ أي للملة التي هي أقوم كما قال تعالى: ﴿قل انني هداني ربي الى صراط مستقيم دينا قيما ملة إبراهيم حنيفا﴾ (الأنعام / ١٦١).

والأقوم أفعل تفضيل والاصل في الباب القيام ضد القعود الذي أو أحد أحوال الانسان واوضاعه. وهو أعدل حالاته يتسلط به على ما يريده من العمل بخلاف القعود والاستلقاء

والانبطاح ونحوها ثم كني به عن حسن تصديه للامور اذا قوي عليها من غير عجز وعي وأحسن ادارتها للغاية يقال: قام بأمر كذا اذا تولاه وقام على امر كذا اي راقبه وحفظه وراعى حاله بما يناسبه.

وقد وصف الله سبحانه هذه الملة الحنيفية بالقيام كما قال: ﴿ **فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم** ﴾ (الروم / ٣٠)، وقال: ﴿ **فأقم وجهك للدين القيم** ﴾ (الروم / ٤٣).

وذلك لكون هذا الدين مهيمنا على ما فيه خير دنياهم وآخرتهم قيما على اصلاح حالهم في معاشهم ومعادهم، وليس الا لكونه موافقاً لما تقتضيه الفطرة الإنسانية والخلقة التي سواه الله سبحانه عليها وجهزه بحسبها بما يهديه الى غايته التي اريدت له، وسعادته التي هيئت لأجله.

قوله تعالى: ﴿ **وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً** ﴾ الصالحات صفة محذوف موصوفها اختصارا والتقدير وعملوا الأعمال الصالحات.

وفي الآية جعل حق للمؤمنين الذين آمنوا وعملوا الصالحات على الله سبحانه كما يؤيده تسمية ذلك أجراً ويؤيده أيضاً قوله في موضع آخر: ﴿ **إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون** ﴾ (حم السجدة / ٨) ولا محذور في ان يكون لهم على الله حق اذا كان سبحانه هو الجاعل له، ونظيره قوله: ﴿ **ثم ننجي رسلنا والذين آمنوا كذلك حقا علينا ننج المؤمنين** ﴾ (يونس / ١٠٣).

والعناية في الآية ببيان الوعد المنجز كما ان الآية التالية تعني ببيان الوعيد المنجز وهو العذاب لمن يكفر بالآخرة، وأما من آمن ولم يعمل الصالحات فليس ممن له على الله أجر منجز وحق ثابت بل أمره مراعى بتوبة أو شفاعة حتى يلحق بذلك معشر الصالحين من المؤمنين قال تعالى: ﴿ **وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب**

عليهم﴾ (التوبة / ١٠٢) وقال: ﴿وآخرون مرجون لأمر الله إما يعذبهم وإما يتوب عليهم﴾ (التوبة / ١٠٦).

نعم لهم ثبات على الحق بإيمانهم كما قال تعالى: ﴿وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم﴾ (يونس / ٢) وقال: ﴿يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾ (إبراهيم / ٢٧).

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذاباً أَلِيماً﴾

الإعتاد الإعداد والتهيئة من العتاد بالفتح وهو على ما ذكره الراغب ادّخار الشيء قبل الحاجة اليه كالإعداد.

وظاهر السياق أنه عطف على قوله في الآية السابقة: «أن لهم» الخ: فيكون التقدير ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن الذين لا يؤمنون، الخ؛ وكون ذلك بشارة للمؤمنين من حيث إنه انتقام إلهي من أعدائهم في الدين.

وإنما خص بالذكر من أوصاف هؤلاء عدم ايمانهم بالآخرة مع جواز أن يكفروا بغيرها كالتوحيد والنبوة لأن الكلام مسوق لبيان الأثر الذي يعقبه الدين القيم، ولا موقع للدين ولا فائدة له مع انكار المعاد وان اعترف بوحدانية الرب تعالى وغيرها من المعارف، ولذلك عد سبحانه نسيان يوم الحساب أصلاً لكل ضلال في قوله: ﴿إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب﴾ (ص / ٢٦).

قوله تعالى: ﴿وَيَدْعُ الإِنْسانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكانَ الإِنْسانُ عَجُولاً﴾

المراد بالدعاء على ما يستفاد من السياق مطلق الطلب سواء كان بلفظ الدعاء كقوله: اللهم ارزقني مالا وولداً وغير ذلك أو من غير دعاء لفظي بل بطلب وسعي فإن ذلك كله دعاء وسؤال من الله سواء اعتقد به الانسان وتنبه له أم لا إذ لا معطي ولا مانع في الحقيقة إلا الله سبحانه، قال تعالى: ﴿يسأله من في السماوات والأرض﴾ (الرحمن / ٢٩) وقال: ﴿وآتاكم

من كل ما سألتموه﴾ (إبراهيم / ٣٤) فالدعاء مطلق الطلب والباء في قوله: «بالشر» و«بالخير» للصلة والمراد أن الانسان يدعو الشر ويسأله دعاء كدعائه الخير وسؤاله وطلبه.

وعلى هذا فالمراد بكون الإنسان عجولاً أنه لا يأخذ بالأناة إذا أراد شيئاً حتى يتروى ويتفكر في جهات صلاحه وفساده حتى يتبين له وجه الخير فيما يريده من الأمر فيطلبه ويسعى اليه بل يستعجل في طلبه بمجرد ما ذكره وتعلق به هواه فربما كان شرا فتضرر به وربما كان خيراً فانتفع به.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ الى آخر الآية؛ قال في المجمع: مبصرة أي مضيئة منيرة نيرة قال أبو عمرو: أراد يبصر بها كما يقال: ليل نائم وسر كاتم، وقال الكسائي: العرب تقول: أبصر النهار إذا أضاء. انتهى موضع الحاجة.

الليل والنهار هما النور والظلمة المتعاقبان على الأرض من جهة مواجهة الشمس بالطلوع وزوالها بالغروب وهما كسائر ما في الكون من أعيان الأشياء وأحوالها آيتان لله سبحانه تدلان بذاتهما على توحده بالربوبية.

وقوله: ﴿لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ﴾ متفرع على قوله: «وجعلنا آية النهار مبصرة» أي جعلناها مضيئه لتطلبوا فيه رزقاً من ربكم فإن الرزق فضله وعطاؤه تعالى.

وقوله: ﴿وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالحِسابَ﴾ أي لتعلموا بمحو الليل وإبصار النهار عدد السنين بجعل عدد من الأيام واحداً يعقد عليه، وتعلموا بذلك حساب الأوقات والآجال، وظاهر السياق أن علم السنين والحساب متفرع على جعل النهار مبصراً نظير تفرع ما تقدمه من ابتغاء الرزق على ذلك وذلك أنا إنما نتنبه للاعدام والفقدانات من ناحية الوجودات لا بالعكس والظلمة فقدان النور ولولا النور لم ننتقل لا الى نور ولا الى ظلمة،

ونحن وإن كنا نستمد في الحساب بالليل والنهار معاً ونميز كلا منهما بالآخر ظهراً لكن ما هو الوجودي منهما أعني النهار هو الذي يتعلق به إحساسنا أولاً ثم نتنبه لما هو العدمي منهما أعني الليل بنوع من القياس، وكذلك الحال في كل وجودي وعدمي مقيس اليه.

قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ قال في المجمع: الطائر هنا عمل الإنسان شبه بالطائر الذي يسنح ويتبرك به والطائر الذي يبرح فيتشأم به، والسانح الذي يجعل ميامنه الى مياسرك، والبارح الذي يجعل مياسره الى ميامنك، والأصل في هذا أنه إذ كان سانحاً أمكن الرامي وإذا كان بارحاً لم يمكنه قال أبو زيد: كل ما يجري من طائر أو ظبي أو غيره فهو عندهم طائر. انتهى.

وفي الكشاف: أنهم كانوا يتفألون بالطير ويسمونه زجرا فإذا سافروا ومر بهم طير زجروه فإن مر بهم سانحاً بأن مر من جهة اليسار الى اليمين تيمنوا وإن مر بارحاً بأن مر من جهة اليمين الى الشمال تشأموا ولذا سمي تطيراً. انتهى.

وقال في المفردات: تطير فلان وأطير أصله التفاؤل بالطير ثم يستعمل في كل ما يتفاءل به ويتشاءم «قالوا إنا تطيرنا بكم» ولذلك قيل: لا طير إلّا طيرك وقال: «إن تصبهم سيئة يطيروا» أي يتشاءموا به «ألا إنما طائرهم عند الله» أي شؤمهم ما قد أعد الله لهم بسوء أعماله، وعلى ذلك قوله: «قالوا اطيرنا بك وبمن معك» «قال طائركم عند الله» «قالوا طائركم معكم» «وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه» أي عمله الذي طار عنه من خير وشر ويقال: تطايروا إذا أسرعوا ويقال إذا تفرقوا. انتهى.

وبالجملة سياق ما قبل الآية وما بعدها وخاصة قوله: «من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه» الخ؛ يعطي أن المراد بالطائر ما يستدل به على الميمنة والمشأمة ويكشف عن حسن العاقبة وسوءها فلكل إنسان شيء يرتبط بعاقبة حاله يعلم به كيفيتها من خير أو شر.

وإلزام الطائر جعله لازما له لا يفارقه، وإنما جعل الإلزام في العنق لأنه العضو الذي لا

يمكن أن يفارقه الإنسان أو يفارقه هو الإنسان بخلاف الأطراف كاليد والرجل، وهو العضو الذي يوصل الرأس بالصدر فيشاهد ما يعلق عليه من قلادة أو طوق أو غل أول ما يواجه الإنسان.

فالمراد بقوله: «وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه» أن الذي يستعقب لكل إنسان سعادته أو شقاءه هو معه لا يفارقه بقضاء من الله سبحانه فهو الذي ألزمه إياه. وهذا هو العمل الذي يعمله الإنسان لقوله تعالى: ﴿**وأن ليس للانسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الأوفى**﴾ (النجم / ٤١).

فالطائر الذي ألزمه الله الإنسان في عنقه هو عمله، ومعنى إلزامه إياه أن الله قضى أن يقوم كل عمل بعامله ويعود اليه خيره وشره ونفعه وضره من غير أن يفارقه الى غيره، وقد استفيد من قوله تعالى: ﴿**وإن جهنم لموعدهم أجمعين... إن المتقين في جنات وعيون**﴾ الآيات (الحجر / ٤٥) أن من القضاء المحتوم أن حسن العاقبة للايمان والتقوى وسوء العاقبة للكفر والمعصية.

ولازم ذلك أن يكون مع كل إنسان من عمله ما يعين له حاله في عاقبة أمره معية لازمة لا يتركه وتعييناً قطعياً لا يخطىء ولا يغلط لما قضي به أن كل عمل فهو لصاحبه ليس له إلّا هو وأن مصير الطاعة الى الجنة ومصير المعصية الى النار.

وبما تقدم يظهر أن الآية إنما تثبت لزوم السعادة والشقاء للانسان من جهة أعماله الحسنة والسيئة المكتسبة من طريق الاختيار من دون أن يبطل تأثير العمل في السعادة والشقاء بإثبات قضاء أزلي يحتم للانسان سعادة أو شقاء سواء عمل أم لم يعمل وسواء أطاع أم عصى كما توهمه بعضهم.

قوله تعالى: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ القِيامَةِ كِتاباً يَلْقَيهُ مَنْشُوراً﴾ يوضح حال هذا الكتاب قوله بعده: «اقرء كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً» حيث يدل أولاً على أن

الكتاب الذي يخرج له هو كتابه نفسه لا يتعلق بغيره، وثانياً أن الكتاب متضمن لحقائق أعماله التي عملها في الدنيا من غير أن يفقد منها شيئاً كما في قوله: ﴿**يقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها**﴾ (الكهف / ٤٩)، وثالثاً أن الأعمال التي أحصاها بادية فيها بحقائقها من سعادة أو شقاء ظاهرة بنتائجها من خير أو شر ظهوراً لا يستتر بستر ولا يقطع بعذر، قال تعالى: ﴿**لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد**﴾ (ق / ٢٢).

وبالجملة في قوله: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ﴾ إشارة الى أن كتاب الأعمال بحقائقها مستور عن إدراك الإنسان محجوب وراء حجاب الغفلة وإنما يخرجه الله سبحانه للانسان يوم القيامة فيطلعه على تفاصيله، وهو المعني بقوله: «يلقاه منشوراً».

قوله تعالى: ﴿إِقْرَءْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً﴾ أي يقال له: اقرأ كتابك، الخ.

وقوله: ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ﴾ الباء فيه زائدة للتأكيد وأصله كفت نفسك وإنما لم يؤنث الفعل لأن الفاعل مؤنث مجازي يجوز معه التذكير والتأنيث، وربما قيل: إنه اسم فعل بمعنى اكتف والباء غير زائدة، وربما وجه بغير ذلك.

وفي الآية دلالة على أن حجة للكتاب قاطعة بحيث لا يرتاب فيها قارئه ولو كان هو المجرم نفسه وكيف لا؟ وفيه معاينة نفس العمل وبه الجزاء، قال تعالى: ﴿**لا تعتذروا اليوم إنما تجزون ما كنتم تعملون**﴾ (التحريم / ٧).

والحال أن العمل سواء كان خيراً أو شراً لازم لصاحبه لا يفارقه وهو أيضاً محفوظ عليه في كتاب سيخرج له يوم القيامة وينشر بين يديه ويحاسب عليه، وإذا كان كذلك كان من الواجب على الانسان أن لا يبادر الى اقتحام كل ما يهواه ويشتهيه ولا يستعجل ارتكابه بل يتوقف في الامور ويتروى حتى يميز بينها ويفرق خيرها من شرها فيأخذ بالخير ويتحرز الشر.

قوله تعالى: ﴿مَنِ اهْتَدىٰ فَإِنَّما يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّما يَضِلُّ عَلَيْها وَلاٰ تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرىٰ﴾ قال في المفردات: الوزر الثقل تشبيهاً بوزر الجبل، ويعبر بذلك عن الإثم كما يعبر عنه بالثقل قال تعالى: ﴿ليحملوا أوزارهم كاملة﴾ الآية؛ كقوله: ﴿وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم﴾ قال: وقوله: ﴿ولا تزر وازرة وزر أُخرى﴾ أي لا تحمل وزره من حيث يتعرى المحمول عنه. انتهى.

والآية في موضع النتيجة لقوله: «وكل إنسان ألزمناه طائره» الخ؛ والجملة الثالثة «ولا تزر وازرة وزر أُخرى» تأكيد للجملة الثانية «ومن ضل فإنما يضل عليها».

والمعنى إذا كان العمل خيراً كان أو شراً يلزم صاحبه ولا يفارقه وهو محفوظ على صاحبه سيشاهده عند الحساب فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه وينتفع به نفسه من غير أن يتبع غيره. ومن ضل عن السبيل فإنما يضل على نفسه ويتضرر به نفسه من دون أن يفارقه فيلحق غيره، ولا تتحمل نفس حامله حمل نفسه اخرى لا كما ربما يخيل لاتباع الضلال أنهم إن ضلوا فوبال ضلالهم على أئمتهم الذين أضلوهم وكما يتوهم المقلدون لآبائهم وأسلافهم أن آثامهم وأوزراهم لآبائهم وأسلافهم لا لهم.

نعم لأئمة الضلال مثل أوزار متبعيهم، ولمن سن سنة سيئة أوزار من عمل بها ولمن قال: اتبعونا لنحمل خطاياكم آثام خطاياهم لكن ذلك كله وزر الإمامة وجعل السنة وتحمل الخطايا لا عين ما للعامل من الوزر بحيث يفارق عامله ويلحق المتبوع بل إن كان عينه فمعناه أن يعذب بعمل واحد اثنان.

قوله تعالى: ﴿وَما كُنّا مُعَذِّبِينَ حَتّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ ظاهر السياق الجاري في الآية وما يتلوها من الآيات بل هي والآيات السابقة أن يكون المراد بالتعذيب التعذيب الدنيوي بعقوبة الاستئصال، ويؤيده خصوص سياق النفي «وما كنا معذبين» حيث لم يقل: ولسنا معذبين ولا نعذب ولن نعذب بل قال: «وما كنا معذبين» الدال على استمرار النفي في

الماضي الظاهر في انه كانت السنة الالهية في الامم الخالية الهالكة جارية على أن لا يعذبهم إلا بعد أن يبعث اليهم رسولاً ينذرهم بعذاب الله.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً﴾ قال الراغب: الترفة التوسع في النعمة يقال: أُترف فلان فهو مترف ـ الى أن قال في قوله: أمرنا مترفيها ـ هم الموصوفون بقوله سبحانه: ﴿فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه﴾ انتهى. وقال في المجمع: الترفة النعمة، قال ابن عرفة: المترف المتروك يصنع ما يشاء ولا يمنع منه، وقال: التدمير الإهلاك والدمار الهلاك. انتهى.

وقوله: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً﴾ أي إذا دنا وقت هلاكهم من قبيل قولهم: إذا أراد العليل أن يموت كان كذا، وإذا أرادت السماء أن تمطر كان كذا، أي إذا دنا وقت موته وإذا دنا وقت إمطارها فإن من المعلوم أنه لا يريد الموت بحقيقة معنى الإرادة وأنها لا تريد الإمطار كذلك، وفي القرآن: ﴿فوجدا جداراً يريد أن ينقض﴾ الآية.

ويمكن أن يراد به الإرادة الفعلية وحقيقتها توافق الأسباب المقتضية للشيء وتعاضدها على وقوعه، وهو قريب من المعنى الأول وحقيقته تحقق ما لهلاكهم من الأسباب وهو كفران النعمة والطغيان بالمعصية كما قال سبحانه: ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد﴾ (إبراهيم / ٧)، وقال: ﴿الذين طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد فصب عليهم ربك سوط عذاب إن ربك لبالمرصاد﴾ (الفجر / ١٤).

وقوله: ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا﴾ من المعلوم من كلامه تعالى أنه لا يأمر بالمعصية أمراً تشريعياً فهو القائل: ﴿قل إن الله لا يأمر بالفحشاء﴾ (الأعراف / ٢٨) وأما الأمر التكويني فعدم تعلقه بالمعصية من حيث إنها معصية أوضح لجعله الفعل ضرورياً يبطل معه تعلقه باختيار الإنسان ولا معصية مع عدم الاختيار قال تعالى: ﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً

أن يقول له كن فيكون﴾ (يس / ٨٢).

فمتعلق الأمر في قوله: «أمرنا» إن كان هو الطاعة كان الأمر بحقيقة معناه وهو الأمر التشريعي وكان هو الأمر الذي توجه اليهم بلسان الرسول الذي يبلغهم أمر ربهم وينذرهم بعذابه لو خالفوا وهو الشأن الذي يختص بالرسول كما تقدمت الاشارة اليه فإذا خالفوا وفسقوا عن أمر ربهم حق عليهم القول وهو أنهم معذبون إن خالفوا فاهلكوا ودمروا تدميراً.

وإن كان متعلق الأمر هو الفسق والمعصية كان الأمر مراداً به الاكثار من إفاضة النعم عليهم وتوفيرها على سبيل الاملاء والاستدراج وتقريبهم بذلك من الفسق حتى يفسقوا فيحق عليهم القول وينزل عليهم العذاب.

وهذان وجهان في معنى قوله: «أمرنا مترفيها ففسقوا فيها» يجوز توجيهه بكل منها لكن يبعد أول الوجهين أولا أن قولنا: أمرته ففعل وأمرته ففسق ظاهره تعلق الأمر بعين ما فرع عليه، وثانياً عدم ظهور وجه لتعلق الأمر بالمترفين مع كون الفسق لجميع أهل القرية وإلا لم يهلكوا.

وقرىء «آمرنا» بالمد ونسب الى علي عليه السلام والى عاصم وابن كثير ونافع وغيرهم وهو من الايمان بمعنى إكثار المال والنسل أو بمعنى تكليف إنشاء فعل، وقرىء أيضاً «أمرنا» بتشديد الميم من التأمير بمعنى تولية الإمارة ونسب ذلك الى علي والحسن والباقر عليهم السلام والى ابن عباس وزيد بن علي وغيرهم.

قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً﴾ قال في المفردات: القرن القوم المقترنون في زمن واحد وجمعه قرون قال: ﴿ولقد أهلكنا القرون من قبلكم﴾ ﴿وكم أهلكنا من القرون﴾ انتهى ومعنى الآية ظاهر، وفيها تثبيت ما ذكر في الآية السابقة من سنة الله الجارية في إهلاك القرى بالاشارة الى القرون الماضية الهالكة.

والآية لا تخلو من إشعار بأن سنة الاهلاك إنما شرعت في القرون الانسانية بعد نوح عليه السلام وهو كذلك، وقد تقدم في تفسير قوله تعالى: ﴿كان الناس امة واحدة فبعث الله النبيين﴾ (البقرة / ٢١٣) في الجزء الثاني من الكتاب أن المجتمع الانساني قبل زمن نوح عليه السلام كانوا على سذاجة الفطرة ثم اختلفوا بعد ذلك.

قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ العَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلٰيهَا مَذمُوماً مَدْحُوراً﴾ العاجلة صفة محذوفة الموصوف ولعل موصوفها الحياة بقرينة مقابلتها الآخرة في الآية التالية وهي الحياه الآخرة، وقيل: المراد النعم العاجلة وقيل: الأعراج الدنيوية العاجلة.

وفي المفردات: أصل الصلي لايقاد النار. قال: وقال الخليل: صلي الكافر النار قاسى حرها ﴿يصلونها فبئس المصير﴾ وقيل: صلي النار دخل فيها، وأصلاها غيره قال: ﴿فسوف نصليه ناراً﴾ انتهى. وفي المجمع: الدحر الابعاد والمدحور المبعد المطرود يقال: اللهم ادحر عنا الشيطان أي أبعده انتهى.

لما ذكر سبحانه سنته في التعذيب الدنيوي إثر دعوة الرسالة وأنه يهدي الامم الانسانية الى الايمان والعمل الصالح حتى إذا فسدوا وأفسدوا بعث اليهم رسولاً فإذا طغوا وفسقوا عذبهم عذاب الاستئصال، عاد الى بيان سنته في التعذيب الأخروي والإثابة فيها في هذه الآية والآيتين بعدها يذكر في آية ملاك عذاب الآخرة، وفي آية ملاك ثوابها، وفي آية محصل القول والأصل الكلي في ذلك.

فقوله: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ العَاجِلَةَ﴾ أي الذي يريد الحياة العاجلة وهي الحياة الدنيا، وإرادة الحياة الدنيا إنما هي طلب ما فيها من المتاع الذي تلتذ به النفس وتعلق به القلب، والتعلق بالعاجلة وطلبها إنما يعد طلباً لها إذا كان مقصوده بالاستقلال لا لأجل التوسل بها الى سعادة الاخرى وإلا كانت إرادة للآخرة فإن الاخرة لا يسلك اليها إلا من طريق الدنيا فلا

يكون الانسان مريداً للدنيا إلا إذا أعرض عن الآخرة ونسيها فتمحضت إرادته في الدنيا، ويدل عليه أيضاً خصوص التعبير في الآية «من كان يريد» حيث يدل على استمرار الارادة.

وهذا هو الذي لا يرى لنفسه إلّا هذة الحياة المادية الدنيوية وينكر الحياة الآخرة، ويلغو بذلك القول بالنبوة والتوحيد إذ لا أثر للايمان بالله ورسله والتدين لولا الاعتقاد بالمعاد، قال تعالى: ﴿ **فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدينا ذلك مبلغهم من العلم إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله** ﴾ (النجم / ٣٠).

وقوله: ﴿ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ﴾ أي أسرعنا في إعطائه ما يريده في الدنيا لكن لا بإعطائه ما يريده بل بإعطائه ما نريده بالأمر الينا لا اليه والأثر لارادتنا لا لإرادته، ولا بإعطاء ما نعطيه لكل من يريد بل لمن نريد فليس يحكم فينا إرادة الأشخاص بل إرادتنا هي التي تحكم فيهم.

وإرادته سبحانه الفعلية لشيء هو اجتماع الأسباب على كينونته وتحقّق العلة التامة لظهوره فالآيه تدل على أن الانسان وهو يريد الدنيا يرزق منها على حسب ما يسمح له الأسباب والعوامل التي أجراها الله في الكون وقدر لها من الآثار فهو ينال شيئاً مما يريده ويسأله بلسان تكوينه لكن ليس له إلا ما يهدي اليه الأسباب والله من ورائهم محيط.

قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً ﴾ قال الراغب: السعي المشي السريع وهو دون العدو، ويستعمل للجد في الأمر خيراً كان أو شراً، انتهى موضع الحاجة.

وقوله: ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ ﴾ أي الحياة الآخرة نظير ما تقدم من قوله: «من كان يريد العاجلة» والكلام في قول من قال: يعني من أراد بعمله الآخرة نظير الكلام في مثله في الآية السابقة.

وقوله: ﴿ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا ﴾ اللام للاختصاص وكذا إضافة السعي الى ضمير

الآخرة، والمعنى وسعى وجد للآخره السعي الذي يختص بها، ويستفاد منه أن سعيه لها يجب أن يكون سعياً يليق بها ويحق لها كأن يكون يبذل كمال الجهد في حسن العمل وأخذه من عقل قطعي أو حجة شرعية.

وقوله: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ أي مؤمن بالله ويستلزم ذلك توحيده والإذعان بالنبوة والمعاد فإن من لا يعترف بإحدى الخصال الثلاث لا يعده الله سبحانه في كلامه مؤمناً به وقد تكاثرت الآيات فيه.

على أن نفس التقييد بقوله: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ يكفي في التقييد المذكور فان من أراد الآخرة وسعى لها سعيها فهو مؤمن بالله وبنشأة وراء هذه النشأة الدنيوية قطعاً فلولا أن التقييد بالايمان لإفادة وجوب كون الإيمان صحيحاً ومن صحته أن يصاحب التوحيد والإذعان بالنبوة لم يكن للتقييد وجه فمجرد التقييد بالإيمان يكفي مؤونة الاستعانة بآيات أُخر.

وقوله: ﴿فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً﴾ أي يشكره الله بحسن قبوله والثناء على ساعيه. وشكره تعالى على عمل العبد تفضل منه على تفضل فإن أصل إثابته العبد على عمل عمله تفضل لأن من وظيفة العبد أن يعبد مولاه من غير وجوب الجزاء عليه فالإثابة تفضل، والثناء عليه بعد الإثابة تفضل على تفضل والله ذو الفضل العظيم.

وفي الآيتين دلالة على ان الأسباب الاخروية وهي الأعمال لا تتخلف عن غاياتها بخلاف الأسباب الدنيوية فإنه سبحانه يقول فيمن عمل للآخرة ﴿فاولئك كان سعيهم مشكوراً﴾ ويقول فيمن عمل للدنيا ﴿عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد﴾.

قوله تعالى: ﴿كُلاًّ نُمِدُّ هَٰؤُلاءِ وَهَٰؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً﴾ قال في المفردات: أصل المد الجر ومنه المدة للوقت الممتد ومدة الجرح ومد النهر ومده نهر آخر ومددت عيني الى كذا قال تعالى: ﴿ولا تمدن عينيك﴾ الآية؛ ومددته في غيه ...

وأمددت الجيش بمدد الانسان بطعام قال: وأكثر ما جاء الإمداد في المحبوب والمد في المكروه نحو: ﴿وأمددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون﴾ ﴿ونمد له من العذاب مداً﴾ ﴿ ﴾ ونمدهم في طغيانهم﴾ ﴿وإخوانهم يمدونهم في الغي﴾ انتهى بتلخيص منا.

فإمداد الشيء ومده أن يضاف اليه من نوعه مثلا ما يمتد به بقاؤه ويدوم به وجوده ولولا ذلك لانقطع كالعين من الماء التي تستمد من المنبع ويضاف اليها منه الماء حيناً بعد حين ويمتد بذلك جريانها.

وقوله: ﴿هٰؤُلاءِ وَهٰؤُلاءِ﴾ أي هؤلاء المعجل لهم وهؤلاء المشكور سعيهم بما أن لكل منهما نعته الخاص به، ويؤل المعنى الى أن كلا من الفريقين تحت التربية الإلهية يفيض عليهم من عطائه من غير فرق غير أن أحدهما يستعمل النعمة الإلهية لابتغاء الآخرة فيشكر الله سعيه، والآخر يستعملها لابتغاء العاجلة وينسى الآخرة فلا يبقى له فيها إلا الشقاء والخيبة.

وقوله: ﴿مِنْ عَطٰاءِ رَبِّكَ﴾ فإن جميع ما يستفيدون منه في أعمالهم كما تقدم لا صنع لهم ولا لغيرهم من المخلوقين فيه بل الله سبحانه هو الموجد لها ومالكها فهي من عطائه.

وقوله: ﴿وَمٰا كٰانَ عَطٰاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً﴾ أي ممنوعاً ـ والحظر المنع ـ فأهل الدنيا وأهل الآخرة مستمدون من عطائه منعمون بنعمته ممنونون بمنته.

وفي الآية دلالة على أن العطاء الإلهي مطلق غير محدد بحد لمكان إطلاق العطاء ونفي الحظر في الآية فما يوجد من التحديد والتقدير والمنع باختلاف الموارد فإنما هو من ناحية المستفيض وخصوص استعداده للاستفاضة أو فقدانه من رأس لا من ناحية المفيض.

قوله تعالى: ﴿أُنْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنٰا بَعْضَهُمْ عَلىٰ بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجٰاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً﴾ اشارة الى تفاوت الدرجات بتفاوت المساعي حتى لا يتوهم أن قليل العمل وكثيره على حد سواء ويسير السعي والسعي البالغ لا فرق بينهما فإن تسوية القليل والكثير والجيد والردي في الشكر والقبول رد في الحقيقة لما يزيد به الأفضل على غيره.

وقوله: ﴿أُنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي بعض الناس على بعض في الدنيا. والقرينة على هذا التقييد قوله بعد: «وللآخرة أكبر» والتفضيل في الدنيا هو ما يزيد به بعض أهلها على بعض من أعراضها وأمتعتها كالمال والجاه والولد والقوة والصيت والرئاسة والسؤدد والقبول عند الناس.

وقوله: ﴿وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً﴾ أي هي أكبر من الدنيا في الدرجات والتفضيل فلا يتوهمن متوهم أن أهل الآخرة في عيشة سواء ولا أن التفاوت بين معايشهم كتفاوت أهل الدنيا في دنياهم بل الدار أوسع من الدنيا بما لا يقاس وذلك أن سبب التفضيل في الدنيا هي اختلاف الأسباب الكونية وهي محدودة والدار دار التزاحم وسبب التفضيل واختلاف الدرجات في الآخرة هو اختلاف النفوس في الإيمان والإخلاص وهي من أحوال القلوب، واختلاف أحوالها أوسع من اختلاف أحوال الأجسام بما لا يقال قال تعالى: ﴿ان تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله﴾ (البقرة / ٢٨٤) ﴿يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم﴾ (الشعراء / ٨٩).

ففي الآيه أمره ﷺ أن ينظر الى ما بين أهل الدنيا من التفاضل والاعتبار ليجعل ذلك ذريعة الى فهم ما بين أهل الآخرة من تفاوت الدرجات والتفاضل في المقامات فإن اختلاف الأحوال في الدنيا يؤدي الى اختلاف الادراكات الباطنة والنيات والأعمال التي يتيسر للانسان أن يأتي بها واختلاف ذلك يؤدي الى اختلاف الدرجات في الآخرة.

قوله تعالى: ﴿لاَ تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهاً آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مَخْذُولاً﴾ قال في المفردات: الخذلان ترك من يظن به أن ينصر نصرته انتهى.

والآية بمنزلة النتيجة للآيات السابقة التي ذكرت سنة الله في عباده وختمت في أن من أراد منهم العاجلة انتهى به ذلك الى أن يصلى جهنم مذموماً مدحوراً، ومن أراد منهم الآخرة شكر الله سعيه الجميل، والمعنى لا تشرك بالله سبحانه حتى يؤديك ذلك الى ان تقعد وتحتبس عن

السير الى درجات القرب وانت مذموم لا ينصرك الله ولا ناصر دونه وقيل: القعود كناية عن المذلة والعجز[١][٢].

٢٣ • وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيماً.

٢٤ • وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً.

٢٥ • رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُوراً.

٢٦ • وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً.

٢٧ • إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً.

٢٨ • وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلاً مَيْسُوراً.

---

١. الاسراء ٩ ـ ٢٢: بحث روائي في القرآن.

٢. الاسراء ٩ ـ ٢٢: كلام في القضاء في فصول (في تحصيل معناه وتحديده؛ نظرة فلسفية في معنى القضاء) بحث فلسفي في وجود الواجب تعالى.

٢٩ ● وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ
فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً.

٣٠ ● إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً
بَصِيراً.

٣١ ● وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ
قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئاً كَبِيراً.

٣٢ ● وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلاً.

٣٣ ● وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِالحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ
مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً فَلَا يُسْرِفْ فِي ٱلْقَتْلِ إِنَّهُ
كَانَ مَنْصُوراً.

٣٤ ● وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ
وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كانَ مَسْؤُلاً.

٣٥ ● وَأَوْفُوا ٱلْكَيْلَ إِذا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ذٰلِكَ خَيْرٌ
وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً.

٣٦ ● وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ
أُولٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُلاً.

٣٧ ● وَلَا تَمْشِ فِي ٱلأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَنْ
تَبْلُغَ ٱلجِبالَ طُولاً.

٣٨ ● كُلُّ ذٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهاً.

٣٩ ● ذَٰلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهاً آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً مَدْحُوراً.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ «لا تعبدوا» الخ: نفي واستثناء و«أن» مصدرية وجوز ان يكون نهياً استثناء وأن مصدرية أو مفسرة، وعلى أي حال ينحل مجموع المستثنى والمستثنى منه الى جملتين كقولنا: تعبدونه ولا تعبدون غيره وترجع الجملتان بوجه آخر الى حكم واحد وهو الحكم بعبادته عن اخلاص.

والقول سواء كان منحلا الى جملتين أو عائداً الى جملة واحدة متعلق القضاء وهو القضاء التشريعي المتعلق بالاحكام والقضايا التشريعية، ويفيد معنى الفصل والحكم القاطع المولوي، وهو كما يتعلق بالأمر يتعلق بالنهي وكما يبرم الأحكام المثبتة يبرم الأحكام المنفية، ولو كان بلفظ الأمر فقيل: وأمر ربك ان لا تعبدوا الا اياه، لم يصح الا بنوع من التأويل والتجوز.

والأمر باخلاص العبادة لله سبحانه أعظم الأوامر الدينية والاخلاص بالعبادة أوجب الواجبات كما أن معصيته وهو الشرك بالله سبحانه أكبر الكبائر الموبقة، قال تعالى: **﴿ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾** (النساء / ٤٨).

واليه يعود جميع المعاصي بحسب التحليل اذ لولا طاعة غير الله من شياطين الجن والإنس وهوى النفس والجهل لم يقدم الانسان على معصية ربه فيما أمره به أو نهاه عنه والطاعة عبادة قال تعالى: **﴿ألم أعهد اليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان﴾** (يس / ٦٠)، وقال: **﴿أفرأيت من اتخذ إلهه هواه﴾** (الجاثية / ٢٣)، حتى أن الكافر المنكر للصانع مشرك بالقائه زمام تدبير العالم الى المادة او الطبيعة او الدهر او غير ذلك وهو مقر بسذاجة فطرته بالصانع

تعالى.

ولعظم أمر هذا الحكم قدمه على سائر ما عد من الأحكام الخطيرة شأناً كعقوق الوالدين ومنع الحقوق المالية والتبذير وقتل الأولاد والزنا وقتل النفس المحترمة وأكل مال اليتيم ونقض العهد والتطفيف في الوزن واتباع غير العلم والكبير ثم ختمها بالنهي ثانياً عن الشرك.

قوله تعالى: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً﴾ عطف على سابقه أي وقضى ربك بأن تحسنوا بالوالدين إحسانا او ان أحسنوا بالوالدين احسانا والإحسان في الفعل يقابل الإساءة وهذا بعد التوحيد لله من أوجب الواجبات كما أن عقوقهما أكبر الكبائر بعد الشرك بالله، ولذلك ذكره بعد حكم التوحيد وقدمه على سائر الأحكام المذكورة المعدودة وكذلك فعل في عدة مواضع من كلامه.

قوله تعالى: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيماً﴾ «إما» مركب من «إن» الشرطية و«ما» الزائدة وهي المصححة لدخول نون التأكيد على فعل الشرط، والكبر هو الكبر في السن وأُف كلمة تفيد الضجر والانزجار، والنهر هو الزجر بالصياح ورفع الصوت والاغلاظ في القول.

فالآية تدل على وجوب إكرامهما ورعاية الأدب التام في معاشرتهما ومحاورتهما في جميع الأوقات وخاصة في وقت يشتد حاجتهما الى ذلك وهو وقت بلوغ الكبر من احدهما او كليهما عند الولد ومعنى الآية ظاهر.

قوله تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً﴾ خفض الجناح كناية عن المبالغة في التواضع والخضوع قولاً وفعلا مأخوذ من خفض فرخ الطائر جناحه ليستعطف امه لتغذيته، ولذا قيده بالذل فهو دأب أفراخ الطيور إذ أرادت الغذاء من امهاتها، فالمعنى واجههما في معاشرتك ومحاورتك مواجهة يلوح منها تواضعك وخضوعك لهما وتذللك قبالهما رحمة بهما.

هذا ان كان الذل بمعنى المسكنة وان كان بمعنى المطاوعة فهو مأخوذ من خفض الطائر جناحه ليجمع تحته افراخه رحمة بها وحفظا لها.

وقوله: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً﴾، أي اذكر تربيتهما لك صغيراً فادع الله سبحانه أن يرحمهما كما ررحماك وربياك صغيراً.

قال في المجمع: وفي هذا دلالة على أن دعاء الولد لوالده الميت مسموع وإلا لم يكن للامر به معنى. انتهى. والذي يدل عليه كون هذا الدعاء في مظنة الإجابة وهو أدب ديني ينتفع به الولد وان فرض عدم انتفاع والديه به على أن وجه تخصيص استجابة الدعاء بالوالد الميت غير ظاهر والآية مطلقة.

قوله تعالى: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُوراً﴾ السياق يعطي أن تكون الآية متعلقة بما تقدمها من إيجاب إحسان الوالدين وتحريم عقوقهما، وعلى هذا فهي متعرضة لما إذا بدرت من الولد بادرة في حق الوالدين من قول أو فعل يتأذيان به، وإنما لم يصرح به للإشارة الى أن ذلك مما لا ينبغي أن يذكر كما لا ينبغي أن يقع.

فقوله: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ﴾ أي أعلم منكم به، وهو تمهيد لما يتلوه من قوله: ﴿إن تكونوا صالحين﴾ فيفيد تحقيق معنى الصلاح أي إن تكونوا صالحين وعلم الله من نفوسكم ذلك فإنه كان، الخ؛ وقوله: ﴿فإنه كان للأوابين غفوراً﴾ أي للراجعين اليه عند كل معصية وهو من وضع البيان العام موضع الخاص.

والمعنى: إن تكونوا صالحين وعلم الله من نفوسكم ورجعتم وتبتم اليه في بادرة ظهرت منكم على والديكم غفر الله لكم ذلك إنه كان للأوابين غفوراً.

قوله تعالى: ﴿وَآتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ تقدم الكلام فيه في نظائره، وبالآية أن إيتاء ذي القربى والمسكين وابن السبيل مما شرع قبل الهجرة لأنها آية

مكية من سورة مكية.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً﴾ قال في المجمع: التبذير التفريق بالإسراف، وأصله أن يفرق كما يفرق البذر إلا أنه يختص بما يكون على سبيل الإفساد، وما كان على وجه الإصلاح لا يسمى تبذيراً وإن كثر. انتهى.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾ تعليل للنهي عن التبذير، والمعنى لا تبذر إنك إن تبذر كنت من المبذرين والمبذرون إخوان الشياطين، وكأن وجه المواخاة بينهم أن الواحد منهم يصير ملازماً لشيطانه وبالعكس كالأخوين الذين هما شقيقان متلازمان في أصلهما الواحد كما يشير اليه قوله تعالى: ﴿وقيضنا لهم قرناء﴾ (حم السجدة / ٢٥)، وقوله: ﴿احشروا الذين ظلموا وأزواجهم﴾ (الصافات / ٢٢) أي قرناءهم: وقوله: ﴿وإخوانهم يمدونهم في الغي ثم لا يقصرون﴾ (الأعراف / ٢٠٢).

ومن هنا يظهر أن تفسير من فسر الآية بأنهم قرناء الشياطين أحسن من قول من قال: المعنى أنهم أتباع الشياطين سالكون سبيلهم.

وأما قوله: «وكان الشيطان لربه كفوراً» فالمراد بالشيطان فيه هو ابليس الذي أو أبو الشياطين وهم ذريته وقبيله واللام حينئذ للعهد الذهني ويمكن أن يكون اللام للجنس والمراد به جنس الشيطان وعلى أي حال كونه كفوراً لربه من جهة كفرانه بنعم الله حيث أنه يصرف ما آتاه من قوة وقدرة واستطاعة في سبيل إغواء الناس وحملهم على المعصية ودعوتهم الى الخطيئة وكفران النعمة.

وقد ظهرت مما تقدم النكتة في جمع الشيطان أولاً وإفراده ثانياً فإن الاعتبار أولاً بأن كل مبذر أخو شيطانه الخاص فالجميع إخوان للشياطين والاعتبار ثانياً بإبليس الذي هو أبو الشياطين أو بجنس الشيطان.

قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلاً مَيْسُوراً﴾ أصله إن تعرض عنهم و «ما» زائدة للتأكيد والنون للتأكيد.

والسياق يشهد بأن الكلام في إنفاق الأموال فالمراد بقوله: «وإما تعرضن عنهم» الإعراض عمن سأله شيئاً من المال ينفقه له ويسد به خلته؛ وليس المراد به كل إعراض كيف اتفق بل الإعراض عندما ليس عنده شيء من المال يبذله له وليس بآيس من وجدانه بدليل قوله: ﴿ابتغاء رحمة من ربك ترجوها﴾ أي كنت تعرض عنهم لا لكونك مليئاً بالمال شحيحاً به؛ ولا لأنك فاقد له آيس من حصوله بل لأنك فاقد له مبتغ وطالب لرحمة من ربك ترجوها يعني الرزق.

وقوله: ﴿فَقُلْ لَهُمْ قَوْلاً مَيْسُوراً﴾ أي سهلاً ليناً أي لا تغلظ في القول ولا تجف في الرد كما قال تعالى: ﴿وأما السائل فلا تنهر﴾ (الضحى / ١٠) بل رده بقول سهل لين.

قال في الكشاف: وقوله: «ابتغاء رحمة من ربك» إما أن يتعلق بجواب الشرط مقدماً عليه أي فقل لهم قولاً سهلاً ليناً وعدهم وعداً جميلاً رحمة لهم وتطييباً لقلوبهم ابتغاء رحمة من ربك اي ابتغ رحمة الله التي ترجوها برحمتك عليهم، وإما أن يتعلق بالشرط أي وإن أعرضت عنهم لفقد رزق من ربك ترجو أن يفتح لك ـ فسمى الرزق رحمة ـ فردهم رداً جميلا فوضع الابتغاء موضع الفقد لأن فاقد الرزق مبتغ له فكان الفقد سبب الابتغاء والابتغاء مسبباً عنه فوضع المسبب موضع السبب. انتهى.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً﴾ جعل اليد مغلولة الى العنق كناية عن الإمساك كمن لا يعطي ولا يهب شيئاً لبخله وشح نفسه، وبسط اليد كل البسط كناية عن إنفاق الإنسان كل ما في وجده بحيث لا يبقى شيئاً كمن يبسط يده كل البسط بحيث لا يستقر عليها شيء ففي الكلام نهي بالغ عن التفريط والإفراط في الإنفاق.

وقوله: ﴿فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً﴾ متفرع على قوله: «ولا تبسطها» الخ؛ والحسر هو الانقطاع أو العرى أي ولا تبسط يدك كل البسط حتى يتعقب ذلك أن تقعد ملوماً لنفسك وغيرك منقطعاً عن واجبات المعاش أو عرياناً لا تقدر على أن تظهر للناس وتعاشرهم وتراودهم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً﴾ ظاهر السياق أن الآية في مقام التعليل لما تقدم في الآية السابقة من النهي عن الإفراط والتفريط في إنفاق المال وبذله.

والمعنى: أن هذا دأب ربك وسنته الجارية يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر لمن يشاء فلا يبسطه كل البسط ولا يمسك عنه كل الإمساك رعاية لمصلحة العباد إنه كان بعباده خبيرا بصيرا وينبغي لك أن تتخلق بخلق الله وتتخذ طريق الاعتدال وتتجنب الافراط والتفريط.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئاً كَبِيراً﴾ الاملاق الفاقة والفقر، وقال في المفردات: الخطأ العدول عن الجهة وذلك أضرب: أحدها أن تريد غير ما تحسن ارادته وفعله، وهذا هو الخطأ التام المأخوذ به الانسان يقال: خطىء يخطأ وخطأة، قال تعالى: ﴿ان قتلهم كان خطأ كبيرا﴾ وقال: ﴿وان كنا لخاطئين﴾ والثاني أن يريد ما يحسن فعله ولكن يقع منه خلاف ما يريد فيقال: أخطأ اخطاء فهو مخطىء وهذا قد أصاب في الارادة وأخطأ في الفعل، وهذا المعني بقوله: ﴿ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة﴾، والثالث أن يريد ما لا يحسن فعله ويتفق منه خلافه فهذا مخطىء في الإرادة مصيب في الفعل فهو مذموم بقصده غير محمود على فعله.

وجملة الأمر أن من أراد شيئاً فاتفق منه غيره يقال: أخطأ، وان وقع منه كما أراده يقال: أصاب، وقد يقال لمن فعل فعلا لا يحسن أو أراد ارادة لا يجمل: انه أخطأ، ولذا يقال: أصاب الخطأ وأخطأ الصواب وأصاب الصواب وأخطأ الخطأ وهذه اللفظة مشتركة كما ترى مترددة

بين معان يجب لمن يتحرى الحقائق أو يتأملها. انتهى بتلخيص.

وفي الآية نهي شديد عن قتل الأولاد خوفاً من الفقر والحاجة وقوله: «نحن نرزقهم واياكم» تعليل للنهي وتمهيد لقوله بعد: «ان قتلهم كان خطأ كبيرا».

والمعنى ولا تقتلوا أولادكم خوفاً من أن تبتلوا بالفقر والحاجة فيؤديهم ذلك الى ذل السؤال أو ازدواج بناتكم من غير الأكفاء أو غير ذلك مما يذهب بكرامتكم فإنكم لستم ترزقونهم حتى تفقدوا الرزق عند فقركم واعساركم بل نحن نرزقهم واياكم ان قتلهم كان خطأ كبيرا.

وأما الآيه التي نحن فيها وأترابها فإنها تنهى عن قتل الأولاد خشيه إملاق، ولا موجب لحمل الأولاد على البنات مع كونه أعم، ولا حمل الهون على خوف الفقر مع كونهما متغايرين فالحق أن الآية تكشف عن سنة سيئة اخرى غير وأد البنات دفعاً للهون وهي قتل الأولاد من ذكر وانثى خوفاً من الفقر والفاقة والآيات تنهى عنه.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلاً﴾ نهي عن الزنا وقد بالغ في تحريمه حيث نهاهم عن أن يقربوه، وعلله بقوله: «إنه كان فاحشة» فأفاد أن الفحش صفه لازمة له لا يفارقه، وقوله: «وساء سبيلا» فأفاد أنه سبيل سيء يؤدي الى فساد المجتمع في جميع شؤنه حتى ينحل عقده ويختل نظامه وفيه هلاك الإنسانية وقد بالغ سبحانه في وعيد من أتى به حيث قال في صفات المؤمنين: ﴿ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاماً يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحاً﴾ (الفرقان / ٧٠)[١].

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ

---

١. الاسراء ٢٣ ـ ٣٩: كلام في حرمة الزنا وهو بحث قرآني اجتماعي.

أَشُدَّهُ ﴾ نهى عن أكل مال اليتيم وهو من الكبائر التي أوعد الله عليها النار قال تعالى: ﴿ إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً ﴾ (النساء / ١٠).

وفي النهي عن الاقتراب مبالغة لإفادة اشتداد الحرمة.

وقوله: ﴿ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ أي بالطريقة التي هي أحسن وفيه مصلحة إنماء ماله، وقوله: «حتى يبلغ أشده» هو أوان البلوغ والرشد وعند ذلك يرتفع عنه اليتيم فالتحديد بهذه الجملة لكون النهي عن القرب في معنى الأمر بالصيانة والحفظ كأنه قيل: احتفظوا على ماله حتى يبلغ أشده فتردوه اليه، وبعبارة أُخرى الكلام في معنى قولنا: لا تقربوا مال اليتيم مادام يتيماً، وقد تقدم بعض ما يناسب المقام في سورة الأنعام آية ١٥٢.

قوله تعالى: ﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كانَ مَسْؤُلاً ﴾ أي مسؤل عنه وهو من الحذف والإيصال السائغ في الكلام، وقيل: المراد السؤال عن نفس العهد فان من الجائز أن تتمثل الأعمال يوم القيامة فتشهد للانسان أو عليه وتشفع له أو تخاصمه.

قوله تعالى: ﴿ وَأَوْفُوا ٱلْكَيْلَ إِذا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ذٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾ القسطاس بكسر القاف وضمها هو الميزان قيل: رومي معرب وقيل: عربي، وقيل مركب في الأصل من القسط وهو العدل وطاس وهو كفة الميزان والقسطاس المستقيم هو الميزان العادل لا يخسر في وزنه.

وقوله: ﴿ ذٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾ الخير هو الذي يجب أن يختاره الإنسان إذا تردد الأمر بينه وبين غيره، والتأويل هو الحقيقة التي ينتهي اليها الأمر، وكون إيفاء الكيل والوزن بالقسطاس المستقيم خيراً لما فيه من الاتقاء من استراق أموال الناس واختلاسها من حيث لا يشعرون وجلب وثوقهم.

وكونهما أحسن تأويلا لما فيهما من رعاية الرشد والاستقامة في تقدير الناس معيشتهم فان

معايشهم تقوم في التمتع بأمتعة الحياة على أصلين اكتساب الأمتعة الصالحة للتمتع والمبادلة على الزائد على قدر حاجتهم فهم يقدرون معيشتهم على قدر ما يسعهم أن يبذلوه من المال عيناً أو قيمة، وعلى قدر ما يحتاجون اليه من الأمتعة المشتراة فإذا خسروا بالتطفيف ونقص الكيل والوزن فقد اختلت عليهم الحياة من الجهتين جميعاً، وارتفع الأمن العام من بينهم.

وأما إذا أُقيم الوزن بالقسط فقد أطل عليهم الرشد واستقامت أوضاعهم الاقتصادية بإصابة الصواب فيما قدروا عليه معيشتهم واجتلب وثوقهم الى أهل السوق واستقر بينهم الأمن العام.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُلاً﴾ القراءة المشهورة «لا تقف» بسكون القاف وضم الفاء من قفا يقفو قفواً اذا اتبعه ومنه قافية الشعر لكونها في آخر المصراع تابعة لما تقدمها، وقرىء «لا تقف» بضم القاف وسكون الفاء من قاف بمعنى قفا، ولذلك نقل عن بعض أهل اللغة أن قاف مقلوب قفا مثل جبذ مقلوب جذب، ومنه القيافة بمعنى اتباع أثر الأقدام.

والآية تنهى عن اتباع ما لا علم به، وهي لاطلاقها تشمل الاتباع اعتقاداً وعملاً، وتتحصل في مثل قولنا: لا تعتقد ما لا علم لك به ولا تقل ما لا علم لك به ولا تفعل ما لا علم لك به لأن في ذلك كله اتباعاً.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ ٱلْجِبالَ طُولاً﴾ المرح شدة الفرح بالباطل ـ كما قيل ـ ولعل التقييد بالباطل للدلالة على خروجه عن حد الاعتدال فإن الفرح الحق هو ما يكون ابتهاجاً بنعمة من نعم الله شكراً له وهو لا يتعدى حد الاعتدال، واما اذا فرح واشتد منه ذلك حتى خف عقله وظهر آثاره في افعاله واقواله وقيامه وقعوده وخاصة في مشيه فهو من الباطل.

وقوله: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحاً﴾ نهي عن استعظام الانسان نفسه بأكثر

مما هو عليه لمثل البطر والأشر والكبر والخيلاء، وانما ذكر المشي في الأرض مرحاً لظهور ذلك فيه.

وقوله: ﴿إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ ٱلْجِبالَ طُولاً﴾ كناية عن ان فعالك هذا وانت تريد به اظهار القدرة والقوة والعظمة انما هو وهم تتوهمه فإن هناك ما هو أقوى منك لا يخترق بقدميك وهي الأرض وما هو أطول منك وهي الجبال فاعترف بذلك أنك وضيع مهين فلا شيء مما يبتغية الإنسان ويتنافس فيه في هذه النشأة من ملك وعزة وسلطنة وقدرة وسؤدد ومال وغيرها إلا امور وهمية لا حقيقة لها وراء الإدراك الإنساني سخر الله النفوس للتصديق بها والاعتماد في العمل عليها لتعمير النشأة وتمام الكلمة، ولولا هذه الأوهام لم يعش الإنسان في الدنيا ولا تمت كلمته تعالى: ﴿ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين﴾ (البقرة / ٣٦).

قوله تعالى: ﴿كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهاً﴾ الإشارة بذلك الى ما تقدم من الواجبات والمحرمات ـ كما قيل ـ والضمير في «سيئه» يرجع الى ذلك، والمعنى كل ما تقدم كان سيئه ـ وهو ما نهي عنه وكان معصية من بين المذكورات ـ عند ربك مكروهاً لا يريده الله تعالى.

وفي غير القراءة المعروفة «سيئة» بفتح الهمزة والتاء في آخرها وهي على هذه القراءة خبر كان والمعنى واضح.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ﴾ ذلك إشارة الى ما تقدم من تفصيل التكاليف وفي الآية إطلاق الحكمة على الأحكام الفرعية ويمكن أن يكون لما تشتمل عليه من المصالح المستفادة إجمالاً من سابق الكلام.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّـهِ إِلَـهاً آخَـرَ فَـتُلْقىٰ فِـي جَـهَنَّمَ مَـلُوماً مَدْحُوراً﴾ كرر سبحانه النهي عن الشرك وقد نهى عنه سابقاً اعتناء بشأن التوحيد وتفخيماً

لأمره، وهو كالوصلة يتصل به لاحق الكلام بسابقه، ومعنى الآية ظاهر[١].

٤٠ ● أَفَأَصْفَيكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلائِكَةِ إِنَاثاً إِنَّكُمْ
لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيماً.

٤١ ● وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُوراً.

٤٢ ● قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لَابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ
سَبِيلاً.

٤٣ ● سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّاً كَبِيراً.

٤٤ ● تُسَبِّحُ لَهُ السَّمٰوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ
شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلٰكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ
حَلِيماً غَفُوراً.

٤٥ ● وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ
بِالْآخِرَةِ حِجَاباً مَسْتُوراً.

٤٦ ● وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِذَا
ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً.

٤٧ ● نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ
إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلاً مَسْحُوراً.

---

١. الاسراء ٢٣ ـ ٣٩: بحث روائي في مشيئة الله وارادته؛ الاحسان بالوالدين؛ الاوابين؛ الانفاق، حرمة الزنا؛ القصاص.

٤٨ ● أُنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثالَ فَضَلُّوا فَلاٰ يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً.

٤٩ ● وَقَالُوا ءَإِذا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَءِنّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً.

٥٠ ● قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً.

٥١ ● أَوْ خَلْقاً مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسىٰ أَنْ يَكُونَ قَرِيباً.

٥٢ ● يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلاً.

٥٣ ● وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ ٱلشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسانِ عَدُوّاً مُبِيناً.

٥٤ ● رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً.

٥٥ ● وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمٰوٰاتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلىٰ بَعْضٍ وَآتَيْنَا دٰاوُودَ زَبُوراً.

بيان:

قوله تعالى: ﴿أَفَأَصْفٰيكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَـلائِكَةِ إِنـاثاً إِنَّكُـمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيماً﴾ الإصفاء الإخلاص قال في المجمع: تقول: أصفين فلاناً بـالشيء آثرته به. انتهى.

خطاب لمن يقول منهم: ان الملائكة بنات الله أو بعضهم بنات الله والاستفهام للانكـار، ولعله بدل البنات من الاناث لكونهم يعدون الانوثة من صفات الخسة.

والمعنى اذا كان سبحانه ربكم لا رب غيره وهو الذي يتولى أمر كل شيء فهل تقولون انه آثركم بكرامة لم يتكرم به هو نفسه وهو انه خصكم بالبنين ولم يتخذ لنفسه من الود الا الاناث وهم الملائكة الكرام الذين تزعمون انهم اناث انكم لتقولون قولا عظيماً من حيث استتباعه التبعة السيئة.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هٰذَا ٱلْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُوراً﴾ قال في المفردات: الصرف رد الشيء من حالة الى حالة او ابداله بغيره. قال: والتصريف كالصرف الا في التكثير، واكثر ما يقال في صرف الشيء من حالة الى حالة ومن امر الى امر، وتصريف الرياح هو صرفها من حال الى حال قال تعالى: ﴿وصرفنا الآيات﴾ ﴿ ﴾ وصرفنا فيه من الوعيد﴾ ومنه تصريف الكلام وتصريف الدراهم. انتهى.

وقال: النفر الانزعاج من الشيء والى الشيء كالفزع الى الشيء وعن الشيء يقال: نفر عن الشيء نفوراً قال تعالى: ﴿ما زادهم الا نفوراً﴾ ﴿وما يزيدهم الا نفورا﴾ انتهى.

فقوله: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هٰذَا ٱلْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا﴾ معناه بشهادة السياق: واقسم لقد رددنا الكلام معهم في امر التوحيد ونفي الشريك من وجه الى وجه وحولناه من لحن الى لحن في هذا القرآن فأوردناه بمختلف العبارات وبيناه بأقسام البيانات ليتذكروا ويتبين لهم الحق.

وقوله: ﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُوراً﴾ اي ما يزيدهم التصريف الا انزعاجاً كلما استؤنف جيء ببيان جديد ورثهم نفرة جديدة.

قوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لَابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي ٱلْعَرْشِ سَبِيلاً﴾ أعرض عن مخاطبتهم فصرف الخطاب الى النبي ﷺ بأمره أن يكلمهم في أمر التوحيد ونفي الشريك. والذي يقولون به أن هناك آلهة دون الله يتولون جهات التدبير في العالم على اختلاف مراتبهم والواحد منهم رب لما يدبره كإله السماء وإله الأرض وإله الحرب وإله

قريش.

وإذ كانوا شركاء من جهة التدبير لكل واحد منهم الملك على حسب ربوبيته والملك من توابع الخلق الذي يختص به سبحانه حتى على معتقدهم[1] كان الملك مما يقبل في نفسه أن يقوم به غيره تعالى وحب الملك والسلطنة ضروري لكل موجود كانوا بالضرورة طالبين أن ينازعوه في ملكة وينتزعوه من يده حتى ينفرد الواحد منهم بالملك والسلطنة، ويتعين بالعزة والهيمنة تعالى الله عن ذلك.

فملخص الحجة أنه لو كان معه آلهة كما يقولون وكان يمكن أن ينال غيره تعالى شيئاً من ملكه الذي هو من لزوم ذاته الفياضة لكل شيء وحب الملك والسلطنة مغروز في كل موجود بالضرورة لطلب اولئك الآلهة أن ينالوا ملكه فيعزلوه عن عرشه ويزدادوا ملكاً على ملك لحبهم ذلك ضرورة لكن لا سبيل لأحد اليه تعالى عن ذلك.

فقوله: «إذا لابتغوا الى ذي العرش سبيلا» أي طلبوا سبيلا اليه ليغلبوه على ماله من الملك، والتعبير عنه تعالى بذي العرش وهو من الصفات الخاصة بالملك للدلالة على أن ابتغاءهم السبيل اليه انما هو لكونه ذا العرش وهو ابتغاء سبيل الى عرشه ليستقروا عليه.

ومن هنا يظهر أن قول بعضهم ان الحجة في الآية هي في معنى الحجة التي في قوله تعالى: ﴿لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا﴾ الآية (الأنبياء / ٢٢) في غير محله.

قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّاً كَبِيراً﴾ التعالي هو العلو البالغ ولهذا وصف المفعول المطلق أعني «علواً» بقوله: «كبيراً» فالكلام في معنى تعالى تعالياً: والآية تنزيه له تعالى عما يقولونه من ثبوت الآلهة وكون ملكه وربوبيته مما يمكن أن يناله

١ـ كما نقل انهم كانوا يقولون في التلبية: لبيك لا شريك لك الا شريكاً هو لك تملكه وما ملك والكتب المقدسة البرهمنية والبوذية مملوءة ان الملك كله لله سبحانه.

غيره.

قوله تعالى: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمٰوٰتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلٰكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ الخ: الآيه وما قبلها وان كانت واقعة موقع التعظيم كقوله: ﴿ وقالوا اتخذ الله ولداً سبحانه ﴾ لكنها تفيد بوجه في الحجة المتقدمة فإنها بمنزلة المقدمة المتممة لقوله: «لو كان معه آلهة كما يقولون» الخ: فإن الحجة بالحقيقة قياس استثنائي والذي بمنزلة الاستثناء هو ما في الآية من تسبيح الأشياء له سبحانه كأنه قيل: لو كان معه آلهة لكان ملكه في معرض المنازعة والمهاجمة لكن الملك من السماوات والأرض ومن فيهن ينزهه عن ذلك ويشهد أن لا شريك له في الملك فإنها لم تبتدء الا منه ولا تنتهي الا اليه ولا تقوم الا به ولا تخضع سجداً الا له فلا يتلبس بالملك ولا يصلح له الا هو فلا رب غيره.

والتسبيح تنزيه قولي كلامي وحقيقة الكلام الكشف عما في الضمير بنوع من الإشارة اليه والدلالة عليه غير أن الإنسان لما لم يجد الى ارادة كل ما يريد الإشارة اليه من طريق التكوين طريقاً التجأ الى استعمال الألفاظ وهي الأصوات الموضوعة للمعاني، ودل بها على ما في ضميره، وجرت على ذلك سنة التفهيم والتفهم. وربما استعان على بعض مقاصده بالإشارة بيده أو رأسه أو غيرهما. وربما استعان على ذلك بكتابة أو نصب علامة.

وبالجملة فالذي يكشف به عن معنى مقصود قول وكلام وقيام الشيء بهذا الكشف قول منه وتكليم وان لم يكن بصوت مقروع ولفظ موضوع، ومن الدليل عليه ما ينسبه القرآن اليه تعالى من الكلام والقول والأمر ونحو ذلك مما فيه معنى الكشف عن المقاصد وليس من قبيل القول والكلام المعهود عندنا معشر المتلسنين باللغات وقد سماه الله سبحانه قولا وكلاماً.

وعند هذه الموجودات المشهودة من السماء والأرض ومن فيها ما يكشف كشفاً صريحاً عن وحدانية ربها في ربوبيته وينزهه تعالى عن كل نقص وشين فهي تسبح الله سبحانه.

وذلك أنها ليست لها في أنفسها إلّا محض الحاجة وصرف الفاقة اليه في ذاتهـا وصـفاتها وأحوالها. والحاجة أقوى كاشف عما اليه الحاجة لا يستقل المحتاج دونه ولا ينفك عنه فكل من هذه الموجودات يكشف بحاجته في وجوده ونقصه في ذاته عن موجده الغني في وجـوده التام الكامل في ذاته وبارتباطه بسائر الموجودات التي يستعين بها على تكميل وجوده ورفع نقائصه في ذاته أن موجده هو ربه المتصرف في كل شيء المدبر لأمره.

ثم النظام العام الجاري في الأشياء الجامع لشتاتها الرابط بينها يكشف عن وحدة موجدها، وأنه الذي اليه بوحدته يرجع الأشياء وبه بوحدته ترتفع الحوائج والنقائص فلا يخلو من دونه من الحاجة، ولا يتعرى ما سواه من النقيصة وهو الرب لا رب غيره والغني الذي لا فقر عنده والكمال الذي لا نقص فيه.

فكل واحد من هذه الموجدات يكشف بحاجته ونقصه عن تنزه ربه عن الحاجة وبراءته من النقص حتى أن الجاهل المثبت لربه شركاء من دونه أو الناسب اليه شـيئاً مـن النـقص والشين تعالى وتقدس يثبت بذلك تنزهه من الشريك وينسب بذلك اليه البراءة من النقص فإن المعنى تصور في ضمير هذا الإنسان واللفظ الذي يلفظه لسانه وجميع مـا اسـتخدمه في تأدية هذا المقصود كل ذلك مور موجودة تكشف بحاجتها الوجودية عن رب واحد لا شريك له ولا نقص فيه.

فمثل هذا الإنسان الجاحد في كون جحوده اعترافاً مثل ما لو ادعى إنسـان أن لا إنسـان متكلماً في الدنيا وشهد على ذلك قولاً فإن شهادته أقوى حجة على خلاف ما ادعاه وشهـد عليه وكلما تكررت الشهادة على هذا النمط وكثر الشهود تأكدت الحجة من طريق الشهـادة على خلافها.

فإن قلت: مجرد الكشف عن التنزه لا يسمى تسبيحاً حتى يقارن القصد والقصد مما يتوقف على الحياة وأغلب هذه الموجودات عادمة للحياة كالأرض والسماء وأنـواع الجـمادات فـلا

مخلص من حمل التسبيح على المجاز فتسبيحها دلالتها بحسب وجودها على تنزه ربها.

قلت: كلامه تعالى مشعر بأن العلم سار في الموجودات مع سريان الخلقة فلكل منها حظ من العلم على مقدار حظه من الوجود، وليس لازم ذلك أن يتساوى الجميع من حيث العلم أو يتحد من حيث جنسه ونوعه أو يكون عند كل ما عند الإنسان من ذلك أو أن يفقه الإنسان بما عندها من العلم قال تعالى حكايه عن أعضاء الإنسان: ﴿قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء﴾ (حم السجدة / ٢١) وقال: ﴿فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين﴾ (حم السجدة / ١١) والآيات في هذا المعنى كثيرة، وسيوافيك كلام مستقل في ذلك إن شاء الله تعالى.

وإذا كان كذلك فما من موجود مخلوق إلا وهو يشعر بنفسه بعض الشعور وهو يريد بوجوده إظهار نفسه المحتاجة الناقصة التي يحيط بها غنى ربه وكماله لا رب غيره فهو يسبح ربه وينزهه عن الشريك وعن كل نقص ينسب اليه.

وبذلك يظهر أن لاوجه لحمل التسبيح في الآية على مطلق الدلالة مجازاً فالمجاز لا يصار اليه إلا مع امتناع الحمل على الحقيقة، ونظيره قول بعضهم: إن تسبيح بعض هذه الموجودات قالي حقيقي كتسبيح الملائكة والمؤمنين من الإنسان وتسبيح بعضها حالي مجازي كدلالة الجمادات بوجودها عليه تعالى ولفظ التسبيح مستعمل في الآيه على سبيل عموم المجاز، وقد عرفت ضعفه آنفاً.

والحق أن التسبيح في الجميع حقيقي قالي غير أن كونه قالياً لا يستلزم أن يكون بألفاظ موضوعة وأصوات مقروعة كما تقدمت الإشارة اليه وقد تقدم في آخر الجزء الثاني من الكتاب كلام في الكلام نافع في المقام.

فقوله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ يثبت لها تسبيحاً حقيقياً وهو تكلمها بوجودها وماله من الارتباط بسائر الموجودات الكائنة وبيانها

تنزه ربها عما ينسب اليه المشركون من الشركاء وجهات النقص.

وقوله: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ تعميم التسبيح لكل شيء وقد كانت الجملة السابقة عدت السماوات والأرض ومن فيهن، وتزيد عليها بذكر الحمد مع التسبيح فتفيد أن كل شيء كما يسبحه تعالى كذلك يحمده بالثناء عليه بجميل صفاته وأفعاله.

وذلك أنه كما أن عند كل من هذه الأشياء شيئاً من الحاجة والنقص عائداً الى نفسه كذلك عنده من جميل صنعه ونعمته تعالى شيء راجع اليه تعالى موهوب من لدنه، وكما أن إظهار هذه الأشياء لنفسها في الوجود إظهار لحاجتها ونقصها كشف عن تنزه ربها عن الحاجة والنقص، وهو تسبيحها كذلك إبرازها لنفسها إبراز لما عندها من جميل فعل ربها الذي وراءها جميل صفاته تعالى فهو حمدها فليس الحمد إلّا الثناء على الجميل الاختياري فهي تحمد ربها كما تسبحه وهو قوله: «وإن من شيء الا يسبح بحمده».

وبلفظ آخر اذا لوحظ الأشياء من جهة كشفها عما عند ربها بإبرازها ما عندها من الحاجة والنقص مع مالها من الشعور بذلك كان ذلك تسبيحاً منها، وإذا لوحظت من جهة كشفها ما لربها باظهارها ما عندها من نعمة الوجود وسائر جهات الكمال فهو حمد منها لربها واذا لوحظ كشفها ما عند الله سبحانه من صفة جمال أو جلال مع قطع النظر عن علمها وشعورها بما تكشف عنه كان ذلك دلالة منها عليه تعالى وهي آياته.

وهذا نعم الشاهد على أن المراد بالتسبيح في الآية ليس مجرد دلالتها عليه تعالى بنفي الشريك وجهات النقص فإن الخطاب في قوله: ﴿ولكن لا تفقهون تسبيحهم﴾ إما للمشركين وإما للناس أعم من المؤمن والمشرك وهم على أي حال يفقهون دلالة الأشياء على صانعها مع أن الآية تنفي عنهم الفقه.

ولا يصغى الى قول من قال: إن الخطاب للمشركين وهم لعدم تدبرهم فيها وقلة انتفاعهم بها كان فهمهم بمنزلة العدم، ولا الى دعوى من يدعي أنهم لعدم فهمهم بعض المراد من

التسبيح جعلوا ممن لا يفقه الجميع تغليباً.

وذلك لأن تنزيل الفهم منزلة العدم او جعل البعض كالجميع لا يلائم مقام الاحتجاج وهو سبحانه يخاطبهم في سابق الآية بالحجة على التنزيه على أن هذا النوع من المسامحة بالتغليب ونحوه لا يحتمله كلامه تعالى.

وأما ما وقع في قوله بعد هذه الآية: ﴿وإذا قرأت القرآن﴾ الى آخر الآيات: من نفي الفقه عن المشركين فليس يؤيد ما ذكروه فإن الآيات تنفي عنهم فقه القرآن وهو غير نفي فقه دلالة الأشياء على تنزهه تعالى إذ بها تتم الحجة عليهم.

فالحق أن التسبيح الذي تثبته الآية لكل شيء هو التسبيح بمعناه الحقيقي وقد تكرر في كلامه تعالى إثباته للسموات والأرض ومن فيهن وما فيهن وفيها موارد لا تحتمل إلا الحقيقة كقوله تعالى: ﴿وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير﴾ (الانبياء / ٧٩)، وقوله: ﴿إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والإشراق﴾ (ص / ١٨)، ويقرب منه قوله: ﴿يا جبال أوبي معه والطير﴾ (سبأ / ١٠)، فلا معنى لحملها على التسبيح بلسان الحال.

وقد استفاضت الروايات من طرق الشيعة وأهل السنة أن للأشياء تسبيحاً ومنها روايات تسبيح الحصى في كف رسول الله ﷺ وسيوافيك بعضها في البحث الروائي الآتي إن شاء الله تعالى.

وقوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً﴾ أي يمهل فلا يعاجل بالعقوبة ويغفر من تاب ورجع اليه، وفي الوصفين دلالة على تنزهه تعالى عن كل نقص فإن لازم الحلم أن لا يخاف الفوت، ولازم المغفرة أن لا يتضرر بالمغفرة ولا بإفاضة الرحمة فملكه وربوبيته لا يقبل نقصاً ولا زوالاً.

وقد قيل في وجه هذا التذييل أنه إشارة الى أن الإنسان في قصوره عن فهم هذا التسبيح الذي لا يزال كل شيء مشتغلا به حتى نفسه بجميع أركان وجوده بأبلغ بيان، مخطيء من حقه

أن يؤاخذ به لكن الله سبحانه بحلمه مغفرته لا يعاجله ويعفو عن ذلك إن شاء.

وهو وجه حسن ولازمه أن يكون الإنسان في وسعه أن يفقه هذا التسبيح من نفسه ومن غيره، ولعلنا نوفق لبيانه إن شاء الله في موضع يليق به.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَاباً مَسْتُوراً﴾ ظاهر توصيف الحجاب بالمستور أنه حجاب مستور عن الحواس على خلاف الحجابات المتداولة بين الناس المعمولة لستر شيء عن شيء فهو حجاب معنوي مضروب بين النبي ﷺ بما أنه قار للقرآن حامل له وبين المشركين الذين لا يؤمنون بالآخرة يحجبه عنهم فلا يستطيعون أن يفقهوا حقيقة ما عنده من معارف القرآن ويؤمنوا به ولا أن يذعنوا بأنه رسول من الله جاءهم بالحق، ولذلك تولوا عنه إذا ذكر الله وحده وبالغوا في إنكاره المعاد ورموه بأنه رجل مسحور، والآيات التالية تؤيد هذا المعنى.

وإنما وصف المشركين بقوله: ﴿الذين لا يؤمنون بالآخرة﴾ لأن إنكار الآخرة يلغو معه الإيمان بالله وحده وبالرسالة فالكفر بالمعاد يستلزم الفر بجميع اصول الدين، وليكون تمهيداً لما سيذكر من إنكارهم البعث.

والمعنى: إذا قرأت القرآن وتلوته عليهم جعلنا بينك وبين المشركين الذين لا يؤمنون بالآخرة ـ وفي توصيفهم بذلك ذم لهم ـ حجاباً معنوياً محجوباً عن فهمهم فلا يسمعهم أن يسمعوا ذكره تعالى وحده، ولا أن يعرفوك بالرسالة الحقة، ولا أن يؤمنوا بالمعاد ويفقهوا حقيقته.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي ٱلْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً﴾ الاكنة جمع كن بالكسر وهو على ما ذكره الراغب ما يحفظ فيه الشيء ويستر به عن غيره، والوقر الثقل في السمع، وفي المجمع: النفور جمع نافر، وهذا الجمع قياس في كل فاعل اشتق من فعل مصدره على فعول مثل

ركوع وسجود وشهود. انتهى.

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ الخ؛ كالبيان للحجاب المذكور سابقاً أي أغشينا قلوبهم بأغشية وحجب حذار أن يفقهوا القرآن وجعلنا في آذانهم وقراً وثقلا أن يسمعوه فهم لا يسمعون القرآن سمع قبول ولا يفقهونه فقه إيمان وتصديق كل ذلك مجازاة لهم بما كفروا وفسقوا.

وقوله: «وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده» أي على نعت التوحيد ونفي الشريك ولوا على أدبارهم نافرين وأعرضوا عنه مستدبرين.

قوله تعالى: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ الى آخر الآية؛ النجوى مصدر ولذا يوصف به الواحد والمثنى والمجموع والمذكر والمؤنث وهو لا يتغير في لفظه.

والآيه بمنزلة الحجة على ما ذكر في الآية السابقة أنه جعل على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً فقوله: «نحن أعلم بما يستمعون به» الخ؛ ناظر الى جعل الوقر وقوله: «وإذ هم نجوى» الخ؛ ناظر الى جعل الأكنة.

يقول تعالى: نحن أعلم بآذانهم التي يستمعون بها اليك وبقلوبهم التي ينظرون بها في أمرك ـ وكيف لا؟ وهو تعالى خالقها ومدبر أمرها فإخباره أنه جعل على قلوبهم أكنة وفي آذانهم وقراً أصدق وأحق بالقبول ـ فنحن أعلم بما يستمعون به وهو آذانهم في وقت يستمعون اليك، ونحن أعلم أي بقلوبهم إذ هم نجوى إذ يناجي بعضهم بعضاً متحرزين عن الإجهار ورفع الصوت وهم يرون الرأي إذ يقول الظالمون أي يقول القائلون منهم وهم ظالمون في قولهم: إن تتبعون إلا رجلا مسحوراً، وهذا تصديق أنهم لم يفقهوا الحق.

وفي الآية إشعار بل دلالة على أنهم كانوا لا يأتونه ﷺ لاستماع القرآن علناً حذراً من اللائمة وإنما يأتونه متسترين مستخفين حتى إذا رأى بعضهم بعضاً على هذا الحال تلاوموا

بالنجوى خوفاً أن يحس النبي ﷺ والمؤمنون بوقفهم فقال بعضهم لبعض: إن تتبعون إلا رجلا مسحوراً، وبهذا يتأيد ما ورد في أسباب النزول بهذا المعنى، وسنورده إن شاء الله في البحث الروائي الآتي.

قوله تعالى: ﴿أُنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً﴾ المثل بمعنى الوصف، وضرب الأمثال التوصيف بالصفات ومعنى الآية ظاهر، وهي تفيد أنهم لا مطمع في إيمانهم كما قال تعالى: ﴿وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون﴾ (يس / ١٠).

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا ءَإِذا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً﴾ قال في المجمع: الرفات ما تكسر وبلي من كل شيء، ويكثر بناء فعال في كل ما يحطم ويرضض يقال: حطام ودقاق وتراب وقال المبرد: كل شيء مدقوق مبالغ في دقه حتى انسحق فهو رفات. انتهى.

في الآية مضي في بيان عدم فقههم بمعارف القرآن حيث استبعدوا البعث وهو من أهم ما يثبته القرآن وأوضح ما قامت عليه الحجج من طريق الوحي والعقل حتى وصفه الله في مواضع من كلامه بأنه «لا ريب فيه» وليس لهم حجة على نفيه غير أنهم استبعدوه استبعاداً.

ومن أعظم ما يزين في قلوبهم هذا الاستبعاد زعمهم أن الموت فناء للانسان ومن المستبعد أن يتكون الشيء من عدم بحت كما قالوا: أإذا كنا عظاماً ورفاتاً بفساد أبداننا عن الموت حتى إذا لم يبق منها إلا العظام ثم رمت العظام وصارت رفاتاً أإنا لفي خلق جديد نعود أناسي كما كنا؟ ذلك رجع بعيد ولذلك رده سبحانه اليهم بتذكيرهم القدرة المطلقة والخلق الأول كما سيأتي.

قوله تعالى: ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً أَوْ خَلْقاً مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ جواب عن استبعادهم، وقد عبروا في كلامهم بقوله: «أإذا كنا» فأمر سبحانه

نبيه ﷺ أن يأمرهم أمر تسخير أن يكونوا حجارة أو حديداً، الخ: مما تبديله الى الإنسان أبعد وأصعب عندهم من تبديل العظام لرفات اليه.

فيكون إشارة الى أن القدرة المطلقة الإلهية لا يشقها شيء تريد تجديد خلقه سواء أكان عظاماً ورفاتاً أو حجارة أو حديداً أو غير ذلك.

والمعنى: قل لهم ليكونوا شيئاً أشد من العظام والرفات حجارة أو حديداً أو مخلوقاً آخر من الأشياء التي تكبر في صدورهم ويبالغون في استبعاد أن يخلق منه الإنسان ـ فليكونوا ما شاءوا فإن الله سيعيد اليهم خلقهم الأول ويبعثهم.

قوله تعالى: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي فإذا أجبت عن استبعادهم بأنهم مبعوثون أياماً كانوا والى أي حال وصفة تحولوا سيسألونك ويقولون من يعيدنا الى ما كنا عليه من الخلقة الإنسانية؟ فاذكر لهم الله سبحانه وذكرهم من وصفه بما لا يبقى معه لاستبعادهم محل وهو فطرة إياهم أول مرة ولم يكونوا شيئاً وقل: يعيدكم الذي خلقكم اول مرة.

ففي تبديل لفظ الجلالة من قوله: «الذي خلقكم أول مرة» إثبات الإمكان ورفع الاستبعاد باراءة المثل.

قوله تعالى: ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسىٰ أَنْ يَكُونَ قَرِيباً﴾ قال الراغب: الإنغاض تحريك الرأس نحو الغير كالمتعجب منه. انتهى.

والمعنى: إذا قرعتهم بالحجة وذكرتهم بقدرة الله على كل شيء وفطره إياهم أول مرة وجدتهم يحركون اليك رؤسهم تحريك المستهزىء المستخف بك المستهين له ويقولون متى هو؟ قل عسى أن يكون قريباً فإنه لا سبيل الى العلم به وهو من الغيب الذي لا يعلمه إلا الله لكن وصف اليوم معلوم باعلامه تعالى ولذا وصفه لهم واضعاً الصفه مكان الوقت فقال: يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده، الآية.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلاً﴾ «يوم» منصوب بفعل مضمر أي تبعثون يوم كذا وكذا والدعوة هي أمره تعالى لهم أن يقوموا ليوم الجزاء واستجابتهم هي قبولهم الدعوة الإلهية، وقوله: «بحمده» حال من فاعل تستجيبون والتقدير تستجيبون متلبسين بحمده أي حامدين له تعدون البعث والإعادة منه فعلا جميلا يحمد فاعله ويثنى عليه لأن الحقائق تنكشف لكم اليوم فيتبين لكم أن من الواجب في الحكمة الإلهية أن يبعث الناس للجزاء وان تكون بعد الاولى اخرى.

وقوله: ﴿وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلاً﴾ أي تزعمون يوم البعث أنكم لم تلبثوا في القبور بعد الموت الا زماناً قليلا وترون أن اليوم كان قريباً منكم جداً.

وقد صدقهم الله في هذه المزعمة وان خطأهم فيما ضربوا له من المدة قال تعالى: ﴿**قال ان لبثتم الا قليلا لو انكم كنتم تعلمون**﴾ (المؤمنون / ١١٤)، وقال: ﴿**ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون قال الدين اوتوا العلم والايمان لقد لبثتم في كتاب الله الى يوم البعث فهذا يوم البعث**﴾ (الروم / ٥٦) الى غير ذلك من الآيات.

وفي التعرض لقوله: «وتظنون ان لبثتم الا قليلا» تعريض لهم في استبطائهم اليوم واستهزائهم به، وتأييد لما مر من رجاء قربه في قوله: ﴿**قل عسى أن يكون قريباً**﴾ أي وانكم ستعدونه قريباً، وكذا في قوله: «فتستجيبون بحمده» تعريض لهم في استهزائهم به وتعجبهم منه أي وانكم ستحمدونه يوم البعث وانتم اليوم تستبعدونه وتستهزؤن بأمره.

قوله تعالى: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ﴾ الخ: يلوح من السياق أن المراد بعبادي هم المؤمنون فالإضافة للتشريف، وقوله: «قل لعبادي يقولوا» الخ: أي مرهم أن يقولوا فهو أمر وجواب أمر مجزوم، وقوله: «التي هي أحسن» أي الكلمة التي هي أحسن، وهو اشتمالها على الأدب الجميل وتعريها عن الخشونة والشتم وسوء الأمر.

قوله تعالى: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً﴾ قد تقدم أن الآية وما بعدها تتمة السياق السابق، وعلى ذلك فصدر الآية من تمام كلام النبي ﷺ الذي أُمر بإلقائه على المؤمنين بقوله: «قل لعبادي يقولوا» الخ؛ وذيل الآية خطاب للنبي خاصة فلا التفات في الكلام.

ويمكن أن يكون الخطاب في صدر الآية للنبي ﷺ والمؤمنين جميعاً بتغليب جانب خطابه على غيبتهم، وهذا أنسب بسياق الآية السابقة وتلاحق الكلام، والكلام لله جميعاً.

وكيف كان فقوله: «ربكم أعلم بكم ان يشأ يرحمكم أو ان يشأ يعذبكم» في مقام تعليل الأمر السابق ثانياً، ويفيد أنه يجب على المؤمنين أن يتحرزوا من اغلاظ القول على غيرهم والقضاء بما الله أعلم به من سعادة أو شقاء كأن يقولوا: فلان سعيد بمتابعة النبي وفلان شقي وفلان من أهل الجنة وفلان من أهل النار وعليهم أن يرجعوا الأمر ويفوضوه الى ربهم فربكم ـ والخطاب للنبي وغيره ـ أعلم بكم وهو يقضي فيكم على ما علم من استحقاق الرحمة أو العذاب إن يشأ يرحمكم ولا يشاء ذلك الا مع الايمان والعمل الصالح على ما بينه في كلامه أو ان يشأ يعذبكم ولا يشاء ذلك الا مع الكفر والفسوق، وما جعلناك أيها النبي عليهم وكيلا مفوضاً اليه أمرهم حتى تختار لمن تشاء ما تشاء فتعطي هذا وتحرم ذاك.

ومن ذلك يظهر أن الترديد في قوله: «إن يشأ يرحمكم أو إن يشأ يعذبكم» باعتبار المشية المختلفة باختلاف الموارد بالإيمان والكفر والعمل الصالح والطالح وأن قوله: «وما أرسلناك عليهم وكيلا» لردع المؤمنين عن أن يعتمدوا في نجاتهم على النبي ﷺ والانتساب الى قبول دينه نظير قوله: ﴿ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب من يعمل سوء يجز به﴾ (النساء / ١٢٣) وقوله: ﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم﴾ (البقرة / ٦٢) وآيات اخرى في هذا المعنى.

قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمٰوٰاتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً﴾ صدر الآية توسعة في معنى التعليل السابق كأنه قيل: وكيف لا يكون أعلم بكم وهو أعلم بكم وهو أعلم بمن في السماوات والأرض وأنتم منهم.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ كأنه تمهيد لقوله: «وآتينا داود زبوراً» والجملة تذكر فضل داود ﷺ بكتابه الذي هو زبور وفيه أحسن الكلمات في تسبيحه وحمده تعالى، وفيه تحريض للمؤمنين أن يرغبوا في احسن القول ويتأدبوا بالأدب الجميل في المحاورة والكلام[1].

٥٦ ● قُلِ ٱدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلاً.

٥٧ ● أُولٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً.

٥٨ ● وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوها قَبْلَ يَوْمِ القِيٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَاباً شَدِيداً كَانَ ذٰلِكَ فِي ٱلْكِتَابِ مَسْطُوراً.

٥٩ ● وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفاً.

---

١. الاسراء ٤٠ ـ ٥٥: بحث روائي في تسبيح الاشياء لله تعالى؛ ذكر الله.

٦٠ ● وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ المَلْعُونَةَ فِي القُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَاناً كَبِيراً.

٦١ ● وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ ٱسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً.

٦٢ ● قَالَ أَرَأَيْتَكَ هٰذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلقِيامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلاً.

٦٣ ● قَالَ ٱذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُوراً.

٦٤ ● وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوالِ وَٱلْأَوْلادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُوراً.

٦٥ ● إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلاً.

بيان:

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلاً﴾ الزعم بتثليث الزاي مطلق الاعتقاد ثم غلب استعماله في الاعتقاد الباطل، ولذا نقل عن ابن عباس أن ما كان في القرآن من الزعم فهو كذب.

والدعاء والنداء واحد غير أن النداء إنما هو فيما إذا كان معه صوت والدعاء ربما يطلق على ما كان باشارة أو غيرها، وذكر بعضهم في الفرق بينهما أن النداء قد يقال إذا قيل: يا أو أيا أو

نحوهما من غير أن يضم اليه الاسم، والدعاء لا يكاد يقال إلّا إذا كان معه الاسم نحو يا فلان. انتهى.

والآية تحتج على نفي الوهية آلهتهم من دون الله بأن الرب المستحق للعبادة يجب أن يكون قادراً على إيصال النفع ودفع الضر إذ هو لازم ربوبية الرب على أن المشركين مسلمون لذلك وإنما اتخذوا الآلهة وعبدوهم طمعاً في نفعهم وخوفاً من ضررهم لكن الذين يدعونهم من دون الله لا يستطيعون ذلك فليسوا بآلهة، والشاهد على ذلك أن يدعوهم هؤلاء الذين يعبدونهم لكشف ضر مسهم أو تحويله عنهم الى غيرهم فإنهم لا يملكون كشفاً ولا تحويلا.

وكيف يملكون من عند أنفسهم كشف ضر أو تحويله ويستقلون بقضاء حاجة ورفع فاقة وهم في أنفسهم مخلوقون لله يبتغون اليه الوسيلة يرجون رحمته ويخافون عذاب باعتراف من المشركين.

قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ الى آخر الآية؛ «اولئك» مبتدء و«الذين» صفة له و«يدعون» صلته وضميره عائد الى المشركين، و«يبتغون» خبر «اولئك» وضمير وسائر ضمائر الجمع الى آخر الآية راجعة الى «اولئك» وقوله: «أيهم أقرب» بيان لابتغاء الوسيلة لكون الابتغاء فحصاً وسؤالا في المعنى هذا ما يعطيه السياق.

والوسيلة على ما فسروه هي التوصل والتقرب، وربما استعملت بمعنى ما به التوصل والتقرب ولعله هو الأنسب بالسياق بالنظر الى تعقيبه بقوله: «أيهم أقرب».

والمعنى ـ والله أعلم ـ اولئك الذين يدعوهم المشركون من الملائكة والجن والإنس يطلبون ما يتقربون به الى ربهم يستعلمون أيهم أقرب؟ حتى يسلكوا سبيله ويقتدوا بأعماله ليتقربوا اليه تعالى كتقربه ويرجون رحمته من كل ما يستمدون به في وجودهم ويخافون

عذاب فيطيعونه ولا يعصونه ان عذاب ربك كان محذوراً يجب التحرز منه.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوها قَبْلَ يَوْمِ الْقِيٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَاباً شَدِيداً كَانَ ذٰلِكَ فِي ٱلْكِتَابِ مَسْطُوراً﴾ ذكروا أن المراد بـالعذاب الشـديد عذاب الاستئصال فيبقى للإهلاك المقابل له الإماتة بحتف أنف فالمعنى ما من قرية إلا نحن نميت أهلها قبل يوم القيامة أو نعذبهم عذاب الاستئصال قبل يوم القيامة إذ لا قرية بعد طي بساط الدنيا بقيام الساعة وقد قال تعالى: ﴿وإنا لجاعلون ما عليها صعيداً جرزاً﴾ (الكهف / ٨) ولذا قال بعضهم: إن الإهلاك للقرى الصالحة والتعذيب للقرى الطالحة.

وقوله: ﴿كَانَ ذٰلِكَ فِي ٱلْكِتَابِ مَسْطُوراً﴾ أي اهلاك القرى او تعذيبها عـذابـاً شديداً كان في الكتاب مسطوراً وقضاء محتوماً، وبذلك يظهر أن المراد بالكتاب اللوح المحفوظ الذي يذكر القرآن أن الله كتب فيه كل شيء كقوله: ﴿وكل شيء أحصيناه في امـام مـبين﴾ (يس / ١٢)، وقوله: ﴿وما يعزب عن ربك من مثقال ذره في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر الا في كتاب مبين﴾ (يونس / ٦١).

فالحق ان الكتاب المبين هو متن[1] الأعيان بما فيه من الحوادث من جهة ضرورة ترتب المعلولات على عللها، وهو القضاء الذي لا يرد ولا يبدل لا من جهة امكان المادة وقـوتها، والتعبير عنه بالكتاب واللوح لتقريب الأفهام الى حقيقة المعنى بالتمثيل، وسنستوفي الكلام في هذا البحث ان شاء الله في موضع يناسبه.

قوله تـعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾ الى آخر الآية؛ قد تقدم وجه اتصال الآية بما قبلها ومحصلة ان الآية السابقة افـادت ان النـاس ـ وآخروهم كأوليهم ـ مستحقون بما فيهم من غريزة الفساد والفسق لحلول الهـلاك وسـائر

---

١. بما لها من الثبوت في مرتبة عللها لا في مرتبة انفسها «منه».

انواع العذاب الشديد، وقد قضى الله على القرى ان تهلك او تعذب عذاباً شديداً وهـذا هـو الذي منعنا ان نرسل بالآيات التي يقترحونها فإن السابقين منهم اقترحوها فأرسلناها اليهم فكذبوا بها فأهلكناهم، وهؤلاء اللاحقون في خلق سابقيهم فـلو ارسـلنا بـالآيات حسب اقتراحهم لكذبوا بها فحل الهلاك بهم لا محالة كما حل بسابقيهم، وما يـريد الله سـبحانه ان يعاجلهم بالعقوبة.

وقوله: ﴿إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾ التعبير عن الأمم الهالكة بالأولين المـضايف للآخرين فيه ايماء الى ان هؤلاء آخر اولئك الأولين فهم في الحقيقة امة واحدة لآخرها مـن الخلق والغريزة ما لأولها، ولذيلها من الحكم ما لصدرها ولذلك كانوا يقولون ﴿ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين﴾ (المؤمنون / ٢٤) ويكررون ذكر هذه الكلمة.

وكيف كان فمعنى الآية انا لم نرسل الآيات التي يقترحونها ـ والمقترحون هم قريش ـ لأنا لو ارسلناها لم يؤمنوا وكذبوا بها فيستحقوا عذاب الاستئصال كما انا ارسلناها الى الأولين بعد اقتراحهم اياها فكذبوا بها فأهلكناهم لكنا قضينا على هذه الامة أن لا نعذبهم الا بعد مهلة ونظرة كما يظهر من مواضع من كلامه تعالى.

وقوله: ﴿وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا﴾ ثمود هم قوم صالح ولقد آتاهم الناقة آية، والمبصرة الظاهرة البينة على حد ما في قوله تعالى: ﴿وجعلنا آية النهار مبصرة﴾ (الإسراء / ١٢)، وهي صفة الناقة او صفة لمحذوف والتقدير آية مبصرة والمعنى وآتينا قوم ثمود الناقة حالكونها ظاهرة بينة او حالكونها آية ظاهرة بينة فظلموا أنفسهم بسببها او ظلموا مكذبين بها.

وقوله: ﴿وَما نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفاً﴾ اي ان الحـكمة في الإرسال بـالآيات التخويف والإنذار فإن كانت من الآيات التي تستتبع عذاب الاستئصال ففيها تخويف بالهلاك في الدنيا وعذاب في الآخرة، وإن كانت من غيرها ففيها تخويف وإنذار بعقوبة العقبى.

وليس من البعيد ان يكون المراد بالتخويف إيجاد الخوف والوحشة بارسال ما دون عذاب الاستئصال على حد ما في قوله تعالى: ﴿او يأخذهم على تخوف فإن ربكم لرؤف رحيم﴾ (النحل / ٤٧) فيرجع محصل معنى الآية انا لا نرسل بالآيات المقترحة لأنا لا نريد ان نعذبهم بعذاب الاستئصال وإنما نرسل ما نرسل من الآيات تخويفاً ليحذروا بمشاهدتها عما هو اشد منها وافظع ونسب الوجه الى بعضهم.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَاناً كَبِيراً﴾ فقرات الآية وهي اربع واضحة المعاني لكنها بحسب ما بينها من الإتصال وارتباط بعضها ببعض لا تخلد من إجمال والسبب الأصلي في ذلك الفقرتين الوسطيين الثانية والثالثة.

فلم يبين سبحانه ما هذه الرؤيا التي أراها نبيه ﷺ ولم يقع في سائر كلامه ما يصلح لأن يفسر به هذه الرؤيا، والذي ذكره من رؤياه في مثل قوله: ﴿إذ يريكهم الله في منامك قليلاً ولو أراكهم كثيراً لفشلتم﴾ (الأنفال / ٤٣) وقوله: ﴿لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام﴾ (الفتح / ٢٧) من الحوادث الواقعة بعد الهجرة وهذه الآية مكية نازلة قبل الهجرة.

فالذي يهدي اليه الإمعان في البحث أن المراد بالشجرة الملعونة قوم من المنافقين المتظاهرين بالإسلام يتعرقون بين المسلمين إما بالنسل وإما بالعقيدة والمسلك هم فتنة للناس، ولا ينبغي أن يرتاب في أن في سياق الآية تلويحاً بالارتباط بين الفقرتين أعني قوله: «وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس والشجرة الملعونة» وخاصة بعد الإمعان في تقدم قوله: «وإذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس» وتذييل الفقرات جميعاً بقوله: «ونخوفهم فما يزيدهم إلا طغياناً كبيراً» فإن ارتباط الفقرات بعضها ببعض ظاهر في أن الآية بصدد الإشارة

الى أمر واحد هو سبحانه محيط به ولا ينفع فيه عظة وتخويف إلا زيادة في الطغيان.

ويستفاد من ذلك أن الشأن هو أن الله سبحانه أرى نبيه ﷺ في الرؤيا هذه الشجرة الملعونة وبعض أعمالهم في الإسلام ثم بين لرسوله أن ذلك فتنة.

فقوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾ مقتضى السياق أن المراد بالإحاطة الإحاطة العلمية، والظرف متعلق بمحذوف والتقدير واذكر اذ قلنا لك كذا وكذا والمعنى واذكر للتثبت فيما ذكرنا لك في هذه الآيات أن شيمة الناس الاستمرار في الفساد والفسوق واقتداء أخلافهم بأسلافهم في الإعراض عن ذكر الله وعدم الإعتناء بآيات الله، وقتاً قلنا لك ان ربك أحاط بالناس علماً وعلم أن هذة السنة ستجري بينهم كما كانت تجري.

وقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ﴾ محصل معناه على ما تقدم أنه لم نجعل الشجرة الملعونة في القرآن التي تعرفها بتعريفنا، وما أريناك في المنام من أمرهم الا فتنة للناس وامتحاناً وبلاء نمتحنهم ونبلوهم به وقد أحطنا بهم.

وقوله: ﴿وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَاناً كَبِيراً﴾ ضميرا الجمع للناس ظاهراً والمراد بالتخويف اما التخويف بالموعظة والبيان أو بالآيات المخوفة التي هي دون الآيات المهلكة المبيدة، والمعنى ونخوف الناس فما يزيدهم التخويف الا طغياناً ولا أي طغيان كان بل طغياناً كبيراً أي انهم لا يخافون من تخويفنا حتى ينتهوا عما هم عليه بل يجيبوننا بالطغيان الكبير فهم يبالغون في طغيانهم ويفرطون في عنادهم مع الحق.

وسياق الآية سياق التسلية فالله سبحانه يعزي نبيه ﷺ فيها بأن الذي أراه من الأمر، وعرفه من الفتن، وقد جرت سنته تعالى على امتحان عباده بالمحن والفتن، وقد اعترف بذلك غير واحد من المفسرين.

ويؤيد جميع ما تقدم ما ورد من طرق أهل السنة واتفقت عليه أحاديث أئمة أهل

البيت عليهم السلام أن المراد بالرؤيا في الآية هي رؤيا رآها النبي صلى الله عليه وآله وسلم في بني امية والشجرة شجرتهم وسيوافيك الروايات في البحث الروائي الاتي ان شاء الله تعالى[١].

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً﴾ قال في المجمع: قال الزجاج: طينا منصوب على الحال بمعنى أنك أنشأته في حال كونه من طين، ويجوز أن يكون تقديره من طين فحذف «من» فوصل الفعل، ومثله قوله: ﴿أن تسترضعوا أولادكم﴾ أي لأولادكم وقيل: إنه منصوب على التميز. انتهى.

فالمعنى: واذكر اذ قال ربك للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس، فكأنه قيل: فماذا صنع؟ او فماذا قال؟ اذ لم يسجد؟ فقيل: انه انكر الأمر بالسجدة وقال أأسجد ـ والاستفهام للانكار ـ لمن خلقته من طين وقد خلقتني من نار وهي اشرف من الطين.

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَٰذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلاً﴾ الكاف في «أرأيتك» زائدة لا محل لها من الإعراب وانما تفيد معنى الخطاب كما في أسماء الإشارة، والمراد بقوله: «هذا الذي كرمت علي» آدم عليه السلام وتكريمه على ابليس تفضيله عليه بأمره بالسجدة ورجمه حيث أبى.

ومن هنا يظهر أنه فهم التفضيل من أمر السجدة كما أنه اجترى على ارادة اغواء ذريته مما جرى في محاورته تعالى الملائكة من قولهم: ﴿أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء﴾ (البقرة / ٣٠)، وقد تقدم تفسير الآية ما ينفع هيهنا.

والاحتناك ـ على ما في المجمع ـ الاقتطاع من الأصل، يقال: احتنك فلان ما عند فلان من مال أو علم اذا استقصاه فأخذه كله، واحتنك الجراد المزرع اذا أكله كله، وقيل: انه من قولهم:

---

١. الاسراء ٥٦ ـ ٦٥: بحث في الرؤيا التي اراها الله نبيه.

حنك الدابة بحبلها اذا جعل في حنكها الأسفل حبلاً يقودها به، والظاهر أن المعنى الأخير هو الأصل في الباب، والاحتناك الإلجام.

والمعنى: قال ابليس بعد ما عصى وأخذه الغضب الإلهي رب أرأيت هـذا الذي فـضلته بأمري بسجدته ورجمي بمعصيته اقسم لئن اخرتني الى يوم القيامة وهو مدة مكث بني آدم في الأرض لألجمن ذريته الا قليلا منهم وهم المخلصون.

قوله تعالى: ﴿قَالَ اذهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُوراً﴾ قيل: الأمر بالذهاب ليس على حقيقته وإنما هو كناية عن تخليته ونفسه كما تقول لمن يخالفك: افعل ما تريد، وقيل: الأمر على حقيقته وهو تعبير آخر لقوله في موضع آخر: ﴿اخرج منها فانك رجيم﴾ والموفور المكمل فالجزاء الموفور الجزاء الذي يوفى كله ولا يدخر منه شيء، ومعنى الآية واضح.

قوله تعالى: ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ الى آخر الآية؛ الاستفزاز الازعاج والاستنهاض بخفة وإسراع، والإجلاب كما في المجمع السوق بجلبة من السائق والجلبة شدة الصوت، وفي المفردات: أصل الجلب سوق الشيء يقال: جلبت جلباً قال الشاعر: «وقد يجلب الشيء البعيد الجواب» وأجلبت عليه صحت عليه بقهر، قال الله عزوجل: «وأجلب عليهم بخيلك ورجلك» انتهى.

والخيل ـ على ما قيل ـ الأفراس حقيقة ولا واحد له من لفظه ويطلق على الفرسان مجازاً، والرجل بالفتح فالكسر هو الراجل كحذر وحاذر وكمل وكامل وهو خلاف الراكب، وظاهر مقابلته بالخيل أن يكون المراد به الرجالة وهم غير الفرسان من الجيش.

فقوله: ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ﴾ أي استنهض للمعصية من استطعت أن تستنهضه من ذرية آدم ـ وهم الذين يتولونه منهم ويتبعونه كما ذكره في سورة الحجر ـ بصوتك، وكأن الاستفزاز بالصوت كناية عن استخفافهم بالوسوسة الباطلة من غير

حقيقة، وتمثيل بما يساق الغنم وغيره بالنعيق والزجر وهو صوت لا معنى له.

وقوله: ﴿ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ ﴾ أي وصح عليهم لسوقهم الى معصية الله بأعوانك وجيوشك فرسانهم ورجالتهم وكأنه اشارة الى أن قبيله وأعوانه منهم من يعمل ما يعمل بسرعة كما هو شأن الفرسان في معركة الحرب ومنهم من يستعمل في غير موارد الحملات السريعة كالرجالة، فالخيل والرجل كناية عن المسرعين في العمل والمبطئين فيه وفيه تمثيل نحو عملهم.

وقوله: «وشاركهم في الأموال والأولاد» الشركة إنما يتصور في الملك والاختصاص ولازمه كون الشريك سهيا لشريكه في الانتفاع الذي هو الغرض من اتخاذ المال والولد فإن المال عين خارجي منفصل من الإنسان وكذا الولد شخص إنساني مستقل عن ولديه، ولولا غرض الانتفاع لم يعتبر الإنسان ماليه لمال ولا اختصاصاً بولد.

وقوله: ﴿ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُوراً ﴾ أى ما يعدهم إلا وعداً غارا بإظهار الخطأ في صورة الصواب والباطل على هيئة الحق فالغرور مصدر بمعنى اسم الفاعل للمبالغة.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلاً ﴾

المراد بعبادي أعم من المخلصين الذين استثناهم إبليس بقوله: «إلا قليلا» بل غير الغاوين من أتباع إبليس كما قال في موضع آخر: ﴿ إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين ﴾ (الحجر / ٤٢) والإضافة للتشريف.

وقوله: ﴿ وَكَفىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلاً ﴾ أي قائماً على نفوسهم وأعمالهم حافظاً لمنافعهم متولياً لامورهم فإن الوكيل هو الكافل لأمور الغير القائم مقامه في تدبيرها وإدارة رحاها، وذلك يظهر أن المراد به وكالته الخاصة لغير الغاوين من عباده كما هو في سورة الحجر.

وقد تقدمت أبحاث مختلفة حول قصة سجدة آدم نافعة في هذا المقام في مواضع متفرقه من

كلامه تعالى كسورة البقرة وسورة الأعراف وسورة الحجر[١].

٦٦ ● رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ ٱلفُلْكَ فِي ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كانَ بِكُمْ رَحِيماً.

٦٧ ● وَإِذا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي ٱلبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجّيكُمْ إِلَى البَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنْسانُ كَفُوراً.

٦٨ ● أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ البَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلاً.

٦٩ ● أَمْ أَمِنتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تارَةً أُخرىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفاً مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعاً.

٧٠ ● وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلىٰ كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً.

٧١ ● يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولٰئِكَ يَقْرَؤُنَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً.

٧٢ ● وَمَنْ كَانَ فِي هٰذِهِ أَعْمىٰ فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلاً.

---

١. الاسراء ٥٦ ـ ٦٥: بحث رواني في: اهلاك القرى: الرؤيا التي اراها الله نبيه: الشجرة الملعونة في القرآن: شرك الشيطان.

بيان:

قوله تعالى: ﴿رَبُّكُمُ ٱلَّذِي يُزْجِي لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِي ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً﴾ الازجاء على ما في مجمع البيان سوق الشيء حالا بعد حال فالمراد به إجراء السفن في البحر بإرسال الرياح ونحوه وجعل الماء رطباً مائعاً يقبل الجري والخرق، والفلك جمع الفلكة وهي السفينة.

وابتغاء الفضل طلب الرزق فإن الجواد إنما يجود غالباً بما زاد على مقدار حاجة نفسه وفضل الشيء ما زاد وبقي منه ومن ابتدائية، وربما قيل: إنها للتبعيض، وذيل الآية تعليل للحكم بالرحمة، والمعنى ظاهر. والآية تمهيد لتاليها.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ﴾ الى آخر الآية: الضر الشدة، ومس الضر في البحر هو خوف الغرق بالاشراف عليه بعصف الرياح وتقاذف الأمواج ونحو ذلك.

وقوله: ﴿ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ﴾ المراد بالضلال ـ على ما ذكروا ـ الذهاب عن الخواطر دون الخروج عن الطريق وقيل: هو بمعنى الضياع من قولهم: ضل عن فلان كذا أي ضاع عنه ويعود على أي حال الى معنى النسيان.

والمراد بالدعاء دعاء المسألة دون دعاء العبادة فيعم قوله: «من تدعون» الإله الحق والآلهة الباطلة التي يدعوها المشركون، والاستثناء متصل، والمعنى وإذا اشتد عليكم الأمر في البحر بالإشراف على الغرق نسيتم كل إله تدعونه وتسألونه حوائجكم إلا الله.

والظاهر أن المراد بالضلال معناه المعروف وهو خلاف الهدى والكلام مبني على تمثيل لطيف كأن الانسان إذا مسه الضر في البحر ووقع في قلبه أن يدعو لكشف ضره قصده آلهته الذين كان يدعوهم ويستمر في دعائهم قبل ذلك وأخذوا يسعون نحوه ويتسابقون في قطع

الطريق الى ذكره ليذكرهم ويدعوهم ويستغيث بهم لكنهم جميعاً يضلون الطريق ولا ينتهون الى ذكره فينساهم والله سبحانه مشهود لقلبه حاضر في ذكره يذكره الإنسان عند ذلك فيدعوه وقد كان معرضاً عنه فيجيبه وينجيه الى البر.

وبذلك يظهر أن المراد بالضلال معناه المعروف، وبمن تدعون آلهتهم من دون الله فحسب وأن الاستثناء منقطع والوجه في جعل الاستثناء منقطعاً أن الذي يبتني عليه الكلام من معنى التشبيه لا يناسب ساحة قدسه تعالى لتنزهه من السعي والوقوع في الطريق وقطعه ونحو ذلك.

مضافاً الى أن قوله: ﴿فَلَمَّا نَجّيٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ ظاهر في أن المراد بالدعوة دعاء المسألة وأنهم في البر أي في حالهم العادي غير حال الضر معرضون عنه تعالى لا يدعونه فقوله: «من تدعون» الظاهر في استمرار الدعوة المراد به آلهتهم الذين كانوا يدعونهم فاستثناؤه تعالى استثناء منقطع.

وقوله: «فلما نجاكم الى البر أعرضتم» أي فلما نجاكم من الغرق وكشف عنكم الضر راداً لكم الى البر اعرضتم عنه او عن دعائه وفيه دلالة على أنه تعالى غير مغفول عنه للإنسان في حال وأن فطرته تهديه الى دعائه في الضراء والسراء والشدة والرخاء جميعاً فإن الإعراض إنما يتحقق عن أمر ثابت موجود فقوله: إن الإنسان يدعوه في الضر ويعرض عنه بعد كشفه في معنى أنه مهدي اليه بالفطرة دائماً.

وقوله: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنْسَانُ كَفُوراً﴾ أي إن الكفران من دأب الإنسان من حيث ان له الطبيعة الإنسانية فإنه يتعلق بالأسباب الظاهرية فينسى مسبب الأسباب فلا يشكره تعالى وهو يتقلب في نعمه الظاهرة والباطنة.

قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلاً﴾ خسوف القمر استتار قرصه بالظلمة والظل وخسف الله به

الأرض اي ستره فيها. والحاصب ـ كما في المجمع ـ الريح التي ترمي بالحصباء والحصا الصغار وقيل: الحاصل الريح المهلكة في البر والقاصف الريح المهلكة في البحر.

والاستفهام للتوبيخ يوبخهم الله تعالى على إعراضهم عن دعائه في البر فإنهم لا مؤمن لهم من مهلكات الحوادث في البر كما لا مؤمن لهم حال مس الضر في البحر إذ لا علم لهم بما سيحدث لهم وعليهم فمن الجائز أن يخسف الله بهم جانب البر أو يرسل عليهم ريحاً حاصباً فيهلكهم بذلك ثم لا يجدوا لأنفسهم وكيلا يدفع عنهم الشدة والبلاء ويعيد إليهم الأمن والسلام.

قوله تعالى: ﴿أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تارَةً أُخْرىٰ﴾ الى آخر الآية: القصف الكسر بشدة وقاصف الريح هي التي تكسر السفن والأبنية. وقيل: القاصف الريح المهلكة في البحر والتبيع هو التابع يتبع الشيء. وضمير «فيه» للبحر وضمير «به» للغرق أو للارسال أولهما معاً باعتبار ما وقع ولكل قائل. والآية من تمام التوبيخ.

والمعنى أم هل أمنتم بنجاتكم الى البر أن يعيدكم الله في البحر تارة اخرى فيرسل عليكم ريحاً كاسرة للسفن أو مهلكة فيغرقكم بسبب كفركم ثم لا تجدوا بسبب الإغراق أحداً يتبع الله لكم عليه فيسأله لم فعل هذا بكم؟ ويؤاخذه على ما فعل.

وفي قوله: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعاً﴾ التفات من الغيبة الى التكلم بالغير وكأن النكتة فيه الظهور على الخصم بالعظمة والكبرياء. وهو المناسب في المقام. وليكون مع ذلك توطئة لما في الآيات التالية من سياق التكلم بالغير.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ الآية مسوقة للامتنان مشوبا بالعتاب كأنه تعالى لما ذكر وفور نعمه وتواتر فضله ورحمته على الانسان، وحمله في البحر ابتغاء فضله ورزقه، ورفاه حاله في البر ثم نسيانه لربه واعراضه عن دعائه إذا نجاه

وكشف ضره كفرانا مع أنه متقلب دائما بين نعمه التي لا تحصى نبه على جملة تكريمه وتفضيله ليعلم بذلك مزيد عنايته بالإنسان وكفران الإنسان لنعمه على كثرتها وبلوغها.

وقوله: ﴿وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ أي حملناهم على السفن والدواب وغير ذلك يركبونها الى مقاصدهم وابتغاء فضل ربهم ورزقه، وهذا أحد مظاهر تكريمهم.

وقوله: ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ أي من الأشياء التي يستطيبونها من أقسام النعم من الفواكه والثمار وسائر ما يتنعمون به ويستلذونه مما يصدق عليه الرزق، وهذا أيضاً أحد مظاهر التكريم فمثل الانسان في هذا التكريم الإلهي مثل من يدعى الى الضيافة وهي تكريم ثم يرسل إليه مركوب يركبه للحضور لها وهو تكريم ثم يقدم عليه أنواع الأغذية والأطعمة اللذيذة وهو تكريم.

وبذلك يظهر أن عطف قوله: «وحملناهم» الخ؛ وقوله: «ورزقناهم» الخ؛ على التكريم من قبيل عطف المصاديق المترتبة على العنوان الكلي المنتزع منها.

وقوله: ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ لا يبعد أن يكون المراد بمن خلقناهم أنواع الحيوان ذوات الشعور والجن الذي يثبته القرآن فإن الله سبحانه يعد أنواع الحيوان امما أرضية كالامة الإنسانية ويجريها مجرى اولي العقل كما قال: ﴿وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا امم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون﴾.

وهذا هو الأنسب بمعنى الآية وقد عرفت أن الغرض منها بيان ما كرم الله به بني آدم وفضلهم على سائر الموجودات الكونية وهي ـ فيما نعلم ـ الحيوان والجن وأما الملائكة فليسوا من الموجودات الكونية الواقعة تحت تأثير النظام المادي الحاكم في عالم المادة.

فالمعنى: وفضلنا بني آدم على كثير مما خلقنا وهم الحيوان والجن وأما غير الكثير وهم الملائكة فهم خارجون عن محل الكلام لأنهم موجودات نورية غير كونية ولا داخلة في مجرى

النظام الكوني، والآية إنما تتكلم في الإنسان من جهة أنه أحد الموجودات الكونية وقد انعم عليه بنعم نفسيه وإضافيه[١].

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمامِهِمْ﴾ اليوم يوم القيامة والظرف متعلق بمقدر أي اذكر يوم كذا، والإمام المقتدى وقد سمى الله سبحانه بهذا الإسم أفراداً من البشر يهدون الناس بأمر الله كما في قوله: ﴿قال إني جاعلك للناس إماماً﴾ (البقرة / ١٢٤) وقوله: ﴿وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا﴾ (الأنبياء / ٧٣) وأفراداً آخرين يقتدى بهم في الضلال كما في قوله: ﴿فقاتلوا أئمة الكفر﴾ (التوبة / ١٢).

وسمى به أيضاً التوراة كما في قوله: ﴿ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة﴾ (هود / ١٧)، وربما استفيد منه أن الكتب السماوية المشتملة على الشريعة ككتاب نوح وإبراهيم وعيسى ومحمد ﷺ جميعاً أئمة.

وسمى به أيضاً اللوح المحفوظ كما هو ظاهر قوله تعالى: ﴿وكل شيء أحصيناه في إمام مبين﴾ (يس / ٦٢).

ولما كان ظاهر الآية أن لكل طائفة من الناس إماماً غير ما لغيرها فإنه المستفاد من إضافة الإمام الى الضمير الراجع الى كل اناس لم يصلح أن يكون المراد بالإمام في الآية اللوح لكونه واحداً لا اختصاص له باناس دون أُناس.

وأيضاً ظاهر الآية أن هذه الدعوة تعم الناس جميعاً من الأولين والآخرين وقد تقدم في تفسير قوله تعالى: ﴿كان الناس امة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب﴾ (البقرة / ٢١٣) أن أول الكتب السماوية المشتملة على الشريعة هو كتاب نوح ﷺ ولا كتاب قبله في هذا الشأن، وبذلك يظهر عدم صلاحية كون الإمام في الآية مراداً به الكتاب

---

١. الاسراء ٦٦ ـ ٧٢: بحث في تكريم بني آدم وتفضيله؛ كلام في الفضل بين الانسان والملك.

وإلا خرج من قبل نوح من شمول الدعوة في الآية.

فالمتعين أن يكون المراد بإمام كل اناس من يأتمون به في سبيلي الحق والباطل كما تقدم أن القرآن يسميها إمامين أو إمام الحق خاصة وهو الذي يجتبيه الله سبحانه في كل زمان لهداية أهله بأمره نبياً كان كابراهيم ومحمد عليهما الصلاة والسلام أو غير نبي، وقد تقدم تفصيل الكلام فيه في تفسير قوله: ﴿ **وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إني جاعلك للناس إماماً قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين** ﴾ (البقرة / ١٢٤).

لكن المستفاد من مثل قوله في فرعون وهو من أئمة الضلال: ﴿ **يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار** ﴾ (هود / ٩٨) وقوله: ﴿ **ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعاً فيجعله في جهنم** ﴾ (الأنفال / ٣٧) وغيرهما من الآيات وهي، كثيرة أن أهل الضلال لا يفارقون أولياءهم المتبوعين يوم القيامة، ولازم ذلك أن يصاحبوهم في الدعوة والإحضار.

على أن قوله: «بإمامهم» مطلق لم يقيد بالإمام الحق الذي جعله الله إماماً هاديا بأمره، وقد سمي مقتدى الضلال إماماً كما سمي مقتدى الهدى إماماً وسياق ذيل الآية والآية الثانية أيضاً مشعر بأن الإمام المدعو به هو الذي اتخذه الناس إماماً واقتدارا به في الدينا لا من اجتباه الله للإمامة ونصبه للهداية بأمره سواء اتبعه الناس أو رفضوه.

فالظاهر أن المراد بإمام كل أُناس في الآية من ائتموا به سواء كان إمام حق أو إمام باطل، وليس كما يظهن أنهم ينادون بأسماء أئمتهم فيقال: يا أُمة إبراهيم ويا أُمة محمد ويا آل فرعون ويا آل فلان فإنه لا يلائمه ما في الآية من التفريع أعني قوله: ﴿ **فمن أُوتي كتابه بيمينه** ﴾ ﴿ **ومن كان في هذه أعمى** ﴾ الخ؛ إذ لا تفرع بين الدعوة بالإمام بهذا المعنى وبين إعطاء الكتاب باليمين أو العمى.

بل المراد بالدعوة ـ على ما يعطيه سياق الذيل ـ هو الإحضار فهم محضرون بإمامهم ثم

يأخذ من اقتدى بامام حق كتابه بيمينه ويظهر عمى من عمي عن معرفة الإمام الحق في الدينا واتباعه، هذا ما يعطيه التدبر في الآية.

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَٰئِكَ يَقْرَؤُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ الفتيل هو المفتول الذي في شق النواة، وقيل: الفتيل هو الذي في بطن النواة والنقير في ظهرها والقطمير شق النواة.

وتفريع التفصيل على دعوتهم بامامهم دليل على أن ائتمامهم هو الموجب لانقسامهم الى قسمين وتفرقهم فريقين: من اوتى كتابه بيمينه ومن كان أعمى وأضل سبيلا فالإمام إمامان: امام هدى وإمام ضلال، وهذا هو الذي قدمناه أن تفريع التفصيل يشهد بكون المراد بالإمام أعم من إمام الهدى.

ويشهد به أيضاً تبديل إيتاء الكتاب بالشمال أو من وراء الظهر كما وقع في غير هذا الموضع من قوله: ﴿ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى﴾ الخ.

والمعنى - باعانة من السياق - فيتفرقون حينئذ فريقين فالذين أعطوا صحيفة أعمالهم بأيمانهم فاولئك يقرؤن كتابهم فرحين مستبشرين مسرورين بالسعادة ولا يظلمون مقدار فتيل بل يوفون اجورهم تامة كاملة.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ المقابلة بين قوليه: «في هذه» و«في الآخرة» دليل على أن الإشارة بهذه الى الدنيا كما أن كون الآية مسوقة لبيان التطابق بين الحياة الدنيا والآخرة دليل على أن المراد بعمى الآخرة عمى البصيرة كما أن المراد بعمى الدنيا ذلك قال تعالى: ﴿إنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾ ويؤيد ذلك أيضاً تعقيب عمى الآخرة بقوله: «وأضل سبيلا».

٧٣ ● وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا
غَيْرَهُ وَإِذاً لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلاً.
٧٤ ● وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً.
٧٥ ● إِذاً لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيٰوةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ
عَلَيْنَا نَصِيراً.
٧٦ ● وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذاً لَا
يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلاً.
٧٧ ● سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا
تَحْوِيلاً.
٧٨ ● أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرآنَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ
قُرآنَ ٱلفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً.
٧٩ ● وَمِنَ ٱللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً
مَحْمُوداً.
٨٠ ● وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ
وَٱجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَاناً نَصِيراً.
٨١ ● وَقُلْ جَاءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَاطِلُ إِنَّ ٱلْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذاً لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلاً﴾ إن مخففة بدليل اللام في «ليفتنونك» والفتنة الازلال والصرف، والخيل من الخلة بمعنى الصداقة وربما قيل: هو من الخلة بمعنى الحاجة وهو بعيد.

وظاهر السياق أن المراد بالذي أوحينا إليك القرآن بما يشتمل عليه من التوحيد ونفي الشريك والسيرة الصالحة وهذا يؤيد ما ورد في بعض أسباب النزول أن المشركين سألوا النبي ﷺ أن يكف عن ذكر آلهتهم بسوء ويبعد عن نفسه عبيدهم المؤمنين به والسقاط حتى يجالسوه ويسمعوا منه فنزلت الآيات.

والمعنى: وإن المشركين اقتربوا أن يزلوك ويصرفوك عما أوحينا إليك لتتخذ من السيرة والعمل ما يخالفه فيكون في ذلك افتراء علينا لانتسابه بعملك إلينا وإذا لاتخذوك صديقاً.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلاَ أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً﴾ التثبيت ـ كما يفيده السياق ـ هو العصمة الالهية وجعل جواب لولا قوله: «لقد كدت تركن» دون نفس الركون والركون هو الميل أو أدنى الميل كما قيل دليل على أنه ﷺ لم يركن ولم يكد، ويؤكده إضافة الركون إليهم دون إجابتهم الى ما سألوه.

والمعنى: ولولا أن ثبتناك بعصمتنا دنوت من أن تميل إليهم قليلا لكنا ثبتناك فلم تدن من أدنى الميل إليهم فضلا من أن تجيبهم الى ما سألوا فهو ﷺ لم يجبهم الى ما سألوا ولا مال إليهم شيئاً قليلا ولا كاد أن يميل.

قوله تعالى: ﴿إِذاً لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً﴾ سياق الآية سياق توعد فالمراد بضعف الحياة والممات المضاعف من عذاب الحياة والممات، والمعنى لو قارنت أن تميل إليهم بعض الميل لأذقناك الضعف من العذاب الذي

نعذب به المجرمين في حياتهم والضعف مما نعذبهم بـه في ممـاتهم أي ضـعف عـذاب الدنـيا والآخرة.

ونقل في المجمع عن أبان بن تغلب أن المراد بالضعف العذاب المضاعف ألمه والمعنى لأقناك عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، وأنشد قول الشاعر:

لمقتل مالك إذ بـان مـني أبيت الليل في ضعف أليم

أي في عذاب أليم.

وما في ذيل الآية من قوله: «ثم لا تجد لك علينا نصيرا» تشديد في الإيعاد أي إن العذاب واقع حينئذ لا مخلص منه.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِـنْهَا وَإِذاً لاَ يَلْبَثُونَ خِلاَفَكَ إِلَّا قَلِيلاً﴾ الاستفزاز الإزعاج والتحريك بخـفة وسهـولة، واللام في «الأرض» للعهد والمراد بها مكة، والخلاف بمعنى بعد، والمراد بالقليل اليسير من الزمان.

والمعنى وإن المشركين قاربوا أن يزعجوك من أرض مكة لإخراجك منها ولو كان مـنهم وخرجت منها لم يمكثوابعدك فيها إلا قليلا فهم هالكون لا محالة.

قوله تعالى: ﴿سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَـلْنَا قَـبْلَكَ مِـنْ رُسُـلِنَا وَلاَ تَـجِدُ لِسُـنَّتِنَا تَحْوِيلاً﴾ التحويل نقل الشيء من حال الى حال، وقوله: «سنة» أي كسنة من قد أرسلنا وهو متعلق بقوله: «لا يلبثون» أي لا يلبثون بعدك إلا قليلا كسنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا.

وهذه السنة وهي إهلاك المشركين لذين أخرجوا رسوهم من بلادهم وطردوه من بينهم سنة لله سبحانه، وإنما نسبها الى رسله لأنها مسنونة لأجلهم بدليل قوله بعد: «ولن تجد لسنتنا تحويلا» وقد قال تعالى: ﴿**وقال الذين كفروا لرسلهم ليخرجنكم من أرضنا أو لتـعودن في ملتنا فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين**﴾ (إبراهيم / ١٣).

والمعنى : وإذاً نهلكهم لنستنا التي سنناها لأجل من قد أرسلنا قبلك من رسلنا وأجريناها ولست تجد لسنتنا تحويلا وتبديلا .

قوله تعالى : ﴿أَقِمِ الصَّلاَةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرآنَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرآنَ ٱلفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً﴾ قال في مجمع البيان : الدلوك الزوال ، وقال المبرد : دلوك الشمس من لدن زوالها الى غروبها ، وقيل : هو الغروب وأصله من الدلك فسمي الزوال دلوكا لأن الناظر إليها يدلك عينيه لشدة شعاعها ، وسمي الغروب دلوكا لأن الناظر يدلك عينيه ليثبتها . انتهى .

وقال فيه : غسق الليل ظهور ظلامه يقال : غسقت القرحة إذا انفجرت فظهر ما فيها . انتهى ، وفي المفردات : غسق الليل شدة ظلمته . انتهى .

وقد اختلف المفسرون في تفسير صدر الآية والمروى عن أئمة أهل البيت عليهم السلام من طرق الشيعة تفسير دلوك الشمس بزوالها وغسق الليل بمنتصفه ، وسيجيء الإشارة الى الروايات في البحث الروائي الآتي إن شاء الله .

وعليه فالآية تشمل من الوقت ما بين زوال الشمس ومنتصف الليل ، والواقع في هذا المقدار من الوقت من الفرائض اليومية أربع صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء الآخرة . وبانضمام صلاة الصبح المدلول عليها بقوله : « وقرآن الفجر » الخ ؛ إليها تتم الصلوا الخمس اليومية .

وقوله : « وقرآن الفجر » معطوف على الصلاة أي وأقم قرآن الفجر والمراد به صلاة الصبح لما تشتمل عليه من القرائة وقد اتفقت الروايات على ان صلاة الصبح هي المراد بقرآن الفجر .

وكذا اتفقت الروايات من طرق الفريقين على تفسير قوله ذيلا : «إن قرآن الفجر كان مشهوداً» بأنه يشهده ملائكة الليل وملائكة النهار ، وسنشير الى بعض هذه الروايات عن

قريب إن شاء الله.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً﴾ التهجد من الهجود وهو النوم في الأصل ومعنى التهجد التيقظ والسهر بعد النوم على ما ذكره غير واحد منهم، والضمير في «به» للقرآن أو للبعض المفهوم من قوله: «ومن الليل» والنافلة من النفل وهو الزيادة، وربما قيل: إن قوله: «ومن الليل» من قبيل الاغراء نظير قولنا: عليك بالليل، والفاء في قوله: «فتهجد به» نظير قوله: ﴿فإياي فارهبون﴾ (النحل / ٥١).

والمعنى: واسهر بعض الليل بعد نومتك بالقرآن ـ وهو الصلاة ـ حالكونها صلاة زائدة لك على الفريضة.

وقوله: ﴿عَسىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً﴾ من الممكن أن يكون المقام مصدراً ميمياً وهو البعث فيكون مفعولاً مطلقاً من غير لفظه، والمعنى عسى أن يبعثك ربك بعثاً محموداً، ومن الممكن أن يكون اسم مكان والبعث بمعنى الاقامة أو مضمناً معنى الاعطاء ونحوه، والمعنى عسى أن يقيم ربك في مقام محمود أو يبعثك معطياً لك مقاماً محموداً أو يعطيك باعثاً مقاماً محموداً.

وقد وصف سبحانه مقامه بأنه محمود وأطلق القول من غير تقييد وهو يفيد أنه مقام يحمده الكل ولا يثني عليه الكل إلا إذا استحسنه الكل وانتفع به الجميع ولذا فسروا المقام المحمود بأنه المقام الذي يحمده عليه جميع الخلائق وهو مقام الشفاعة الكبرى له ﷺ يوم القيامة وقد اتفقت على هذا التفسير الروايات من طرق الفريقين عن النبي ﷺ وأئمة أهل البيت عليهم السلام.

قوله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَاناً نَصِيراً﴾ المدخل بضم الميم وفتح الخاء مصدر ميمي

بمعنى الادخال ونظيره المخرج بمعنى الاخراج، والعناية في إضافة الادخال والاخراج الى الصدق أن يكون الدخول والخروج في كل أمر منعوتاً بالصدق جارياً على الحقيقة من غير أن يخالف ظاهره باطنه أو يضاد بعض أجزائه بعضاً كأن يدعو الانسان بلسانه الى الله وهو يريد بقلبه أن يسود الناس أو يخلص في بعض دعوته لله ويشرك في بعضها غيره.

وبالجملة هوأن يرى الصدق في كل مدخل منه ومخرج ويستوعب وجوده فيقول ما يفعل ويفعل ما يقول ولا يقول ولا يفعل إلا ما يراه ويعتقد به، وهذا مقام الصديقين. ويرجع المعنى الى نحو قولنا: اللهم تول أمري كما تتولى أمر الصديقين.

وقوله: «واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً» اي سلطنة بنصرتي على ما أهم به من الامور وأشتغل به من الأعمال فلا أغلب في دعوتي بحجة باطلة، ولا أفتتن بفتنة أو مكر يمكرني به أعداؤك ولا أضل بنزغ شيطان ووسوسته.

والآية ـ كما ترى ـ مطلقة تأمر النبي ﷺ أن يسأل ربه أن يتولى أمره في كل مدخل ومخرج بالصدق ويجعل له سلطاناً من عنده ينصره فلا يزيغ في حق ولا يظهر بباطل فلا وجه لما ذكره بعض المفسرين أن المراد بالدخول والخروج دخول المدينة بالهجرة والخروج منها الى مكة للفتح أو أن المراد بهما دخول القبر بالموت والخروج منه بالبعث.

نعم لما كانت الآية بعد قوله: «وإن كادوا ليفتنونك» و«وإن كادوا ليستفزونك» وفي سياقهما، لوحت الى أمره ﷺ أن يلتجيء الى ربه في كل أمر يهم به أو يشتغل به من امور الدعوة، وفي الدخول والخروج في كل مكان يسكنه أو يدخله او يخرج منه وهو ظاهر.

قوله تعالى: ﴿وَقُلْ جَاءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَاطِلُ إِنَّ ٱلْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً﴾ قال في المجمع: الزهوق هو الهلاك والبطلان يقال: زهقت نفسه اذا خرجت فكأنها قد خرجت الى الهلاك. انتهى والمعنى ظاهر.

وفي الآية أمره ﷺ بإعلام ظهور الحق وهو لوقوع الآية في سياق ما مر من قوله: «وإن

كادوا ليفتنونك » الى آخر الآيات ؛ أمر بإيآس المشركين من نفسه وتنبيههم أن يوقنوا أن لامطمع لهم فيه ﷺ.

وفي الآية دلالة على أن الباطل لا دوام له كما قال تعالى في موضع آخر: ﴿ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار﴾ (إبراهيم / ٢٦).[١]

٨٢ ❁ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرآنِ مَا هُوَ شِفاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَاراً.

٨٣ ❁ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَآ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَؤُساً.

٨٤ ❁ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلىٰ شاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدىٰ سَبِيلاً.

٨٥ ❁ وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً.

٨٦ ❁ وَلَئِنْ شِئْنا لَنَذهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلاً.

٨٧ ❁ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيراً.

٨٨ ❁ قُلْ لَئِنِ ٱجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَٱلْجِنُّ عَلىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هٰذَا ٱلْقُرآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً.

---

١. الاسراء ٧٣ ـ ٨١: بحث روائي في: الخمس: الشفاعة.

٨٩ • وَلَقَدْ صَرَّفْنا لِلنَّاسِ فِي هٰذَا ٱلقُرآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُوراً.

٩٠ • وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنا مِنَ ٱلأَرضِ يَنْبُوعاً.

٩١ • أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلأَنْهارَ خِلالَهَا تَفْجِيراً.

٩٢ • أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَاءَ كَما زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللّٰهِ وَٱلمَلائِكَةِ قَبِيلاً.

٩٣ • أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقىٰ فِي ٱلسَّماءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَراً رَسُولاً.

٩٤ • وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذ جاءَهُمُ الهُدىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللّٰهُ بَشَراً رَسُولاً.

٩٥ • قُلْ لَوْ كَانَ فِي الأَرضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّماءِ مَلَكاً رَسُولاً.

٩٦ • قُلْ كَفىٰ بِاللّٰهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً.

٩٧ • وَمَنْ يَهْدِ اللّٰهُ فَهُوَ ٱلمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيامَةِ عَلىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً وَصُمّاً وَمَأْوٰيهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّما خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيراً.

٩٨ ● ذٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِـآيَاتِنَا وَقَـالُوا أَإِذا كُـنَّا عِـظَاماً
وَرُفَاتاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً.
٩٩ ● أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللّٰهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرضَ قَادِرٌ عَلىٰ
أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لاٰ رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ
إِلَّا كُفُوراً.
١٠٠ ● قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذاً لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ
الْإِنْفاقِ وَكَانَ ٱلْإِنْسانُ قَتُوراً.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرآنِ مٰا هُوَ شِفٰاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَاراً﴾ من بيانية تبين الموصول أعني قوله: «ما هو شفاء» الخ؛ أي وننزل ما هو شفاء ورحمة وهو القرآن.

وعد القرآن شفاء والشفاء انما يكون عن مرض دليل على أن للقلوب أحوالاً نسبة القرآن اليها نسبة الدواء الشافي الى المرض، وهو المستفاد من كلامه سبحانه حيث ذكر أن الدين الحق فطري للانسان فكما أن للبنية الانسانية التي سويت على الخلقة الأصلية قبل أن يلحق بها أحوال منافية وآثار مغاية للتسوية الأولية استقامة طبيعية تجري عليها في أطوار الحياة كذلك لها بحسب الخلقة الأصلية عقائد حقة في المبدء والمعاد وما يتفرع عليها من اصول المعارف، وأخلاق فاضلة زاكية تلائمها ويترتب عليها من الأحوال والأعمال ما يناسبها.

فللانسان صحة واستقامة روحية معنوة كما أن له صحة واستقامة جسمية صورية. وله

أمراض وأدواء روحية باختلال أمر الصحة الروحية كما أن له أمراضاً وأدواء جسمية باختلال أمر الصحة الجسمية ولكل داء دواء ولكل مرض شفاء.

وقد ذكر الله سبحانه في اناس من المؤمنين أن في قلوبهم مرضاً وهو غير الكفر والنفاق الصريحين كما يدل عليه قوله: ﴿لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم﴾ (الأحزاب / ٦٠) وقوله: ﴿وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا﴾ (المدثر / ٣١).

وليس هذا المسمى مرضاً الا ما يختل به ثبات القلب واستقامة النفس من أنواع الشك والريب الموجبة لاضطراب الباطن وتزلزل السر والميل الى الباطل واتباع الهوى مما يجامع ايمان عامة المؤمنين من أهل أدنى مراتب الايمان ومما هو معدود نقصاً وشركاً بالاضافة الى مراتب الايمان العالية، وقد قال تعالى: ﴿وما يؤمن أكثرهم بالله الا وهم مشركون﴾ (يوسف / ١٠٦) وقال: ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لايجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليما﴾ (النساء / ٦٥).

والقرآن الكريم يزيل بحججه القاطعة وبراهينه الساطعة أنواع الشكوك والشبهات المعترضة في طريق العقائد الحقة والمعارف الحقيقية ويدفع بمواعظه الشافية وما فيه من القصص والعبر والأمثال والوعد والوعيد والانذار والتبشير والأحكام والشرائع عاهات الأفئدة وآفاتها فالقرآن شفاء للمؤمنين.

واما كونه رحمة للمؤمنين ـ والرحمة افاضة ما يتم به النقص ويرتفع به الحاجة ـ فلأن القرآن ينور القلوب بنور العلم واليقين بعدما يزيل عنها ظلمات الجهل والعمى والشك والريب، ويحليها بالملكات الفاضلة والحالات الشريفة الزاكية بعدما يغسل عنها أوساخ الهيآت الردية والصفات الخسيسة.

فهو بما انه شفاء يزيل عنها انواع الأمراض والأدواء، وبما انه رحمة يعيد اليها ما افتقدته

من الصحة والاستقامة الأصلية الفطرية فهو بكونه شفاء يطهر المحل من الموانع المضادة للسعادة ويهيئها لقبولها، وبكونه رحمة يلبسه لباس السعادة وينعم عليه بنعمة الاستقامة.

فالقرآن شفاء ورحمة للقلوب المريضة كما انه هدى ورحمة للنفوس غير الآمنة من الضلال، وبذلك يظهر النكتة في ترتب الرحمة على الشفاء في قوله: **﴿ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين﴾** فهو كقوله: **﴿هدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾** (يوسف / ١١١) وقوله: **﴿ومغفرة ورحمة﴾** (النساء / ٩٦).

فمعنى قوله: «وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين» وننزل اليك امراً يشفي امراض القلوب ويزيلها ويعيد اليها حالة الصحة والاستقامة فتتمتع من نعمة السعادة والكرامة.

وقوله: **﴿وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَاراً﴾** السياق دال على ان المراد به بيان ما للقرآن من الأثر في غير المؤمنين قبال ماله من الاثر الجميل في المؤمنين فالمراد بالظالمين غير المؤمنين وهم الكفار دون المشركين خاصة كما يظهر من بعض المفسرين وانما علق الحكم بالوصف اعني الظلم ليشعر بالتعليل اي ان القرآن انما يزيدهم خسارا لمكان ظلمهم بالكفر.

والخسار هو النقص في رأس المال فللكفار رأس مال بحسب الأصل وهو الدين الفطري تلهم به نفوسهم الساذجة ثم إنهم بكفرهم بالله وآياته خسروا فيه ونقصوا. ثم إن كفرهم بالقرآن وإعراضهم عنه بظلمهم يزيدهم خساراً على خسار ونقصاً على نقص إن كانت عندهم بقية من موهبة الفطرة، والى هذه النكتة يشير سياق النفي والاستثناء حيث قيل: «ولا يزيد الظالمين الا خساراً» ولم يقل: ويزد الظالم خسارا.

وبه يظهر أن محصل معنى الآية أن القرآن يزيد المؤمنين صحة واستقامة على صحتهم واستقامتهم بالإيمان وسعادة على سعادتهم وإن زاد الكافرين شيئاً فإنما يزيدهم نقصاً

وخساراً.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَآ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَؤُساً﴾ قال في المفردات: العرض خلاف الطول وأصله أن يقال في الأجسام ثم يستعمل في غيرها ـ الى أن قال ـ وأعرض أظهر عرضه أي ناحيته فاذا قيل: أعرض لي كذا أي بدا عرضه فأمكن تناوله، وإذا قيل: أعرض عني فمعناه ولي مبدياً عرضه. انتهى موضع الحاجة.

والنأي البعد ونآى بجانبه أي اتخذ لنفسه جهة بعيدة منا، ومجموع قوله: «أعرض ونآى بجانبه» يمثل حال الإنسان في تباعده وانقطاعه من ربه عندما ينعم عليه. كمن يحول وجهه عن صاحبه ويتخذ لنفسه موقفاً بعيداً منه، وربما ذكر بعض المفسرين أن قوله: «نآى بجانبه» كناية عن الاستكبار والاستعلاء.

وقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كانَ يَؤُساً﴾ أي وإذا أصابه الشر إصابة خفيفة كالمس كان آيساً منقطع الرجال عن الخير وهو النعمة، ولم ينسب الشر إليه تعالى كما نسب النعمة تنزيها له تعالى من أن يسند إليه الشر، ولأن وجود الشر أمر نسبي لا نفسي فما يتحقق من الشر في العالم كالموت والمرض والفقر والنقص وغير ذلك انما هو شر بالنسبة الى مورده، وأما بالنسبة الى غيره وخاصة النظام العام الجاري في الكون فهو من الخير الذي لا مناص عنه في التدبير الكلي فما كان من الخير فهو مما تعلقت به بعينه العناية الإلهية وهو مراد بالذات، وما كان من الشر فهو مما تعلقت به العناية لغيره وهو مقضي بالعرض.

فالمعنى إنا إذا أنعمنا على الإنسان هذا الموجود الواقع في مجرى الأسباب اشتغل بظواهر الأسباب واخلد إليها فنسينا فلم يذكرنا ولم يشكرنا، وإذا ناله شيء يسير من الشر فسلب منه الخير وزالت عنه أسبابه ورأى ذلك كان شديد اليأس من الخير لكونه متعلقاً بأسبابه

وهو يرى بطلان أسبابه ولا يرى لربه في ذلك صنعاً[١].

قوله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلاً﴾ المشاكلة ـ على ما في المفردات ـ من الشكل وهو تقييد الدابة، ويسمى ما يقيد به شكالا بكسر الشين. والشاكلة هي السجية سمي بها لتقييدها الإنسان أن يجري على ما يناسبها وتقتضيه.

وفي المجمع: الشاكلة الطريقة والمذهب يقال: هذا طريق ذو شواكل أي ينشعب منه طرق جماعة وانتهى. وكأن تسميتها بها لما فيها من تقييد العابرين والمنتحلين بالتزامها وعدم التخلف عنها وقيل: الشاكلة من الشكل بفتح الشيخ بمعنى المثل وقيل: إنها من الشكل بكسر الشين بمعنى الهيئة.

وكيف كان فالآية الكريمة ترتب عمل الإنسان على شاكلته بمعنى أن العمل يناسبها ويوافقها، فهي بالنسبة الى العمل كالروح السارية في البدن الذي يمثل بأعضائه وأعماله هيآت الروح المعنوية وقد تحقق بالتجارب والبحث العلمي أن بين الملكات والأحوال النفسانية وبين الأعمال رابطة خاصة فليس يتساوى عمل الشجاع الباسل والجبان إذا حضرا موقفاً هائلاً، ولا عمل الجواد الكريم والبخيل اللئيم في مواد الانفاق وهكذا، وأن بين الصفات النفسانية ونوع تركيب البنية الإنسانية رابطة خاصة فمن الأمزجة ما يسرع اليه الغضب وحب الانتقام بالطبع ومنها ما تغلي وتفور فيه شهوة الطعام أو النكاح أو غير ذلك بحيث تتوق نفسه بأدنى سبب يدعوه ويحركه، ومنها غير ذلك فيتخلف انعقاد الملكات بحسب ما يناسب المورد سرعة وبطئاً[٢][٣].

---

١. الاسراء ٨٢ـ١٠٠: بحث فلسفي في الشرور.

٢. الاسراء ٨٢ـ١٠٠: بحث في: شاكلة الانسان؛ الارتباط بين الاعمال والملكات وبين الذوات.

٣. الاسراء ٨٢ـ١٠٠: بحث فلسفي في سنخية وجودية ورابطة ذاتية بين الفعل وفاعله.

قوله تعالى: ﴿وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً﴾ الروح على ما يعرف في اللغة هو مبدء الحياة الذي به يقوى الحيوان على الإحساس والحركة الإرادية ولفظه يذكر ويؤنث، وربما يتجوز فيطلق على الامور التي يظهر بها آثار حسنة مطلوبة كما يعد العلم حياة للنفوس قال تعالى: ﴿أو من كان ميتاً فأحييناه﴾ (الأنعام / ١٢٢) أي بالهداية الى الإيمان وعلى هذا المعنى حمل جماعة مثل قوله: ﴿ينزل الملائكة بالروح من أمره﴾ (النحل / ٢) أي بالوحي وقوله: ﴿وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا﴾ (الشورى / ٥٢) أي القرآن الذي هو وحي فذكروا أنه تعالى سمى الوحي أو القرآن روحاً لأن به حياة النفوس الميتة كما أن الروح المعروف به حياة الأجساد الميتة[1].

قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلاً﴾ الكلام متصل بما قبله فإن الآية السابقة وإن كانت متعرضة لأمر مطلق الروح وهو ذو مراتب مختلفة إلا أن الذي ينطبق عليه منه بحسب سياق الآيات السابقة المسوقة في أمر القرآن هو الروح السماوي النازل على النبي ﷺ الملقي اليه القرآن.

فالمعنى ـ والله أعلم ـ الروح النازل عليك الملقي بالقرآن اليك من أمرنا غير خارج من قدرتنا، وأقسم لئن شئنا لنذهبن بهذا الروح الذي هو كلمتنا الملقاة إليك ثم لا تجد أحداً يكون وكيلا به لك علينا يدافع عنك ويطالبنا به ويجبرنا على رد ما أذهبنا به.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيراً﴾ استثناء من محذوف يدل عليه السياق، والتقدير فما اختصصت بما اختصصت به ولا اعطيت ما اعطيت من نزول الروح وملازمته إياك إلا رحمة من ربك، ثم علله بقوله: «إن فضله كان عليك كبيراً» وهو وارد مورد الامتنان.

---

١. الاسراء ٨٢ـ ١٠٠: بحث في الروح.

قوله تعالى: ﴿قُلْ لَئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنْسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ الظهر هو المعين مأخوذ من الظهر كالرئيس من الرأس، وقوله: «بمثله» من وضع الظاهر موضع المضمر وضميره عائد الى القرآن.

وفي الآية تحد ظاهر، وهي ظاهرة في أن التحدي بجميع ما للقرآن من صفات الكمال الراجعة الى لفظه ومعناه لا بفصاحته وبلاغته وحدها فإن انضمام غير أهل اللسان اليهم لا ينفع في معارضة البلاغة شيئاً وقد اعتنت الآية باجتماع الثقلين وإعانة بعضهم لبعض.

على أن الآية ظاهرة في دوام التحدي وقد انقرضت العرب العرباء أعلام الفصاحة والبلاغة اليوم فلا أثر منهم، والقرآن باق على إعجازه متحد بنفسه كما كان.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُوراً﴾ تصريف الأمثال ردها وتكرارها وتحويلها من بيان الى بيان ومن اسلوب الى اسلوب، والمثل هو وصف المقصود بما يمثله ويقربه من ذهن السامع، و«من» في قوله: «من كل مثل» لابتداء الغاية، والمراد من كل مثل يوضح لهم سبيل الحق ويمهد لهم طريق الإيمان والشكر بقرينة قوله: «فأبى أكثر الناس إلا كفوراً» والكلام مسوق للتوبيخ والملامة.

وفي قوله: «أكثر الناس» وضع الظاهر موضع المضمر والأصل أكثرهم ولعل الوجه فيه الإشارة الى أن ذلك مقتضى كونهم ناساً كما مر في قوله: ﴿وكان الإنسان كفوراً﴾ (الإسراء / ٦٧).

والمعنى: واقسم لقد كررنا للناس في هذا القرآن من كل مثل يوضح لهم الحق ويدعوهم الى الإيمان بنا والشكر لنعمنا فأبى اكثر الناس إلا ان يكفروا ولا يشكروا.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنْبُوعاً﴾ ـ الى

قوله ـ كِتَاباً نَقْرَؤُهُ ﴾ الفجر الفتح والشق وكذلك التفجير إلا انه يفيد المبالغة والتكثير، والينبوع العين التي لا ينضب ماؤها، وخلال الشيء وسطه واثناؤه، والكسف جمع كسفة كقطع جمع قطعة وزناً ومعنى، والقبيل هو المقابلة كالعشير والمعاشر، والزخرف الذهب، والرقي الصعود والإرتقاء.

والآيات تحكى الآيات المعجزة التي اقترحتها قريش على النبي ﷺ وعلقوا ايمانهم به عليها مستهينة بالقرآن الذي هو معجزة خالدة.

والمعنى «وقالوا» اي قالت قريش: «لن نؤمن لك» يا محمد «حتى تفجر» وتشق «لنا من الأرض» ارض مكة لقلة مائها «ينبوعاً» عيناً لا ينضب ماؤها «او تكون» بالإعجاز ﴿لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار﴾ اي تشقها او تجريها «خلالها» اي وسط تلك الجنة واثناءها «تفجيرا» «او تسقط السماء كما زعمت» اي مماثلا لما زعمت يشيرون[1] به الى قوله تعالى: ﴿او نسقط عليهم كسفاً من السماء﴾ (سبأ / ٩) «علينا كسفاً» وقطعاً «أو تأتي بالله والملائكة قبيلا» مقابلا نعاينهم ونشاهدم «أو يكون لك بيت من زخرف» وذهب «أو ترقى» وتصعد «في السماء ولن نؤمن لرقيك» وصعودك «حتى تنزل علينا» منها «كتاباً نقرؤه» ونتلوه.

قوله تعالى: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَراً رَسُولاً﴾ فيه امره ﷺ ان يجيب عما اقترحوه عليه وينبههم على جهلهم ومكابرتهم فيما لا يخفى على دي نظر فإنهم سألوه اموراً عظاماً لا يقوى على اكثرها إلا القدرة الغيبية الإلهية وفيها ما هو مستحيل بالذات كالاتيان بالله والملائكة قبيلا، ولم يرضوا بهذا المقدار ولم يقنعوا به دون ان جعلوه هو المسؤل المتصدي لذلك المجيب لما سألوه فلم يقولوا لن نؤمن لك حتى تسأل ربك ان يفعل كذا وكذا بل

---

١. فالآيه لا تخلو من دلالة على تقدم سورة سبأ على هذه السورة نزولا.

قالوا: «لن نؤمن لك حتى تفجر» الخ؛ «او تكون لك» الخ: «او تسقط السماء» الخ؛ «او تأتي بالله» الخ؛ «او يكون لك» الخ؛ «او ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه».

قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جاءَهُمُ الهُدىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَراً رَسُولاً﴾ الاستفهام في قوله: «أبعث الله بشراً رسولاً» للانكار، وجملة «قالوا أبعث الله» الخ: حكاية حالهم بحسب الاعتقاد وان لم يتكلموا بهذه الكلمة بعينها.

وانكار النبوة والرسالة من اثبات الاله من عقائد الوثنية، وهذه قرينة على أن المراد بالناس الوثنيون، والمراد بالايمان الذي منعوه هو الايمان بالرسول.

فمعنى الآية وما منع الوثنيين ـ وكانت قريش وعامة العرب يومئذ منهم ـ أن يؤمنوا بالرسالة ـ أو برسالتك ـ إلا إنكارهم لرسالة البشر، ولذلك كانوا يردون على رسلهم دعوتهم ـ كما حكاه الله ـ بمثل قولهم: ﴿ لو شاء ربنا لأنزل ملائكة فإنا بما أُرسلتم به كافرون﴾ (حم السجدة / ١٤).

قوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ فِي الأَرضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّماءِ مَلَكاً رَسُولاً﴾ أمر سبحانه رسوله ﷺ أن يرد عليهم قولهم وإنكارهم لرسالة البشر ونزول الوحي بأن العناية الإلهية قد تعلقت بهداية أهل الأرض ولا يكون ذلك إلا بوحي سماوي لا من عند أنفسهم فالبشر القاطنون في الأرض لا غنى لهم عن وحي سماوي بنزول ملك رسول إليهم ويختص بذلك نبيهم.

وهذه خاصة الحياة الأرضية والعيشة المادية المفتقرة الى هداية إلهية لا سبيل إليها إلا بنزول الوحي من السماء حتى لو أن طائفة من الملائكة سكنوا الأرض وأخذوا يعيشون عيشة أرضية مادية لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا كما ننزل على البشر ملكاً رسولا.

والعناية في الآية الكريمة ـ كما ترى ـ متعلقة بجهتين إحداهما كون الحياة أرضية مادية،

والاخرى كون الهداية الواجبة بالعناية الإلهية بوحي نازل من السماء برسالة ملك من الملائكة.

والأمر على ذلك، فهاتان الجهتان أعني كون حياة النوع أرضية مادية ووجوب هدايتهم بواسطة سماوية وملك علوي هما المقدمتان الأصليتان في البرهان على وجود الرسالة ولزومها[١].

والآية بما تعطي من معنى الرسالة يؤيد ما ورد عن أئمة أهل البيت عليهم السلام في الفرق بين الرسول والنبي أن الرسول هو الذي يرى الملك ويسمع منه، والنبي يرى المنام ولا يعاين، وقد أوردنا بعض هذه الأخبار في خلال أبحاث النبوة في الجزء الثاني من الكتاب.

ومن ألطف التعبير في الآية وأوجزه تعبيره عن الحياة الأرضية بقوله: «في الأرض يمشون مطمئنين» فإن الانتقال المكاني على الأرض مع الوقوع تحت الجاذبه الأرضية من أوضح خواص الحياة المادية الأرضية.

قوله تعالى: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً﴾ لما احتج عليهم بما احتج وبين لهم ما بين في أمر معجزة رسالته وهي القرآن الذي تحدى به وهم على عنادهم وجحودهم وعنتهم لا يعتنون به ويقترحون عليه بأمور جزافية أُخرى ولا يحترمون لحق ولا ينقطعون عن باطل أمر أن يرجع الأمر الى شهادة الله فهو شهيد بما وقع منه ومنهم فقد بلغ ما ارسل به ودعا واحتج وأعذر وقد سمعوا وتمت عليهم الحجة واستكبروا وعتوا فالكلام في معنى اعلام قطع المحاجة وترك المخاصمة ورد الأمر الى مالك الامر فليقض ما هو قاض.

---

١. الاسراء ٨٢ ـ ١٠٠: بحث في وجوب كون الرسول من جنس المرسل اليهم ومن انفسهم كالانسان والملك للملك.

وهذه الآية والآيتان قبلها مسجعة بقوله: «رسولاً» وهو المورد الوحيد في القرآن الذي اتفقت فيه ثلاث آيات متوالية في سجع واحد على ما نذكر.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ﴾ الخ: هو ـ على ما يشعر به السياق ـ من تتمة الخطاب الأخير للنبي ﷺ بقوله: «قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم» فهو كناية عن أنه تمت عليهم الحجة وحقت عليهم الضلالة فلا مطمع في هدايتهم.

ومحصل المعنى: خاطبهم باعلام قطع المحاجة فإن الهداية لله لا يشاركه فيها أحد فمن هداه فهو المهتدي لا غير ومن أضله ولم يهده فلن تجد يا محمد له أولياء من دونه يهدونه والله لا يهدي هؤلاء فانقطع عنهم ولا تكلف نفسك في دعوتهم رجاء أن يؤمنوا.

قوله: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ الى آخر الآيتين: العمي والبكم والصم جمع أعمى وأبكم وأصم، وخبوّ النار وخبوها سكون لهبها، والسعير لهب النار، والمعنى ظاهر.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ الى آخر الآية: الكفور الجحود. احتجاج منه تعالى على البعث بعد الموت فقد كان قولهم: ﴿ءإذا كنا عظاماً ورفاتاً ءإنا لمبعوثون خلقاً جديداً﴾ استبعاداً مبنياً على إحالة أن يعود هذا البدن الدنيوي بعد تلاشيه وصيرورته عظاماً ورفاتاً الى ما كان عليه بخلق جديد فاحتج عليهم بأن خلق البدن أولاً يثبت القدرة عليه وعلى مثله الذي هو الخلق الجديد للبعث فحكم الأمثال واحد.

وقوله: ﴿وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ الظاهر أن المراد بالأجل هو زمان الموت فإن الأجل إما مجموع مدة الحياة الدنيا وهي محدودة بالموت وإما آخر زمان الحياة ويقارنه الموت وكيف كان فالتذكير بالموت الذي لا ريب فيه ليعتبروا به ويكفوا عن الجرأة على الله

وتكذيب آياته فهو قادر على بعثهم والانتقام منهم بما صنعوا.

فقوله: «وجعل لهم أجلا لا ريب فيه» ناظر الى قوله في صدر الآية السابقة: ﴿ذلك جزاؤهم بأنهم كفروا بآياتنا﴾ فهو نظير قوله: ﴿والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يشعرون ـ الى أن قال ـ أو لم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض ـ الى أن قال ـ وان عسى أن يكون قد اقترب أجلهم فبأي حديث بعده يؤمنون﴾ (الأعراف / ١٨٥).

قوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذاً لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفاقِ وَكانَ الْإِنْسانُ قَتُوراً﴾ فسر القتول بالبخيل المبالغ في الامساك وقال في المجمع: القتر التضييق والقتور فعول منه للمبالغة، ويقال: قتر يقتر وتقتر وأقتر وقترّ إذا قدّر في النفقة. انتهى.

وهذا توبيخ لهم على منعهم رسالة البشر المنقول عنهم سابقاً بقوله: ﴿وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله ملكاً رسولا﴾ ومعنى الآية ظاهر[1].

١٠١ • وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسىٰ تِسْعَ آياتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يا مُوسىٰ مَسْحُوراً.

١٠٢ • قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ ما أَنْزَلَ هٰؤُلاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمٰواتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُوراً.

١٠٣ • فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعاً.

١٠٤ • وَقُلْنا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنا بِكُمْ لَفِيفاً.

---

١. الإسراء ٨٢ـ ١٠٠: بحث روائي في الروح.

١٠٥ ❁ وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّراً وَنَذِيراً.

١٠٦ ❁ وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً.

١٠٧ ❁ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّداً.

١٠٨ ❁ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً.

١٠٩ ❁ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً.

١١٠ ❁ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمٰنَ أَيّاً ما تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذٰلِكَ سَبِيلاً.

١١١ ❁ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً.

بيان:

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُوراً﴾ الذي اوتي موسى عليه السلام من الآيات على ما يقصه القرآن أكثر من تسع غير أن الآيات التي أتى بها لدعوة فرعون فيما يذكره القرآن تسع وهي: العصا واليد والطوفان والجراد والقمل والضفدع والدم والسنون ونقص من الثمرات فالظاهر أنها هي المرادة بالآيات التسع المذكورة في الآية وخاصة مع ما فيها من محكى قول موسى لفرعون: ﴿**لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر**﴾ وأما غير هذه الآيات كالبحر والحجر وإحياء المقتول بالبقره وإحياء من أخذته

الصاعقة من قومه ونتق الجبل فوقهم وغير ذلك فهي خارجة عن هذه التسع المذكورة في الآية.

ولا ينافي ذلك كون الآيات إنما ظهرت تدريجاً فإن هذه المحاورة مستخرج من مجموع ما تخاصم به موسى وفرعون طول دعوته.

ولعل مخالفة التوراة لظاهر القرآن في الآيات التسع هي الموجبة لترك تفصيل الآيات التسع في الآية ليستقيم الأمر بالسؤال من اليهود لأنهم مع صريح المخالفة لم يكونوا ليصدقوا القرآن بل كانوا يبادرون الى التكذيب قبل التصديق.

قوله تعالى: ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسىٰ مَسْحُوراً﴾ أي سحرت فاختل عقلك وهذا في معنى قوله المنقول في موضع آخر: ﴿إن رسولكم الذي ارسل إليكم لمجنون﴾ (الشعراء / ٢٧) وقيل: المراد بالمسحور الساحر نظير الميمون والمشوم بمعنى اليامن والشائم وأصله استعمال وزن الفاعل في النسبة ومعنى الآية ظاهر.

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هٰؤُلاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمٰوٰاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُوراً﴾ المثبور الهالك وهو من الثبور بمعنى الهلاك. والمعنى قال موسى مخاطباً لفرعون: لقد علمت يا فرعون ما أنزل هؤلاء الآيات البينات إلا رب السموات والأرض أنزلها بصائر يتبصر بها ليتميز الحق من الباطل وإني لأظنك يا فرعون هالكاً بالأخرة لعنادك وجحودك.

وإنما أخذ الظن دون اليقين لأن الحكم لله وليوافق ما في كلام فرعون: «وإني لأظنك يا موسى» الخ؛ ومن الظن ما يستعمل في مورد اليقين.

قوله تعالى: ﴿فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعاً﴾ الاستفزاز الازعاج والإخراج بعنف، ومعنى الآية ظاهر.

قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ

الْآخِرَةِ جِئْنا بِكُمْ لَفِيفاً ﴾ المراد بالأرض التي أُمروا أن يسكنوها هي الأرض المقدسة التي كتبها الله لهم بشهادة قوله: ﴿ ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ﴾ (المائدة / ٢١)، وغير ذلك كما أن المراد بالأرض في الآية السابقة مطلق الأرض أو أرض مصر بشهادة السياق.

وقوله: ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ ﴾ أي وعد الكرة الآخرة أو الحياة الآخرة والمراد به على ما ذكره المفسرون يوم القيامة، وقوله: «جئنا بكم لفيفاً» أي مجموعاً ملفوفاً بعضكم ببعض.

والمعنى: وقلنا من بعد فرعون لبني إسرائيل اسكنوا الأرض المقدسة ـ وكان فرعون يريد أن يستفزهم من الأرض ـ فاذا كان يوم القيامة جئنا بكم ملتفين مجتمعين للحساب وفصل القضاء.

وليس ببعيد أن يكون المراد بوعد الآخرة ما ذكره الله سبحانه في أول السورة فيما قضى الى بني إسرائيل بقوله: ﴿ **فإذا جاء وعد الآخرة ليسؤوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علوا تتبيرا** ﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّراً وَنَذِيراً ﴾ لما فرغ من التنظير رجع الى ما كان عليه من بيان حال القرآن وذكر أوصافه فذكر أنه أنزله انزالاً مصاحباً للحق وقد نزل هو من عنده نزولاً مصاحباً للحق فهو مصون من الباطل من جهة من أنزله فليس من لغو القول وهذره ولا داخله شيء يمكن أن يفسده يوماً ولا شاركه فيه أحد حتى ينسخه في قوت من الأوقات وليس النبي ﷺ الا رسولاً منه تعالى يبشر به وينذر وليس له أن يتصرف فيه بزيادة أو نقيصة أو يتركه كلا أو بعضاً باقتراح من الناس أو هوى من نفسه أو يعرض عنه فيسأل الله آية أُخرى فيها هواه أو هوى الناس أو يداهنهم فيه أو يسامحهم في شيء من معارف وأحكامه كل ذلك لأنه حق صادر عن مصدر

حق، وماذا بعد الحق الا الضلال.

فقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ﴾ الخ؛ متمم للكلام السابق، ومحصله أن القرآن آية حقة ليس لأحد أن يتصرف فيه شيئاً من التصرف والنبي وغير في ذلك سواء.

قوله تعالى: ﴿وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَىٰ النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً﴾ معطوف على ما قبله أي أنزلناه بالحق وفرقناه قرآناً، قال في المجمع: معنى فرقناه فصلناه ونزلناه آية آية وسورة سورة ويدل عليه قوله: «على مكث» والمكث ـ بضم الميم ـ والمكث ـ بفتحها ـ لغتان. انتهى.

فاللفظ بحسب نفسه يعم نزول المعارف القرآنية التي هي عند الله في قالب الألفاظ والعبارات التي لا تتلقى الا بالتدريج ولا تتعاطى الا بالمكث والتؤدة ليسهل على الناس تعقله وحفظه على حد قوله: ﴿انا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون وانه في أُم الكتاب لدينا لعلي حكيم﴾ (الزخرف / ٤).

قوله تعالى: ﴿قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا﴾ الى آخر الآيات الثلاث، والمراد بالذين اوتوا العلم من قبله هم الذين تحققوا بالعلم بالله وآياته من قبل نزول القرآن سواء كانوا من اليهود او النصارى أو غيرهم فلا موجب للتخصيص اللهم الا ان يقال: ان السياق يفيد كون هؤلاء من اهل الحق والدين غير المنسوخ يومئذ هو دين المسيح عليه السلام فهم أهل الحق من علماء النصرانية الذين لم يزيغوا ولم يبدلوا.

وعلى أي حال المراد من كونهم اوتوا العلم من قبله أنهم استعدوا لفهم كلمة الحق وقبولها لتجهزهم بالعلم بحقيقة معناه وايراثه اياهم وصف الخشوع فيزيدهم القرآن المتلو عليهم خشوعاً.

وقوله: ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّداً﴾ الأذقان جمع ذقن وهو مجمع اللحيين من الوجه، والخرور للأذقان السوق على الارض على أذقانهم للسجدة كما يبينه قوله: «سجداً» وانما

اعتبرت الأذقان لأن الذقن أقرب أجزاء الوجه من الأرض عند الخرور عليها للسجدة، وربما قيل: المراد بالأذقان الوجوه اطلاقاً للجزء على الكل مجازاً.

وقوله: ﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً﴾ اي ينزهونه تعالى عن كل نقص وعن خلف الوعد خاصة ويعطي سياق الآيات السابقة أن المراد بالوعد وعده سبحانه بالبعث وهذا في قبال اصرار المشركين على نفي البعث وانكار المعاد كما تكرر في الآيات السابقة.

وقوله: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً﴾ تكرار لخرور للأذقان واضافته الى البكاء لإفادة معنى الخضوع وهو التذلل الذي يكون بالبدن كما أن الجملة الثانية لإفادة معنى الخشوع وهو التذلل الذي يكون بالقلب فمحصل الآية أنهم يخضعون ويخشعون.

قوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمٰنَ أَيّاً ما تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنىٰ﴾ لفظة أو للتسوية والاباحة فالمراد بقوله: «الله» و«الرحمان» الاسمان الدالان على المسمى دون المسمى، والمعنى ادعوا باسم الله أو باسم الرحمان فالدعاء دعاؤه.

وقوله: «أيا ما تدعوا» شرط و«ما» صلة للتأكيد نظير قوله: ﴿فبما رحمة من الله﴾ (آل عمران / ١٥٩). وقوله: ﴿عما قليل ليصبحن نادمين﴾ (المؤمنون / ٤٠) و«أيا» شرطية وهي مفعول «تدعوا».

وقوله: ﴿فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنىٰ﴾ جواب الشرط. وهو من وضع السبب موضع المسبب والمعنى أي اسم من الإسمين تدعوه فهو اسم أحسن له لأن الأسماء الحسنى كلها له فالاسماء الدالة على المسميات منها حسنة تدل على ما فيه حسن ومنها قبيحة بخلافها ولا سبيل للقبيح اليه تعالى. والأسماء الحسنة منها ما هو أحسن لا شوب نقص وقبح فيه كالغنى الذي لا فقر معه والحياة التي لا موت معها والعزة التي لا ذلة دونها ومنها ما هو حسن يغلب عليه الحسن من غير محوضة ولله سبحانه الأسماء الحسنى. وهي كل اسم هو أحسن الاسماء في

معناه كما يدل عليه قول أئمة الدين: ان الله تعالى غني لا كالاغنياء، حي لا كالاحياء، عزيز لا كالأعزة، عليم لا كالعلماء وهكذا أي له من كل كمال صرفه ومحضه الذي لا يشوبه خلافه.

والضمير في قوله: «أيا ما تدعوا فله الاسماء الحسنى» عائد الى الذات المتعالية من كل اسم ورسم، وليس براجع الى شيء من الاسمين: الله والرحمان لأن المراد بهما ـ كما تقدم ـ الاسمان دون الذات المتعالية التي هي مسماة بهما ولا معنى لأن يقال: أيا من الاسمين تدعوا فان ذلك الأسم جميع الأسماء الحسنى أو باقي الاسماء الحسنى بل المعنى أيا من اسمائه تدعوا فلا مانع منه لانها جميعاً أسماؤه لانها اسماء حسنى وله الأسماء الحسنى فهي طرق دعوته ودعوتها دعوته فإنها اسماؤه والاسم مرآة المسمى وعنوانه فافهم ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلاً﴾ الجهر والإخفات وصفان متضائفان، يتصف بهما الأصوات، وربما يعتبر بينهما خصلة ثالثة هي بالنسبة الى الجهر إخفات وبالنسبة الى الإخفات جهر فيكون الجهر هو المبالغة في رفع الصوت، والإخفات هو المبالغة في خفضه وما بينهما هو الاعتدال فيكون معنى الآية لا تبالغ في صلاتك في الجهر ولا في الإخفات بل اسلك فيما بينهما سبيلا وهو الإعتدال وتسميته سبيلا لأنه سنة يستن بها هو ومن يقتدي به من أُمته المؤمنين به.

هذا لو كان المراد بالصلاة في قوله: «بصلاتك» للاستغراق والمراد به كل صلاة صلاة، وأما لو أُريد المجموع ولعله الأظهر كان المعنى لا تجهر في صلواتك كلها ولا تخافت فيها كلها بل اتخذ سبيلا وسطاً تجهر في بعض وتخافت في بعض، وهذا المعنى أنسب بالنظر الى ما ثبت في السنة من الجهر في بعض الفرائض اليومية كالصبح والمغرب والعشاء والإخفات في غيرها.

ولعل هذا الوجه أوفق بالنظر الى اتصال ذيل الآية بصدرها فالجهر بالصلاة يناسب كونه تعالى عليا متعاليا والإخفات يناسب كونه قريباً أقرب من حبل الوريد فاتخاذ الخصلتين

جميعاً في الصلوات أداء لحق أسمائه جميعاً.

قوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً﴾ معطوف على قوله في الآية السابقة: «قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمان» ويرجع محصل الكلام الى أن قل إن ما تدعونها من الأسماء وتزعمون أنها آلهة معبودون غيره إنما هي أسماؤه وهي مملوكة له لا تملك أنفسها ولا شيئاً لأنفسها فدعاؤها دعاؤه فهو المعبود على كل حال.

وختم سبحانه الآية بقوله: «وكبره تكبيرا» وقد أُطلق إطلاقا بعد التوصيف والتنزيه فهو تكبيره من كل وصف، ولذا فسر «الله أكبر» بأنه أكبر من أن يوصف على ما ورد عن الصادق ﷺ، ولو كان المعنى أنه أكبر من كل شيء لم يخل من إشراك الأشياء به تعالى في معنى الكبر وهو أعز ساحة أن يشاركه شيء في أمر.

ومن لطيف الصنعة في السورة افتتاح أول آية منها بالتسبيح واختتام آخر آية منها بالتكبير مع افتتاحها بالتحميد[1][2].

---

١. الاسراء ١٠١ ـ ١١١: بحث روائي في اسماء الله الحسنى.

٢. الاسراء ١٠١ ـ ١١١: بحث روائي وقرآني حول قوله تعالى: «وقرآنا فرقناه على الناس على مكث».